عيسى اسكندر المعلوف

دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف

كتاب تاريخي اجتماعي عمومي يحتوي على وصف الوقائع والعادات والأخلاق والشؤون العمرانية وأصول الأسر الشرقية وفروعها ومشاهيرها ومواطنها ومباحث علمية وجغرافية وإحصائية مذيلاً بخمسة فهارس.

إنما التاريخ مرآة العبر   مَثلت فيه روايات البشر
ليس يجدي العلم نفعاً دونه   فالعلوم المبتدأ وهو الخبر

الجزء الأول

تقديم وتحقيق: عقبة زيدان

دواني القطوف

في تاريخ بني المعلوف

❖ دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف
❖ الجزء الأول
❖ عيسى اسكندر المعلوف
❖ تقديم وتحقيق : عقبة زيدان
❖ الطبعة الأولى: 1907- 1908
❖ الطبعة الثانية: 2003
❖ الطبعة الثالثة: 2006
❖ الناشر: دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا – دمشق – تلفاكس: 6713079
ص.ب: 32105
❖ الموافقة على الطباعة
رقم / 72935 / تاريخ 24/ 9/ 2002

عيسى اسكندر المعلوف

(11 نيسان 1869 – 2 تموز 1956)

عيسى اسكندر المعلوف مؤرخ بحاثة من أكابر العلماء، وأديب ذواقة تهدّى إلى لطائف اللغة ونوادرها.

ولد في قرية كفر عقاب في لبنان سنة 1869م، وتلقى مبادئ العلوم في مدرسة القرية، ثم درس بمدرسة 'الشوير' للمرسلين الإنكليز، وأكثر من المطالعة، وتعلم الإنكليزية، وتولى تدريس الأدب العربي في عدة مدارس في لبنان وسورية، وأنشأ مجلة 'الآثار' سنة 1911م، فأصدر منها خمسة مجلدات، وكتب كثيراً في الصحف والمجلات، وجمع مكتبة نفيسة، وقد استقر في 'زحلة' في لبنان وتوفي فيها سنة 1956م.

شارك الأستاذ عيسى في (ديوان المعارف) في عهد الحكم الفيصلي في الشام، وكانت له يد مشكورة في خدمة العربية، وتقويم لغة الكتب المؤلفة والمترجمة آنذاك. ولما أصبح هذا الديوان المجمع العلمي العربي سنة 1919م سمي الأستاذ عيسى عضواً عاملاً فيه فشارك في وضع أسسه، وإقامة دعائمه، وفي الكتابة في مجلته، والمحاضرة في ردهته. وحين تحول عن دمشق ليقيم في زحلة أصبح عضواً مراسلاً للمجمع، ثم انتخب عضواً في المجمع العلمي اللبناني عند تأسيسه سنة 1928م، كما عين عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة منذ إنشائه عام 1933م.

تقديم المحقق

يمتاز هذا الكتاب (دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف) بسرده للأسر، التي سكنت سورية ولبنان وفلسطين والأردن، ويشمل تاريخ هجرة بعضها من اليمن مسقط رأسها، ويهتم بشكل أساسي بأسرة آل المعلوف، التي جاءت من اليمن والتي تنتسب إلى أبو اليمن قحطان، ومن ثم سكنت حوران، ومنها انتشرت في لبنان وفلسطين والأردن، وهاجر بعض أبنائها إلى العالم الجديد وأوستراليا، وبنت لنفسها هناك تاريخاً، ما زالت تذكر مزاياه إلى يومنا هذا. وهو أيضاً كتاب يشمل جغرافية هذه المنطقة، وهواءها وماءها وتربتها، وأسماء المدن والقرى، وأصل تسميتها. وهو أيضاً يسهم في تسليط الضوء على تواريخ المواقع والأحداث التي حصلت في تلك المنطقة بدقة.

وبما أننا نقوم بتحقيق كتاب عن الأسر السورية واللبنانية والفلسطينية والأردنية، فعلينا أن نقوم بتعريف الأسرة، ولكننا لا يمكن في هذه المقدمة أن نقدم كل التعريفات عبر التاريخ، لذلك سنكتفي بما يخدم هدفنا.

فالتعريف السائد للأسرة: هي جملة أفراد من الأقارب يرتبطون فيما بينهم إما بالزواج أو النسب أو ربما بالتبني، وهم يعيشون في سكن واحد، والوحدة الأسرية هي عامل ناشط مزود بإدارة قادرة على التفكير والعاطفة والعمل، ويقوم أساسها على مقدمات مفترضة معرفية وتعاليم معيارية. الأسرة هي محل الثقة والعطاء، أو كما يقول أرسطو هي المحبة، والتي تدل في الواقع على رفض روح الحساب، أي على رفض المنفعة وإلغاء المبادلة وثمن التبادل. والعلاقات الأسرية تنزع إلى العمل ضمن مبادئ بناء وتقويم لكل علاقة اجتماعية. إذن فعلم الأقوام قام على أن الأسرة هي مبدأ بناء الواقع الاجتماعي.

الأسرة نتاج عمل مؤسسي حقيقي، وهو بآن واحد طقوسي وتقني، هادف إلى أن يقيم لدى كل عضو من أعضاء الوحدة المؤسسة إقامة دائمة العواطف الخاصة بضمان تكامل هو شرط لوجود هذه الوحدة واستمرارها. ويتحد أعضاء الأسرة بروابط عاطفية قوية، وهذا يجعل كل عضو من أعضاء الأسرة مزوداً بروح الأسرة. وكما يقول بيير بورديو: «إن هذا العمل التكاملي يزداد ضرورة كلما جنحت الأسرة، وهي تحتاج كيما توجد وتبقى، إلى تأكيد ذاتها بوصفها هيئة، كلما جنحت إلى أن تعمل عمل حقل ذي علاقات قوية مادية، واقتصادية، ولا سيما رمزية (متصلة مثلاً بحجم وبنية رؤوس أموال يملكها مختلف الأعضاء) وبقدر نضاله للحفاظ على علاقات القوة تلك وتحويلها».



ما هو الهدف من تحقيق وإعادة طباعة كتاب تاريخي؟ حين قرأت هذا الكتاب، بعد تكليفي بتحقيقه، وجدت أنه يستحق أن يأخذ مكانه بين كتب التاريخ العربي، وأن تعاد سيرة أجدادنا إلى الحاضر الذي نعيشه، ليس بهدف التغني بالماضي أو الحقد عليه وإهماله، بل من أجل أن يكون هذا الماضي جسراً لعبورنا إلى المستقبل المشرق. لا يمكن أن يكون الماضي عبئاً على أبنائه، لأنه تمثل للقيم والمعارف الحضارية التي سلفت. وأقول: «هل كان لنا وجود بدون أسلافنا؟». ولا أقول هذا لأعلن أننا مكتفون بأنفسنا في المنطقة العربية، وبعيدون عن التأثر بما يحيط بنا. على العكس، فلم نكن في يوم ما أصحاب نظرة فوقية أو عرقية. إن البشرية كل متكامل، وأجزاؤه مؤثرة ومتأثرة على السواء. فيها فترات صعود للأمم وفترات كمون وفترات انحدار. ولا أعني بهذا الصعود هو احتلال الآخر، أو نهب خيراته، بل تلك القوة المبدعة التي أنتجت حضارة إنسانية بمعناها الواسع المتسم بالخير حصراً.

يوجد لدينا من المفكرين من تحدث عن العرق العربي بأنه الأرقى والأفضل، ولكن هذه الفكرة بقيت بين طيات الكتب ولم تطبق، بعكس الأفكار التي طرحت في الغرب والتي لاقت رواجاً كبيراً وجرت البلاد الغربية إلى الحروب وتدمير المجتمع الإنساني، ووضعه على حافة الإبادة. لم ينظر أحدنا في يوم ما

كما نظر نيتشه، الذي يعتبر الإنسان العظيم هو المهم لفائدته الخاصة، وأن بقية البشر هم فقط وسائل لتحقيق سعادته. وهو قد نظر للناس العاديين كما ينظر كثير من البشر إلى الحيوانات، واعتقد أنه من المبرر استخدامهم، ليس لصالحهم، بل لصالح السوبرمان. ووجهة النظر هذه قد تم تبنيها لتبرير غياب الديمقراطية الأوروبية.

الإنسان الحالي هو امتداد للإنسان الذي عاش منذ القدم. وعاداتنا وتقاليدنا هي امتداد لتقاليد وعادات الإنسان الذي سبقنا، وإن طرأ عليها بعض التغير بفعل تطور العقل البشري، وسعيه نحو وضع أفضل وعيش أكثر رخاء وديمقراطية وحرية. إذن فالتاريخ حاضر فينا في كل لحظة من لحظات حياتنا الحاضرة. ولذلك توجب علينا أن نكتب التاريخ بصدق وننقله بأمانة فائقة، تبعاً لقول الشيخ الأكبر ابن العربي: «وعليك بصدق الحديث وأداء الأمانة وصدق الوعد، واجتنب الكذب وخلف الوعد، وإذا خاصمت أحداً فلا تفجر عليه، فإن علامة المنافق وآيته: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر. وأعظم الخيانة أن تحدث أخاك بحديث يرى أنك صادق فيه وأنت على غير ذلك..».

ويحق لنا جميعاً أن نسأل: هل هناك عمل متجرد من منطق المنفعة؟ هل هناك نظرة متحررة كلياً من الواقع الذي يقوم الدارس بدراسته؟.

إن ما يدعوه الفلاسفة 'مبدأ السبب الكافي' هو الذي يدفع الكاتب - أو الفاعل الاجتماعي - إلى الفعل. والأسباب الدافعة تلك هي التي توجه وتقود أفعالهم. وعلم الاجتماع يفترض أن ثمة ما يفعل الفاعلون سبباً ينبغي العثور عليه، وهو يتيح لنا أن نسوغ لهم أفعالهم. وهذا ما يجعل علم الاجتماع يقرر بأن الفاعلين الاجتماعيين لا ينجزون أفعالاً مجانية أو لا فائدة منها. فالفعل المجاني فعل قليل الأهمية ولا يمكن للعلم أن يقيمه، إذ أن العلم لا يبحث في شيء لا فائدة منه.

إذاً، فالهدف من هذه الدراسة التي أعدها عيسى المعلوف، إظهار الأصل الواحد للعائلة المعلوفية ولمعظم العائلات اللبنانية، التي قدمت إلى لبنان منذ

مئات السنين. وهذا يدلنا على المحاولة الجادة من الدراسة التي تبين بوضوح تلك الهجرات القديمة من اليمن إلى حوران ومن ثم إلى لبنان. الهدف هو ربط خيط التواصل الأسروي بالدرجة الأولى، ومن ثم التعريف بأصول العائلات اللبنانية والسورية وترابطها مع بعضها البعض في هذا النسيج السوري العريق.

ويقول عيسى المعلوف مؤلف (دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف) في مقدمته للكتاب: «ولا حاجة بنا إلى وصف ما للتاريخ من المقام الأول بين الفنون الأدبية، والمكانة السامية في الهيئة الاجتماعية، واللذة الفائقة في المباحث العمرانية، وما في مطالعته من التأثير على الأخلاق والعادات، والحض على حسن الاقتداء، مما أنشأ أعظم الرجال، ودرب كبار الأبطال، وحنك نوابغ الساسة العظماء، وخرج جهابذة الأدباء العلماء. نخص منه ما قصرت مباحثه على أخبار الوطن وأخلاق قومه وعاداتهم ومناشئ أسره وأصولها وفروعها وأنسابها ومشاهيرها وتكاثرها وانقراضها إلى غير ذلك مما هو بلا مراء التاريخ الحقيقي، لأن تاريخ العالم هو سيرة عظام الرجال، بل رواية المجتمع الإنساني وصورة المعاد المعنوي».

ونحن، كأمة عربية، أحوج ما نكون الآن إلى استنادنا إلى التاريخ، ذلك التاريخ الذي يحاول أعداء أمتنا تمزيقه، أو لنقل بشكل أدق، إلى إبادته نهائياً، والترويج بعدم وجوده أصلاً، وذلك لمحو الصورة الحقيقية لتاريخنا. هناك محاولة قوية مدعمة بقوى عالمية هائلة، لتزوير كل ما لدينا من تاريخنا وتشويه اللحظة الحالية التي نعيشها، وكل ذلك أمام أعيننا، ونحن نقف شبه عاجزين أمام ذلك الحقد. فالعدو بدأ بإبادة فيزيولوجية لمنطقة من وطننا، وهو يحمي نفسه بأكاذيب عن همجية العرب ووحشيتهم، دون أن يكون لما يدعيه أي أساس من الصحة. وهو ينسب لنفسه الحق بأرضنا، معتمداً بذلك على التاريخ ـ كما يقول ـ، ويعتبره وثيقة لمشروعيته في أرض ليست له. وكل هذا بمنطق التاريخ.

العالم الآن يسير بنفسه إلى الدمار. فحين لا تبقى سوى قوة وحيدة تسيطر عليه، عندها لا مكان للحوار على طاولة واحدة، لعدم سماح تلك القوة لأحد بالجلوس معها على مستوى واحد. لقد حل القصف والحرق وقطع الرؤوس،

مكان الطموح الأعلى للإنسان. مثلاً، الغرب يريد لنفسه الاتحاد والقوة، وقد شرع بذلك، ولكنه يحاول بشتى وسائل الترهيب، أن يمنع العرب من الاتحاد وإجماع الكلمة حتى.

هناك من ينادي بالقطيعة مع التراث، وأنا لا أرى بأن القطيعة مع التراث لها أهميتها التي تجعلنا متطورين. ليس هناك ما يسمى بالقطيعة مع الماضي. فالإنسان الحالي هو ذلك المركب العصبي والدموي والعقلي الذي يحمل ذلك الماضي بكل تفاصيله، وفي كل خلية من خلاياه يعيش الماضي بحلوه ومره. وبالتالي فإن محاولة بتر هذا الماضي، تجعل الإنسان يحكم على نفسه بالموت المحتم.

النظرة إلى تاريخنا، وإعادة قراءته، لا تعني بالضرورة أننا ألغينا كل تواريخ الأمم الأخرى. فنحن نحترم تاريخ كل الشعوب، وليست لدينا النظرة الشوفينية للآخر، ولا يمكن أن نفضل (عرقنا) العربي عن باقي عروق العالم، ولكننا نحاول الحفاظ على تراثنا في عالم بدأ يفتقد إلى أدنى نوع من التفاهم، ويخطو بسرعة إلى إلغاء تاريخنا برمته. فكما أن الشعوب الأخرى تتحد على أساس (العرق). وهذا ما يطرح دوماً. فمن حقنا أن نتحد، بيد أننا لم نكن يوماً ضد أحد، لأننا نعرف أن التاريخ الإنساني هو للإنسانية جمعاء.

يقول ابن خلدون في مقدمته: «إن حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات..». فالعصبية هي نوع من التعاضد العضوي، وبزوالها تزول الدولة. وهذا لا يجعلنا نظن بأن هذه العصبية الخلدونية تفتح حرباً مع عصبية أخرى وتتنازع معها الغلبة، بل على كل عصبية أن تكون خيرة تجاه غيرها، وهو يتابع: «فالإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة، لأن الشر إنما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه، وأما من حيث هو إنسان، فهو إلى الخير أقرب، وخلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك». إذن السياسة مرتبطة بالخير،

والخير هو لصالح كل الدول دون تفريق. هذا أحد مفكرينا الكبار، وهو مؤسس علم الاجتماع، وعليه اعتمد الغرب في تطوير هذا العلم.

ولقد سبقه ابن عربي، الذي لا يرى في حمل الآخر لأية عقيدة مختلفة سبباً لمحاربته، فهو قد نبذ التعصب الأعمى، ودعا إلى التسامح بين العقائد، إلى حد استملاكها، بمعنى هضمها وتقبلها، لتكون طريقاً للتعاون العالمي، وهو يقول: »تشكل الثقافات بما فيها من تنوع وخصب وبما بينها من تباين وتأثير متبادل، جزءاً من التراث الذي يشترك في ملكيته البشر جميعاً«. فالتاريخ بنظر ابن العربي هو ملك لنا جميعاً، لأنه لم يكتب بمعزل أحدنا عن الآخر، بل هو نتاج لهذا التأثير المتبادل بين البشر أجمعين. وابن العربي تحدث عن عقيدة الآخر وناصرها ــــ وكأنه يرد بذلك على صليبية الغرب ــــ وقال: «إذا رأيت أنصارياً أو أنصارية ـ وإن كان عدواً لك ـ فلتحبه الحب الشديد، واحذر أن تبغضه فتخرج من الإيمان .... ».

هذه شواهد بأن العرب لم يسعوا في يوم ما إلى نبذ المجتمعات الأخرى ومحاربتها، بل كانوا يدعون دوماً إلى التعاون العالمي والإخاء، وبنفس الوقت فهم يدعون إلى العصبية التي تحفظ حياتهم ووجودهم. ويشير الأفغاني إلى الدور الذي يجب أن تقوم به الأمة العربية، ويؤكد بأنه من الممكن للدول الشرقية أن تقتبس التقدم الغربي، وفي الوقت نفسه تحتفظ بتراثها الديني، ويمكن أن تتقدم باتباع النظام الشوري والديمقراطي وإحلال الدستور الذي بواسطته يعرف كل دوره وواجباته وحقوقه. وقد رفض الأفغاني التعصب ودعا إلى المساواة بين نوع الإنسان وخاصة في الحقوق العامة. ورأى بأن المساواة والعدل حقان إنسانيان يتخطيان الحدود والأجناس، فيقول في ذلك: «خليق بالإنسان، كما أنه نوع واحد ولا يكون له غير هذه الكرة الأرضية الصغيرة أيضاً، يعني أن وحدة النوع تقتضي وحدة المكان». الأفغاني هنا يفكر بالخير والعدالة على مستوى كوكبنا الصغير هذا وليس على مستوى أمة من الأمم.

ويشارك المفكر أبو بكر الرازي في تقديم صورة جميلة عن الإنسان العربي وهو يناضل ضد تشنج المرء لآرائه، ويدعو إلى رفض السيطرة والاستبداد:

«العقل هو أنفع الأشياء لنا وأجداها.. فبالعقل فضلنا على الحيوان غير الناطق..». ويعتبر الرازي الناس متساوين في الملكات الفطرية والتكوينية وكذلك في العقل، ويطرح فكرة كمال التعاون والتعاضد العقلي. إذن، فالرازي، حين يجعل العقل هو القيمة العليا، فهو بذلك يطلب الخير والسعادة للإنسانية جمعاء، ذلك لأن طريق الخلاص البشري هو طريق العقل. وبالنتيجة، فإنه يرى أن العقل هو الطريق الأمثل لتحرير الإنسان من كل أشكال الاستبداد والاضطهاد، وبه منوط تطور الإنسان العالمي، حيث لا فرق بين إنسان وآخر.

وقبل أن نتطرق إلى المجتمع الغربي، سنأخذ مثالاً، ألا وهو المجتمع الهندي.

سكنت شبه القارة الهندية شعوب من مجموعات عرقية مختلفة تتميز بألوان بشرتها المختلفة التي تشكل أساس تقسيماتها. لقد دخل الهند، على مر الزمن ومن خلال علاقات التجارة والفتوحات، الفرس والإغريق والهون وشعوب من أعراق أخرى، امتصهم المجتمع الهندوسي تدريجياً. وقد خصصت لهم مراكز في النظام الطبقي تتناسب مع قدراتهم الجسدية أو الذهنية. هكذا حل المجتمع الهندوسي مسألة الأقليات المغتربة داخله. وانخفض التباين بين الألوان بشكل تدريجي من خلال التزاوج المختلط. وظهر إلى الوجود من خلال التبادلات والاندماجات تفرعات طبقية عديدة. وقد سمح المجتمع الهندوسي المتسامح للقادمين الجدد بالمحافظة على خصوصياتهم العرقية، فيما يتعلق بالمأكل والملبس والعادات الاجتماعية والدينية. وربما يفسر هذا وجود تنوع عظيم في الهند فيما يتعلق بهذه المسائل. وظهر إلى الوجود بشكل تدريجي مجتمع هندوسي مركب شعاره الوحدة في التنوع والتعايش الودي. في العصور الأقدم كان الطعام المشترك مسموحاً، وكذلك التزاوج المختلط في بعض الظروف. ومن خلال النظام الطبقي عهد المجتمع الهندوسي بنفسه إلى القيادة الروحية والفكرية مفضلاً إياها على القوة العسكرية والثروة والعمل.

يسير النظام الطبقي في الهند وفقاً للكتب الدينية الهندوسية: البراهمة، وهم رجال المعرفة والعلم والأدب والفكر والتعليم؛ والكشاتريا، وهم رجال الفعل والبأس؛ والفايشا، وهم رجال الرغبات والتملك وحب الكسب؛ والشودرا، وهم

رجال الذكاء المحدود الذين لا يستطيعون التعلم أكثر مما تسمح به بعض الحدود الضيقة وهم عاجزون عن التعامل مع الأفكار المجردة ولا يناسبهم إلا العمل اليدوي.

وعلى مدى قرون عديدة عمل النظام الطبقي بطريقة رائعة، وقام بتمتين الثقافة الهندية التي بلغت أوجها عندما وجه البراهمة والكشاتريا والفايشا والشودرا كل نشاطاتهم وجهودهم من أجل الصالح العام. وهذا المجتمع المحكم البناء لم يتهدم رغم الاحتلال الأجنبي للهند. ومنذ حصول الهند على استقلالها السياسي، سنت القوانين من أجل الإلغاء التدريجي للمحرمات المتعلقة بالزواج والطعام المشترك والعلاقات الاجتماعية، وأعطيت الطبقات الدنيا تسهيلات أكبر من أجل التعلم، ولم يَحرم أحدً من الوظائف الحكومية بسبب طبقته.

هذه هي الطبقات في المجتمع الهندي، لا تقوم على اللون أو العرق أو الدين، بل على أساس العلم والمعرفة. وحتى فرز الطبقات في هذا المجتمع قد لاقى اعتراضاً من قبل العديد من الزعماء الهندوسيين الدينيين، واعتبروه نبذاً للطبقات الأدنى وهو وصمة على المجتمع. وأصبحت حياة الشخص بغض النظر عن الطبقة، هي التي تحدد واجباته في التقليد الهندوسي.

هذا في الهند، آما إذا نظرنا إلى رآي آرسطوطاليس القائل بأن السادة يولدون سادة والعبيد عبيداً، فإننا نجد أثره الكبير في أوروبا والعالم الغربي اليوم. ذلك القول الذي يميز البشر ويخلق الصراع الدائم بين الحر والعبد، قد استمر في أوروبا حتى عصورنا الحاضرة /رغم ما تدعيه أوروبا من تشريعها للحضارة والقيم الإنسانية والتقدم والديمقراطية ..إلخ/ فبعض المفكرين الأوروبيين يعتبرون ولدي نوح - سام وحام - قد أصبحا بإرادة الله خدماً عند أخيهما يافث لارتكابهما الخطايا. فالآسيويون هم أحفاد سام والأفارقة هم أحفاد حام، والأوروبيون هم أحفاد يافث، أي أنهم السادة. وهم يقرون بوجود (عرق) بشري رفيع المستوى ومتقدم في قدراته العقلية، وآخر متدن. وهذا التمايز يفترض سيادة العرق المتطور على المتدني، ويجب أن يفرض إرادته، وعلى الأعراق الأخرى الأدنى أن تسمع وتطيع فقط وتكون خادماً واجبه أن ينفذ ما

يطلب منه. إن هذا قد شكل قمة الفكر العنصري الأوروبي عموماً والنازي الألماني الهتلري بشكل خاص، وتجلى بالعدوانية المقززة إزاء الشعوب الأخرى، فتحول العالم إلى مأتم، لا تسمع فيه إلا أصوات الاحتضارات.

العالم الغربي قد صنع نظرية شوفينية توجت بالنازية، ودفع ثمنها من دمه.

العنصرية مضادة للديمقراطية، ذلك لأن الديمقراطية وحقوق الإنسان ترفض هذا الفرز اللامنطقي بين عرق وآخر، وتدعو إلى وحدة الجنس البشري ضمن قانون واحد، يسود على الجميع دون استثناء. ورغم هذا فإن أوروبا، التي تتحدث عن الديمقراطية والتي صاغت قانون حقوق الإنسان، هي من اقترنت العنصرية بها. فأوروبا هي التي هدفت في تاريخها إلى ممارسة الهيمنة الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية على الأعراق الأخرى، وأثبتت للعالم أجمع أنها أيديولوجية قمعية تطمع إلى الهيمنة والاستغلال والتحكم برقاب الآخرين. وتطلق أوروبا اليوم عنصرية جديدة تماشياً مع المنظمات الدولية القائمة، وهي العنصرية الكلاسيكية ولكنها ترتدي حلة جديدة. فهي تدعي بأن التمايز بين البشر يقوم على أساس التمايز بين الثقافات المختلفة التي لا يمكن أن تلتقي، وبالتالي تدعو إلى الفصل العنصري بين الثقافات للحفاظ على سلامة ونقاوة ثقافتها. وهو أمر لا يمكن تفسيره إلا فصلاً عنصرياً بين البشر. فالعنصرية الجديدة/ القديمة تتعارض مع حقوق الإنسان التي تؤكد على وحدة الجنس البشري رغم التنوع في شكل الإنسان وفي ثقافاته وعاداته وتقاليده المرتبطة بتأثير جملة من العوامل كالظروف والبيئة ومستلزمات العيش..إلخ، تلك العوامل التي تلعب دورها البارز في نشوء الاختلافات في مستويات التطور الثقافي والاجتماعي بين الناس.

وجدت فكرة العنصرية أول رواج لها في إسبانيا في القرن السادس عشر. ومن ثم تبنى المفكر البريطاني ديفيد هيوم فكرة العنصرية المطروحة في القرن الثامن عشر ولاقت قبولاً لدى العديد من مفكري ومثقفي أوروبا ومنهم الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط وجان جاك روسو وفولتير.

لكن التاريخ الغربي فيه الكثير من المفكرين والأدباء الغربيين الذين دافعوا عن الشعوب التي تضطهدها دولهم، فها هو هرمان هسه، الروائي والشاعر الألماني، يحارب النازية ويتهمها بأشنع التهم ويرفضها، وهو ينادي بوحدة الجنس البشري، وبالسعادة البشرية دون تمييز. وينتحر ستيفان زفايغ، الروائي النمساوي، خجلاً من بلاده التي لا تعرف سوى الوحشية والدم والقتل. وهناك الكثير من الكتاب والمفكرين الكونيين الغربيين الآخرين منهم: برتراند راسل، جان بول سارتر، هنري ميللر، وآخرون.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، فلم تكن عبر تاريخها إلا دولة للعنصرية. فقد قامت على إبادة العنصر الآخر صاحب البلد /الهندي الأحمر/ وإلى اليوم لا يمكن أن تعتبره إنساناً له حقوقه في بلده الذي استلب منه. وهي تقوم بإكمال إبادته بمختلف الوسائل، وتطلق أمام العالم أجمع بأنها الدولة الديمقراطية الوحيدة والحاملة لحقوق الإنسان. ولا يكون الأمر بأفضل على صعيد الزنوج الذين لا يلقون في تلك البلاد إلا التمييز العنصري في أشد حالاته. ولا نغفل وجود أسماء عملت من أجل الإنسانية في ذلك البلد، منهم: وليم فوكنر، وناعوم تشومسكي.

والشكل الأخطر للعنصرية بالنسبة لنا نحن العرب - وكذلك بالنسبة للعالم، بسبب الدعم الأمريكي الأعمى - هو الصهيونية التي أدانتها الأمم المتحدة واعتبرتها «شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري». فالفلسطيني الذي شرد من أرضه، لا يحق له العودة إليها، في حين يحق لأي صهيوني في العالم أن يعيش في فلسطين متى أراد وبدعم مالي ومعنوي كبيرين. وقد قامت إسرائيل بمشروع إبادة عرقية منذ احتلالها لفلسطين وحتى الآن. ويشهد هذا العام (2002) أبشع المجازر التي تقوم بها إسرائيل بحق العرب الفلسطينيين من تدمير للقرى وقتل وتشريد، بمباركة ودعم أمريكيين وحياد أوروبي وكذلك بصمت معظم الدول العربية.

وأمام هذه التكتلات، التي ترفض أن تعتبر غيرها غير جديرة بالعيش، ماذا يمكننا أن نفعل؟ هل نقطع صلاتنا مع ماضينا؟ هل نهرب من أنفسنا ونلتجئ إلى

ذلك الآخر لنحتمي به ونعمل لديه عبيداً؟ أم علينا أن نستمد من ذلك الماضي ما نريد وننطلق؟

إذن، يجب أن تكون انطلاقتنا بدافع حب الإنسانية وإقامة الحق والخير والعدالة والحرية والديمقراطية، وليس للسيطرة على الآخر واستعباده.

هكذا نكون الأمة التي لن يرهبها شيء، ولكن بعد أن تكون موحدة!!.



بعد هذا الاسترسال، نعود إلى عيسى اسكندر المعلوف في (دواني القطوف) الذي يقول: «ومن أهم ما حدا بي إلى تجشم هذه المباحث، اعتقادي أن إعراض أخلافنا عن تلقن أخبار أسلافهم بطريق الرواية قد فشا بيننا لدواع من أخصها التهافت على مطالعة التواريخ الإفرنجية والروايات القصصية مما وصفه غيرنا لغيرنا». وهذه النبوءة قد حدثت بالفعل، لأن كثيراً من مثقفينا يحبذون المصادر الأجنبية التي تبحث في تاريخنا، ويفضلونها على المراجع والمصادر العربية. وهذا في حالات قليلة يعد صحيحاً، بسبب شرعة التكفير التي يقوم بها بعض القائمين في سدة السلطة الدينية والثقافية في وطننا، والتي جعلت الكثيرين يسكتون عن قول الحقيقة خوفاً من هدر دمائهم وتصفيتهم. ولا ننسى أن نذكر بأن عيسى اسكندر المعلوف، مؤلف هذا الكتاب، هو كذلك هادن كثيراً السلطة العثمانية التي كانت تحتل الوطن العربي، ونعتها بأرقى النعوت، رغم أنها كانت احتلالاً غير مرغوب فيه وظالماً بالنسبة للعرب. ووصف كذلك الاحتلال العثماني للوطن العربي بأنه فأل سعد على العرب، وقال عن الدول العربية بأنها «أسعدت بالفتوح العثماني». ولا أدري كيف روجت كلمة (الفتح) وما الهدف من ترويجها، فالمحتل العثماني كان محتلاً بجدارة، ولم يتصف بالرحمة. ومن ثم لنسأل من يقتنع بهذا (الفتح): ما سبب تسمية الاحتلال العثماني (فتحاً)، إذا كان (للفتح) غاية تخليص منطقة ما من احتلالها أو من تخلفها بقصد الخير؟ فالعثمانيون كانوا متخلفين أكثر من العرب في تلك الفترة، والدليل أنهم قد أخذوا اللغة العربية وتعاملوا بها، وطبعوا بطابع العرب، ولم يؤثروا (بحضارتهم) كثيراً على العرب، بل كانوا متأثرين أكثر مما كانوا مؤثرين. وبالإضافة إلى ذلك فإن التاريخ يذكر بأن

العثمانيين كانوا طغاة حقيقيين، ولم يعرف التاريخ العربي احتلالاً أكثر دموية منهم (طبعاً باستثناء الكيان الصهيوني المقرف في وحشيته والذي فاق حدود العقل البشري من قتل للرضع والمسنين). فقد نهب العثمانيون الخيرات العربية وحرموا الناس من أدنى مستلزمات العيش، وقطعوا الرؤوس وحرقوا البيوت إلى آخر ما تتطلبه صفة الامبراطورية الجشعة. ولا يعني امتداد امبراطورية ما أنها متطورة، فالتاريخ يعطي شواهد كثيرة على أن الشعوب الهمجية قد احتلت أمماً أكثر تطوراً، وعلى سبيل المثال المغول والتتار الذين اجتاحوا جزءاً من أوروبا والشرق، وقد كانوا متخلفين جداً.

وما يلفت النظر أنه في نفس العام الذي طبع فيه هذا الكتاب (1908) قامت حركة الاتحاد والترقي بالإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد. مما حدا بالشعوب المضطهدة الخاضعة لهذا الحكم، أن تستقبل أنباء ثورة الاتحاد والترقي بأمل كبير وبشعور بالفرج، إلا أن السياسة الطورانية الشوفينية التي اضطهدت القوميات غير التركية، أدت إلى الابتعاد عنها وتشكيل الأحزاب القومية العربية في بلاد الشام والعراق.

لا يمكننا إلا أن نعترف بأن سياسة عبد الحميد قد أدت إلى تأخر البلاد وتخلف أهلها، وجعل الدولة العثمانية دولة نصف مستعمرة. وكان عبد الحميد إقطاعياً، ملك مئات القرى في بلاد الشام. ووصفت سياسته بالاضطهاد والاستغلال والاستبداد، وهذا فسح المجال أمام القوى الصهيونية للنفاذ إلى جسم الدولة العثمانية، فأدى ذلك إلى خلعه.

ولكن عيسى اسكندر المعلوف يصف السلطان عبد الحميد / وطبعاً بمعزل عن رأينا/ بما يلي: «لقد أتاح لي الحظ أن تماط عني التمائم في العصر الحميدي الأنور، الذي توطدت فيه دعائم المدارس ونفقت في سوقه بضاعة المعارف. فنشر أدباؤنا مطويات أفكار نثرتها لهوات المطابع أوراقاً محبرة..». ثم يقول في ختام (دواني القطوف): «..على عهد سلطنة متبوعنا الأعظم السلطان ابن السلطان عبد الحميد خان، وطد الله عرشه على دعائم العدل وحف جنوده ورجاله العظام بملائكة النصر..».

وفي كل الأحوال، فإن القيمة التاريخية للكتاب، يجب ألا تجعلنا نتوقف كثيراً عند ذلك المدح.

زرع الاستعمار بذور النظرة الضيقة، من أجل تنفيذ ما لن يقدر على تنفيذه في حالة الوحدة الوطنية. واقتنع بها البعض، لفترة من الزمن حتى اكتشفوا زيفها والهدف من ورائها. وقد استعملها الاستعمار الأوروبي على مدى قرون طويلة، وما زال يستعملها إلى الآن بأشكال مختلفة (وللحق فإن استعمار بلاد الغير ارتبط بأوروبا بشكل دائم منذ قرون طويلة إلى أن تقاسمت معها فيه الولايات المتحدة الهمجية ضد الشعوب الأخرى، رغم أن هذه الأخيرة وليدة الاستعمار الأوروبي). وتقوم الولايات المتحدة اليوم بصنع الصراعات داخل دول كثيرة لتتابع هيمنتها وجبروتها على العالم أجمع، وحين تفشل بهذا، تعمد إلى إلقاء الاتهامات على الدول غير الخاضعة لها، وتسير إليها بأسلحتها فائقة التدمير.

القوة هي اتحاد الأخوة وأبناء الوطن الواحد، والضعف هو التفتت الطائفي والعشائري والإقليمي. ولكن لا يجب لهذه القوة أن تسير نحو القتل والتدمير وإلغاء صوت الآخر والتفرد بحكم العالم كما تفعل الولايات المتحدة الأمريكية اليوم.



يسرد عيسى المعلوف تاريخ حوران بعهد الغسانيين. وبنو غسان هم أحفاد قحطان أبو اليمن «وكان بنو قحطان معاصرين لإخوانهم من العرب العاربة ومظاهرين لهم على أمورهم» [الفرع العاشر، القطف الأول، ص61 من الطبعة الأصلية].

وينتسب بنو غسان إلى مزيقياء، وهو لقب عمرو بن عامر. وأول من نزل منهم ماء غسان ونسب إليه في القرن الثالث للميلاد، هو ماء السماء عامر بن حارثة الغطريف، ولقب بماء السماء لكرمه وتفريق أمواله على قومه في زمن القحط، وهو ابن امرؤ القيس البهلول بن ثعلبة بن مازن بن الأزد من سلالة كهلان بن عبد شمس بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن

نوح الجد الثاني للعالم بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ بن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم الجد الأول للعالم. [ص65 من الطبعة الأصلية].

سكن الغساسنة في نواحي حوران وما إليها، وانتصروا على الضجاعم (عمّال القياصرة) وتفردوا بملك الشام، بيد أنهم كانوا عمالاً على عرب الشام من قبل القياصرة الرومانيين. وقد تولوا جميع البلاد في عبر الأردن وبقوا إلى ظهور المسلمين. امتدت مملكة غسان من جهة الجنوب إلى بحر القلزم (الأحمر) ومن الشمال إلى ضفة الفرات، وكانت تدمر وضواحيها من جملة البلاد الشمالية المذعنة لأوامرهم، وجهات وادي اليرموك ووادي الأردن تحت سلطتهم جنوباً، والجولان وسط مملكتهم. وكانوا تحت سيطرة الوالي الروماني المقيم بدمشق من قبل امبراطور المملكة الرومانية الشرقية المقيم في القسطنطينية وهو يبلغ العمال الغساسنة أوامر الامبراطور.

وبعد الفتح الإسلامي أسلم بعض الغساسنة وبعضهم بقي على نصرانيته. فتفرق شملهم بعد الدولة العباسية، ولكن قسماً منهم أقطع اللجاة (وهي تابعة اليوم لمحافظة درعا، وتقع قرب قرية خبب)، التي كانت قاعدتها دامة العلية (وهي اليوم تتبع محافظة السويداء وقربها دير داما)، فصولحوا على ترك الجزية وسموا ببني المعيوف، ثم أبدل بالمعلوف. وكانوا هناك ينتمون إلى ثلاثة أصول، أحدها جدهم إبراهيم المعلوف الغساني جد الأسرة المعلوفية التي وضع لها هذا الكتاب. والثاني إلى نسيبه جرجس. والثالث إلى الياس.

وفي عام 1519م قصد بني المعلوف لبنان، ونزلوا سرعين من قضاء بعلبك. وفي عام 1626م قصدوا جبة بشراي، ثم البترون، فرمموها وسموها دومة، على اسم مسقط رأسهم (دامة)، ولكنهم ضموا أولها لغلبة اللهجة السريانية على السكان. وتفرق قسم منهم في لبنان وفلسطين. فمنهم فروع أبي عيسى وأبي مدلج وأبي فرح وأبي حنا، قصدوا قاطع بيت شباب وبنوا فيه قرية سموها المحيدثة. ثم انتقل سنة 1560 من المحيدثة إلى كفر عقاب فروع أبي عيسى وأبي مدلج وأبي فرح. أما فرع أبي حنا فبقي في المحيدثة. وفرع أبي سمعان سكن

قرية عشقوت. وفرعي ناصر ونعمة انتقلا إلى مدينة الناصرة، وانتقل فرع النجار منهم إلى كرك والشوبك.

والمؤلف عيسى اسكندر المعلوف من فرع عيسى، وهو ابن اسكندر ابن الخوري إبراهيم، ولد في كفر عقاب في 11 نيسان سنة 1869، ثم سكن زحلة سنة 1898، وولد له فيها فوزي في أيار سنة 1899، واسكندر سنة 1902 وشفيق سنة 1905، ورياض الذي لم يذكره والده المؤلف في (دواني القطوف) لأنه ولد بعد طبع الكتاب، ثم أدمون الذي لم يذكره أيضاً. وتوفي عيسى المعلوف في 2 تموز عام 1956. وقد كان عيسى المعلوف عضو المجامع العلمية العربية في القاهرة ودمشق وبيروت والبرازيل، وكانت زوجته عفيفة ابراهيم المعلوف عضو مجلس إدارة لبنان في بعبدا في زمن العثمانيين.

وأولاد عيسى هؤلاء (فوزي وشفيق ورياض) هم ثالوث شعر آل المعلوف، الذي كان له إسهاماً كبيراً على خارطة الشعر العربي في القرن العشرين.

فوزي صاحب ملحمة 'على بساط الريح' وشفيق صاحب ملحمة 'عبقر' ورياض هو عضو منتخب في نادي القلم الدولي في ريودي جانيرو بالبرازيل، وعضو 'العصبة الأندلسية' فيها، وعضو في مجلة إقليدس داكونيا بونتا كروسا، وفي رابطة الصحافيين والكتاب اللاتين في روما.

لقد أنجز آل المعلوف الكثير على صعيد الشعر العربي، وقد صنعت هذه الأسرة لنفسها مكانة عظيمة تجاوزت خطوط السياسة والتجارة، وتربعت على عرش الأدب بفنونه وأنواعه.

فها هو فوزي الشاعر السوداوي المزاج، يموت في الثلاثين من عمره إثر عملية جراحية لم تنجح في ريودي جانيرو في 7 كانون الثاني 1930. وآخر ما كانت تخطه يده وهو يطلق أنفاسه الأخيرة، هذا المقطع من ملحمة 'على بساط الريح' من النشيد السادس:

«وتوارت حلماً فحلماً إلى اللاشي تمشي به قليلاً .. قليلاً ..».

وقد أسس فوزي المنتدى الزحلي الأدبي الاجتماعي في البرازيل، الذي كان العروة الوثقى لاتحاد الجاليتين اللبنانية والسورية ورفع شأنهما في نظر الأجانب. وقد قال عيسى اسكندر المعلوف (مؤلف كتابنا هذا) يصف نشاط ابنه: »إن فوزي ألقى المحاضرات والخطب في الأندية الأدبية والعلمية بسان باولو والريو والوطن، وله مساجلات لطيفة في مجالس أدباء عصره في العالمين القديم والجديد، ومساعدات كثيرة للمشاريع الخيرية والأدبية« وهذه شهادة والده بعد وفاته بسنة واحدة.

إن ملحمة 'على بساط الريح' طبعت في نفس سنة وفاة صاحبها فوزي المعلوف، وقد قدم لها أمير شعراء الإسبان فرنسيسكو فيلا سباسا، الذي قال: «إن فوزي المعلوف استطاع بفن عجيب أن يعتقل في قفص أبياته الذهبي الطائر العربي النادر. طائر ذو ريش من المخمل الناعم ومنقار من الصوان وعينين من العقيق! وقد فقأ مقلتيه كما تفقأ مقلتا البلبل ليزداد شدوه شجواً وتزيده عذوبة»، ومن الواضح أن فوزي المعلوف مؤمن بخلود الروح وسموها وترفعها. ورغم أن فوزي كان يمتلك كل متطلبات العيش الرغيد إلا أنه كان ينظر إلى الحياة نظرة سوداوية، ووجد فيها العذاب الذي لا توازيه الغبطة. وقام بالإشراف على طباعة الملحمة أخوه شفيق المعلوف. ولفوزي مجموعات شعرية بعنوان: 'تأوهات الروح'، 'من قلب السماء' و'أغاني الأندلس'، ومن مؤلفاته الأخرى: رواية سقوط غرناطة.

أما شفيق المعلوف، صديق إيليا أبي ماضي، فهو يسحر بشعره، كما صديقه، قارئه وينقله إلى عالمه الخاص فوق السحاب. وقد عاش شفيق مع أخيه فوزي في البرازيل، وعملا معاً بالتجارة والصناعة بشراكة خالهما جورج المعلوف وأخيه اسكندر.

ورياض كان كلاسيكياً، وعابداً للغة العربية الفصحى وشكلها المقدس. هو محب للتراث الشعري العربي، ومحافظ على إشراقات اللغة العربية. كتب كثيراً من المؤلفات باللغة العربية، منها (الأوتار المتقطعة، خيالات، شعر المعالفة، ريفيات، أشواك وبراعم..) وأما مؤلفاته بالفرنسية فمنها (تلاوين، غيوم، مسامير

العاج، شعراء الخمرة والمرأة عند العرب..). وله كتاب عن أبيه اسمه (عيسى اسكندر المعلوف) عام 1961م. وتوفي هذا الشاعر في 21 نيسان/ أبريل من هذا العام (2002).

لقد نبغ من آل المعلوف الكثير غير هؤلاء، فمنهم الأديب فرح أنطون منشئ جامعة طرابلس، ومنهم إبراهيم شبلي الشاعر الناثر، والشاعران قيصر ونجيب المعلوف، ومنذر كمال الشاعر والكاتب في الآداب الاجتماعية والمباحث العمرانية، وآخرون.

ومن أطبائهم المعروفين اسكندر رزق الله المعلوف الذي ولد سنة 1860 وتلقى مبادئ اللغة العربية، وولع بنظم الشعر وحب التلحين. ثم طاف مدن فرنسا بعد أن تخصص في أمراض النساء. وألقى في مؤتمر النساء الطبي في باريس خطاباً في أمراض النساء والسرطان، كان له وقع حسن على الأطباء الفرنسيين ومدحوه عليه. وأصبحت له منزلة لدى العلماء الأوروبيين، وقد ذكر مراراً في مؤلفاتهم الطبية واعتمدوا على آرائه الصائبة.

ومن المشهورين اليوم في العالم أجمع، الكاتب الروائي أمين المعلوف، الذي نال جائزة 'غونكور' الفرنسية، وهي تعطى للأعمال المكتوبة بالفرنسية. وقد نال الروائي هذه الجائزة عن روايته (صخرة طانيوس) التي تحدث فيها عن مسقط رأسه كفريقدة، متناولاً فترة نهاية القرن التاسع عشر. والكاتب إلى اليوم من المعروفين على الصعيد الروائي العالمي، وله حضور خاص في فرنسا والعالم الغربي. ومن مؤلفاته المهمة: حدائق النور، الحروب الصليبية، سمرقند، موانئ المشرق.

لم يقف المؤلف عيسى المعلوف عند ذكر نسب عائلته ومسقط رأسها (حوران) ثم وصولها إلى لبنان، بل تعدى ذلك إلى سرد تاريخ أسر لبنان والحوادث التي مرت عليه والمواقع التي جرت على أرضه، ولا ينسى أن يعود إلى أصول العوائل (الأسر) التي يذكرها، ومن ثم يعرض هجرتها من موطنها الأصلي إلى لبنان وغيره. فمثلاً حين يمر ذكر آل علم الدين يقول: «أصلهم من آل تنوخ من سلالة ماء السماء اللخمي. كانوا قيسيين ولكن علم الدين بن سليمان تبرأ من

أنسبائه سنة 1301 وصار يمنياً». ويذكر أسرة شباط: «أصلها من القدس الشريف من الطائفة الأرثوذكسية.. انتقل بنوها إلى صيدا وعرفوا باسم شباط ونزح من هذه نفر إلى دمشق وهم فيها إلى اليوم..». ثم يذكر المؤلف المشهورين من كل عائلة، وما تملكه من أراض وإقطاعات ومناصب لدى الحكومة العثمانية، وعلاقات هذه الأسرة مع الأسر الأخرى ومنهم بني المعلوف.

والجميل أن المؤلف قد حاول البحث في تاريخ سورية ولبنان غير معتمد على مجرد الرواية وغير واثق بصحة النقل، بل كان يقيس الحوادث بأشباهها، ويعرض الروايات على أصولها، ويستقرئ جميع دقائقها وأطرافها. ولذلك فقد جاءت المرويات «مؤيدة بالبراهين اعتماداً على ما اشتهر من الأسانيد وذهاباً إلى التحقيق والتثبت». وقد بالغ المؤلف - كما يقول - في التمحيص والتدقيق ولا دليل له إلا قديم المخطوطات، فاقتطف مما جمعه هذه المواضيع «بعبارة ليست من الغريب الحوشي الذي تنبو عنه الأسماع، ولا من الركيك المبتذل الذي تنفر منه الطباع».

ولما كانت حوران منشأ معظم الأسر اللبنانية، فقد صدّر المؤلف بها (دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف) وتطرق إلى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ووقائعها وأصول سكانها وعاداتهم وأخلاقهم «مسترسلاً إلى تواريخ أهم الأسر وفروعها ومشاهيرها، سواء كانت ممن نشأ في حوران أو في غيرها». وأضاف إلى ذلك تراجم مشاهيرها وحوادثها على ترتيب لم يُسبق إليه، ولما «كان التاريخ أشبه بحدائق تغرس فيها الأشجار وتتهدل منها فروع دانية الثمار» اختار المؤلف هذه التسمية (دواني القطوف).

في الفرع الأول من الشجرة الأولى، يتحدث المؤلف عن جغرافية بلاد حوران القديمة، وهو يبدأ بشرح معنى اسم حوران فيقول: «حوران على الأصح من حور العبرانية، بمعنى المغارة والكهف، وقد سماها اليونانيون Auranitis ويسميها الإفرنج اليوم Hauran». ثم يعرض حدودها ومساحتها وطبيعة أرضها وتربتها وتبعيتها لدمشق. وفي القطوف التالية يبحث في الأقضية التابعة لها (عجلون، جبل حوران، بصر الحرير، درعة والقنيطرة)، ثم يبحث في طبيعتها (في

هوائها ومائها، تربتها وصخورها، حيواناتها ونباتاتها وحاصلاتها ومعادنها). وفي الفرع الرابع يدرس سكانها الحاليين وعشائرهم، ثم لغتهم وأخلاقهم وعاداتهم وملابسهم.

وحوران مثل غيرها من المدن السورية، فيها كثير من آثار الأمم التي توالت عليها. ففي السويداء وإذرع اكتشف العلماء كثيراً من الكتابات القديمة باللغتين الآرامية واليونانية. وفي عتيل والجرين وإذرع وكفر لحى وقنوات وأم الجمال كتابات باللاتينية واليونانية. وفي مدينة حران 'اللجا' كتابة على حجر في كنيسة قديمة بالكوفية واليونانية. وفي أخرية تل شيحان تم اكتشاف تمثال لسيحون ملك الأموريين مجندلاً بحربة عدو. وفي صلخد صخرة اللات المربعة التي عبدها الأنباط والعرب، وعليها كتابة تدل على أنها نصبت لذي الشري وهو معبود نبطي.

أما بالنسبة لتجارتها، فإن حوران قديماً كانت متصلة بتجارة الفينيقيين الذين مروا بها. فكانت قوافل اليمن تسير إلى الشمال متجاوزة مكة ويثرب، فتصل إلى حجر (بترة) مدينة الإقليم العربي، وتنتهي إلى فينيقية بطريق بلاد مؤاب وعمون. ولقد زادت تجارة النبطيين في عهد الرومان براً وبحراً، وكان النبط يملكون حدود سورية الشرقية ويحكمون على دمشق وضواحيها وجبل الشيخ، وكانت بيدهم زمام التجارة بين مصر وسائر المشرق. أما بصرى فكانت محطاً لرحال القوافل ولا سيما في عهد مدينة تدمر، وذلك لحسن موقعها التجاري.

ومن لبنان، الموطن الحالي لبني المعلوف، بعد تركهم حوران، تبدأ الشجرة الثانية من (دواني) عيسى المعلوف. وفيها يتحدث عن موقع لبنان ثم اسمه ويقول إن اسم لبنان يعني الأبيض، وذلك لاشتعال قممه ببياض الثلج معظم أيام السنة. ثم يتطرق إلى وصفه على لسان المؤرخين والكتبة من العرب والإفرنج، وفي وصفه يقول رينان الفرنسي: «إن جبال لبنان أشبه بجبال الألب، ولكنها أبهج منظراً وأعطر رائحة من الألب». وفان دي فلد الهولندي يقول: «إنني لم أجد في البقاع التي طفتها مناظر جبلية جميلة متغيرة مع ضيق نطاقها مثل لبنان لا في

جافة الخصيبة ولا في غابات بورينو الغنية ولا في سومطرة الجليلة ولا في سيلام المشبهة للجنة. وكذلك لم أجد في جبال أفريقية الجنوبية الجرداء ولا في غابات جزائر الهند الغربية كرؤوس جبال لبنان الغربية الجنوبية.. وبعبارة أخرى كل ما تشتهي العين أن تراه على سطح المعمور».

لقد سكن هذا البلد الصغير الجميل (لبنان) كثير من الأمم القديمة كالحثيين والفينيقيين، فالحثيون تغلب عليهم فراعنة مصر فامحى ذكرهم. أما الفينيقيون فكانوا يمتدون من عكا إلى أرواد ومن البحر المتوسط إلى أعالي لبنان. وقد اشتهرت صور الفينيقية بأرجوانها وصيدا بزجاجها، وسكانها ابتكروا الأبجدية ونقلوها إلى العالم. وهم من أسسوا فن الملاحة، واستخرجوا المعادن من البلدان البعيدة، ولقد عرفوا جزائر البحر المتوسط وسواحله، ووصلوا إلى الهند وبلاد الإنكليز وطافوا حول أفريقية، فملكوا البحر المتوسط والبحر الأحمر وتوغلوا في المحيط الأطلسي حتى بلغوا جزائر كنارية. وقد سمي مؤسسو فينيقيا القديمة الذين استقروا على سواحل لبنان الحالي فينيقيي الشرق، والذين سكنوا في شمال أفريقيا وأسسوا قرطاجة فينيقيي الغرب.

لم ينس أبناء لبنان ذلك التاريخ المجيد لأجدادهم الفينيقيين، فانطلق بعضهم إلى العالم الجديد وأوستراليا، فكثرت الجالية السورية هناك، وقد قدر بعضهم أن ثلث المهاجرين يسكن أمريكا وثلثهم عاد إلى وطنه والثلث الآخر مات في المهجر. وفي مطلع القرن العشرين أحصي عدد السوريين المهاجرين فكان مئتين وخمسين ألفاً، منهم ستون ألفاً في الولايات المتحدة الأمريكية، وخمسون ألفاً في أمريكا الجنوبية وخمسة عشر ألفاً في أميركا المتوسطة وعشرة آلاف في أوستراليا والباقون في أفريقيا والهند والفلبين.

ومن مشاهير اللبنانيين في أمريكا خليل إبراهيم المعلوف الذي رحل إلى أوتاوا ومن ثم إلى نيولسكرد. اشترى أسهماً في شركة المناجم في كولمن وربح بها أرباحاً طائلة، ساعدته على إنشاء مشروع مفيد، فاشترى شلالات تشستر وبدأ بتشييد محل لتوليد الطاقة الكهربائية لإنارة المدينة. واشترى أراضي غنية بالمعادن، فأسس شركة لتعدينها سماها (معادن كندا العظيمة). وبعد توليد

الكهرباء في مدينة نيولسكرد نال إعجاب جميع القائمين هناك. وقال السيد روبك: «إن مستقبل كندا يتوقف كثيراً على انتشار قوة هذه المياه» وشكر خليل المعلوف. ثم منحه ملك إنكلترا إدوارد السابع كتاب شكر وإذناً لأولاده أن يدرسوا على نفقة الحكومة في جامعة أكسفورد.

وهناك أيضاً أيوب ثابت من بيروت، وهو أول سوري سافر إلى الولايات المتحدة سنة 1850م، وأدخل زيت البترول منها إلى سورية واستجلب البضائع الأمريكية وشحن إليها الأصواف مبادلة، واشتهر بحنكته التجارية حتى لقب في مدينة بوسطن بالتاجر المدقق.

ومن الذين هاجروا إلى مصر اشتهر منهم الشاعر الناثر شاكر مغامس شقير صاحب مجلة الكنانة في مصر، وهو معرب ومؤلف الكثير من الكتب والروايات. وإبراهيم الجمال منشئ جريدة الإعلان في مصر، ثم مجلة الروايات الشهرية. والشاعر الناثر نقولا رزق الله مدير إدارة الأهرام ورئيس تحريرها. وأنطون المسابكي مؤسس مطبعة بولاق وهو أول مدير لها وذلك سنة 1826م. والمرحومان سليم وبشارة البردويل من أميون، اللذان أسسا جريدة الأهرام العربية والبيراميدا الفرنسية. وخليل زينية منشئ مجلة الراوي ومجلة المصور.

وهكذا نرى أن اللبنانيين ساهموا مساهمة كبيرة في تأسيس وإدارة المجلات والجرائد الواسعة الانتشار في مصر. وهذه الجرائد والمجلات ما زالت قائمة ومشهورة إلى يومنا هذا، وأهمها جريدة الأهرام، ومجلة المصور.



يقع كتاب (دواني القطوف) في 749 صفحة من القطع الكبير، وقد طبع في المطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة 1907 - 1908م. وصدر المؤلف كتابه بمقدمة من إحدى عشرة صفحة، ضمنها ما بحثه في كتابه ورجا إصلاح ما ورد من الأخطاء في طبعة آتية، وتمنى من الباحثين متابعة البحث والتدقيق. وقسم المؤلف كتابه إلى ثلاث حدائق. الحديقة الأولى: في مواطن بني المعلوف وفيه شجرتان، وفي كل شجرة عدة فروع، وفي كل فرع عدة قطوف. الحديقة الثانية:

في نشأة بني المعلوف وشؤونهم وفيه شجرتان، وفي كل شجرة عدة فروع، وفي كل فرع عدة قطوف. الحديقة الثالثة: في نسبة بني المعلوف وسيرهم وفيه ثلاث شجرات، وفي كل شجرة عدة فروع، وفي كل فرع عدة قطوف.

وذيل المؤلف كتابه بخمسة فهارس؛ الفهرس الأول لحدائق وأشجار وفروع وقطوف الدواني. وفي الفهرس الثاني عرض أهم مباحث الدواني في المتن والهامش. والفهرس الثالث وضع لأهم حوادث المعلوفيين ووقائعهم. ثم الفهرس الرابع الذي كان للأسر التي ذكرت في هوامش واستدراكات الدواني على حروف العربية. أما الفهرس الخامس والأخير فكان للأعلام المكانية على حروف العربية.



لقد اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب المحافظة على ما ورد في النسخة الأصلية (طبعة عام 1908م)، وذلك عملاً بالأمانة الأدبية والدقة، وكذلك من أجل الحفاظ على طبيعة النص ولغة مؤلفه كما هي، بدون أي تعديل يذكر، إلا ما اضطررنا إلى تعديله قسراً، وذلك منعاً لاختلال المعنى المقصود. حتى إننا حافظنا على علامات الترقيم كما جاءت في الأصل، وتدخلنا قليلاً في الأماكن التي تطلبت ذلك منعاً لحرف المعنى.

إن ما داخل قوسين كبيرين [.........] هو ما علقنا عليه وأضفناه إلى المتن زيادة تعريف بما ورد، أو توضيح ما. وأشرنا لتعليقنا في الحواشي والمتن بالرمز (ق) أو (ق1) أو (ق2) ...إلخ ويعني (تحقيق)، أي ما أضفناه نحن إلى الهوامش.

في فهرس (استدراكات/ تسريح نظر في الحدائق الماضية) من النسخة الأصلية، جاءت بعض الإضافات والاستدراكات كما يسميها المؤلف، وهي كما يقول: «بما أن الحدائق لا تستغني عن التقليم.. والتطعيم والغرس، فهكذا حدائق الدواني احتاجت إلى مثل ذلك، فعقدنا لها هذا الباب استدراكاً لأهم ما فاتنا .. متتبعين الصفحات في المتن والهامش».

فالمؤلف أراد لنا متابعة الصفحات التي ذكرها دون إدخال الاستدراك فيها. وفي أمكنة أخرى وردت عبارات خاطئة، فصوبها المؤلف طالباً منا أن نصححها، فقمنا بذلك الواجب، مع إبقاء ما ذكره المؤلف في الاستدراك من تصويب دون حذفه.

وجاء فهرس كتابنا مماثلاً لما ورد عندنا من ترتيب لطبعتنا نحن. أما الفهرس الثاني (أهم مباحث الدواني في المتن والهوامش) فقد تركناه كما جاء في ترقيم المؤلف لمباحثه، وليس على ترتيبنا نحن، مع أننا حاولنا أن نجعل نسختنا مشابهة لحد كبير للنسخة الأصلية إخراجياً مع بعض التعديل.

وكذلك اعتمدنا في الفهرس الثالث والذي ذكر فيه المؤلف أهم حوادث المعلوفيين ووقائعهم، على الترتيب كما جاء في النسخة العثمانية. وفي الفهرس الرابع ذكر المؤلف الأسر بالترتيب الأبجدي وقد تركناها كما جاءت تتبع النسخة الأصلية، ولم نغير شيئاً. وكذا فعلنا في الفهرس الخامس المخصص للأعلام المكانية.

وهذا الأمر دفعتنا إليه الأمانة الأدبية، التي حتمت علينا أن نحافظ على النسخة الأصلية قدر استطاعتنا، كي لا نخرج من حدود التحقيق، إلى طور التزويق وربما نصل إلى التشويه. ولولا ذلك، لشرعنا بتطبيق قواعد إعادة الطبع دون النظر إلى ما يحتويه النص الذي بين أيدينا، ودون اهتمام بالجهد الكبير الذي قام به المؤلف عيسى اسكندر المعلوف.

لقد تصرفنا في ملحق (إصلاح أهم ما فرط من الأغلاط) وقمنا بتصحيح الأخطاء دون وضع هذا الملحق في آخر الكتاب، لعدم حاجة القارئ إليه بعد التصويب، ولأن حذفه لا يخل ولا يشوه الكتاب، وتركه قد يوقع القارئ في الخطأ.



أرجو أن يكون الكتاب الذي بين يدي القارئ، قد وفى جزءاً قليلاً من حاجته إلى مثل هذا النوع من الكتب. وما حفزنا لتحقيقه، هذه المعلومات التي قلما تتوفر في كتاب واحد، فهو شامل للجغرافيا والتاريخ الشرقيين وأنساب الأسر والمواقع المشهورة التي جرت على أرض سوريا ولبنان، وتاريخ العشائر السورية ولغاتها وأخلاقها وعاداتها وحتى لباسها. ولم يهمل الكاتب تاريخ الأقوام القديمة التي سكنت سورية: الآراميين، الآشوريين، النبطيين، واليونان والرومان، والفينيقيين ...إلخ. ثم راح يذكر مواقع الدول التي هاجر إليها أبناء لبنان وسورية، وكتب معاني أسماء بعضها حين استطاع إلى ذلك سبيلاً. وقد اعتمد المؤلف، كما قال، على الدقة والتمحيص وتدقيق المعلومات تدقيقاً كبيراً بالاعتماد على أكثر من مصدر، ليخرج كتابه هذا قليل الهفوات.

وأخيراً، أرجو أن نكون وفقنا في إظهار مثل هذا الكتاب من المكتبة العربية، وإعادة طبعه من جديد لينال حقه ومكانه بين كتب التراث والتاريخ العربي. والمهم من عملنا هذا أن نؤدي الهدف الذي سعينا من أجله، لتوظيف هذا التراث في مكانه الصحيح، في عالم لا يسعنا إلا أن نقول عنه (إبادة شاملة كبيرة)، وليس كما يقال في الإعلام العالمي (قرية صغيرة)، هذه الجملة التي لم تكن تعني بالنسبة لي إلا حشر العالم غير الغربي في مكان صغير جداً ليموت اختناقاً. ولا أكون متجنياً، إذا قلت بأن ما يحدث في العالم من حروب يفوق عمل الوحوش التي نتهمها دوماً بأنها أقل مستوى من البشر، والتي ربما تقف مذهولة من صاحب العقل/ الإنسان وهي تشاهد ما يقوم به من تمزيق لأخيه ونهشه، دون أدنى شعور بالذنب.

ولا يبقى لنا سوى أن نكون يداً ، نمدها للذي يريد الخير فقط، ونقاوم بها من يرمي إلى قتلنا وإلغائنا، أو حتى إلى محاولة تهميشنا، ونعتنا بصفات لم تكن فينا يوماً.

عقبة زيدان

2002 /6/22

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي استعمر الإنسان في فسيح الأمصار، وفرق سلائله في سحيق الأقطار. فتمزق بالتنقل شمل ذوي الأرحام. وتقطعت بالتفرق علاقات الأقوام. واختلفت تارة أسماؤهم ولغاتهم. واتفقت طوراً ألوانهم وصفاتهم، فتمايزوا بالأخلاق والمذاهب، وتعارفوا بالسير والمناسب. حمداً يزلفنا إليه يوم الحساب، يوم لا ينفعنا تعارف ولا انتساب، بل ما نتزوّده من صالح الأعمال، وما نذخره من مبلغات الآمال. فلا تعمل إلا بقلب سليم، وما ربك إلا برحيم.

وبعدُ، فيقول الفقير إليه تعالى عيسى بن اسكندر ابن الخوري إبراهيم بن عيسى بن شبلي اللبناني، من سلالة عيسى ابن أبي راجح إبراهيم المعلوف الغساني الحوراني، لقد أتاح لي الحظ أن تماط عني التمائم في العصر الحميدي الأنور الذي توطدت فيه دعائم المدارس ونفقت في سوقه بضاعة المعارف. فنشر أدباؤنا مطويات أفكار نثرتها لهوات المطابع أوراقاً محبرة، ونظمتها أنامل الوراقين مجلدات مدبجة، فضاقت عنها صدور المكاتب، واتسع بها نطاق العقول. وكأني بالمؤلفين قد استمدوا الحبر من سواد عيوهم وسويداء قلوبهم. ونسجوا القرطاس من خيوط أبصارهم، وأسرجوا مصابيح المطالعات بزيت بصائرهم. واسترفوا على مناضد المراجعات ماء نفوسهم. فما الكتب إذن إلاّ عقول مؤلفيها المحنطة لم يبق من مشخصاتها سوى صور عيوهم الحسيرة ممثلة بسواد الحبر في بياض القرطاس، أو أدمغتهم الذائبة ظاهرة في تلافيف الحروف وتعاريج الكلمات، أو أرواحهم الخفية تناجي المطالع بأسرار معانيها، وترشده إلى تفهم مبانيها. فتغالى الأدباء في اقتنائها، وحرصوا على إحرازها، وأكبوا على مطالعتها، مقتطفين من رياضها ثمار الفوائد.

ولا حاجة بنا الآن إلى الإفاضة في وصف ما للتاريخ من المقام الأول بين الفنون الأدبية، والمكانة السامية في الهيئة الاجتماعية، واللذة الفائقة في المباحث العمرانية، وما في مطالعته من التأثير على الأخلاق والعادات، والحض على حسن الاقتداء. مما أنشأ عظام الرجال، ودرّب كبار الأبطال، وحنك نوابغ الساسة العظماء، وخرّج جهابذة الأدباء العلماء، نخص منه ما قصرت مباحثه على أخبار

الوطن وأخلاق قومه وعاداهم ومناشئ أُسره (عياله) وأصولها وفروعها وأنسابها ومشاهيرها وتكاثرها وانقراضها إلى غير ذلك مما هو بلا مراء التاريخ الحقيقي، لأن تاريخ العالم هو سيرة عظام الرجال بل رواية المجتمع الإنساني وصورة المعاد المعنوي. ولكنه مع فوائده هذه لم ينفسح مجاله عندئذ لقدر من الأقدار انفساحه لبعض التواريخ التي تصفحت معظمها من مخطوط ومطبوع فرأيت أن منشئيها يضربون على أوتار التقليد في التبويب والترتيب حتى لا يرن في آذانك من ألحان سردهم الحوادث إلا أصوات متفقة ليس فيها من حسن الإيقاع ما يأخذ بمجامع القلوب. فتوحد أسلوبها وأغنى أحدها عن البقية. وفوق ذلك ليس بينها من تواريخ الأسر إلا كتاب أو إثنان ألَمَّ أحدهما فقط بسرد بعض أنساب اقتصر عليها وأعرض عن إطلاق عنان البحث في الشؤون والعادات والتعليل عن الحوادث مما يسميه المؤرخون فلسفة التاريخ التي فيها لذة لا تخفى وفائدة لا تستوفى. وكأني بمؤرخينا لم يطرقوا مثل هذه المباحث لوعورة مسالكها ولعدم الوثوق برواياتها المتلونة وأقاصيصها المتنوعة بل لما تقتضيه من التوسع والتكاليف وإنفاق الوقت مما لا قِبَل لكل به فغادروا في عالم التاريخ العربي ثلمة واسعة استخرت الله في سدّها على ما بي من قصر الباع. واستعذت به على معاناة وضع تاريخ لأسرتي مع قلة ما عندي من الاطلاع. وبدأت منذ سنة 1893م بطواف المدن والقرى التي فيها أنسبائي ومشافهة شيوخها واستملائهم ما تناقلوه من الروايات خلفاً عن سلف واستطلاعهم طلع ما قرأوه وجمعوه من المخطوطات القديمة حتى ملأوا بذلك مخازن الحافظة. فدوّنتُ ما وقع عليه الاختيار غير معتمد على مجرد الرواية ولا واثق بصحة النقل، بل كنت أقيس الحوادث بأشباهها، وأعرض الروايات على أصولها، وأستقرئ جميع دقائقها وأطرافها، ليجيء المرويّ من تقاليدهم موافقاً للحقيقة، ولتكون الأخبار متواترة لا يمكن تواطؤهم على اختلافها مع تباين المكان والزمان. والمرويات مؤيدة بالبراهين اعتماداً على ما اشتهر من الأسانيد وذهاباً إلى التحقيق والتثبت. فأمعنت في التنقير والتنقيب ولا ظهير لي إلا الجلد والثبات. وبالغت في التمحيص والتدقيق ولا دليل لي إلا قديم المخطوطات. حتى صار ذلك شغلي الشاغل، ومدار حديثي في المحافل. ولما اكتفيت بما جمعته من تلك المنقولات، ورأيته مما لا يخرج عن حكم المعقولات، اقتطفت منه هذه المواضيع بعبارة ليست من الغريب الحوشي الذي تنبو عنه الأسماع، ولا من الركيك المبتذل الذي تنفر منه الطباع، مجارياً بها الاصطلاحات المشهورة ومراعياً ذوق العامة حتى إذا اضطررت

إلى مخالفتها أحياناً شفعت اللفظة بتفسيرها، أو قرنتها بما يعين على كشف معناها تقريباً للإفهام، متجنباً في كل ذلك التدليس والتمليق والإطراء عالماً أن مزالق المؤرخين ومغالطهم يتأتى معظمها إما عن التشيع أو التغرض وإما عن الثقة بالنقل وإما عن الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع. وكثيراً ما وقفتُ عند تعديل الروايات وتجريحها وقفة المسافر يشكو وعورة الطريق وهو نازع إلى استشراف ما وراء ظل الخفاء فكنت، إما أستسهل الصعب وأطأ أعراف العوائق متابعاً السير إلى الوجهة التي اخترتها فأظفر بالمراد، وإما أرجع على أدراجي خشية أن أضلّ سواء السبيل وأهبط إلى مهاوي التخليط في الروايات فأخلد إلى السكون وفي نفسي ما فيها من حب التطالّ إلى استطلاع المجهول واستكشاف المستور فأرجئ البحث فيه إلى أن يفتح الله عليّ بما هو أسدُّ منهجاً وأثبت حكماً. أو يأتي بعدي من هو أطول ذرعاً وأدق فكراً وأكثر جلداً فيميط لثام الحقيقة عن محيا الالتباس، بل يعرف مقدار العناء في استقراء مثل هذه المباحث بعد مكابدتها. فتوقفت بعد المراجعة والتثبت إلى ضبط نسبة فروع أسرتي السبعة منذ قدومها من حوران إلى عهدنا بحلقات سلسلة متواصلة كان فيها معدل مسافة العقب بين ولادة الوالد وولادة ولده ثلث قرن أي ثلاثاً وثلاثين سنة مشيراً إلى تنقلها من يوم ألقت عصاها في لبنان إلى أول الشروع بطبع هذا الكتاب في أوائل سنة 1907م. وأضفت إلى ذلك تراجم مشاهيرها وحوادثها على ترتيب لم أُسبق إليه. ولما كان التاريخ أشبه بحدائق تغرس فيها الأشجار، وتتهدل منها فروع دانية الثمار، اخترت هذه التسمية لما جمعته من الأبواب والفصول ودعوت كتابي (دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف) ولقد كشفت لي أبحاثي حقائق مطولة في حوران منشأ معظم الأسر اللبنانية فصدرت بها الدواني وتطرقت إلى تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ووقائعها وأصول سكانها وعاداتهم وأخلاقهم مسترسلاً إلى تواريخ أهم الأسر وفروعها ومشاهيرها سواء كانت ممن نشأ في حوران وفي غيرها، فرصعت بها هوامش الكتاب حسب سياق الكلام مقتطفاً إياها من تاريخها المطول الذي وضعته وسميته (الأخبار المروية في أسر لبنان وسورية) و لم آل جهداً في نشر كل فائدة وتقييد كل شاردة مزيناً كل ذلك بكثير من الأشعار للقدماء والمحدثين وبنوادر فيها جمام الذهن وشحذ الخاطر مما هو عزيز المنال جم الفائدة. ونقشت من الرقاع القديمة مخطوطة من الأمير أحمد آخر حكام لبنان من الأسرة المعنية، وأضفت إلى الكتاب خمسة فهارس تعين المطالع على معرفة مواضيعه وتسهل للباحث الوصول إلى

مبتغاه، وأشرت إلى الاصطلاحات والمصادر التي اعتمدت عليها في وضع هذا الكتاب إلى غير ذلك من ذرائع التسهيل ودلائل التحقيق. ولا بأس أن ألمّ الآن بتمهيد في مناشئ وأصول الأسر السورية واللبنانية مما توصلت إليه وهو:

غير خاف على البصير أن تنازع البقاء منذ القديم قد قضى على الناس أن يزاحم بعضهم بعضاً بالمناكب ويتجاذبوا أهداب الشهرة والارتقاء فاشتدت حاجتهم إلى التنقل والارتياد والمهاجرة إما تملصاً من الفواجئ الجائحة كالفتن والزلازل والأوبئة والمجاعات وإما انتجاعاً للرزق ورغبة في الاتجار واستعماراً للأرض، فتوازعتهم البلدان السحيقة حتى غص فسيحها بسلائلهم وعمر مواهما بقبائلهم. ولما توفرت الراحة في لبنان وما يجاوره في أثناء القرن الخامس عشر للميلاد كثر المهاجرون إليه من بلاد حوران وازدحمت به أقدام الشرقيين بقوافلهم الناقلة للبضائع من الهند والعجم وغيرها فاختلطت فيه الأمم وتمازجت النحل ولا سيما بعد الفتح العثماني في أوائل القرن السادس عشر، إذ مدّ فيه ساكن الجنان السلطان سليم الأول رواق الأمن ونشر لواء العدل، فركدت بعنايته زعازع الفتوق وخمدت نيران المشاحنات فاندفق إليه الناس من كل صوب كالسيل الآتي. وكان معظم المسيحيين من حوران من القبائل المتنصرة أخصها الغساسنة الذين كثر مناوئوهم وتفرقت كلمتهم وتمزق شملهم واختلفت أسماؤهم فاعتصموا بلبناننا لمناعته اعتصام الأيطوريين من السلائل العربية به في عهد الدولة الرومانية والمردة من القبائل الآرامية ومن خالطهم وعاصرهم. فامتزجت هذه الأمم امتزاج الماء بالراح وخفي كثير من أصولها إلا ما كان منها حديث العهد أو صريح النسب. وكان في الفترات الماضية قد هاجر كثير من اليونانيين إلى تدمر أيام عزها ومن الصليبيين إلى الأساكل البحرية في عهد حروبهم مع المسلمين ومن العجم والأكراد إلى السواحل لحمايتها وخفارتها. ومن الإفرنج إلى ثغور البحر الرومي لترويج التجارة فيها ومن أقدمهم البنادقة (الإيطاليون) ثم الفرنسيون واليونانيون والإسبانيون فالانكليزيون وغيرهم كما سنفصل ذلك في ما يأتي. فتمازجت هذه الأخلاط وتداخلت الأنساب ونشأت الأسر المتباينة التي ترجع أصولها في الغالب إلى محتد عربي وآرامي وهما أوفرها عدداً وإلى عجمي وكردي ويوناني وإفرنجي، وربما اختلفت مذاهبهم وأسماؤهم اختلاف أصولهم وفروعهم. وأهمّ ما جروا عليه في التسمية إما الارتجال وإما الانتساب إلى المكان أو الصناعة أو التجارة أو الصفات أو الأعلام ممن اشتهر من الجدود والآباء والأمهات والألقاب والكنى.

فليس دائماً اتفاق التسمية بدليل على اتفاق الأصول والفروع ولا اختلافها ببرهان على اختلافهما. وأكثر الأسماء التباساً التسمية بالصناعات ونحوهـا مما يصح الاشتراك به. وأقلها إشكالاً الأسماء المرتجلة إذ قلما يتفق فيها اثنان منها ولذلك مست الحاجة إلى تدوين تواريخ تردّ كل بطن إلى فرعه وكل فرع إلى أصله وكل أصل إلى قبيلته فتتمايز وتتعارف.

ومن أهم ما حدا بي إلى تجشم هذه المباحث اعتقادي أن إعراض أخلافنا عن تلقن أخبار أسلافهم بطريق الرواية قد فشا بيننا لدواع من أخصها التهافت على مطالعة التواريخ الإفرنجية والروايات القصصية مما وضعه غيرنا لغيرنا. وتفضيل تلك المناجيات السرية على هذه المناغيات الجهرية وترك التسامر بأخبار من درج من أقوامنا وما جرى في ربوعنا مما كانت تعقد له المجالس في ليالي الشتاء وأوقات الفراغ وتخزن أقاصيصه في مخادع الذاكرة ويتناقله الحفظة ليعيدوه على أعقابهم تلهياً به وتفاخراً بالسلف شحذاً للقرائح وقتلاً للأوقات. فكانت تلك الحكايات المروية أشبه بالأغاني والأناشيد التي نستودعها الآن أساطين الحاكي (الفنغراف) ليعيدها لنا تلذذاً بها. فلا عجب إذا ضعفت لعهدنا الرواية وكادت حلقات تسلسلها تتقطع حتى لا يعلق بذهننا منها إلا نزر يسير لا يشفي غلة. ومن أشد الضربات على إهمال التسامر تفرّق أقوامنا على العالمين القديم والجديد حتى يخشى بعد ردح من الزمان أن يتمزق ما بينهم من لحمة النسب ويتفرق ما يجمعهم من شبكة الرحم، بل ربما طرأ على أحد نصفي الكرتين العظيمتين من الجوائح الطبيعية ما يقطع حبال تواصلهما وينقض مبرم اتحادهما فتجهل أنساب بقايا أقوامنا في أرض كولمبس كما جهلت أصول سكانها الأولين وتعذر ردّهم إلى محتد معروف.

بقي أن ما يراه القارئ اللبيب في (الدواني) من التقديم والتأخير والتكرير والتقصير إنما أكرهني عليه تخلف بعض الأنباء عني مع إلحاحي بطلبها من مظانها مراراً، فاعتمدت في كثير منها على ما أعرفه بنفسي أو أتناوله عمن أثق به، أو على ما مكن الوقوف عليه من المخطوطات القديمة. وكان يردني بعضها بعد الطبع وفوات المحل الذي فسحته له أو تزدحم الحواشي (الهوامش) في صفحة واحدة لا يمكن فيها تفريغ فسحة لكل منها فكنت أرجئ بعضها إلى محل آخر أو إلى الاستدراكات التي ختمتُ بها الكتاب. وأما ما اعتمدت عليه من الآراء العلمية وبعض التحقيقات التاريخية والجغرافية والإحصائية فربما فرط فيه سهو أو تقصير لتغير الآراء وتضاربها ولعدم وقوفي دائماً على ما قرره العلماء المحدثون مما يختلف

فيه الرأي في أثناء سنة واحدة فكيف بما طويت عليه السنون. وسأتعقب ما فاتني منه رجاء إصلاحه في طبعة آتية إن شاء الله أو أترك إصلاحه إلى من هو أطول باعاً وأدق بحثاً وأوسع اطلاعاً.

هذا، ولي بعد كل ما قدمته ثقة تامة بذوي النقد من مطالعي الدواني الكرام، وأرباب الخبرة الواسعة من إخواني حملة الأقلام، أن يرشدوني إلى ما زل به اليراع القاصر، وأن يتغاضوا عما ذهل عنه الذهن الفاتر، لأن من يعترف بتقصيره فذنبه مغفور، ومن يشرع بعمل لم يسبقه غيره إليه فهو معذور. والله المسؤول أن يرمقني بعين عنايته، ويتولاني بنور هدايته، ويكسبني عوض ما بذلته من النصب، رضى مطالعيه من جهابذة الأدب. إنه هو السميع المجيب. وبه أعوذ وإليه أُنيب.

{تنبيه} أصلح الأغلاط وراجع الاستدراكات واعتمد على الفهارس يسهل عليك الوقوف على ما تريده.

الحديقة الأولى

في مواطن بني المعلوف وفيها شجرتان

الشجرة الأولى

في حوران ولها فروع

[تمهيد]

في الأسر الحورانية الأصل

سلام على التلك المعاهد إنها شريعة وردي أو مهبُّ شمالي
ليالي لم نحذر حزون قطيعة ولم نمش إلا في سهول وصال
فقد صرت أرضى من سواكن أرضها بخلَّب برق أو بطيف خيال

هذه الأبيات هي لسان حال كثير من الأسر (العيال) التي تركت حوران وما يجاورها، وانتشرت في سورية ولبنان وغيرهما، وتناست موطنها الأول إما لقلة اعتنائها بالتاريخ وبحفظ ذكر أبنائه، وإما لطول العهد عليها حتى لم تتجدد عندها ذكرى تثير في النفس حنيناً إلى تلك الكورة الواسعة والسهول الخصيبة والجبال المنيعة التي غادرها لحيفٍ لحق بعضهم ولزمن نبا بهم ولضيق المحل الذي ازدحمت فيه الأقدام انتجاعاً للرزق وارتياداً للرفق، فلفظتهم البلاد لفظ النواة، ومزقت شملهم عوادي الأيام وكوارث الليالي، فذرعوا تلك الفلوات الواسعة ينهبون أرضها إما على الخيول المطهمة، وإما على الهجن النجيبة، وإما على البغال والحمير الفارهة، وإما عدواً على الأقدام الدامية. وفي نفوسهم ما فيها من التلهف على موطن أظلتهم سماؤه وأقلتهم غبراؤه ووالتهم أبناؤه واكتنفتهم نعماؤه، إلى أن فارقتهم سراؤه ولحقتهم ضراؤه، فلم يستطيعوا على ذلك صبراً، بل هجروه هجراً، وتركوه منزلاً قفراً، وتناسوه ذكراً، وكرهوه سراً وجهراً. حتى إذا زال ما علق بنفوسهم

من تلك المكدرات، جالت في خواطرهم محاسن التذكارات، وحنوا إليه حنين الأمهات على البنين والبنات، ولله في خلقه آيات:

كم من منزل في الأرض يألفه الفتى | وحنينه أبداً لأول منزل

فأخذوا يقصون على أبنائهم ما جرى لقدمائهم، ويحيون الليالي في سرد تلك الأمالي. ولكن عدم الرغبة في تعليق تلك الأنباء على دفاتر الأبناء، حملهم على استيداعها خزائن الذاكرة، واتخاذها مواضيع المسامرة، فخالطها ما يخالط المرويات، من السفاسف والترهات، حتى لقد تجد الخبر الواحد يدعيه الكثيرون ويختلفون في إسناده إلى السنين والقرون. فضلاً عما نراه لعهدنا من تناسي مثل هذه الأخبار، والتلاهي عنها بأحاديث سحيق الأقطار التي اقتعدنا لها غارب الأسفار، وخضنا لجج البحار إحرازاً للدرهم والدينار:

فقد كنت أبكي على من مات من سلفي | وأهل ودي جميعاً غير أشتات
واليوم إذ فرّقت بيني وبينهم نوى | بكيت على أهل المودّات
فما حياة المرء أضحت مدامعه | مقسومة بين أحياء وأموات

ولطالما كنت أسمع من أقاصيص البلاد الافتخار بذكر الآباء والأجداد حتى نزع بي شوقي إلى استملاء تلك الأخبار وتمحيصها على نار الاختيار والاختبار. فطويت بضع عشرة سنة، أنتخب من كل قول أحسنه، وأعارضه بأقوال المؤرخين الثقاة، وأقابله بما جمعته مكتبتي من قديم المخطوطات، مما له علاقة بالموضوع، ولكنه غير مصنوع. فتوقفت إلى وضع تاريخ مطول لحوران، ومختصر لسورية وفلسطين ولبنان، راعيت فيه جانب الترجيح والقول الصريح الصحيح، ثم أردفته بأخبار أسرتي، مما وصلت إليه خبرتي، وعلقت عليه الحواشي العديدة والمطالعات المفيدة، ليرى فيه غير الأنسباء، ما توفقت إليه من الاستقراء. ولعلي مهدت بهذا العمل، فتح باب أوصده ضعف الأمل لوضع تواريخ للأسر التي معظمها حوراني الأصل، وبأبيات الأرجاني الآن القول الفصل:

إذا علم الإنسان أخبار من مضى | توهمته قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر عمره | إذا كان قد أبقى الجميل من الذكر
فقد عاش كل الدهر من كان عالماً | حكيماً حليماً فاغتنم أطول العمر

الفرع الأول

في جغرافية بلاد حوران وفيه قطفان

القطف الأول

في جغرافيتها القديمة

يشتق اسم حوران على الأصح من حور العبرانية بمعنى المغارة والكهف، وقد سماها اليونانيون (Auranitis)، ويسميها الإفرنج اليوم (Hauran)، وقد ذكرها امرؤ القيس بقوله:

ولما بدت حوران والآل دونها   نظرت فلم تنظر بعينك منظرا

وشاعر آخر بقوله:

إذا هبطت حوران من أرض عالج   فقولا لها ليس الطريق هنالك

وحوران كورة واسعة من أعمال دمشق إلى الجنوب الشرقي منها تبعد عنها حوالي نحو عشرين ميلاً ذات قرى ومزارع وسهول وجبال، كانت منذ القدم منازل للقبائل الرحل ولا سيما العرب الذين ذكرها شعراؤهم مراراً، ولقد زارها كثير من السياح الأوروبيين وبحثوا عنها بحثاً مدققاً وألمع إليها كثير من علمائهم. ومع كل هذا لم يفرد لها في لغتنا العربية تاريخ خاص فيما أعلم.

وسهل حوران يمتد من بحر الجليل إلى اللجاء[ق] ومن هناك إلى حدود بلاد العرب ويكاد يخلو من الحجارة وتربته جيدة جداً وفي صخوره كثير من المغاور والكهوف احتفر القدماء بعضها لخزن الماء والحنطة واتخذوا معظمها للسكن. وعرفت حوران في زمن بني إسرائيل وذكرها الكتاب المقدس مراراً راجع حزقيال

[ق] وذكرت في أماكن أخرى "اللجاة" و"اللجا".

47: 16و18 وكانت حوران في أيام الرومانيين مؤلفة من ايطورية (الجيدور) وجولانيتس (الجولان) وباشان (البثينة) في شرقيها وتراخونيتس (اللجاة) في شرقيها الشمالي وحورانيتس (حوران) وإليك ما عرف إذ ذاك عن كل قسم من هذه الأقسام.

(الجيدور) كانت جهة الأردن الشرقية تسمى في زمن السيد المسيح عبر الأردن وفيها ثمانية أقاليم داخلة فيها ايطورية (لوقا 3: 1) وهي شمالي بيت عنيا وشرقي الجولان. نسبت إلى قبيلة الايطوريين من سلالة ايطور بن اسماعيل ومعنى ابطور الجبلي وبهم سميت البقعة التي نزلوها كما سيجيء. وقال بلينوس: أن ابطورية إلى شمال باشان وقرب دمشق. ولا يخفى أن جيدور تعريب كلمة ايطور العبرانية. ويحد الجيدور اليوم شرقاً اللجاة وجنوباً الجولان، وغرباً جبل حرمون وشمالاً سهل دمشق. وهي هضبة متموجة السطح فيها آكام مخروطية وكاسية وجنوبيها خصيب كثير المياه وشماليها صخري، وتركيب طبقاتها الأرضية أشبه باللجاة.

(الجولان) معناها الدائرة وهي مقاطعة سميت باسم مدينة الجولان الشهيرة التي كانت مدينة اللجاة في باشان (يشوع 21: 27) وقعت في نصف سبط منسى (تث 4: 43) وأخذها اللاويون من أسرة جرشون. وولاية الجولان كان يحدها شمالاً وشمالاً غربياً جبل الشيخ (حرمون) وجنوباً شريعة المنظور وشرقاً حوران وغرباً مجرى الأردن الأعلى وبحيرة طبريا. ويظن أنها كانت تشمل الجيدور الحالية وزعم بعضهم أن مدينة الجولان هي قرى نوى ولا دليل على هذا الزعم. ومعظم أرضها خصيب إلا الجهة الغربية فإنها صخرية ترتفع أكثر من ألفين وخمس مئة قدم كما قال النابغة:

قاد الجياد من الجولان قائظة ... من بين منعلة تزجى ومجنوب

وقال الجوهري الجولان جبل بالشام وحارث قلة من قلله في قول النابغة:

بكى حارث الجولان من فقد ربه ... وحوران منه خائف متضائل

وقول الراعي:

كذا حارث الجولان يسبرق دونه ... دساكر في أطرافهن بروج

وقيل حارث الجولان قرية من حوران والله أعلم.

(البثنية) هي باشان (Basan, Bashan) العبرانية الأصل ومعناها التربة الخصبة وربما أشاروا بهذا إلى خصبها ووفرة مراعيها وقد سماها أبو الفداء المؤرخ العربي البثنية وهي ترجمة كلمة باشان. وذكرت في الكتاب المقدس ستين مرة وموقعها بين جبلي حرمون وجلعاد شرقي الأردن ونسبت إلى جبل فيها اسمه باشان وهو جبل حوران اليوم وتربتها بركانية خصيبة رائعة غزيرة المياه يزرع فيها جميع الحبوب واشتهرت بغاباها التي تحاكي أرز لبنان.

وكانت مملكة باشان في حروب بني إسرائيل محدودة غرباً بنهر يبوق (الزرقاء) وجبل جلعاد وآخذة من العربة ووادي الأردن نحو الشرق إلى حد صلخد[ق] والبادية. ولذلك أطلق اليهود اسم باشان على الأقاليم الخمسة الشمالية الواقعة في عبر الأردن وهي ايطور والجولان وتراخونيت وحوران والبثنية[1]. وصارت باشان بعد سبي بابل أربع إيالات الجولان وارجوب وحوران والبثنية ما عدا ايطورية في الشمال الغربي فإنها لم تكن قسماً من باشان وإن يكن الإسرائيليون قد ملكوها. واشتهرت هذه المقاطعة بخصبها وببلوطها ومواشيها وآثار مدنها القديمة وكان نهر اليرموك يصب في الأردن تحت بحر الجليل التخم بين باشان وجلعاد[2].

(اللجاة) هي كورة وعرية صخرية موقعها إلى شرقي الأردن وشمالي حوران ذكرها الكتاب المقدس باسم مملكة ارجوب (حجر) أربع مرات. وسماها اليونان تراخونيتس من تراخوس بمعنى حجر أيضاً، وتسمى اليوم اللجاة مع جزء من جبل حوران أو جبل باشان المعروف بجبل الدروز. وطولها نحو ثلاثين ميلاً وعرضها عشرون وهي بيضية الشكل وحجارتها من الحرّي[3] (Baselet) تكونت من بركان تل شيحان[4] وارتفاعها نحو ثلاثين قدماً فوق السهل وكانت حصينة ولن تزال إلى عهدنا آثار مدنها وقراها الضخمة ماثلة ومعظم بيوتها مسقوف بصفائح الحجارة ولها أبواب وكوى منها. حتى عدت أقدم البيوت التي لا تزال قائمة في العالم وتخترقها طريق رومانية يرجح أنها كانت بين بصرى ودمشق.

[ق] وهي اليوم تابعة لمحافظة السويداء.

[1] تاريخ لبنان للأب مرتين اليسوعي النسخة العربية صفحة 361.

[2] راجع كلمتي باشان وحوران في دائرة المعارف الأميركانية المطبوعة سنة 1903.

[3] الحرّة الأرض ذات الحجارة النخرة السود كأنها أحرقت بالنار والحرّي نسبة إليها.

[4] هو على مقربة من قرية شهبا وهناك فوهة بركان قديم بقرية شحبة وعلو تل شيحان 3757 قدماً وفي اسمه مناسبة لسيحون الذي سيرد ذكره.

وفي زمن المسيح كانت الجهة الشرقية من النهر الحاصباني وبحـيرتي الحولـة وطبرية تحت ولاية فيلبس والجهة الواقعة شرقي نهر الأردن التي هي الآن جزء مـن لواء حوران المسماة ديكابوليس[1] أي المدن العشر كانت تحت ولايـة هـيرودس أنتيباس.

وكانت حوران الإقليم السادس في فتوح الإسلام (الذي أطلق عليه العربيـة) ولاية من ولايات الروم التي سموها ولاية الشرق وعددها أحد عشر إقليماً. وكـان عدد بلاد حوران إذ ذاك أربعة عشر مع قصبتها بصرى تابعة لولاية الشام.

وفي زمن شمس الدين المقدسي المعروف بالبشاري (414هـ ـ 1023م) كـان لدمشق ستة رساتيق هي الغوطة وحوران والبثنية والجولان والبقاع والحولة[2].

وفي زمن الصليبيين سمي كل شرقي الأردن العربية، فالقسم الشمالي منه حـول بصرى سموه العربية الأولى، والإقليم الذي حول الكرك العربية الثانية، والجنـوبي الأبعد العربية الجنوبية[3].

وقال خليل بن شاهين الظاهري من جغرافيي القرن الخامس عشر للميـلاد في كتابه (زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك): أن الأوائل قسموا الشـام إلى خمسة أقسام، فلسطين وحوران والغوطة وحمص وقنسرين. وذكر أن مدينـة حوران العظمى طبرية ومن مدنها الغور واليرموك وبيسـان. ثم قـال في وصـف حوران: «وأما حوران فقيل أن بها عدة أقاليم والمستفيض بين الناس أنه نيف عـن ألف قرية بها مدينة اللجاة ومدن صغار متفرقة وهي أيضاً من معاملة دمشـق»، إلى غير ذلك مما كان يختلف باختلاف الأحوال.



[1] إن موقع المدن العشر (Decapolis) على جانبي الأردن ومعظمها في شرقيه أعاد الرومانيون بناءها نحو سنة 65 ق.م بعد دمارها وذكرت ثلاث مرات في الانجيل (مت 4: 25 ومر 5: 30 ز7: 31) وسماها بلنوس هكذا سكيثو بوليس (بيسان) وجدرة (أم قيس) وهبوس وبلاّ (الفحل) وفيلادلفية (عمان) وجرسا (جرش) ودبـون وقنتة (قنوات) ورقنة ودمشق. وفي هذه المدن شفى المسيح الأصم الأعقد. وبلاّ هرب إليها المسيحيون لما علموا بقرب الحرب في أورشليم بزمن ولاية أغريباس في عبر الأردن سنة 67 ب.م.

[2] مجلة المشرق الغراء 5: 486.

[3] راجع سياحة روبنصن وسمث في فلسطين المطبوعة في بوسطن (أميركة) سنة 1856 الجزء الثـاني صفحـة 161.

الفصل الثاني

في جغرافيتها الحديثة

موقع حوران لعهدنا في الدرجة 32 من العرض الشمالي و34 من الطول الشرقي[1] يحدها شمالاً دمشق وما إليها من الخط الجنوبي وجبل الشيخ ومجدل شمس. وشرقاً بادية سورية وجنوباً برية فسيحة تتاخم الحجاز تعرف بأرض جلعلد وغرباً نهر الأردن إلى ما وراء بحيرة طبرية حتى السلط، والأردن يفصلها عن ولاية بيروت.

ومساحتها من الشمال إلى الجنوب نحو مائتين وثمانين ألف ذراع ومن الشرق إلى الغرب نحو مائتي ألف ذراع ونيف، وعدد قراها ستمائة وسبعون قرية أشهرها وأكبرها بصرى اسكي شام (أي الشام القديمة) ونوى والسويداء ودرعة. على أن أكثر من نصف هذه القرى أصبح اليوم قاعاً صفصفاً وقد نقل أكثر حجارته لابتناء العامر منها وترسيمه.

وتقسم هذه الأرض إلى جبلية ووعرية وسهلية. فالجبلية هي جبل حوران وعجلون، والوعرية اللجاة وسكانها عرب السلوط وفي مشارفها إسلام ومسيحيون ودروز وأرضها خصيبة، والسهلية من غباغب إلى حدود جرش.

ويطلق عليها البعض اسم النقرة واللجاة وجبل حوران[2] والنقرة سهل خصيب خال من الحجارة والأشجار ممتد طولاً من أوله إلى آخره من وادي العجم في الشمال إلى القفرة في الجنوب وفي شماليه الجيدور والجولان وفي غربيه جبل عجلون وفي الشرق اللجاة وهو المعروف بالوعرة الكثيرة المعاقل الحصينة. وفي المعجم اللجاة اسم للحرة السوداء التي بأرض صلخد من نواحي الشام فيها مزارع وقرى وعمارة واسعة يشملها هذا الاسم ا هـ ــ وموقعه شرقي النقرة وشمالي الجبل وعلوه نحو علو النقرة وبه مسالك كثيرة بين الصخور البركانية والمغاور وفي شماليه كثير من القرى. وموقع الجبل في شرقي حوران يمتد من الشمال إلى الجنوب وهو سلسلة ذات تضاريس كثيرة لا يتجاوز أعلاها ألفاً وثمانمائة قدم عن سطح بلاد حوران ومياهه قليلة وخصبه وافر الريع. ويحده من الشمال اللجاة المعروف بالوعرة ومن الشرق البادية ومن الجنوب برية نهايتها الحجاز ومن الغرب النقرة.

---

[1] تقويم (سالنامه) ولاية سورية سنة 1300هـ و1882م.

[2] راجع المرآة الوضية للمرحوم الدكتور كرنيليوس فانديك الشهير ودائرتي المعارف الأميركانية والعربية.

ومعظم طوله من الشمال إلى الجنوب يومان أي ستين ميلاً ومعظم عرضه من الشرق إلى الغرب ثلاثون ميلاً أي مسيرة يوم. فمساحته نحو ألف وثمانمائة ميل مربع ومعدل سكان كل ميل أكثر من 15 نفساً[1].

ولما نظمت ولايات الدولة العلية العثمانية سنة 1383 هـ ــ 1864م صارت دمشق قاعدة ولاية سورية الجليلة التي كان أول ولاتها المرحوم أسعد مخلص باشا، وحوران لواء أو متصرفية أو سنجقاً[2] وقسمت إلى أربعة أقضية:

(1) قضاء الشيخ سعد وهو مؤلف من الجيدور وحوران وقصبته بلدة الشيخ سعد من ناحية الجيدور وفيها العبيد الذين جلبهم الشيخ سعد بن عبد القادر وهي على مسافة 10 ساعات من دمشق.

(2) قضاء القنيطرة وهو في الجانب الشمالي من مركز اللواء يبعد عنه سبع ساعات وقصبته قرية القنيطرة.

(3) قضاء عجلون في الجهة الجنوبية يبعد عن مركز اللواء سبع ساعات أيضاً وقصبته اربد.

(4) قضاء جبل الدروز في الجهة الشرقية يبعد عن المركز المذكور نحو اثنتي عشرة ساعة.

وفي سنة 1311هـ ــ 1896م قسم قضاء هذا الجبل إلى خمس نواح لكل منها مدير هي السويداء وملح وعاهرة والشهباء وصلخد. وفي تلك السنة بنيت دار الحكومة السنية في السويداء وأطلق عليها قصبة.

وفي سنة 1318هـ ــ 1900م كانت أقضية حوران هكذا، ما يتبع اللواء ناحية غباغب وجاسم، ثم قضاء عجلون ونواحيه وكورة وجرش، ثم قضاء القنيطرة ونواحيه مجدل شمس وزوية وجولان، ثم قضاء بصر الحرير، ثم قضاء درعة وناحيته اسكي شام (بصرى)، ثم قضاء السويداء وصارت نواحيه صلخد وعاهرة وشهباء فقط.

---

[1] قدر بعضهم أن سكان الكيلومتر (ألف متر) المربع في أوربة 37 وفي آسية 19 وفي أفريقية 5 وفي أميركة 3 وأكثر أوربة سكاناً بالنسبة إلى المساحة بلجيكة وأقلها اسبانية. وقدر آخر أن في كل كيلومتر مربع في جزيرة مالطة 1360 وفي بلجيكة 224 وفي هولندة 152 وفي انكلترة 120 وفي إيطالية 110 وفي الصين 100 وفي ألمانيا 97 وفي الهند 75 وفي فرنسة 73 وفي النمسة 66 وفي سويسرة 61 والدانمرك 57 والبرتغال 55 والممالك المحروسة 40 واليونان 37 واسبانيا 36 وروسية 19. ولعل أصغر ما عرف في أسوج 4 وفي الولايات المتحدة الأميركية سكان الكيلومتر المربع في جزيرة رود 106 وماسوسيث 104 ونيوجرسي 71 وكنكتيوت 57 ونيويورك 47 وبنسلفانية 45.

[2] السنجق لفظة تركية معناها لواء.

وفي سنة 1322هـ 1904م أُلحق قضاء القنيطرة بولاية الشام رأساً لإلحاح الجركس[1] الذين كثروا فيه. وصار تنظيم حوران الآن على هذا النمط.

مركز اللواء الشيخ مسكين (شمسكين) وكانت مركز عمالة آل غسان قديماً. وكان مركز اللواء قبلاً الشيخ سعد تجاه نوى إلى الجنوب. والأقضية اليوم أربعة (1) درعة وسكانها مسلمون نحو عشرهم من الأرثوذكس. (2) بصر الحرير وسكانه مسلمون ثلثهم مسيحيون، فالروم الكاثوليكيون منهم في خبب وتبنة وشقرا واذرع وتامر وصماد. والأرثوذكسيون في الدارة واصلحة ورخم وزنيبة اذرع. والثلثان الباقيان من المسلمين والدروز والبدو. (3) السويداء ومعظم سكانه دروز منهم العشر مسيحيون فالأرثوذكس في الجهات الجنوبية والكاثوليك في جهات الجبل الشمالية. (4) اربد في عجلون سكانه مسلمون ربعهم من الأرثوذكس بينهم قليل من اللاتين والروم الكاثوليك. وحوران اليوم راقية في معارج التقدم مثل غيرها من الممالك المحروسة الشاهانية، فسكة دمشق الحديدية قد اتصلت منذ سنوات بالمزيريب والسكة الحجازية تخرقها من الجهة الثانية وسيكون لها شأن عظيم وارتقاء قريب إن شاء الله. وقد تولى شؤونها 26 متصرفاً منذ تنظيمها إلى اليوم ومتصرفها الحالي سعادتلو حيدر بك.



[1] ويقال الشركس كلمة تترية معناها قطاع الطريق أطلقها عليهم التتر وهم مهاجرون من روسية أوربة سموا باسم إقليم من ولاية كوبان يشبهون البدو ومنهم نصارى وأكثرهم مسلمون جاء منهم سنة 1863 نحو مائتي ألف إلى الممالك المحروسة وتفرقوا في جهات مختلفة وهم على الغالب طوال عراض المنكبين نحاف الجسم صغار اليدين والرجلين حداد النظر لهم هيبة وبأس ولطف ولا سيما نساءهم.

الفرع الثاني

في شؤونها الإدارية وفيه قطوف

القطف الأول

في قضاء عجلون

موقعه في الجنوب الغربي على بعد سبع ساعات من مركز اللواء ومقر حكومته (اربد) وهو يشمل الأراضي الواقعة بين نهر اليرموك شمالاً ونهر الزرقاء جنوباً وفي طرفه الشمالي يساوي سهل الجولان وهو من أجمل الأماكن موقعاً في سورية لكثرة غاباته الجميلة الغبياء التي يكثر فيها السنديان وغيره من الأشجار ولما يحدق به من السهول المفروشة ببسط سندسية حاكتها أنامل الطبيعة على أبدع منوال وأعمر قراه (عجلون) وفيها 2500 ساكن وهي على شاطئ الأردن الشرقي على منحدر جبل عجلون على مقربة منها إلى جهة الغرب قامة الربض وتسمى الباعوثة أيضاً. وتصلح تربة هذا القضاء لزرع كل نوع من الحبوب وحاصلاته تقدر بأكثر من سبعمائة ألف كيلة اسلامبولية. وفي قرية (مخيبة) الواقعة على بعد قليل من قرية أم قيس حمام (ينابيع حارة المياه) يقصدها كثير من المصابين بداء الرثية (المفاصل) والأمراض الجلدية وغيرهما للاستحمام والاستشفاء. ومن مدنها القديمة (اربد) مقر الحكومة وسكانها اليوم نحو 300 نسمة وتسمى قديماً أربلة وذكرها التلمود باسم اربل وتسمى ارباليس أيضاً. وقال بعضهم أنها ارفاد التي ذكرها الكتاب المقدس مراراً (ار 49: 23 و2 مل 18: 34 و19: 13) وكانت عاصمة ولاية صغيرة من بلاد عبر الأردن وفيها بقايا قلعة ضخمة وجامع متقن البناء وآبار وقد ذكرها روبنصن وزعم بعضهم أنها هي اربئيل المذكورة في سفر هوشع (10).

ومن تلك المدن (راحب) المسماة في القديم ارغوب و(محنة) المعروفة باسم محنايم و(كفربيل) أي بيلا القديمة من المدن العشر. وأشهرها (جرش) المعروفة قديماً باسم جراسا وهي في داخل القضاء وفيها أطلال قديمة وأعمدة ضخمة منقوشة

تضاهي آثار تدمر بفخامتها وظرافتها وهي من آثار الرومانيين وربما كانت أقدم من عهدهم. وفي هذا القضاء ناحيتان هما كفرنجه والكورة وعدد قراه مائة واثنتان.

❖❖❖

القطف الثاني

في قضاء جبل حوران

أو جبل الدروز موقعه في الجهة الشرقية من حوران. ممتد من الشمال إلى الجنوب. وقد مرّ وصفه قريباً. ومقر حكومته (السويداء) وسكانها نحو خمسة آلاف وهي على أطلال السويداء القديمة التي شيدها الغسانيون وبنى فيها المنذر بن النعمان منهم قصر السويداء ولا تزال فيها بعض أطلاله لعهدنا ولكنها ليست بذات شأن. وسميت السويداء نيابوليس أي المدينة الجديدة وسماها الرومان ديونيسية وفيها بنى نرفا تراجان حمامات وجسراً للماء سنة 103م. وفيها آثار هيكل وكنيسة كبيرة بنيت في القرن الرابع وملعب. ومن القرى القديمة (صلخد[1] أو سلخة) ومعناها سياحة. وهي مدينة على حدود باشان ملكها بنو إسرائيل. وهنالك قلعة مبنية على تل يعلو نحو أربعمائة قدم يرجح أنه كان فوهة بركان تحدق به آبار عميقة وخنادق. وفيها كثير من النقوش الناتئة على أبوابها تمثل النسور الرومانية وكتابات عربية وبعض كتابات يونانية من تاريخ سنة 196 — 246 ب.م وحول هذه القلعة نحو ثمانمائة بيت مسقوفة بحجارة على الطراز الحوراني ويرى الواقف في هذه القلعة أخربة مدن كثيرة حوله. ويبلغ محيط المدينة ميلين أو ثلاثة وموقع صلخد عند طرف جبل الدروز الجنوبي وإليها ينسب الخمر الصرخدي وفيها الحصن الذي نازله الصليبيون وسميت في القرون المتوسطة سلخار أو سرخار. أما العرب فقالوا صرخد كما جاء في حماسة أبي تمام:

ولبثت ركبان الطريق تناذروا   عقيلاً إذا حلوا الذناب فصرخدا

ومن أهم المدن القديمة بصرى (اسكي شام) ومعناها قلعة. وهي إلى الجنوب الشرقي من دمشق. عاصرت دول اليهود فاليونان فالرومان وهؤلاء اتخذوها عاصمة لولاية حوران وسموها باللاتينية نوفاترايانا أي تراجانا الجديدة سنة 105م

---

[1] والعرب يسمونها صرخد. قال ابن خلدون 2: 311 «وقال ابن سعيد وجبل بني هلال مشهور بالشام وقد صار عربه حرائر وفيه قلعة صرخد مشهورة».

نسبة إلى مرممها تراجان وكتب اسمه على نقودها. وإلى بصرى نسب التاريخ البصروي. وفيها أبنية رومانية ويونانية وسريانية. وفيها ملعب كبير من أجمل ملاعب سورية وأقواس نصر. وكانت في صدر الإسلام مدينة الروم ومركز تجارة بلاد العرب. وهي أول مدينة من مدائن الشام فتحت في خلافة أبي بكر الصديق (رضه) بل هي أعظم مدن حوران، وسميت بزمن الرومانيين قصبة الإقليم العربي ومعظم آثارها روماني حتى ظن كثير أن الرومانيين قد أسسوها وقال كثير في روضة بصرى:

فبيد المنقى فالمشارف دونه فروضة بصرى أعرضت فنسيلها

وإليها نسبت السيوف البصروية والخمر الجيدة كما سيجيء. واشتهرت بولادة فيلبس الثاني العربي المسمى مرقس يوليوس فيلبس الذي قتل سنة 249م وبنى مدينة فيليبو بوليس[ق] قرب بصرى وهو أول من تنصر من ملوك الرومان وجعل بصرى أم المدن العربية وقد امتدت ببصرى الديانة المسيحية فتنصر أكثر سكانها وعقد فيها مجمع سنة 247 ـــ 248م للنظر في ضلال ابريل اسقفها. وكانت كرسياً لرئيس الأساقفة المترئس على 33 أسقفاً منها أذراسوس (اذرع) وجراسا (جرش) وقناتا (قناة) وغيرها. وفي ضواحي بصرى قريتان خربتان باسم غسان.

وفي زمن اسكندر ساويروس الذي تولى من سنة 222 ـــ 235م صارت بصرى مستعمرة رومانية وفازت بامتيازات المستعمرات. وكانت بزمن العرب منيعة الأسوار والأبراج ولكنها انحطت سريعاً عن مجدها وبقيت منيعة إلى زمن الصليبيين الذين جردوا عليها تجريدتين أيام ملكهم في فلسطين فامتنعت عليهم.

وموقعها في جنوبي حوران وشرقي الأردن تبعد 90 كيلومتراً عن دمشق جنوباً شرقياً و130 كيلومتراً عن بيت المقدس شمالاً شرقياً. وظن بعضهم أنها هي عشتروت قرنائيم التي ضرب بها كدرلاعومر قبيلة الرفائيين وسميت بهذا إكراماً لعشتروت المعبودة الكنعانية التي كان الرفائيون يصورونها وعلى رأسها قرنان أو نصف هلال ومعنى قرنائيم القرون. وهي مربعة الشكل حولها سور يزيد محيطه على أربعة أميال تحدق بها البساتين وفيها أخربة مدينة عظيمة يبلغ محيطها نحو خمسة أميال ويرجح ودنكتون أنها لم تكن بزمن بني إسرائيل وأقدم مؤلف ذكرها

[ق] بوليس وتعني مدينة. وفيليب بوليس تعني مدينة فيليب، وهي اليوم تسمى شهباء وتتبع لمحافظة السويداء.

هو شيشرون في سنة 54ق.م وقال ودنكتون أيضاً أنها من بناء النبطيين لأن فيـــها معظم آثارهم وسكتهم (نقودهم) وهم الذين قرضهم كرنيليوس بلما عند فتحـــه بصرى سنة 105م واتخذ هذا التاريخ منسوباً إلى بصرى وبقي إلى ما بعـــد ظـــهور المسلمين.

وهي محكمة البناء بالحجارة السود الضخمة مسقفة بها. وكان فيها قلعة منيعة واقعة في جنوبي البلدة وفيها آثار مرسح(ق1) بديع وبساتين. واحتلـــها الصليبيـــون وأقاموا فيها أسقفاً وآثارهم فيها الى اليوم. ووهم طابع تاريخ المرحوم الامير حيـدر الشهابي في حواشيه اذ عدها اكثر من مرة أنها مدينة البصـــرة في العـــراق راجـــع صفحتي 8 و22 وغيرهما. وفي بصرى بيت ينسب إلى سركيس الراهب (بحـــيراء) مركب من خمسة حجارة جدراناً وسقفاً وباباً. وفيها كنيسة ضخمة على اســـم بحيراء شيدها يوليانس رئيس أساقفة بصرى للشهيدين سرجيوس باخو ولاون سنة 513م و1416 بصروية. وفيها هيكل وثني قديم. وجميعها اليوم أطلال دارسة ما عـدا بعض الأعمدة وقنطرة النصر وفيها كتابات يونانية وغيرها، وقد هدمت بالزلزلـــة التي حدثت سنة 1151م وبلغ عدد سكانها في القديم مائة ألف نسمة ولا يوجد فيها اليوم سوى ستين بيتاً فيها نحو عشرين أسرة (عيلة) لا يبلغ عددهم أكثر من مائة.

وفي جبل حوران آثار مدن أخرى كثيرة منها (الشهباء) التي قال ودنكتون إنها هي فيليبون القديمة في اللجاة ويرجح أن فيلبس ولد فيها أو في جوارها وقد اتخذها مدينة باسمه ومنحها حق الجاليات الرومانية وفيها طرق وملاعب وقلعة مزخرفـــة البناء وقناطر لجر المياه وأعمدة وأقنية ومنها (قنوات) واسمها القديم قنـــاة ومعنـــاه اقتناء كانت واقعة في نصيب منسي وفي أرض جلعاد أخذها نوبح (عـــدد 32: 20 و14) وهي قنتة اليونانية الرومانية كانت في عهد الأنطونيين ذات شأن وفيها آثـــار هيكل بديع وأبنية أخرى ضخمة وجميع أغلاق أبوابها وكواها من الحجارة منـــها ملعب روماني أشبه بملعب بصرى وبرج عال، ويستدل أنها بنيت قبـــل بصـــرى. ووجد فيها نقود قديمة وسماها يوسيفوس قناثا (Kanatha) وسميت أيضاً مكسيميانو بوليس.

وعلى بعد ثلاثة أرباع الساعة منها إلى الجنوب الشرقي قرية (سياح) وفيـــها أحسن هيكل في حوران وهو أشبه بهيكل هيرودس في أورشليم، وفيـــه كتابـــات

(ق1) وردت هكذا وهي تعني مسرح. واليوم يقام في هذا المسرح كل عامين مهرجان فني كبير.

لهيرودس وأغريبا، ورؤوس غزلان وأسد وخيول مسرجة وغير ذلك، ويظهر أنه كان هيكلاً لبعل شمائيم أي إله السماء.

وعلى الجملة فإن قرى جبل حوران أكثر من سبعين بين كبيرة وصغيرة، وهو قليل الماء وأرضه بركانية وحجارته وتربته سوداء وبين رباه سهول وافرة الخصب ومسالك كان أكثرها طرقاً مرصوفة بزمن الغسانيين والرومانيين وفيه جداول من الشمال والجنوب وأهمها نبع (عري) في الجنوب وهو على الأرجح الماء الذي نزل عليه الغساسنة يوم جاؤوا الشام ونسبوا إليه، لأنه كان يسمى ماء (غسان). ولقد اختلفت أقسامه الإدارية فكان منذ بضع وعشرين سنة شماليه بيد العوامرة[ق1] وبعض قلة بيد الهنيدية[ق2] وجنوبيه بيد المشايخ أولاد إسماعيل الأطرش والشرق بيد الشيخ نجم إبراهيم الأطرش، وفي قلبه أسر كثيرة كالعسافين والقلاعنة والحلبية والفرازقة والحناوية وغيرهم. وكانوا ذوي سطوة. واليوم ضربت الحكومة السنية على يدهم ونظمته كما مر.



القطف الثالث

في قضاء بصر الحرير

وموقعه مرتفع في الطرف الجنوبي الغربي من مقاطعة اللجاة وقصبته (بصر الحرير)، وفيها نحو ستة آلاف ساكن، وهي على وادي قنوات الذي سار فيه الصليبيون سنة 1119م حتى وصلوا اللجاة وهي من أجمل وأجود مواقع حوران ويرجح أنها باصر التي كانت للرؤوبينيين (نث 4: 43) وهي من قرى اللجاة الجنوبية تبعد عن أذرعات خمسة أميال.

وفي هذا القضاء موقع اللجاة وهو صخور هائلة يعسر المرور بها قليلة المياه. والعشائر التي تسكنها تشرب من مياه المطر حتى حزيران فيخرجون بمواشيهم من تلك المعاقل ثم يعودون إليها في الخريف وقلما تصلح الأراضي الواقعة بين هذه الصخور للزراعة لقلة المياه ولذلك لا يهتم سكان هذا القضاء بالزراعة بل بتربية الماشية، وتبلغ الحاصلات الزراعية السنوية ستمائة ألف كيلة اسلامبولية معظمها من الحنطة وتصلح أرضها للأشجار والكروم.

[ق1] بني عامر في السويداء، وهم معروفون إلى الآن بجاههم.

[ق2] نسبة إلى آل هنيدي.

ومن أهم قراه (اذرع) وموقعها من جهة اللجاة الغربية في واد عميق تحدق به أخربة يقرب محيطها من ثلاثة أميال وفيها كهوف وصهاريج كثيرة وبئر ماء جيدة وهي على صخر اتساعه نحو ميل ونصف الميل وطوله نحو ميلين ونصف الميل، وارتفاعه عن السهل من 20 — 30 قدماً وهي بمرتفعها في ذلك السهل كالجزيرة في البحر.

وحولها أبراج مربعة تدل على مناعتها وآثار كنيستين للقديسين جرجس والياس وكتابة يونانية تدل على أن هذين البناءين هيكلان وثنيان للإله ثيلندريتس، وصارتا كنيستين سنة 515م. وهي اذرعي القديمة ومعناها قوة أو حصن كانت من مدن باشان العظيمة تبعد 75 ميلاً عن بصرى وفيها هزم بنو إسرائيل عوج ملك باشان كما سيجيء. وكانت بعهد الرومانيين ثانية بصرى وسماها العرب أذرعات وقال فيها امرؤ القيس:

تنورتها من اذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظرٌ عال

وقال أعرابي:

وهيجتني من أذرعات وما أرى بنجد على ذي حاجة ضرباً بعدا

ومن أساقفتها أورانوس الذي وقّع على المجمع القسطنطيني الأول. وفيها جرت وقائع عظيمة ولا سيما في عهد الصليبيين، فاستولى عليها الإفرنج ونهبوها في عهد طغتكين صاحب دمشق سنة 512هـ 1118م. وقد كتب تاريخ اذرع مطولاً الأستاذ بورتر (Porter) في مؤلفه الإنكليزي (خمس سنوات في دمشق).

ومنها (دامة العليا)[ق] — وهي «بلدة قديمة من مشارف حوران من أعمال اللجاة عدد أهلها نحو 150 بين نصارى ودروز. وكانت سابقاً مدينة واسعة كما ينبئ بذلك ما سرى فيها من البيوت والمساكن العادية التي لا تزال بقاياها الخطيرة ماثلة فمنها ما استولى عليه الخراب ومنها ما يصلح للسكنى وأكثر الأهلين حالاً يقطنون في مساكن قديمة جميلة الهيئة متينة البناء وبين الأخربة آثار كنائس واسعة الأرجاء محكمة البنيان وفيها آثار هيكل روماني فخيم للآلهة مينرفة مزين بنقوش

[ق] ويطلق عليها اليوم داما. وجميع سكانها من بني القنطار. ويجاورها دير داما.

بديعة[1]». وهي قائمة من جانب اللجاة الجنوبي الشرقي على ثلاث رواب تشرف على السهل وعلى كل رابية حارة وفيها دار المشرق أو نجمة الصبح (ولعلها بناية منرفة) بثلاث طبقات وعليها نقوش وحجارة أبنيتها سوداء تضرب إلى الزرقة وحولها سور مهدوم وهي على مقربة من العاهرة والخرساء وتبعد نحو خمس ساعات على الفارس عن السويداء وموقعها في جانب اللجاة الجنوبي الشرقي، وفيها دير دامة الجواني وإلى جنوبيها دير دامة البراني الذي رممته حضرة الآباء اليسوعيين ثم تركوه وهو على بعد ربع ساعة وفيه آثار قصر فخيم وأبنية قديمة. وهناك صلخد وإلى غربيها كثير من القرى يسكنها العرب كجدل وحجرة والدويرة وفي شرقيها عمان وخربيات الرصيف. وفي دامة نحو 366 بئراً لجمع المياه ونفق طويل منقور بصخر وفيها أشجار الزيتون والرمان والأجاص واللوز والتين والبطم. وفي شرقيها جبل الدروز. وقد سكنها مدة عباس سلوم الدرزي وقومه، وكانوا يدفعون للعرب الخمس من حاصلاتها، ثم أخذها من نحو خمسين سنة بنو القنطار الدروز وسكنوها إلى اليوم، وهم لا يدفعون لهم شيئاً. ومن دمشق إلى دامة طريقان قديمان فالشرقي مسافته نحو ست عشرة ساعة على الفارس والغربي نحو أربع وعشرين ساعة وطريق جديد نحو 13 ساعة على الماشي منها إلى خبب فدامة، وكانت في القديم قاعدة اللجاة[1] وفيها كتابات يونانية وهي مسقط رأس الأسرة المعلوفية كما سيجيء.

ومنها قرية (الصنمين) بين دامة هذه والقنيطرة على طريق الحجاج من دمشق. وسميت بذلك لأن العرب وجدوا عند فتحها صنمين على بابها. واسمها القديم ديونيسية نسبة إلى ديونيسيوس[ق] وهو باخوس الإله القديم. وهي بلدة كبيرة قديمة تشبه نوى بأطلالها وفي شرقيها مدخل قبوي يفضي إلى غرفة مربعة وغرف أخرى ورواق وأعمدة كورنثية وقناطر كثيرة كلها من الحرّي (الحجر الأسود) ومنازلها وأبوابها ومزاليجها وكواها ومقاعدها جميعها من الحجر ومعظم آثارها روماني. وفيها معبد مبني من حجر كلسي يضرب لونه إلى الإصفرار وداخله أعمدة كورنثية وكوة غير نافذة (مشكاة) من حجارة صفراء وسوداء بدون ملاط كأنها

[1] مجلة المشرق الغراء 9: 1014.

[1] جغرافية المرحوم الدكتور فانديك الأميركي.

[ق] ديونيسيوس: هو إله الخمر عند اليونان، ويسمى كذلك باخوس.

أنصاب. وإلى غربي الصنمين سهول الجيدور تتخللها تلال كثيرة وتحتـــها جبـــل حرمون (الشيخ).

وإلى شماليها (الجابية) من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران وقربها تل يعرف بتل الجابية فيه حيات صغار يسمونها أم الصويـــت لأن الإنسان يصوت عند لدغها ويموت. وفي هذا الموقع خطب الإمام عمـــر بـــن الخطاب (رضه) خطبته المشهورة. وكانت الجابية عاصمة الغساسنة وتسمى أيضـــا جابية الجولان وإليها ينسب باب الجابية في مدينة دمشق الذي يقول فيه الشاعر:

ما بـــين جابيـــها وبـــاب بريدهـــا قمر يغيـــب وألـــف بـــدر يطلـــعُ

❖❖❖

القطف الرابع

في قضاء درعة

قاعدته (درعة) وفيها أكثر من سبعة آلاف نفس وعددهم يتكاثر وهي أكـــبر قرية في حوران. وزعم بعضهم أنها هي اذرع القديمة إحدى مراكز عـــوج ملـــك باشان على نهر اليرموك والمحققون لا يقبلون هذا الزعم لأن بين موقعيهما نحـــو 18 ميلاً وفي هذا القضاء مدينة قديمة مبنية على منحدر الجبل.

وأهم قراه (المزيريب) علوها عن سطح البحر 1435 قدماً وموقعها على شـــاطئ بركة البجة على طريق الحجاج إلى مكة. وهي واقعة في الشمال الشرقي من القلعة يكثر فيها السمك ويستحم فيها الحجاج. وإلى شمال البحيرة قرية حديثـــة اسمـــها الدكاكين تقام فيها سوق للبدو وإلى يمينها أطلال القلعة الجديدة. وفيها آثار مدينة قديمة وأطلال قلعة في شرقي القرية بناها ساكن الجنـــان الســـلطان ســـليم الأول العثماني سنة 1520م لحماية الحجاج، تسمى القلعة العتيقة. وعندما يترل الحجـــاج بهذه القرية للاستراحة تقام فيها سوق عظيمة، ومنها (أم قيس) وتسمى مكيـــس وهي غدارة القديمة إحدى المدن العشر عاصمة بيرية الواقعة في عبر الأردن اســـتولى عليها انطيوخوس الكبير سنة 318 ق.م ثم ملكها اسكندر جانيوس ســـنة 198 ق.م ورممها بومبي الفاتح الروماني الشهير ثم منحها أوغسطوس لهيرودس الكبير فأضافها إلى مملكته. وهدمها فسبسيان في إحدى معاركه وكانت غدارة (جـــدرة أو دارة) هذه مركز أسقفية فلسطين الثانية واشتهرت بحماماتها الفاخرة. ومن أهم آثارهـــا

بقايا سور وطريق طويل مستو تحدق به الأعمدة وكنيسة مسيحية وقلعة ومرسحان أحدهما متقن الحجارة وقربه أطلال مدينة مبعثرة وفيها مدافن (نكروبول) يسكنها اليوم بعض الفقراء. وخربة حمام قديم ضخم على حدود النهر الجسيم المدعو (وادي الشلالة) وهو يفصل بين قضائي عجلون ودرعة. وقد وجد فيها نقود قديمة باسم جدرة.

ومن قراه (حمة) وفيها ثلاثة ينابيع حارة مشهورة وسماها الرومانيون (Amatha) وبنوا فيها حمامات عامة لا تزال آثارها ماثلة وفيها مياه هاضمة تخرج من مغارة حفرت في الصخر لا نظير لها عرضها ثلاث أذرع بارتفاع ست، ومنها تل الشهاب ورمثة وغيرها.

وسكان هذا القضاء اعتادوا الحراثة والزراعة ومقدار حاصلات الحبوب السنوية سبعمائة ألف كيلة اسلامبولية يباع ثلثاها في دمشق والألوية الأخرى.



الفصل الخامس

في قضاء القنيطرة

موقعه في الشمال الغربي من مركز اللواء على بعد سبع ساعات وقاعدته (القنيطرة). فيها أكثر من ألفي ساكن، وهي موقع جميل بمدخل واد بين قمتي جبل (حيش). وفيها آثار قلعة قديمة وقد ألحق هذا القضاء منذ سنتين بولاية سورية الجليلة رأساً بناء على طلب الجركس الذين يشغلون أرضه وقد شرعوا في تحسينه وتوسيع قصبته.

ومن أهم آثار هذا القضاء (بانياس) وهي واقعة على هضبة في حضيض الجبل الشرقي قرب سفح جبل الشيخ إلى الجنوب الشرقي من حاصبيا وعلى بعد سبع ساعات عنها تشرف على سهل الحولة ومرتفعات (هولين) وقربها أكمة مخروطية علوها أكثر من ألف قدم وفوقها حصن الطبيبة يعلو مائتي قدم عن القرية، وهذا القضاء بني على عهد السريان اليونانيين أو الفينيقيين ورمم من قبل العرب والافرنج وهو أوسع وأعظم قلعة في الأرض المقدسة. وكلمة بانياس مشتقة من بان إله الغابات وفيها أثر لهيكل قدم كان له وفيه كتابة قديمة باسمه ويرجح بعضهم أنها هي بعل جاد المذكورة في الكتاب ومعنى هذا الاسم معسكر البطل. وذكر يوسينوس أنها مدينة فينيقية. وإلى شمالي بانياس وادي التيم وإلى غربيها أعظم ينبيع

الأردن وذكرها إنجيل متى (16: 13) باسم قيصرية فيلبس لأن فيلبس رئيس الربع على ايطورية لما وهبها إياه أبوه هيرودس الكبير وسع نطاقها وسماها قيصرية إكراماً لطيباريوس قيصر الذي بنى له فيها هيكلاً أيضاً لن تزال آثاره ظاهرة وهي من المرمر الأبيض ووجدت نقود ضرب عليها اسمها. وسماها أغريبا الثاني نيرونياس نسبة إلى القيصر نيرون. وأقطعها أوغسطوس قيصر (عند قدومه إلى فلسطين سنة 20 ق.م) هيرودس الكبير. وأقيم فيها ملعب بعد خراب أورشليم بأمر تيطوس قيصر المنتصر.

وأثبت ليكوين وغيره أنها كانت تسمى في القديم لايش ثم دان، وذلك غير صوابي لأن موقع هذه موضع تل القاضي حيث يخرج أحد ينابيع الأردن الثلاثة وهو أعظمها ويسمى نهر اللدان. وبين دان وقضى مناسبة لغوية لا تخفى. وقد فتحها المسلمون سنة 15هـ وحدثت فيها وقائع كثيرة مع الصليبيين وبقربها قلعة الشقيف[1] المشهورة وإليها ينسب كرسي أسقفية بانياس للروم الكاثوليكيين وأول اسقف أقيم عليها هو أريسطوس من السبعين تلميذاً ذكره القديس بولس (رومية 16: 23) وفي موقع القرية القديمة قرية بانياس الحديثة وفيها أكثر من سبع مئة ساكن من الإسلام والدروز ومساكنها حقيرة وفي بعضها آثار أعمدة وحجارة قديمة ولكن منظرها الطبيعي من أجمل المناظر.

وأرض القنيطرة صالحة لكل نوع من الزراعة وحاصلاتها نحو ثلاثة أضعاف ما يحتاج إليه السكان فهي تصدر كميات كثيرة إلى الخارج.

وفيها يكثر الجركس ويتعاطون الزراعة وتربية المواشي ولا سيما الخيول المطهمة وينسجون منسوجات صوفية ملونة نفيسة وفي (عين عيشة) عشيرة تركمانية تنسج أنواعاً فاخرة من البسط ونحوها.

---

[1] بلاد الشقيف من مقاطعات جبل عامل الثلاث وهي هذه وبلاد بشارة وإقليم الشحار والتفاح ومن مشاهير تلك البلاد بنو الصغير وبنو صعب وتوجد قلعتان تسمى أحدهما شقيف أرنون (تحريف Arnauld) وهي الواردة هنا والثانية شقيف تيرون (Tiron) وهي المعروفة اليوم بقلعة نيحا في آخر الشوف على حدود جزين. وقلعة أرنون هذه على تلة مرتفعة فوق قرية باسمها على بعد عشرين دقيقة منها وفي القرية نحو ثمانين من الشيعيين يسكنونها. وسماها الإفرنج (بلفور) أي الحصن الجميل وقربها آثار قرية يحدق بها سور وبرجان مستديران وفسحة وهي تشرف على الليطاني بارتفاع ألف وخمس مئة قدم عنه وقمة التلة تعلو عن سطح البحر ألفين ومائتين وخمس أقدام وحجارتها مربعة الزوايا صغيرة الحجم، ذكرت في القرن الثاني عشر للميلاد وفيها أبراج كثيرة واصطبلات من بناء الصليبيين.

الفرع الثالث

في طبيعتها وفيه قطوف

القطف الأول

في هوائها ومائها

إن إقليم حوران معتدل جداً مثل غيره من الأقاليم السورية ومع ذلك فكثيراً ما يحدث حرٌ لافح صيفاً في بعض جهاته ولكن الأماكن التي تعلو فيه فوق ألفي قدم عن سطح البحر جيدة الهواء في الغالب. وتهب بعد الظهر الريح الغربية فتلطف حرارة الشمس. أما جبل حوران فهواؤه بارد يكسب الصحة نشاطاً وقوة وقلما يتجاوز الحر عند اشتداده فيه الدرجة 87ف وهذا أقل من حر دمشق عند اشتداده بعشر درجات. ويبقى الثلج على أعلى قممه في بعض السنين مدة الصيف حتى قيل إن الهواء الأصفر لا يدخله ومعدل المطر في بيروت نحو 36 قيراطاً في مدار السنة وربما بلغ في المنطقة المتوسطة من لبنان من 50 — 60 وفي البقاع أقل منه في لبنان لانكشافها إلى جهة الغرب ويكثر في نصفها الشمالي شتاء الريح الشمالية والشرقية القارصة وفي النصف الجنوبي الريح الجنوبية والغربية. مياه حوران قليلة ومعظمها في الجبل الذي تتدفق منها جداول من الشمال والجنوب من أشهرها نبع عري. وعلى الجملة فمياه الجبل غزيرة عذبة سائغة ومنها نهر الزيدي في شمالي صلخد وهو أحد ينابيع نهر اليرموك، أما في غير الجبل فقليلة. وشرب الأهلين من مياه المطر يخزنونها في آبار أو برك ولكنها قذرة جداً في كثير من الجهات. وبني في القديم خزان للمياه في بصرى طوله 1350 قدماً وعرضه 650 في غربيها وهناك أحواض أخر في الشمال والشرق تمثل بحيرات بديعة اتخذت لسقيا الأرض ويوجد مثلها في جهات أخر. وفي حوران نهر المدان أيضاً وفي منتصف الجبل عين موسى عذبة المياه وفيها حجر قديم جميل.



الفصل الثاني

في تربتها وصخورها

اشتهرت حوران بخصب تربتها منذ القدم وفي تسميتها باشان كما مرّ صفحة 12 دليل على ذلك. وآثار العمران الباقية فيها تدلّ على وفرة حاصلاتها في سهولها وجبالها. وكلها مركبة من صخور وأتربة بركانية تساعدها المياه الغزيرة في بعض جهاتها على زرع الحنطة والشعير والذرة والعدس والكرسنة والسمسم وغيرها. وهي ثلاثة أقسام (القسم الوعري) أي اللجاة وهو حقل من الحمم البركانية انسكب قديماً من تل شيحان كما مر صفحة 13 تتخلل تلاله أودية متعرجة ضيقة فيها مروج وليس فيها صخور شامخة ومياهها قليلة جداً وهي مع ذلك مجللة بالنباتات والغابات، وهو منبسط في شكله المربع المستطيل أو البيضي على مساحة عشرة أميال طولاً وستة أميال عرضاً يرتفع بضعة أمتار عما يجاوره وعمق تربته البركانية مائتا متر تحتها الصلصال والمواد الكلسية وفي تلاله كثير من المغاور وبين تلك التلال منفرجات مختلفة الأشكال قد بنيت على أسنادها القرى وغرست على معاطفها الأشجار وفي منفرجاتها الزروع وشيدت على مشارفها المدن القديمة التي أكثرها اليوم أطلال دارسة. ولقد أثرت الفواعل الطبيعية في هيئات هذه الأرض فظهر فيها تضاريس تمثل رعاناً وتلالاً وربى بديعة المناظر. وفي شرقي اللجاة أرض الصفا حول جبل حوران وهي أشبه بها لأن أرضها من مصهورات البراكين لكنها أحدث انفجاراً من تلك. قال جرير:

هبت شمالاً فذكري ما ذكرتكم　　عند الصفاة التي شرقي حورانا

هل يرجعن وليس الدهر مرتجعاً　　عيش بها طال ما احلولى وما لانا

(والقسم الجبلي) وهو من جبل حوران وعجلون وقد مر وصفهما. و(القسم السهلي) وهو من غباغب إلى حدود جرش يزرع فيه كل أصناف الحبوب وهذا السهل منبسط على ضفة الأردن اليسرى يبتدئ شمالاً عند نهر الأعوج (فرفر) ويتصل جنوباً بمفاوز العربية وينتهي غرباً بسلسلة جبل الجيش من سلسلة حرمون متصلاً ببحيرة جنيسارة وجبال عجلون ويستند شرقاً إلى جبال حوران الشامخة. وطوله أكثر من تسعين كيلومتراً وعرضه أكثر من ثمانين وكان مقاطعة منفردة بزمن الرومانيين واشتهر من نصف القرن الأول الميلادي إلى بدء الرابع ومن هذا القرن زحف عليه بدو الصحارى الشرقية، وذكره حزقيال 47: 16 و18.

وعلى الجملة فإن تربة حوران حمراء ذات خصب يقل نظيره في غيرها، وقد ذكرت التوراة (عد 32) أن موسى النبي خص مملكتي سيحون وعوج بعد قتلهما ببني رؤوبين وجاد ونصف سبط منسي. لأن مواشيهم كانت كثيرة. وهذه الأرض خصيبة تكثر فيها المراعي وتصلح للمسارح فبنوا فيها مدناً وحظائر. ومملكة سيحون موقعها اليوم في البلقاء ومملكة عوج هي الجولان. وجر الرومانيون المياه إلى هذه الأرض فرقوا الزراعة. واتخذت تربة الجولان للختم كما قال ملحة الجرمي في وصف الذئب:

كأن قرادي زوره طبعتها بطين من الجولان كتاب أعجم

أما جبالها فليست من الشوامخ وأعلاها جبل كليب الذي يظن أنه كان في القديم بركاناً فانطفأ. وهنالك الصخور السوداء التي تقطع منها حجارة الرحى (المطاحن) وهي بركانية. وفي بصرى صخور قلبتها الزلازل. وفي عمان والكرك والشوبك ينابيع مالحة. وفي صلخد تلال أصلها براكين أحدها علوه 300 قدم. وقد دفعت النيران الداخلية حجارتها وحجارة جبل كليب المار ذكره إلى أبعاد شاسعة مع ضخامتها. ولن يزال جبل كليب هذا ذا تلال كاسية ذات تجاويف منتظمة حولها الحجارة والركام النارية. وفي جبال عجلون آثار الفواعل الطبيعية لأن خط الطبقات الأرضية الأفقي مقوس ومتعرج. وفي الجولان هضاب مخروطية الشكل حولها حجارة نارية متبلورة وحطام أشبه بالحمم مما يدل على تأثير البراكين والزلازل فيها ولقد انطفأت نيرانها منذ أزمان قديمة فقل شرها أعاذنا الله منه.



الفصل الثالث

في حيواناتها ونباتاتها وحاصلاتها ومعادنها

تكثر في حوران الحيوانات الأهلية (الداجنة) كالبقر والجمال والخيل والأتن، أما البغال فهي قليلة جداً اليوم ومنها الغنم والمعزى، والحيوانات الآبدة (البرية) مثل الغزلان والأرانب والضباع والذئاب وبنات آوى وغير ذلك مما هو في سورية. وكان في الغابات القديمة الأسد والنمر والخنزير البري وغيرها، فقلّ لقلة الغابات. ومن قراها التي تنسب إلى الحيوانات خربة الغزال وكفر أسد وخنزيرة وعين الجمل

وخان أرنبة. وفيها أنواع الطيور السورية من داجنة وآبدة ومن أسماء القرى التي تدل على الطيور أبو زريق.

أما أشجارها فإن في جبل حوران وعجلون كثيراً من الفواكه كالعنب والتين والرمان والتفاح والمشمش، والأشجار كالسنديان والبطم والزيتون ومنها بقية قليلة في اللجاة. أما في الجبل فيكثر في قرية سليم البعيدة عن السويداء نحو ساعة إلى جهة الشام شجر الزيتون وهنالك أشجار السماق وأكثر الفواكه وكانت على جبل باشان هذا غابة بلوط (زكريا 11: 2) لن تزال بعض أشجارها القديمة في قممه وقد كادت تنقرض لأنهم لا يغرسون عوض ما يقطعونه من الوقود. وسهل حوران صالح لجميع الحبوب ولكنه خال من النباتات سوى قليل من التين لذلك يتخذون الكلأ اليابس والروث المجفف وقوداً. ومن القرى التي تدل على النباتات أم عوسج ودير العدس وتينة وعنبة وجوزة وسنديانة وسماقة وخوخة وعين التينة وعليقة وجبات الزيت ونخيلة وتبنة وبصر الحرير وأم الرمان وتل اللوز وأم الزيتون وجنينة وعيون حور وغيرها.

ومن حاصلاتها القديمة الخمر وقد ذكره شعراء العرب فقال أبو ذؤيب في خمر أذرعات:

فما أن رحيق سبتها التجار من أذرعات فوادي جدرْ

وقال النابغة الذبياني في خمر بصرى:

كأنّ مشعشعاً من خمر بصرى نمته البخت مشدود الختام

نمين قلاله من بيت رأس إلى لقمان في سوق مقام

إذا فضت خواتمه علاه يبس القمحان من المدام

وقال حسان بن ثابت الأنصاري في خمر بيت رأس قرب اربد:

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

وقال أيضاً في خمر بيسان:

من خمر بيسان تخيرها درياقة توشك فتر العظام

وقال آخر في خمر صلخد:

ولـــذّ لطعـــم الصرخـــدي تركتـــه   بأرض العدى من خشـــية الحدثـــان

أما زراعة الحبوب فهي ذات شأن وأشهر ما يزرع فيها هو الحنطة والشـــعير والذرة الصفراء والبيضاء والسمسم والكرسنة و العدس والحمص وهذا الصنـــف أجود حمص سورية وأجود الجميع حمص قرية قنوات.

والفدان ما يحرثه زوج من الثيران في اليوم ويستغل منـــه ســـنوياً في الأرض المخصبة ست غرارات أي 72 كيلاً من الحنطة وأربع غرارات شعيراً ومثلها مـــن العدس والحبوب الأخرى وقد يكون أكثر من هذا. ومعدل أرض جبل حـــوران 6500 فدان حاصلها من الحنطة 26 ألف غرارة ومن الشعير 19500 غـــرارة ومـــن القطاني نحو هذا. وفي شهر أيار يبتدأ غالباً بحصاد القطاني والشعير وفي آخره يبتـــدأ بحصاد الحنطة. وفي السنين التي يكثر مطرها تكون غلة الكيلة (المدين) من ســـتين كيلة إلى سبعين فتكون حاصلات اللواء نحو مليوني كيلة يباع بعضها في أســـكلة عكاء والآخر في نابلس ودمشق وغيرهما.

وقد ذكرت جريدة ولاية سورية الغراء بتاريخ حزيران سنة 1906 أن أعشـــار لواء حوران زادت في هذه السنة خمسة وعشرين ألف كيلة عن بدل السنة الماضيـــة (1905) التي كانت أعشارها ثمانين ألف كيلة من الحنطة فيكـــون بـــدل الســـنة المذكورة (1906) مئة وخمسة آلاف كيلة والكيلة مدان ومعدل ثمنها نحو عشـــرين غرشاً.

وفي جبال حوران معادن قديمة فان خريسوبوليس معناها مدينة الذهب لأنـــه كان على مقربة منها معدن ذهبي. وفي جبل عجلون اليوم حديد وفحم حجـــري وقيل أن فيه زيت البترول أيضاً ولكنها كلها مدفونة.



الفرع الرابع

في سكانها الحاليين وفيه قطفان

القطف الأول

في عشائرهم

كان سكان حوران مختلفي الأجناس كما يفهم من تاريخها القديم وهم اليـوم يتألفون من طوائف مختلفة عددهم نحو مئة وثمانين ألفاً ثلثهم ستون ألفاً مسـلمون والثلثان مائة وعشرون ألفاً بين دروز وعرب ومسيحيين. أما الدروز فعددهم تسعة عشر ألف نسمة ونيف. والمسيحيون خمسة عشر ألفاً. والعرب سبعة وثمانون ألفـاً بين رعاة لأبقار البلاد وأنعامها وعرب اللجاة والجبل ورعاة الأغنام. وجميع هـؤلاء رحالة تظللهم مضارب من شعر.

أما المسلمون فهم بقايا القبائل العربية المتحضرة وأهم من يذكر منهم اليـوم عشيرتان الأولى (الحريريون) وزعيمهم علي الأحمد وهو قاطن في قريـة الشـيخ مسكين حيث فيها عقاره ومن عشيرته ودمه نحو ثمانية عشر زعيماً كل منهم شيخ في بلدة كبيرة. والثانية (الزعبيون) وزعيمهم سليم الصالح ومقره خربـة الغـزال حيث هنالك عقاره ومن عشيرته لا من دمه نحو عشرين شيخاً كل في بلدة.

والدروز غرباء قدموا إلى حوران في أزمنة مختلفة من جهات حلـب ووادي التيم ولبنان وخيموا في الجبل ومن شيوخهم القدماء بنو حمدان المشهورون بكرمهم وأصلهم من قرية كفرة في غرب الشوف في لبنان ذهب جدهم حمدان إلى حـوران واشتهر عند حكامها وقد أكرموا وفادة الأمير بشـير الكبـير عنـد ذهابـه إلى السويداء. وغيرهم عشائر كثيرة أهمها (1) (بنو الأطرش) وزعيمهم حمـود بـك يقطن في السويداء حيث عقاره ومن حمولته ثلاثة عشر زعيماً أشهرهم يحيى بـك شقيق شبلي بك ابن الشيخ اسمعيل الأطرش الذي اشتهر بحادثة سـنة 1860م. (2) (بنو عامر) أو العوامرة كبيرهم خليل بن أسعد يسكن قرية الهيت حيث مقتنياتـه

ومن عشيرته عشرة زعماء في عشر قرى. (3) (الحلبيون) وزعيمهم أبـــو فـــارس الحلبي الذي يقطن قرية لاهثة حيث عقاراته ولاهثة في هضـــم (لحـــف) اللجـــاة الشرقي ومن نسبته وميله نحو ثمانية زعماء في ثماني قرى. وبقية عشائر حـــوران لا يحكم زعيمهم ما عدا ثلاثة مشايخ أو أربعة على الأكثر مـــن دروز ومســـلمين ومسيحيين. وممن اشتهر بحوران وهبة عامر المدعو أبا طلال ومركزه في قرية شهباء في جانب جبل حوران الشمالي.

والبدو قبائل رحل يتغيرون بتغير الزمان والمكان فمنهم عشيرة الرولا تجمع نحو ستة آلاف فارس وعرب البكار والرباعية. وفي الجولان عرب الفضل وأمراؤهم آل فاعور وهنالك التركمان وعنزة. وأهم عشائر اللجاة (1) السلوط وعدد بيوتهـــم ألف وهم فروع كثيرة كالمراشدة والصوابرة والمدلج. (2) عشائر زبيد وعدد بيوتهم 450 بيتاً ومن أشهر فروعهم الجوابرة والحواسنة والعتايقة. (3) عشائر الجبل بيوتهـم 500 بيت ومن أشهر فروعهم السنابلة والمساعيد والشرفات إلى غير ذلك. وقـــال الدكتور فانديك في جغرافيته صفحة 170 «والعرب عشائر كثيرة مرجعها إلى أربـع قبائل وهي بنو صخر والفحيلية والسردية والعيسية ويلقبون بـــأهل الشـــمال». ويستنتج من تقويم ولاية سورية أن أسماء قبائلهم هي بنو سرحان ومعجل وســردية وبنو صخر والسرارات وبنو فضل ونعيم والتركمان وبنو ريان وقصرى وخــــالد وولد علي وجميعهم منبثون في حوران وجبل عجلون والقنيطرة.

والمسيحيون منهم من بقايا العرب المتنصرة ومنهم من السكان الأقدمـــين أو الغرباء. ومعظم الروم الأرثوذكسيين منهم في جهات الجبل الجنوبية بين الطرشـــان وفي جنوبي حوران. ومعظم الروم الكاثوليكيين في جهات حوران الشمالية وشمـــالي جبل الدروز وبين العوامرة وكلهم اليوم ست عشائر كبيرة ولكل عشيرة فـــروع. فمن عشائر الأرثوذكسيين الكركية والصياغ ولهم ثلاثة زعماء أولهم غازر الخوري شيخ قرية خربة ومشيختهم لا تتجاوز السبعين سنة وكنيتهم آل نمير. وثانيهم فرع الظواهر شيخ قرية الدارة حيث يقيم، وفيها مقتنياته وكنيتهم الظواهرة ومشيختهم لا تتجاوز الستين سنة وثالثهم إبراهيم النصر الله وكنيتهم النصرالات ومشـــيختهم لا تتجاوز الخمسين سنة. ومن عشائر الروم الكاثوليكيين أولاً الصلاخدة ومنـــهم شيخان أولهما ذياب الحاتم وكنيتهم الحواتمة ومشيختهم تتجاوز مائة وخمسين ســنة ومسكن ذياب وملكه في خبب. وثانيهما موســـى فلـــوح وكنيتـــهم الفلالحـــة ومشيختهم لا تتجاوز ثمانين سنة ومقره ومقتناه في بصير. ثانياً الهياتنة وزعيمـــهم

الشيخ ضيف الله الخوري الذي يقيم في قرية نامر حيث أملاكه وكنيتهم آل سالم ومشيختهم منذ مائة وعشر سنين في الهيت قبل امتداد الدروز في البلاد. وثالثهم أهالي عيون ولهم شيخان أولهما رشيد فارس بن طعمة شناعة وملكه ومقره في تبنة ومشيختهم لا تتجاوز خمساً وثمانين سنة وكنيتهم الشناعات وثانيهما سليم أبو ذراع شيخ قرية شقراء وملكه وإقامته فيها وكنيتهم الذرعات ونال هو المشيخة بذاته منذ خمس وعشرين سنة. ورابعهم عشيرة السهاونة وهي مشتتة ومتفرقة بين العشائر الثلاث المذكورة أعلاه ومشيختهم مجهولة مدتها.



القطف الثاني

في لغتهم وأخلاقهم وعاداتهم وملابسهم

تغلبت على حوران اللغات الكثيرة وأقدمها الآرامية وربما خلفتها العربية. قال صاحب القصارى صفحة 31 في الحاشية «والراجح أن أرض حوران التي هي الناحية الجنوبية من بلاد الشام كان أهلها يتكلمون غالباً العربية من القديم، ويظهر ذلك خاصة من أسماء قراها نحو جرش وخبب واذرع وتبنة وجاسم ومحجة». ولغتهم اليوم العربية ينحون فيها نحو البدو ويلفظون الكاف (تش) مثلهم. ويحسنون لفظ الثاء والقاف حسب أصله. ولفظهم فصيح فيه كثير من الكلمات العامية الشائعة في سورية. ولهم أمثال وأغان وقصائد فيها. فمن أمثالهم الزراعية: في نوار عشرة سبل وعشرة حبل (انتفاخ الحب) وعشرة عمل. وكان عند الأندلسيين نوع من النظم يعرف بالحوراني لم نقف على شيء منه.

وأخلاقهم ليس فيها مميزات خاصة فمنها بساطة الفلاحين وعدم حبهم للتأنق ورضاهم بالكفاف واقتناعهم بما تنتجه لهم الأرض ولين عريكتهم وانقيادهم لشيوخهم. وعلى الجملة فلكل طائفة أخلاقها التي اعتادتها.

وعاداتهم في الأعراس والولادات والمآتم شبيهة بعوائد سورية القديمة ممتزجة ببعض عادات العرب مثل دافع الخاطب لوالد عروسه نقدها في القديم عشرة آلاف غرش فخفض إلى ستة آلاف ثم إلى ألفي غرش فقط لعهدنا عند المسيحيين. وعندهم الألطاف (النقوط) ورشق العروس عند مرورها في البلد بالعنصل (بصل الفار). وفي المآتم يحملون الطعام إلى بيت الميت. ومدة النوح سبعة أيام كاملة.

ومن العار عندهم بكاء الرجال إلى غير ذلك. وأهم ملابس الرجال القمصان الطويلة البيضاء المرسلة الأردان والغنباز من نسج الديما القطنية أو الحريرية وسلطة (قنطشية) واسعة الكمين قصيرة من الجوخ الأزرق مطرزة بالحرير الأحمر الناتي. والفقراء يتخذونها من الخام الأزرق بلا طراز. وعلى رؤوسهم الكوفية والعقال وفي أرجلهم المداس والجزمة. أما ملابس النساء فقميص أزرق عليه تطريز ملون واسع الأردان والأكمام وفوقه سلطة أكبر مما يلبسه الرجال إما الخام أو الجوخ، وعلى رأسهن شنبر أسود حريري. فالمتزوجات يتلفعن به ويربطنه إلى الوراء. والعزيبات يعصبن رأسهن فوق المنديل، ويلبسن البوابيج الصفراء والجزمات القصيرة ويتخذن زناراً من الفضة (حياصة) قيمته أكثر من ألف غرش وله ذوائب مسترسلة وفي معاصمهن أساور فضية ضخمة وفي أرجلهن خلاخيل فضية. وفي آذانهن تراكي ذهب (حلق مستدير) وعلى رؤوسهن عصابة من قماش مرصوفة بنقود ذهبية تعرف بالشكة وفي أصبعهن خواتم فضية. ويستعملون جميعهم نساء ورجالاً الوشم إلى غير ذلك مما يختلف باختلاف حالتهم.



الفرع الخامس

في مشاهيرها وفيه قطفان

القطف الأول

في أساقفتها وشهدائها

اشتهر في حوران كثير من الأساقفة الذين كانت مدينة بصرى مقام رئيسهم وتحت أمره 24 كرسياً وأوصلها آثار الادهار إلى 33. ومن أساقفتها بريل كان في أواسط القرن الثالث أسقفاً لبصرى وله مؤلفات كثيرة ولقد رمي ببدعة فعقد مجمع لتفنيد مزاعمه فيها سنة 247 أو 248 شهده أوريجانس فناقشه وأفحمه ورده عن ضلاله وكذلك أنتيباطر الذي قاوم أوريجانس. وفي القرن الرابع كان ميكوما أسقف بصرى وبطرس أسقف خرسا وشيريون أسقف فيلادلفية (عمان) وقد وقعوا على رسوم المجمع النيقاوي. وأورانيوس أسقف أذرعات (اذرع) وقع على المجمع القسطنطيني الأول. وفي القرن السابع كان أسقف بصرى يوحنا. وأسقف فيلادلفية يوحنا أيضاً. وترأس أساقفة بصرى تيمون وخلفه بيراوس ثم مكسيموس وله ذكر في المجمع الأنطاكي ثم نيقوماخوس وتيطس وكان هذا في عهد القيصرين يوليانوس ويوقيانوس ثم بغاديوس الذي ذكر في المجمع القسطنطيني والاسقف ايفليسيوس الذي سيم بطريركاً. وانطيوخوس وقد صحب البطريرك يوحنا الأنطاكي إلى مجمع أفسس سنة 431م وخلفه قسطنس الذي حضر المجمع الخلكيدوني. ويوليانوس معاصر القيصر أنسطاسيوس الذي بنى كنيسة بصرى سنة 513م. ومنهم الأساقفة يوحنا وسمعان وأسطفان الذي ذكره القديس يوحنا الدمشقي. وعرف من الشهداء والقديسين أراستس الذي سيم أسقفاً على بانياس (قيصرية فيلبس) وكان قبلاً ايكونوموس كنيسة كورنتوس (رومية 16: 23) يعيد له في 10 تشرين الثاني وغريغوريوس البانياسي الذي يعيد له في 20 من هذا الشهر وقد نبغ نحو سنة 837 على عهد محاربي الأيقونات وكان ابن سرجيوس مولوداً له من مريم.

ومن المشاهير فيلبس الغساني القيصر الروماني الذي ولد في بصرى وتولى الملك سنة 425م فصير مسقط رأسه من أمهات المدن وغيرهم كثير. وفي حوران لعهدنا أسقفية للأرثوذكس مقرها في إذرع وأسقفها يسكن دمشق وهو اليوم السيد أثناسيوس أبو شعر. وللكاثوليك أسقفية مقرها في الأصل بصرى وأسقفها يسكن دمشق وهو السيد نيقولاوس القائي ونائبه حضرة الايكونوموس سليمان غبـاين الحوراني الأصل الذي أتحفني ببعض فوائد عن موطنه فأشكر له عنايته.



القطف الثاني

في علمائها وأدبائها

من كبار أدبائها أبو تمام حبيب بن أوس الطائي أحد الشعراء الثلاثة المفضلين. ولد في جاسم من أعمال الجيدور نحو سنة 190 هـ (805م). ولقد نسب جماعة من أهل الأدب إلى بعض قراها. فإلى إذرع ينسب ابن الجيان نصر الوهاب المسري المعروف بابن الأذرعي وكان مؤلفاً مشهوراً ومحدّثاً توفي سنة 425م. واسحق بن إبراهيم الأذرعي أحد الثقات العباد الصالحين المحدثين المتوفى سنة 344م. وأبو بكر محمد بن عثمان بن خراش الأذرعي حدّث عنه وروي عنه. وأبو الربيع الأذرعي الشافعي قاضي مصر والشام المتوفى سنة 743هـ. والقاضي شرف الدين الأذرعي الحوراني ذكره ابن بطوطة. ومريم ابنة الأذرعي من أهل القرن التاسع للهجرة. والي بسر من اللجاة أبو عبيد محمد بن حسان البسري الحساني وابنه نجيب البسري. ومحمد بن منصور بن بطيش أبو بكر الغساني البسري وذكرهم ياقوت في معجم البلدان. والي بصير في الجيدور الضحاك بن أحمد بن محمد البصيري. والي نوى محي الدين أبو زكريا يحيى النووي صاحب التصانيف الجليلة أشهرها كتاب تهذيب الأسماء توفي سنة 676هـ 1278م وفيه قال ابن عساكر موريّاً ببلدته هذه:

مخيمين على (نوى) أشتاقكم ... شوقاً يجدد لي الصبابة والجوى
وأريد قربكم لأني مرتج ... يا سادتي قرب المقيم على (نوى)

والي السويداء أبو محمد عامر بن دغش بن خضر الحوراني السويدائي وكان شيخاً خيراً تفقه على أبي حامد الغزالي. والي صماد إبراهيم الصمادي الواعظ إملم

الجامع الأموي في دمشق المتوفى سنة 1054هـ. والي عجلون عبد اللطيف بن عبد المنعم بن زين الدين بن محمد العجلوني الأصل الدمشقي المولد المعروف بابن الجابي الفقيه القاضي الشاعر المتوفى سنة 1036هـ (1617م). وعبد الله بن عمر العجلوني النحوي المتوفى سنة 1112هـ واسمعيل بن محمد بن عبد الهادي بن عبد الغني الجراحي العجلوني اشتهر بالحديث والفقه والعربية والتفسير وله مؤلفات منها شرح صحيح البخاري لم يتممه وله نظم حسن. ولد بعجلون سنة 1087هـ وتوفي بدمشق سنة 1162هـ والجرّاحي نسبة إلى أبي عبيدة بن الجراح. وأبو الفتح محمد العجلوني المتوفى سنة 1193هـ ووالده الشيخ خليل بن عبد الغني الشافعي العجلوني. ومن معاصري أبي الفتح الذين اشتغل هو عليهم الشيخ اسمعيل العجلوني. ومنهم بدر الدين محمود بن علي بن هلال العجلوني من علماء القرن التاسع للهجرة. والي سلخة (صلخد) بدر الدين السلختي الحوراني قاضي غزة ذكره ابن بطوطة في رحلته. وتاج الدين الصرخدي ذكره كليمان هوار الفرنسي. والي باعون (بعون القديمة عد 32: 3) وهي قرية بقضاء عجلون عائشة الباعونية الشاعرة صاحبة البديعية المشهورة. والقاضي صلاح الدين بن زين العابدين الذي تولى النيابة بصالحية دمشق وله أشعار لطيفة توفي سنة 1036هـ. والي بانياس من قضاء القنيطرة الشهاب فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال الأسدي الحنفي الدمشقي المعروف بالشاغوري ولد في بانياس بعد سنة 530هـ وتوفي في دمشق سنة 615هـ وله شعر لطيف منه قوله في الثلج وهو مقيم في الزبداني:

قد أجمد الخمر كانونٌ بكل قدح ... واجمد الجمر في الكانون حين قدح

يا جنة الزبداني أنتِ مسفرة ... بحسن وجهٍ إذا وجه الزمان كلح

فالثلج قطن عليكِ السحب تندفه ... والجوّ يحلجه والقوس قوس قزح

وممن نسب إلى حوران إبراهيم بن أيوب الشامي الحوراني الزاهد وأبو الفضل القرشي الخطيب الحوراني ولد في بصرى سنة 642هـ. وتربى بدمشق وهو فقيه مفتٍ قاضٍ زاهد توفي سنة 725هـ .وفاطمة ابنة عبد الله بن محمد الحورانية من أديبات القرن التاسع للهجرة وغيرهم. ومن الأسر المنتسبة إلى حوران لعهدنا بنو الحوراني الكرام في حماه من السادة المسلمين الكرام ومنهم علماء أعلام. وبنو

الحوراني في حمص من الطائفة المسيحية ومنهم صديقي العلامة إبراهيم أفندي الحوراني نزيل بيروت المشهور بمعارفه الواسعة ومداركه القوية ومن قوله في صغره ارتجالاً:

بدوية لاموا العميد بحبها فأجبتهم والدمع أحمر قاني
ما شان فيها أنها بدوية ترمى السهام بمهجة الحوراني

إلى غير ذلك مما لا تسعه هذه العجالة.

❖❖❖

الفرع السادس

في أبنيتها وفيه قطفان

القطف الأول

في مزاراتها ومراقدها

زعم ياقوت في معجم البلدان أن قبر سام بن نوح ببليدة نوى من أعمال حوران وبينها وبين دمشق منزلان. وفي قرية الشيخ سعد مزار آخر لولي اسمه الشيخ سعد الذي نسبت إليه القرية موقعه في غربيها (راجع صفحة 16). وقرب غباغب مزار أليشع وموقعه على تلة. وفي جبل عجلون مرقد جبل وأبي عبيدة بن الجراح. وفي الغور معاذ بن جبل. وفي السهوة سلمان الفارسي. وفي الجولان عكاشة. وفي تل المقداد مقداد بن الأسود. وفي القنيطرة سعد الدين الجباوي. وفي الجيدور الإمام محيي الدين. وفي اللجاة عمار بن ياسر. وذكر ياقوت أن بإربد قبر أم موسى النبي وقبور أربعة من أولاد يعقوب وهم دان ويساكر وزايلون وجاد.

أما أيوب الصديق فحفظ اسمه في حوران حتى قيل أنه ولد في جوار نوى وبنى له عمرو الأول ابن جفنة ديراً باسمه توجد أطلاله إلى اليوم وإلى غربيه مقام أيوب وهنالك قبره وقبر زوجته وذلك في قرية الشيخ سعد. وعلى مقربة الصخرة التي كان يتكئ عليها وهو مقروح وعليها كتابة هيروغليفية من زمن رعمسيس الثاني وهي على نهاية التل إلى الجنوب الغربي. وعلى سفحه حمام أيوب الذي استحم به بعد برئه كما يزعمون إلى غير ذلك.



القطف الثاني

في أبنيتها القديمة والحديثة

من أغرب أبنية حوران أنها من الصخر الأسود وأقدمها المغاور الكثيرة وللغساسنة آثار ذات شأن، فإن جفنة بن عمرو بن ثعلبة أول ملوكهم بنى بالشام قرى وحصوناً وقصوراً وكذلك ابنه عمرو فإنه بنى في الشام أدياراً مثل دير حالي

ودير أيوب ودير هند. وابنه ثعلبة بنى صرح الغدير في البلقاء بأطراف حوران وهو قصر شاهق أقامه في القرن الرابع للميلاد من حجارة ضخمة وفيه غرف واسعة تحيط بها الحدائق الغناء والمياه وموقعه يشرف على ما يجاوره من السهل الافيح البديع المنظر. ثم بنى الحارث بن جبلة الحفير ومصنعه (قصره) في البلقاء. والنعمان بنى قصر السويداء. إلى غير ذلك مثل قصر المشتى المشهور راجع مجلة المشرق 1: 481 و630 وكان عندهم مهندسون روميون استقدموهم من القسطنطينية لعلاقتهم مع ملوكها الذين كانوا عمالاً لهم.

بنيت حوران مدناً صغيرة مسوّرة بالحجر وجد منها نحو ستين مدينة خربة وبعضها لا يزال موجوداً حتى أجنحة الأبواب والنوافذ والعضادات والعتبات. وليست هندسة أبنية حوران يونانية ولا رومانية ولا عربية ولكنها أقدم من ذلك تصل إلى عهد موسى النبي، وهي من صنع الرفائيين الذين كان زعيمهم عوج ملك باشان. ولما زحف موسى على عوج وجد مدنه كلها محصنة بأسوار شامخة وأبواب ومزاليج (تث 3: 5) وأبنية باشان أربعة أنواع (1) مغاور للسكن (2) مناجم تحت الأرض يبلغ طولها 150 قدماً ويتفرع منها أزقة وحولها بيوت لها كوى في سقوفها (3) بيوت منقورة في الصخر (4) بيوت مشيدة من حجارة منحوتة ضخمة، كثيراً ما يكون جدارها حجراً واحداً وجميع أبوابها وكواها وأغلاقها من الحرّي (البزلت) الأسود وكذلك أسوار المدن وسقوف البيوت. وقد قيس مصراع باب في إحدى قراها فكان طوله 9 أقدام وعرضه نصف طوله وسمكه عشرة قراريط وهو قطعة واحدة من الحجر. وتعد تلك المدن ولا سيما ما كان منها في اللجاة من عجائب الأبنية. وتختلف سعة الغرفة بين 13 و25 قدماً مربعة قائمة على أقواس متينة فوق أعمدة بسمك ست أقدام والأبواب والنوافذ من الحجر تدور على مصاريع منه وتقفل بعضادات منه أيضاً ولا أثر لأدوات الخشب والحديد فيها لقلتها. وحجارتها متراصة بلا ملاط متماسكة بثقلها وتساندها أو بزوائد كأذناب الحمام قد نقر لها مواضع في الأوجه المتماسة فتدخل فيها تلك الزوائد. وينسب كثير من هذه الأبنية إلى الرومانيين ولكن معظمه من زمن الأمويين والرفائيين وعليها نقوش يونانية وبعضها تدمرية وآرامية وحميرية وعربية من زمن الإسلام. وعليها نقوش تمثل ورق الكرم وغيره ورسوم الوعل الطويل القرنين المنتصبهما والمعقد القرنين والوعل الأبيض والغزال والأسد. وتكثر فيها الآبار لجمع مياه المطر للاستقاء.

وفيها قليل من آثار الأمم القديمة كالأدوميين معظمها مغاور ومدافن وأكثرها يونانية ورومانية ونبطية وغسانية.

ومما اكتشف من ذلك أطلال بعل شمائيم في قرية سياح قرب قنوات مر وصفها صفحة 21. وملعب بصرى الذي حوّله السلاطين الأيونيون إلى قلعة وبنوا أبراجاً بحجارته الضخمة في النصف الأول من القرن السابع الهجري. ومسمية في اللجاة فيها مخفرة رومانية تحولت إلى كنيسة مسيحية. وفي قرية شقة أثر يسمى قيصرية شقة كان مقراً للعامل الروماني، وأبوابه ونوافذه وأغلاقه جميعها من الحجر كأبنية حوران القديمة ولكن نقوشها غير دقيقة لصلابة الحجر الحوراني، وقد تحول إلى معبد مسيحي في القرن الرابع. وفي كل من قريتي نفخة واذرع كنيسة أصلها معقل حصين ومثلها كنيسة قنوات وفي قرية سيس (الصفا) قلعة تحدق بها أسوار تدل على أنها مخافر رومانية وقد مر ذكر كثير من آثارها في مواضع مختلفة فاجتزأنا بهذا خوف التطويل.





الفرع السابع

في آثارها وفيه قطفان

القطف الأول

في السياح الذين دخلوها

لقد قصد كثير من السياح بلادنا السورية ودخلوا حوران ووصفوا أبنيتها واكتشفوا فيها الكتابات، منهم بركهرت السويسري الذي دخلها ثانية من الشمال سنة 1812م وكشف خرابات بترة العجيبة ثم تأثره لابورد سنة 1828م ورسم آثارها الجميلة ووصفها وصفاً مدققاً كان له وقع عند العلماء، ومنهم ودنكتون Waddinqton الإنكليزي واضع كتاب الخطوط اليونانية واللاتينية في سورية، وفتشتين (Watztein) وراي (Ray) وستون قنصل بروسية في دمشق، وهذا جمع نحو 260 خطاً عن صخور جبل الصفا ونشر بعضها في كتاب سنة 1860م. وهاليفي وستوبيل والدكتور مكس نون أوبنهيم (Oppenheim) الذي طاف سورية ولبنان وحوران وجبل الدروز وتدمر وبادية الشام سنة 1893م وكتب رحلته بالألمانية وطبعت سنة 1899م في برلين وفيها وصف بليغ لكثير مما رآه. ثم دي فوجه الذي وضع كتابه (النقوش النبطية) وكترمر في كلامه عن النبطيين وبورتر في كتابه (مدن باشان العظيمة) ودوسو ومكلر اللذان بحثا في جبال الصفا وحوران وانتقدا ودنكتون وأخذا عليه في كثير من المواضع واكتشفا كتابات يونانية ولاتينية ونبطية وعربية وطبعا رحلتهما بالفرنسية في باريس سنة 1901م إلى غيرهم مما لا يمكن حصره ولكن تكفي الإشارة إليه وقد مر أن روبنصن وعالي سمث لهما رحلة ذكروا فيها حوران.



القطف الثاني

في الكتابات القديمة والمكتشفات

اكتشف العلماء الأثريون كثيراً من الكتابات القديمة ولا سيما ودنكتـــون في السويداء واذرع باللغتين الآرامية واليونانية. وفي عثيل والجرين واذرع وكفر لحـى وقنوات وأم الجمال باللاتينية واليونانية. وفي مدينة حران (اللج) كتابة على حجـر في كنيسة قديمة بالكوفية واليونانية معاً بتاريخ 528م.

واكتشف دو فوكوا خطاً نبطياً في بصرى وآخر فوق كنيسة صلخد وآخـر فوق نوافذها. وسنة 1890 عثر الأب كرسنته اليسوعي في قرية صور من اللجـاة على كتابة نقشت في باب أحد المساكن تدل أنها مقدمة لهيرودوس قائد فرسـان المهاجرين ويظن أن الحجر المكتوبة عليه نقل من ثكنة لهؤلاء الفرسان لأن في صور هذه بناية كبيرة لعهدنا يسموها السراي تدل على أنها ثكنة كبيرة. واكتشـف دي سولسي في أخربة تل شيحان تمثالاً لسيحون ملك الأموريين مجندلاً بحربة عـدو، وهو اليوم في متحف اللوفر بباريس. ويرجح أن اسم شيحان محرف عن سيحون. وأقدم الكتابات في اليونانية عليها اسم الملك هيرودوس المذكور في الإنجيل المقـدس واسم الملك الحارث النبطي من أهل القرن الرابع قبل الميلاد.

ووجد فوجه في صلخد صخرة اللات المربعة التي عبدها الأنباط والعرب كمـا ذكر هيرودوتس، وعليها كتابة تدل على أنها نصبت لذي الشرى وهو معبود نبطي له آثار في جهات بصرى وبترة ولكن نصبه الحجري لم يكن صنوبـري الشـكل كحجر حمص واللاذقية بل قائم الزوايا وارتفاعه ضعفا عرضه وهو مركز علـى قاعدة.

واكتشف ودنكتون أثراً آخر في أم الجمال لذي الشرى الذي حـرّف اسمـه الرومانيون واليونانيون إلى دوسيريس. وقصارى القول أن في حوران آثاراً كثـيرة مثل غيرها من البلدان السورية التي توالت عليها الأمم والعبادات والملوك فتركتـها لتدل عليها.



الفرع الثامن

في عمرانها وفيه قطوف

القطف الأول

في زراعتها

لقد مرّ في القطفين الثاني والثالث من الفرع الثالث صفحة (28 و29) وفي بعض القطوف الأخر وصف تربة حوران وزراعتها وخصبها مما لا حاجة الآن إلى إعادته. ولكننا نشير إلى طرق الزراعة فإنها مثل زراعة سورية تتم بقرن ثورين بنير لجر محراث خشبي يعرف بالصمد (وهو تحريف صبط) وفي طرفه السفلي سكة حديدية لا تتجاوز نصف ذراع يدخل منها في التربة لتحريكها بعض قراريط ليس إلا، وذلك بضغط الحرّاث على قائم خشبي فوقها وقد يتخذ للحراثة بعض الحيوانات غير البقر. ولولا وفرة خصب الأرض لكانت الآن جديبة لأن الأبخرة التي في جوفها لا ينفسح لها المجال بالخروج منها إلا بشقها بآلات أخر وقلب أديمها ظهراً لبطن. أما السماد الحيواني فيطرح في المزارع تلالاً تسمى (المزابل) ولا ينقل إلى الأرض ليعيد خصبها ويعوض عما فقدته من المواد المغذية للزروع وكثيراً ما تثيره الرياح غباراً يعمي العيون. وعلى الجملة فإن الحراث السوري لا يعتني اعتناء غيره بل يكتفي بما تنتجه الطبيعة من الغلال وهو نزر في جنب ما يستثمره لو اتخذ الآلات الحديثة واعتنى بتسميد الأرض ونقبها وإن شاء الله سيتيسر له ذلك بعناية الحكومة السنية وتمهيد طرق المواصلات وكثرة العلاقات التي ربطتها السكك الحديدية وزادها الأمان توثيقاً. ولقد اشتهرت البثنية (باشان) في الفتح الإسلامي بحنطتها الجيدة حتى قيل «إن بثنية الشام حبة مدحرجة» وذكرها بعضهم بقوله:

فاز ملتها لا حنطة بثنية مقابل أطراف البيوت ولا خرفا



الفصل الثاني

في صناعتها

كانت الصنائع القديمة منتشرة في حوران ولكن اعتماد الأهلين على الزراعة لكثرة الأرض وخصبها صرف أفكارهم عنها إلى هذه ومع كل هذا فإن موقعها التجاري القديم كان ذا شأن. وصناعة قطع حجارة الرحيّ (المطاحن) السوداء المعروفة بالحجر الحوراني كانت شائعة ولا سيما في زمن سيادة مدينة صور. وقد استثمرت منها حوران ثروة عظيمة تدل عليها المقاطع القديمة في كل أنحاء اللجاة وطولها شرقاً وغرباً عشرون ألف ذراع وجنوباً وشمالاً نحو اثنين وعشرين ألفاً. وبقيت رائجة في جهات سورية وغيرها إلى سنة 1881م فقل طلبها لكثرة الرحي النارية وانحصرت لعهدنا في اذرع وشقراء ومحجة وخبب وبصير فقط وهي منهكة القوى. ويرسل من تلك الحجارة الآن إلى جهات مرج عيون وصور ودمشق ولبنان وغيرها. ولن تزال هنالك قرية تسمى الرحي إلى اليوم. واشتهرت مدينة بصرى (صفحة 20) بصبغ الحرير.

ويرجح بعض المؤرخين أن النبطيين هم أول من أدخلوا صناعة البناء إلى أدوم بعد حضارتهم لأن الشعب القديم كان يسكن المغاور والكهوف. والآثار الحاضرة تدل على أن صناعة البناء أزهرت في تلك الجهات ولا سيما في اللجاة. وقد أخذ معاوية بن أبي سفيان قوماً من الأنباط للتكليس في مكة فنزلوا بجبل أضاة ونسب إليهم فقيل جبل أضاة النبط وهو في أسفل مكة. وفي أبنية مدينة بترة ولا سيما خزينة فرعون ما يدل على ترقي صناعة البناء. وروى ياقوت أن صناعة النسج كانت مترقية في حوران بقوله: «والي عناك من حوران ينسب عمل البسط والأكسية الجيدة». وليس فيها اليوم ما يستحق الذكر سوى نسج بعضهم لحاجاتهم مثل الجركس في قضاء القنيطرة فإن لهم منسوجات صوفية نفيسة ملونة. وفي قرية عين عيشة عشيرة من التركمان تنسج نساؤها أنواعاً فاخرة من البسط والمنسوجات مما مر صفحة (27) إلى غير ذلك. ومن أسماء قرى حوران التي تدل على الصناعة كفرناسج وبصر الحرير وغيرهما.



القطف الثالث

في تجارتها

كانت تجارة حوران قديماً متصلة بتجارة الفينيقيين الذين مروا ببلادهم واختطوا لتجارتهم في آسية ثلاثة فروع (أولها) يسير في الجنوب حتى اليمن وحضرموت وعمان فيصدر منها الذهب والحجارة الكريمة والطيوب وغيرها (والثاني) إلى موانئ عدن وكنة فيصدر بضائع الهند وحجارتها الكريمة وعاجها وعطرها (والثالث) إلى أطراف اليمن فيصدر بضائع الحبشة وحاصلاتها من عاج وذهب وريش نعام وأبنوس. وكان الذين يروجون البضائع الفينيقية وينقلونها عشيرة قيدار في برية العرب وعشائر المدينيين والأدوميين في العربية الحجرية وكانت قوافل اليمن تسير إلى الشمال متجاوزة مكة ويثرب (المدينة) فتصل إلى حجر (بترة) مدينة الإقليم العربي وتنتهي إلى فينيقية بطريق مواب وعمون[1]. وكانت بترة هذه في أوج عظمتها لعهد السلوقيين وصارت إذ ذاك محطة تجارية ثم عززها النبط بعدهم نحو قرنين إلى فتوح الرومان كما سيجيء في تاريخهم. وكانت من أعظم المراكز لإيصال التجارة الشرقية إلى رومية ومصر ولما اكتشفوا الطريق من القصير إلى قفط على النيل تأخرت تجارتها كما حدث لبعض المدن الشرقية لعهدنا بعد حفر ترعة السويس ولا سيما دمشق وحلب. وزادت تجارة النبطيين في عهد الرومان براً وبحراً وعمرت الطرق للتجارة وأقيمت الجنود لإيصال البريد وللمحافظة. وكان النبط يملكون على حدود سورية الشرقية ويحكمون على دمشق وضواحيها وعلى جبل الشيخ وكان بيدهم زمام التجارة بين مصر وسائر المشرق ومن لم يتجر معهم أو بلتجئ بتجارته إليهم هاجموا قوافله وغنموا ما عليها. وكانوا هم أنفسهم يتجرون بالمر والطيب فينقلونه من شواطئ البحر الأحمر وبلاد العرب، وبالحمر أو القار يستخرجونه من البحر الميت ويحملونه إلى المصريين الذين كانوا يتخذونه للتحنيط. ومما يدل على انهماكهم بالتجارة أنهم كانوا في غزوة أنتيغونوس الأول غائبين في سوق للبيع فوجد أثينيوس القائد كثيراً من اللبان والمر والفضة في بترة كما ذكر ديودوروس الصقلي. وقال استرابون أن تجار الهند

---

[1] تاريخ العلامة المطران يوسف الدبس 1: 336.

والعرب كانوا ينقلون على الجمال أحمالاً من بحيرة كـوم إلى بـترة وحينئـذ إلى العريش (Rhinocolura) والمحلات الأخر[1].

وكانت بصرى (راجع صفحة 20) محطاً لرجال القوافل ولا سـيما في عـهد مدينة تدمر وعزها وذلك لحسن موقعها التجاري وكثيراً ما ذكرها شعراء العـرب. قال بعضهم:

أيا رفقة مـن آل بصـرى تحملـوا رسالتنا لقيتِ مـن رفقـة رشـدا
إذا مـا وصلتـم سـالمين فبلغـوا تحية من قد ظن أن لا يـرى نجـدا

ومن الآثار التي وجدت في ضواحي ليون بفرنسة ما كتب فيه أن رجلاً اسمـه ثاموس يوليانوس بن ساتي من عثيل (قرب قنوات بحوران) كان يتجر بمصنوعـات اكويتانية أو غلالها بائعاً بالجملة وهو دليل على أن السوريين اتجروا ببضائع غـيرهم من الأمم كما اتجر أولئك ببضائعهم أيضاً[2]. وتقدر واردات حوران إلى دمشـق بنحو 18 ألف طن (الطن 3 وربع قنطار) في السنة وإلى زحلة بنحو أربعة آلاف طن وإلى عكا بأكثر من ستين ألف طن كلها من الغلال وينقل من دمشق إلى حـوران نحو ألفي طن بضاعة وفواكه وبقولاً وثلاثة آلاف راكب فضلاً عن خمسـة آلاف طن لموكب الحاج في المزيريب. هذا قبل مد السكة الحديدية وأمـا الآن فيعـرف مقدار النقل من تقويم الشركة كل سنة.



القطف الرابع

في طرقها وسككها الحديدية

كان قبل الرومانيين وبعدهم طرق كثيرة في حوران لن تزال آثارها في بعـض الجهات. ولقد مر فيها الحجاج السوريون منذ القديم إلى مكة المكرمـة. وهـاك وصف طريقهم كما رواه ابن بطوطة[1] 1: 64 قال: «ولما استهل شوال من السـنة المذكورة خرج الركب الحجازي إلى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسـوة

---

[1] روبنصن وسمث عند كلامهما في تجارة النبط 3: 161 و169.

[2] تاريخ الدبس 4: 15.

[1] طبعت هذه الرحلة في مصر سنة 1287هـ (1870م) في مجلدين وهي التي أحرزها في مكتبتي وابن بطوطة هذا مغربي ولد سنة 1302م وأتم رحلته سنة 1353م وتوفي سنة 1378م.

فأخذت في الحركة معهم وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الأمـراء وقاضيه شرف الدين الأذرعي الحراني. وكان سفري مع طائفة من العرب تدعـى العجارمة أميرهم محمد بن رافع كبير القدر في الأمراء. فارتحلنا من الكسوة إلى قرية تعرف بالصنمين عظيمة. ثم ارتحلنا منها إلى بلدة زرعة وهي صغيرة مـن بـلاد حوران نزلنا بالقرب منها. ثم ارتحلنا إلى مدينة بصرى وهي صغيرة. ومـن عـادة الركب أن يقيم بها أربعاً ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مأربه. وإلى بصـرى وصل رسول الله (صلعم) قبل البعث في تجارة خديجة وبها مبرك ناقته. وقد بني عليه مسجد عظيم. ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها ثم يرحلـون إلى بركة زيرة ويقيمون عليها يوماً ثم يرحلون إلى اللجون وبهـا المـاء الجـاري، ثم يرحلون إلى حصن الكرك وهو من عجيب الحصون وأمنعها وأشهرها... وأقـام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال لها الثنية وتجهزوا لدخول البريـة. ثم ارتحلنا إلى معان وهو آخر بلاد الشام ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء الـتي يقال فيها داخلها مفقود وخارجها مولود...» اهـ. ومن السـكك القديمـة في حوران سكة مأدبا أنشأها ترايانوس إلى مدينة وادي موسى وقصد بها وصل حدود سورية بشاطئ البحر الأحمر، وكثير غيرها مثل سكة بصرى إلى دمشق. وكلـها اليوم خربة. وهناك طريق بين صرخد وبغداد نحو عشرة أيام يعـرف في القـديم بالرصيف. ويقدر عدد الحجاج الآن من 250 ـ 300 ألف ونيف. والمسافة بـين دمشق ومكة المكرمة أربعون يوماً على الخيل وهي (1800) كيلومتر ويخرج مـن منتصف شوال من دمشق إلى خان دنون ثم إلى الكتيبة وإلى المزيريب على بعد تسع ساعات فقلعة المفرق فالزرقاء فالبلقان إلخ. ولقد قصرت السكة الحجازية الحديـدة العثمانية المسافة فستصير 4 أو 5 أيام فقط والهمة جارية بإنجازها وقد نقل عليـها الحجاج إلى مدائن صالح في هذا العام. والطريق الحجازية تمر بنصف بلاد حـوران بينها وبين اللجاة في السهول وتخترق بعض قرى الجبل مثـل الـدور والدويـرة ومحطاتها من دمشق القدم والكسوة ودير علي ومسمية وجباب والمحجة والشـقراء وإزرع وخربة الغزالة ودرعة[1] ونصيب إلخ، وبدئ بها سنة 1318 هـ (1900م) ولها تلغراف خاص.

[1] من هذه المحطة التي تبعد خمس ساعات عن دمشق يتفرع خط حيفا.

أما السكة الفرنسية فتتخلل جبل حوران إلى المزيريب التي تبعد عن دمشق 101 كيلومتر ولها من المحطات في حوران غباغب والصنمين والقنية والشيخ مسكين وداعل وطفس والمزيريب، وهي آخر الخط إلى غربي السكة الحجازية. ويقطع القطار هذه المسافة بمدة ثلاث ساعات. وهذا الخط من النوع الضيق أنشئ سنة 1314هـ (1896م) وبين هاتين السكتين مسافة ساعة أو ساعتين.

هذا عدا طريق العربات (الشوسة) الممتد من دمشق إلى القنيطرة سنة 1315هـ (1897م) وطوله أربعة كيلومترات. وأنشأت البلدية طريقاً إلى موقع الدبيس في جهة دائرة الحكومة الغربية بطول 170 متراً للعربات أيضاً وغير ذلك. وفي مراكز الحكومة محلات للبريد والتلغراف مما يدل على تقريب المواصلات ويقضي بنجاح تلك البقعة الخصيبة بعناية الحكومة السنية.



الفرع التاسع

في تاريخ حوران إلى زمن الغسانيين وفيه قطوف

القطف الأول

في الآراميين

مرّ بنا آنفاً أنه قد أطلق في القديم على حوران والجولان واللجاة اسم باشان وبينا موقع هذه البقعة وحدودها. ونزيد الآن أن مؤسسيها هم الآراميون نسبة إلى آرام آخر أولاد سام بن نوح وآثارهم فيها إلى اليوم. ومعنى الكلمة المرتفع لسكناهم في الجبال كما أن معنى كنعان المنخفض لسكنى أولئك في المنخفضات. وكان معظم سكانها منهم وبقي اسم الآراميين إلى فتوح اليونانيين واندثر بظهور النصرانية.

وذهب يوسيفوس المؤرخ اليهودي أن عوصاً (معناه المشورة) بكر آرام كان أباً لسكان دمشق واللجاة وأن أرض عوص هي موطن أيوب (بمعنى نائح) الصديق. وتابعه كثير غيره مثل الأب مرتين اليسوعي في تاريخ لبنان (صفحة 177 و179 و338) وودكنتون الإنكليزي في كتابه خطوط سورية. ويرجح أصحاب هذا الرأي أن أرض أيوب كان على حد أرض أدوم ولعلها إلى الجنوب الشرقي من أرض يهوذا وأن في القلب أصحاب أيوب إشارة إلى هذا لأن التيماني نسبة إلى تيمان وهي مدينة في أدوم والنعماني نسبة إلى نعمة مدينة أخرى في جنوب سبط يهوذا والشوحي والبوزي نسبة إلى بلدتين عربيتين هما شوح وبوز. فيظهر أن أيوب كان ساكناً بين الأدوميين والعرب. وروي مثل هذا ابن خلدون وأبو الفداء وابن الأثير وغيرهم من مؤرخي العرب. وذهب آخرون إلى أن أيوب أقام بأرض نجد ورجح بعض الثقات هذا الرأي. وزمن أيوب بين عهدي إبراهيم الخليل وموسى النبي.

❖❖❖

القطف الثاني

في الرفائيين

سكنوا باشان ونسبوا إلى جدهم رافا ومعنى اسمهم المرتفعون. وهم على الأظهر عشيرة سامية من أنسباء الآراميين كانت في شرقي الأردن قبل أن ألقى الكنعانيون عصاهم في عبره. واشتهروا بسطوتهم وربما كانوا أول من استعمر تلك الأنحاء وظن بعضهم أنهم يافثيون لأن معظم سكان السواحل والجزائر يافثيون وكانوا يبغضون الكنعانيين والعبرانيين. ومن مدنهم القديمة عشتاروت قرنائيم أي عشتاروت ذات القرنين (تك 14: 5) وظن بعضهم أنها قرية الصنمين أو قنوات وإنما المرجح أنها تل عشترة في الجولان وهي التي ضرب فيها كدرلاعومر[1] ملك عيلام[2] وحلفاؤه هذه القبيلة وذللوها. وكان كدرلاعومر في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد. وبقيت منهم بقية إلى عهد موسى النبي (تك 14: 5) ولما طردوا من أرضهم قبل مجيء الإسرائيليين إليها (تث 2: 20) سكنوا غربي فلسطين حيث كانت أملاكهم (يشوع 15: 8) وإليهم نسب الوادي الخصيب في الجهة الجنوبية الغربية من أورشليم (2صموئيل 5: 18 و22 و23: 13 والأيام الأولى) وهو المكان الذي قام فيه داود النبي بأعظم أعماله ولاسيما بمقاتلته للفلسطينيين. وقال بعضهم إنه وادي الرفائيين قريب من بيت لحم. وقال يوسيفوس إنه الوادي الممتد من أورشليم الى بيت لحم وسماه أوسابيوس وادي الفلسطينيين. ومن مشاهير هذه القبيلة عوج (ومعناه طويل العنق او اعوجة)، وكان طول سريره الحديدي أو ناووسه المحفوظ في ربة عمون (عمان) نحو تسع أذرع أو خمسة أمتار وعرضه أربع أذرع (تث 3:11) ويروي عنه العرب أقاصيص غريبة. ولقد حشد هذا الملك جماعة من الأموريين وغيرهم من العشائر الكنعانية[1] وغزا مملكة باشان، فاستظهر

---

[1] قال لنرمان (Lenormant) الفرنسي أن كدرلاعومر هو قدار الأحمر وقد قسم هذا المؤلف الرفائيين إلى أسباط وارتأى أنهم أقدم السكان في بلاد باشان الذين تغلب عليهم الفاتحون ولا سيما الأموريون حتى زمن موسى النبي.

[2] إن العيلاميين هم من دولة الكلدانيين الأولى التي نشأت من سنة 2286 ــ 2052 ق.م ومن ملوكهم كدرلاعومر هذا وقد نسبوا إلى عيلام بن سام وصارت بلادهم بعد ذلك من أعمال الفرس.

[1] ينتسب الكنعانيون إلى كنعان بن حام بن نوح ومن سلالتهم الفينيقيون سكان شواطئ البحر المتوسط المشهورون. وأما الكنعانيون يتفرع منهم الصيدونيون الذين عمروا صيداء وضواحيها. والحثيون الذين أقاموا بقرب حبرون. واليبوسيون في أورشليم. والجرجاشيون في شرقي طبرية ومن مدنهم دمشق. والحويون في

على العمونيين الذين كانوا يتولون أمورها إذ ذاك ودحرهم عنها إلى جهة المشرق وضم مملكة أرجوب (اللجاة) إلى مملكته، فصارت تخومها الشرقية جبال جلعاد (السلط) والغربية نهر الأردن والشمالية جبل حرمون (الشيخ) والجنوبية نهر يبوق (الزرقاء) وامتدت إلى نصف سبط منسى.[2]



القطف الثالث

في الجرجاشيين والأموريين

الجرجاشيون أو الجرجسيون ينسبون إلى جرجاش بن كنعان بن حام وهم حفدته كانوا يقطنون دمشق وامتدوا إلى عشتاروت وادرعة وإليهم نسبت كورة الجرجاشيين وبحيرة طبرية وامتدت بلادهم إلى الجليل وجبل الكرمل وذكروا في الآثار المصرية. والأموريون ينتسبون إلى أموري رابع أولاد كنعان (تك 1: 16) ومعنى الكلمة الجبليون وهم من أقوى القبائل وألد أعداء الإسرائيليين حاربوهم كثيراً ولاسيما في عهد موسى ويشوع لما أوقف الشمس (يشوع 12:1) واستولوا على أرض كنعان وباشان قبل الفتح الاسرائيلي. وكان يحاكيهم في البسالة الصيدونيون والحثيون واليبوسيون، ولكن الأموريين شهروا ببسالتهم وسطوتهم وطول قاماتهم، ومن ملوكهم سيحون وادوني صادق (يشوع 1) الذي حارب يشوع بن نون مع أربعة ملوك من قومه وامتدت مملكتهم إلى حضيض جبل حرمون وشملت كل جلعاد وباشان مع الصحراء في عبر الأردن شرقاً التي عرفت بأرض سيحون ملك الأموريين وعوج ملك باشان اللذين قتلهما موسى. وقد سخر الملك سليمان هذه القبيلة مع غيرها لتشييد الأبنية ورصف الطرق ونحو ذلك (3 ملوك 9).

وقد شارك هذه القبيلة بسكنى باشان قبيلتا الموابيين والعمونيين وكانت بينهما وبينها شحناء. أما الموابيون فينتمون إلى مواب بكر ابنة لوط الكبرى من أبيها ومعنى مواب أبوي أو من الأب ومن ملوكهم عجلون وبالاق ابن صفور الذي

نواحي جبل الشيخ ولبنان وامتدوا إلى شكيم وجبتون والعرقيون شمالي طرابلس الشام وهناك إلى يومنا تل عرفة. والسينيون قرب عرفة وهناك إلى الأن نهر السن. والأرواديون في جزيرة أرواد شمالي طرابلس الشام. والصماريون على البر قرب أرواد وهناك بلدة تدعى صمرة وناحية تسمى صمرين. والاموربون وهم أقوى وأوسع قبائل كنعان أقامو في يهوذا وعبر الأردن وشيدوا مملكة باشان وحشبون قبل عهد موسى النبي

[2] راجع كلمة (Bashan) في دائرة المعارف الأميركانية المطبوعة سنة 1902م.

حارب الإسرائيليين (عدد 22 و23 و24) وميشاع الذي عصى يورام بن أحاب (12 يام 20) وقد اكتشفت صحيفته في دبيان سنة 1869م. ومنهم راعوث صاحبة السفر المشهور. ومن معبوداتهم بعل فغور أي سيد الفجور الذي عبده بنو إسرائيل بإغراء الموابيين (عدد 25) ولقد حارب هذه القبيلة الملك شاوول (1 ملوك 14). والعمونيون من سلالة بنٍ عمون بن لوط من ابنته الصغرى ومن ملوكهم ناحاش الذي حاربه شاوول أيضاً (1 ملوك 11).



القطف الرابع

في الايطوريين

قبيلة من سلالة ايطور بن اسمعيل بنٍ إبراهيم خليل الله. ومعنى ايطور الجبلي لاتخاذهم جبل اللجاة وما يجاوره مسكناً، وإليهم نسبت مملكة ايطورية (الجيدور) وسماها اليونانيون تراكونيت أي الصخر. ولا تخفى المناسبة بين أيطور والطور العربية. وهم أخوة النبطيين من الدول العربية التي اتصلت باللجاة وجبال حوران. وذاع ذكر الايطوريين بالفتح الروماني ودفعتهم مطامعهم إلى أن اتصلوا بلبنان وساحل فينيقة وكانت سلطتهم على جنوبي دمشق وشرقيها. واشتهر شيخ قبيلتهم بطليموس بن منايوس المثري الشهير وتولى لبنان الشمالي والبقاع وبعلبك وكلشيش (عنجر)، وبلغ عدد فرسانه ثمانية آلاف وقد حاربوا الرومانيين فغلبوهم[1] إلى أن استظهر الرومانيون عليهم سنة 20 ق.م. وأنجدوا اخوتهم العبرانيين عند افتتاح أرض الميعاد (1 ايام 5: 19). وكان هذا الشعب محنكاً في آداب الحرب يحسن الرمي بالنبال لسكناه في الجبال الصخرية شرقي دمشق كما مر. واستفحل أمرهم وكانت عاصمتهم كلشيس المذكورة وتوقلوا قمم لبنان وحصنوها بالمعاقل وانحدروا إلى سواحل الشام فاتخذوا لهم فيها دولة ثانية كانت عاصمتها طرابلس وكانوا يغزون السواحل ولا سيما جبيل وبيروت. ووجدت أسماء ايطورية في كتابات يونانية في المدينتين المذكورتين. ولما فتح بومبي سورية خضد شوكتهم وفتك بملكهم ديونيس في طرابلس وكينيراس في جبيل[2]. والمرجح عند المحققين أن هذه القبيلة قد بادت أو امتزجت بالشعوب اللبنانية وطمس اسمها.



---

[1] تاريخ الأب مرتين 357 وتسريح الأبصار للأب لامنس اليسوعي 2: 39.

[2] مجلة المشرق 2: 215.

القطف الخامس

في الحوريين

يشتق اسمهم من كلمة حوريم العبرانية بمعنى سكان المغاور لأنهم اتخذوها مسكناً لهم ولا تزال مئات منها محفورة في الصخور في حضيض جبل أدوم الرملي الصخور وعلى الخصوص في بترة. واختلف في أصلهم حتى قال بعضهم أنهم هم قبيلة ثمود العربية البائدة[3]. وربما كانوا من أقرباء الايميين والرفائيين والمرجح أنهم ليسوا بكنعانيين بل أقدم منهم سكنوا جبل سعير[4] قبل أن استولى الكنعانيون على فلسطين. وهم الذين حفروا الكهوف الصخرية الكبيرة الكثيرة في الهضاب والأودية حول العربة وكثيراً ما اعتصموا بمضايق وأودية الصخور المعروفة بالحرة الحورانية وذكروا في الكتاب المقدس ثلاث مرار (1) لما ضربهم ملوك الشرق (تك 14: 6) و(2) عند ذكر نسبهم (تك 36: 20–30) و(الأيام الأولى 1: 28–42) و(3) عندما استأصلهم الأدوميون (تث 2: 12–22).



القطف السادس

في العبرانيين

ينتسبون إلى إبراهيم العبراني ابن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن قينان بن أرفكشاد بن سام بن نوح. وهو الذي دعا الرب من

---

[3] النهج القويم في التاريخ القديم لبورتر 186 و189.

[4] جبل سعير أو أرض سعير (موعر) سلسلة جبال ممتدة في الناحية الشرقية من وادي عربة من البحر الميت إلى خليج ايلة وقد نسب إلى سعير الحوري وقيل إلى حوري حفيد سعير جد الحوريين الذي سكنه قبل عيسو (تك 36: 20) وهو في جنوب سورية وشمال بلاد العرب. والأرجح أنه سمي بذلك لوعورته لأن الواقف على قبر هارون في جبل حور بأواسط جبال سعير يشاهد ما هنالك من الهضاب والصخور والغياض والأشجار الملتفة مما يؤيد هذا الرأي. وقد سماها يوسيفوس وأوسابيوس وايرونيموس جيبال ولن يزال القسم الشمالي منها حتى بلاد العرب يسمى إلى اليوم بجيبال. وكانت حدود جبل سعير تمتد في القديم إلى العربة غرباً وإلى خليج العقبة جنوباً وإلى حضيض سلسلة جيبال عند ابتداء الصحراء العربية شرقاً (تث 2: 1–8) وحدود مقاطعة جيبال الحالية وادي الأحساء المتصل بالغور على بضعة أميال شمالاً و قال روبنصن وسمث في رحلتهما (2: 157) أن جبل سعير في جنوبي مواب ويسمى صقع أدوم ممتداً إلى ايلة (العقبة) عند البحر الأحمر. وإلى هنا هرب عيسو من وجه أخيه يعقوب. وقال حسان:

ملكنا من جبل الثلج إلى ... جانبي ايلة من عبد وحر

أور[1] الكلدانيين إلى حاران ثم إلى أرض كنعان سنة 1921 ق.م. ومن سلالته يعقوب الذي سمي إسرائيل (يجاهد الرب) وعيسو الذي سمي أدوم (أحمر) ولقب بذلك للون العدس الذي باع بكوريته لأخيه بصحفة منه.

فالأدوميون زحفوا قبل رجوع بني إسرائيل من مصر على جيرانهم الحوريين سكان جبل سعير فأبلوا فيهم بلاء حسناً ومزقوا شملهم كل ممزق واتخذوا عوائدهم وسكنوا بلادهم التي نسبت إليهم فقيل لها بلاد أدوم[2] (تث 2: 12–22) ولما عاد الإسرائيليون من مصر لم يحاربوا الأدوميين بأمر الرب (تث 2: 4 وص23) وكانوا أعداء لهم. وكانت بصرى أو باصر قاعدة القسم الشرقي من أرض أدوم أو جبل سعير. وسالع (بترة) قاعدة القسم الجنوبي. وقويت شوكة الأدوميين واشتهر من ملوكهم سملة وهدد وكانت حكومتهم الأولى أشبه بحكومة البدو لعهدنا يدير شؤون كل قبيلة أمير أو شيخ مثل مخالطيهم الحوريين الذين استظهروا عليهم وائتموا بعوائدهم. وكان ملوك أدوم يتعاقبون في الملك قبل العبرانيين بزمن طويل وبعدهم أيضاً فيملك بعضهم مدة ثم يعتزلون الحكم. وفي أيام يوشافاط سنة 914 ق.م لم يكن ملك في أدوم ثم أقاموا ملكاً عليهم في أيام ابنه يورام وفي أيام داود أدوا الجزية والخراج لملوك يهوذا، ثم عصوا في زمن الملوك الآخرين، ثم ضربهم امصيا ملك يهوذا (837 ـــ 809 ق.م) في وادي الملح جنوبي البحر الميت وقتل منهم عشرة آلاف وأسر مثلها وافتتح الصخرة (بترة أو سالع) فدعاها بقتشيل أي المفتتحة بالله وأحضر معه تماثيل آلهة الأدوميين حتى هاموا على وجوههم في تلك الفيافي يذرعون منبسطاتها إلى أن انتهى بهم المسير إلى حوران. فلجأوا إلى مغاورها وأحبوها لمشابهتها مساكنهم الأولى في جبل سعير وقد أشار إلى اندحارهم وذلهم أيوب الصديق في سفره المشهور، وصرح كثير من الأنبياء كأشعيا وارميا وحزقيال وعوبديا بخراب أرض أدوم وجبل سعير. وكان فيها ثلاثون مدينة من مدنهم ممتدة

[1] موقعها اليوم على نهر الفرات قرب مصبه في خليج العجم وتسمى المغاور وحاران تبعد عنها نحو خمسمائة ميل إلى شرقي حلب قرب نهر الفرات.

[2] وصف سمث وروبنصن جبال أدوم 3: 154 بما معناه «إن جبال أدوم هي إلى شرقي البحر الميت مشتملة على صقع مواب وذلك في زمن الوحي. وتخمها الشمالي إلى جهة الأموريين كان نهر أنون (وادي الموجب) وتخم مواب الجنوبي كان نهر زرد (وادي الأحساء) وجبال مواب مرتفعة في الشمال ثم تنخفض إلى أن تعلو أيضاً وراء وادي الغوير (زرد) الذي استأذن بنو إسرائيل (بعد تيههم ووصولهم إلى قادش) أن يدخلوا فلسطين من شرقه فمنعهم الأدوميون واضطروا أن يرجعوا في العربة إلى أيلة ومروا في الجبال إلى الصحراء الشرقية.

من البحر الأحمر إلى مسيرة ثلاثة أيام. وكان الأدوميون أشراراً يقطعون الطريق على مجاوريهم ويوقعون بهم عائذين بحصونهم المنيعة في تلك الصخور السوداء التي لن تزال إلى اليوم تمثل لنا ذلك الطور الهمجي الذي بقي إلى فتوح الرومانيين كما سترى. وكانوا ينقلون البضائع للفينيقيين في العربية الحجرية. وانقطع ذكرهم بعد حصار تيطس لأورشليم[1].

ولما استولى الإسرائيليون بعد رجوعهم من أرض مصر على بلاد سيحون ملك الأموريين زحفوا إلى طريق باشان، فلما أحس بهم عوج ملكها خرج عليهم بجميع قومه ونازلهم القتال في أذرعي (ازرع) فاستظهروا عليه لأن الرب قواهم بتحقيقه لهم الغلبة عليهم، وفتحوا جميع مدنه المحصنة التي أوقع مرآها الرعب في قلوبهم (ستين مدينة كل بقعة أرجوب مملكة عوج في باشان) وسبوا البهائم وغنموا ما كان في هذه المدن حتى استولوا على مملكتي سيحون وعوج من وادي أرنون (الموجب) إلى جبل حرمون (الشيخ) في عبر الأردن وقتل هو وبنوه وقسمت بلاده بين أسباط رؤوبين وجاد ونصف سبط منسى وكان ذلك نحو سنة 1451 ق.م (عدد 21: 33 وتث 3: 3-5 و12-17) وسميت تلك المدن الستون حؤوت يائير أي قرى يائير بن منسى لأنه استولى عليها ووضع سليمان عليها حاكماً (1 مل 4: 13) وكانت هذه الأرض خصيبة جداً فأخذها من الإسرائيليين أكثرهم ماشية.



القطف السابع

في الآشوريين والسيثيين

نسب الأشوريون إلى آشور من بني سام وقد بدأت مملكتهم نحو سنة 1500ق م ووسع نطاقها آشور أزيربال الذي زحف نحو سنة 875ق م على سورية فاكتسح بلاد النهرين وتأهب للإغارة على لبنان فبلغ بثنية (حوران) وملكها لوبارته فأخذها ثم فتح بلاد الحثيين ومر بجانب لبنان الشمالي حتى ساحل البحر فبنى مذابح لمعبوداته وقدم عليها المحرقات شكراً للآلهة وأخضع بلاد فينيقية ورجع إلى بلاده منصوراً موقراً بالغنائم ولاسيما خشب أرز لبنان[1]. ثم نحو سنة 645 ق.م زحف آشور بانيبال على دمشق وما إليها وحوران وما يجاورها.

---

[1] روبنصن وسمث 2: 158.

[1] دائرة المعارف العربية 10: 209 والنهج القويم لبورتر 53.

ولما قدمت جموع السيثيين أو السكيثيين (Scythes) واكتسحت آشور بلغت غاراتهم سورية فترلوا في بعض أنحائها وعاثوا فيها فساداً ثم رحلوا عنها وقد نبت بهم مهاجرهم فغادروا لباشان وسماً من نزولهم فيها فسميت سيثوبوليس أي مدينة السيثيين. وهم تتر من سلالة ماجوج بن يافث كانوا قبائل بربرية أغارت على بلاد آشور وما بين النهرين وسورية وفلسطين حتى أوشكوا أن يبلغوا حدود مصر، ولكنهم لم يجسروا أن يدنوا من سواحل فينيقية. وأصلهم من شمال جبال القوقاز (قوه قاف) جاؤوا في منتصف القرن السابع قبل الميلاد. و لم تطل إقامتهم في سورية لعدم مناسبة إقليمها وعوائد سكانها لهم[2].



القطف الثامن

في النبطيين

مر بنا أن الأدوميين خيموا في المفاوز الواقعة في بلاد الحجاز بين بحر القلزم (الأحمر) وبحيرة لوط (الميت) وأن أصلهم من عرب البادية، فدخل بينهم في القرن السابع قبل الميلاد قوم من سقي الفرات يعرفون بالنبط نسبة إلى نبايوط بكر اسمعيل[3] وطردهم من الجنوب وامتزجوا بهم حتى تغلب عليهم اسمهم. وامتدوا من نهر الفرات إلى تخوم فلسطين واتصلوا بحوران فسكنوا أرضها. وكانوا يكتبون ويتكلمون باللغة الآرامية لغة سورية القديمة. وللعلماء أبحاث عنهم مطولة. وقد قويت شوكتهم في ما وراء فلسطين إلى الغرب الجنوبي في البلاد العربية الصخرية الممتدة من جزيرة سينا إلى حوران حيث كان الأدوميون. وقد نبغ منهم شيوخ وأمراء أداروا شؤوهم وكانت مدينتهم الكبرى سالع أو سيلا (بترة أي الصخرة) منيعة تصد عنهم غارات مهاجميهم وتردهم على أعقاهم مدحورين.

وحارهم الروم والبطالسة فتباعدوا عن تخوم مصر وضربوا خيامهم على أرض حوران ونازعوا المكابيين. وتملك بعضهم حوران في القرن الأول قبل الميلاد وفي القرنين الأول والثاني بعده. واشتهر منهم ملوك ستة على الأرجح وهم الحارث

---

[2] تاريخ سورية لجرجي أفندي يني 102 ولانرمان 1: 294 والنهج القويم 67.

[3] وفي المعجم النبط جيل من العجم يترلون بالبطائح بين العراقين قيل سموا بذلك لكثرة النبط عندهم وهو الماء قال حسان بن ثابت الأنصاري:

لكبيت كأنها دم جوف عتقت من سلافة الأنباط

فيلالين ملك سنة 95 ق.م ثم ملكوس وعوباد والحارث الثاني ومالك الثاني وابنه زايل ويرجح أنه آخر ملوكهم انتهى ملكه سنة 105م.

وكان النبطيون في أول عهدهم قبائل رحل يجتنبون الزراعة انتجاعاً للكلأ واكتفاء بنتاج مواشيهم من اللحوم والألبان شأن البدو، كما أشار إلى ذلك ديودورس الصقلي. ولما تحضروا ومصروا المدن عجزوا عن الغزو وتناسوا الحماسة والحرب واشتغلوا بالزراعة مائلين إلى الترف واللهو فانحلت عصبيتهم، وتغلب عليهم ترايان سنة 105م، فاضطرب حبلهم وتمزق شملهم وامتزجوا بقبائل البلاد الأصلية الآرامية وغيرها فملأوا ما بين جزيرة سيناء والفرات ولم يبق لهم شأن يذكر وأطلق في الفتح الإسلامي على جميع أهل العراق وما بين النهرين اسم الأنباط لتكلمهم جميعهم بلغة واحدة هي الآرامية ونحوها مع أنهم لم يكونوا جميعهم أنباطاً. ومن آثارهم خطوط نقشت على منعطف وادي العربة في غربيه[1] ولا سيما في مدينتهم بترة التي كانت في الجنوب أشبه بتدمر في الشمال كثيرة الآثار والمرافق ولكن مزاحمة تدمر لها في أيام ملكتها زينب في أواسط القرن الثالث قضت بتقهقرها. وبنى النبط بترة في نحو القرن السادس قبل الميلاد واتخذوها لعبادة الإله ذي شرى الذي شيدوا له هيكلاً في جبل المسلات وفي سفحه كثير من المدافن تحت نظر الآلهة[2]. ودعاها فرغوسن مدينة الموتى المطعونين لتوهمه أن تلك المغاور الكثيرة هي مدافن ويرجح أنها كانت هيا كل ومذابح وأدياراً[3]. وذكرها يوسيفوس باسم عاصمة العربية الصخرية وقال أسترابون أن موقعها بسهل تحدق بها الصخور ويجري فيها نهر وقد أقام فيها الفيلسوف أثينادوروس صديق استرابون مدة وأعجب بها[1]. وآثارها على مسيرة يومين من رأس خليج العقبة إلى شماليه وإلى جنوبي أريحا على مسير 3-4 أيام منها على طول الطريق التي تؤدي إلى أطلالها نحو ميل في وادي موسى على جانبيه قبور محفورة في الصخور وفي مدخله بناء الخزينة[2] التي كان أحد الفراعنة يحفظ فيها نقوده وجواهره وهنالك آثار أربعة أعمدة كورنثية جميلة تمثل باباً ربما كان ضريحاً أو هيكلاً. ومن آثارها الهياكل والدور والحمامات والملاعب والقصور والمدافن وغيرها مما يمثل الهندسة المصرية واليونانية والرومانية والسورية. وذهب بلمر إلى أن تماثيل النساء التسع المنصوبة على جهات البناء التسع إنما هي تماثيل معبودات الشعر التسع مما يدل على أن هذا

---

[1] المشرق 1: 629.

[2] المشرق 8: 459.

[3] دائرة المعارف العربية 9: 398.

[1] رحلة روبنصن وسمث 2: 169 و170 و171.

[2] المشرق 8: 965 روبنصن وسمث 2: 130 و168.

البناء المربع كان مدرسة للعلوم. ومن أهم آثارها الدير وهو هيكل عظيم منحوت في الصخر وملعب محفور فيه نحو أربعة آلاف مجلس للمتفرجين يبلغ محيطه مائة وعشرين قدماً.

وكانت بترة سنة 70 ق.م مركز أمراء الحارثيين العرب (الأريثيين) فأضافها تريانوس إلى الإمبراطورية الرومانية وسماها خلفه تريانة كما يستدل على ذلك من كتابة وجدت على نقود قديمة ضربت فيها. وبعد استيلاء الإسلام عليها لم يرد لها ذكر في التاريخ و لم يشر إليها أحد من السياح حتى أواخر القرن الثالث عشر. وقد اكتشفها بركهرت سنة 1813 وزارها غيره مثل روبنصن وسمث سنة 1838 وسنة 1852 ووصفاها في الجزء الثاني من كتابهما صفحة 168. والمسيو دوتي بين سنتي 1876- 1878 وكثير غيرهم. وقد اكتشفت جميع آثارها في أوائل سنة 1905م عند حفر طريق الحجاز الحديدية. وتسمى لعهدنا وادي موسى. وأهم تلك الآثار قصر فرعون وخزينته.

وكان العرب يحتقرون النبط[ق] قال والي الأهواز: (إذا كان الحق استوى عندي الهاشمي والنبطي) وقال عمر بن الخطاب (رضه): (تعلموا النسب. لا تكونوا كنبيط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا وكذا). وروى العقد الفريد أن محمد بن حسان النبطي هو القائل: (لا تسأل نفسك العام ما أعطتك في العام الماضي) وكتاب الفلاحة النبطية مذكور عند العرب.



القطف التاسع

في اليونانيين

كان الفرس والمصريون يتنازعون سورية فجاء اليونانيون وغلبوهم بفتح الإسكندر المكدوني لها سنة 333 ق.م ثم ملك بعده قواده واشتهر منهم سلوقس الذي تولى سورية سنة 311 ق.م وعرفت دولته بالسلوقية إلى سنة 64 ق.م واتصل ملكهم بحوران وما إليها وحاربوا مجاوريهم العرب. وقلما عثرنا في التاريخ على ما يستحق أن ينشر من وقائعهم في هذه البلاد الحورانية سوى إطلاقهم اسم

[ق] الأنباط: استمر حكمهم من عام 500 ق.م وحتى 106م إلى أن استولى عليهم الرومان. ومن أشهر المدن النبطية أم القرى، والبتراء التي ما زالت تعج بالآثار المعمارية ذات الأساليب المتأثرة بالفنون الإغريقية والبطلمية المصرية والآشورية والرومانية الصرفة، ومن أهم الآثار المعمارية في البتراء خزنة فرعون والدير وقصر القبور.

تراخونيتس على اللجاة وتسمية حوران أورانيتس بمعنى المغاور كما مرّ ولهم فيها آثار وأبنية ولقد عززوا أحوالها الزراعية والتجارية.



القطف العاشر

في المكابيين

هم من سبط لاوي وعشيرة هرون فبعضهم مارسوا وظيفة الحبر الأعظم ولقب خمسة منهم برؤساء يهوذا والباقون بالملوك وأولهم متتياس سنة 167 ق.م وآخرهم أنتيخون سنة 37 ق.م. وكثيراً ما حاربوا العرب وحالف اليهود النبطيين وكانوا ينازعون اليونانيين والرومانيين الحكم. وخلفهم هيرودس الكبير الأدومي من 37 ق.م إلى 60 ب.م. وضم أغسطوس قيصر إلى ولايته تراخونيتس (اللجاة) سنة 20 ق.م. وأريسطوبولس ملك اليهودية حارب الأيطوريين سكان اللجاة قبل المسيح بقليل وقهرهم وأكرههم على الاختتان. وأسكن هيرودس الكبير جالية للمحافظة على طريق اللجاة وتأمين البلاد من اللصوص والغزاة. وكان هيرودس فيلبس الأول رئيس الربع على أيطورية (الجيدور) وتراخونيتس "اللجاة" وحكم من سنة 4 ق.م — 34 ب.م. وكان ابن هيرودس الأكبر من امرأته الخامسة كيلوبترة وهو الذي عرف أن منبع نهر الأردن هو من سفح جبل لبنان الشرقي. ولما ولي أوغسطوس قيصر هيرودس الكبير على اللجاة اشترط عليه أن يقرض جميع اللصوص الذين كانوا يعيثون في أرضها الغاصة بهم. وبعد موت هيرودس استولى عليها فيلبس كما مر.



القطف الحادي عشر

في الرومانيين

فتح بومبي القائد الروماني سورية سنة 64 ق.م وأقام فيها اميليوس مكادورس والياً ثم خلفائه من بعده ولكنه ترك بعض حكامها القدماء على مناصبهم تحت أمرة الوالي الروماني كالملوك النبطيين الذين كانوا يلون دمشق وما جاورها ومنهم الحارث المشهور بزمن بولس الرسول والمكابيين الذين كان من ملوكهم هركان وهيرودس وفيلبس، وسميت هذه البلاد العربية (غلا 1: 17) وبقي بعض الاستقلال لدمشق وبصرى [وكانت عاصمة للأنباط عام 75م وأقاموا فيها الهياكل والقصور] وجرازا (خرسا) على شاطئ بحيرة طبرية شرقاً. وعمان (ربة عمون) وبترة

(الصخرة) عاصمة النبطيين في بلاد العربية. وكان ما وراء نهر الأردن مثل حوران واللجاة صحارى يسكنها رحل همج يرعون مواشيهم في سهولها وحزونها ويغزون مجاوريهم ويقطعون الطريق معتصمين بصخورها، حتى أن الملك أغريبا اليهودي كان يؤنب سكانها لمعيشتهم كالوحوش. وكانت البلاد مستوعرة مقفرة فبذل الرومانيون جهدهم في استعمارها واستثمار الذهب الأصفر من تربتها الحمراء وزروعها الخضراء. وعهدوا بالمحافظة على أمراء العربية والكتائب المقيمة في الإقليم العربي بعد أن مصروه إقليماً رومانياً كانت بصرى عاصمته وأكثروا من الجنود بين بصرى ودمشق قطعاً لدابر الغزاة.

وزحف فسبسيان إلى بلاد الأدوميين وقتل ألفي رجل واستأمر نحو ألف باعهم أرقاء وغادر هناك حامية من رجاله وعاد نحو سنة 68م مدوخاً الأدوميين بعد عصيانهم. وروى يوسيفوس أن أغريبا الثاني استقدم من حوران واللجاة والبثنية ثلاثة آلاف فارس وأرسلهم إلى أورشليم في أول ثورة اليهود لتأمين البلاد. وأرسل ترايان الذي تولى سورية سنة76م كرنيليوس بلما قائد جيشه فاستولى على بعض المدن التي كان لها بعض الاستقلال وذلك سنة 105م وبعد سنة نظم شؤونها وجعلها إقليماً رومانياً باسم العربية واتخذ مدينة بصرى مقراً لفيلق من الجند يحافظون عليها ويؤمنون أهلها. وذكرت مجلة المشرق الغراء (8: 458) أن هذا الملك أنشأ سكة مأدبا إلى مدينة وادي موسى وجعل لها أعلاماً وأنصاباً من الحجارة يفهم مما كتب عليها أنه فتح هذه الطريق ليوصل بين حدود سورية وشاطئ البحر الأحمر (اهـ). فلهذا توفرت ثروتها وكثر سكانها وصارت بترة محطاً للتجارة. ورغبت تلك القبائل الرحل في الصنائع وبلغوا مبلغاً عظيماً من إتقانها وتركوا فيها آثاراً ذات شأن إلى يومنا هذا. ولما خلفه أدريان أتم استعمارها وبذل عنايته في ترقيتها فكثر فيها العرب واليونانيون والسريان والهنود ومالوا إلى التجارة. وقرّب المواصلات بتمهيده الطرق كطريق القوافل القديمة من دمشق إلى بترة [وتسمى اليوم البتراء] ومن دمشق إلى بصرى ورصفها بصفائح عريضة منتسقة بعضها بجانب بعض على صفين فكانت أشبه بأسواقنا اليوم. ولقد اجتازت هذه الطرق شعوب كثيرة وأمم قديمة لن تزال آثارها ماثلة على جانبيها إلى عهدنا.

فراجت سوق التجارة وأصبحت دمشق تتمتع بتمر الحجاز وطيب اليمن. والعربية بالحبوب والزبيب من وادي الأردن والسلع من آسية الصغرى. ولما تولى ساويروس سنة 193م ذلل الصعاب وأتم العمل الذي مهده له من سبقه فأنال تلك المفاوز حظاً كبيراً من النجاح وبسط عليها رواق التمدن وعزز أسباب التجارة

والصناعة والزراعة فشيدت البيوت والحمامات التي لا تزال أنقاضها ماثلة للعين كما ذكر دي فوكوا وغيره من السياح المحققين. وبعد أن كانت كتابة المصكوكات في بصرى بزمن ترايان يونانية صارت بعد ولاية ساويروس بقليل لاتينية. ولقد أقام الرومانيون الخفراء في هذه الصحاري الفيحاء لتأمين السابلة من غزو البدو الذين كانوا يطمعون بالقوافل ولن تزال آثار المخافر في سفوح الجبال من أطراف حوران إلى الشرق ماثلة أطلالها حتى يبلغ عرض أسوار بعضها مترين وعليها أبراج وأمامها حفر. وفي إحدى القمم مخفرة تشرف على السهل الفسيح. وقد جروا المياه من الجبال إلى السهول إرواءً لغليل الأرض والناس. وكثيراً ما يجد الباحث كتابات قديمة تصرّح بشكر ترايان لأنه جرّ الماء إلى قناة (قنوات) وغيرها. وأول ما عني به كرنيليوس بلما فاتح العربية الآنف الذكر جره المياه لاستقاء رعايا الرومانيين الحديثين ثم كثرت القنيّ التي تترقرق بها المياه في تلك المفاوز واتصلت إصلاحاتهم هذه بلبنان وغيره كما تدل على ذلك آثارهم الباقية.

وبعد أن كان الملوك الذين حكموا تلك البلاد قبل الرومانيين قد غرموا الأهلين وسخروهم فأذلوهم وأخروهم، نشطهم هؤلاء وأنعشوهم بعدلهم وعقدوا لهم العهود المعتدلة من مثل إبقائهم على عوائدهم وسننهم ومنحهم الحرية بلسانهم ودينهم وجعل أمر أكثر المدن شورى فمنعوا الاستبداد وضربوا الجزية على الأهلين يؤديها لهم الذكور من السنة الرابعة عشرة والإناث من السنة الثانية عشرة إلى السنة 65 من العمر. وأخذوا خراج العقارات قيمة واحد في المائة. وضربوا مكوسا على الصادرات والواردات من السلع ونحوها[1]. ولما حاصروا مدينة أورشليم لجأ النصارى الذين كانوا فيها إلى بلاّ من مدن باشان. وفي القرن الرابع كان جميع سكانها تقريباً من النصارى وحولت الهياكل الوثنية إلى كنائس كثرت في المدن والقرى ولقد كثر عمالهم من العرب النصارى ممن سنشير إليهم.



الفصل الثاني عشر

في الضجاعم

ما كرّت القرون الأولى الثلاثة بعد الميلاد حتى قوضت قبائل عربية من بني سباء[2] خيامها من العربية الجنوبية وضربتها في سورية ولكنهم انقسموا فصيلتين

---

[1] مجلة المشرق 2: 217.

[2] راجع ابن خلدون 2: 238 و249 و278.

ظعنت إحداهما إلى ما بين النهرين حيث نشأت منها مملكة الحيرة وملوكها المنـاذرة المشهورون. والثانية ألقت عصاها في سورية في عصـر ولادة يسـوع المخلـص وتفرقت في أنحاء دمشق وسمي أهلها تنوخيين من كلمة تنوخ بمعنى الإقامة. فوالـوا سكان البلاد الأصليين ثم استقطع بعض زعمائهم الرومانيين فاتخذوهم عمالهم على العرب. وذكر ابن خلدون[3] عن المسعودي ثلاثة ملوك منهم النعمان بن عمـرو ثم ابنه عمرو بن النعمان ثم ابنه الحواري بن عمرو. ثم غلبهم على أمرهم سليح مـن بطون قضاعة ثم الضجاع منهم من ولد ضجعم بن سعد (ويروى معد) بن سـليح واسمه عمرو بن حلوان بن عمران بن الحاف، فتنصروا وملكتهم الروم على العـرب وأقاموا على ذلك مدة. وكان نزولهم ببلاد مؤاب من أرض البلقـاء. ويقـال أن الذي ولى سليحاً على نواحي الشام هو قيصر طيطش (تيطس) ابن قيصر ماهـان. وهم من ملوك الطوائف القضاعيين الذين قتل أسعد الحميري من كان منهم باليمن أزدشير كسرى من كان منهم بأرض العجم كانوا في البحرين فترلوا بادية الشام في أواسط القرن الأول للميلاد وانتشروا في أواخر القرن الثاني وتولوا مكان التنوخيين إلى أن انحصر الملك بهم ومدحهم النابغة الذبياني بقوله:

لعمري لنعم المرء مـن آل ضجعـم   نزور بصـرى أو ببرقـة هـارب
فـتى لم تلـده بنـت أم قريبـة   فيضوى[1] وقد يضوى رديد الأقلوب

وتنصروا بعهد عمرو بن مروان بن الحاف ملكهم فصاروا عمـال القيـاصرة على العرب يجمعون الأتاوة لقيصر عن كل رجل يترل بساحتهم دينـاراً. وآخـر ملوكهم زياد بن الهبولة قتله مع من بقي من قومه والي الحجاز للتبابعة.

❖❖❖

[3] قال ابن خلدون (2: 242) الملك الأقدم للعرب كان في نسب بني سباء بن يشجب بن يعرب بن قحطـان ومنه تشعب بطون حمير بن سبأ وكهلان بن سبأ وينفرد بنو حمير بالملك وكان منهم النابغة وغـيرهم اهـ. وكان السبئيون أوفر الناس ثروة في بلاد العرب وكانوا يتجرون بالطيوب ونحوها وحصروا بيدهم قروناً طويلـة أهمية التجارة بين أوربة والهند ومصر وسورية واشتهروا بغناهم بين العبرانيين واليونانيين والرومانيين.

[1] ضوي الرجل بضوى ضوى دق عظمه وفل جسمه خلقة أو هزالاً وفي الحديث اغـتربوا ولا تضـووا أي تزوجوا في الأجنبيات ولا تتزوجوا في العمومة.

الفرع العاشر

في تاريخ حوران بعهد الغسانيين وفيه قطوف

القطف الأول

في نسبتهم وقدومهم إلى حوران وتسميتهم

قال ابن خلدون[2]: «وليس بين الناس خلاف أن قحطان أبو اليمن كلهم.. وكان بنو قحطان معاصرين لإخوانهم من العرب العاربة ومظاهرين لهم على أمورهم و لم يزالوا مجتمعين في مجالات البادية مبعدين عن رتبة الملك وترفهه الذي كان لأولئك فأصبحوا بمنحاة من الهرم الذي يسوق إليه الترف والنضارة فتشعبت في أرض الفضا فصائلهم وتعددت في جو القفر أفخاذهم وعشائرهم ونمي عددهم وكثرت إخوانهم من العمالقة في آخر ذلك الجيل وزاحموهم بمناكبهم واستجدوا خلق الدولة بما استأنفوه من عزهم وكانت الدولة لبني قحطان متصلة فيهم. ونبغ يعرب بن قحطان فكان من أعاظم ملوكهم وقيل إنه أول من حياه أولاده بتحية الملك. قال ابن سعيد: وهو الذي ملك بلاد اليمن وغلب عليها قوم عاد وغلب العمالقة على الحجاز وولى اخوته على جميع أعمالهم. فولى جرهماً على الحجاز وعاد بن قحطان على الشحر وحضرموت بن قحطان على جبال الشحر، وعملان بن قحطان على بلاد عمان. هكذا ذكر البيهقي اهـ وهو أول من نطق بالعربية وإليه أشار حسان بن ثابت بقوله:

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة كلام وكنتم كالبهائم في القفر

وقال آخر:

فما مثل قحطان السماحة والندى ولا كابنه رب الفصاحة يعرب

---

[2] الجزء الثاني صفحة 47.

وملك بعده ابنه يشجب ثم عبد شمس الملقب بسباء وكان لهذا عشرة أولاد فسكن اليمن منهم ستة والشام أربعة. فالذين سكنوا اليمن كندة ومذحج والأزد وأنمار وحمير والأشعريون. والذين سكنوا الشام غسان ولخم وجذام وعاملة. ولقب بسباء لكثرة سبيه. قال الشاعر:

لقد ملك الآفاق من حيث شرقها إلى الغرب منها عبد شمس بن يشجب
سعى بالجياد الأعوجية والقنا إلى بابل في مقنب بعد مقنب

وهو الذي ابتنى السد في مدينة مأرب[1] من اليمن على ثلاث مراحل من مدينة صنعاء[2] قاعدة ملكه نحو القرن الثاني قبل الميلاد بين جبلين بالصخر والقار طوله فرسخ في فرسخ حبس به سيول الينابيع والأمطار وساق إليه سبعين وادياً تصب مياهها فيه. وترك فيه مثاعب (خروقاً أو مجاري) ثلاثة بعضها فوق بعض على قدر ما يحتاجون إليه في سقيهم وسمي العرِم[1]. وأتمه ملوك حمير من بعده لأنه مات قبل

---

[1] كانت مملكة سبأ تعم أكبر قسم من اليمن وكانت عواصمها الثلاث سبأ وهي أهمها وصنعاء أقدمها وظفار (تسمى اليوم زعفر) مقر ملكها وطمحت عيون الفاتحين إلى هذه المملكة فافتتحها أهل حضرموت وبنو حمير بالمناوبة مراراً كثيرة. وسبأ هو اسم مأرب وقيل أن مأرباً لقب ملك باليمن وقيل إنما هو قصر الملك والمدينة سبأ قال أبو الطمحان:

ألم تروا مأرباً ما كان أحصنه وما حواليه من سور وبنيان

[2] نسبت إلى صنعاء بن يقطان بن عامر إلخ وأول من بناها ابنه أوزال. وهي قصبة اليمن في بلاد العرب وقاعدة اليمن العثمانية موقعها في سهل جميل يعلو عن البحر أربعة آلاف قدم وسكانها نحو أربعين ألف نفس ومعظم تجارتها بالبن وهي مشهورة برياضها الغناء ومياهها العذبة ونسيمها البليل وفيها أطلال قصر غمدان، والقليس الذي بناه أبرهة الأشرم. وقد وصفها نيبور أنها حسنة الموقع على بناء من الأرض تشبه دمشق في مائها وأشجارها. واليمن موقعها على شاطئ بحر القلزم (الأحمر) من جنوبي تهامة إلى باب المندب وعلى شاطئ بحر الهند إلى مدخل خليج العجم وعلى شاطئ هذا الخليج إلى حد البحرين وأقسامها حضرموت وشحر ومهرة وعمان ونجران وكثرت فيها قديماً معادن الذهب والفضة.

[1] جمع عرمة وهو السكر الذي يحس الماء. قال النابغة الجعدي:

من سباء الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما

وفيه أقوال كثيرة. أما السدود فمن أشهرها سد مأرب هذا وسد الإسكندر في بلاد ياجوج وماجوج الذي لم يذكره إلا مؤرخو العرب ونسبه بعضهم إلى ذي القرنين العربي لا الرومي وقال فيه الشاعر:

كأني دحوت الأرض من ضربة بها كأن بنا الإسكندر السد من عزمي

ومن أشهر سدود الدنيا اليوم سد هولندة وهو يمنع طغيان البحر على الأرض لانخفاضها وينفق على مراقبته كل سنة أكثر من خمسمائة ألف ليرة إنكليزية.

إنجازه فأخصبوا وكثرت أموالهم. فأنذرهم هذا السد بتهدمه فأوجست بعض القبائل خيفة منه. ولذلك قام رائدهم فيهم يقول: «من كان منكم ذا همّ بعيد. وجمل شديد. ومزاد شديد. فليلحق بقصر عمان المشيد. فكان الذين نزلوه أزد عمان[2]. ثم قال: من كان ذا جمل مغن. ووطب ودن. وقربة وشن. فلينقلب عن بقرات النعم. فهذا اليوم يوم هم. ويلحق بالثني من شن. فكان الذين نزلوه أزدشنوءة[3]. ثم قال: «من كان منكم ذا جلد وقسر. وصبر على أزمات الدهر. فعليه بالإدراك من بطن مرّ». فكان الذين سكنوه خزاعة[4]. ثم قال: «من كان منكم يريد الراسيات في الوحل. المطعمات في المحل. فليلحق بيثرب ذات النخل» فكان سكانها الأوس والخزرج[5]. ثم قال: «من كان منكم يريد الخمر والخمير. والأمر والتأمير. ويلبس الديباج والحرير. فليلحق ببصرى والحفير من أرض الشام». فكان الذين سكنوه بنو غسان. ثم قال: «من كان منكم يريد الثياب الرقاق. والخيل العتاق. وكنوز الأرزاق. والدم المهراق. فليلحق بأرض العراق». فكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش وغيرهم من ملوك العراق. وتروى هذه الحادثة لطريفة الكاهنة أيضاً.

وأثبت دي ساسي (De Sacy) الفرنسي وغيره أن انفجار السد حدث نحو سنة 102م فطغى على أهل اليمن وأجحفهم (أهلكهم) وأغرق جناهم وفرّق شملهم و لم يسلم إلا ذمار وحضرموت وعدن. وأشار إليه أعشى قيس بقوله:

وفي ذاك للمؤتسى أسوةٌ[1] ومأرب عفى[2] عليها العرم
رخام بنته لم حمير إذ جاء موّاره[3] لم يرم

---

[2] نسبة إلى الجبل الذي نزلوه.

[3] قال في تاج العروس سموا بذلك لشنآن أي تباغض وقع بينهم أو لتباعدهم عن بلدهم. وقال الخفاجي لعلو نسبهم وحسن أفعالهم من قولهم رجل شنوءة أي طاهر النسب ذو مروءة وهو الأظهر. وقال أبو عمرو بن العلاء: أفصح الناس أهل الشراة (وهي جبال بين تهامة واليمن) أولها هذيل بن بجيلة ثم أزدشنوءة.

[4] من الانخزاع أي الانفصال لأنهم انفصلوا عن أصحابهم وأنكر ابن خلدون (2: 315) أن خزاعة من غسان كما قال بعضهم.

[5] هم الذين استنجدوا أبا بجيلة الغساني فنصرهم وتفرق الأوس والخزرج في عالية يثرب وسافلتها وعزوا فيها وذل اليهود (الأغاني وابن خلدون 2: 288) وهم الذين عرفوا في صدر الإسلام بالأنصار ومنهم حسان القائل:

نصرنا وآوينا النبي وصدقت أوائلنا بالحق أول قائل

[1] أي للمقتدي قدوة.

[2] بمعنى أبادها.

فــاروى الــــــزروع وأعنابهـــا علـــى ســعة مـــاؤهم إذ قســـم
فصـــاروا أيـــادي مـــا يقـــدرون منه علــــى شــرب طفــل فطــم

ونسب البلاذري تخريب هذا السد إلى بغي اليمنيين لما عندهم من الخصب والرفاه وقال قوله غيره من المؤرخين. ويقال في أساليب العرب ذهب القوم أو تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ ولعبت بالقوم أيدي سبأ أي تبددوا تبدداً لا اجتماع بعده. وقيل المراد بأيدي سبأ وأياديه جنوده لأنه كان يسطو بهم ويستعين على أعماله في الغارات فكأنهم كانوا أيديه[4] .

وينتسب بنو غسان إلى مزيقياء وهو لقب عمرو بن عامر لأنه كان يمزق كل يوم حلتين مطرزتين بالذهب لا يعود إلى لبسهما ثم يهبهما. وأول من نزل منهم ماء غسان[5] ونسب إليه في أوائل القرن الثالث للميلاد هو ماء السماء عامر بن حارثة الغطريف ولقب بماء السماء لكرمه وتفريق أمواله على قومه في زمن القحط وهو ابن امرئ القيس البهلول بن ثعلبة بن مازن بن الأزد من سلالة كهلان بن عبد شمس بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح الجد الثاني للعالم بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ بن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم الجد الأول للعالم.

فاشتهر بنو مزيقياء في الشام بالغساسنة وكانوا أهل تمدن وصنائع ورحل معهم من بلادهم بنو عاملة ابن سباء مع سبعة أحياء أخرى توطنوا في دمشق وضواحيها

---

[3] مبالغة من مار البحر إذ ماج واضطرب وجرى على وجه الأرض.

[4] راجع لنرمان وكوسن دي برسفال وغيرهما.

[5] يرجح اليوم أنه نبع عري في حوران وعري قرية على بعد ساعة من بصرى موقعها بين مجرى مائين وفيها قصر اسمعيل الأطرش المتوفى سنة 1896. وإليه أشار حسان بن ثابت الأنصاري بقوله:

أما سألت فأنا معشر نجب — الأزد نسبتنا والماء غسان

وكان في القديم ماء غسان بين واديين يقال لهما زبيد وزمع فكل من شرب من ذلك الماء سمي غساناً وهم بنو مالك وبنو الحرث وبنو جفنة وبنو كعب وأما بنو ثعلبة العنقاء فلم يسموا به لأنهم لم يشربوا منه. فمن ولد جفنة آل غسان ملوك الشام ومن ولد ثعلبة العنقاء الأوس والخزرج ملوك يثرب في الجاهلية. قال ابن خلدون (2: 239): فكان الملك بالحيرة للخم في بني المنذر وبالشام لغسان في بني جفنة وبيثرب كذلك في الأوس والخزرج ابني قيلة. وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية وأحياء ناجعة وكانت في بعضهم رئاسة بدوية وراجعة في الغالب إلى أحد هؤلاء.

وسمي محل نزول بني عاملة بجبل عاملة[1] إلى اليوم. ولقد تفرق الغساسنة في الشام والمناذرة في العراق والأزد والأوس في منى والأوس في المدينة وخزاعة بجوار المكة المكرمة.

❖❖❖

القطف الثاني

في مخاصمتهم للضجاعم وحلولهم محلهم

فما ألقى الغساسنة عصاهم في صحاري البلقاء في نواحي حوران وما إليها حتى ضرب عليهم الضجاعم عمال القياصرة الرومانيين الخراج على عادتهم فمانعهم الغساسنة فاقتتلوا فكان الفوز للضجاعم وأدت غسان الأتاوة إلى أن كلن سبيط الضجعمي متولياً جبايتها فأبطأوه بدفعها فجاء سبيط زعيمهم ثعلبة وقال: إما أن تدفع الخراج أو أني آخذ أهلك. فكان ثعلبة حليماً فأجابه بتؤدة[2]: (هل لك في من يربح عليك بالخراج). قال نعم. فقال: (عليك بأخي جذع بن عمرو). وكان جذع فتاكاً وسريع الغضب فقصده سبيط وطالبه بدينار فاستمهله فلم يفعل. ويرى أنه قام من فوره ومعه سيف مذهب وقال: خذ عوضاً عن حقك إلى أن أجمع لك الخراج. قال: نعم. قال: فخذه. ولما تناول سبيط جفن السيف استل جذع نصله وضربه به فقيل (خذ من جذع ما أعطاك[1]). فذهب قوله مثلاً إلى اليوم وامتنعت غسان من هذه الأتاوة.

وكان للحارث الغساني زعيمهم ابنة جميلة يقال لها حليمة فأعطاها توراً[2] وقال لها خلقي[3] به قومك حتى يناحوا. فجعلت حليمة تخلق قومها وتحرضهم على القتال فمر بها عاب[4] فلما خلقته تناولها وقبلها فصاحت وشكت ذلك إلى أبويها فقالا لها اسكتي فما في القوم أجلد منه حين اجترأ وفعل بك هذا. فإما أن

---

[1] ويسمى جبل الخليل وهو البلاد الواقعة في نواحي قلعة الشقيف سمي بعاملة القضاعية وهي أم الحارث بن عدي الذي تنتسب قبيلته إليها نزلوا الشام مع بني جذام ولخم وغسان. وإلى هذا الجبل ينتسب كثير من الأدباء أشهرهم بهاء الدين العاملي المؤلف الرياضي المشهور المتوفى سنة 1031هـ ـ 1622م.

[2] تمهل وأناة.

[1] راجع مجمع الأمثال للميداني وفرائد اللآلئ للأحدب.

[2] إناء يشرب فيه ويراد هنا به وعاء الطيب.

[3] طيبي بالخلوق وهو نوع من الطيب.

[4] هو مالك بن عمرو الغساني فارس خصاف (اسم فرسه) ولقد ضرب به المثل فقيل أجرأ من فارس خصاف.

يبلي[5] غداً بلاءً حسناً فأنتِ امرأته. وإما أن يقتل فتنال الذي تريدين منه. فأبلى الفتى بلاء حسناً ورجع سالماً فزوجوه حليمة. وكان يوم حليمة من أعظم الأيام المعروفة عند العرب فضرب عندهم فيه المثل المشهور "ما يوم حليمة بسر[6]". وفيه قال النابغة الذبياني يصف الغسانيين من قصيدته المشهورة مشيراً إلى السيوف:

تخيرنَ من أزمان يوم حليمة   إلى الآن قد جربن كل التجارب

وكان الفوز لغسان عظيماً فأخرجوا الضجاعم من الشام[7] وخلفوهم عمالاً على عربها.



القطف الثالث

في عمالة الغساسنة للقياصرة الرومانيين

علل ابن خلدون (2: 279) أن غلبة الغساسنة للضجاعم على ما بأيديهم من رئاسة العرب كانت لأن صبغة رئاستهم الحميرية قد استحالت وعادت إلى كهلان وبطونها وعرفت الرئاسة منها باليمن قبل فصولهم وربما كانوا أولى عدة وقوة وإنما العزة للكاثر. فغلبتهم غسان وأقادتهم وتفردوا بملك الشام وذلك عند فساد كان بين الروم وفارس، فخاف ملك الروم أن يعينوا عليه فارساً فكتب إليهم واستدعاهم ورئيسهم يومئذ ثعلبة بن عمرو أخو جذع بن عمرو وكتبوا بينهم الكتاب على أنه إن دهمهم أمر من العرب أمدهم بأربعين ألفاً من الروم وإن دهمه أمر أمدته غسان بعشرين ألفاً وثبت ملكهم على ذلك وتوارثوه وأول من ملك منهم ثعلبة بن عمرو فلم يز ل إلى أن هلك وولي مكانه غيره اهـ. ملخصاً.

---

[5] أبلى في الحرب أظهر بأسه حتى بلاه الناس وامتحنوه.

[6] ويروى أن يوم حليمة هذا كان بين غسان والمناذرة في العراق وإليه أشار النابغة أيضاً بقوله يحرض قومه:

يوما حليمة كانا من قديمهم   وعين باغ فكان الأمر ما ائتمروا

يا قوم إن ابن هند غير تارككم   فلا تكونوا لأدنى وقعة جزرا

ووقعة عين باغ أو أباغ في الجاهلية بين غسان ملوك الشام ولخم ملوك الحيرة قتل فيها المنذر بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي وإباء رجل من العمالقة نزل ذلك المحل فنسب إليه وهو واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام كانت فيه منازل إياد بن نزار.

[7] ذكر ذلك (C. De Perceval) كوسن دي برسفال المؤرخ الفرنسي وكثير من المحققين مثل نولدك (Noldeke) الألماني في كتابه (تاريخ ملوك غسان) وغيره.

ولقد كان الغساسنة عمالاً على عرب الشام من قبل القياصرة الرومانيين. فسكنوا في بلاد الجولان وبادية الشام ودخلت دمشق في حوزهم. وقد ذكر حسان بن ثابت الأنصاري منازلهم في أكناف دمشق بقوله في قصيدة:

لمن الدار أقفرت بمعان[1] بين شاطئ اليرموك فالصمان
فحمى جاسم[2] فأودية الصفر مغنى قبائل وهجان
فالقريات من بلاس فداريا[3] فسكاء فالقصور الدواني
تلك دار العزيز بعد أنيس وحلول عظيمة الأركان
هرملت أمهم وقد هبلتهم يوم حلوا بحارث الجولان
ذاك مغنى لآل جفنة في الدهر وحقٌ تعاقب الأزمان
قد أراني هناك حق مكين عند ذي التاج مجلسي ومكاني

ولقد تولوا جميع البلاد في عبر الأردن وبقوا إلى ظهور المسلمين وكان أمراؤهم يدافعون عن تخوم البلاد ويردون غارات البرتيين والفرس وعرب الحيرة ولهم مع الجميع وقائع عظيمة وعنوا بتقدم العلم والصناعة وآثارهم الباقية في حوران والجولان مما وصفه دي فوكوا ووستون ودنكتون وغيرهم شهادة صريحة بما كانوا عليه من بسطة الملك والاتقاء ومعظم آثارهم خطوط سبئية وهي فروع الحميرية وقد تغلبت لغة هذه القبائل العربية على الآرامية واليونانية لغتي سورية في عهدهما.

ويعرف الغساسنة أيضاً بآل جفنة نسبة إلى جفنة بن عمرو بن مزيقياء أول من تولى قيادتهم إلى الشام وامتدت النصرانية في بعض قبائل العرب كربيعة وغسان وبعض قضاعة اهتدوا إليها من الروم الذين امتزجوا بهم للتجارة واجتمع على

---

[1] معان موضع بطريق الحاج فيه أربعة آلاف ساكن وهو اليوم قصبة قضاء باسمه يتبع الكرك الذي فيه عمان وتعرف قديماً باسم ربة عمون وفيها وجد سرير عوج ملك باشان الحديدي على ما مر وسماها البطالسة فيلادلفية. وبقي اسمها هذا إلى عهد الرومانيين وآثارها متسعة في أطلال المدينة العليا حيث هناك قلعة وهيكل وبقايا سور. أما المدينة السفلى فعلى شاطئ نهر عمان الشمالي وفيها كنيسة وحمامات عامة وكثير من المراسح والهياكل والمدافن.

[2] البلدة التي ولد فيها أبو تمام الطائي المشهور وهي اليوم من أعمال الجيدور.

[3] داريا قرية تبعد عن دمشق نحو اثني عشر ميلاً واقعة بالغوطة وفيها قبر أبي سليمان الداراني ونسب إليها جماعة من العلماء وحدث فيها مواقع مشهورة وهي اليوم من ناحية وادي العجم ولهذه الأدبيات روايات مختلفة راجعها كلها في ديوانه المطبوع في مصر سنة 1904م صفحة 110 وهي في مدح جبلة بن الأيهم الغساني.

النصرانية في الحيرة قبائل شتى يقال لهم العباد منهم عدي بن زيد العبادي ترجمان كسرى وكاتبه[1] وكان معظمهم من الأزد من أنسباء الغساسنة فأرشدوا هؤلاء إلى التنصر في أيام القيصر والنتين وذلك في أواخر الجيل الرابع للميلاد فكان في العراق العباديون وفي الشام الغسانيون وفي اليمن والحجاز بنو الحارث وأهل نجران[2] ولقد أشار إلى تنصر الغساسنة وإنجيلهم النابغة الذبياني بقوله:

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فلا يرجون غير العواقب

وأشار أيضاً إلى عيد السباسب (الشعانين) الذي كانوا يحتفلون له بقوله:

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب
تحييهم بيض الولائد بينهم وأكسية الأضريح فوق المشاجب[3]

ولقد كرّم الغساسنة القديس سرجيوس (سركيس) ورمموا له قناطر مدينة الرصافة أو سرجيوبوليس. وكان لهم كنيسة باسمه في بصرى (راجع صفحة 20). وذكر المتلمس قرعهم للنواقيس بقوله:

حنت قلوصى بها والليل مطرق بعد الهدو وشافتها النواقيس

وذكر حسان بن ثابت استعدادهم لعيد الفصح بقوله:

قد دنا الفصح فالولائد ينظمن عقوداً أكلة المرجان
يجتنين الجادي[4] في نقط الريط[5] عليها مجاسد[6] الكتان
لم يعللن بالمغافر والصمغ ولا نقف حنظل الشريان



---

[1] بلوغ الأرب للألوسي 2: 264.

[2] مجلة المشرق 4: 97.

[3] الحجزات جمع حجزة بمعنى معقد الإزار والأضريح الخز الأحمر كانت تلبسه فتيات غسان في هذا العيد والمشاجب جمع مشجب وهي خشبات منصوبة توضع عليها الثياب وربما كانوا يرفعونها في هذا العيد وعليها ثياب ملونة.

[4] الزعفران.

[5] الملاءات.

[6] الأثواب الملونة المشبعة صبغاً.

القطف الرابع

في مملكة غسان وملوكها

لقد امتدت مملكة بني غسان من جهة الجنوب إلى بحر القلزم (الأحمر) ومن الشمال إلى ضفة الفرات وكانت تدمر وضواحيها من جملة البلاد الشمالية المذعنة لأوامرهم. وكانت جهات وادي اليرموك ووادي الاردن تحت سلطتهم جنوباً. وكانت الجولان في وسط مملكتهم حتى سمي بعضهم بملوك البلقاء لأنهم مدوا فيها رواق سلطتهم أكثر من سواها. واحتل ملوك بني غسان بقعة تدمر واختار بعضهم مدينتها المشهورة مترلاً لسكنه ويرجح أنهم بقوا فيها إلى فتح المسلمين سنة 634 م اذ مر خالد بن الوليد بتدمر فتحصن فيها أهلها فأحاط بهم وفتحوها له وصالحهم ثم سار إلى حوران ففتحها كما سيجيء.

وذكر نولدك أن عاصمة الغساسنة وكرسي دولتهم الجابية في الجولان وهي بين دمشق والمزيريب على مسافة بعض أميال من هذه في شماليها الغربي واسمها إلى اليوم جابية. وإليها أشار حسان بن ثابت بقوله:

إن خالي خطيب جابية الجولان عند النعمان حين يقوم.

وكانة عبارة عن قرية يسكنها قوم من الحضر مع لواحق تحدق بها يأوي إليها أهل الوبر. وكان ملوك غسان في وسطهم كشيوخ القبيلة يقطنون قصراً ابتنوه في ظهرانيهم[1].

وأطلق على كل ملوك غسان ولا سيما عند اليونانيين اسم الحارث كالنجاشي لملك الحبشة والمنذر للحيرة وتبع لليمن والفراعنة والبطالسة لمصر والقياصرة للرومانيين والجاقان للترك وكسرى للفرس الخ.. ولقبهم ملوك القسطنطينية بلقب البطريق أيضاً وهم اسم شرف لم ينله إلا بعض الخاصة وكان القصير يعظم البطارقة ويدعوهم باسم الاب[2].

ويظهر من مباحث العلماء المتأخرين أن كثيرين من ملوك غسان كانو بزمان واحد وكانوا يقيمون في حوران والبلقاء وما يجاورهما ويرجح أنهم كانوا شيوخاً[3] مستقلين أو رؤساء قبائل (Phylarque) وامتدت أمرتهم من ضفة الفرات إلى أنحاء

---

[1] المشرق 3 :441

[2] المشرق 1 : 485

[3] قال ابن الكلبي : (العقد الفريد 3 : 45) ((حمير ملوك وارداف الملوك والازد أسد ومذحج الطعان وهمدان أحلاس الخيل وغسان ارباب الملوك)) . وقال أبو عبيدة : ((ملوك العرب حمير ومقاولها غسان ولخم وعددها وفرسانها الأزد ولسانها مذحج وريحانتها كندة وقريشها الانصار))

الحجاز لرد غارات ملوك الحيرة عمال الفرس[4]. وكان لكل منهم الأمرة على قبيلة من قبائل اللجاة تحت رعاية الرومانيين ممتازين عن ولاة الروم باستقلاهم في حكومتهم الداخلية بشروط مسنونة وكانوا يمدون الرومانيين بالجند من قبيلتهم عند مسيس الحاجة ولاسيما في حروبهم مع الفرس كما مر وقد أخلصوا الطاعة للقياصرة.

ولقد اشتهروا بكرمهم حتى ضرب بهم المثل في الجاهلية فقيل (أوقر للضيف من بني غسان). واشتهرت خيولهم المطهمة بجودتها. ولقد تنقلت كرسي حكومتهم بين عمان والبلقاء وتدمر وبصرى. وكانوا تحت سيطرة الوالي الروماني المقيم بدمشق من قبل امبراطور المملكة الرومانية الشرقية المقيم في القسطنطينية وهو يبلغ العمال الغساسنة أوامر الامبراطور.

وهاك أسماء ملوكهم الذين كانوا اثنين وثلاثين ملكاً وبقيت مدة ملكهم ست مئة سنة. ويروى أن بعضهم عاد إلى الحجاز في أوائل القرن الرابع للميلاد. وسلسلتهم كثيرة الاضطراب واعتمدنا فيها على ما ربما كان أقرب إلى الصواب وملكوا من سنة 37 ــ636 م.

(1) جفنة بن عمرو بن ثعلبة بن عمرو بن مزيقياء قتل الضجاعم كما مر واستتب له الملك ودانت له قضاعة فعظمت دولته وبنى المصانع الكثيرة وملك نحو خمسين سنة.

(2) عمرو ابنه ملك نحو سبع عشرة سنة وبنى في الشام أدياراً كثيرة مثل دير حالي ودير أيوب[5] ودير هند.

(3) ابنه ثعلبة الذي بنى صرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء وبنى عقة وهو أول من لقب منهم بملك قلده ذلك القياصرة فصار الغساسنة عمالهم ملك عشرين سنة إلى سنة 124م.

---

[4] المشرق 1 : 485 وروى ابن خلدون 2 : 370 ما محصله: ووقعت عداوة بين الغسانيين واللخميين في الحيرة فإن الحارث الأعرج الغساني قتل يوم حليمة المنذر ابن ماء السماء ولما تولى ولده المنذر ابن المنذر بن ماء السماء خرج إلى جهة الشام طالباً لثأر أبيه فقتله الحارث أيضاً يوم اباغ وملك بعده ابنه النعمان بن المنذر أشهر ملوك الحيرة فجمع وفود العرب وطلب بثأر أبيه وحرد من بني جفنة حتى أسر خلقاً كثيراً من أشرافهم (راجع صفحة 66)

[5] رجح ودنكتون الرحالة أن دير أيوب خذا الواقع قريباً من قرية نوى بينها وبين المزيريب يدل على سكن أيوب في تلك الأرض (تاريخ الأب مرتين صفحة 179).

(4) ابنه الحارث ملك إلى سنة 134م.

(5) ابنه جبلة ملك إلى سنة 144م وهو الذي بنى القناطر (القنيطرة) وادرح[2] والقسطل[3] وكان يدين بالنصرانية.

(6) الحارث ابنه من مارية بنت عمرو بن جفنة ذات القرطين اللذين يضرب بهما المثل ملك إلى سنة 147م وكان مسكنه في البلقاء فبني فيها الحفير[4] ومصنعه بين دعجان[5] وقصر أبير[6] ومعان.

(7) ابنه المنذر ملك إلى سنة 162م.

(8) أخوه النعمان ملك إلى سنة 175م.

(9) المنذر الثاني ملك مدة 34سنة.

(10) جبلة الثاني ملك من سنة 209 — 212م.

(11) الأيهم ملك إلى سنة 238م.

(12) عمرو الثاني وكان متكبراً قبيح السيرة والمنظر أنشأ في دمشق قصوراً صوّر فيها مجالسه وجلسات دولته وملك ثلاثين سنة.

(13) جفنة الأصفر ابن المنذر الأكبر جلس سنة 268م وهو الذي أحرق الحيرة فسمي بالمحرّق ونسب إليه بنوه كما أشار إلى ذلك يزيد بن عبد المدان بقوله:

يا للرجل لطارق الأحزان ولعامر بن طفيل الوسنان
كانت أتاوة قومه لمحرّق زمناً وصارت بعد للنعمان

فأجابه عامر بن الطفيل بقوله:

عجباً لواصف طارق الأحزان ولما تجيء به بنو الديان
فجروا عليّ بجبوة لمحرّق وأتاوة سبقت إلى النعمان
ما أنت وابن محرّق وقبيله وأتاوة اللخميّ في غيلان

[2] موقعها في قضاء معان بميلة إلى هذه المدينة. المشرق 1:633.

[3] هي على مقربة من أخربة المشتى كانت مركزاً للجنود الرومانيين. المشرق 1:634.

[4] كان موقعها على ضفة نهر الحفير وهو نهر بالأردن في الشام من منازل بني القين بن جسر وكانوا يسكنون في جنوبي بلاد غسان أي بلاد مؤاب وأدوم القديمة.

[5] دعجان واقعة على أربع ساعات من معان في شمالي شرقيها وفيها آثار تشبه المشتى. المشرق 1:634.

[6] ذكر ياقوت في معجم البلدان (أن بير في بلاد بني القين) وربما كان القصر المسمى اليوم باسم باير وموقعه على بعد يومين عن معان من جهة الشرق.

(14) أخوه النعمان الأصغر جلس سنة 296م.

(15) النعمان بن عمرو بن المنذر جلس من سنة 296 — 312م. وهو الذي بنى قصر السويداء وقصر حارب (راجع صفحة 18).

(16) ابنه جبلة وهو الذي فتك ببني لخم ونزار في وقعة يوم عين اباغ (راجع الحاشية (5) في صفحة 66) وقد ملك 22 سنة.

(17) النعمان الرابع بن الأيهم بن الحارث تبوأ الملك من سنة 334 — 371م.

(18) أخوه الحارث الثالث ملك إلى سنة 389م.

(19) ابنه النعمان ملك إلى سنة 408م.

(20) ابنه المنذر ملك ثلاثاً و ثلاثين سنة.

(21) أخوه عمرو الثالث ملك اثنتي عشرة سنة.

(22) أخوه حجر بن النعمان تبوأ سنة 453 وملك 26 سنة.

(23) ابنه الحارث ملك سبع عشرة سنة وهو الملقب بأبي شمر الحارث الرابع.

(24) ابنه جبلة استقر على الملك من سنة 496 — 517م.

(25) ابنه الحرث الخامس الذي أوقع ببني كنانة وكان كريماً كثير المواهب فلقبوه بالوهاب وهو ممدوح حسان بن ثابت الأنصاري وله فيه القصائد البليغة دام ملكه سبعاً وثلاثين سنة.

(26) ابنه النعمان ويعرف بأبي كرب وبالقطام وكان شجاعاً عادلاً يحب العلماء ولقد قوى النصرانية وتوفي قتيلاً في غزوة سنة 581م.

(27) الأيهم بن جبلة بن الحارث صاحب تدمر وقصر بركة وذات أنمار جلس إلى سنة 594م.

(28) أخوه المنذر الرابع ملك خمساً وعشرين سنة.

(29) شراحيل أخوه تبوأ الملك عشر سنوات.

(30) أخوه عمرو الرابع ملك أربع سنوات.

(31) ابن أخيه جبلة الخامس تبوأ الملك من سنة 633 — 636م.

(32) جبلة بن الأيهم بن جبلة وهو آخر ملوك غسان بنى مدينة جبلة[1] بين طرابلس واللاذقية وقد أسلم في زمن الخليفة عمر بن الخطاب وضرب به المثل فقيل:

---

[1] ويقال لها جبلة الأدهمية أيضاً لأن السلطان إبراهيم بن أدهم الزاهد دفن فيها وسكانها اليوم نحو ثمانية آلاف نفس وليس فيها من الآثار سوى ملعب روماني وجامع السلطان إبراهيم المومأ إليه.

أعز ملكاً من جبلة بن الأيهم. ثم سار لحادثة بخمسمائة من قومه إلى هرقل في القسطنطينية وتنصروا فيها فأكرمه وأقطعه إلى أن توفي سنة 20هـ (640م) وذكر نولدك الألماني أن الفرس نزعوا لقب الملك من بني جفنة لما غزوا الشام سنة 613م.

وتفرق شمل القبائل الغسانية بعد الفتح الإسلامي كما سيجيء ولن تزال بقاياها في الأسر النصرانية إلى اليوم ولا سيما في الأسرة المعلوفية التي هي من صميمها القديم وسنثبت ذلك بالأدلة الصحيحة فضلاً عما هو مشهور على ألسنة كبار المؤرخين المحققين والله ولي التوفيق والهادي إلى التحقيق.



القطف الخامس

في مديح الشعراء لهم

اشتهر بنو غسان بإجازة الشعراء الذين تقاطروا إليهم ونظموا فيهم المدائح البليغة والقصائد الأنيقة والمقاطيع الرشيقة ولا سيما النابغة الذبياني وحسان بن ثابت الأنصاري. وقال المسعودي[2]: «كان النعمان بن المنذر ملك الحيرة على عهد الحارث بن أبي شمر الغساني وكانا يتنازعان في الرئاسة ومذاهب المدح. وكانت شعراء العرب تفد عليهما مثل الأعشى وحسان بن ثابت وغيرهما اهـ». وقال بديع الزمان الهمذاني في إحدى رسائله: (ومازالت جفنة آل جفنة تدور على الضيف. في الشتاء والصيف. حتى عثرت بحسان. فارتهنت ذلك اللسان. فسير فيهم القصائد الحسان. فهذا الزمان يخلق وهي جديدة وتلك العظام بالية. وهذه المحاسن باقية. وحق على الله أن لا يخلي كرماً من لسان يبعث أحدوثة اهـ). ولقد جمعت من مدائحهم بعض ما وصلت إليه يد البحث فمن ذلك قول حسان بن ثابت الأنصاري (توفي سنة 54هـ ــ 673م) في عمرو الثاني منهم:

أسألت رسم الدار أم لم تسأل	بين الجوابي فالنصيع[3] فحومل
فالمرج مرج الصفرين فجاسم	فديار سلمى درّساً لم تحلل
دمن تعاقبها الرياح دوارس	والمدجنات من السماك الأعزل
دارٌ لقوم قد أراهم مرة	فوق الأعزّة عزهم لم ينقل

[2] ابن خلدون 2:280.

[3] ويروى الحوابي فالصنيع والبضيع أيضاً.

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

الضاربون الكبش يبرق رأسه ضرباً يطيح له بنان المفصل

والخالطون فقيرهم بغنيهم والمنعمون على الضعيف المرمل

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر بن مارية المعمّ المخول

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

يسقون درياق الرحيق و لم تكن تدعى ولائدهم لنقف الحنظل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شمُّ الأنوف من الطراز الأول[4]

فلبثت أزماناً طويلاً فيهم ثم ادّركتُ كأنني لم أفعل

وهي طويلة راجعها في ديوانه المطبوع في مصر سنة 1904 صفحة 79.

وقال يرثي الحارث الجفني:

إني حلفت يميناً غير كاذبة لو كان للحارث الجفني أصحاب

من جذم غسان مسترخٍ حمائلهم لا يغبقون من المعزى إذا آبوا

ولا يذادون محمّراً عيونهم إذا تحضر عند الماجد الباب

كانوا إذا حضروا شيب العقار لهم وطاف فيهم أكواس وأكواب[1]

إذاً لآبوا جميعاً أو لكان لهم أسرى من القوم أو قتلى وأسباب

لجالدوا حيث كان الموت أدركهم حتى يثوبوا لهم أسرى وأسلاب

لكنه إنما لاقى بمأشبةٍ ليس لهم عند صدق الموت أحساب

وقال مفتخراً من قصيدة طويلة:

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامر لنا شرف يعلو على كل مرتق

رسا في قرار الأرض ثم سمحت له فروعٌ تسامى كل نجم محلق

ملوك وأبناء الملوك كأننا سواري نجوم طالعات بمشرق

إذا غاب منها كوكب لاح بعده شهابٌ متى ما يبدُ للأرض تشرق

---

[4] روى بعضهم أن عمراً لم يزل يزحل عن موضعه سروراً حتى شاطر البيت وهو يقول هذا وابيك الشعر هذه والله البتاتة التي قد بترت المدائح أحسنت يا ابن الفريعة هات له باغلام ألف دينار مرجوحة ثم قال لحسان بن ثابت لك علي في كل سنة مثلها.

[1] ويروى في الديوان: وطيف فيهم بأكواس وأكواب. وهو غلط.

لكل نجيب منجب زخرت به ... مهذبة أعراقها لم ترهق
كجفنة والقمقام عمرو بن عامر ... وأولاد ماء المزن وابني محرّق
وحارثة الغطريف أو كابن منذر ... ومثل أبي قابوس رب الخورنق

وقال في مثل ذلك في قصيدة أخرى:

متى ما تزنا من معدّ بعصبة ... وغسان نمنع حوضنا أن يهدما

وقال:

إن كنت سائلة والحق مغضبةٌ ... فالأزد نسبتنا والماء غسانُ
شم الأنوف لهم مجد ومكرمة ... كانت لهم كجبال الطور أركان

وقال في جبلة بن الأيهم لما أرسل إليه خمس مئة دينار من ديار الروم[1]:

إن ابن جفنة من بقية معشر ... لم يغذهم آباؤهم باللوم
لم ينسني بالشام إذ هو ربها ... كلا ولا متنصراً بالروم
يعطي الجزيل ولا يراه عنده ... إلا كبعض عطية المذموم
وأتيته يوماً فقرب مجلسي ... وسقى فروّاني من الخرطوم

وقال فيهم سعد بن الحصين من بني الحارث بن الخزرج وتروى لحسان أيضاً:

أباح لهم بطريق فارس غائطاً ... له من ذرى الجولان بقلٌ وزاهر
تربع في غسان أكفاف محبل ... إلى الحارث الجولان فالنى ظاهر

[1] وجه عمر بن الخطاب (رضه) رسولاً إلى هرقل ملك الروم فبعد ما ودعه قال له هرقل ألقيت جبلة بن الأيهم وكان قد دخل إليهم وتنصر عندهم وهو ممدوح حسان فقال لا. فقال القه، فجاء إليه فوجد ما فيه من الرفاهية وخفض العيش فسأله عن حسان أحي هو قال نعم فأمر له بمال وكسوة ونوق موقرة براً ثم قال له إن وجدته حياً فادفعها إليه وإن وجدته ميتاً فادفعها إلى أهله وانحر الإبل على قبره. فلما عاد الرسول إلى عمر قص عليه ذلك فاستقدم حساناً وقد كف بصره فلما دخل قال: إني لأجد ريح آل جفنة عندك. قال: نعم هذا الرجل قد أقبل من عنده. قال: هات يا ابن أخي ما بعث به إلي معك. قال: وما علمك بهذا. قال: يا ابن أخي إنه كريم من عصة كرام مدحنه في الجاهلية فحلف أن لا يلقى أحداً يعرفني إلا أهدى إلي معه شيئاً فدفع إليه المال والثياب وأخبره بما كان أمر به في الجمال فقال حسان: وددت لو كنت ميتاً فنحرت على قبري.

واتصل بهم حاتم الطائي (المتوفى سنة 605م) فمن قوله في الحارث بن عمرو:

أبلغ الحارث بن عمرو بأني ... حافظ الود مرصد للصواب
ومجيب دعاءه إن دعاني ... عجلاً واحداً وذا أصحاب
إنما بيننا وبينك فاعلم ... سير سبع للعاجل المنتاب
فثلاث من السراط إلى الحلبط ... للخيل جاهداً والركاب
وثلاث يردن تيماء رهواً ... وثلاث يغررن بالإعجاب

ودخل عليه مرة فقال:

أبى طول ليلك إلا سهودا ... فما أن تبين لصبح عمودا
أبيت كئيباً أراعي النجوم ... وأوجع من ساعديّ الحديدا
أرجى فواضل ذي بهجة ... من الناس يجمع حزماً وجودا
نمته إمامة والحارثان ... حتى تمهل سيفاً جديدا
كسبق الجواد غداة الرهان ... أربى على السن شأواً مديدا
فأحسن فلا عار في ما صنعت ... تحيى جدوداً وتبري جدودا

وممن مدحهم الأسود بن يعفر (600م) من قصيدة طويلة جيدة:

نام الخليُّ وما أحسُّ رقادي ... والهم محتضر لديّ وبادي
من غير ما سقم ولكن شفني ... همٌّ أراه قد أصاب فؤادي
ماذا أومل بعد آل محرّق ... تركوا منازلهم وبعد أياد

وعلقمة الفحل (625م) الذي مدح الحارث بن جبلة بن الأيهم بن أبي شمر لما أسر أخاه شاساً:

إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي ... بكلكلها والقصريين وجيبُ
لتبلغني دار امرئ كان نائياً ... فقد قرّبتني من نداك قروبُ
وأنت امرؤ أفضت إليك أمانتي ... وقبلك ربتني فضعت ربوب

ومنها

فجالدتهم حتى اتقوك بكبشهم ... وقد حان من شمس النهار غروب
وقاتل من غسان أهل حفاظها ... وهنبٌ وقاسٌ جالدت وشبيب

تخشخش أبدان الحديد عليهم كما خشخشت يبس الحصاد جنوب
تجود بنفس لا يجاد بمثلها وأنت بها يوم اللقاء تطيب

وكثيراً ما وقعت المماجدة بتفصيل الغساسنة والمناذرة مثل قول يزيد بن عبد المدان:

وللحارث الجفني أعلم بالذي يبوء به النعمان إن جف طائره

وقال الآخر:

يريد ابن جفنة إكرامه وقد يمسح الدرة الحالبُ
ألا ليت غسان في ملكها كلخم وقد يخطئ الشارب
وما في ابن جفنة من سبةٍ وقد خفّ حملاً بها الغارب

وكثيراً ما كان الشعراء يفرون من وجه المناذرة إلى الغساسنة كما حدث للمتلمس الضبعي وللنابغة الذبياني الشاعرين المشهورين. أما المتلمس فهرب من الحيرة (وقصة صحيفته معلومة) ولحق بملوك آل جفنة النصارى في الشام فبلغه أن عمرو بن هند يقول: (حرام عليه حب العراق أن يطعم منه حبة ولئن وجدته لأقتلنه). فقال المتلمس من قصيدة بليغة يهجوه:

يا حار إني لمن قوم أولي حسب لا يجهلون إذا طاش الضغابيس[1]
آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس
لم تدر بصرى بما آليت من قسم ولا دمشق إذا ديس الكداديس[2]
غيرتموني بلا ذنب جواركم هذا نصيب من الجيران محسوس[3]
فإن تبدلت من قومي عليكم إني إذن لضعيف الرأي مسلوس[4]

وبقي المتلمس في مدينة بصرى (راجع وصفها صفحة 19) إلى وفاته سنة 580م.

---

(1) الضعفاء.

(2) هي ما تكدس أي تجمع من الحنطة.

(3) مشؤوم.

(4) مسلوس ويروى مالوس أيضاً وكلاهما بمعنى لا عقل له.

وأما النابغة فإنه لما حدثت بينه وبين ممدوحه النعمان بن المنذر اللخمي نزعة ووشي به إليه جاء غسان ونزل بعمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر ابن أبي شمر فمدحه ومدح أخاه النعمان واتصل بهما إلى أن استطلع النعمان بن المنذر فعاد إليه. ومن قوله في عمرو الغساني:

كليني لهمّ يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب

ومنها:

عليّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمة ... لوالده ليست بذات عقارب

حلفتُ يميناً غير ذي مثنوية ... ولا علم إلا حسن ظن بصاحب

لئن كان للقبرين قبر بجلق ... وقبر بصيداء الذي عند حارب[5]

وللحارث الجفنيّ سيد قوم ... ليلتمس بالجيش دار المحارب

وثقتُ له بالنصر إذ قيل قد غزت ... كتائب من غسان غير أشايب

بنو عمه دنيا وعمرو بن عامر ... أولئك قوم بأسهم غير كاذب

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدي بعصائب

ومنها:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنّ فلولٌ من قراع الكتائب

تورّثن[1] من أزمان يوم حليمة[2] ... إلى اليوم قد جربن كل التجارب

ومنها:

لهم شيمةٌ لم يعطها الله غيرهم ... من الجرد والحلام غير عوازب

---

[5] قال الهمذاني: «وحسمي وصيداء وحارب وجلق ديار غسان» مجلة المشرق 661:3.

[1] ويروى تخيرن.

[2] مر ذكر يوم حليمة في صفحة 66 وله رواية أخرى في ابن خلدون (280:2) فلا بأس من إيرادها وهي «قال ابن سعيد: وكان الحارث الأعرج بن أبي شمر الغساني هو الذي سار إليه المنذر بن ماء السماء من ملوك الحيرة في مائة ألف فبعث إليه الحارث مائة من قبائل العرب فيهم لبيد الشاعر وهو غلام فأظهروا أنهم رسل في الصلح حتى إذا أحاطوا برواق المنذر فتكوا به وقتلوا جميع من كان معه في الرواق وركبوا خيولهم فمنهم من نجا ومنهم من قتل. وحملت غسان على عسكر المنذر وقد اختبطوا فهزموهم وكانت حليمة بنت الحارث تحرض الناس وهم منهزمون على القتال فسمي يوم حليمة. ويقال إن النجوم ظهرت فيه بالنهار من كثرة العجاج».

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب

وقال في ختامها:

يصونون أجساداً قديماً نعيمها بخالصة الأردان خضر المناكب
ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب
حبوت بها غسان إذ كنت لاحقاً بقومي وإذ أعيت عليّ مذاهبي

ومن قوله في أخيه النعمان بن الحارث الأصغر لما خرج إلى بعض متنزهاته:

أن يرجع النعمان نفرح ونبتهج ويأت معدّاً ملكها وربيعها
ويرجع إلى غسان ملكٌ وسؤدد وتلك المنى لو أننا نستطيعها
وأن يهلك النعمان تعرَ مطيةٌ ويلقَ إلى جنب الفناء قطوعها[3]

وقال يرثي النعمان هذا في قصيدة بليغة:

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابي المرء والشيب شامل
وقفتُ بربع الدار قد غير البلى معارفها والساريات الهواطل
أسائل عن سعدى وقد مرّ بعدنا على عرصات الدار سبعٌ كوامل

إلى أن قال:

فلا يهنئ الأعداء مصرع ملكهم وما عتقت منهم تميم ووائلُ
وكانت لهم ربعية يحذرونها إذا خضخضت ماء السماء القبائلِ
يسير بها النعمان تغلي قدوره تجيش بأسباب المنايا المراجل

ومنها:

فإن تكُ قد ودعت غير مذمم أواسي[4] ملكٍ ثبتتها الأوائلُ
فلا تبعدن أن المنية موعدٌ وكل امرئ يوماً به الحال زائل

---

[3] طنافسها.

[4] دعائم.

ومنها وأشار إلى دفنه في الجولان:

فآب مصلّوه بعين جلية وغودر بالجولان حزمٌ ونائل
سقى الغيث قبراً بين بصرى وجاسم بغيث من الوسمي قطر ووابل
ولازال ريحانٌ ومسك وعنبر على منتهاه ديمة ثم هاطل

ومنها:

بكى حارث الجولان من فقد ربه وحوران منه موحش متضائل
قعوداً له غسان يرجون أوبةً وترك ورهط الأعجمين وكابل

وقال يمدح غسان وقد ارتحل من عندهم راجعاً:

لا يبعد الله جيراناً تركتهم مثل المصابيح تجلو ليلة الظلم
لا يبرمون إذا ما الأفق جلله برد الشتاء من الأمحال كالأدم
هم الملوك وأبناء الملوك لهم فضلٌ على الناس في اللأواء والنعم
أحلام عاد وأجساد مطهرة من المعقة والآفات والإثم

وقال يمدح النعمان الأول ويذكر بعض أنسبائه:

هذا غلام حسن وجهه مستقبل الخير سريع التمام
للحارث الأكبر فالحارث الأعرج فالأصغر خير الأنام
ثم لهند ولهند انتمى جدّات صدق وجدود كرام
خمسة آباء هُمُ ما هم هم خير من يشرب ماء الغمام

وقال رجل من عبد قيس يمدح النعمان بن الحارث بن المنذر:

تعاليت أن تعزى إلى الأنس جنة وللأنس من يعزوك فهو كذوب
فلست لا نسيّ ولكن لملأك تنزّل من أفق السماء يصوب

وقال امرؤ القيس الكندي:

سما لكَ شوقٌ بعدما كان لك أقصرا وحلت سليمى بطن قوّ فعرعرا
كنانية بانت وفي الصدر ودّها مجاورةً (غسان) والحيَّ يعمرا
تذكرتُ أهل الصالحين وقد أتت على جملى خوض الركاب وأوجرا

فلما بدت حوران في الآل دونها نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
فقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

وقال يمدح المعلى أحد بني تيم بن غسان بن سعد من بني ثعلبة[1] وكان قد أجازه والمنذر بن ماء السماء يطلبه فمنعه ووفى له:

كأني إذ نزلت على المعلى نزلت على البواذخ من شمام
فما ملك العراق على المعلى بمقتدر ولا الملك الشآمي
أصد نشاص ذي القرنين حتى تولى عارض الملك الهمام
أقرّ حشا امرئ القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام

وقال أبو أذينة وهو ابن عم الأسود بن المنذر بن النعمان اللخمي من ملوك الحيرة يغريه بقتل بني غسان لأنهم قتلوا أخاً له وهي بليغة ومطلعها:

ما كل يوم ينال المرء ما طلبا ولا يسوّغه المقدار ما وهبا

إلى أن يقول مشيراً إلى الغساسنة:

إن تعفُ عنهم يقول الناس كلهم لم يعفُ حلماً ولكن عفوه رهبا
همُ أهلةُ (غسان) ومجدهم عال فإن حاولوا ملكاً فلا عجبا
علامَ تقبل منهم فدية وهمُ لا فضة قبلوا منا ولا ذهبا

إلى غير ذلك مما لا محل له للإفاضة فيه الآن. ونختم هذا القطف بما رواه المؤرخون من أنه كان بين الغساسنة وتحاسد كما كان بين جبلة بن الأيهم ملك البلقاء والحارث بن أبي شمر صاحب بصرى حتى أن الشعراء لم يجسر أحدهم أن يذكر اسم الواحد منهما أمام الآخر. قال حسان بن ثابت شاعر جبلة المذكور. (لو وفدت على الحارث بن أبي شمر فإن له قرابة ورحماً بصاحبي (يريد جبلة) وهو أبذل الناس للمعروف وقد يئس مني أن أفد عليه لما يعرف من انقطاعي إلى جبلة). فسبحان من لا يشوبه شائبة.

---

[1] مر معنا أن بني ثعلبة لم يلقبوا بغسان لأنهم لم يردوا المياه المسماة بذلك الاسم راجع صفحة 64.

❖❖❖

القطف السادس

في مشاهير بني غسان وأدبائهم

اشتهرت اليمن بكثير من العظام والأدباء حتى قيل اشتهر الشعر بالجاهلية في اليمن بامرئ القيس وفي الإسلام بحسان بن ثابت وفي المولدين بأبي النواس وأصحابه مسلم بن الوليد وأبي الشيص ودعبل وكلهم من اليمن. وقال الجمحي، فارس اليمن في بني زبيد عمرو بن معدي كرب وشاعرها امرؤ القيس وبيتها في كندة الأشعث بن قيس لا يختلف في هذا نزار. ولا عجب في ذلك فإنها خصيبة البقاع نضيرة الحدائق زاخرة المياه كما وصفها الكلاعي بقوله في قصيدة:

هي الخضراء فاسأل عن رباها ... يخبرك اليقين المخبرونا
ويمطرها المهيمن في زمان ... به كل البرية يظمؤونا
وفي أجبالها عز عزيز ... يظل له الورى متقاصرينا
وأشجار منوّرة وزرع ... وفاكهة تروق الآكلينا

ولما تفرق سكانها بسيل العرم اشتهروا في مواضع كثيرة ونشأ منهم أدباء وشعراء يمنعنا ضيق المقام الآن عن استقراء سيرهم فنشير إلى من سمي بغسان منهم فقط تتمة لمباحثنا في هذه القبيلة العريقة بالفخر والسؤدد. فمن شعر جذع بن سنان الغساني ما رواه له صاحب شرح شواهد الكشاف وقال أنه ينسب إليه بلا خلاف:

أتوا ناري فقلت منون أنتم ... فقالوا الجن قلت عموا صباحا
نزلتُ بشعب وادي الجن لما ... رأيت الليل قد نشر الجناحا
أقلتم هاك والأقدار حتمٌ ... تلاقي الجن صبحاً أو رواحا
أتيتهم غريباً مستفيضاً ... رأوا مثلي إذا فعلوا جناحا
أتوني سافرين فقلت أهلاً ... رأيت وجوههم وسماً صباحا
نحرت لهم وقلت ألا هلموا ... كلوا مما طهيت لكم سماحا
أتاني ناشر وبنو أبيه ... وقد جن الدجى والنجم لاحا
فنازعني الزجاجة بعد وهن ... مزجت لهم بها عسلاً وراحا
وحذرني أموراً سوف تأتي ... أهزّ لها الصوارم والرماحا

سـأمضى للـذي قـالوا بعـزم ولا أبغـى لذلكـم قداحـا
أسأت الظـن فيـه ومـن أسـاه بكل النـاس قـد لاقـى جناحـا
وقـد تـأتي إلى المـرء المنايـا بأبواب الأمـان سـدى جراحـا
سيبقى حكم هـذا الدهـر قومـاً ويـهلك آخـرون بـه رياحـا
أثعلبـة بـن عمـرو ليـس هـذا أوان السـير فـاعتدّ السـلاحا
ألم تعلـم بـأن الـذل مـوتٌ يتيـح لمـن ألمّ بـه اجتياحـا
ولا يبقـى نعيـم الدهـر إلا لقـوم مـاجدٍ صـدق الكفاحـا

وممن اشتهر منهم أدباً وذكاء الحارث أبو شمر الغساني الذي أوصى كاتبه المرقش الأكبر الشاعر المشهور المتوفى سنة 552م بقوله وفيه سرّ صناعة الإنشاء: «إذا نزع بك الكلام إلى ابتناء معنىً غير ما أنت فيه فصل بينه وبين ما تبتغيه من الألفاظ. فإنك إن مذقت (خلطت) ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفرت القلوب عن وعيها وملتها الأسماع واستثقلتها الرواة».

ومنهم فيلبس القيصر الروماني الذي ولد في بصرى وذكر في صفحة 35 من هذا الكتاب.

وممن اشتهر بحزمه ودهائه وسياسته أبو بجيلة (ويروى جبيلة) ملك غسان الذي وفد عليه مالك بن عجلان من الأوس والخزرج النازلين بيثرب[1] (المدينة). فسأله فأخبره عن ضيق معاشهم لأن المدينة ليست بذات مراعٍ تصلح لاقتناء النعم والشاء ولا نخل لهم ولا زرع إلا الأعذاق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من الموات أما الأموال فلليهود. فقال أبو بجيلة ما بالكم لم تغلبوهم حين غلبنا أهل بلدنا. فاستنصره فوعده بذلك وعاد مالك إلى قومه فأخبرهم بقدومه لإغاثتهم فأعدوا له نزلاً فأقبل ونزل بذي حرض وبعث إلى الأوس والخزرج بقدومه وخشي أن يتحصن منه اليهود في الآطام فاتخذ حائراً وبعث إليهم فجاؤوه في خواصهم وحشمهم وأذن لهم في دخول الحائر وأمر جنوده فقتلوهم رجلاً رجلاً إلى أن أتوا عليهم وقال للأوس والخزرج إن لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلأحرقنكم.

---

[1] نزلوها في ضرار بعضهم بالضاحية وبعضهم بالقرى مع أهلها وذكر ابن خلدون عن السعلي أنها منسوبة إلى بانيها يثرب بن قائد بن عبيل بن مهلاييل بن عوص بن عماليق بن لاوذ بن أرم وهي مشهورة اليوم باسم المدينة واقعة في مستوى من الأرض وفيها كثير من النخل ومعظم أرضها سباخ وسكانها نحو عشرين ألف نسمة وتعرف أيضاً باسم مدينة الرسول وباسم طيبة وفي شماليها جبل أحد وفي جنوبيها جبل عير.

ورجع إلى الشام فأقاموا في عداوة مع اليهود. ثم أجمع مالك بن العجلان وصنع لهم طعاماً ودعاهم فامتنعوا لغدرة أبي بجيلة فاعتذر لهم مالك عنها وأنه لا يقصد نحو ذلك فأجابوه وجاؤوا إليه فغدرهم وقتل منهم ثمانية وثمانين من رؤسائهم وفطن الباقون فرجعوا. فعزت الأوس والخزرج من يومئذ وتفرقوا في عالية يثرب وسافلتها يتبوؤون منها حيث شاؤوا وملكت أمرها على يهود فذلت اليهود وقل عددهم وعالت قدم أبناء قيلة عليهم فلم يكن لهم امتناع إلا بحصونهم وتفرقهم أحزاباً على الحيين إذا اشتجروا. وروى ابن خلدون أيضاً أن مالك بن العجلان بعث إلى أبي بجيلة المذكور الرنق بن زيد بن امرئ القيس فقدم عليه وأنشده:

أقسمت أطعم من رزق قطرة ... حتى تكثر للنجاة رحيل
حتى ألاقي معشراً إني لهم ... خلّ ومالهم لنا مبذول
أرض لنا تدعى قبائل سالم ... ويجيب فيها مالك وسلول
قوم أولو عزّ وعزة غيرهم ... أن الغريب ولو يعز ذليل

فأعجبه وخرج في نصرهم راجع ابن خلدون (287:2 و288).

ومنهم السموأل بن عادياء[1] اليهودي المضروب المثل بوفائه والقائل في قصيدته الشهيرة:

إذا المرء لم يدنس عن اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لهم إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل

ومنهم أبو ثوب كان من أرض العريش من متنصرة غسان يمتُّ بقرابة إلى جبلة بن الأيهم، وكان صاحب مال ورجال هرب مع أبي جبلة بماله وأهله وأخوته عند فتوح الشام إلى أرض الجفار ونزل في البرية ما بين العريش ورفح[2] وله أحاديث كثيرة وولاه المقوقس ملك مصر جزيرة تنيس واشتهر من أخوته أبو سيف الذي ولاه هو على جزيرة الصدف وأبو شق الذي ولاه على جزيرة الطير وولده أبو

---

[1] قال ابن خلدون (275:2): أن أمه من غسان ولذلك نسب إليها وقيل إنه من نسل عامر بن مزيقياء. اهـ.

[2] تسمى الآن رفع وهي على بعد عشر ساعات من العريش.

ثوب كان على دينور فلما فتح الإسلام مصر غلب أبو ثوب وأسروه فأسلم وذلك نحو سنة 20هـ ــ 640م.

ومنهم ابن نفيلة الغساني وكان مقرباً من خالد بـــن الوليـــد يعتمـــد عليـــه بشؤونه[3].

ومنهم حسان بن النعمان بن عدي بن بكر بن مغيث الأزدي الغساني البطـــل المشهور بوقائعه في أفريقية مع الملكة دهينا الكاهنة البربرية مبعوثاً من قبـــل عبـــد الملك بن مروان في جيش عظيم سنة 74هـــ ــ 693م. واتسعت فتوحاته في المغرب وتولى أفريقية من قبل معاوية بن أبي سفيان وتوفي على الأرجح سنة 90هـــــــ ــ 708م.

ومنهم ابن جميع وهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن يحيى بـــن عبـــد الرحمـــن الغساني الحافظ الصيداوي من الأيمة الثقات وله مؤلفات وروى الحديث عنه شيوخ كثيرون. ولد سنة 305هـــ 917م، وتوفي بصيدا سنة 403هـــ 1011م.

ومنهم أبو العباس الغساني كان كاتباً لبني حفص أصحاب أفريقية في أواخـــر القرن السابع وله سمي اسمه أبو علي الحسين بن محمد الغساني اشـــتهر بـــالحديث والأدب وتوفي سنة 498هـــ 1105م.

ومنهم عبد المنعم بن عمر المشهور بأبي الفضل الجليـــاني الطبيـــب الغســـاني الأندلسي الملقب بحكيم الزمان ولد في وادي آش بالأندلس سنة 531هـــــ 1137م وتوفي بدمشق سنة 602هـــ 1206م، وكان أديباً فاضلاً وطبيباً نطاسياً نظم عشـــرة دواوين ومن شعره قوله:

كليني لمـــتن الخيـــل يـــا أم مـــالك   فما الأمن إلا في متـــون الصواهـــل
فبحر الوغى لولا السوابح صـــادرت   بنا لجـــة لم يحـــظَ منـــها بســـاحل

ومن لطيف نظمه قوله:

لا بـــد للجســـم مـــــن قـــــوام   فخـــذه مـــن جـــانب اعتـــــدال
وأقـــرب مـــن العـــز في اتضـــاع   واهـــرب مـــن الـــذل في المعـــالي

---

[3] العقد الفريد لابن عبد ربه 37:1.

ومنهم القاضي أبو الحسين أحمد بن القاضي الرشيد أبي الحسن علي بن القاضي الرشيد أبي إسحق إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني له كتاب (الجنان ورياض الأذهان) ذكر فيه جماعة من مشاهير الفضلاء تولى النظر بثغر الاسكندرية في الدواوين السلطانية وقتل سنة 563هـ 1168م. وكان أوحد عصره في علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعية والآداب الشعرية وله ديوان شعر جيد فيه معان حسنة منها قوله:

إذا ما نبت بالحرّ دار يودها ... ولم يرتحل عنها فليس بذي حزم
وهبه بها صباً ألم يدر أنه ... سيزعجه منها الحمام على رغم

ولقد سافر إلى اليمن ومدح جماعة من ملوكها منها علي بن حاتم الهمداني فقال فيه من قصيدة:

لئن أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا ... فلست أنال القحط في أرض قحطان
ومذ كفلت لي مأرب بمأرب ... فلست على أسوان يوماً بأسوان
وإن جهلت حقى زعانف خندف ... فقد عرفت فضلى غطارف همدان

واشتهر أخوه المهذب أبو محمد الحسن وكان أشعر من ذاك وأخوه أعلم منه في سائر العلوم توفي سنة 561هـ ـ 1166م.

ومنهم عبد الله بن أوس الغساني سيد أهل الشام الذي كان كاتباً لمعاوية بن أبي سفيان.

ومنهم أبو الحسن الغساني البصري الشاعر الطبيب الذي قدم على أبي مضر عامل الأهواز في جملة شعراء امتدحوه فمرض العامل في أثناء ذلك فعالجه الغساني حتى برئ، ولكنه أبطأ بجوائزه للشعراء فكتب الغساني إليه:

هب الشعراء نعطيهم رقاعاً ... مزورة كلاماً من كلام
فلم صلة الطبيب تكون زوراً ... وقد أهدى الشفاء من السقام[1]

ومنهم أبو القاسم البرجي وهو محمد بن يحيى الغساني كان حسن الشعر والخط والكتابة اتصل ببني مرين ومن شعره قوله:

---

[1] يتيمة الدهر للثعالبي 338:3.

نهاه النهى بعـد طـول التجـارب   ولاح له منـهج الرشـد لاحـب
وخاطبـه دهـره ناصحـاً   بألسنة الوعظ مـن كـل جـانب

ومنهم أبو اسحق السنهوري وهو إبراهيم بن خلف بـن منصـور الغسـاني الدمشقي منسوب إلى سنهور في القطر المصري قدم إشبيلية في أوائل القرن السـابع للهجرة وتقلبت به أحوال كثيرة وكان من العلماء.

ومنهم أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني الدمشقي الملقب بالوأواء (توفي سـنة 390هـ 999م) وله أشعار رقيقة ذكرها الثعالبي في يتيمة الدهر مثل قوله في قـوس قزح مع البرق والشمس:

سقيا ليوم ترى قوس السـماء بـه   والشمس مسفرة والـبرق خـلاس
كأنهـا قـوس رام والـبروق لـه   رشق السهام وعين الشمس برجـاس

ومنهم ابن عبد العزيز وهو أبو القاسم أحمد بن اسمعيل بن عبد العزيز الغساني. أصل سلفه من الأندلس انتقلوا إلى مراكش واتصلوا بالموحدين واستقر أبوه اسمعيل بتونس. ونشأ أبو القاسم بها وكتب لبعض ملوكها وتولى بعض الأعمال في المغرب إلى أن توفي سنة 744هـ 1343م.

ومنهم عبد البر بن فرسان بن إبراهيم بن عبد الرحمن الغساني الوادي آشـي الأندلسي كان كاتباً ووزيراً في الأندلس وله شعر بليغ منه قوله متحمساً:

أجبناً ورمحي نـاصري وحسـامي   وعجزاً وعزمـي قـائدي وإمـامي
ولي منك بطاش اليديـن غضنفـر   يحـارب عـن أشـباله ويحـامي

وكثير غيرهم ممن لا مجال لذكرهم في هذا المقام كأبي بكر الغساني المفسر وأبي علي الغساني الزهري المحدث إلى ما لا يحصى ممن نشأوا في الشام ومصر والمغـرب والأندلس وبلاد العرب وذاعوا شهرة.



الفرع الحادي عشر

في تاريخ حوران بزمن الفتح الإسلامي وفيه قطفان

القطف الأول

في فتح حوران إلى اليوم

في السنة الثانية من خلافة أبي بكر الصديق (سنة 12هـ 633م) عقد الخليفة لأبي عبيدة بن الجراح راية لقيادة الجيوش قصد فتح الشام وأنجده بخالد بن الوليد. فبعد أن فتحوا المدن والبلدان في طريقهم انتهى المسير بخالد إلى بصرى (أسكي شام) بتسعة آلاف مقاتل فوجد المسلمين نزولاً بها وجيوش الروم محتشدة فيها على كثرتها وقائدهم رومانوس وقائد العرب شرحبيل فضايقوا أهلها وبخيانة من قائد الروم رومانوس دخلوها صلحاً واستولوا على المدينة وولوا عليها من قبلهم محافظين وكان فتح بصرى هذه (سنة 13هـ 635م) وصولح أهلها ليؤدوا عن كل حاكم ديناراً وجريب حنطة. وتغلبوا على جميع أرض حوران وضربوا على يد الغساسنة حكامها وإلى ذلك اشار القعقاع بن عمرو بقوله:

بدأنا بجمع الصفريين فلم ندع ... لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به ... سوى نفر نجتذهم بالبواتر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة ... فألقت إلينا بالحشى والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت ... بنا العيس في اليرموك جمع العشائر

وروى ابن خلدون (224:2) «أن النبي (صلعم) كتب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان بالبلقاء من أرض الشام وعامل قيصر على العرب مع شجاع بن وهب الأسدي يدعوه إلى الإسلام». وذكر المؤرخون أن أبا بكر (رضه) أمر الحارث بن هشام المخزومي جد الشهابين الذي كان قد قدم بعربه بني مخزوم لفتح الشام وقتل في تلك الوقائع وكان شاعراً باسلاً ثم أمر عمر بن الخطاب (رضه) ولده ملكاً سنة 636م لينجد العساكر التي تأتي من الحجاز لمساعدة أبي عبيدة فانتقل

بعشيرته من الحجاز إلى حوران وتوطن الشهباء وجرت بينه وبين الغساسنة مواقع فمنعهم عن الدخول إلى حوران وتوفي سنة 47هـ 667م وتوالى أعقابه من بعده إلى الأمير منقذ فقام بعشيرته من حوران إلى وادي التيم فنزلوا في بيداء الظهر الأحمر من الكنيسة إلى الجديدة ثم اتصلوا بلبنان وتولوا أمره بعد الأمراء المعنيين كما سيجيء.

ولقد طالعنا في ملحق الجزء الثاني من ابن خلدون فوائد في الفتح والغساسنة نوردها تتمة لأبحاثنا قال في صفحة 82 منه: «ولما فرغ خالد من عين التمر وافق وصول كتاب عياض بن غنم وهو على من بإزائه من نصارى العرب بناحية دومة الجندل وهم بهرام وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم وكانت رئاسة دومة لأكيدر بن عبد الملك[1] والجودي بن ربيعة يقتسمانها. وأشار أكيدر بصلح خالد فلم يقبلوا منه فخرج عنهم وبلغ خالد مسيره فأرسل من اعترضه فقتله وأخذ ما معه وسار خالد فنزل دومة وعياض عليها من الجهة الأخرى وخرج الجودي لقتال خالد وأخرج طائفة أخرى لقتال عياض فانهزموا من الجهتين إلى الحصن فأُغلق دونهم وقتل الجودي وافتتح الحصن عنوة فقتل المقاتلة وسبي الذرية». وذكر في الصفحة 83 من الملحق المذكور بتاريخ سنة 13هـ ما نصه: «فاجتمعت إليه (خالد) جموع كثيرة وبلغ الروم خبره فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام من بهراء وسليح وكلب وغسان ولخم وجذام وسار إليهم خالد فغلبهم على منازلهم وافترقوا».

وذكر في الصفحة 85 من ذلك الملحق بتاريخ سنة 13هـ أيضاً: «أن خالداً لما جاء من العراق مدداً للمسلمين بالشام... وكان الحرث ابن الأيهم وغسان قد اجتمعوا بمرج راهط فسلك إليهم واستباحهم ثم نزل بصرى ففتحها». وذكر صفحة 86: «أن يزيد بن أبي سفيان أقام بدمشق سنة 14هـ وبعث دحية الكلبي إلى تدمر وأبا الأزهر القشيري إلى حوران والبثنية فصالحوهما ووليا عليهما». وذكر

---

[1] قال ابن خلدون (41:2): «وقد كان العرب يسمون أهل القرى والمدائن ملوكاً مثل هجر ومعان ودومة الجندل.. وقد كان في زمن الخلافة العباسية تسمى ولاة الأطراف وعمالاً ملوكاً». وذكر في الملحق الثاني صفحة 51 ما نصه: «أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل من كندة كان ملكاً عليها وكان نصرانياً». وقال صاحب المرآة الوضية أن الأكيدر من دومة قرب عين التمر في العراق فكان يزور أخوالاً له من بني كليب بأطراف الشام فظهرت له المدينة متهدمة وكانت مبنية بمكان يقال له الجندل فرممها وغرس فيها الزيتون وغيره وسماها دومة الجندل. وكان فيها الصنم ود بزمن الجاهلية لبني كلب. وموقع دومة الجندل إلى الشرق من تبوك بميلة إلى الشمال.

صفحة 105 منه ما نصه: «وبعث أبو عبيدة جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي فسلكوا درب تفليس إلى بلاد الروم فلقي جمعاً من الروم ومعهم عرب من غسان وتنوخ واياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم وأثخن فيهم». وفي خلافة عمر بن الخطاب جند هرقل ملك الروم المستعربة من غسان وجذام ولخم وغيرهم وقدم عليهم بطريقاً اسمه ماهان ووجههم إلى دمشق لمنازلة جند عمر في آخر حياته في الجولان فانكسر ماهان.

وفي سنة 15هـ 636م قسم عمر بن الخطاب (رضه) الشام إلى قسمين فولى أبا عبيدة بن الجراح من حوران إلى حلب وما يليها وولى معاوية بن أبي سفيان الساحل على أن يأتمر بأوامر أبي عبيدة. ومات أبو عبيدة سنة 18هـ ــ 639م بالطاعون وكان عاملاً تحت يده علقمة بن علاثة وخلفه معاذ بن جبل الأنصاري فمات أيضاً بالطاعون ثم عمرو بن العاص ثم معاوية بن أبي سفيان، فاتخذ دمشق قاعدة لولايته وعظم شأنها وهو مؤسس الدولة الأموية وكانت مدة إمارته نحو عشرين سنة نال في آخرها الخلافة التامة. وهكذا توالى أعقابه من بعده إلى أن نشأت الدولة العباسية فكانت مدة خلافة الأمويين 91 سنة من 661 ــ 750م وعدد ملوكهم 14 أولهم معاوية وآخرهم مروان الثاني. وصارت خلافتهم وراثية بعد أن كانت انتخابية بعهد الراشدين.

وهكذا خلفتها الدولة العباسية وكان عدد خلفائها 37 ودامت ولايتهم من سنة 750 ــ 1258م أولهم السفاح وآخرهم المستنصر بالله، وكان ابتداء ملكهم على يد أبي مسلم الخراساني وانقراضهم على يد ابن العلقمي وزير المستنصر بالله، واشتهر بوزارتهم البرامكة. ثم حدثت الحروب الصليبية وقامت الدولة الأيوبية، وكان اسمعيل أخ الملك الناصر صلاح الدين داود صاحب بصرى وهو الذي خلفه باسم الملك الصالح اسمعيل، ثم أخذ أخوه الملك وأعطاه إقطاع بعلبك والبقاع علاوة على بصرى. وكثرت المنازعات إلى أن انقرضت الدولة العباسية سنة 656هـ 1258م. ولقد دخل الصليبيون أرض أدوم مراراً واتصلوا ببترة وسموها وادي موسى وهو اسمها إلى الآن، وشيدوا على مرتفع يبعد عنها نحو اثني عشر ميلاً إلى الشمال حصناً منيعاً سموه (مسون ريفاليس) ويعرف الآن بالشوبك. وكان سنة 293هـ 905م، قد مر القرمطي ببصرى وأذرعات من حوران والبثنية فحارب أهلها وأمنهم، ولما استسلموا له قتل رجالهم وسبى نساءهم واستصفى أموالهم وسار إلى دمشق. وسنة 528هـ 1133م روى ابن الحريري أن الإفرنج

الصليبيين قصدوا بلاد حوران فناوشهم شمس الملوك بجمع كثير ثم أغار على بلادهم من جهة طبرية فرحلوا عائدين ثم تهادنوا وكان اسمعيل ملك دمشق وقد تملك حصن الشقيف (أرنون) بعد امتناعه عليه فأخذه من الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم.

وسنة 556هـ 1160م ولى الملك نور الدين صاحب دمشق ظهير الدين بن بحتر الأمير التنوخي حاكماً على ثغر بيروت واتصل ملكه بالقنيطرة (حوران) والبقاع ووادي التيم.

وقد استولى الملك الظاهر بيبرس (المتوفى سنة 676هـ 1278م) على عجلون وبصرى وصرخد والصلت والشوبك والكرك وغيرها، وجدد بالكرك برجين ورمم ما تهدم من قلعة صرخد وجامعها ومساجدها وفعل مثل ذلك ببصرى وعجلون والصبيبة.

وتملك اقوش الأفرم أحد الأمراء المقدمين في آخر الدولة الأيوبية نائباً في دمشق ثم في صرخد وطرابلس ومات والياً على همذان سنة 716هـ 1316م.

ثم استولى هولاكو التتري على سورية وسقطت الدولة الأيوبية سنة 657هـ 1260م. وجاء تيمورلنك بغارته الشعواء فافتتح دمشق وما إليها سنة 803هـ 1400م. وتولاها الشراكسة في أثناء غزوة هولاكو وتيمورلنك إلى أن أسعدت بالفتوح العثماني سنة 1516م بزمن الساكن الجنان السلطان سليم الأول.

وظلت تلك البلاد مستظلة بالهلال العثماني مثل غيرها من الممالك المحروسة إلى يومنا هذا. وكانت ولاية حوران في ذلك العهد لمشايخ العرب. ففي سنة 1613م كان عمرو شيخ عرب المفارجة متولياً شؤونها فعزل عنها وسلمت لرشيد شيخ عرب السردية. وحدثت في هذه السنة مواقع فيها إلى أن تغلب الأمير فخر الدين المعني عليها وولى نسيبه الأمير أحمد المعني على سنجقية عجلون سنة 1618م والشيخ عمرو المذكور على مشيخة حوران. وهكذا كانت تتقلب عليها الأحوال.

وكانت حوران ملاذاً لكثير من الأمراء والمشايخ يعتصمون بجبالها كما حدث سنة 1793م أن الأمير حسناً وأخاه الأمير بشيراً الشهابيين سارا إلى المزيريب لملتقى الجزار واتحد معهما الشيخ بشير جنبلاط الذي كان نزيلاً عند عرب بني صخر في حوران. وسنة 1830 عزل الشمري في حوران وفي هذه السنة حارب جبل حوران إبراهيم باشا المصري وانكسر عسكره ولا سيما عن المعركة التي حدثت بقرية أبي القدم في جنوبي اللجاة فقتل فيها الفريق محمد باشا وأمير الالاي يعقوب بك

وغيرهم من المصريين. وسنة 1839م أنفذ إبراهيم باشا المشار إليه شريف باشا إلى الشيخ حمدان لتجنيد الدروز وسير أربعمائة فارس إلى قرية أم الزيتون (في الجبل في محل يعرف بوادي اللواء على بعد نحو خمس ساعات ونصف عن السويداء إلى شماليها) وذلك لمصادرة الأهلين فذبحهم الدروز إلا مقدمهم. وسنة 1842 سار إليها سعيد بك جنبلاط وبقي فيها سنة وبعض أشهر. ولم يطل العهد عليها حتى نظمت متصرفية تابعة لولاية سورية كما مر صفحة 16.



القطف الثاني

في تلخيص ما جرى للغساسنة في أثناء تلك الحوادث

يتلخص مما تقدم أن الغساسنة خضدت شوكتهم بعد الفتح الإسلامي ومنهم من أسلم وبعضهم بقي على نصرانيته وتقلبت بهم الأحوال المختلفة فتمزقوا طرائق وتفرقوا حزائق. ويظهر من كلام ابن خلدون وغيره أن قبيلة طي ورثت أرض غسان بالشام وملكهم على العرب ومنهم نشأ بنو مفرج وبنو مراد بن ربيعة فتولوا الإمارة ثم انتقلت إلى بني علي وبني مهنا منهم وذلك لعهده[1]. وفصل ذلك في الجزء الثاني من تاريخه صفحة 282 بقوله: «وقال ابن سعيد عن صاحب تواريخ الأمم: أن جميع ملوك بني جفنة اثنان وثلاثون ومدتهم ستمائة سنة، ولم يبق لغسان بالشام قائمة وورث أرضهم بها قبيلة طي. قال ابن سعيد: وأمراؤهم بنو مراد وأما الآن فأمراؤهم بنو مهنا[1] وهما معاً لربيعة بن علي بن مفرج بن بدر بن سالم بن علي بن سالم بن قصة بن بدر بن سميع. وقامت غسان بعد منصرفها من الشام بأرض القسطنطينية حتى انقرض ملك القياصرة فتجهزوا إلى جبل شركس، وهو ما بين بحر طبرستان وبحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية، وفي هذا الجبل باب الأبواب وفيه من شعوب الترك المتنصرة والشركس وأركس واللاص وكسا ومعهم أخلاط من الفرس واليونان والشركس غالبون على جميعهم فانحازت قبائل غسان إلى هذا الجبل عند انقراض القياصرة والروم وتحالفوا معهم واختلطوا بهم ودخلت أنساب بعضهم في بعض حتى ليزعم كثير من الشركس أنهم من نسب

---

(1) راجع تاريخ ابن خلدون 255:2 ووجد هذا المؤرخ في القرن الثالث عشر للميلاد.

(1) وهجم منهم يعبر ابن مهنا (أمير آل فضل) في قومه على دمشق سنة 1405م وهزم نائب الجراكسة فيها واستولى عليها ونكل بالسكان إلى أن أخرجه السلطان الناصر فرج الذي قدم من مصر.

غسان[2] اهـ». ولقد نشأ من هذه القبيلة المشهورة كثيرون اشتهروا بالأدب والعلم والسياسة والدهاء وألقت البلاغة إليهم زمامها والرئاسة مقاليدها في المشرق والمغرب كما مر وعضدوا النصرانية وكان عليهم أساقفة. راجع مقالة نصرانية غسان في المشرق 519:10.

واشتهر ملوك غسان بالعدل والغيرة وحب العمران كما أشار إلى ذلك كثير من كبار المؤرخين في الشرق والغرب[3] ولا سيما نولدك الألماني وكوسن دي برسفال الفرنسي، فإنهما أفاضا في وصفهم وحققا كثيراً من شؤونهم وعدد دي فوكوا آثارهم في حوران وكذلك وستون ناسبين إليهم ابتناء كثير من الأديار والكنائس والأقنية لجر المياه والقصور الشاهقة ولا سيما قلعة البيضاء التي اكتشفت فيها خطوط كثيرة تؤيد هذا الرأي ومثلها قصر المشتى وغير ذلك مما سبقت الإشارة إليه فضلاً عما عرفت به قبائلهم من الطباع العربية والمزايا الكريمة والصفات النادرة.

ولقد بلغوا من العظمة مبلغاً لا زيادة بعده لمستزيد وهاك وصف حسان بن ثابت الأنصاري لوليمة صنعها جبلة بن الأيهم آخرهم كما روى كتاب الأغاني، قال: لقد رأيت عشر قيان خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة وأهداهن إليه إياس بن قبيصة. وكان يفد إليه من يغنيه من العرب في مكة وغيرها. وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب وأُتي المسك الصحيح في صحاف الفضة وأوقد له العود المندَّى إن كان شاتياً، وإن كان صائفاً بطن بالثلج. وأُتي هو وأصحابه بكسى صيفية يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف والشتاء الفراء الفنك وما أشبهه. ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع عليّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم وعلى غيري من جلسائه. هذا مع حلم عمن جهل وضحك وبذل من غير مسألة مع حسن وجه وحسن حديث. ما رأيت منه خناً قط ولا عربدة[1]. اهـ.

---

[2] وفي تاريخ الدبس 413:6 «أن المماليك الشراكسة الذين تملكوا مصر وسورية هم منهم ملكوا من سنة 1382 ــ 1516م أولهم الملك الظاهر برقوق وآخرهم قانصوه الغوري».

[3] وقال المؤرخ بروكوب في تاريخ حرب الفرس (1: عدد 17) أن الحارث الجفني نال أيضاً رتبة الملك مع السلطان المطلق على كل القبائل المنضوية تحت حكم الرومان (المشرق 485:1).

[1] روايات الأغاني 63:1.

ومن طباعهم عدم الصبر على الضيم كما فعل يزيد بن عمرو الغساني بالحرث بن ظالم يوم لحق به في الشام مستجيراً، فأكرم مثواه ولكن الحارث غدر به وقتل ناقته التي وضع في عنقها مدية وزناداً وصرة ملح ليمتحن بها رعيته وينظر من يجترئ عليه، فلم يكتف بذلك بل قتل الحارث التغلبي لأنه أخبر الملك يزيد بفعلته وغدره، فلم يتمالك يزيد أن أمر بقتله[2] إلى غير ذلك.

ولا خفاء أن كثيراً من الأسر النصرانية في سورية ولبنان هي غسانية الأصل بعضها ترك حوران بزمن الفتح الإسلامي وبعضها في الحوادث التي عقبته وهاجر كثير منهم على أثر الوقائع التي جرت بين القيسيين واليمنيين وهما حزبان قامت لهما البلاد وقعدت، ومن أشد وقائعهما ما جرى سنة 1440م[3] على أثر الحروب الصليبية[4] ووقائع هولاكو[5] وتيمورلنك[6] ولم تقم من بعد ذلك قائمة للنصرانية في حوران فهجروها تباعاً ومنهم بنو المعلوف الغسانيون كما سيجيء مفصلاً. فسبحان من يديل عباده في الأرض.

---

[2] العقد الفريد 53:3.

[3] راجع مجلة الهلال الغراء 98:6.

[4] دامت من سنة 1096 ــ 1291م.

[5] هو ابن جنكيز خان (ملك الملوك) أول ملوك التتر اجتاح سورية سنة 1260م وكان يعود عنها ثم يهاجمها هو ومن جاء بعده.

[6] معنى اسمه بالتركية تيمور الأعرج ومعنى تيمور الحديد ولد سنة 1335م واجتاح سورية عام 1400م وتوفي سنة 1405م وهو حامل بمائتي ألف مقاتل على الصين.



الشجرة الثانية

في مواطن بني المعلوف بعد تركهم لحوران ولها فرعان

الفرع الأول

في لبنان وفيه قطوف

القطف الأول

في اسمه وموقعه وحدوده ومساحته

كانت سورية محدودة قديماً بنهري الفرات ودجلة حتى خليج العجم (فارس) شرقاً. وبالبحر الرومي (المتوسط)[1] غرباً، وبآسية الصغرى (بر الأناضول) شمالاً وبشبه جزيرة العرب جنوباً. ولكنها قد ضاق نطاقها اليوم فحصرت بين الدرجتين 31 و39 من خطوط العرض ويحدها شمالاً خط يخترق خليج اسكندرونة على موازاة خط العرض إلى الفرات وشرقاً بعض الفرات وبادية الشام وجنوباً بعض البلاد العربية وغرباً البحر الرومي. وهي تشبه في هيئتها الطبيعية مربعاً كبيراً طوله من جبل طوروس إلى جبل سيناء نحو ألف ومائة كيلومتر ومعدل عرضه مائة وخمسون كيلومتراً ومجموع مساحتها (109509) أميال مربعة وكان عدد سكانها في القدم عشرة ملايين وقبل أكثر من ذلك فأصبح اليوم لا يتجاوز مليونين ونصفاً فمعدلهم خمسة وعشرون نفساً في كل ميل مربع[2].

---

[1] سمي بالرومي لأن الروم كانوا في سواحله وبالمتوسط لتوسطه بين آسية وأفريقية وأوربة.

[2] تقدر حاصلات سورية السنوية لعهدنا بمعدل خمسة ملايين وثلاثمائة ألف كيلة حنطة وأربعة ملايين ومئتي ألف كيلة شعيراً ومليون ونصف كيلة من جميع الحبوب الأخر ومليون وخمسين ألف اقة قطناً. وعشرة ملايين ومئتين وثلاثين ألف اقة سمناً. وأربع مائة وتسعين ألف كيلو من الحرير. وأما الحيوانالت الداجنة التي تسرح في مراعيها فهي نحو مليون ونصف من الأغنام ومليون من المعزى ومئتين وخمسين ألفاً من الأبقار وثمانين ألفاً من البغال وخمسة وعشرين ألفاً من الجمال. وفيها كثير من الصنائع ولا سيما النسيج وعمل الزجاج والنحاس والترميم (التطعيم) بالصدف. وفي لبنان سبك الأجراس في بيت شباب والتطريز بالقصب في الزوق وحل الحرير وقد ذكرت الليفانت هرالد سنة 1906م أن للحرير في سورية مائة وخمسين معملاً لها تسعة آلاف دولاب.

وسميت سورية قديماً بلاد آرام نسبة إلى آرام بن سام بن نوح واشتق اسمها الحالي سورية من كلمة آشوريا نسبة إلى ساكنها آشور وأول من أطلق عليها ذلك هو هيرودوتوس المؤرخ اليوناني الشهير لأن اليونانيين عندما فتحوها كان الآشوريون يتولوها فنسبوها إليهم وقيل في تسميتها غير ذلك، ولعل هذا أوجه أقوالهم. وعرفها العرب باسم الشام نسبة إلى سام بن نوح الذي سكنها نسله وهو الأظهر.

وهي مقسومة طبيعياً إلى ثلاثة أقسام، أولها سورية الشمالية التي تبتدئ من جبال طوروس شمالاً وتنتهي عند مدخل حماة جنوباً ومن أمهات مدنها أنطاكية وحلب وحماة. وثانيها سورية المتوسطة التي تبتدئ من مدخل حماة شمالاً وتنتهي جنوبي صور جنوباً. ومن أمهات مدنها الداخلية حمص وتدمر ودمشق وبعلبك. والساحلية طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور. وثالثها سورية الجنوبية وهي ما بقي منها ويدخل فيها ما يعرف قبلاً بأرض كنعان أو فلسطين وتمتد من مياه الحولة شمالاً إلى العريش جنوباً. ومن مدنها الداخلية الناصرة وطبرية ونابلس وأورشليم (القدس الشريف) والخليل (حبرون). والساحلية عكا وحيفا ويافا وغزة والعريش. ويدخل في القسم الثاني جبل لبنان.

وتنقسم الآن إدارياً إلى ثلاث ولايات هي سورية أو الشام وحلب وبيروت وثلاث متصرفيات هي لبنان والقدس والزور.

أما اسم لبنان فعبراني بمعنى الأبيض[1] وذلك لاشتعال قمته ببياض الثلج معظم أيام السنة، وذكره الكتاب المقدس وشعراء العرب القدماء كقول النابغة الذبياني:

حتى غدا مثل نصل السيف منصلتاً   يقرو الأماعز من لبنان والأكما

وكان هذا الجبل في القديم أكثر اتساعاً من فلسطين وشمل سلسلتي الجبلين الشرقي والغربي وتناول ما يجاورهما. أما المتصرفية التي باسمه اليوم فموقعها بين الدرجتين 33 و34 طولاً شرقياً من هاجرة باريس والدرجتين 33 و30 دقيقة و34 و30 دقيقة عرضاً شمالياً منها فتبلغ مساحتها الحاضرة ثلاثة آلاف وخمس مائة

[1] وهي تسمية كثيرة مثل جبل الشيخ بالعربية لحرمون وجبال حملايا بالسنسكريتية (لغة قدماء الهنود) والقوقاز بالفارسية والألب وبلان بالإفرنجية. أما اسم البيون الذي أطلق قديماً على أرض إنكلترة فلبياض سواحلها الطباشيرية التربة والصخور.

كيلومتر وهي في منتصف البلاد السورية يحدها شمالاً متصرفية طرابلس الشام التابعة لولاية بيروت وشرقاً ولاية سورية وجنوباً غزة صيداء وغرباً البحر المتوسط وتتصل بأربع سلاسل كبيرة من جبال سورية وهي جبل طوروس واللكام (الأمانوس) واللبنانين الشرقي والغربي اللذين يفصلهما سهل البقاع وبعلبك المعروف بسورية المجوفة. فلبنان سلسلة جبال ترتفع مرة وتنخفض أخرى ممثلة تضاريس بديعة ورعاناً لطيفة وقمماً شامخة تعلو إلى ثلاثة آلاف ومائة متر ولو زاد ارتفاعها مائة متر لدامت عليها الثلوج. وهي مركبة من صخور كلسية متجانسة سريعة التفتت فلذلك ترى فيها تأثير العوامل الطبيعية ولا سيما في أوديتها التي نقبها الثلج والجليد والمطر والماء وكثرت فيها المغاور والكهوف التي سكنها الإنسان في طور الظران[1] وأكثرها في وادي قاديشة وقزحيا وأنطلياس في لبنان والفرزل وتمنين في البقاع وقرب الهرمل التابعة للبنان. اتخذها النساك صوامع لهم مدة مديدة. ثم اللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا بزمن الرومانيين ملاجئ وحصوناً. وضهر لبنان ينبسط انبساطاً متساوياً على خط مستقيم يبلغ معدل علوه 2120 متراً تعلو فوق هضبات ورواب محدبة تمتزج في هيئتها مع السلسلة الوسطى

---

[1] الظُرّان والظِران جمع الظر وهو الحجر المحدد كالسكين على حد قول لبيد:

بحسرة تنجل الظران ناحية   إذا توقد في الديمومة الظرر

وأراد العلماء بطور الظران الزمن الذي كان فيه الناس لا يعرفون المعادن فاتخذوا أدواهم ومواعينهم من الحجارة الصلبة ولا سيما الصوان ومن هذه الأطوار ما كان في مصر وأوربة الوسطى والشمالية أما في فينيقية فقد كان الظرانيون قبل الفينيقيين اتخذوا لهم مصانع ظرانية قسمتها مجلة المشرق الغراء (1:97 و353) إلى زمنين أحدهما كان فيه الحجر منحوتاً فقط ووجدت آثاره في عدلون (بين صور وصيدا) ونهر عقبية ونهر إبراهيم ونهر الجوز وإنطلياس ونهر بيروت ووادي قاديشة قرب طرابلس، والثاني كان فيه الحجر صقيلاً وآثاره في جعيتة (منبع نهر الكلب) وحراجل في أعالي كسروان ورأس نهر الكلب ورأس بيروت ونهر الزهراني قرب صيداء والمعاملتين اهـ. وهذه الكهوف إما كبيرة احتفرتها الأنهار ثم تركتها لانخفاض مجاريها ومنها ما هو في وادي نهر البردوني فوق نزل الصحة وقرب وادي العرايش وقد سمي دير القديس الياس بالطوق وهي عند العامة جمع طاقة بمعنى النافذة نسبة إلى هذه المغاور التي تشبه أبوابها النوافذ. وإما صغيرة احتفرتها الأمواج بضغطها على الشاطئ ومنها مغارة صغيرة قرب نهر الكلب، وقد أخذ الدكتور ترسترم شيئاً من آثارها إلى لندن ففحصه كبار علماء العاديات وأجمعوا أن بعض تلك العظام تدل على حيوانات انقرضت من سورية وهي الآن في الأصقاع الشمالية الباردة واستدلوا منها أن سورية كانت مثلها باردة لارتفاعها عما هي عليه اليوم فنسبت عادياتها إلى العصر الأول من الدور الخامس المعروف بتالي العصر الجليدي. وقسم أحد العلماء الأعصر هكذا (1) العصر الظراني المنحوت. (2) العصر الظراني المصقول. (3) العصر النحاسي الذي اتخذت فيه الأسلحة والآلات النحاسية. (4) العصر الحديدي الذي اتخذت فيه الحديد وهذا أشهرها وأهمها نفعاً.

الأصلية. فالجبل الشرقي أرضه أكثر اطمئناناً وأقل عمراناً وسكاناً وخصباً ولا سيما في غربيه ويبلغ أقصى علوه في طرفه الجنوبي حيث يرتفع جبل الشيخ إلى علو 2800 متر عن سطح البحر. أما الغربي فأكثر ارتفاعاً وأوفر عمراناً وسكاناً وخصباً ولا سيما في غربيه فهو يخالف شقيقه وأعلى رؤوسه ظهر القضيب الذي يبلغ ارتفاعه 3060 متراً ثم جبل المنيطرة وارتفاعه 2911 متراً فصنين الذي يعلو 2608 أمتار ولكنهما قد فقدا أشجارهما القديمة التي ضرب فيها المثل قديماً.

ومن هذا الجبل يخرج نهر العاصي ويذهب شمالاً إلى سورية الداخلية فيروي تربتها وعلى ضفته بنيت حمص وحماه وغيرهما والليطاني الذي يجري إلى الجنوب وعلى قرب مصبه بنيت صور وصيداء. وكذلك أنهر الأردن (الشريعة) وبردى والأولي والدامور وأنطلياس وبيروت والكلب وإبراهيم وأبي علي والبردوني وغيرها. فضلاً عن ينابيعه الغزيرة كنبع الأربعين الذي تحتضن مياهه بحيرة اليمونة ونبع صنين وبقليع والباروك واللبن والعسل وغيرهما. وبحيراته كاليمونة والزينية. وشلالاته كشالوف جزين وحمانا ونهر الجوز وافقة. وجسوره الطبيعية كجسر نبع اللبن البديع الصنع الذي يبلغ علو قنطرته ستين متراً بطول ثلاثين وعرض خمسة. وجسر العاقورة بينها وبين دومة البترون. وجسر اليحمور بين جزين وحاصبية إلى غير ذلك مما لا محل الآن لاستيفائه.

وسكن لبنان أربع مئة ألف وألفا ساكن[1]. ففي كل ميل مربع منه مئة وسبعة وخمسون نفساً (أي في كل كيلومتر واحد ستون) مما يدل على ضيق نطاقه ولقد وصف شكله الأب لامنس اليسوعي بقوله وهو مسك الختام: «ومن تفرع الجبل من الجنوب إلى الشمال وجده يتزايد علواً وكذلك يتسع عرضاً ولو تأمل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين صيداء ومشغرة لوجده لا يزيد عن 29 كيلومتر وهو يبلغ بين بيروت وقب الياس 31 كيلومتراً ومعظم اتساعه بين طرابلس والهرمل 46 كيلومتراً فيكون لبنان على كل شكل مربع منفرج عن زاويتيه العلويتين» اهـ.

❖❖❖

[1] منهم مائتان وثلاثون ألفاً من الموارنة وأربعة وخمسون ألفاً من الأرثوذكس وأربعة وثلاثون ألفاً من الروم الكاثوليك وثلاثون ألفاً من المسلمين وخمسون ألفاً من الدروز وألف وخمس مائة من البروتستنت وألف من الأرمن والسريان والكلدان وخمس مائة من اللاتين وخمس مائة من أهل الوبر والبدو وثلاث مائة من الأجانب ومائتان من اليهود. أما المهاجرون منه إلى جميع البلدان حتى الآن فهم على الأقل ستون ألفاً نصفهم ذكور والآخر إناث (المشرق 10:194).

الفصل الثاني

في وصفه

وصفه السياح والمؤرخون والكتبة من العرب والإفرنج قديماً وحديثاً فرأينا أن نقتطف من أقوالهم ما يجمع الأغراض الكثيرة التي تميط النقاب عن شؤونه، وإليك ما قالته مجلة المقتطف الغراء (إن قنن[ق] لبنان لا تغطيها السحب مثل قنن ارارا طولاً تكتنفها الحراج (الغابات) مثل حملايا[ق1] ولا تنفجر البراكين منها مثل الأندس ولا تتصبب عليها الشلالات مثل الألب ولكن إذا نظر المرء إلى ما في لبنان من النبات والحيوان وتعدد أشكالهما وأنواعهما وبديع المناظر التي تكتنفهما فلا جبل في الدنيا يضاهيه أو يقابل به). ومجلة البيان الحسناء: (ومن تأمل في موقع لبنان البهيج وما قام في سفوحه من المدن والقرى والدساكر والمزارع من حضيضه إلى علو خمسة آلاف قدم بين رواب وهضاب قد كستها الطبيعة حلة الجمال السندسية وقد رق هواؤها وعذب ماؤها فلا يخشى ثم من لفح الهجير في الصيف ومن من زمهرير البرد في الشتاء لقرب المواقع الساحلية من الجبلية. عرف بداهة أن سكان هذا الجبل أقوياء البنية صحاح الأبدان ميالون إلى الحرث والزراعة ذوو نشاط وجلد على مزاولة الأعمال الشاقة. وهذه الروابي والهضاب القائمة عليها القرى الآهلة بالسكان متوعرة المسالك لا تطرق إلا بجهد وعناء. وما فوقها قلل شامخة لا يفارقها الثلج فهي غير مأهولة لشدة البرد وغير مطروقة لكثرة الثلج). ومجلة المشرق المنيرة: (ولا حرج فإن لهذا الجبل منظراً جليلاً سواء عاينت عرفه المستطيل في الصيف وهو ضارب إلى الزرقة حيناً وإلى اللون المتورد أخرى أو شاهدته في الربيع والشتاء لما تعتم قممه بالثلوج وتتوشح أعطافه باللجين وإذا تصاعدت الأبخرة إلى الجو تستشف من ورائها مشاهد لبنان العجيبة فتتبين استدارات آكامه وانحدارات سفوحه ومعاطف وديانه حيث تتسلسل الجداول فيسمع لخريرها صوت يأخذ بمجامع القلوب). وأديب بك اسحق بقوله: «ومن فوق ذلك جبال لبنان تستهزئ بعاديات الزمان لزم رؤوسها الشيب فازدادت به جمالاً فنادى لسان حالها رب زدني كمالاً فكان في هامها الشتاء وفي عنقها الربيع وفي قلبها الخريف وتحت أقدامها الصيف. والبحر من وراء ذلك يحدجها بعينه الزرقاء فترده صخورها الصماء فيعود راغياً وجداً مزبداً حقداً يدفع سابق موجه

[ق] هكذا جاءت وتعني قمم (المحقق).

[ق1] جبال الهملايا في التيبت (المحقق).

اللاحق انكساراً كما انهزم الجيش فارتدت طلائعه على الساقة فراراً». وقال الأب لامنس اليسوعي: «فكما أن النيل يحيي البلاد المصرية كلها كذلك لولا لبنان لأصبحت بلاد الشام كصحراء غامرة لا خير فيها كصحاري جزيرة العرب فإن لبنان يمتص فوق رباه نداوة البحر ويجذب الأبخرة المتصاعدة إلى الجو فتتكاثف وتنزل على قممه أمطاراً وثلوجاً تتوزع من ثم على جميع أنحاء الشام على هيئة ينابيع وجداول وبحيرات. فلو عدم لبنان لنضب نهر العاصي والليطاني بل ليبست كل مسايل سواحل فينيقية وما كنت لتجد شيئاً في حدائق طرابلس ورياض بيروت وبساتين صيدا وبطاح البقاع الخصبة بل كنت ترى مفازات مقفرة تمتد مدى البصر وهي جرداء صلعاء ليس في رمالها ديار ولا نافخ نار». ورينان الفرنسي: «إن جبال لبنان أشبه بجبال الألب ولكنها أبهج منظراً وأعطر رائحة من الألب». ودي لامرتين الشاعر الفرنسي واصفاً وادي حمانا: «تتلاطم في ذلك الوادي أمواج بخار الصباح الشفافة متنزهة كأنها أمواج البحار بجانب الأفق فلا يعلوها إلا قمم الجبال ورؤوس الأشجار وبعض قرى وصوامع ولا يمر ردح من الوقت حتى يصعد هواء البحر مع الشمس بدون أن يشعر به الإنسان فيحول كل ذلك البخار ببطء إلى حجاب أربد يلقيه على الثلوج فيظهر عليها كبقع غبراء رصاصية فيميط الوادي إذ ذاك نقابه ويكشف للعين جماله الفتان». وفان دي فلد الهولندي: «إنني لم أجد في البقاع التي طفتها مناظر جبلية جميلة متغيرة مع ضيق نطاقها مثل لبنان لا في جافة الخصيبة ولا في غابات بورينو الغنية ولا في سومطرة الجليلة ولا في سيلان المشبهة للجنة وكذلك لم أجد في جبال أفريقية الجنوبية الجرداء ولا في غابات جزائر الهند الغربية الغبياء كرؤوس جبل لبنان الغربية الجنوبية. ففي تلك الأرض إما خضرة دائمة وإما محل مشمر. وفي أراضي الهند التي تمتد امتداد البصر وتنفذ نفوذ الضمير سأم للناظر في غاباتها الكثيرة التي ليس فيها من صخور ولا قرى ولا دساكر تغير المنظر على حين أن في غيرها مرتفعات كلها صخور. أما في لبنان فترى غابات وجبالاً وأنهراً وقرى وصخوراً وحقولاً خضراء وفي الجملة فأجمل مناظر البحر والبر وبعبارة أخرى كل ما تشتهي العين أن تراه على سطح المعمور[1]». والأب مرتين اليسوعي: «وفي الحق إن طبيعة لبنان القوية مما يتعجب لها الإنسان لأنها جامعة مع ما فيها من أوصاف الصخور الشواهق والشعاف البواذخ لكل صنف من أثمار كل فصل من السنة ووجه من الأرض». إلى غير ذلك من أوصاف هذا الجبل المشهور الذي جملته يد الطبيعة بأكاليل من

---

[1] سياحة ستنلي (Stenley) الإنكليزي المطبوعة في لندن سنة 1881م صفحة 411.

الثلوج وحلل من الأشجار وحلى من الأزهار ومناطق من المعادن وخلاخيل من المياه العذبة والمالحة.

❖❖❖

الفصل الثالث

في سكانه وعمرانه

سكن لبنان كثير من الأمم القديمة كالحثيين[2] والفينيقيين[3] بعد الأمم الأولى الظرانية البائدة واتصل به الأيدوريون (راجع صفحة 50) ثم تغلب عليه الفاتحون كالآشوريين والبابليين والمصريين والفرس واليونانيين والرومانيين والمسلمين والصليبيين والتتر إلى أن أسعد بالفتح العثماني سنة 1516م. وازداد عمارة بزمن الرومانيين فاستعمرت أولاً سواحله لكثرة غاباته ثم توغل السكان في أعاليه إلى أن

---

[2] كانوا في زمن إبراهيم الخليل ومنهم اتخذ عيسو امرأتيه. قدموا من شمالي سورية واتصلوا في القرن الرابع عشر قبل الميلاد بوادي نهر العاصي وسهل البقاع وامتدوا إلى جنوبي فلسطين واتخذوا حاضرتهم مدينة قدس (تل نبي منذ عند بحيرة قطيفة قرب حمص) ومن بقايا لغتهم في لبنان لفظة الشاغور. وتغلب عليهم فراعنة مصر فامحى ذكرهم وبقيت آثارهم في جهات حماه (تسريح الأبصار 29:2).

[3] سموا بلفظة فينيقس اليونانية بمعنى النخل لكثرته في بلادهم واتخاذه رمزاً عنها. وكانت فينيقية تمتد في القديم من عكاء في الدرجة 32 و50 دقيقة من العرض الشمالي إلى أرواد في الدرجة 35 و20 دقيقة منه فمسافتها درجتان ونصف درجة أو 277 كيلومتراً و777 متراً ويحدها جنوباً عكاء وشمالاً طرطوس وغرباً البحر المتوسط وشرقاً أعالي لبنان. وقسمت إلى فينيقية الساحلية وقاعدتها صور (بمعنى صخر). وفينيقية لبنان وتشمل الجبل الشرقي ومنعطف لبنان في جهة الشرق وحاضرتها حمص (اسمها القديم امسا) وكان أنفذ الفينيقيين كلمة الجبليون سكان بيروت وجبيل والصينونيون والصوريون سكان صيداء (بمعنى صيد) وصور والأرواديون سكان أرواد (بمعنى تيه). ولكن الصيدونيون كانوا أقوى شوكة وأعز صولة وأقوى ملكاً فانضمت إليهم المدن الباقية وصاروا مملكة واحدة وذلك قبل الميلاد بنحو ألف وخمسمائة سنة. وكان ملكهم وراثياً مقيداً بمجلس كبير من زعماء الشعب ولقد أله الفينيقيون قوى الطبيعة وعززوها واتخذ الجبيليون وادي نهر إبراهيم لعبادة أدونيس (تموز) فهو عندهم مقدس بنوا فيه المزارات والهياكل أهمها هيكل أفقة لأدونيس والمشنقة للزهرة والأرواديون حصن سليمان والبيروتيون دير القلعة. واشتهرت صور بأرجوانها وصيداء بزجاجها وسكانهما نقلوا حروف الهجاء إلى العالم فكانت للأعمال التجارية بمثابة المطبعة لنشر العلم اليوم وأسسوا فن الملاحة حتى بقيت أصولها عند جميع الأمم إلى اكتشاف أميركة في أواخر القرن الخامس عشر فتطورت بطور جديد واستخرجوا المعادن والركاز من البلدان البعيدة ولقد عرفوا جزائر بحر الروم وسواحله في آسية وأفريقية وأوروبة ووصلوا إلى الهند وبلاد الإنكليز وطافوا حول أفريقية فملكوا بحر الروم والبحر الأحمر وتوغلوا في المحيط (الأقيانوس) الأتلنتيكي حتى بلغوا جزائر كنارية. وكان معظم مجدهم بزمن ملكهم حيرام المعاصر لسليمان الحكيم وبعد أن أضعفهم ملوك مصر وآشور دوخهم الإسكندر المكدوني وملوك سورية من بعده فامحى مجدهم.

اتصلوا بسفوح قممه. وفي القرن السابع كثر فيه المـــردة والموارنـــة ولكنـــهم لم يتجاوزوا شماليه حتى القرن السادس عشر فتوغلوا فيه. وكان فيه المتاولة والتركمان والنصيرية فتغلبوا عليهم بمعاونة الفرق النصرانية التي قدمت من حوران في القـــرن الخامس عشر وما بعده فطاب للنصرانية المقام فيه إلى اليوم مع أخوتهم ومجاوريـــهم من الفرق الأخرى. ولا بأس أن نلم هنا بوصف أجدادنا الفينيقيين الذين ربطـــوا بابل ومصر بالغرب ونقلوا إليه التمدن والصنائع ولا سيما الحروف الهجائية الـــتي سهلت التجارة وعلموا سكانه الملاحة التي كانوا هم زعماءها وكأني بهذا الشعب العريق في الفضل لم يكتف بما أعدته له الطبيعة من مجاورة البحر المتوســط الـــذي ملأوه بسفنهم ولا بما دفعهم إليه ضيق نطاق بلادهم من استعمار البلدان السحيقة في ما وراء البحر حتى سيروا القوافل البرية فملكوا بحسن إدارتهم طريقـــي الـــبر والبحر فكانت قرطاجنة (القرية الحديثة) موقفهم البحري وتدمر (مدينة النخـــل) محطتهم البرية فدرت عليهم أحلاف المال وذلت لهم أعراف المجد عملاً بالمثل القديم القائل: «إن الآلهة تبيع كل شيء للعامل» ولقد تغنى هوميروس بصناعتهم (الإليـاذة العربية صفحة 1096) قائلا:

«زخرفة أبناء صيدا وخرج قوم فينيقيا به على اللجج».

وهنا محل للتعليل عن اندفاع السوريين إلى المهاجرة منذ القديم لأن أهل الجبال ذوو نشاط وهمة وأقدام يتحملون المشاق منذ نعومة أظفارهم ويتعودون الجلـــد في مزاولة الأعمال وتمهيد العوائق مصداقاً لقول المثل الفرنسي: «إن العقول العاليـة في الجبال العالية». ولما كان سكان البلاد الباردة المعتدلة ممتلئين نشاطاً وقوة حملـــهم ذلك على الحركة التماساً للدفء فاستكثروا منها فمالوا بطبعهم إلى العمـــل ولا سيما في الأقاليم المعتدلة حيث تسهلت لهم الذرائع فلا يقيدهم البرد القـــارس ولا يلفحهم شعاع الشمس المذيب فضلاً عن أن ضيق البلاد يدفع السكان إلى توسيعها كما نرى في ممالك إنكلترة وبلجكة والبرتغال وهولندة وإيطالية وغيرها. بخـــلاف سكان السهول والأقاليم الحارة فإنهم يكتفون بما تنتجه لهم الطبيعة كما تـــرى في بابل والصين ومصر إلى عهدنا. فلهذا كانت سورية جنة الأرض وميدان العمـــل ومستشفى الأعلاء ولقد اكتسبت من مجاوريها منافع عظيمة فمن اليونانيين العلـوم والفنون والصنائع ومن الرومانيين السياسة والتدبير وحب السلام ومن أمم القـــرون الوسطى الدفاع عن الدين، إلى أن استعادت في القرن التاسع عشر شيئاً من مجدهـــا القديم في ظل دولتنا العلية فاكتسبت من الأوروبيين والأميركيين العلوم والمعـــارف

والتجارة وما جاء النصف الثاني من ذلك القرن حتى هاجر سكانها إلى الأقاليم البعيدة في أميركة وأوسترالية وجزر البحر المحيط والترنسفال[1] وغيرها، ولن يزالوا يتقاطرون إليها زرافات ووحداناً فكأنهم يجارون أجدادهم الفينيقيين. وحبذا لو اعتنوا بنقل شيء من عمران تلك البلاد واكتساب ما يوفر لدينا الثروة لأنهم لم يزالوا مقتصرين على تحصيل المال فقط.

ولا ينكر ما تركه الحثيون في شمالي سورية من الآثار على المسلات والصخور مما يدل على تمدنهم ضاهى تمدن المصريين والآشوريين. وكفى بدرج نهر الكلب سجلاً لمن تعاقب على بلادنا من الفاتحين طمعاً في موقعها وخصب أرضها. وهكذا نشأ سكان سورية من الفصيلة الآرامية القديمة التي غصت بها جهاتها الشمالية ومن السلائل العبرانية التي شغلت جنوبيها وكلتاهما من سلالة سام. ومن القبائل الفينيقية التي عمرت سواحلها وهي من نسل حام فضلاً عمن امتزج بها من القبائل العربية السامية التي كانت في حوران واتصلت بلبنان ولا سيما في القرن الخامس عشر وما بعده أخصها الغساسنة، فمن هذا المزيج مع ما اتصل به من الأمم الأخرى، نشأت الأسر السورية واللبنانية على اختلافها.



---

[1] أول من دخل أميركة من السوريين الخوري الياس ابن القسيس حنا الموصلي الكلداني من سنة 1668 ـ 1683م ونشرت رحلته في مجلة المشرق. أما في القرن الماضي فأول من دخل الشمالية منها الخوري فلابيانوس الكفوري اللبناني رئيس الرهبنة الشويرية السابق. سافر إليها في 8 أيلول سنة 1844 بإذن الرؤساء الروحيين وأخذ معه ناصيف الشدودي، فطاف الولايات المتحدة وبقي نحو سنتين. وأول من دخل الجنوبية منها السيد باسيليوس حجار مطران صيدا ودير القمر سنة 1874م وقابل ملكها الدن بادرو، ونال منه وساماً عالياً، وكانت غايتهم جمع الإحسان. وأول من دخل أميركة الشمالية لقصد التجارة تجار من بيت لحم، حملوا صنائعهم الخشبية المرصعة بالصدف إلى معرض فيلادلفية سنة 1876م ثم عادوا إلى بلادهم بثروة وافرة فاقتفى أثرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالي لبنان وامتد في كل سورية. وبعد بضع سنوات ذهب بعض سكان لبنان الشمالي إلى نابولي في إيطالية ومنها رافق بعض الايتاليين إلى جهات البرازيل في أميركة الجنوبية. وسنة 1878م عرف بعضهم أوسترالية، ففتحت لهم أبواب السفر وكثرت الجالية السورية في العالم الجديد وأوسترالية وجزر البحر المحيط. وقدر بعضهم أن ثلث المهاجرين يسكن أميركة وثلثهم يعود إلى موطنه والثلث الآخر يموت. وقالت إحدى الجرائد الأميركانية أن ربع مهاجري الولايات المتحدة يشتغلون في المعامل وثلثهم يبيعون السلع والباقون لهم مخازن تجارية. وأحصي عدد السوريين المهاجرين إلى سنة 1906م فكان هكذا: جميعهم مئتان وخمسون ألفاً منهم ستون ألفاً في الولايات المتحدة وخمسون ألفاً في أميركة الجنوبية وخمسة وعشرون ألفاً في أميركة المتوسطة وعشرة آلاف في أوسترالية وبعض الجزائر والباقون في أفريقية والهند والفليبين. ولهم في مصر وأميركة مطابع وجرائد ومؤلفات ومعامل، مما يدل على ذكائهم وسعة مداركهم.

القطف الرابع

في سهوله

من أشهر سهول لبنان في القديم سورية المجوفة وهي فرجة سهلية حدثت بين جبلي لبنان الشرقي والغربي لما انفصلا بحادث جيولوجي بعد أن كانا جبلاً واحداً ولما كانت أول بقعة وطئتها أقدام بني المعلوف الغسانيين للسكن بعد تركهم حوران لم نجد بداً من وصفها بما يحتمله المقام:

سمى اليونانيون هذه البقعة باسم مرسياس[1] أو ماسياس وسورية المجوفة (كيلو سورية) ويرجح أنها المسماة في الكتاب المقدس ببقعة آون وببقعة لبنان (يش 17:11) وسماها العرب بقاع العزيز[2] ودعاها ياقوت بقاع كلب نسبة إلى قبيلة كلب التي كانت فيها ولقد ملكها الأيطوريون كما مر في صفحة 50 وتغلبت عليها الأمم القديمة وكانت بزمن الإمبراطور سايروس الروماني ولاية مستقلة فيها فيلقان من الجند واليوم تتبع ولاية سورية الجليلة بعد أن بقيت في حوزة لبنان في القرون الأخيرة أما شمسطار منها فإنها باقية لمتصرفية لبنان ومثلها الهرمل.

وكانت هذه البقعة في الزمن القديم مستنقعات مائية[3] بل بحيرة سميت بالعبرانية أميكس أي عميق[4] ولن يزال هذا الاسم محفوظاً في جنوبيها لقرية عميق وهي سبخة الأرض سماها أبو الفداء بحيرة البقاع واشتراها الأمير سيف الدين دنكر الذي تولى الشام من سنة 1320 ـــ 1329م ونزح مياهها بقني أرشده إلى حفرها علاء الدين بن صبح البقاعي وعمر فيها أكثر من عشرين قرية ثم أخذها منه الملك الناصر وأقطعها أمراء الشام فأهملت وعادت المياه فغمرتها فحاول الأمير بشير الشهابي الثاني المعروف بالمالطي نزح مياهها فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً[5] ومنذ سنوات ابتاعها صاحب السعادة نجيب بك سرسق البيروتي وأنفق على تخفيفها أكثر من مئة ألف ليرة ففتح لها قنياً تتسرب فيها المياه إلى مجرى عظيم يتصل بنهر

---

(1) ويوجد إلى الآن نهر باسم مرسيا على مقربة من عين الجر (خلقيس) وقد ذكره يلين وإسترابون وغيرهما وله حادثة خرافية راجعها في تاريخ الأب مرتين صفحة 315.

(2) نسبة إلى الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي الشهير.

(3) تسريح الأبصار 33:2 ونبات سورية وفلسطين للدكتور بوست صفحة 411.

(4) تاريخ الأب مرتين صفحة 27 و180 ورحلة ستنلي الإنكليزي في سيناء وفلسطين.

(5) مجلة المشرق 429:2.

الليطاني وذلك في سنة 1895م بإدارة المهندس عبده بك القدسي الدمشقي فجفف مسافة أربعة آلاف دونم (الدونم ألف وست مئة ذراع مربعة) كانت المياه تغمرها ولقد أفاد هذه الجهة فائدة صحية فمنع تفشي الحميات التي كانت تلك المستنقعات تحتضن جراثيمها فتربيها وتنشرها في جميع القرى المجاورة وها نحن نقتطف مما كتبه الأب جوليان اليسوعي في رسالته الفرنسية ومن بعض السياحات والتواريخ والتقاويم وصفاً إجمالياً لهذا السهل فنقول:

هو سهل خصيب يسمى لعهدنا باسم بعلبك والبقاع شكله مستطيل تحدق به سلسلتا اللبنانين كالسور من جميع جهاته ويشرف عليه كثير من القرى القائمة في سفوحهما وهو ينخفض إلى عمق ست مائة متر وينبسط إلى مسافة أكثر من تسعين كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب ونحو تسعة إلى ثلاثة عشر كيلومتراً من الشرق إلى الغرب ومعدل ارتفاعه عن سطح البحر تسع مئة متر وتربته يبلغ علوها من ثمانية إلى عشرة أمتار جرفتها السيول من الجبال المحدقة به ولن تزال تحمل إليه تربة صالحة للزراعة وفيه تلال قائمة في وسطه بعضها بنيت عليه القرى والآخر خال منها كأنه جزر في هذا البحر الأخضر وبين كل منها مسافة ساعة إلى ساعتين. ومن أقدم مدنه بعلبك المشهورة بقلعتها وخلقيس[1] أو كلشيس (عين الجر) التي كانت عاصمة الأيطوريين كما مر في الصفحة 50 وموقع أطلالها اليوم على بعد ربع ساعة من محطة المصنع المنسوب إلى مجدل عنجر على طريق العربات بين بيروت ودمشق. وتحدق بهذا السهل هياكل وثنية قديمة متفرعة عن هيكل بعلبك العظيم فإذا سرت من هذه المدينة المنسوبة إلى الشمس إلى الشمال الشرقي على عدوة واد عميق ترى أطلال هيكل عظيم هدمت جدرانه ونقلت إلى قرية نحلة القريبة منه فلم يبق إلا دكته وفي الجنوب الغربي على طريق بريتان[2] قبور وثنية وآثار قديمة. وعلى بعد منها في قرية سرعين التي اتخذها بنو المعلوف موطناً بعد تركهم لحوران أعمدة وطنوف (أفاريز) وسقوف بديعة من الطرز الأنطوني الروماني تدل على أنها كانت هيكلاً رومانياً وعلى بعد ساعة إلى الجنوب الغربي أيضاً على رأس تلة قائمة عليها قرية ماسة (ماسي) هيكل صغير تحول إلى كنيسة

---

[1] وقد دمرها بومبي الفاتح الروماني عند إيقاعه بالأيطوريين وأحرقها الصليبيون فخربت وفيها نشأ قديماً الفيلسوف يمبليخس شارح أفلاطون.

[2] يرجح أنها بيروتاي أو بيروتة التي ذكرها حزقيال 16:47 والملوك الثاني 8:8 وسميت باسم كون في الأيام الأولى 18:8 وقد استخرج منها النحاس في ذلك العهد وأحرقها أهل زحلة سنة 1855م أخذاً بثأر قتيل منهم.

وهناك حجر وضع في دعامة كتب عليه أن لنجينوس الكلشيسي شيد هذا الهيكل لزحل (ساترن) لأجل خلاص القيصر الذي يرجح أنه مرقس أوريل وهناك بناء للأنطونيين في رأس صخر يشرف على قرية كفر زبد. ثم هيكل مجدل عنجر وهو من الحجر السماقي إلى غير ذلك.

وإذا عدنا إلى أمام بعلبك نرى في قرية مجدلون الواقعة في السهل أعمدة وأسكفات باب (العتبات العليا) ذات نقوش ضخمة تدل على أنها بقايا هيكل تحول إلى كنيسة فجامع. ثم مسلة إيعات المعروفة عند العامة باسم القاموع وهي مركبة من ستة عشر حجراً في أعلاها تاج كورنثي وفي أسفلها قاعدة درجية مربعة ارتفاعها كلها عشرون متراً وفي نصفها أثر لوح كانت عليه كتابة فسقط ويرجح أنها أقيمت تذكاراً لانتصار وليس لها أخت سوى عمود الهرمل قرب مدينة حمص الذي عليه صور حيوانات وبعض وقائع صيد ونحوه وهو هرمي الشكل يقرب من تلك ارتفاعاً. وعلى مقربة منها إلى الغرب قصر البنات فوق قرية شليفة على صخر يشرف على السهل وهو هيكل روماني وبجانبه كنيسة. ثم هيكل اليمونة (سريانية بمعنى البحيرة) لعشتروت أو الزهرة قائم على ضفة بحيرتها البيضية الشكل التي يبلغ طولها ألف متر بعرض خمس مائة وفيها سمك لذيذ ومياهها من نبع الأربعين الدوري الذي ينصب فيها منحدراً من علو شاهق فيمثل شلالاً بديعاً وتجري مياه البحيرة في نفق تحت جبل المنيطرة إلى مغارة أفقة (بمعنى المخرج) حيث ينفجر من هناك نهر ابرهيم المعروف قديماً بنهر أدونيس (أي تموز)[ق] ويصب في البحر المتوسط. وحبذا لو تألفت شركة وطنية لجر مياه هذه البحيرة إلى ما يجاورها فتزيد الأرض خصباً وافراً.

ثم في سفح لبنان الغربي المشرف على هذا السهل قرية حوشبيه (لعلها حوش البك) على مقربة من قرية شمسطار وهناك أطلال هيكل لأصنام بعلبك لن يزال بعض أعمدته منقلباً على الحضيض وقنطرة رومانية كتب عليها ما معناه "للمشتري الصالح العظيم الهليوبولي (نسبة إلى هليوبول أي مدينة الشمس وهي بعلبك) كوينترس بربيوس روفوس" ومنها ينفجر ينبوع غزير وقد عثرت (المؤلف) فيها على حجر رخامي مربع عليه صورة مهشمة وكتابة رومانية. ثم بيت شاما وهناك

[ق] أو دوموزي السومري، حيث كان يموت سنوياً ويبعث مع الطبيعة كلها، وهو عشيق الإلهة عشتار. وقد تغلغلت عبادته لتشمل الأسطورة الفينيقية والإغريقية باسم أدونيس. وهو إله الخصب (المحقق).

آثار هيكل للآلهة شيما التي عبدها اللبنانيون في القرن الثاني والثالث للميلاد ومنها اشتق اسم القرية[1] ثم قصر نبا[2] وفيها هيكل روماني قديم. ثم نيحا (سريانية بمعنى المستريحة) وفيها هيكلان أحدهما على رابية فوق القرية يسمى بقلعة الحصن وهو أشبه بهيكل المشتري البعلبكي وعليه كتابات كثيرة والثاني في القرية قد تبعثرت حجارته بزلزلة ويقال أنه للإله السرياني هدرناس وفيه كتابة تفيد أن عذراء قد كرست ذاتها لهذا الإله. ثم الفرزل (لعلها من كلمة برزل الفينيقية وهي سريانية وكلتاهما بمعنى الحديد) وفوقها إلى الغرب الشمالي مغاور قديمة تسمى مغر الحبيس على بعضها القرش. وهناك آثار هيكل قديم أمامه مسلة مصرية الشكل على رأسها إكليل من الغار. ثم كرك نوح (لفظة سريانية بمعنى الحصن) وفيها قبر لهذا النبي طوله أربعين ذراعاً وكان حصناً رومانياً رممه الملك بيبرس البندقداري الذي ملك سنة 258م.

واشتهر كثير في هذه البقعة أشهرهم الإماء الأوزاعي أعلم أهل الشام في عصره. ولد في بعلبك سنة 88هـ ـــ 707م ونشأ في البقاع وتوفي في بيروت سنة 157هـ ـــ 774م، ومدفنه بقربها مشهور وهو ينسب إلى الأوزاع بطن ذي الكلاع من عرب اليمن. ومنهم جندل البقاعي[3] ومن المتأخرين عبد الكريم الطاراني المتوفى في دمشق سنة 1041هـ ـــ 1631م وهو شيعي (متوالي) أصله من قرية طارية (هي اليوم من قضاء بعلبك قرب شمسطار) وكان كاتباً شاعراً ومن شعره ما كتبه إلى شقيقه محمد الذي اشتهر بجودة خطه فقطع أحد حكام مصر يده لتقليده الطغراء (الطرة):

سلام كنشر الروض باكره القطرُ	على ساكني قلبي ومنزلهم مصر
سلام عليهم من كئيب متيم	توالى على خديه مدمعه الغمر
وبعد فإني يا أُخيّ لما جرى	أخو عبرة تنهل إذ فدح الأمر
ولم ينقطع ذكري لأيامنا التي	تقضت بأرض الشام وهي بكم غرّ

---

[1] ومثلها كفرشيما وبعلشميه في متن لبنان وشامات في بلاد جبيل وغيرها.

[2] ذكر كثير من المؤرخين أنه في سنة 820م أرسل والي حلب مشدأ على الجبل الأعلى فتعرض لبعض حريمهم فقتله رجل منهم يسمى نبا وفر بعياله إلى لبنان فبنى له قرية شرقي كسروان سميت قصر نبا واستوطنها وأنكر الأب لامنس اليسوعي هذه الأسطورة مثبتاً أنها سميت باسم الإله البابلي نبس وتوجد قرية في جبل سمعان غربي حلب اسمها كفرنبا أيضاً وهو أقرب إلى الحقيقة، ولعل منه اسم قرية نابيه في متن لبنان والله أعلم.

[3] تاريخ الأمير حيدر الشهابي صفحة 346 و350.

ويقسم هذا السهل اليوم إلى قضاءين أحدهما يعرف بقضاء بعلبك وفيه تسع وستون قرية مساحة أرضها أكثر من مليون دونم وعدد سكانه ثلاثة وثلاثون ألفاً نصفهم من الشيعيين والسنيين والأخر من الطوائف الثلاث المسيحية وقصبته مدينة بعلبك المشهورة وعدد سكانها نحو خمسة آلاف نفس ولها تاريخ خاص مفيد تأليف ميخائيل أفندي موسى الوف. والثاني يعرف بقضاء البقاع وعدد قراه نحو سبعين ومساحة أرضه نحو خمسمائة ألف دونم وعدد سكانه نحو سبعة وعشرين ألفاً وخمسمائة نفس معظمهم من المسلمين وقصبته معلقة زحلة وعدد سكانها نحو أربعة آلاف.

ويخترقه الخط الحديدي من المريجات إلى المعلقة فرياق حيث المحطة الكبرى ويتشعب منها خطان أحدهما إلى دمشق وهو ضيق والثاني إلى حماة فحلب وهو عريض وسيمد فيه خط جديد بعد حفر نفق من حمانا إلى قرب جديتة وهو عريض يتصل بخط حلب ممتداً من بيروت رأساً. ويخترق القضاءين نهر الليطاني الذي سماه العرب نهر ليطة ورجح الأب لامنس اليسوعي أنه محرف عن اللغة المصرية القديمة التي سمي البقاع بها باسم (رتنو) فيكون معناه نهر رتنو فأبدلت الراء تاء وطول مجراه مائة وخمسون كيلومتراً وقلما تستقي منه الأرض التي تجاوره.



القطف الخامس

في حالته الإدارية

تعاقب على هذا الجبل الفاتحون كما مر وكان نطاقه يتسع مرة ويضيق أخرى بحسب نفوذ كل منهم ولقد نقلت إليه العصبية التي كانت بين القيسيين واليمنيين[1] من بلاد العرب وحوران وحدثت بين حكامه وسكانه مواقع كثيرة

---

[1] وقعت هذه العصبية في الجاهلية بين قيس ويمن وكانا زعيمي قومهما فانحاز إلى كل منهما قبائل ثم امتدت بعد ذلك قروناً طويلة ومن أقدم ما يذكر من وقائعها العظيمة حادثة وقعت سنة 64هـ و683م بين مروان بن الحكم الأموي زعيم اليمنية والضحاك نائب عبد الله بن الزبير زعيم القيسية في مرج راهط بغوطة دمشق فظفر اليمانية ولا سيما بنو غسان النصارى وقتل الضحاك فبويع مروان. وكثر مثل هذه المواقع مثل فتنة سنة 75هـ و694م التي هاجت في دمشق بين المضرية واليمانية ورأس المضرية أبو الهيدام عامر المري وكان سببها قتل اليمانية رجلاً من القيسية فاجتمعوا لثأره وكان على دمشق عبد الصمد بن علي فجمع كبار العشائر ليصلحوا بينهم فأمهلتهم اليمانية وبيتوا المضرية فقتلوا منهم ثلاث مائة أو ضعفها فاستجاشوا بقبائل قضاعة وسليم فلم

كان النصر فيها يتراوح بين الخصمين وطالما دعت الحال إلى انقلاب بعضهم من حزب إلى آخر لأغراض في النفس تشفياً من خصومهم كما فعل محمود أبو هرموش سنة 1709م[2]. ولقد اشتد الخلاف بين الأميرين فخر الدين المعني القيسي وجمال الدين الأرسلاني اليمني نحو سنة 1517م وكثرت بعد ذلك الوقائع إلى أن انتهت بموقعة عين دارة (أي عين الحرب) سنة 1711م بزمن الأمير حيدر موسى الشهابي الحاكم فتغلب القيسيون على اليمنيين و لم تقم لهؤلاء قائمة بعد هذا وما طال الوقت حتى خلف هذا التحزب تحزب آخر عرف باليزبكي نسبة إلى يزبك جد الشيخ عبد السلام العماد زعيمه والجنبلاطي نسبة إلى الشيخ علي جنبلاط[ق] زعيمه الآخر بزمن ولاية الأمير ملحم الشهابي سنة 1729 ــ 1754، وامتد بين جميع اللبنانيين ولن يزال إلى عهدنا. وحدث مثله في أواخر القرن الثامن عشر بين بني المعلوف وبني مكارم[ق1] الدروز وسمي المعلوفي والمكارمي وكذلك في أواسط القرن التاسع عشر الماضي بين الأميرين بشير عساف وبشير أحمد اللمعيين وعرف بالعسافي والأحمدي ولكنه مات بموتهما.

ولقد خضع لبنان للفاتحين مراراً واستقل أخرى وتولى أمره المردة الذين احتلوا شماليه في القرن السابع للميلاد والأمراء التنوخيون الذين جاؤوا جنوبيه في

ينجدوهم وأنجدهم قيس وساروا معهم إلى البلقاء فقتلوا من اليمانية ثماني مائة وطال الحرب بينهم. ولقد كانت هذه الفتن سبباً لقيام الدولة العباسية وسقوط الأموية ومن أشهر وقائعهم في حوران فتنة سنة 1309م. وفي لبنان سنة 1534م بين مالك اليمني وهاشم العجمي القيسي شيخي العافورة فخربت وأقفرت إلى أن عاد اليمنية فجددوا بناءها والقيسية بقوا في طرابلس وسنة 1636 حدثت واقعة مرحاتا (أو مرحلاتا) فوق الشوبر في لبنان وسنة 1638م قتل الأمير علي بن علم الدين اليمني أحمد آغا الشمالي حاكم صيداء وبيروت في أرض خلده لانتصاره للقيسيين فترك القيسيون الشوف والمتن والغرب والجرد وسنة 1667 كانت موقعة برج الغلغول في بيروت فقتل من اليمنية المقدم عبد الله الصواف وانهزموا إلى بلاد الشام واستعاد الأمير أحمد المعني الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان وسنة 1681 سادت اليمنية بحكم الأمراء آل علم الدين وسنة 1693م تولى أحدهم الأمير موسى مقاطعات الأمير أحمد المعني السبع وهي الشوف والجرد والمتن والغرب وكسروان وإقليم جزين والخروب واستمال إليه كثيراً من القيسيين ولما انقرض المعنيون سنة 1697 ساد اليمنيون وعزوا واضطهدوا بني قيس وكثيراً ما كان الحكام يقووهم مثلما فعل بشير باشا حاكم صيدا سنة 1708م وانتهت هذه التحزبات بموقعة عين دارة ومن الأمثال المشهورة: أذل من قيس بحمص.

[2] تاريخ الأمير حيدر الشهابي صفحة 751.

[ق] آل جنبلاط يتسلمون زعامة دروز لبنان إلى اليوم. يعيش معظمهم في الشوف، ومقرهم المختارة وفيها قصرهم حتى يومنا هذا. ومن مشاهيرهم المرحوم كمال جنبلاط العلامة والسياسي والزاهد الإنسان (المحقق).

[ق1] وهي عائلة كبيرة في لبنان. ويوجد منها في السويداء في سورية اليوم. اشتهر منها نسيب مكارم والباحث التاريخي سامي مكارم (المحقق).

القرن الثامن ثم تعاقب عليه الأمراء المعنيون فآل علم الدين اليمنيون فبنو سيفا الأكراد وبنو عساف التركمان ولكن أشهرهم المعنيون[1] الذين احتلوه سنة 1120م وبقي جدهم معن أميراً فيه نحو ثلاثين سنة ومن سلالته فخر الدين الأول الذي كسف شمس آل تنوخ وفوض إليه السلطان سليم فاتح سورية جميع أمور الشام ثم فخر الدين الثاني الذي ولد سنة 1583م وتولى لبنان ثم سافر إلى توسكانا[2] وبقي فيها خمس سنوات إلى أن عاد سنة 1617م وتولى الحكم حتى قتل سنة 1635م وآخرهم الأمير أحمد المتوفى سنة 1697م بلا عقب وبه انقطعت سلالتهم وكان لبني المعلوف عندهم منزلة كما تشهد الأوراق الباقية في أيدينا من آخرهم هذا رغماً عن أنهم كانوا يخالفوهم في العصبية لأن المعنيين كانوا قيسيين وبنو المعلوف يمنيين. وقد خلفهم الشهابيون من سنة 1697 ــ 1842م وأشهرهم الأمير بشير الثاني المالطي ولد سنة 1768م وتوفي في الأستانة العلية سنة 1851م ونصبت الدولة عمر باشا النمسوي (ولد سنة 1809 وتوفي سنة 1871م) في 15 كانون الثاني سنة 1842م فاتخذ بيت الدين مقر حكومته ثم لم تطل إقامته فيه لأن الدولة العلية منحت هذا الجبل امتيازات معلومة بالنظام المعروف بترتيبات شكيب أفندي ناظر الخارجية وقسمته إلى مقاطعتين نحو سنة 1843م مقاطعة طرابلس ومقاطعة صيدا تفصل بينهما طريق الشام وتعرفان بقائمية مقام النصارى وهي الشمالية امتدت من نهر البارد في عكار على طريق دمشق مع بعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤونها الأمير حيدر اسمعيل اللمعي (ولد سنة 1787 وتوفي سنة 1854م) وقائمية مقام الدروز وهي الجنوبية من طريق الشام إلى منتهى حدود جبل الريحان مع قرى إقليم التفاح وبعض قرى في ساحل بيروت وتولى شؤونها الأمير أحمد عباس الأرسلاني أما قصبة دير التمر فكان يتولى شؤونها رجل من قبل والي إيالة صيداء. وكانت قائمية مقام النصارى مؤلفة من المتن وكسروان والبترون والكورة وزحلة ومركزها في هذا العهد في بكفيا وبيروت وبمدة خلفه الأمير بشير أحمد اللمعي (ولد سنة 1800 وحكم سنة 1854 ــ

[1] كانت مواطن ربيعة في نجد وديار ربيعة فنشأ بينهم رجل يسمى بأيوب وعظم أمره فأخرجوه من بينهم حسداً فرحل ونزل الجزيرة (بين النهرين) فسمي نسله العرب الأيوبية ونشأ من سلالته ربيعة فانتقل إلى الديار الحلبية ومات فيها واشتهر ولده معن جد هؤلاء الأمراء الذي قدم سهل البقاع بزمن طغتكين صاحب دمشق ونال لديه منزلة عظيمة فأذن له أن يحتل بقومه مشارف لبنان لرد غارات الإفرنج الصليبيين فنزل بهم في صحراء بعقلين ونسب إليهم جبل الشوف فقيل له جبل بني معن.

[2] هي اليوم من مملكة إيطاليا وكانت بذلك الزمن من مقاطعات فرنسة كما يظهر من تواريخ لبنان.

1860 وتوفي سنة 1872 في برمانا). وقائمية مقام الدروز تشمل قضائي الشوف وجزين وقسماً من غربي البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخلة اليوم في قضاء المتن ومقرها في الشويفات.

وإليك بيان تشكيل هيأة حكومة كل من قائمي المقام المومأ إليهما قائم المقام. وكيل قائم المقام. قاض ومستشار من الإسلام. قاض ومستشار من الدروز. قاض ومستشار من الموارنة. قاض ومستشار من الروم الأرثوذكس. قاض ومستشار من الروم الكاثوليك. مستشار واحد للمتاولة لأن قاضي المسلمين ينظر في قضاياهم. وينتخب المطارنة وشيوخ العقل[ق] هؤلاء القضاة والمستشارين بحسب الشروط المذكورة في الترتيبات المشار إليها ومن وظائف كل من المجلسين النظر في المسائل الإدارية وما يعرضه عليه قائم مقامه والحكم في الدعاوى الحقوقية والجزائية المحالة إليه وعلى قائم المقام إجراء القرارات الإدارية وتنفيذ الأحكام الصادرة من المجلس في الدعاوى الحقوقية والجزائية إلا ما يفوق سلطته منها فإنه يرفع أوراق المحاكمة إلى مشير البلاد (مشير ولاية صيدا[1]) الذي بعد أن يدقق النظر في الدعوى يأمر بما يجب إجراؤه ورتب كل قائمية مقام قوة إجرائية (ضابطة) مؤلفة من مئتيّ سواري (خيال) ومائتيّ بيادة (مشاة) ولكل فصيلة منها رئيس (بكباشي) وجعل لقائم المقام راتباً قدره 16000 ألف غرش عن كل شهر ولنائبه 600 غرش ولكل عضو 500 غرش ولكل كاتب 450 قرشاً ولأمين الصندوق 450 قرشاً مع إبقاء بعض امتيازات للإقطاعيين في مقاطعاتهم وتخويلهم ملاحظة أمور توزيع المرتبات الميرية في القرى التابعة لهم وجعل جبايتها بواسطة شيوخ كل طائفة في كل قرية تحت نظارتهم.

وتسهيلاً للأعمال أقيم حاكم شرعي في كسروان لفصل جميع الدعاوى الحقوقية التي يحيلها إليه قائم المقام. وحاكم آخر شرعي في الشوف وفرض على لبنان في كل سنة جزية وخراجاً ثلاثة آلاف وخمس مئة كيس (الكيس خمس مائة غرش) بوجه المقطوع تحصل بواسطة الجباة والإقطاعيين عدا مال النهر أي رسم المطاحن ومال أعناق العرب والنور. فكان على قائمية مقام النصارى نحو ألفي

[ق] شيوخ العقل وهم بمثابة مدبري شؤون طائفتهم. والمشهور الآن أن مشايخ العقل يقومون بإدارة الأمور الدينية والدنيوية (المحقق).

[1] كان فصل دعاوى الجزائية أولاً منوطاً بمجلس ولاية صيدا الذي نقل بعد سنة 1840 إلى بيروت.

كيس وعلى قسم معها ألف وخمس مائة ومرجع قائمقامي المقام إلى والي صيدا وإلى خزينته يعود الباقي من مال لبنان.

وقد ألغيتا بعد سنة 1860 ووكل أمر القسم الجنوبي إلى مديرين عسكريين والشمالي إلى يوسف بك كرم بإدارة فؤاد باشا المفوض السلطاني (1814 ـ 1869) الذي عقد مؤتمراً برئاسته في بيروت في الخامس من كانون الأول سنة 1860 مع كل من اللورد دوفون وكيل إنكلترا والمسيو بكلار وكيل فرنسة وفيكوف وكيل روسية ووكبكر وكيل النمسة ورهفوس وكيل بروسية فعقد هذا المؤتمر 25 جلسة مدة خمسة أشهر وفض في الخامس من آذار سنة 1861 بعد أن أجمعت آراء أعضائه على وضع نظام لبنان المشهور بمصادقة الدولة العلية أيدها الله فتنظمت المتصرفية وتولى شؤونها أولاً داود باشا من سنة 1861 ـ 1868 ثم فرنكو باشا إلى سنة 1873 ورستم باشا إلى سنة 1883 وواصه باشا إلى سنة 1892 وحضرة صاحب الدولة نعوم باشا مستشار نظارة الخارجية الجليلة الآن إلى سنة 1902 فصاحب الدولة مظفر باشا المتصرف الحالي الذي انتخب في 27 أيلول سنة 1902 فأداروا شؤونه وسعوا في ترقيته وفقاً لنيات الدولة العلية.

وفي لبنان الآن سبعة أقضية (قائميات مقام) وهي المتن والشوف وجزين وزحلة وكسروان والبترون والطورة وفيها 45 ناحية أو مديرية عدد قراها 931. أما مديرية دير القمر التي يتبعها خمس قرى فملحقة رأساً بالمتصرفية. ولحكومته قصران (سرايان) أحدهما شتائي في بعبدا والثاني اصطيافي في بيت الدين ولها مطبعة. ولدولة المتصرف راتب سنوي مائتان وأربعون ألف قرش في السنة وكان أكثر من هذا قبل زمن رستم باشا فأنزل إلى هذا القدر وأنزل من رواتب المأمورين وأبطل ما كانت تدفعه الخزينة العامرة نفقات على عساكر لبنان قيمة سبعة عشر ألفاً وخمسمائة ليرة عثمانية.

وبما أن المال المفروض عليه جزية وخراجاً قد أبلغ بحسب نظامه الأخير[1] الصادر في 14 ربيع الآخر سنة 1281 إلى سبعة آلاف كيس (3500000 قرش صاغاً) ففي سنة 1280هـ تم عد ذكوره من كبير وصغير ومسحت أملاكه ووزع هذا على الذكور والأراضي فأصاب كل ذكر ثمانية قروش وثلاثون بارة وكل درهم

---

[1] أن النظام المومأ إليه قد ألغى امتيازات الأعيان والإقطاعيين (المادة الخامسة).

مساحة 21 قرشاً وإليك جدولاً يوضح عدد ذكور[2] أهالي الجبل المذكور ومساحة أراضيه إجمالياً وما خص كل طائفة من طوائفه من الأملاك وكمية عدد ذكورهـا حسبما كان في السنة (1280هـ) المار ذكرها:

بارة	إجمال	بارة	عن الأملاك	حبة	ق	درهم	بارة	عن الأعناق	ذكور كل طائفة
20	0202968		0173271			008251	20	029697	03394 مسلمون
	1847055		1344630			064030		502425	57420 موارنة
	0727515		0618429			029449		109086	12467 دروز
	0408632		0290052			013812		118580	13552 أرثوذكس
30	0208853		0133455			006355	30	075398	08617 كاثوليك
	0096516		0059661			002841		036855	4212 متاولة
30	000845	30	0009654	7	4	000331		001505	172 بروتستانت وأرمن و..
	3500000	30	2626452	7	4	125069	10	873547	99834

فهذا المبلغ يجبى كل سنة بواسطة شيوخ القرى ومختاريـها[3] ويـؤدى إلى صندوق المتصرفية المالي ومنه تدفع رواتب المأمورين ولهذا الصندوق موارد ماليـة أخرى سنوية منها مبلغ 3870000 قرش صاغاً تقريباً بدلات حاصلات الأراضـي الميرية ومبالغ أخرى من رسوم المحاكم ومحرري المقـاولات ورسـوم العربـات وعجلات النقل والتعداد لا يمكن معرفتها تماماً ولكنها تعدل بثلاثة عشر ألف لـيرة عثمانية وفيه ألف جندي بإدارة أميرالاي لبناني منهم ثمانون فارساً (سوازي) وستة وثلاثون نفراً لإدارة الموسيقى وإثنان من البكباشـية وكثـير مـن القولوغاسـية واليوزباشية والضباط على اختلاف طبقاتهم. وفي بيت الدين فرقة من المحـافظين

[2] مجلة الحقيقة (1:292).

[3] إن أهالي كل قصبة أو قرية في الجبل هم مستقلون بتوزيع مال الأعناق المفروض عليهم بينهم ففـي شـهر حزيران من كل سنة يوزعونه على كل ذكر منهم لا يقل عمره عن خمس عشرة سنة ولا يزيد عن السـبعين ويستثنون منهم من أصيب بمرض أقعده عن العمل ومن كان بحالة الفقر المدقع.

(الدراغون) لها أميرالاي بإدارة حكومة لبنان. وفيه نحو ألف كيلومتر من طرق العجلات وسبعون كيلومتراً من السكة الحديدية منها خمسون من طريق بيروت ودمشق وعشرون من تراموای شمالي لبنان المؤسس سنة 1898م إلى غير ذلك مما هو مشهور.



القطف السادس

في موقعه الصحي وغاباته

إن موقع لبنان الطبيعي يأخذ بمجامع القلوب ففيه عدا ما وصفناه الآثار القديمة والهياكل الوثنية والمسيحية ولطالما عبد الفينيقيون بعل[ق] مرقد (إله الرقص) في هيكل بيت مري المعروف بدير القلعة، والجبيليون الزهرة في أفقة والرومانيون المشتري في بعلبك. وبقي فيه الدين الآرامي والفينيقي إلى أن بدأت شمسه تغيب أمام شمس النصرانية في أوائل القرن الثالث للميلاد ثم توارت عن عالم الوجود في الرابع منه فحولت تلك الهياكل الوثنية إلى معابد وأديار ومناسك تكلل سفوحه ومنحدراته.

ولو زاد اعتناء الأهلين به لاستثمروا منه أرباحاً طائلة لأن حسن موقعه وبديع آثاره وقديم هياكله وطيب هوائه جميعها تستقدم إليه السياح وتستلفت الأبصار من سحيق الأقطار فهو للمصريين والسوريين أشبه بسويسرة للأوروبيين. وقدر بعضهم أن إيطالية تربح سنوياً نحو ثلاثة عشر مليون ليرة إنكليزية. ومصر نحو مليونين ممن يتقاطرون إلى مشاهدة آثارهما القديمة. وسويسرة نحو خمسة عشر مليوناً ممن يقصدها للتمتع بمشاهدها الطبيعية وحسن عمرانها والاستشفاء بهوائها من المصطافين الذين بلغ عددهم سنة 1906 نحو خمسة عشر ألفاً معظمهم من المصريين، ولكن لبنان يربح نزراً من تلك القيم الوافرة وقلما تكثر فيه الأمراض الوبائية، ولا سيما الهواء الأصفر لأن الدكتور كوخ يقول إن جرثومة هذا الداء لا تعيش تحت الدرجة 17 من الحرارة في الميزان المئوي (سنتكراد) وقلما ترتفع في أعالي لبنان إلى هذا القدر في معظم الحر فضلاً عن أن كثرة أشجاره ولا سيما الصغيرة الورق كالصنوبر وغيره تضعف نمو الجراثيم (المكروبات) ولقد كثرت فيه

[ق] إله الخصب عند الفينيقيين (المحقق).

الهياكل لآلهة الصحة مثل هيكل اسكولاب في دومة البترون التي سكنها بنو المعلوف بعد مزايلتهم لحوران ونزولهم في سرعين (البقاع) كما مرّ.

ولبنان اشتهر في القديم بغاباته التي وصفها القديس هيرونيم بقوله: ليس في أرض الموعد أكثر ارتفاعاً وأوفر غابات وأكثف ظلالاً من لبنان. وكفى بما قطعه حيرام ملك صور لهيكل سليمان دليلاً على وفرتها ولقد اعتنى الرومان بتكثيرها ولذلك تجد كتابات كثيرة في أعالي الجبال وسفوحها تدل على أن الحكومة كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لخزينتها هي السرو والعرعر والأرز والصنوبر[1] والباقي تسمح بقطعه وغرس غيره محله، ولهذا ترى بقية هذه الأشجار ولا سيما الأرز أكثر من غيرها و لم تفقد تلك الغابات الغبياء إلا في القرن الرابع عشر إذ كثر السكان فاحتاجوا إلى الاحتطاب وتكثير أغراس التوت والكرم للاستثمار ثم كثرت حاجاتهم فقلت الأشجار وكادت تضمحل.

فلبنان إذن في حاجة إلى تكثير غاباته لتزداد ينابيعه غزارة إذ لا يخفى أن الأمطار المتساقطة على الأرض التي تظللها الأشجار لا يسيل منها سوى ستة أعشارها والباقي تتشربه وتخزنه في بطنها. ولذلك كان أشبه بحوض للمياه تترشح منه إلى جهات كثيرة فتروي غليلها ولقد يحول دون ذلك بعض طبقاته فيحجزها عن الاندفاق كما نرى في جهات البترون وغرب الشوف وما أحسن قول الأب لامنس اليسوعي: إن الأنهار اللبنانية تشبه أجهزة عصبية قليلة الاشتباك تجمع كما في قناة مركزية الرطوبة التي تأتيها بها في فصول الشتاء الجداول الصغيرة الواقعة على جانبيها اهـ. وهناك ينابيع دورية كنبع الأربعين في اليمونة ونبع عين الجر وكلاهما في بعلبك والبقاع ونبع أنطلياس والديشونية في المتن وعرمتى في جبل الريحان (جزين). ويوجد في سورية من هذه الينابيع فوار السبتي قرب دير القديس جاورجيوس الحميراء وستي مريم في القدس وغيرهما.

ومما يدل على قلة المياه والمطر في لبنان وجود بعض الجسور القديمة التي لا تمر تحتها المياه لقلة الغابات. ومن فوائد الأشجار اعتدال الفصول بحيث يكون الصيف بليل الهواء لطيف الحرارة قليل الجفاف والشتاء غزير المطر معتدل الوقت والربيع بديع المنظر والخريف وافر الأثمار. فلا تجتاح إذ ذاك الأمطار الغزيرة الأرض ولا تجرف تربتها إلى الأنهار ولا تخرب السواحل ولا تترك أخاديد ومذابح بل لا تحتلج

---

[1] يترجح أن هذا الاحتكار كان لاتخاذ السفن من أخشاب هذه الأشجار المشهورة بصابتها أو لتخصيصها بعبادة عشتروت أو الزهرة التي كانت شائعة بين السوريين.

التربة إلى مطر يرويها كان يترل رذاذاً فلا ينقع لها أصنافاً فأصبح ينهمر بأوقات متباينة قائماً بحاجاتها منه بعد كثرة الأشجار.

ومنها تحسين الصحة عملاً بالقول المأثور "حيثما لا شجر لا بشر" لأن أوراق الأشجار تكيف الهواء وتطلف حرارته وتمتص الغازات الفاسدة منه وتجعله مفيداً نقياً يصلح للاستنشاق وتمنع انتشار المواد العفينة ولا سيما إذا كانت صغيرة رقيقة كورق الصنوبر ونحوه وجذورها (عروقها) تمتص رطوبة سطح الأرض فتسلل المستنقعات وتسهل جريان المياه في الطبقات الأرضية وتمنع جرف السيول للأتربة ولقد راقب بعضهم أن سكان ثلاثين مقاطعة في فرنسة نقصوا (89) ألفاً بخمس سنين لاستئصال الأشجار منها.

ومنها حفظ الأرض والزرع بمنع حمارة القيظ عنهما ودفع أضرار الصقيع والرياح واستضان النباتات اللطيفة بأجنحتها الظليلة. ومن علم ما سببه الشجر الذي كثر غرسه في القطر المصري مؤخراً من استترال المطر بعد أن كان نادراً إن لم يكن مستحيلاً وتعديل الهواء وتلطيف الحر لا ينكر هذه الفائدة. ومن أهم تلك الفوائد للسكان كثرة الحطب والخشب فيستثمرون منهما ثروة طائلة. أما الأرز فهو مشهور منذ القديم وأعظمه غابة في قرية بشرّاي على علو 1925 متراً في سفح جبل ضهر القضيب عدد أشجارها نحو 397 وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر متراً. وارتفاع أطولهمات خمسة وعشرون متراً. ومن خصائص الأرز أنه لا يكاد ينبت في موضع أقل ارتفاعاً من سبع مئة متر. وقد اشتغل ألوف في قطعه لهيكل سليمان. ويكثر فيه شجر التوت ومن أهم حاصلاته الحرير وكان سنة 1893 ما استثمر السكان من فيالجه (شرانقه) مليونين ونصف مليون اقة وفيه من ثمانية آلاف إلى تسعة آلاف دولاب لحله على الطريقة الإفرنجية. وجاء في الليفانت هرالد سنة 1906 أن في لبنان مئة وخمسين معملاً للحرير لها خمسة آلاف ومئتا دولاب، ونظنه قليلاً.



القطف السابع

في مدينة زحلة

من مدن لبنان القديمة مدينة بيروت (بمعنى الآبار) مرضعة الفقه والحكمة في زمن الرومانيين وصور وصيداء سيدتا البحار ومركز تجارة الشرق والغرب في زمن الفينيقيين. وعكاء عاصمة الفلسطينيين. وجبيل كعبة الفينيقيين الوثنيين. وبرجا

معمل السفن الفينيقية وغيرها. وعلى أنقاض هذه المدن القديمة قامت مدن حديثة عامرة[1] نجتزئ الآن عن وصفها بالإشارة إلى تاريخ مدينة زحلة أكبر قرى متصرفية لبنان وأعمرها وأرقاها:

يرجح أن اسم زحلة هو من زحل الشيء عن موضعه إذا تباعد وتنحى لأن أرضها تزحل من جهتها الشرقية حتى اليوم وإن صح ما يروى أنها سميت بزحل الذي كان له فيها هيكل فالأظهر أن موقعه كان على تلة المشيرفة في غربيها وهناك آثار سور وأبنية قد نقلت حجارتها إلى المدينة منذ القديم. وهي قائمة على سفح جبل الكنيسة من لبنان الغربي تعلو عن البحر أكثر من ألف متر وتشبه مدينة بيلان (في شمالي سورية) بمناظرها ومناعتها[2] مبنية في واد بديع أشبه بالحنجرة في مضيقيه الشرقي والغربي أو كالرمانة المفلوقة يتخللها نهر البَردوني (بمعنى البارد) من الغرب إلى الشرق جارياً من أعطاف قرية قاع الريم (من أعمال المتن) على بعد كيلومترين فيترقرق على حصى كالبلور وينساب إلى مسافة أربعة وعشرين كيلومتراً فيصب في نهر الليطاني قرب المرج إلى جنوبي برّ الياس في البقاع. وهو يقسم المدينة إلى قسمين الجنوبي منها أكثر عمراناً من الشمالي وهذا أحدث أبنية من ذاك وعلى ضفتيه الأشجار المتمايلة بقدودها الممشوقة ومعظمها من الحور وفي غربيها متنزهات الصفة من أبدع المواقع الطبيعية يختلف إليها الناس صيفاً فيروحون النفس وحول هذه الحدائق النضرة طريق عربات يحدق بها ويتصل بجسور فيمثل أشكالاً هندسية تأخذ بمجامع القلوب وعلى موازاته قناة للمياه الجارية إلى المطاحن تسميها العامة السكر وفي المدينة بعض ينابيع عذبة باردة.

وتربتها بيضاء كلسية وصخورها متفتتة وطبقاتها الأرضية متزحزحة بعضها أفقي والآخر عمودي وقلما ينتفع بها، فلذلك كانت أبنيتها القديمة جميعها من اللبن المجفف بالشمس أما الأبنية الحديثة فمعظمها من الحجارة التي تحمل من مقاطع (مقالع) في مشارف المدينة إلى جهة صنين. وهواؤها جاف مقوّ للأبدان لا يكاد

---

[1] من أهم آثار جبل لبنان الغربي الباقية إلى الآن قلعة فقرة الفينيقية قرب الجسر الحجري ونبع اللبن في صرود (جرود) كسروان واقعة على ربوة تعلو عن سطح البحر ألفاً وست مائة متر. وأخربة عين عقريم المعروفة بالناووس قرب كوسية من الكورة وهيكل بزبزة (منحوتة من بيت عزيز وهو إله سامي من المعبودات الشمسية) على مقربة منها. وأطلال دير القلعة لبعل مرقد الفينيقي (ومعناه إله الرقص) قرب بيت مري في المتن. وغينة والمشتقة وهيكل الزهرة في أفقة وجميعها في كسروان وكثير غيرها.

[2] مجلة الطبيب سنة 1884 ــ 1885 صفحة 228.

يماثله بجودته من المدن الكبيرة إلا هواء دمشق والقاهرة. ووضع أبنيتها مرتفعاً بعضها فوق بعض بانحدار قليل يساعد على حفظه نقياً لأن هواء المدن إذا كان على ارتفاع خمس وعشرين قدماً عن أسواقها يفيد الصحة ويخلو من الشوائب التي تكدره. وقد يكثر فيها الحر في بعض أشهر الصيف لانعكاس النور عن تربتها البيضاء ولإحداق التلال بها كأنها سور منيع ومع ذلك فقلما يتجاوز الميزان المئوي (سنتكراد) خمس وعشرين درجة ويشتد البرد في بعض أشهر الشتاء لقربها من جبل صنين حيث تكثر الثلوج وقلما تتجاوز الدرجة ما تحت الصفر فمعدلها في الصيف ثمان وعشرين درجة وفي الشتاء ثماني درجات.

وسكانها أقوياء البنية اشداء أذكيار لهم جلد على الأسفار وبراعة في التجارة وإقدام على تحمل النشاط ولهم في البسالة ذكر طائر ومنهم نبغ رؤساء الأساقفة والأساقفة والكهنة والأطباء والوجهاء وأرباب الأقلام والخطباء والشعراء وهم يرجعون إلى أصول يمكن حصرها باللبنانيين ومعظمهم من قضاء المتن ومنهم بنو المعلوف الكثيرو العدد وبالبعلبكيين من بعلبك وضواحيها وبالراسيين من رأس بعلبك وضواحيها وبالتيميين من وادي التيم[1] ويعرفون بالضحامرة نسبة إلى الضهر الأحمر. وفي إحدى قراه التي قدموا منها وغيرهم من جهات كثيرة. ومعظمهم من الروم الكاثوليكيين فالأرثوكسيين فالموارنة وبينهم السريان الكاثوليكيون والبروتستنت ونفر من الإسلام وكانوا قبل سنة 1860 لا يتجاوزون عشرة آلاف نسمة وصاروا سنة 1887 ثمانية عشر ألفاً واليوم نحو 35 ألفاً منهم نحو 16 ألفاً في ديار الغربة ومساحة عقاراتهم 2400 درهم وبيوتهم ثلاثة آلاف وخمس مئة.

وكانت المدينة كثيرة الغابات فاحترق معظمها سنة 1777 و1797 لما اندلع فيها لسان اللهيب بمهاجمة الأكراد لها. وفي منتصف القسم الأول من القرن التاسع عشر الماضي قلت الأشجار القديمة وكثر فيها الحور الذي تستثمر منه في السنة ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ليرة. والتوت ومعظمه في البساتين قرب مرج عرجموش (الفيضة) وتقدر حاصلات الفيالج (الشرانق) السنوية بقيمة خمسة وثلاثين ألف اقة وقد تصل إلى خمسين ألف. والكرم المشهور عنبه ولا سيما

[1] ينسب إلى تيم الله بن ثعلبة وموقعه في المنخفض الغربي من جبل الشيخ تفصله عن وادي الليطاني الأعلى سلسلة تلال تمتد شمالاً إلى عين الجر وهو خصيب رائع التربة غزير المياه وعلى تلاله قرى عديدة وهو قسمان الأعلى وقاعدته راشيا (سريانية بمعنى الرؤوس). والأسفل وقاعدته حاصبيا (سريانية بمعنى الجرار).

التفيفيحي والعبيدي فيعصر منه عرق من ألف وخمس مئة قنطار إلى أكثر من ألفين وله نحو خمسين معملاً. ويصدر منها ومن جوارها ثلاث مئة ألف قنطار عنب إلى خمس مئة ألف وكان يبلغ صادر الزبيب نحو عشرة آلاف قنطار ولكنه قل اليوم لقلة طلبه وأفضله الدوبلي الذي يبلغ ثمن رطله عشرة غروش.

وفيها مقام لأسقفيتي الروم الكاثوليكيين والأرثوذكسيين ولوكلاء أساقفة الموارنة السريان الكاثوليكيين والرسالة الأميركانية واثنتا عشرة كنيسة للكاثوليكيين واثنتان للأرثوذكسيين ومثلهما للموارنة وكنيسة ودير للآباء اليسوعيين وكنيسة للأمركانيين وشرع السريان الكاثوليكيين بتشييد كنيسة لهم وفيها دير القديس الياس الطوق[1] للرهبنة الباسيلية القانونية البلدية المعروفة بالحناوية والشويرية والمدرسة الشرقية لهم ونحو خمس وعشرين مدرسة ابتدائية لجميع الطرائد[2] ومدرسة داخلية للإناث بإدارة راهبات قلب يسوع ومطبعة المدرسة الشرقية وجريدة المهذب[3] التي تطبع فيها أيضاً. وغرف قراءة للأميركان ومكتبة التقدم و ثلاث جمعيات خيرية للكاثوليكيين واثنتان للأرثوذكسيين ومثلهما للموارنة وواحدة للأميركان وأخريات للطوائف الكاثوليكية، وحمام وسبع صيدليات ونحو اثني عشر طبيباً صحياً وخمسة أطباء أسنان ونحو أربعين عربة. وكثير من صيادي السمك.

---

(1) اشترت الرهبنة بتاريخ 1168هـ ــ 1754م من الأمراء فارس وأحمد ومنصور مراد المسبيين من الشمالية في المتن محلة الطوق التابعة لحزرته (قرية على ضفة البردوني الجنوبية بين وادي العرايش وقاع الريم وسكانها شيعيون تتبع المتن الأعلى) وفرض الأمراء على من يسكن ذلك المحل أن يدفع لهم ثلاثة غروش إلا ربعاً (محضو) والأجير والمكاري لا يدفعون شيئاً وتسميته بالطوق مر ذكرها في الحاشية صفحة 95. وقد تم بناء هذا الدير سنة 1773م وشيدت أبنيته الحديثة على طراز جديد سنة 1903م.

(2) أسست فيها مدرستان داخليتان لم يطل عهدهما إحداهما لمرسلي الأميركان أنشئت سنة 1881م بعناية القس دال الأميركاني والثانية للأرثوذكس سنة 1891م بعناية أسقفها السابق جراسيموس يارد.

(3) أنشأ هذه الجريدة مؤلف هذا التاريخ لطلبة آداب اللغة العربية في المدرسة الشرقية (وكان مدرساً منذ إنشائها سنة 1898 لصفوف العربية العليا وللرياضية والإنكليزية) تمريناً لهم على صناعتي النظم والنثر سنة 1901م وطبعت على الهلام (الجلاتين) إلى أن رخصت الحكومة السنية بإنشائها مطبوعة فتولى تحريرها في أول سنة 1907م ونشر فيها قسماً من تاريخ زحلة ثم اختصره بهذا الكتاب مستنداً في روايته على ما كتبه الطيب الذكر المطران غريغوريوس عطا من مشاهير أساقفتها وعلى مخطوطات وتعاليق وروايات صحيحة راجع المهذب السنة الأولى صفحة 3.

وفيها صناعات متقنة[1] فللصياغة عشرون معملاً وللحدادة نحـــو ثلاثــين وللقيانة (تصليح الأسلحة ونحوها) عشرة وللخياطة الإفرنجية عشـــرون والعربيـــة المزركشة خمسة عشر وللدباغة ستون وللبد (اللباد) الصوفي خمســـة وعشـــرون ومعامل أخر للأحذية ولنسج الديما (مقتطعة من ديماسكو) والعبـــاءات والمقـــارم (شراشف النوم) والواديات (البسط الصوفية) والبلس (البسط الشعرية) [وتصنـــع من شعر الماعز (ق)] والعدل والمخالي والخروج والشروج والأكافات (الجـلالات) وللنحاس والنجارة الإفرنجية والعربية والبيطرة والبناء والنحاتة والساعات والتصوير الشمسي. وفيها نحو خمس عشرة مطحنة مائية[2] من حجر إلى ثلاثة ونحو عشـــرة أنزال (لوكندات) وخمسة وعشرون خاناً ومستشفى العائلة المقدسة التي وضعـــت أساساته على سفح تل شيحا الغربي جمعية المحبة الكاثوليكيـــة بعنايـــة مؤسســـيها ورئيسها ورئيس المستشفى أيضاً جرجس أفندي الخوري المعلوف ســـنة 1906. وفي هذه السنة (1907م) شرع المفوض البلدي بجر المياه إليها من نبع الزويتينـــة قبالـــة وادي العرايش وفيه أكثر من ألف وخمس مئة متر ماء وبوشر بأخذ امتياز لتنويرهـا بالكهربائية إلى غير ذلك مما يدل على ارتقائها في معارج الفلاح بظـــل الحكومـــة السنية.

أما تجارتها فأقدمها بيع الحنطة والحبوب بدأوا بها نحو ســـنة 1794م وكـــانوا يجلبونها من حوران وحمص وجبل القلمون (بلاد الشرق). وسنة 1843م فتحـــت أبوابها التجارية بزمن ولاية عمر باشا النمسوي وتجارها اليوم نحو خمسين ويـرد إلى المدينة كل سنة من ثلاث مئة إلى أربع مئة ألف مد من جميع الحبوب منـــها نحـــو

---

[1] من أقدمها النسج وكان فيها أكثر من ألف منوال (نول) لنسج الخام ومنه ما يعرف بخام تسع عدات وهـــو نظيف صفيق يشبه بعد صبغه الكرمسوت اتخذوه من القطن الذي كانوا يجلبونه من جهات نابلس وحـــوران وحماة وكان جد بني الطباع الذي قدم من ديار بكر يطبع هذه المنسوجات وكانت النساء تزركشها بخيـــوط حريرية ملونة وفي سنة 1825م قلت هذه الصناعة وانقرضت سنة 1831م لما ورد الخام من أوربـــة. ومنـــها صناعة الأجراس التي نسب إليها بنو الجرساتي في المدينة وبعضهم اليوم من أشهر حداديـــها. ومنـــها صناعـــة الدواليب وإليها نسب بنو الدواليبي وهم اليوم من أشهر صاغتها.

[2] أول من اتخذ المطاحن المائية بليساريوس سنة 550م ثم عرفت المطاحن الهوائية ســـنة 1299م في المشـــرق ونقلها الصليبيون إلى المغرب. وأول مطحنة مائية في المدينة بناها الأمير مراد اللمعي لأنه جاء زحلة مصطاداً بباز طارد طيراً ووقع في الجدّاد (الهيش) تحت عين الدوق فأمر بحرق الأشجار المشتبكة فوجـــد البـــازي في كـــوة مطحنة قديمة فرممها ونسبت إليه إلى اليوم وذلك سنة 1760م. وسنة 1765م اشترى رهبان دير الطوق منـــه مجرى ساقية ماء الكرك. وسنة 1772م سمح لهم الأمير سلمان اللمعي بتشييد مطحنة على البردوني كما يظـــهر من صكوك الدير المحفوظة. ثم بنى نجم المعلوف مطحنة تحت البيادر في الضفة الجنوبية على شاطئ النهر فنسبـــت إليه هي والعين التي بقربها إلى اليوم.

ثلاث مئة ألف مد حنطة ومما يستحق الذكر أن مخايل المعلوف المشهور بأبي علي كفى مدينة دمشق حنطة لما حدث فيها الغلاء المشهور وارتفع ثمن المد إلى 33 غرشاً وذلك بشراكة ابن أخيه عزتلو نعمان بك المعلوف سنة 1873م. ثم تجارة الغنم والصوف وعدد الذين يتجرون بها من خمسين إلى ستين ويمر فيها كل سنة من مائتي ألف إلى ثلاث مائة ألف رأس من الموصل وبغداد وأرض روم فتباع في بيروت وغيرها ويذبح منها سنوياً في زحلة نحو عشرة آلاف رأس عدا البقر ويرد إليها كل سنة من ألف وخمس مئة إلى ألفي قنطار من الصوف تصدرها إلى بيروت وأوربة عدا ما يتجر به من الخارج. وفيها نحو خمس مئة من تجار البضائع[1] ومال القبان والذراع. ودخل مفوضها البلدي[2] من الحسبة[3] نحو خمسين ألف غرش صاغاً ومن الذبح ونحوه خمسة وأربعين ألفاً وضرب في هذه السنة رسماً على بائعي الطحين قيمة مائة ليرة فرنسية. وعلى الجملة فإنها مدينة تجارية يسمونها ميناء البقاع وبعلبك لأن جميع صادراتهما ترد إليها. وكفى بنجاح سكانها في العالم الجديد وأسترالية وغيرهما برهاناً على براعتهم ومهارتهم ومقدرتهم وهي قائمية مقام باسمها.

أما المعروف من تاريخها فإنها كانت في القرن السادس عشر للميلاد مغارس وكروماً تابعة للكرك[1] ومياهها تجر إليه ولن تزال القناة المارة تحت نزل (لوكندة) الصحة تسمى إلى الآن بسكر (قناة) الكرك. ولقد وجدت في محلة البساتين قرب مرج عرجموش (الفيضة) بوابات متقنة وحمامات وقناطر وقبور وتمثال حجري مما

---

[1] كان الزحليون يجلبون بضائعهم من مدينة دمشق إلى سنة 1835م ومن هذه السنة فصاعداً صاروا يجلبونها من بيروت.

[2] أنشأه المغفور له رستم باشا ثالث متصرفي لبنان سنة 1879م وخصص له ثلث دخل الحسبة وغيرها ورتب غرشاً على كل ذبيحة.

[3] سنة 1837 رتب الأمير بشير الشهابي المالطي رسم ذبحية اللحم فيها وأقام وكلاء لجمعه فضويق السكان ثم رفع عنهم بعناية مديره بطرس كرامة وبواسطة كل من الطيب الذكر أغابيوس الرياشي مطران بيروت ولبنان الكاثوليكي والمرحومين الخوري ابرهيم الكعدي الأرثوذكسي والخوري موسى أبي كرم الماروني وهما من بسكنتا إذ حضروا وأصلحوا ذات البين.

[1] رأيت في الصكوك المحفوظة في دير القديس الياس الطوق المذكور أن الأمير بشير مراد باع رهبانه سنة 1172هـ 1758م المرمدة فوق ساقية الكرك عند الضفة وسنة 1179هـ 1765م اشترى رئيسه جرمانوس من الأمير مراد ساقية ماء الكرك.

يدل على أن المدينة كانت مبنية هناك كما بنيت دمشق على نهر بردى ثم خربت. ومن آثارها سور المشيرفة إلى غربيها ودير مار موسى علين إلى جنوبيها وتل شيحا إلى الشرق. وهذه كلها كانت عامرة. وإلى شماليها الغربي على بعد ثلاثة أرباع الساعة بئر هاشم[2] وفيها مياه وموقعها بقضاء المتن الأعلى في لبنان. ووجد في محلة المدينة اليوم أبنية قديمة وأنابيب خزفية لجر المياه وبعض حنايا (أقبية) و لم يزل في دعامة كنيسة النبي الياس (الطوق) حجر ضخم وأمام باها لعهدنا تاجا عمود قديمان منقوشان نقشاً متقناً هشم أكثره. وفي غربيها مدافن قديمة وجدت على أحدها كتابة بتاريخ سنة 200هـ و815م. وفي أنقاض أبنيتها آثار حريق وفسيفساء ومحل آثار صاغة إلى غير ذلك مما يدل على قدمها ولكن لم يذكرها أحد من المؤرخين وربما كان اسمها غير ما هو اليوم. وظن البعض أنها خلقيس والصحيح أن موقع تلك يناسب عنجر في سفح الجبل الشرقي (راجع صفحة 50 [من الطبعة الأصلية]). و لم يرد ذكر زحلة قبل سنة 1584م إذ قيل أن ابرهيم باشا صهر السلطان مراد ابن السلطان سليم ووزيره وحاكم مصر جمع العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب وقدم بهم إلى مرج عرجموش (الفيضة) قرب زحلة وأمسك طريق البحر والبقاع على الدروز قصاصاً لأمراء لبنان المتهمين بنهب خزينة حميه السلطان من جون عكار بينما كانت مرتجعة إلى الآستانة فقتل نحو ست مائة من الدروز وأسر بعض الأمراء التنوخيين والعسافيين والأرسلانيين.

وفي أوائل القرن الثامن عشر كانت زحلة أحياء (أحواش) حي الأمير مراد اللمعي قرب كنيسة القديس الياس للآباء المخلصيين[1] ونصاراه تتبع هذه الرهبنة وقربه حيان آخران أحدهما للأمير يوسف اللمعي والثاني لبني حاطوم الدروز من كفر سلوان (المتن) ونصاراهما تتبع الرهبنة الشويرية. وكان الأمراء اللمعيون

---

[2] نسب إلى هاشم العجمي القيسي شيخ العاقورة (بمعنى العين الباردة) الذي انهزم إلى كرك نوح ملتجئاً إلى الأمراء الحرافشة فغدروا به وقتلوه ورموه في هذه البئر وذلك سنة 1534م.

[1] كانت هذه الكنيسة الصغيرة من أقدم ما بني في زحلة في أوائل القرن الثامن عشر أنشأها الرهبان الشويريون ثم أعطوها للآباء المخلصيين وعمر أولئك عوضها كنيسة القديس ميخائيل. وأقدم كنيسة أسقفية فيها كنيسة القديس جاورجيوس بنيت نحو سنة 1740م وهي الآن بيد الرهبان الحلبيين الباسيليين. وكان الكاثوليكيون الذين من خاصة الأمراء آل مراد يتبعون الرهبنة المخلصية والذين من خاصة آل قائدبيه يتبعون الشويرية.

يسعون بزيادة عمرانها فكان كل منهم يهب من أراد أن يسكنها محل البيت وجسراً (جائزاً) من الصنوبر وروافد (ثواني أو أنقاض) للسقف ويصير هو وعائلته من خاصته يدفع له كل سنة أربع بارات مال عنقه وكان زرع الحبوب في عرجموش وعلى بعض مشارف المدينة وتداس على البيادر الباقية قرب السراي وهناك عين الدخن الدالة على زراعة حب الدخن. ثم صاروا يتقاضون من كل مكلف أو فريضة (شخص بالغ) ثلاثة غروش ومالاً أميرياً عن الكروم وكان على كل حارة من قبل الأمير دهقان (حولي) يدير شؤونها ويتعهد بحمايتها والمدافعة عنها. ولما اشتهرت تجارتها رتبوا مالاً على المد ومال القبان وبقي ذلك إلى سنة 1860م. و لم يكن لحاكم لبنان مال معين على الأهلين بل كثيراً ما يصادرهم (يبلصهم) بما يريد. وهكذا فعل الأمير بشير الشهابي الكبير بزحلة، فإنه رتب عليها كل سنة خمسة وعشرين قنطاراً من السمن واصلة إلى بيت المؤونة (الكلار) في بيت الدين، أو خمسة عشر ألف غرش بدلها توزع على الحارات بمعرفة الجباة (الحوالية) ولتقدم له عن يد مشايخها ثم صار يطلب منها قرضاً من أربعين ألف غرش إلى ماله ألف. وكثيراً ما كان هذا بلا عوض.

وفي عهد ابرهيم باشا المصري رتبت ضريبة الفردة من خمسين إلى خمس مائة غرش عن كل رجل. وفي زمن الأمير حيدر اسمعيل اللمعي قائم مقام النصارى أقام فيها ثلاثة وكلاء من قبله لإدارة شؤونها عوض المشايخ من أعيانها الذي كانوا يحكمون على الأهلين ويقضون بينهم.

وكانت مدينة زحلة هذه قاعدة لإقليم الشوف البياضي (سمي بذلك لبياض تربته) والمراد به غربي البقاع وسكانه من النصارى 11473 ومن المسلمين ألف، وأكبر قراه زحلة وأطلق عليها فؤاد باشا اسم مدينة ويتبعها اليوم حوش الزراعنة وهو بينها وبين المعلقة وعين الدوق[1] في غربي الجانب الشمالي من المدينة وهما متصلان بها وحوش الأمراء على سفح تل شيحا الشمالي الشرقي وهو منفصل عنها. وتتصل بها طرق عربات مدينة بعلبك وطريقا دمشق وبيروت وطريق المروج إلى لبنان. وسنة 1727م قدمها المطران أفتيموس فاضل المعلولي مطران الفرزل

---

[1] نرى في تسميتها أما نسبتها إلى دوك صليبي سكنها، وإما أنها كانت مكرسة لداجون إله الطب فحرفت إلى دوج ثم إلى دوق ويعضد هذا الرأي حسن موقعها وجودة هوائها ومائها فهي من أفضل أحياء المدينة وفيها التأم المجمع الثامن والعشرون لطائفة الروم الكاثوليكيين من أربعة أساقفة فلم يصادق عليه وذلك في 13 آب سنة 1859م وفيها كنيسة ومحل للرهبنة الحلبية صنو الرهبنة الشويرية.

الكاثوليكي وبنى فيها بيتاً كان يختلف إليه مرة بعد أخرى. وكانت الأبنية قليلة ولا سيما على ضفة النهر ونحو سنة 1740م قدمها البعلبكيون من الفرزل وبعلبك وضواحيها فراراً من تضييق الأمراء الحرافشة. وسنة 1750م سكنها اللبنانيون ومنهم بنو المعلوف. وسنة 1755م التجأ إليها الراسيون من رأس بعلبك فراراً من الضرائب الفادحة وابتنوا فيها مساكن وشيدت في هذه الأثناء بعض الكنائس للطوائف الثلاث المسيحية، أما كنيسة سيدة النجاة الكبرى فشيدها المطران يوسف فرحات سنة 1775م قرب بناء الدار المذكورة[2] وزاد على توقيعه كلمة البقاع فصار ختمه باسم مطران الفرزل والبقاع. وسنة 1777م كثر الأكراد في سهل البقاع[3] وخيموا في قب الياس بقيادة زعيمهم قراملا وعاثوا في بعض القرى إلى أن اتصلوا بزحلة فهاجموها في 19 تموز فقابلهم الزحليون ببسالة وقتلوا منهم نحو خمسين و لم يقتل من الزحليين سوى ستة. وفي 7 آب أعادوا الكرة عليها وأضرموا النار في غاباتها الكثيرة فاحترقت وهوجمت ثانية وأحرقت في 26 تموز سنة 1791م. ومما يذكر أن نجم المعلوف والد المرحوم مخايل المعروف بأبي علي حاصر في بيته ومنعهم من إحراق ما حوله من البيوت. وفي أثناء ما جرى لبني الحرفوش والعبد الذي حكم بعلبك ضويق المسيحيون هنالك ففر كثير منهم إلى زحلة وسكنوها وكثرت الأبنية فيها وشيدت الكنائس لخدمتهم الروحية وأخذت المدينة في التقدم وكان سكانها في مقدمة الجنود التي كان يجمعها الحكام للدفاع عن البلاد وأبلوا في جميع المواقع بلاء

---

[2] وسنة 1850م شرع المطران باسيليوس شاهيات الكاثوليكي بتوسيع هذه الكاتدرائية والمطران منوديوس صليبا الأرثوذكسي ببناء كاتدرائية القديس نقولا ودارة الأسقفية التي نقلها من صيدنايا إلى زحلة. وبعد سنة 1860م جددت جميعها لاحتراقها. وسنة 1903م شيدت الدار الأسقفية الكاثوليكية على طراز جديد بعناية أسقفها السيد كيرلس المغبغب. وأصلحت الدار الأسقفية الأرثوذكسية ووسعت بعناية أسقفها السيد جرمانوس شحادة وكذلك جميع الوكالات الأسقفية المارة الذكر.

[3] قرأت في تاريخ القس روفائيل كرامة الحمصي الشويري المخطوط (وهو نادر الوجود يرجح أن القس حنانيا المنير أخذ عنه لأنه وجد قبله) أن أحمد باشا الجزار أرسل كاخية كردياً ومعه أكراد في آخر شهر نيسان من هذه السنة فمروا على قلعة قب الياس فعلم أهلها فحصنوها وردوهم عنها بإطلاق المدافع فذهب الأكراد إلى بعلبك وصادروا كبار المتاولة ولا سيما الأمير محمد الحرفوش وسجنوه و لم يمسوا النصارى بسوء ولبثوا في بعلبك ثم شنوا الغارة على سعد نايل قرب زحلة وقتلوا بعض سكانها ونهبوها ثم اتصلوا بزحلة وارتدوا عنها إلى بر الياس ونزلوها ثم حاربوا الدروز في البقاع فقتل من هؤلاء زين الدين مزهر مقدم حمانا وقليل غيره ومن الأكراد أربعون فأحرقوا قرى كثيرة في البقاع وهاجموا سغبين فعادوا عنها وقد قتل منهم نحو مائتين ثم أمرهم الجزار فعادوا إليه. وكان سبب إرسالهم أن الأمراء اللمعيين لم يدفعوا ضريبة الشاشية التي فرضها الجزار على اللبنانيين في السنة السابقة.

حسناً. وكان بنو القنطار[1] الدروز يعيثون في بلدهم فطردوهم منها سنة 1825م بمواقع اشتهر فيها كثير من السكان ولا سيما نجم المعلوف المار ذكره وجرجس طرزا المعلوف وغيرهما فرحل أكثرهم إلى حوران وغيرها. وبعد هذا بقليل اتسعت تجارتهم وصفا لهم كأس الراحة ولا سيما بعد أن تولى عمر باشا النمسوي شؤون لبنان. وفي شهر نيسان سنة 1884م سافر إلى أمركة من سكانها حبيب أبو جودة وهو أول مهاجر منها وانفتحت لهم أبواب التغرب في العالم الجديد وتراهم اليوم في مقدمة المهاجرين همة ونشاطاً وتقدماً. ولقد اهتموا بصنع تمثال لوطنيهم الطيب الذكر البطريرك بطرس الرابع الجريجيري في إيطالية من الشبة (البرونز) ونصب في فسحة الدار الأسقفية. وكثرت فيها الحرائق لأن أبنيتها من اللبن وأهم ما حدث من ذلك مؤخراً احتراق بعض حوانيت من سوقها أولاً صباح الأربعاء في أول تشرين الأول من سنة 1895 وثانياً اشتعال معظم ذلك السوق ليل الخميس في السابع والعشرين من أيار سنة 1896م فرمم ورصف وسمي بسوق البلاط. ولا تزال يد التحسين عاملة في المدينة زادها الله نجاحاً بعناية الحكومة السنية وهمة الأهلين.



[1] كان الأمراء اللمعيون قد تعيروا على بني القنطار لأنهم سنة 1799م أحرقوا دار ناصيف نصر الله في عين الصفصاف (المتن) وكان هذا كاخية الأمير منصور مراد اللمعي فشرعوا يضربون على أيديهم إلى أن أخرجوهم من مقاطعاتهم وساعدهم على ذلك الخصام الذي وقع بين الأمير بشير الشهابي والشيخ بشير جنبلاط.

الفرع الثاني

في فلسطين وفيه قطفان

القطف الأول

في اسمها وموقعها وحدودها ومساحتها وسكانها

معنى فلسطين بلاد المتغربين سماها بذلك اليونانيين والرومانيين نسبة إلى الفلسطينيين سكانها لعهدهم وهي الأرض المقدسة عند اليهود والمسيحيين والمسلمين، وفيها جرى معظم الحوادث الدينية عندهم ودعيت أرض كنعان نسبة إلى أبناء كنعان بن حام بن نوح الذين سكنوها بعد الطوفان. وتعرف أيضاً بأرض الميعاد لأن الله وعد ابرهيم بأنها تكون مسكناً لذراريه وتسمى بالأرض المقدسة لما جرى فيها للمسيح ورسله. وذكرها شعراء العرب بالاسم الأول كثيراً كقول الأعشى:

يقل فلسطياً إذا ذقت طعمه   على ربذات النيّ حمش لثاتها

وقول الأخطل:

شربتُ ولاقاني لحلّ اليني   قطارٌ تروّى من فلسطين مثقلُ

وموقعها القديم بين نهر الأردن والبحر المتوسط وكانت تتسع وتضيق حسب الأحوال. وقسمت في عهد يشوع بن نون إلى اثني عشر إقليماً حسب أسباط بني إسرائيل، وكانت في عهد المسيح مقسومة إلى أقاليم غربي الأردن وشرقيه المعروفة بعبر الأردن وكان يحدها شمالاً بلاد صور والجبل الشرقي وشرقاً الأردن وبحيرة طبرية وغرباً بعض فينيقية الساحلية من صور إلى الكرمل ومساحتها نحو عشرين فرسخاً طولاً من الجنوب إلى الشمال ومن عشرة إلى اثني عشر عرضاً. وقسمت إلى ثلاثة أقسام اليهودية والسامرة والجليلين (الأعلى والأسفل). ومساحتها الآن نحو أربعة عشر ألف ميل مربع وذلك يقرب من مساحة مملكة هولندة في أوربة

وعدد سكانها نحو ثماني مئة ألف نسمة معظمهم من المسلمين وهي مشهورة منذ القديم بخصبها حتى وصفت بأنها تدر لبناً وعسلاً وهواؤها حار غالباً وينزل فيها الثلج والبَرَد. ومطر جنوبيها قليل ومعدله في مدينة أورشليم 33 قيراطاً في السنة، وذلك لقربها من البادية التي لا يجودها الغيث إلا رذاذاً. ومياهها أعظمها نهر الأردن[1] (بمعنى سريع الجريان) وهو مشهور بالحوادث العظيمة التي جرت فيه وعلى ضفافه. وبحيراتها أشهرها طبرية وطولها أربعة عشر ميلاً وأعظم عرضها ثمانية أميال وهي بيضية الشكل.

أما تربة فلسطين فطبقاتها طباشيرية وصدفية تكثر فيها المستحجرات ولا سيما في وادي الورد وفي محل الخضر وعين صالح صدف مستحجر مختلف الأصناف. وكثيراً ما توجد أصداف وعظام حيوانات مستحجرة بسفوح جبال سكوبيس وجبل الزيتون وأعجب طبقاتها تكويناً وادي الأردن وهو غريب في وضعه ينخفض عن سطح البحر المتوسط نحو أربع مئة متر وهناك آثار البراكين التي ثارت في القديم فانقلبت بها الصخور وتشققت الأرض فكثرت فيها الأخاديد والمغاور حتى لا يماثلها إلا جبال كنون في أمركة الجنوبية ويبتدئ من بحيرة الحولة المنخفضة ثمانين متراً عن سطح البحر وينحدر فجأة إلى بحر طبرية المنخفض نحو مائتي متر ثم ينحدر تدريجاً إلى بحر لوط المنخفض نحو أربع مئة متر.

وجبالها تمتد سلسلتها من بلاد بشارة إلى مسافة يوم جنوبي الخليل وتنتهي بسهل بادية التيه وتنفصل بعض قممها كجبل الطور[2] في بلاد الجليل وأكثرها يعلو نحو ألف متر فوق البحر ويشغل نحو ثلثي عرض فلسطين ويتفرع من هذه

---

[1] ويسمى شريعة (بمعنى مورد الماء) الكبير تمييزاً له عن شريعة المنظور (نسبة إلى قبيلة بني منظور العربية) وهو اليرموك أحد الأنهر التي تصب في الأردن وطول الأردن مائتا ميل وعرضه من خمسين إلى مائة وخمسين قدماً.

[2] ويقال له ثابور أيضاً ومعناه التل المرتفع ويسمى جرزيم وهو في سهل بزرعيل (مرج ابن عامر) على بعد ستة أميال من الناصرة إلى الجنوب الشرقي ارتفاعه نحو ألف وثمان مائة قدم عن سطح البحر و1375 قدماً عن السهل وصخره كله كلسي وهو ثدوي الشكل منفرد عن بقية جبال الجليل وسفحه تظلله أشجار كثيرة أهمها البلوط والبطم والآس ووجهه الجنوبي مقفر وقمته مسطحة طولها من الشمال إلى الجنوب نحو تسع مائة ذراع وعرضها نصف طولها وحول هذه البقعة آثار سور قديم وأطلال قلعة وباب من بناء العرب يعرف بباب الريح وكنيستان يقيم في إحداهما رهبان اللاتين الموجودون في الناصرة احتفال عيد التجلي كل سنة والأرثوذكسيون في الثانية الواقعة في الجهة الشمالية منه وله ذكر قديم في التورات ويحج إليه اليهود والسامريون لأنهم يعتقدون أن اسحق ذبح عليه والمسيحيون يعتقدون أن المسيح تجلى عليه. وهو يشرف على نابلس وعليه جرت مواقع وحروب بين الرومان واليهود والصليبيين والمسلمين والفرنسيين والعثمانيين.

السلسلة جبل الكرمل وهو أخفض من غيره ونباته خاص. ويمتد من جنوبي جبل الشيخ جبال شرقي غور الأردن مارة بالجولان وجبل عجلون وجبال مؤاب إلى أن تنتهي جنوبي الكرك بالسلسلة الممتدة جنوباً إلى الحجاز وكما يفصل سهل البقاع بين اللبنانين الشرقي والغربي. هكذا يفصل غور الأردن بين جبال فلسطين وجبال شرقي الأردن. وأشهر سهولها مرج ابن عامر[1] وساحل البحر وساحل الأردن. أما سكانها القدماء فمر ذكرهم في الحاشية (3) من الصفحة 48 وبلغ عدد اليهود الذين سكنوها في زمن الملك داود مليوناً وثلاث مئة ألف نفس ثم سكنها من سكن سورية.



القطف الثاني

في مدينة الناصرة

اشتهرت فلسطين بمدنها القديمة ولن يزال بعض أسمائها على حالته الأولى كغزة ويافا وأشقلون وأشدود وجت وبيت جبرين. وكان أهمها بزمن المسيح عكا وأفيق ونايين وعين درر وقانا وصفد وطبرية وكفرناحوم وجنيسارة وقيسارية فيلبس. وكان أشهر مدن اليهود أربعاً صفد وحبرون (الخليل) وطبرية وأورشليم التي قال فيها أعشى قيس:

وطوّفت للمال آفاقه عمان فحمص فأوريشلم
أتيت النجاشي في داره وأرض النبيط وأرض العجم

وقد خصصنا مدينة الناصرة بالذكر لأنها كانت محطاً لرحال بني المعلوف منذ نحو خمس قرون:

---

[1] هو سهل بزرعيل (بمعنى الله يزرع) يمتد من البحر المتوسط إلى الأردن فاصلاً جبل الكرمل والسامرة عن جبال الجليل وطوله نحو 15 ميلاً وطول جهته الشمالية نحو 12 والجنوبية نحو 18 وهو مثلث حاد الزوايا ويسمى وادي مجدو نسبة إلى مدينة بهذا الاسم وتسمى أيضاً سهل لجون نسبة إلى قرية بقربه منسوبة إلى فرقة رومانية (Legion) نزلتها سابقاً أما تسميته العربية فمرج ابن عمير أو ابن عامر نسبة إلى عبد الله ابن عامر المنتهي نسبه إلى عبد شمس وهو ابن خال عثمان ابن عفان. وفيه يجري نهر قيشون (المقطع) فيرويه وعليه ذبح إيليا كهنة البعل وفي السهل حدثت أعظم المواقع بين الدول الكنعانية واليونانية والعربية والمصرية والكلدانية والفارسية والرومانية وهو خصيب مشهور بأنه من أجمل سهول الدنيا.

إن معنى الناصرة المنفصلة وقيل المختبئة وموقعها في واد يمتد من جهة مرج ابن عامر شمالاً وهو هلالي الشكل طوله ميل وعرضه ربع ميل ينفرج أخيراً فيمثل طستاً يحدق به نحو خمسة عشر تلاً ذات تضاريس بديعة يختلف علوها من أربع مئة إلى خمس مئة قدم ومنظرها في الربيع من أبدع المشاهد الطبيعية. والمدينة مبنية على ارتفاع ثلاث مائة وخمسين متراً عن سطح البحر في منحدرات هذه التلال ولا سيما التل الشمالي الشرقي، المسمى بجبل الشيخ الذي ينتصب فوقها عمودياً وعلى قمته مزار النبي اسمعيل وقد يراها الزائر من بعيد قرية صغيرة، فإذا وقف على التل المشرف عليها المعروف بالقفزة رآها رحبة الجوانب وشاهد منها مرج ابن عامر وجبال ثابور والكرمل وجلبوع والشيخ والبحر المتوسط. وأرضها متضارسة وأبنيتها متدرجة يرتفع بعضها فوق بعض على شكل نصف دائري (أمفيتياتر) وشبهها السائح ستنلي الإنكليزي بوردة[1] وهي في جنوبي الجليل إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية وعلى بعد ساعة ونصف إلى الشمال من جبل ثابور قرب قانا الجليل وإلى الجنوبي الشرقي من حيفا على بعد ستة ساعات عنها وبينها وبين عكا سبع ساعات وأبنيتها من الحجر الأبيض ولذلك سميت بالمدينة البيضاء ولقد وصفها كثير من السياح مثل فولني الذي قال أن ثلثي سكانها مسيحيون وبوركهارد سنة 1812 فقدر سكانها المسلمين بألفين والنصارى بألف وروبنصن وسمث (333:2) ذكر أنهم كانوا لعهدهم ثلاثة آلاف. وهم اليوم نحو عشرة آلاف فيهم عدد كبير من بني المعلوف يرجعون إلى بني اللحام والنجار ومويس ودويري وحنين ودعيبس وفروعهم كما سيجيء وجميعهم مشهورون بالصناعة والزراعة والتجارة وحب الآداب والمعارف وقد وصف روبنصن وسمث بعض وجهائهم وأدبائهم.

ولم يذكرها الكتاب المقدس ولا مؤرخو اليونان والرومان حتى زمن المسيح فاشتهر اسمه فيها وهنالك نشأ وتربى فلقبت لذلك بمدينة الرب ونسب إليها فقيل له الناصري. ومنها اشتق اسم النصارى وأطلق على كل تابع للديانة المسيحية ولقد أبطل هذه التسمية كلود فشاعت بعد موته إلى عهدنا.

وطوي ذكرها مدة فكانت ملجأ للصوص يسمونها أم المغر (المغاور) ولذلك كان اليهود يحتقرون سكانها ووصفها أوسابيوس في القرن الرابع بالقرية وعين

---

[1] راجع سياحته الإنكليزية المطبوعة سنة 1881 صفحة 365 و442.

موقعها أنه على بعد خمسة عشر ميلاً رومانياً من لجون إلى الشرق قرب الطور. وذكر أبيفانيوس معاصره أيضاً أن الناصرة حتى زمن قسطنطين الملك لم يكن فيها غير اليهود، ومن ذلك الحين سكنها المسيحيون وشيدت فيها زوجته الملكة هيلانة كنيستين إحداهما في موضع بشارة العذراء[1] والثانية في محل تربية المخلص. وسنة 1109م حكم تنكرد على الجليل فصارت الناصرة كرسي أسقف. وسنة 1140م التأم فيها مجمع لإقامة البابا اسكندر الثالث في رومية. وحاصرها الصليبيون وزارها لويس ملك فرنسة سنة 1251م ودخل كنيسة البشارة. ودمرها السلطان بيبرس البندقداري سنة 1263م وهدم كنائسها وكنائس جبل الطور. ثم دمرها السلطان خليل بن قلاوون سنة 1291م لما أخرج الصليبين الذين بقوا في عكاء. فأهملت الى القرن الربع عشر وأمست أطلالاً دارسة بينها بعض البيوت. وفي القرن الخامس عشر وجد فيها قليلون من الدروز وكان مركز حكومتهم في عرابة البطوف من قضاء عكاء وحاكمهم مسلم.

وفي منتصف القرن السادس عشر رحل إليها اثنان من بني المعلوف وسكنا اولاً في جبل ثابور الذي يرتفع الف متر عن سطح البحر وامتد نسلهما اليها وإلى ما يجاورها كما سيجيء مفصلاً. فعمر بنو المعلوف في الجهة الشمالية منها بيوتهم بين الدروز والمسلمين وقليل من المسيحين. وكان الرهبان الفرنسيسكانيون قد قدموها. وسنة 1620م استأذنوا الامير فخرالدين المعني ان يسمح لهم بترميم كنيستها القديمة المعروفة بالستة[2] وهي محل مسكن مريم العذراء فاذن لهم فرموها وبنوا ديراً بقربها وفي البناءين صناعة متقنة وفي الكنيسة عمودان ضخمان احدهما مكسور عند وسطه.

أما بنو المعلوف فاستولوا على المغارة التي بشر فيها الملك جبرائيل العذراء وهي تستقي من العين وبنوا لها درجاً لن يزال إلى عهدنا وكانوا يسرجون[ق] المغارة كل ليلة وسيم منهم كاهن لإقامة الفروض الدينية وتقربوا من الشيخ ظاهر

---

[1] من أقدم واشهر كنائس سورية اثنتان الأولى كنيسة القبر المقدس في أورشليم والثانية كنيسة البشارة هذه في الناصرة.

[2] بعد ان فتك الشيخ زيدان زعيم الظواهرة بالدروز سكنت الناصرة قبيلة اسلامية عرفت باسم حمولة دويعر وبنت بيوتها في محل هذا الدير فابتاعها منها الرهبان المذكورون وكانوا يدفعون لها كل سنة سبعين غرشاً إلى أن انتقلت إلى مدينة صفد وهي فيها إلى اليوم.

[ق] يشعلون فيها سراجاً (المحقق).

العمر[3] الذي كان قد ابتنى له قصراً في الناصرة وسكنها وكان يحب بني المعلوف واتخذ منهم أعواناً واعتمد عليهم في حروبه وأقطعهم بعض الأراضي في مرج ابن عامر وشعب لن تزال في أيديهم إلى عهدنا. وقد اتخذ أحد كهنتهم مستشاراً له[1] فوض إليه حل المشاكل فكان بيت ذلك الكاهن أشبه بمحكمة وهو الذي ابتنى في محلة تلك المغارة المذكورة كنيسة البشارة على أطلال الكنيسة التي بنتها القديسة هيلانة كما مر وذلك ببراءة سلطانية وجر إليها مياه العين الواقعة على بعد أربعين متراً من الكنيسة ثم جرها إلى ينبوع المدينة العمومي قربها وتعرف بعين البشارة ورفع شأن أنسبائه وذلك متناقل على ألسنة شيوخ الناصرة إلى اليوم كما ذكره حنا أفندي سمارة في تاريخها المخطوط.

وفي الناصرة كثير من الآثار مثل بيت يوسف خطيب مريم والآبار المريمية وفي الغرب المجمع اليهودي الذي كان السيد المسيح يعظ فيه الناس وبناؤه لا يتجاوز أواخر القرن السادس وعلى مقربة منه جرف الصخر الذي أراد الناصريون أن يطرحوه من أعلاه. وقد أخذ سكانها يكثرون منذ سنة 1720م. وسنة 1837م أصيبت بزلزال هدم مبانيها فرممت وهي اليوم راقية في معارج التقدم أنشئت فيها

---

[3] ينتسب إلى جده زيدان من قبائل عرب الطائف في الحجاز أمحلت بلاده سنة 1690م فجاء عرابة البطوف بأخويه صالح وطلحة وخيموا فيها لوفرة مراعيها وهي من مقاطعة الشاغور التي كانت مستولية عليها اسرة درزية تسكن قرية سلامة شديدة الكره للمسلمين والنصارى فمالت إلى ولاء زيدان ثم انقضت عليه ففتك بها وتولى مكانها من سنة 1698ـــ 1708 م وأثبت ولايته عليها قبلان باشا المطرحي والي صيداء ثم وسع نطاق بلاده بحروب كثيرة فصارت سبع مقاطعات هي صفورية ولوبية والشيخ داود وترشيحه وصفد وعتليت والدامون وتوفي سنة 1717م فتولاها ابنه عمر فأمرته الدولة العلية أن يبني أسوار عكاء فتولى العمل ابنه ظاهر المشهور وخلف أباه سنة 1737م وبعد عشر سنوات وقعت نزغة بينه وبين عثمان باشا والي صيداء ومرق من طاعة الدولة واستولى على عكاء سنة 1749م إلى أن اقتصت منه فقتل سنة 1776 وتولى الجزار مكانه. وكان له ثمانية بنين اشتهر منهم عثمان بآدابه وصليبي ببسالته وأسر بعضهم إلى الاستانة وفر الآخرون فانقرضت ولايتهم واشتهروا باسم الزيادنة والظواهرة وبنوا قلاعاً وقصوراً في شفا عمر وطبرية وصفد وتبنين والناصرة ومرج ابن عامر. وكان من ألد أعدائهم عرب الصقر وأهل جبل نابلس وكثيراً ما حاربهم ظاهر هذا ولاسيما في موقعة عين جنين فقتل أكثر من ثلاثين ألفاً حتى كاد يفني عرب الصقر ولكن انقراض دولته ونسله وقفا دون قصده.

[1] ومما يذكر أن هذا الكاهن حرضه كثيراً على عدم المروق من طاعة الدولة وأن يدفع لها الأموال الأميرية الباقية حسب تعهده فاعترضه مديره ابرهيم الصباغ وأقنعه بالعصيان فكان ذلك داعية لقتل ظاهر وشنق الصباغ وذلك نحو سنة 1774م. راجع تاريخ الديس 398:7 وغيره من تواريخ لبنان.

المدارس لجميع الطوائف ملخصها المدرسة الداخلية للجمعية الروسية الفلسطينية[2] المؤسسة سنة 1887م والمكتب الرشدي الحميدي، وهي قصبة قضاء باسمها كان تابعاً للواء عكاء وموقعه في جنوبيه الشرقي وألحق سنة 1906م بلواء القدس الشريف.

---

[2] أنشأ هذه الجمعية سنة 1882م الغراندوق سرجيوس خامس أولاد الإمبراطور اسكندر الثاني قيصر روسية الأسبق وقد ولد سنة 1857 وتوفي سنة 1905م وترأسها إلى زمن وفاته فخلفه في رئاستها أرملته الأميرة أليصابات ثيودورفنا إحدى كريمات لويس الرابع عشر غرندوق هس وشقيقة القيصرة الكسندرا الحالية واحتفل في هذه السنة (1907م) بيوبيل الجمعية الفضي. وهي مجانية وطرق تدريسها على أحدث أسلوب. راجع المقتطف 26:901. ولها في سورية وفلسطين 92 مدرسة وطلبتها نحو أحد عشر ألفاً وخمسمائة أنفقت على تهذيبهم نحو أربع مائة ألف فرنك وعدد أساتذتها أكثر من أربع مائة مركزها في مدينة بطرسبرج ولها وكالات في سورية وفلسطين ومن أشهر مدارسها مدرسة الناصرة للذكور ومدرسة بيت جالا للإناث ولها مستشفيان في أورشليم والناصرة.

الحديقة الثانية

في نشأة بني المعلوف وشؤونهم وفيها شجرتان

الشجرة الأولى

في أصولهم وهجرهم حوران ولها فروع

الفرع الأول

في السلائل البشرية وفيه قطوف

القطف الأول

في أجناس البشر وخصائصهم

اختلف علماء السلائل البشرية[1] والطبائع الإنسانية[2] في تقسيم الإنسان فمنهم من عوّل على اللون مثل كوفيه ودي كاترفاج وقسمه إلى الأبيض كالصقلي والأصفر كالمغولي والأسود كالزنجي[3] والبعض نظر إلى شعره من حيث

---

[1] الاثنولوجية (Ethnology) لفظ يوناني بمعنى الكلام عن الأمم وهو علم يبحث عن الإنسان باعتباره كونه عضواً من قبيلة أو أمة وعن تهذيبه وآدابه ولغته وخصائصه.

[2] الأنثروبولوجية (Anthropology) لفظ يوناني أيضاً بمعنى الكلام عن الإنسان وهو علم يبحث عنه باعتبار كونه حيواناً وعن حالته الطبيعية وقواه الفطرية وقسمه علماؤه إلى ثلاثة أقسام الأول الكلام عن بنية الجسم البشري والتاريخ الطبيعية للرتب والأنواع البشرية والثاني البحث عن طبيعة الإنسان الكاملة كتركيبه من نفس وجسد وتنوع جنسه ومزاجه وتناسله وتمدنه وهو غير علم النفس البشرية (Psychology) الذي يبحث عما يعرض للنفس. والثالث البحث عن نسبة كتبة الوحي القوى العاقلة والعواطف إلى الله (معجم وبستر الأميركاني).

[3] عثرت على إحصاء في مجلة المقتطف (268:31) سنة 1906 عن تقويم سنة 1890م وهو: أن الجنس السامي مسكنه شمالي أفريقية والبلاد العربية وعدد أبنائه خمسة وستون مليوناً والآري في أوربة وغربي آسية وعددهم خمس مائة وخمس وأربعون مليوناً. والمغولي في الصين وما جاورها من شمالي آسية وشرقيها وعددهم خمسة وثلاثون مليوناً. والملقي مسكنه شبه جزيرة ملقة (ملعقة) وجزائر الهند الشرقية وعددهم خمسة وثلاثون مليوناً. والزنجي في أواسط أفريقية وعددهم مائة وخمسين مليوناً. والأميركي (سكان أميركة الأصليون المعرفون

سبوطته وجعودته والبعض إلى الأنف وأشكاله والآخرون إلى الأحوال الأخرى ولا محل الآن للإفاضة في أقوالهم، ولكننا نتناول من ذلك ما يتعلق بموضوعنا وهو النوع الأبيض الذي قسمه هكسلي الإنكليزي إلى نوعين: أولهما الأمهق، وهو الذي اشتد بياضه ويمتاز بطول قامته وبياض بشرته وزرقة عينيه وخفة شعره وطول قحفه واستدارته ومنه تفرع سكان أوربة الشمالية والوسطى.

والنوع الثاني من يضرب بياضه إلى السمرة فيختلف عن الأول اختلافاً قليلاً وهو عام في الإيرلنديين والبريطانيين والإسبانيين والإيطاليين واليونانيين في المغرب. وفي العرب والأرمن والهنود الآريين في المشرق. هذا ومن المشهور أن الناس يختلفون من جهة الخصائص الأدبية كما يختلفون بالنظر إلى الخصائص الطبيعية حتى لا ترى اثنين منهم متشابهين في الهيأة والطبع ولله در علامتنا اليازجي الأكبر بقوله:

إنما نحن في اختلاف عقول مثلما نحن في اختلاف وجوه

ومع ذلك فإنهم يتفقون في الخصائص الجوهرية المقوّمة للفصل بينهم وبين غيرهم من الخلق. والفرق في شكل القحف بين هذه الأجناس أنه بيضي في الأوربي مستدير في العربي هرمي في المغولي. والأنف أشم في العربي والأوروبي وأفطس في المغولي. والجبهة عريضة غير بارزة كثيراً في العربي وبارزة في الأوروبي ومائلة إلى الوراء ومسطحة في المغولي. والزاوية الوجهية عوّل بعضهم عليها ثم أهملت إذ لم يؤخذ لها مقياس فارق إلى غير ذلك مما لا تحتمله هذه العجالة. والمعول عليه في أصول الأمم الاعتماد على تقاطيعهم وأشكال رؤوسهم لا على ألوانهم فقط.

والعشائر السامية(ق) سكنت سورية والجزيرة وامتدت جنوباً على شواطئ شبه جزيرة العرب وتغلبت على بعض بني حام في بلاد آشور والجزيرة وسورية قبل

بهنود أميركة) وعددهم خمسة عشر مليوناً. هذا حسب تقويم سنة 1890 ولا شك أنهم يزيدون الآن عشرة في المائة فيبلغ مجموعهم أكثر من ألف وست مائة مليون نفس.

(ق) أدت هذه التقسيمات إلى إطلاق العنان للروح العنصرية في العالم، وقد قامت نظريات أوروبية باعتبار أحفاد سام هم الآسيويون وأحفاد حام هم الأفارقة، وأحفاد يافث هم الأوروبيون البيض. وأرادت من هذا التقسيم أن سام وحام قاما بالخطايا مما جعل أحفادهما خدماً وعبيداً ليافث وأحفاده من بعده. واستمرت الحركة الصهيونية متمثلة بالكيان الصهيوني فيما بعد بإطلاق الاتهامات ضد كل من يقف بمواجهتها بتهمة معاداة السامية. وهذا المصطلح (معاداة السامية) تم ترويجه ويقصد منه معاداة اليهود وليس كل الأقوام التي تتحدر من سام بن نوح. وهذه نظرية عنصرية لا تحمل من المنطق شيئاً، وليس لها أساس مقبول (المحقق).

المسيح بثمانية عشر قرناً وانتشرت في بلاد العرب ومنها إلى أفريقية. وأرقى هذه العشائر العرب.

ولقد امتاز العرب باستطالة دائرة الوجه وعلو القحف وكبره واستدارته واستقامة الجبهة وكبر الأنف مع تطأمن قصبته وكونها شباء ذات طرف أقنى وصغر الأذنين وقلة بروز الفكين وصغر الفم ورقة الشفتين وحسن تنضيد الأسنان ونجل العينين ودعجتها وطول أهدابهما وغورهما مع بروز في قوسي الحاجبين وتناسب الأعضاء واللون الأبيض المشرب بالحمرة الذي يسمرّ لتأثير الشمس والهواء. وسواد الشعر ورشاقة القد الذي يكون غالباً ربعة إلى الطول وحسن التقاطيع واعتدال البنية ووضوح الملامح وملاحة السحنات وقوة العضل فضلاً عن نمو التلافيف المخية وقوام الأعصاب وحسن النظام البدني في القلب والشرايين على حد قول حسان بن ثابت في بني غسان:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شمّ الأنوف من الطراز الأول

ومن خصائصهم الأدبية لطف حسهم وشدة حذقهم وتوقد ذهنهم وحسن محاضرهم وطلاقة لسانهم ودماثة أخلاقهم وخفة حركتهم وشدة إبائهم وأنفتهم وأريحيتهم وصبرهم وكرمهم وعزة نفسهم ووفائهم وشجاعتهم ومراعاتهم للجوار والذمم وافتخارهم بالنسب وطلبهم للمجد. ولقد قال معن بن أوس منهم يصف حلمه:

وذي رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمي عنه وهو ليس له حلم

وقال الآخر في البشر:

وإني لألقى المرء أعلم أنه عدوّ وفي أحشائه الضغن كامن

فامنحه بشراً فيرجع قلبه سليماً وقد ماتت لديه الضغائن

وأبو محجن الثقفي يذكر جوده وكتمه للسر:

وقد أجود وما مالي بذي نفع وأكتم السر فيه ضربة العنق

وحاتم الطائي يصف بشاشته للضيف:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب

وما الخصب للأضياف أن يكثر القـــرى   ولكنما وجــــه الكـــريم خصيـــب

والمهلهل يلمع إلى الأخذ بالثأر:

لا يرقدون على وتـــر يكـــون لهـــم   وإن يكن عندهم وتر العدى رقـــدوا

والسموأل يشير إلى مكارم الأخلاق:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضـــه   فكـــــل رداء يرتديـــــه جميـــــل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمـــها   فليـــس إلى حســـن الثنـــاء ســـبيل

وزهير بن أبي سلمى المزني يبين عاداتهم في تحمل الضراء من الجار وتوفـــير السراء له:

وجـــار ســـار معتمـــداً علينـــــا   أجاءتـــــه المخافـــــة والرجـــــاء
فجـــاور مكرمـــاً حـــتى إذا مـــا   دعـــاه الصيـــف وانقطـــع الشـــتاء
ضمنـــا مالـــه فغـــــدا ســــليماً   علينـــا نقصـــه ولـــــه النمـــــاء

وكعب بن سعد الغنوي في أدب السلوك:

ولســـت بمبـــد للرجـــال ســـريرتي   ولا أنـــا عـــن أســـرارهم بمســـائل

وزهير بن أبي سلمى في ضروب الحكم من معلقته:

فلا تكتمــــن الله مـــا في نفوســـكم   ليخفى ومــــهما يكتـــم الله يعلـــم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصـــب   تمته ومـــن تخطـــئ يعمـــر فيـــهرم
ومن يكُ ذا فضل فيبخـــل بفضلـــه   على قومه يســـتغن عنـــه ويذمـــم
ومن يغترب يحسب عدواً صديقـــه   ومـــن لا يكـــرم نفســـه لا يكـــرم
ومهما يكن عند امرئ من خليقـــة   وإن خالها تخفى على النـــاس تعلـــم

وطرفة بن العبد البكري:

وأعلم علمــــاً ليـــس بـــالظن لـــه   إذا ذل مـــولى المـــرء فـــهو ذليـــل
وإن لسان المرء مـــا لم يكـــن لـــه   حصـــاة علـــى عوراتـــه لدليـــل

والأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت ... فإن تولت فبالأشرار تنقاد

وذو الأصبع العدواني:

الله يعلمكم والله يعلمني ... والله يجزيكم عني ويجزيني
ماذا عليّ وإن كنتم ذوي رحمي ... أن لا أحبكم إن لم تحبوني
كل امرئ صائر يوماً لشيمته ... وإن تخلق أخلاقاً إلى حين
إني لعمرك ما بي بذي غلق ... على الصديق ولا خيري بممنون
ولا لساني على الآذي بمنطلق ... بالمنكرات ولا فتكي بمأمون

وعبد المطلب القرشي في طلب المجد:

لنا نفوس لنيل المجد طالبة ... ولو تسلت أسلناها على الأسل
لا يترل المجد إلا في منازلنا ... كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

والأبيوردي مفتخراً بنسبه:

ويشرق وجهي حين ينسب والدي ... وتلقى عليه للسيادة ميسما
وإن ذكروا آباءهم فوجوههم ... تشبهها قطعاً من الليل مظلما
وللفقر خير من أب ذي دناءة ... إذا هزّ للفخر ابنه عاد مفحما

ولطالما افتخر الشعراء بالشام وقبائلها العربية كقول أحمد بن محمد بن المدبر الكاتب:

وكم بالشام من شرف وفضل ... ومرتقب لدى بر وبحر
بلاد بارك الرحمن فيها ... فقدسها على علم وخير
بها غرر القبائل من معد ... وقحطان ومن سروات فهر
أناس يكرمون الجار حتى ... يجير عليهم من كل وتر

وعلى الجملة فالعرب أساتذة الغرب ومبعث أشعة التمدن حتى قال العالم فيكيه: إن صفات السبط العربي تدل على سموه سمواً حقيقياً متميزاً عن جميع أسباط الجنس البشري.



الفصل الثاني

في أصل سكان سورية

كانت بلاد الشام الغربية الواقعة على شواطئ البحر الرومي في زمن اليونانيين والرومانيين يغلب عليها العنصر اليوناني ولا سيما أنطاكية وبعض السواحل وحدودها الشرقية المتصلة بالبادية يغلب عليها العنصر العربي[1] فقبائل العرب النصارى اختلطت بأهل سورية ولا سيما غور الأردن وبلاد حوران ونواحي حمص و لم تتغلب على العنصر الآرامي في الشام[2]. وإذا أنعمنا النظر في سكان سورية نرى أن المارونيين والسريان هم من أقدمهم ويرجعون إلى السلالة السورية الأصلية التي نسبت إليها هذه البلاد. أما الروم الأرثوذكسيون والكاثوليكيون فهم مزيج من اليونان والسريان والعرب ومن اتصل بهم كاليهود. والمسلمون والدروز هم من العرب والسريان. وفي السلائل الإسلامية بعض اليهود الذين اشتهرت سلالتهم القديمة في بلادنا. والشيعيون والنصيرية من القبائل العجمية التي استقدمها معاوية بن أبي سفيان لما فتح بلاد الشام وأنزلها في سواحلها[3].

ولقد خالط العرب الأمم التي أشبهتهم بسمو المرتبة كالفرس والإفرنج والروم و لم يفقدوا شيئاً من خصائصهم مع أن بعض الإنكليز الذين هاجروا إلى أميركة أثر فيهم اختلاف البيئة[4] والاختلاط بالأمم تأثيراً ظاهراً ولكن اختلاط العرب بمن ذكر قد فصم عرى اتحادهم وفرّق اجتماع كلمتهم فهم أحوج إلى هذا لما رُكب فيهم من ثقوب الفطن ولما أوتوا من الاستعداد الطبيعي للارتقاء ولما في

---

[1] أصل العرب في مجلة الهلال 396:10.

[2] مجلة المشرق 268:3.

[3] تسريح الأبصار 45:2.

[4] المكان الذي يعيش فيه الإنسان أو الحيوان وما فيه من الهواء والماء وسائر المؤثرات الخارجية وهي تعريب (Milieu).

بلادهم من اعتدال الإقليم بحيث يجرون أشواطاً لا يشق لهم فيها غبار ولا يضيق في وجههم مضمار ولا توقفهم عوامل الأخطار.

ولقد جاء في الجزء الخامس من تاريخ التمدن الإسلامي صفحة 12 ما نصه: «فسكان الشام والعراق عند ظهور الإسلام كان معظمهم من بقايا الآراميين الأصليين وهم السريان في الشمال والشرق واليهود والسامريون في الجنوب وبقايا الأنباط في الغرب يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل إياد وربيعة بين النهرين ويتخلل هذا المجموع شتات من أمم أخرى كالجراجمة في جبل اللكام والجرامقة في الموصل وأخلاط من مولدي اليونان والرومان على الشواطئ ومولدي الفرس والأكراد في الشمال. وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسب أو الجنس أو اللغة فأصبحت الطوائف تنتسب إلى مذاهبها الدينية كالنصارى واليهود والسامريين. وينقسم النصارى إلى ملكيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة وغيرهم اهـ».

ومن راجع التاريخ عرف تغلب العناصر المختلفة على سورية ورأى أن الكنعانيين هم أقدم من عمر ساحلها من الحاميين والفينيقيين من الساميين والحثيين في شماليها خاصة، والمصريين والآشوريين والفرس تناوبوا فتحها ثم جاء اليونانيون والرومانيون فاختلطوا بهم إلى زمن الفتح الإسلامي واختلط بهم العرب ولكن هذا الاختلاط لم يؤثر بالمسيحيين منهم لعدم المزاوجة. والصليبيون أقاموا بين ظهرانيهم نحو قرنين[1]، فالتبس رد السكان السوريين إلى أصل واحد ولكن الغالب على الظن أن بعض النصارى من أرثوذكس وكاثوليك هم من بقايا الغساسنة ونحوهم من العرب المتنصرة ومع امتزاج اليونان والرومان بهم لم يغيروا جنسيتهم عملاً بقول أبي العباس الناشئ:

تخلط يوناناً[2] بقحطان ضلة لعمري لقد باعدت بينهما جداً

ولقد ذهب هذا المذهب كثير من كبار المؤرخين مثل ممسون الألماني الذي قال: «إن أهل سورية لم يختلطوا باليونان إلا اختلاطاً ضعيفاً» وتابعه وصيفه نولدك

---

[1] مجلة الهلال 255:1 و617:4.

[2] ذهب بعض المؤرخين إلى أن اليونانيين هم من ذرية يون بن أكزوتس بن هلان و لم يسموا بهذا الإسم إلا نحو القرن الرابع عشر قبل الميلاد لما انقسم الهيلانيون أو الأغارقة إلى أربع طوائف سميت إحداها باليونان أو اليونيين وذلك بعد عهد ياوان بن يافث بما لا يقل عن سبعة عشر قرناً.

في أبحاثه الدقيقة[2]. وقال روبنصن وسمث في رحلتهما التي ذكرت مراراً (502:2) أن معظم النصارى هم اليونان مذهباً وسموا روماً في سورية لمعتقدهم اليوناني ولاختصاصهم بالكنيسة اليونانية. ولا توجد آثار تدل على جنسيتهم اليونانية لا في لغتهم التي يتكلمون بها ولا في لغة خدمتهم الدينية. بل هم عرب. ولا يوجد أيضاً ما يدل على أصلهم السوري سوى بعض قرى سكانها يتكلمون بالسريانية كمعلولا[ق] وجوارها في جبل القلمون (الجبل الشرقي) شمالي دمشق والباقون يتكلمون بالعربية ويقيمون بها فرائضهم الدينية.

وقال المؤرخ المحقق جرجي أفندي زيدان[ق1] في تاريخ التمدن الإسلامي الخامس ما نصه «وأكثر تغلبه (العنصر اليوناني) على سواحل بحر الروم [البحر الأبيض المتوسط (ق)] ويضعف شأنه في الداخلية تدريجاً».

ولقد وقعت مناقشات منذ سنوات في هذا الشأن تضاربت فيها الأقوال والله يعلم وأنتم لا تعلمون.



القطف الثالث

في نسبة بني المعلوف إلى الغساسنة

لقد سبق لنا القول فيما مر أن القبائل العربية اندفعت بعد سيل العرم على سورية، فأعجزت قياصرة الرومانيين حكامها في الشرق، و لم يقووا على دفعهم، حتى اتخذوا الغساسنة عمالهم. فنشأ من هؤلاء ملوك ذاعوا شهرة، ولا سيما بعد تنصرهم فضبطوا قسماً كبيراً من تلك الجهات مدة ووقفوا في وجه العائثين بالبلاد فساداً ومصروا المدن والقرى[1] كبصرى قاعدة باشان والجابية قاعدة الجولان

---

[2] تسريح الأبصار 37:2 و38.

[ق] قرية في جبل القلمون شمال دمشق، يتكلم سكانها اللغة السريانية. ومن أشهر آثارها كنيسة مار تقلا، ودير مار سرجيوس. وهي منطقة جبلية سياحية جميلة (المحقق).

[ق1] ومن أسرة زيدان المشهورة اليوم، بنو زيدان في رويسة البلوط وعين مرسيتي في لبنان، وآل زيدان في جبل الشيخ، في قريتي حضر وعرنة (وهؤلاء يعتقدون بأن أصلهم من رويسة البلوط ويعودون بنسبهم إلى ظاهر العمر الزيداني) (المحقق).

[1] تقويم ولاية سورية سنة 1300هـ 1882م.

ودامة العليا قاعدة اللجأ وغيرها، إلى أن كان الفتح الإسلامي فـــاختلطت هـــذه القبائل المسيحية بالمسيحيين المقيمين في ضواحي الشام. ولكن عنصرهم العربي بقي في البطون التي غادر بعضها الشرق ملتجئاً إلى القياصرة والبعض أسلم والآخر بقي إلى أن رحل قسم منهم إلى غربي سورية وشماليها واتصلوا بلبنان وذلك في أزمنـــة مختلفة ولا سيما بعد تنكيل هولاكو وتيمورلنك بالنصارى فضلاً عما أضرم من نار العدوان التحزب القيسي واليمني.

وجاء في تاريخ التمدن الإسلامي الخامس صفحة 13: (إن خاصة أهل الشـام في العصر الروماني حكامها وهم البطارقة والبطريق غير البطريرك، وكان البطارقـة عند الرومانيين جماعة من أشراف المملكة الرومانية نشأوا مع مدينة رومية وكـــان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية وانحط شأنهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمـــل، فلما امتدت سطوة الروم إلى الشرق رأوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيـها وإخضاع أهلها إلا أهل السطوة والهيبة، فعهدوا بذلـــك إلى البطارقـــة وولوهـــم المستعمرات الشرقية وفي جملتها الشام ومصر. وكانت الشام ولاية واحدة تقســـم إلى أحد عشر إقليماً على كل إقليم بطريق معه الجند كأنه حاكم مستقل. وكـانت حدود الشام بالنظر إلى الحكومة تنتهي من الشمال الشرقي إلى الفرات ولا يدخـــل العراق وما بين النهرين فيها. اهـــ). ولقد مر معنا في الصفحة 69 [مـــن الطبعـــة الأصلية (ق)] أن الغساسنة نالوا لقب البطارقة فانحصرت فيهم وحدهـــم إمـــارة العرب.

ولا يخفى أن الغساسنة لما تولوا عمالة القياصرة كما مر عـــززوا النصرانيـــة ونالوا امتيازات خاصة لأن المستعمرات الرومانية كانت لعـــهدهم علـــى ثـــلاث طبقات الطبقة العليا وهي تنيل المدينة معافيات وحقوقاً كحـــق الامتـــلاك العـــام والإعفاء من الخراج والحرية الكاملة في سياسة المدينة وتدبيرها وأحـــرزت ذلـــك المدن الكبيرة والقواعد الممتازة كتدمر وبصرى. والطبقة المتوسطة وكانت تخفـــف عن المستعمرة وطأة الخراج. والطبقة السفلى لم تمنح للمدينـــة إلا شـــرفاً بـــدون امتياز[2].

فلذلك ليس بغريب نيل البطارقة الغسانيين وقومهم امتيازات الطبقة العليـــا لأن نفوذهم وحب القياصرة لهم ومعاهدتهم إياهم على إمدادهم بالجند المـــدرب

---

[2] مجلة المشرق 1:589.

كانت كافية لنيلها ولذلك لم يدفعوا مالاً ولا أتاوة ولا خراجاً. وبعد أن نزع الفرس عنهم لقب الملك قبل الفتح الإسلامي بقي لهم الامتياز فتغيرت أسماء قبائلهم وبطونهم وأفخاذهم وانتمت إلى رؤساء امتازوا بينهم كما هو الحال لعهدنا. ولما ظهر الإسلام كانت أشهر القبائل القحطانية: سبأ وحمير وكهلان والأزد ومازن وغسان والأوس والخزرج وبجيلة وخثعم وهمدان وطي ولخم وكندة وقضاعة وكلب وتنوخ ومراد والأشعر وغيرها[1]. وكانت العرب أقرب سائر الأمم إلى نجدة الإسلام لأنه نهضة عربية والمسلمون هم العرب ولأسباب أخرى تختص بكل قبيلة على حدة كحقد عرب اليمن على الفرس منذ فتحوا بلادهم وحكموهم قبل الإسلام. وكان الغساسنة عمال الروم في الشام والمناذرة عمال الفرس في العراق و لم يكن العرب يحبون الروم ولا الفرس وإنما كانوا يخضعون لهم قسراً وخصوصاً المناذرة فقد كان بينهم وبين الفرس ضغائن على أثر مقتل النعمان بن المنذر من كسرى ابرويز وحدثت بينهما موقعة ذي قار الشهيرة فانتصف العرب من أولئك[2].

وكانت غاية المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين تأييد الإسلام ونشره ورفع شأن العرب وكثيراً ما كانوا يعفون غير المسلمين من الجزية إذا تعهدوا بالقتال معهم وأكثر ما يكون ذلك مع العرب النصارى[3] ولكنه وقع غير مرة مع غير العرب كالجراجمة في جبل اللكام فإن حبيب بن مسلمة الفهري غزاهم فبدروا بطلب الأمان فصولحوا على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية... دخل ومن كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط وغيرهم من أهل القرى في هذا الصلح فسموا الرواديف[4].

فعلى هذا ترك الخلفاء الراشدون الخراج للغساسنة واتخذوا منهم جنوداً ولا سيما من كان منهم في بصرى ودامة العليا وتركوا لقبهم الغساني وسمي سكان دامة ببني المعيوف[5]. وهكذا فعل بهم الأمويون لأن قبائل غسان حضرت كثيراً من

---

[1] تاريخ التمدن الإسلامي 4:12.

[2] التمدن الإسلامي 1:51 و52.

[3] التمدن الإسلامي 1:58.

[4] التمدن الإسلامي 1:52.

[5] كل من عرف أن اللغة العامية كانت فاشية في صدر الإسلام بدليل قول أبي الأسود الدؤلي:

ولا أقول لقدر القوم قد غليت ولا أقول لباب الدار مغلوق

مواقعهم مثل واقعة مرج راهط إذ أقبل عباد بن يزيد الغساني من حوران في ألف من مواليه وغيرهم من بني كلب وانتصر اليمانية وبايعوا مروان بن أبي الحكم الأموي وذلك سنة 65هـ 684م. وكذلك في مواقع عبد الملك بن مروان فقد كانت معظم جيوشه من بني غسان. قال الأخطل:

مقدماً مائتي ألف لمترله ما أن رأى مثلهم جنٌ ولا بشر

ثم وصف في هذه القصيدة فتك بني غسان بعمير بن حباب السلمي وقطعهم رأسه. وكان هذا لا يبالي بهم لمن يقول هم جشر أي يتعزبون في إبلهم:

فسائل الصبر[1] من غسان إذا حضروا والحزن[2] كيف قراك الغلمة الجشر

ولقد امتاز الأمويون بتعصبهم للعرب واحتقار سواهم ولو كانوا مسلمين حتى كان مطمح أبصارهم (العرب والمال) ولقد احتاجوا إلى المال لتأييد شوكتهم ولا سيما في الفتن المضرية واليمنية وبين العرب والموالي والخوارج والعلويين[3] إلخ. ولذلك لما جاء العباسيون عززوا الفرس ولا سيما أهل خراسان وأذلوا العرب ليخالفوا مبدأ بني أمية[4].

ومما يدل على كره العباسيين للعرب أنه لما عاتب رجل الأمين بن هرون الرشيد مرة بقوله: (يا أمير المؤمنين أنظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان). فقال له: «أكثرت عليّ والله ما أنزلت قيساً من ظهور خيلها إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد. وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط وأما قضاعة فساداتها تنتظر السفياني حتى تكون من أشياعه وأما ربيعة فساخطة على ربها مذ بعث نبيه من مضر[5]». ولهذا لما جاءت الدولة العباسية نزعت تلك

لكن أقول لبابي مغلق وغلت قدري وقابلها دن وإبريق

وطالع المزهر وغيره من كتب اللغة التي تصرح أن العرب الذين لم تؤخذ عنهم اللغة الفصحى كانوا مختلطين بالأعاجم ومنهم قضاعة وغسان وإياد المجاورين للآرامين والعبرانيين حكم بصحة هذا الاشتقاق حسب اللهجة العامية وإن كانت اللغة الفصحى تنكره ولن تزال في عهد اللغة العامية تسوغه فيقال هو معروف من الشيء أي معنى منه.

[1] الصبر قبائل غسان منهم عمرو بن الحارث.

[2] حي آخر من غسان منهم معاوية بن عمرو.

[3] التمدن الإسلامي 2:18 و19 و110.

[4] التمدن الإسلامي 2:106 و128.

[5] ابن الأثير 6:116.

الامتيازات عن العرب ولا سيما الغساسنة لأنهم كانوا ظهراء الأمويين فغير سكان دامة لقبهم المعيوف بالمعلوف لقرب الصيغة عملاً بما أطلقه عليهم الحاكم العباسي.

ولقد كانوا في دامة العليا ذوي ثروة وجاه فاتخذوها حصناً حصيناً لجودة موقعها ومناعة أبنيتها ووفرة أرضها وكانت صبغتهم حماك يمنية ولما اشتهروا بثروتهم ووجاهتهم أثار ذلك حسد جيرانهم القيسيين ولا سيما البدو الرحل الذين كانوا يضربون خيامهم صيفاً في اللجأ فواقعوهم مراراً وامتد هذا التحزب بين النصارى والمسلمين والبدو فجرت الدماء بينهم سيولاً واشتهرت العداوة بين بني المعلوف والعرب الفحيليين.

ولقد تناقل الشيوخ خلفاً عن سلف أن بني المعلوف هم غساسنة ورووا في تسميتهم هذه الرواية. وكذلك صرح بهذا حجة المؤرخين الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد[1] المشهور بمعارفه التاريخية ولا سيما ما يتعلق بالأسر اللبنانية وكانت والدته ابنة شلهوب الكريدي شقيقة المرحوم الخوري حنا الكريدي الأول فحقق أمر نسبة الكريديين إلى بني المعلوف ونسبتهم جميعاً إلى غسان. ولقد روى ذلك مراراً ولا سيما أمام الجنرال ديكرو رئيس العساكر الفرنسية الذي كان ولعاً بمعرفة الأسر اللبنانية لما زاره سنة 1860م ومعه يوسف بك كرم وفي مجلسه كثير من الأعيان كالشيخين ضاهر وحنا حبيش وبعض المشايخ الخازنيين وغيرهم.

ومن تعمق في درس علم السلائل البشرية ومعرفة الخصائص المميزة للقبائل، سواء كانت حسية أو معنوية كالسحنات والألوان والتقاطيع والطبائع مع ما يضاف إليها من الخصائص الطبيعية اللازمة التي لم تعرض من أمر خارجي، عرف لأول وهلة أن العبرة ليست في اللون فقط بل في ما يترتب على تلك الأحوال من الأمور الظاهرة والباطنة ومع ذلك فاللون فارق ولولاه لما قسمت السلائل إلى الأبيض والأصفر والزنجي.

وأنت إذا نظرت إلى بني المعلوف رأيت من خصائصهم استدارة القحف وشمم الأنف وانبساط الجبهة وارتفاعها مع عدم البروز وسبوطة الشعر مع فلقته

---

[1] إن أسرة مسعد يتصل نسبها بالشدياق خاطر الحصروني حاكم جبة بشراي نبغ منها غبطة المترجم وهو بولس بن مبارك مسعد من عشقوت ولد فيها سنة 1806 ودرس في عين ورقة وتسقف على طرسوس شرفاً سنة 1841 وارتقى إلى الكرسي البطريركي سنة 1854 وتوفي 1890 وله مؤلفات مفيدة وكان ذا خبرة واسعة في الطوائف والأسر الشرقية عالماً حكيماً امتاز بدرايته وتقواه وسياسته. ومن أنسبائه أخوه المرحوم المطران بطرس مسعد رئيس أساقفة حماة من سنة 1859 ــ 1885. وسيادة المطران بولس مسعد أسقف دمشق الذي سيم سنة 1892 وغيرهم من الكهنة والأعيان.

أحياناً وسمرة اللون وحسن التقاطيع وتناسب الملامح وسواد العينين وبحلهما وسواد الشعر ونحو ذلك مما هو من خصائص العرب. وفي طباعهم الحدة والترق والكرم والاقتناع بالكفاف والمعيشة في القرى والبعد عن المدن والضوضاء غالباً وطيب القلب والشجاعة والإقدام والميل إلى نظم الشعر والأنفة إلى غير ذلك. وبما أن بني غسان قد كرموا القديس سرجيوس (سركيس) وبنوا له الكنائس الكثيرة كان بنو المعلوف منهم يكرمونه وقد ابتنوا له معبداً في دومة البترون لن تزال أطلاله القديمة فيها إلى اليوم وحافظوا على غرضهم اليمني في جميع الأدوار التي تقلبت عليهم.

ولم يرموا بالبدعة اليعقوبية التي فشت بينهم بدليل أنهم نزلوا في شمالي لبنان في جوار جبة بشراي في أوائل القرن السادس عشر وأكرم مقدموها مثواهم وذلك على أثر ما حدث من الاضطراب بشأن تلك البدعة التي تشتتت من هناك سنة 1488م[1] فلو كانوا منهم لما أمكنهم الإقامة بينهم وقد كانت نار الحقد عليهم في إبان اضطرامها.



[1] راجع تاريخ الديس 578:6 والدويهي 142.

الفرع الثاني

في نشأة بني المعلوف في حوران وفيه قطوف

القطف الأول

في شؤونهم قبل هجرهم حوران

قلنا أن بني المعلوف هم من الغساسنة[2] الذين بقوا في حوران خاضعين للفاتحين ونائلين منهم التفاتاً ومكانة لما رأوا فيهم من المبادئ القويمة والمحافظة على الجنسية. وكانوا يشغلون كثيراً من المدن القديمة كالبلقاء والجابية وبصرى ودامة العليا واذرع وغيرها. فتفرق شملهم بزمن الفتح وبعد الدولة العباسية ولكن قسماً منهم اقطع اللجأ الذي كانت قاعدته دامة العليا[3] فصولحوا على ترك الجزية كما مر في صفحة 140 وسموا ببني المعيوف، ولا سيما أن جدهم نصر الأوس والخزرج الذين منهم الأنصار، ثم أبدل اسمهم بعد أخذ الجزية منهم بالمعلوف لقرب الصيغة. وكانوا هناك ينتمون إلى ثلاثة أصول أحدها أصل ابرهيم المعلوف الغساني جد الأسرة المعلوفية التي وضعنا لها هذا التاريخ. والثاني إلى نسيبه جرجس. والثالث إلى الياس. وهؤلاء الثلاثة هم من سلالة عيسى بن موسى بن ابرهيم بن جرجس بن الياس بن مدلج بن عبد المنعم بن عدي المتصل نسبه بأبي بجيلة (أو جبيلة) الغساني ناصر الأوس والخزرج الذي مر ذكره في صفحة 82 ومدحه شاعرهم الرنق بقوله كما رواه الأغاني[1]:

لم يقض دينك في الحسان وقد غنيت وقد غنينا

---

[2] راجع تاريخ الغساسنة وأحوالهم في حوران من صفحة 61 إلى 93 [من الطبعة الأصلية (ق)].

[3] راجع وصف دامة في صفحة 22 وجاء في معجم الكتاب المقدس للدكتور بوست الأميركاني ما نصه «أدامة (تراب) مدينة محصنة لنفتالي (يش 36:19) والأرجح أنها دامية في اللجاة غربي بحر الجليل وأدامي (تراب أو أدمي) مكان على تخم نفتالي (يش 33:19) والأرجح أنه خربة أدمة».

[1] روايات الأغاني طبع بيروت 5:2 أما اتصال النسبة بأبي بجيلة فذلك متناقل على ألسنة الشيوخ ولا سيما نصرته للأوس والخزرج فإن قصتها مروية يتفقون جميعهم عليها.

بالراشقات المرشقات الجازيات بما جزينا
أمثال غزلان الصرا ثم يأتزرن ويرتدينا
الرَّيط والديباج والزرد المضاعف والبرينا
وأبو بجيلة خير من يمشى وأوفاهم يمينا
وأبرهم براً وأعلمهم بفضل الصالحينا
أبقت لنا الأيام والحرب المهمة تعترينا
كبشاً لنا ذكراً يفل حسامه الذكر السمينا
ومعاقلاً شماً وأسيافاً يقمن وينحنينا
ومحلة زوراء تزحف بالرجال المصلتينا

و لم نثبت هذه النسبة التي تناقلها كثير من الشيوخ خلفاً عن سلف كما فعل كثير من الأسر اللبنانية إلا لمعرفة العلاقة النسبية لا للافتخار الذي ربما يعده بعض الناس من أول أغراض المؤرخ لأننا عالمون أن الحقيقة منحصرة في قول الشاعر:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

ولقد نشأ ابرهيم كبير تلك الفروع في دامة العلياء وذاع شهرة وكان له سبعة بنين وهم عيسى ومدلج وفرح وحنا وناصر ونعمة وسمعان ومنهم نشأت فصيلة كبيرة. ولقد لقب ابرهيم بأبي راجح لرجحان عقله وأصالة رأيه وكان وافر الثروة نافذ الكلمة كثير المواشي مشهوراً بكرمه اتخذ هيكلٍ منرفة المعروف الآن بنجمة المشرق الماثلة في تلك القرية إلى عهدنا مضافة (محلاً لقرى الضيوف).

وكان منذ أزمان قد جاء حوران ثلاثة من اليونانيين تركوا بلادهم لأسباب فاتصلوا بدامة العلياء ونزلوها وتزوجوا ببنات من بني المعلوف وصاروا جميعهم يداً واحدة فيها ولكنهم حفظوا جنسيتهم واسمهم. فصارت تلك البلدة المنيعة حصناً لمن يلتجئ إليها. وسكانها يدافعون عن جيرانهم النازلين في اللجأ من الغسانيين وسواهم فتأيدت فيها كلمتهم واشتهرت سطوتهم وتوالدوا وكثروا فكانوا عشيرة كبيرة حسدهم الجيران من العرب وغيرهم ولا سيما الفحيليون من العشائر التي كانت تخيم في اللجأ وذلك لثروتهم وقوتهم والثروة والقوة تثيران الحسد ولا تحفظان إلا بحد السيف، فالمال لا يقوم مقام القوة ولا يحمي نفسه ولكن القوة

تقوم مقام المال فهي أفضل منه... ولما كثرت بينهم الوقائع وسفكت الدماء وكانت العصبية اليمنية والقيسية تزيد نار الحقد اضطراماً وعرى الاتحاد انفصاماً دافعوا عن أنفسهم بسيوفهم واشتهروا بسطوهم.



القطف الثاني

في ما جرى لهم من الحوادث

كانت حوران تابعة لدمشق في جميع الأحوال التي تقلبت عليها ونالت عشائرها لدى بعض حكامها منزلة وكانت قلعة صرخد فيها حصينة نازلها الصليبيون وملكها الأيوبيون ولا سيما الأفضل بن صلاح الدين الذي تولى دمشق سنة 1186م واستولى عليها الملك الظاهر بيبرس البندقداري المتوفى سنة 1278م واعتزل فيها الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري سنة 1296م لما خلعه لاجين نائبه في مصر. وتولاها أقوش الأفرم نائب الشام من كبار أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون وتوفي سنة 1316م. فكان بنو المعلوف مثل غيرهم يتقربون من الحكام لتأييد نفوذهم إلى أن حدثت الاضطرابات الأخيرة في زمن دولة الشراكسة المصريين وكثرت القلاقل واضطرب حبل السكان وتفرقت كلمتهم وعاث البدو في البلاد.

وكان في عشيرة أبي راجح ابرهيم المعلوف ابنة جميلة الطلعة اسمها لطيفة أبية النفس رقيقة العواطف، يروى عنها أنها خرجت ذات يوم مع بعض صواحبها إلى بئر في أسفل بلدها وكانت المياه قليلة فيها وفي ما يجاورها من القرى ما خلا آباراً في دامة احتفرها بنو المعلوف لهم ولمواشيهم الوافرة، فكان جيرانهم يستقون منها. وبينما لطيفة تسرح الطرف بالمناظر الجميلة إذا بابنة من جوارهم قادمة بجرتها لتستقي، فحيت لطيفة فردت تحيتها حسب عادتهن ثم طلبت منها أن ترفع لها جرتها إلى كتفها فتباطأت لطيفة لأنها كانت تتجاذب أطراف الحديث مع صواحبها. فصاحت بها تلك الابنة قائلة: (أسرعي يا ابنة بائع السمن) فأثر كلامها في نفس الفتاة التي لم تكن لتسمع كلمة تعيير ولا تنطق بشيء من ذلك. فذهبت لطيفة إلى بيتها حزينة كاسفة البال فسألها أنسباؤها عن سبب اكتئابها فلم تخبرهم ولكن إحدى صواحبها قصت عليهم الخبر.

وكانت مترلتها في قلب أسرقا عظيمة، فأرادوا أن يظهروا لجيرانهم حقيقة الحال، فدعا زعيمهم إلى قريته سكان سبع قرى تجاورهم كباراً وصغاراً وأولم لهم وليمة حافلة. وكان قد استقدم بعضهم قبل الشروع بإعداد الطعام وأراهم أن ما وضعوه أداماً للطعام لم يكن سمن يوم واحد فقط. فملأوا الدسائع (المناسف) منه وجلسوا على ركبهم يكتلون الطعام بأيديهم ويلتهمونه وقد شمروا عن سواعدهم وتلك عادة معظمهم إلى عهدنا. وبعد أن شبعوا وأديرت عليهم القهوة فشربوها أشار زعيم بني المعلوف إلى خدامه أن يريقوا على الأرض ما بقي في الأوعية من السمن فإذا به شيء كثير، فنظروا إليهم بتعجب وسألوهم عن ذلك لأن عادقم حفظه إلى يوم آخر. فقال لهم ذلك الزعيم أن ابنة فلان منكم وأشار إليه قد عيرت ابنتنا لطيفة بقولها (يا ابنة بائع السمن) فماذا نفعل به إذا لم نبعه. وقد حفظنا سمن يوم واحد فقط فكان هذا مقداره والله وهبنا من فضله مواشي كثيرة. فاعتذروا إليهم ولا سيما والد تلك الابنة الذي اشتد خجله فطابت لطيفة بذلك نفساً وسري عنها وهي تنظر إلى ما جرى من بعض النوافذ. فهكذا نشأت هذه الابنة على تربية عواطفها على الرقة وتنشئة أخلاقها على الأنس حتى كان أقل شيء يؤثر فيها.

وفي صيف سنة 1520م كانت بعض الزروع قد استحصدت (قرب حصادها) فغصت الحقول بالحصاد وكان المتملكون وخاصتهم يناظروهم وطقطقة مناجلهم وحفيف الحصيد في قبضاقم موسيقى تطرهم تتخللها أغان شجية. وقد قرت عيوهم بمرأى تلك السهول المنبسطة والتلال المرتفعة متأملين بمحاسنها وبديع ألواها فالحنطة الخضراء كالمكاحل الزمردية تتمايل هامتها تابعة لحركة النسيم اللطيف كأها سكرى. والشعير والحبوب الأخرى بين صفراء وبيضاء تمثل نقود الذهب والفضة في يدي صيرفي غير بارع يعدها. وإذا التفتوا إلى ورائهم رأوا الجياد المطهمة والجمال النجيبة والبغال الفارهة والأغنام والأبقار الجميلة ترتعي الحصائد (بقية الزرع المحصود) التي غادرقا المناجل. والحصيد ينقل إلى البيادر فينضد أكداساً. فالناس والحيوانات والطبيعة جميعهم بحركة في مثل هذا الوقت الذي تفكّ فيه النفوس من عقالات خمول عقدها الشتاء وتنفض الأجسام رماد كسل ذرّته النيران على أثواها في إبان برده. فالكون يفتر عن ثغور المحاسن وكأن الجو ينظر بعينه الزرقاء لتعويذ ذلك الجمال الفتان من عيون الحساد.

فبين هذه المشاهد الطبيعية المستوقفة للنظر كانت لطيفة تسير في أكثر الأيام على متن جواد كريم وحولها خوادمها على الحمير ناقلات الطعام إلى أسيادهن في الحقول وكثيرات غيرهن يحملن على رؤوسهن أطباقاً من الطعام إلى الحصاد عدواً على الأرجل. فسارت ذات يوم بهذا الموكب ممتعة نظرها بما مرّ وصفه من المحاسن مبتهجة بأغاني بعض النساء والبنات وهن سائرات غير حاسبات لعوادي الأيام حساباً.

فما ابتعدت عن البلدة بموكبها هذا حتى فاجأها من أحد المضايق بعض فرسان الفحيليين يتجارون كأنهم يقصدون اختطافها وهم يتحادثونهويومئون إليها فطار لبها رعباً و لم يلبثوا أن أحدقوا بها إحداق الهالة بالقمر فلم تتمكن من الهرب، ولكنها دافعت عن نفسها بشجاعة فلم يلحقوا بها أذى، ولكنهم استوقفوا خوادمها وأكلوا ما على رؤوسهن من الطعام وهي تنظر إليهم من بعيد بعين يكسرها الحياء أدباً ويكسوها الغضب حمرة إلى أن فرغ الطعام، فساروا في سبيلهم وتركوها موغرة الصدر حنقاً متوردة الوجنتين خجلاً مصطكة الركبتين رعباً حاسبة ذلك إهانة كبيرة لقومها وحطاً من مقامهم وتحاملاً عليهم، فلم تستطع صبراً وقد نالها ما نالها من ألدّ أعدائها.

فأشارت إلى خوادمها أن يملأن الأطباق من أبعار الجمال ونحوها ويغطينها ويستأنفن المسير معها إلى الحقل ففعلن. وكان روعها يهدأ كلما طال الوقت ولكن الذكرى كانت تثير أحزانها حتى وصلت إلى محاصد قومها فأقبل أحدهم عليها يحييها كالعادة فرآها كئيبة النفس مقطبة الوجه تترقرق في عينيها السوداوين دموع الحزن. وكانت قد اعتادت أن ترد التحية بهشاشة ولطف. ثم تناول الأطباق ورفع عنها الغطاء فإذا بها مملوءة مما تأنف منه النفوس وتمجه الأذواق، فسأل لطيفة ما هذا يا ابنة العم، فقالت له: هذا طعام من لا يحافظ على كرامة عشيرته ولا يذود عن حوضه بجميع قوته. ثم أجهشت بالبكاء قائلة بلسان ليلى بنت لكيز الوائلية:

ليت للبرّاق عيناً فترى ما أقاسي من بلاء وعنا
يا كليباً يا عقيلاً أخوتي يا جنيداً أسعدوني بالبكا
عذبت أختكم يا ويلكم بعذاب النكر صبحاً ومسا
قل (لغسان) فديتم شمروا لردى الأعداء تشمير الوحى

واعقـدوا الرايـات في أقطارهـا   واشهروا البيض وسيروا في الضحـى
يا بني (المعلـوف) سـيروا نصـروا   وذروا الغفلـة عنكـم والكـرى
واحذروا العـار علـى أعقـابكم   وعليكـم مـا بقيتـم في الدنـا

فما أتمت كلامها هذا حتى سالت عيناها بالدموع واجتمع حولها أخوتها وبنو أعمامها وأتباعهم، فقصت عليهم إحدى خوادمها ما جرى لها، فحرك ذلك ساكن غيظهم، وتأكدوا أن أعداءهم الفحيليين الذين سرحوا مواشيهم ذلك اليوم في زروعهم ومنعوهم وأهانوهم هم الذين قصدوا الإيقاع بلطيفة. فشكروا الله على خلاصها ونووا أخذ الثأر منهم والفتك بهم فعقدوا اجتماعاً في تلك الليلة أقروا فيه على أنهم بعد جمعهم زروعهم ودياستها وبيعها مع مقتنياتهم يفتكون بخصومهم ويتركون بلادهم قاصدين لبنان[1] لما انتشر فيه من الراحة بالفتح العثماني، ولكن ثورة الغزالي نائب دمشق في تلك السنة سببت اضطراباً في حوران وما يجاورها.



القطف الثالث

في الفتح العثماني

لا خفاء أن الدول التي تعاقبت على سورية أثناء حكم الدولة العباسية كثيرة كما مرت الإشارة فمنها ما استقل ومنها ما كان تابعاً لمصر وغيرها وأعظمها شأناً الدولة العلية العثمانية أيدها الله التي نشأت في آسية الصغرى ببقعة تركستان وهي أقدم موطن للترك والتتر وتسمى أيضاً ترستان. فالترك قبيلة تنسب إلى ترك من ولد يافث بن نوح. نشأ منها التتر والتركمان. ولقد هاجر جد العثمانيين العظام سلمان شاه سنة 1200م من بلاده إلى ديار الروم مع عشائره التركمان

[1] اتفق على هذه الرواية جميع بني المعلوف على اختلاف مواطنهم ومع انقطاع علاقات بعضهم عن بعض قروناً ولقد أيدها حضرة الايكونوموس الفاضل سليمان غباين النائب الأسقفي لطائفة الروم الكاثوليكيين في حوران بكتابة بخطه في 24 ت2 سنة 1906م، وأكد لنا قصة لطيفة وخروج بني المعلوف من دامة العليا بعيد فتكهم بخصومهم وكل ذلك تتناقله إلى اليوم ألسنة الحوارنة. وهو الذي صحح رواية أبي ناتج التي نشرناها في المشرق 775:8 عند كلامنا عن ناصيف المعلوف وأسرته وقال أن أبا ناتج ليس جداً لبني المعلوف كما كان قد روى لنا بعض المحدثين، فلذلك اعتمدنا على الرواية المتناقلة في حوران فليصحح.

الرحل وهم خمسون ألف أسرة (عيلة) وكان سليمان من ملوك بلاد الترك الذين نشأ من سلالتهم ساكن الجنان السلطان عثمان الغازي ابن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية الذي ولد سنة 1259م واستقل بزمن الدولة السلجوقية ونال لقب خان سنة 1292م وهي السنة 692 الهجرية المناسبة جمل قولك (آل عثمان) وتبوأ عرش الملك سنة 1299م في قره حصار، وهو أول من دعي بادشاه، ثم حصن مدينة يكي شهر المدينة الجديدة ونقل إليها تخت مملكته وتوفي سنة 1326م ونقل ابنه الملك أرخان تخت الملك إلى بروسة سنة 1326م وهي التي تملك فيها وسنّ نظاماً جديداً للعسكرية سماه بالتركية يكيجاري، فحرفه العرب إلى انكشاري ومعناه الجيش الجديد. ثم نقل ابنه السلطان مراد تخته إلى أدرنة. ولما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سنة 857هـ 1453م صارت عاصمة لمملكته إلى عهدنا وقيل في تاريخها (بلدة طيبة). ولقد وصف الدولة المرحوم جودت باشا في تاريخه المشهور المعرب مؤخراً صفحة 33 بما نصه: (وهذه الدولة السعيدة وإن كانت في بدء نشأها على هيأة حكومة صغيرة فإنها كانت جامعة للديانة والشجاعة العربية متصفة بالثبات الذي هو من أخلاق الترك فلذلك كانت مع صغرها جمعية جميلة وكان يشير استعدادها إلى أنها ستكون كهفاً وملجأ للملة الإسلامية. وإليك أمر نشأها فإنها لم تستول على ملك مؤسس ولا ظهرت في هيأة ذات مكانة في العالم بل فتحت البلاد ووسعت المسالك وجعلت لنفسها مكانة واسعة وأسست سلطنة جسيمة وجمعت من آداب الملل أحسنها وألفت لغة من لغات كثيرة ورتبت للملك هيأة جديدة ذات محاسن عديدة. فبظهورها قوي عنصر الإسلام وعظمت شوكته وتجددت سطوته وزال الضعف والهوان وتبدل الخوف بالأمان[1]) اهـ. وهكذا نشأ منهم ملوك عظام كل منهم ينشد قول السموأل:

---

[1] إن الدولة العثمانية حكومتها من النوع المطلق ومساحتها (1580347) ميلاً مربعاً وعدد سكانها (39025736) نفساً وهي ثلاثة أقسام ولها البلاد الواقعة في الجنوب الشرقي من أوربة وسكانها (5711000). وثانيها الواقعة في الجانب الغربي من آسية وسكانها (16823500). وثالثها الواقعة في الشمال الشرقي من أفريقية وسكانها (1300000) ذلك عدا أقسامها الممتازة التي يبلغ سكانها (15191236) وعاصمتها الآستانة العالية مساحتها (2702) ميل مربع وعدد سكانها (1136000) نفس (عن دائرة المعارف العربية في كلمة عثمانية) وإدارتها العسكرية تقسم إلى سبعة فيالق محلاتها حسب طبقاتها الآستانة العليا وأدرنة ومناستر وأرزنجان ودمشق الشام وبغداد وصنعاء اليمن. وأرفع رتب المأمورين الملكيين فيها الوزارة والعسكريين المشيرية. ويليهما رتبتا بالا والأولى المتمايزة. أما أسماء ولاياتها العمومية فهي الحجاز واليمن والبصرة وبغداد والموصل وحلب

إذا مات منـــــا سـيد قـــام سـيد قؤول لمـــا قـــال الكـــرام فعـــول

وآخر الدول التي ملكت سورية ومصر كانت دولة الشراكسة التي عاصرهـا في هرمها من الملوك العثمانيين ساكن الجنان السلطان سليم الأول بن بيازيد الثـاني الملقب (ياوز) أي الصارم أو العبوس. ولد هذا الفاتح العظيم سنة 1467م وتـــولى الملك سنة 1512م وتوفي سنة 1520م. وكان يكره أهل الشيعة لانتشار تعاليمها بـين رعاياه فقتل ممن اتبعوها نحو 40 ألف رجل وحارب اسمعيل شاه العجم سـنة 1514م واستولى على آسية الصغرى و لم تخف على حكمته ممالأة دولة الشراكسة لذلـــك الشاه سراً وإرسالها خفراء تقف في وجه قوافله التي تقل له الذخائر فلذلك انتـــهز فرصة مده لرواق سلطته على العجم وقصد سورية سنة 1516م فواقع ملكها قنصوه الغوري في مرج دابق قرب حلب واستظهر عليه وكان خيري بك نائب حلـــب والغزالي نائب دمشق من قبل الشراكسة قد انحازا إلى معسكره وانفــرد الغـوري بالمصريين والأمراء التنوخيين الذين يدعون أنهم يمتون إلى الشراكسة بنسب فقتـــل الغوري وهو يناهز الثمانين وتمزق شمل الشراكسة واستتب الملك للسلطان ســـليم المشار إليه فدخل حلب وخطب له بجامعها ولقب بخادم الحرمين الشريفين ثم عـلج بحماة وحمص وجاء دمشق فلبث فيها أربعة أشهر ونظم شؤونها وتفقد حـــوران ونشر الأمان في بلاد الشام وبنى ضريحاً للشيخ الأكبر محي الدين العربي وجامعـــاً فوقه باسمه وأنعم على الغزالي بولاية الشام وملحقاتها واستقدم إليه أمراء جبل لبنان فلبى أمره الأمير فخر الدين ابن الأمير عثمان المعني والأمير جمال الديـــن اليمـــني والأمير عساف التركماني فخطب أمامه الأمير فخر الدين المومـــأ إليـــه خطابـــه المشهور الذي أثبته الأمير حيدر الشهابي في تاريخه صفحة 561 وهـــو (اللـــهم أدم دوام من اخترته للملك وجعلته خليفة عهدك وسلطته على عبادك وأرضك وقلدته سنتك وفرضك ناصر الشريعة النيرة الغراء وقائد الأمة الطاهرة الظاهرة سيدنا وولي نعمتنا أمير المؤمنين الإمام العادل والذكي الفاضل الذي بيده أزمة الأمر بادشاه أدام

وسورية وبيروت وطرابلس الغرب وخداوندكار وقونيه وأنقرة وايدين وأظنه وقسطمولي وسيواس وديار بكـــر وبتليس وأرض روم ومعمورة العزيز ووان وطرابزن وجزائر بحر سفيد وكريد وإردنة وسلانيك وقوصرة ويانية واشقودره ومناستر. وألويتها المستقلة هي: القدس الشريف وبنغازي وزورو وإزميد وقلعة سلطانية وجناجـــة وجبل لبنان. والولايات الممتازة هي مصر وتونس وبوسنة وقبرص وبلغارية والروم ايلي الشرقية وسيسام. وهي راقية في معارج الفلاح بهذا العصر الحميدي الأنور.

الله بقاه وفي العز الدائم أبقاد وخلد في الدنيا مجده ونعماه ورفع إلى القيامة طـــالع سعده وبلغه مأموله وقصده. من ملك الملك بالعقل والتدقيق ومده الله بالإقبـــال والتوفيق أعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد بأنعم العز والتأييد آمـــين اهــ). فأثنى على فصاحته وقرره على بلاد الشوف وقدمه على الجميع وفوض إليه كل أمور الشام وولى الأمير جمال الدين اليمني على بلاد المغرب والأمير عســـافاً التركماني على كسروان وجبيل وأمرهم بالعدل في قومهم وحســن السياســة في بلادهم وتعميرها ورتب عليهم مالاً قليلاً فكان ما أصاب بلاد كسروان سبع مائـة سلطاني (والسلطاني ثلثا الغرش الأسدي لا ثلثون غرشاً كما في تاريخ الأمير حيدر المطبوع) ومنحهم بذلك خطاً شريفاً فعمر لبنان وانتشر فيه الأمان وكثر الســكان ثم سار إلى مصر وفتحها فقيل في تاريخ فتحه هذا (فاتح ممالك العرب) ومجمـــوع جملها يوافق سنة 923 هــ (1517م) وولى خيري بك نائباً على الديـــار المصريـــة. وهكذا تمتع القطران بنعم هذا الفاتح العظيم الذي كان يحب العلم ويقرب العلمـاء والشعراء وكان شاعراً بالعربية والتركية والفارسية. تـــوفي ســنة 1520م وخلفـــه السلطان سليمان خان الأول. ولقد روى البكري في تاريخه وغـــيره: أن الغـــزالي الشركسي نائب الشام انتهز فرصة موت السلطان سليم وادعى الملـــك وخطـــب لنفسه واستولى على قلعة دمشق فكثرت القلاقل إلى أن جاء فرحات باشـــا مـــن الآستانة وأخمد نار ثورته وأمسكه قرب الصالحية وقطع رأسه وأرسله إلى العاصمـة ولذلك كان الاضطراب سائداً في تلك الفترة التي لحق بني المعلـــوف فيـــها أذى حملهم على الرحيل.



الفرع الثالث

في هجرهم حوران وفيه قطوف

القطف الأول

في نزولهم سرعين في البقاع وبعلبك

قلنا إن بني المعلوف بدأوا ببيع مواشيهم ووافقهم الغلاء الذي حدث سنة 1519م الماضية وارتفاع أسعار المواشي كما ذكر الدويهي في صفحة 154 فباعوا معظمها وأبقوا ما يحتاجون منها وقصدوا لبنان لما كان قد أناله الفتح العثماني من الصفاء فامتد فيه رواق الراحة وركدت زعازع الحروب وخمدت نار الفتن فقدم إليه كثير من النصارى وغيرهم وعاد إليه الذين هجروه[1].

فأرسل فروع ابرهيم شيوخهم ونساءهم وأولادهم وخدامهم ومواشيهم أمامهم وتآمر الباقون منهم مع أنسبائهم الآخرين على الفتك بأعدائهم ففعلوا ولحقت سلالة ابرهيم بفروعها، وأنسباؤهم انتقلوا إلى جهات أخرى وجهل أمرهم[2]. أما اليونانيون فعادوا ببعض بني المعلوف إلى بلادهم وقيل ساروا إلى بلاد

---

(1) راجع الدويهي صفحة 119 و139 و145 و152 وتاريخ الأمير حيدر صفحة 562.

(2) لقد روى لنا العالم الفاضل ظاهر أفندي خير الله الشويري أن أسرته بني صليبا وبني الصليبي أيضاً هما من بني المعلوف، وأن جدهم ضو قدم معهم ونزل بعشيرته اميون في الكورة فلقبه سكانها بصليبا لأنه كان مسيحيا وتفرع من هذه الأسرة بنو أبي يوسف نعمة في الشوير ومن نسله ظاهر أفندي المومأ إليه. وبنو أبي عقل في بتغرين ومن نسله الأسقفان الأرثوذكسيان الطيبا الذكر منوديوس مطران سلفكية (زحلة وتوابعها) وخريسندس مطران عكار والدكتور النطائي سليم أفندي وبنو أبي كساب في قاع الريم وبنو أبي جرجس في بعض جهات لبنان ومنهم بنو الحاوي في الشوير وأميون وبيت غصن في الكورة أما فرع مخايل وجرجس صليبا فأطلق عليه لقب الصليبي وسكن في جهات سوق الغرب ومنهم المرحوم الياس الصليبي والدكتور نجيب أفندي ومن هؤلاء بني الصليبي في حلب ومنهم بنو أبي سليمان في زحلة وأشهرهم الدكتور يوسف أفندي وهارون سكن الجرمق ومنهم فرعا الحكيم في السلط وفرع آخر في الكرك. وفي دبين بقضاء عجلون قرب جرش وفي السلط وما يجاورها أسر تدعي أنها من سلالة بني المعلوف. ولقد صرح عبده بن محمد سويدان من سكان حسية قرب حمص وكان محافظاً على ركب الحاج وقوافل التجارة إلى بغداد أنه كثيراً ما مر به بدو تجار باسم المعلوف. وقال والده محمد سويدان أنه شاهد في أسفاره كثيراً منهم وهما رويا بحضرة تيفا بك طبيب العساكر العثمانية الذي زارهم مع ابرهيم أبي راجي المعلوف من زحلة منذ بضع وثلاثين سنة. وفي المشيرفة والمقيبلة في وادي

روسية والله أعلم. فتمزق شمل هذه الأسرة وخربت بلدهم دامة واستولى على أملاكها العرب ثم الدروز كما مر في صفحة 23 وكان ذلك سنة 1520م.

فجاءت سلالة ابرهيم المعلوف بفروعها السبعة مقتفية أثر من تقدمها ممن أرسلته أمامها خوفاً عليه، فكانوا رغماً عما في أفئدهم من كره موطنهم الذي لحقهم به الحيف تستلفتهم مواقعه الطبيعية ومشارفه البديعة فيلتفتون إليه بقلوبهم ولا سيما بعد ما توارى عن أبصارهم على حد قول الشريف الرضي:

ولقد وقفت على ربوعهم وطلولها بيد البلى نهب
فبكيت حتى ضج من لغب نضوي ولجّ بعذلي الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

ولا بدع فإنهم تركوا هنالك عظام أنسبائهم وعقاراتهم ومقتنياتهم التي لم يستطيعوا حملها وساروا مكرهين إلى بلاد يتوقعون فيها الفرج والصفاء والتمتع بالسراء وبعد مسير يوم أدركوا أسرتهم التي تقدمتهم وكانت نازلة في غوطة دمشق إحدى جنان الدنيا الأربع التي جمعها عبد الرحمن بن النقيب بقوله:

أين من كان في فضاء من (الغوطة) يجلى من قبلنا أبصاره
أين من بات ناغماً في مغاني (شعب بوان) ناشقاً أزهاره
أين من أطلق النواظر في (سغد سمرقند) واجتلى أنواره
أين من حل (بالإبلة) قدماً وجلا في رياضها أفكاره

فدخلوا دمشق متنكرين في اليوم الثاني وساروا فرقاً مشتتة فاجتمعوا في سهل البقاعين وبعلبك وأنسوا بمنظره الفسيح فاتخذوا قرية سرعين[1] موطناً لهم وتمثلوا

خالد قرب حمص بيت الدخن وهم يروون عن قدمائهم أنهم من بني المعلوف ونسبوا إلى حب الدخن الذي كانوا يزرعونه. وكذلك يوجد منهم في إسبانية وقد زار أحدهم سورية منذ سنين وتعرف بالسيد أغابيوس المعلوف مطران بعلبك لما كان نائباً أسقفياً في بيروت. ويوجد بعض في سنار (السودان) كما روى الأمير حيدر اسماعيل اللمعي بعد عودته من منفاه فيها إلى غير ذلك مما يدل على أن بقية الأسرة انتشرت وتبددت ولم أستطع إلا حفظ نسبة من بقوا في لبنان منها ولم يغيروا اسمهم أو بقيت علاقاتهم ونسبتهم معلومة مع تغيير اسمهم وهم سبعة فروع من سلالة أبي راجح ابرهيم.

[1] سرعين اليوم قرية في قضاء بعلبك في سفح الجبل الشرقي سكانها نحو ألف وخمسمائة نسمة ربعهم متاولة والباقون موارنة وفيها نحو مائة فدان أرضاً يستثمر من تربتها في السنة نحو ستة عشر ألف اقة من الفيالج (الشرانق) وهي من أصلح الأمكنة هواء لتربية دود الحرير وكان فيها في منتصف القرن الماضي معامل لاستحضار بيوضه (بزره) وتمر في بساتينهم الرائعة قناة من نهر يحفوفة فتسقي نحو نصف عقاراتها وفيها مغاور

بذلك السهل حوران وبالجبال المحدقة به تلال اللجأ البركانية ولكنهم تغير عليهم منظر الحجارة السوداء وضخامة البيوت الحجرية لأن الأبنية هذه البقعة كانت من الحجر الأبيض الخام (غير المنحوت ويسميه العامة الدبش) الصغير وهي واطئة وحقيرة فابتنوا لهم بيوتاً مثلها ورأوا هناك بقايا العجم الذين استقدمهم معاوية بن أبي سفيان عند فتحه الشام فسكن بعضهم المدن الساحلية كطرابلس وجبيل وبيروت وصيداء والآخرون الداخلية كبعلبك وعرفة وبلاد عكار[2] ومنهم تفرع المتاولة سكان البقاع وبعلبك والنصيرية الذين كانوا في عكار وجبل لبنان فتجمعوا في جبل برجيلوس الذي نسب إليهم ويسمى أيضاً حصن سليمان وهؤلاء النصيرية ينتسبون إلى نصير النميري الذي كان رجلاً صالحاً من الطائفة الباطنية وهم ثلاث طبقات: المشايخ ويراد بهم علماء الدين، والمقدمون وهم الأعيان، ثم الفلاحون. ومذاهبهم أربعة تجمع عبادة القمر والهواء والشفق الأحمر ويعتقدون بألوهية الإمام علي. ولما طردوا إلى جبل اللكام استأنفوا المعارك مع الاسماعيلية فانتصروا عليهم وانحطت الإسماعيلية حتى كادوا يضمحلون في سورية[3]. والإسماعيلية من الطائفة الباطنية والقرامطة[ق] والإسماعيلية والفاطمية والرافضية في الحقيقة طائفة واحدة أو فروع طائفة واحدة اعتقدت بوجود شيء من الألوهية في علي ابن أبي طالب والأيمة الاثني عشر من نسله[4].

فصرفوا في هذه البقعة بضع سنوات لم تصفُ لهم فيها الأيام لما كان يحدث بينهم وبين بعض المتاولة من المواقع ولا سيما عرب البقاع الذين كانوا يشنون الغارة على شمال لبنان من معابر جبل المنيطرة (المحرس) والمضايق الأخرى مثل طريق عيناتة إلى الأرز من ضهر القضيب فسئموا احتمال تلك المشاحنات وكان في البقاعين وبعلبك وكسروان وصيدا وبيروت العشران (جمع عاشر) يؤمنون المارة

قديمة منحوتة ونواويس كثيرة وفي محل ضهر الدير على بعد نصف ساعة رابية فوقها قلعة ضخمة الحجارة وعلى بعد ساعة ونصف إلى الجنوب دير القديس جاورجيوس وهو ضخم الحجارة أيضاً واقع في سفح وادي يحفوفة حيث ينساب نهرها مقابل قرية قنا القديمة التي لها سور من حجر. ومن الوادي إلى الدير نفق (دهليز) ومال أعناقها اثنا عشر ألف غرش ومال أملاكها (الوبركو) نحو ثلاثين ألفاً وفيها أكثر من ثلاث مائة بيت وكانت هي والكرك وقب الياس ومشغرة مقر الأمراء الحرافشة حكام بعلبك قبلاً وفيها إلى اليوم بقية منهم.

[2] تسريح الأبصار 45:2 واليعقوبي وغيره من المؤرخين.

[3] مجلة المشرق 415:5.

[ق] نسبة إلى الداعية حمدان قرمط. وقد قامت الدولة القرمطية في البحرين (المحقق).

[4] المرآة الوضية للدكتور فانديك صفحة 131 الطبعة الثالثة سنة 1886م.

من اللصوص[2] وهم الذين وصفهم المقريزي في كتاب السلوك أنهم كانوا فرقتين قيساً ويمناً لا تنفقان قط وفي كل قليل يثور بعضهم على بعض[3].

وكان الأمراء الحرافشة يتولون بعض شؤون هذه البقعة في أول عهدهم للحكم ومسكنهم في بعلبك وكرك نوح وهم فرقة من الشيعة نسبت إلى جدها الأمير حرفوش الخزاعي الذي عقدت له راية بقيادة فرقة في حملة أبي عبيدة بن الجراح على بعلبك قدموا أولاً من بغداد إلى غوطة دمشق ثم إلى بعلبك وسكنوها وأقدم من ذكر منهم في تاريخ بيروت هو علاء الدين بن الحرفوش في سنة 1309م وكان مع عشران البقاع يقاتل تركمان كسروان فقتل سنة 1393م[4].



القطف الثاني

في ارتحالهم إلى جبة بشراي

وفي سنة 1526م شق بنو المعلوف عصا الإقامة في سرعين قاصدين جبة بشراي لما كان فيها من الراحة بفضل المقدمين الذين تولوا شؤونها من قبل الأمراء والحكام[5]. فذرعوا السهل ذاهلين من منظر فيه دورس على بعد نصف ساعة من بعلبك إلى الغرب منها وهي قائمة على أعمدها الثمانية الملقاة بدون أساس ويقال أن حجارها جيء بها من مقاطعة سيين على نهر النيل في مصر وكانت مرقباً لطلائع الجيوش العربية يستشرفون منها أحوال العدو في أيام الحرب ويخبرون القلعة

---

[2] تاريخ الديس 46:6 وتاريخ بيروت لصالح بن يحيى 54 و92 و104.

[3] تاريخ بيروت صفحة 54.

[4] أول من تولى الحكم من الحرافشة في بعلبك الأمير موسى (أو يونس) في أوائل القرن السابع عشر وله وقائع مع الأمير فخر الدين المعني وغيره ذكرها صاحب تاريخ بعلبك وأخبار الأعيان وتاريخ الديس 179:7 وآخرهم الأمير محمد الذي حدثته نفسه بالخروج عن طاعة الدولة العلية فجمع عسكراً من بعلبك ووادي العجم وتحصن في قرية معلولا وفي الخامس من تشرين الأول سنة 1850 هجم عليه مصطفى باشا قائد عسكر الدولة بين معلولا وعين التين وقتل من عسكره نحو ثلاث مائة وكان زكريا مطران سلفكية الأرثوذكسي على سطح دير مار تقلا يشارف المتقاتلين فأصابته رصاصة وقتل وكذلك قتل الأخ باميليوس في دير مار سركيس ونهبت معلولا والدير وأسر تسعة من الحرافشة إلى الآستانة العلية وقتل بعضهم ثم دخل بعلبك وفعل فيها مثل ذلك. فبقيت فيها بقية منهم كانت تلقي الفتن فتعقبتهم الدولة إلى أن فتكت بهم سنة 1866م، فلما تقم لهم بعد ذلك قائمة. ولن يزال منهم فئة قليلة في تمنين (النيمن) وسرعين وشعث وحريتة والنبي رشادة في بلاد بعلبك ويؤخذ عليهم الجور والاعتساف مدة حكمهم هذه البقعة أربعة قرون. أما الذين نفوا إلى الآستانة فنشأ منهم نصرت باشا رئيس شورى الدولة وغيره.

[5] وقد اغتنموا فرصة الغلاء الذي حدث تلك السنة في تلك الجهات بسبب الجراد الذي لم تصب به بلاد بعلبك كما ذكر الدويهي في صفحة 157 فنقلوا معهم غلالهم وربحوا أموالاً طائلة كما سيجيء.

و لم يكن قد شاهدها إلا قليل منهم ممن كان يأتي بعلبك وضواحيها ولكن ذلك لم يؤثر بنفسهم تأثير مشهد قلعة بعلبك الضخمة التي كانت أبنيتها العليا لـن تـزال قائمة شاخصة في الجو كأنها تناجي السماء بأسرارها[2]. وحولها علـى مشـارف المدينة القبة البرانية لجهة الشرق قرب ينبوع رأس العين وقبة الشيخ عبد الله وقبـة السعادين وغيرها. ولقد استلفت أبصارهم عمود عال ركز أمامها تذكاراً لموقعـة ونحوها وهو مسلة ايعات (الشرفة) التي وصفناها في صفحـة 105 [مـن النـص الأصلي (ق)] وبركة الأوز القريبة منه ثم دير الينط بين قريتي دير الأحمر وشـليفة (المرج) على سفح تلة وكانت تلك البركة تسمى باسمه وعلى قمة تلك التلة قصـر البنات وفيه حجارة منقوشة ضخمة يبلغ طول بعضها ست أقدام بعـرض أربـع وعلو أربع أيضاً وفيه أبنية بديعة يحدق بها سور طوله نحو ثلاث مائة قدم وعرضـه أقل من ذلك. أما القصر فجدرانه يبلغ طول كل منها خمسين قدماً بعلـو سـت وعشرين وفي أعلاه طنف (إفريز) منقوش. وهناك أبنية أخرى وآبار وفسـحات بديعة الصنع. ثم أشرفوا على بحيرة اليمونة المشهورة وأعجبهم منظرهـا وغـزارة ينبوعها الدوري المعروف بنبع الأربعين وشاقهم مرأى السمك يتجارى فيـها و لم يكونوا قد رأوا مثل ذلك. وكان المرور يكاد يتعذر في تلـك الشـعاب لوفـرة الأشجار وضخامتها واشتباكها ولما صعدوا على جبل المنيطرة وقفوا يتـأملون في المناظر التي تحدق بهم ويستشرفون ذلك السهل وينشدون في وصفه:

تنـاهى روضنـا الوطـنى حسـناً	و لم نبصـر لمشـهده قرينـا
فقلعـة بعلبـك قـد اسـتطالت	لنمـلأ مـن محاسـنها العيونـا
بـأعمدة ضخـام مـن بقايـا	عجـائب مـا بنـاه الأولونـا
هنالك هيكـل الشـمس المعلـى	نـرى ببنائـه السـامى فنونـا
نقوش صنـع أيـد قـد تفـانت	ولا تفـنى مآثرهـا السـنونا
على الحصبـاء راس العـين يجـري	علـى راس وعـين يلتقينـا
وقبـة دورس درسـت ولكـن	بمجلـى حسـنها الزاهـى سـبينا
وقصـر شـليفة الحسـن المبـاني	بـأطلال بناهـا الماهرونـا
ونبـع الأربعـين انطـاد علـواً	وعـاد بدفقـه يشـكو أنينـا
تدهور مـن علـى فحنـت إليـه	بحيرتـه وضمتـه حنينـا

[2] كانت تلك القلعة لن تزال فخيمة الأبنية العليا فقوضتها الزلازل التي انتابت سورية ولا سيما زلزلتي سـنة 1664م وأشدها زلزلة 1759م التي بعثرت أبنيتها وقتلت كثيراً من سكان المدينة.

نـــرى يمونـــة بحـــــــراً صغـــــيراً ودرتنـــا الثمينـــة مـــــذ حيينـــــا
بهـــا الأسمـــاك تغـــرق ثم تطفـــــو لذيـــــذ طعمـــــها للآكلينـــــا

واجتازوا المضايق الموصلة من بركة اليمونة إلى افقة فالعـــــاقورة[1] (العـــين الباردة) إلى ان أشرفوا على جبة بشراي وموقعها إلى غربي أرز لبنان علـــى بعـــد ساعة منه إلى الجنوب الشرقي من طرابلس على بعد سبع ساعات منها وهي غزيرة المياه خصيبة التربة. وكانت في القديم قليلة السكان تمتد في معاطف جبالها غابـــات الارز الباسقة إلى أن بنيت فيها بعض القرى مثل بشراي التي نسبت إليها وليـــس فيها اثر يرتقي إلى عهد اليونان أو الرومان واسمها منحوت من بيت الشــــرى أي بيت عشتروت (الزهرة) ولعلها كانت محلاً لعبادته وذكرها الصليبيون. وكـــانت لاحقة بأملاك مقاطعة طرابلس الشام التي كانت تمتد من وادي قنديل وراء قضـــاء اللاذقية شمالاً إلى جسر المعاملتين قرب نهر الكلب جنوباً. واشتهر فيها المقدمـــون الذين رفعوا لواء مجدها. وكان اللبنانيون منذ القرن الرابع عشر للميلاد يســـمون حكام أعمالهم أو قراهم الكبيرة مقدمين عوض تسميتهم أمراء. ومن اصطلاحـــهم أن يسموا الطبقة الأولى من عشائرهم بالأمير والثانية بالخوند والثالثـــة بـــالمقدم[2] والرابعة بالشيخ. واشتهرت بينهم الطبقات الأولى والثالثة والرابعة، أما الثانية فقلما سمي فيها أحد.

ولقد راق في عيني بني المعلوف جمال تلك المشارف ونضارة تلك الجبال ممـــا أنساهم مشقات السفر، وحبب إليهم الإقامة فيها. وكانوا قد سروا بمنظر مغـــارة أفقة (سريانية بمعنى مخرج) وفوهتها مربعة طولها نحو مائة ذراع في مثلها عرضـــاً ومنها تنفذ مياه اليمونة وتمر تحت جسر قرب هيكل الزهرة الذي كـــان كنيســـة باسم السيدة، ثم تتدفق بشلالات ثلاث تكون نهر ابرهيم. وشــــاهدوا العـــاقورة وبرجها الذي فوق عين القرية وهو محل مقدمها بني نحو سنة 1442 م كما ذكـــر الدويهي في صفحة137 ثم مروا قرب الجسر الطبيعي وهو مركب مـــن صخـــرة

---

[1] احتاز بنو المعلوف اليمونة وساروا من مجاز العاقورة لسهولته وقد مر في هذا المضيق إلى البقـــاع اومنيـــان (دوميسيان) ملك رومية ونقش ذلك على درجة الجبل (الدويهي صفحة 137 والدبس 3 :309).

[2] اشتهر من المقدمين في لبنان الجنوبي بنو مزهر في حمانا من الطائفة الدرزية وبنو علي الصغير الشيعيون مـــن بلاد بشارة في إقليم جزين وهم فيها إلى اليوم.

واحدة ثقبتها المياه على شكل قبة إلى أن وصلوا محل قرية دومة البترون وراء العاقورة فاتخذوها محطاً لرحالهم.



القطف الثالث

في نزولهم دومة البترون

كان لبنان الشمالي قبل تلك الأيام بنحو قرنين ولاسيما المنيطرة والعاقورة ونواحي البترون يسكنه النصيريون وامتدوا إلى كسروان بعد أن كانوا في جبل عكار والضنية فقط. وكانوا يساعدون اخوانهم في وادي التيم ومرج عيون. وسنة 1305م واقعهم كل من نائب دمشق وطرابلس وصفد وطهروا تلك الجبال منهم وأمنت الطريق بعد ذلك لأنهم كانوا يشوشون الراحة. وضعفوا في القرن الخامس عشر فهاجروا إلى الشمال وانحصروا في جبالهم وبقي القليل منهم في لبنان. أما المتاولة[1] فطردوا من الساحل وخصوصاً من طرابلس التي كثروا فيها وانتشروا في

[1] قيل سموا متاولة نسبة إلى أحد شيوخهم المسمى متوال. وفي الدر المنظوم سموا بذلك من قولهم توالينا في الدين خمسة أي محمد وفاطمة وعلي والحسن والحسين. ويسمون ايضاً بالعلويين نسبة إلى علي ابن ابي طالب وبالشيعيين من الشيعة بمعنى الفرقة على حدة ويقابلها السنة. وبالاثني عشرية لاعتقادهم باثني عشر إماماً. وأشهر أسمائهم عندنا المتاولة وهم فرقة من الإسلام بايعوا علياً وقالوا إنه الإمام بعد الرسول (صلعم) بالنص الجلي أو الخفي واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده. وهم منتشرون في بلاد فارس والعراق والأفغان والهند وتونس ومصر وعددهم جميعاً نحو ستين مليوناً منهم نحو مائة ألف في سورية معظمهم في بلاد بشارة وبعلبك ويقال إنهم جاؤوا من جهات العجم إلى بلادنا في أواخر القرن العاشر للميلاد وقيل قبل ذلك . وظهر شأنهم في المشرق على يد بني بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة وفي مصر بزمن الدولة العبيدية وأهمهم في سورية الحرافشة وقد مر ذكرهم والحماديون المنتسبون إلى جدهم حمادة الذي نشأ في بخارى العجم وأراد الخروج على شاه بلاده فطرده وجاء لبنان بأخيه أحمد فترلا في الحصين ثم قمهز وتفرقت عشيرتهما في لبنان ونالت مترلة فيها إلى أن أوقعهم الأمير يوسف الشهابي سنة 1770 في أميون ومنهم اليوم بقية في الهرمل ذات وجاهة. وآل الحاج سليمان ونشأتهم في بدنايل وكانوا من رجال الحرافشة المقربين وأشهرهم صاحب السعادة سعيد باشا في مدينة بعلبك وبنو حميه في طارية (بعلبك) نسبة إلى جدهم حمو الكردي الذي جاء من بين النهرين مع أخويه سلو (سليمان) وقراجه فحضرهم الحرافشة بعد أن كانوا بدواً وقربوهم. أما سلو فذهب إلى عكار ونسله فيها إلى اليوم وقراجة قتل في شمسطار (شمس الجبل) في وادٍ يعرف باسمه إلى عهدنا (الدويهي 353). واشتهر منهم في القرن الماضي محمد عباس الفارس المشهور واليوم صاحب الرفعة محسن بك في بعلبك. وبنو الأسعد في بلاد بشارة الواقعة في الجنوب الشرقي من صور وقاعدتها تبنين وهم من سلالة علي الصغير أشهرهم خليل بك الأسعد. وبنو دندش في عكار وما يجاور الهرمل وحمص والمناكرة والحيدرية والصعبية في بلاد بشارة وغيرهم. وأشهر مزاراتهم النبي نوح في الكرك والنبيان إيليا وشيث في قريتين تنتسبان إليهما في

الجبل. وكان معظمهم في الكورة وذلك في القرن الخامس عشر وامتدوا إلى المنيطرة. وأُقطع التركمان جهاتهم ولا سيما كسروان ليحافظوا عليها ومعنى اسمهم شبيه الأتراك أصلهم من التتر نزلوا في جهات عكار والكورة منذ عهد الصليبيين واشتهر منهم بنو العساف الذين أمرهم الملك الناصر أن يتركوا الكورة وينزلوا ساحل كسروان ليحافظوا عليه من رجوع الإفرنج.

أما الموارنة فامتدوا في تلك البقعة التي تشمل اليوم قضاءي جبيل والبترون وكانوا بين المتاولة في المنيطرة والتركمان في كسروان. ولم تتعد أبنيتهم نهر ابرهيم كما صرح بذلك الأب لامنس اليسوعي مراراً، وكان كرسي بطريركهم قد انتقل إلى دير قنوبين منذ سنة 1440 واسمه يوناني بمعنى المجتمع لاجتماع الرهبان فيه وكان يسمى قديماً دير المئتين راهباً بناه ثودوسيوس الكبير ملك الروم كما ذكر الدويهي صفحة 132 وخالفه المشرق 265:4.

وكان لكل قضاء والٍ أو أمير يلقب المقدم (راجع صفحة 157). وهذا المنصب وراثي غير مستقل عن أمراء الشراكسة والمماليك في مصر. وذكر القلقشندي المتوفى سنة 1418م في لواحق نيابة طرابلس الشام ولايات جبة المنيطرة وجبة بشريه (بشرّاي)[ق] وجبة أنفة وهذه على شاطئ البحر جنوبي طرابلس (مشرق 57:1). وبعد غزوة تيمورلنك سنة 1400م انتقلت الإمارة من بلاد جبيل والبترون إلى الجبة. وكان مقدم بشراي رئيساً على مقدمي تلك الجهات وهم مقدم جبيل والبترون وأيطو وحفد والعاقورة. ومقدم العاقورة اشتهر منذ نصف قرن قبل ذلك الوقت بحماية لبنان من غزوات الأكراد وعرب البقاع ونصيرية الضنية وحافظ ببسالة على معابر جبل المنيطرة التي كانت مسلكاً لتلك العصائب الثائرة تدخل منه إلى القرى. واشتهر منهم إذ ذاك المقدم رزق الله مقدم بشراي الذي كان يحب الامتزاج بين طوائف لبنان وكان يحرضهم على تزويج الملكيين بالموارنة[1] وقد قاوم ضلال اليعاقبة الذي امتد في بلاده واكتسب حب جميع رعيته

سورية المجوفة أيضاً. ولهم شيخ في قرية تمنين السفلى (التحتا) وهي مركز مديرية من بعلبك تتبعها بعض القرى وذلك لبعدها عن مقر قائمية المقام.

[ق] وهي الآن قرية بشرّي من قضاء طرابلس، وهي تشرف على وادي قاديشا (الوادي المقدس) المشهور بأنه من أعمق وديان لبنان. وبشري هي بلدة الأديب جبران خليل جبران، الذي كان يحلم بقضاء أواخر حياته فيها وأن يموت في ربوعها، ورفاته الآن في دير مار سركيس، وهو يحتوي على أعمال الكاتب ولوحاته.

[1] راجع حبيس بحيرة قدس للأب لامنس اليسوعي.

فدانت له ما عدا النصيريين والمتاولة فكان يضطر إلى تذليلهم ورد غاراتهم مرة بعد أخرى.

وكانت اللغة العربية منتشرة بين سكانه وبقي قليل منهم يتكلمون بالسريانية. ولقد كانوا يكتبون بعض الكتب الدينية بالحرف الكرشوني (نسبة إلى كرشون من الجزيرة أول من كتب به) أو السطرنجيلي ونحوهما. وهكذا كانت حالة البلاد قبل الفتح العثماني فلما فتحه السلطان سليم كما مر ونزع يد الملوك الشراكسة المصريين عن سورية أنعم بولاية جبيل وكسروان على الأمير عساف التركماني ومن سلالته نشأ الأمير منصور ابن الأمير حسن وهو أوسعهم شهرة تولى سنة 1523م فاستأجر من محمد آغا شعيب والي طرابلس الشام بلاد جبيل والبترون وجبة بشراي والكورة والزاوية والضنية.

فنزل بنو المعلوف تحت قلعة الحصن التي استلفتت أبصارهم من بعيد وهي قائمة على صخرة عالية كأنها عمود ويظن أنها من قلاع الفينيقيين التي أخربها بمبي الفاتح الروماني. وكانت إذ ذاك مخفرة لجنود مقدم البترون لأنه كان يفرقهم على هذه القلعة وعلى محلة مار يعقوب تحتها وكانت قلعة صغيرة وعلى قلعتي سمار جبيل[2] ومعاد (وقد وقع الخلاف عليهما بين مقدمي البترون وجبيل مع أنهما للأول) وذلك لحماية وادي تنورين (بمعنى التنانير) وقرية خربة كان المتاولة والنصيريون قد غادروها أطلالاً دارسة. فحطوا رحالهم فيها وقدم الناس من طرابلس وما يجاورها لمشترى الغلال التي نقلوها معهم فباعوا مد الحنطة بمائة وخمسين درهماً والذرة بمائة وعشرة كما ذكر الدويهي. وأشرنا إلى ذلك آنفاً. وربحوا أموالاً طائلة.

فرمموا القرية وسموها دومة[1] على اسم مسقط رأسهم ولكنهم ضموا أولها لتغلب اللهجة السريانية إذ ذاك على السكان (وهي اليوم ظاهرة في ألفاظهم).

---

[2] قال البادري اسكندر بوركنو اليسوعي أن سمار جبيل كانت مدينة عظيمة بناها الأسمر بن ملك جبيل ثم بنى بختنصر ملك بابل فيها قلعة عظيمة وحفر صورته على خارج الجدار الشمالي (مقاطعة كسروان 73) وذكر المشرق 542:4 أن قلعتها فينيقية خربها بمبي الفاتح الروماني وقال الدويهي صفحة 202: أن هذه القلعة أخربها زلزال سنة 1630م فقتل الشيخ نوفل نادر الخازن وسبعة أنفس فجدد والده ما هدم في السنة الثانية.

[1] هي اليوم من مديرية البترون العليا أو تنورين تعلو عن سطح البحر 1100 متر مبنية على هضبة جميلة يحدق بها الصنوبر جيدة الموقع خصيبة التربة وصفتها مجلة المشرق (945:3) بأنها ملكة تسرح أبصارها في خميلة من الزمرد بسطت تحت أقدامها. وهي على بعد سبع ساعات من طرابلس وسكانها تسع مائة مكلف وأملاكها ثلاث مائة وعشرون درهماً وفيها نحو مائة وثمانين دكاناً تمثل سوقاً بديعة وأبنيتها وصناعاتها متقنة أهمها الحدادة

ولقد أخذ بمجامع فؤادهم موقع القرية التي تكتنفها الجبال على هيئة نصف دائــرة وهي تشرف على أبدع المناظر. وكثيراً ما كانوا يصعدون إلى قلعة الحصن فـيرون منها البحر وسواحله غرباً وبعض القرى إلى جهات أرز لبنان شرقاً والسهول الـتي مجازها من جهة بشعلي[1] شمالاً وجنوباً. وكان هذا المجاز حصيناً لأنـه الموصـل الوحيد إلى تلك القلعة المنيعة الحسنة الموقع.

فإنها مشهورة بها منذ القديم لكثرة الحديد في جبل ترتج الذي يجاورها. وموقعها من أبدع المواقع الصحية وفيها ناووس قديم هو اليوم حوض (جرن) لينبوعها وكتابته اليونانية تدل على أنه ضريح لكستور كاهن إله الطـب أسكولاب وإلهة الصحة بتاريخ 317م. وفي جدار كنيسة السيدة الأرثوذكسية قبرية يونانية. وسكانها يتجـرون بالبضائع الأوروبية والحرير والصوف والجلد والحبوب وغيرها وهم مشهورون بالذكاء والنشاط واشتهر فيـها أسر كثيرة مثل بنو الدوماني التي نشأ منها الطيب الذكر البطريرك ملاتيوس الأرثوذكسـي وسـيادة المطـران يوسف أسقف الكاثوليك في طرابلس ووجهاء آل دوماني في دير القمر وأشهرهم حبيب أفندي. ومنها بنـو المقوم الذين جاؤوا دومة من دبية طرسوس ونشأ منهم أنطون بن يوسف المقوم الذي حرف اسمـه (نطـين) وأخوته الثلاثة يوسف وأسعد وجرجس، فتركوها وسكنوا درعون ومنها ذهب يوسف إلى الخنشارة، فنشأ منه بنو القاصوف الكاثوليكيون فيها وفي زحلة. ومن مشاهيرهم الشقيقان المرحومان ابرهيم وأيوب شكر، سـكنا زبوغة ونالا حظوة عند المطران أغابيوس الرياشي. ومن أولاد أيوب الخواجات بشارة وولده نجيب في مصـر الآن من التجار الوجهاء، ثم الأبوان مرقص مدبر الرهبنة الشويرية الأول ويوسف رئيس دير القرقفة قبلاً لرهبنته المذكورة. أما أسعد أحد الأخوة الثلاثة فسكن الشوير ونشأ منه قيامة الأرثوذكسيين فيها ومنـهم المرحـوم منصور وأولاده. ومن بني نطين الطيب الذكر المطران أمبروسيوس. ومن بطونهم بنو الدرعوني ومنهم في بيروت أنطون أفندي كنعان صاحب المكتبة الشاملة. وفي معلقة زحلة الدكتوران الأفنديان أبو حبيب مخـايل وولـده حبيب، وهذا من كبار أطباء بيروت الآن وغيرهم. وبنو عودة في زوق مكايل وجميعها تركت البلدة في نحـو القرن السابع عشر واليوم يسكنها بنو المعلوف الذين عادوا إليها وبنو شلهوب ومن فروعهم بشـير وأيـوب وفياض اشتهر منهم يوسف بك بشير قائم مقام الكورة ومنهم تفرع بنو الياس حنا في الشويفات وبنو الضبي في الزبداني وفرع آخر في الخنشارة ومن أسرها بنو الحاج المشهورون بالغنى وبنو صوايا وفيها أطلال كنائس كثيرة قديمة وحاصلاتها من الفيالج ثمانية آلاف اقة ومن الزيت تسعون قنطاراً في كل سنة وفيها مـدارس وكنـائس وجمعيات.

[1] إن قرية بشعلي ذكرها الصليبيون باسم بيت زحل وفيها رأس عمود مربع على جهاته كتابة يونانية طامسـة تدل على أن القرية سبقت عهد العرب وكانت داخلة في حكم أمير جبيل وهي اليوم متـن مديريـة تنوريـن مكلفوها خمس مائة وموقعها إلى الجنوب الغربي من قلعة الحصن ومنها أسرة مبارك التي جاءت غسطا في أوائـل القرن السابع عشر واشتهر منها أساقفة معروفون وكهنة أجلاء ومنها تفرع مشايخ آل صالح في رشميـا (رأس الماء) ويعرفون اليوم بآل خوري ومن أشهرهم الشيخ بشارة الخوري الفقيه (ولد سـنة 1805 وتـوفي سـنة 1886م) وولده صاحب العزة خليل بك رئيس القلم العربي في متصرفية لبنان. وسعد الخوري مديـر الأمـير يوسف الشهابي وولده غندور بك ومن سلالته سعاد تلو حبيب باشا السعد. وإليها ينتسب بنو البشـعلاني (أو المشعلاني) ومنهم أبو رزق الذي اشتهر في القرن السابع عشر بتقربه من حكام طرابلس الشام ومن سلالة ولده يونس الذي قدم إلى متن لبنان آل المشعلاني في صليما ومن أشهرهم نجم أندريا من خاصة الأمير حيدر اسمـاعيل اللمعي والخوري حنا باني كنيسة سيدة النجاة فيها وآل المشعلاني في بيروت ومن أشهرهم حنا الذي تقرب من

وما استقر بهم المقام حتى بدأوا بتغيير ملابسهم فرجـالهم بعـد أن كـانوا يلبسون الكوفية والعقال القميص الطويل والعباءة وبعضهم يعتصبون بعمامة سوداء أو كحلية عملاً بما سنه الملك الناصر من دولة المماليك سنة 1300م الذي أشـار إلى اليهود أن يتعمموا بالعمائم الصفراء والنصارى بالسوداء والسـمرة بـالحمراء[2] صاروا يرتدون كالموارنة بلباس قصير لا يكاد يتجاوز الركبتين وتحتـه السـروال وعلى الرأس عمامة صغيرة ملونة وأسلحتهم القوس والطبر والفـاس والسـكين والخنجر يضعونه تحت منطقتهم ويرسلون شعورهم. والنساء بعد أن كنّ لا يأتزرن إلا بالكتان الأزرق ولا يلبسن في أرجلهن إلا خفين أحدهما أسود والآخر أبيض[3]، حسب مرسوم السلطان الذي قرئ في جامع دمشق سنة 1353م، صـرن يلبسـن الثياب الطويلة الملونة وأكثرها قطنية ويغطين رؤوسهن ببرقع طويل يسـترن بـه وجوههن عند التقائهن بمن لا يعرفنه من الرجال، وقد يتحلين بالأساور والخلاخيل والعصابات المزينة بقطع من النقود إلى غير ذلك[4]. وكان الفارس يلبس كوفيـة حريرية ويشتمل ببرنس عريض على فرس لها سرج من المخمل الأحمر. وكثيراً مـا كان المقدمون والمشايخ والأعيان يلبسون خوذاً من الفولاذ الصقيـل وعبـاءات حريرية مفوفة[ق] بالقصب تحتها صوارمهم في أغماد مرصعة بالحجـارة الكريمـة ومزينة بالنقوش.

وبعد وصولهم بسنوات بدأوا في تشييد كنيسة باسم القديـس سـركيس[1] شفيع الغساسنة الذي كانوا يكرمونه في موطنهم الحوراني خلفاً عن سلف. وكـان هذا القديس من شهداء القرن الثالث يعيد له في السابع من تشرين الاول. وأقـدم كنيسة نصرانية بنيت له في بصرى حوران سنة 512م وكان فيها انجيل باليونانيـة

الأمير حيدر الشهابي المؤرخ. ومنهم تفرع بنو راشد في نيحة الشوف وبنو حرفوش في عين الرمانة (جزيـن) وبنو نكد في المحيدثة وبنو القشعمي في بكفية وبنو ضومط في مزرعة يشوع في قضاء المـتن وبنـو مـراد في كسروان وبنو حجيج في معلقة زحلة. ويروي بنو المشعلاني أن أصلهم غساسنة.

[2] تاريخ دمشق لنعمان أفندي قساطلي صفحة 70.

[3] تاريخ الدويهي صفحة 128.

[4] تاريخ الموارنة للخزري مخايل غبريل 595:1.

[ق] مزركشة (المحقق).

[1] لن تزال أطلال هذه الكنيسة إلى عهدنا تحت ينبوع البلدة في الجهة الشمالية وهي مع أطلال دير مار شـليطا من أوقاف دير القديس جاورجيوس الذي بناه بنو المعلوف بعد عودتهم إلى دومة في أواسط القرن السابع عشـر وهو بيدهم إلى اليوم. وفي أطلال مار سركيس أشجار سنديان ضخمة.

وجدت في حمص بعض أوراقه منذ أعوام وهي تدل على أنه كتب سنة 1344م. وشيدت له كنائس أخرى في دامة وفي جهات الصفا سنة 517م في دير القاضي عند بصر الحرير[ق1] وفي البثنية في قرية الحث التابعة لشهباء وهي التي اكتشف ودنكتون الرحالة الانكليزي كتابة فيها. وفي لبنان كنائس كثيرة بهذا الاسم شيدت معظمها الأسر الحورانية كما ذكر المشرق 5: 9.9 و948.

ولقد كان كاهنا كفر حلدة (قرية الخلد) والكفور[2] الملكيان يقيمان لهم الفروض الدينية فيها وهما في جوارهم القريب.

فطاب لهم المقام في تلك الجهة وذاعوا شهرة بين جيرانهم وكثيراً ما كانوا يحاربون المتاولة وبقايا الأمم الأخرى التي كانت في جوارهم ويردون غاراتهم. ونالوا منزلة عند مقدمي بشراي والبترون وجبيل. أما حاكم كسروان الأمير منصور الغساني التركماني فكان من أصدقائهم المخلصين وكان عندما يستأجر جبة بشراي والبترون وغيرهما من بني شعيب حكام طرابلس ينزل في بيوتهم ويوليهم بعض شؤون تلك الجهة معتمداً عليهم فتمكنت المودة بينهم وبينه ولا سيما لأنهم

[ق1] وهي الآن تابعة لمحافظة درعا (المحقق).

[2] يؤيد ذلك الإنجيل الموجود في كنيسة المحيدثة (متن لبنان) إلى يومنا بالخط السرياني القريب من السطرنجيلي يقرأ في آخره هذه العبارة (كتبة سنة 1822 للاسكندر و1520 للمسيح الخاطىء المسكين باسم القس يوسف بن سلامة بن بطرس حاج من قرية الكفور في جبل لبنان) وعلى هامش بعض أوراقه هذه الكتابة (القس بطرس بن يوحنا يعرف بابن المعلوف من قرية دومة القاطنين في جبل كسروان في معاملة بيروت بقرية المحيدثة).وذكره المشرق 5:106 وكذلك الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد في مقدمة الشحيم الكنسي. ويسميه السكان بالإنجيل التري ويتخذونه للشفاء من بعض الأمراض. وفي بعض التعاليق عليه ما نصه (أنفق على تفضيض هذا الإنجيل الشريف المبارك عطا الله بن عون المعلوف مائتين وثلاثون (كذا) درهماً وقفاً على كنيسة السيدة المحيدثة) ومن المتناقل على ألسنة الشيوخ أن أيقونة السيدة في هذه الكنيسة أصلها من حوران حملوها إلى دومة وهي قديمة جميلة. وإلى الكفور تنتسب أسرة الكفوري المنتشرة في لبنان وبيروت وبعض الجهات ومنها المطران باسيليوس الذي سيم أسقفاً على الإسكندرية للروم الكاثوليكيين سنة 1837 وتوفي فيها سنة 1859م عن 57 سنة وله آثار تشهد بفضله. والخوري فلابيانوس الذي تولى رئاسة الرهبنة الشويرية العامة سنة 1835 وسنة 1849 سافر إلى أميركة كما مر صفحة 102 وأعيد للرئاسة المذكورة سنة 1859 وبقي إلى سنة 1883 فاستقال إلى أن استأثرت به رحمة الله سنة 1886ن وله أياد على الرهبنة تذكر فتشكر وكانت والدته كتورة ابنة نجم أبي عقل المعلوف من كفر عقاب وخلفه في تلك الرئاسة سيادة الأيكونوموس الجليل يوسف الكفوري الرئيس العام الحالي وله آثار مشهورة أهمها تشييد المدرسة الشرقية في زحلة. ومنها السيد فلابيانوس رئيس أساقفة حمص وحماة ويبرود المشهور بتقواه وغيرهم. أما الذين في بيروت وضواحيها منها فهم من الروم الأرثوذكسيين وقد اشتهر منهم كثير بالغنى والوجاهة والفضل.

كانوا في مقدمة رجاله الذين فتكوا ببني شعيب في عرقة سنة 1528م وقتلوا عبد الساتر الكردي حاكم البترون سنة 1532م لعصيانه عليهم والغادر شيخ جبيل كما ذكر في تواريخ لبنان فراجع منها تاريخ الدبس (25:7) [وذكر في مواضع أخرى الديس (ق)].

ولقد كانوا يولمون الولائم للمقدمين وللأمير العسافي ويدعونهم للصيد إما في جبل ترتج حيث كانت الغابات الكثيفة وخبث الحديد يدل على استخراجه ونقله إلى هذه القرية وهناك كتابات قديمة للقيصر ادريانس. وأما في وادي تنورين حيث كان نهر الجوز يتدفق شلالات بديعة في بعض مجاريه وقد ظللت الأشجار الغبياء أيضاً كأن المنازي عناه بقوله:

وقانا لفحة الرمضاء واد | سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا | حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً | ألذّ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا | فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى | فتلمس جانب العقد النظيم

وكان معظم الأشجار في المحلين من الأرز والسنديان والصنوبر والشربين وبينها الأجاص والجوز الذي كان كثيراً في الوادي فسمي النهر باسمه إلى عهدنا. وكانت هذه الغابات لا تخلو من الوحوش الضارية كالدب والنمر والضبع والذئب والخنزير البري الذي يكثر في وادي تنورين على عدوتي نهر الجوز وقد يوجد في بعض الأحايين الأسد. فضلاً عن الحيوانات الأخرى كالأيائل والغزلان وكثير من الطيور كاللقالق والحجال وغيرها. فكان المقدمون يأتون ببطانتهم ومعهم الكلاب السلوقية (نسبة إلى مدينة سلوق في اليمن) والصيد بها قديم. والبزاة والصقور والشواهين المضراة على الصيد التي كان يصطاد بها كندة في القديم. والفهد الصغير لاقتناص الأيائل والغزلان وأول من اصطاد به عند العرب كليب بن وائل وأول من حمله على الخيل يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان الأموي. وكان الصيد عند عرب الجاهلية مقتصراً على صيد غزال أو طائر بالنبل أو الفخ فاتخذوا الجوارح عن الروم والفرس وولع بذلك الملوك والخاصة إلى يومنا وقد وصف أحمد بن مروان كلب الصيد بقوله وفيه حكمة:

وذي حرص تراه يلمّ وفراً | لوارثه ويدفع عن حماه

ككلب الصيد يمسك وهـو طـاو فريسـته ليأكلـها سـواه

وكان الكلاّبون يتوغلون في الغابات فتسوق كلابهم القنائص أمامها إلى جهة القانصين. وقال ضابئ البرجي يصف ثوراً وحشياً تطارده الكلاب:

يسـاقط عنـه روقـه ضارياتها سقاط حديد القين أخـول أخـولا

فيتناول الصيادون القسيّ من كنائن جملة أسلحتهم ويرفعون الكمـم عـن رؤوس الشواهين ونحوها ويطلقون النبال على الطرائد فيشتد نباح الكلاب وترتفع أصوات أشلائها وهي تتجارى فيتم الاقتناص وتقع الطرائد فإذا لم تفقأ الصقـور عيونها أجهز الرماة عليها بالخناجر والفؤوس الكبيرة ونحوها. وكثيراً ما كان يدعى أعيان تلك الجهة للاشتراك بالصيد لأن كثرة القنـاصين تسـاعد علـى تكثـير القنائص[1] وكان بنو المعلوف يحسنون الرمي لتعودهم الصيد في غابـات اللجـأ الغبياء هذه حالتهم في أيام البطالة وكثيراً ما كـانوا يلعبـون بالمنقلـة[2] والـدّر (الدريس) ونحوها للتسلية لأن التبغ[3] لم يكن قد عرف. أما في أيام الشغل فـإنهم كانوا يصرفون أوقاتهم في الأعمال التي تعودها جـيرانهم، وكـانوا يشـاركونهم بالدفاع عن موطنهم ويبادلونهم كؤوس الصفاء مكتسبين ثقة المقدمين وحب أعيان البلاد. وكانوا يبادلون إخوانهم الملكيين الولاء في كفر حلدة والكفور وبقسـماية (ازاء ماء). ولقد كان سكان العاقورة اليمنيون الذين عادوا إلى تعميرها نحو سـنة 1540م (بعد أن خربت بضع سنوات لخصامهم مع القيسيين) يزورونهم فيردون لهـم الزيارات. ولقد زاروا الأرز ودهشوا من ضخامة أشجاره وقدمها. ورأوا البـترون

---

[1] إن عوائد الصيد في القرن السادس عشر لخصناها من رواية بحيرة قدس للأب لامنس اليسوعي ومن بعـض التواريخ كالتمدن الإسلامي (156:5) وغيره.

[2] المنقلة اسم آلة وهي عبارة عن خشبة مستطيلة فيها أربعة عشر تجويفاً على كل جانب سبعة يوضع في كـل منها سبع حصى مدملكة ثم يلعب فيها بتفريق ما في كل تجويف على ما يليه من الجهة اليمـنى إلى أن يكـون انتهاء النقل حصى مزدوجة فيرفع كل مزدوج من التجويف. وهكذا إلى النهاية والغالب فيها هو الأكثر حصى وهي قديمة مشهورة في سورية ولبنان.

[3] اكتشف التبغ نحو سنة 1492م في جزيرة توباغو ببلاد المكسيك ونقل إلى أوربة سنة 1518م وشاع فيـها نحو سنة 1560م ودخل القسطنطينية 1605م ثم أفتي بإبطاله واتصل بسورية في النصف الأول من القرن السابع عشر واشتهر فيها في منتصف القرن الثامن عشر ويسمى عندنا تتن وهي تركية (دوتن) بمعنى دخان وذلك مـن تسمية الشيء بظاهرة من ظواهره. والتنباك هو تبغ أعجمي يدخن بالنارجيلة (الأركيلة).

التي كانت آهلة بالسكان ولها جون صغير ترسو فيه السفن. وهي أشبه بمدن القرون الوسطى بضيق أزقتها وتسقيف أسواقها وازدحام أبنيتها المحدقة بقلعتها التي بناها الصليبيون ورممها المقدمون. وكانت سورها قائمة حصينة لرد غارات التركمان في قلعة المسيلحة. وعلى الساحل كثير من الأبراج التي أقيمت للمحافظة ورد غارات الإفرنج. وفي السهل المجاور للمدينة كثير من القلاع الحصينة، حتى كانت البترون مفتاحاً من مفاتيح لبنان الشمالي. وكانت السفن تتراوح بين مينائها وميناء بيروت وطرابلس وانفه، أما جبيل فلم تكن لتستطيع الرسو فيها لخرابها.

ولقد زاروا دير القديس جاورجيوس الحميراء[1] الذي هو على بعد ساعة من قلعة حصن الأكراد[2] إلى الشمال الغربي وهو من زمن الفتوح مبني في إحدى شعاب جبل النصيرية تحدق به بساتين فيحاء معظمها من الزيتون. وعلى مقربة منه ينبوع ماء صاف يسميه العرب الفوار ودعاه يوسيفوس المؤرخ اليهودي بالنهر السبتي ومياهه تصب في نهر العروس الذي يصب في النهر الكبير المعروف قديماً باسم التوروس. ومعنى السبتي الدوري أو الأسبوعي وإليه نسبت قلعة الحصن

---

[1] هو الدير الشهير وبناؤه قسمان متصلان أحدهما الكنيسة وهي كبيرة وهناك كنيسة قديمة صغيرة فيها صورة القديس جاورجيوس بتاريخ 1793 للخليقة وتحدق بالكنيسة غرف الرهبان والقسم الثاني دار الرئيس وفيها غرف بديعة للاستقبال والزوار وفي الطبقة السفلى مأوى للمرضى وشرع الطيب الذكر البطريرك ملاتيوس الدوماني سنة 1905 بإقامة سوق حالت المنية دون إتمامها فأكملها غبطة العلامة البطريرك غريغوريوس الحداد الحالي في السنة التالية فجاءت بديعة طولها ثلاث مائة وأربعون ذراعاً بعرض خمس عشرة فيها مئة وسبعة عشر دكاناً يدخل إليها ببابين وكانت تقام في القديم سوق سنوية للبيع والشراء في عيد الصليب تنسب إليه يجتمع فيها الناس من أكثر مدن سورية وما يجاور الدير ثم بعد تشييد الأبنية الجديدة صارت سوق ثانية قرب عددية الدير تسمى سوق الدير وهي كلها أشبه بالمعارض (ومنها سوق النبطية في جنوبي لبنان ومعرض الشوير العثماني اللبناني) وفي الدير عشرة رهبان وهو يتبع الكرسي الأنطاكي الأرثوذكسي وله أملاك وافرة الريع في قضائي الحصن والكورة.

[2] هو غربي حمص وبينهما مسافة يوم. بني في موضعه أحد أمراء الشام برجاً وأنزل فيه قوماً من الأكراد طبعة بينه وبين الإفرنج الصليبيين فنسب إليهم وأجرى لهم أرزاقاً ثم زادوا في تحصينه إلى أن صار قلعة منيعة هاجمته سنة 1101م ريمون دي طولون وعاد عنه خائباً واستولى عليه تنكري صاحب أنطاكية سنة 1109م وبقي بأيديهم إلى أن استولى عليه الملك الظاهر بيبرس البندقداري من سلاطين المماليك المصريين سنة 1271م وبنى فيه برجاً عليه صورة أسدين وكتابة عربية باسمه وينسب إليه إلى يومنا هذا. وهذا الحصن مربع الشكل عالي الأسوار وسوره الخارجي له أربعة أبراج مستديرة إلى الغرب ومثلها إلى الشمال أجملها برج البنات. وداخله بئر عظيمة قربها كتابة يونانية وكنيسة على جدارها كتابة يونانية أيضاً، وهناك جامع محول عن كنيسة وأمامه قبو فيه قبور على أحدها قبرية عربية نصها (قبر المحافظ اسبر يوسف بن اسبر ديب غفر الله له سنة 1187هـ) وهي توافق 1773م. وقضاء الحصن من متصرفية طرابلس الشام التابعة لولاية بيروت ومقر قائم مقامه في تل كلخ وعدد قراه 146.

فسماها المصريون شبتون. وهو من الينابيع الدورية التي عرفها الفينيقيون ينفجر من شق صخر في حضيض قمة شاهقة وذلك الشق يمثل حوضاً عمقه نحو عشر أذرع وعرضه نحو ثلاث تنصب مياهه وتعود إلى جريها غالباً في كل أسبوع مرة وقد يتغير دورها بتغير الفصول والسنين. وكان هذا الدير مطمحاً لأبصار الزائرين من أهل عكار وشمالي لبنان ولا سيما الملكيين. وكانت أكثر زياراتهم إياه في زمن إقامة السوق الكبيرة بقربه في عيد الصليب فتروج التجارة ويكثر البيع والشراء ولا سيما السجاد الذي كان التركمان يتقنون صنعه. وهكذا صرف بنو المعلوف أكثر من ربع قرن في راحة وهنا ولم يكدر الزمان صفو عيشهم.



القطف الرابع

في تفرقهم في لبنان وفلسطين

قلنا إن الأمير منصور العسافي كان مع حكمه كسروان يستأجر من حاكم طرابلس مقاطعات أخرى ولا سيما بلاد البترون عندما لا يكون للدولة نائب خاص. فتقرب منه بنو المعلوف وأكرموا مثواه، فمال إليهم، وكان أعظم رابطة بينهم العصبية اليمنية التي كانت من أقوى الروابط وأوثق العرى. ولقد عزز شؤونهم وعضدهم وقواهم على من يتولى تلك الناحية سواه.

ففي سنة 1528م كانت يد الأمير العسافي مرتفعة عن تلك الجهة فجاء القشلق (تركية بمعنى ضريبة وتطلق على جابيها أيضاً) برجاله من طرابلس إلى دومة لجمع الضرائب التي صودر بها سكان تلك الجهة ولا سيما محالفي الأمير العسافي، فنزل في دار بني المعلوف حسب عادته، وبقي هناك أياماً. وفي أثناء إقامته ولد لأحدهم ابنة جميلة الطلعة فسروا بها إذ كان لهم ذكور كثيرون، ولما رأى سرورهم قال لجدها الشيخ (طفلة مباركة) فأجابه حسب عادة تلك الأيام (هي لك جارية) فألبسه القشلق عباءة، ولكن الجد ظن أنه يمزح، ولم يحسب لكلمته حساباً. وهكذا انصرف القشلق برجاله وفي نفسه ما فيها.

ولما أعيدت ولاية جبة بشراي وبلاد البترون إلى حليفهم الأمير منصور قدم دومة بمديرية الحبيشيين[1] أصدقاء المعلوفيين أيضاً. ففي إحدى الليالي جرهم

[1] ينتسبون إلى الشيخ حبيش بن موسى بن عبد الله بن مخايل الذي قدم بأولاده في أول الفتح العثماني من يانوح (قرية قرب المغيرة من جهة المنيطرة) إلى غزير لخصام وقع بينهم وبين أهل العاقورة فخربت يانوح فاتصل

الحديث إلى أن يقصوا عليه ما جرى لهم مع القشلق، فقال لهم أنه بلا ريب اعتبر كلام الجد له بمنزلة عقد خطبة وحذرهم منه وحرضهم على قتله إذا لم يمكن التخلص منه بطريقة حسنة ووعدهم بأن يحامي عنهم وينزلهم في ولاية كسروان.

وبعد مضي بضع عشرة سنة أي في سنة 1550م كانت ولاية الأمير منصور قد رفعت عن دومة، فعاد القشلق برجاله إليها لتحصيل الضرائب كالعادة. فطالبهم بالابنة التي وعدوه بها حسب اعتقاده. ولما شاهد جمالها فتن بها وألح عليهم بذلك. فبعد أن يئسوا منه و لم يجدوا طريقة للتخلص تآمروا وأعدوا له مأدبة في إحدى الليالي، ووقفوا جميعهم لخدمته وخناجرهم مخبأة تحت ثيابهم، فوثبوا عليه وقتلوه هو ورجاله، وأخذوا خيولهم إلى الجنوب الشرقي من القرية قرب المحل المعروف بغفرة (قرية خربة كان سكانها من المتاولة) فوضعوها في فرجة بين صخور لها منفذ ضيق وسدوا عليه ذلك المضيق بإحكام. ولن يزال ذلك المحل يسمى إلى يومنا هذا باسم (جور الخيل) إشارة إلى هذه الحادثة.

ثم قاموا ليلاً بقومهم وحملوا ما استطاعوا حمله وحرقوا البيوت وما فيها وقصدوا كسروان التي كان يحكمها حليفهم الأمير منصور المذكور ولما وصلوا نهر ابرهيم (المنسوب إلى أحد أمراء المردة والمعروف قديماً باسم أدونيس أي تموز) لبثوا قليلاً ريثما نالوا الراحة وتفاوضوا في شأن إقامتهم فأقروا على أن ينقسموا ثلاث فرق خشية أن يغدر بهم خصومهم أو يخدعهم حاكم كسروان ثم تركوا نهر ابرهيم وعاجوا بجبيل فرأوها خربة لم يبق من آثارها إلا السور والقلعة فاستوقفهم ذلك

بخدمة الأمير عساف والي كسروان وتقدم أولاده عند أخلافه وخدموهم ثم اتصلوا ببني سيفا أيضاً ولكن أحدهم يوسف باشا فتك بأبي يونس سليمان وابن أخيه مهنا منهم وقتلهما. ومن أشهرهم الشيخ أبو ضاهر الذي أرسله الأمير يونس المعني مع الشيخ أبي نادر الخازن لعد أشجار كسروان وجباية المال المفروض عليها سنة 1613م والشيخ أبو فارس الذي قتل في واقعة مرحاته كما مر في حاشية صفحة 108 وذلك سنة 1636. ولقد كتب الأمير أحمد المعني سنة 1680م لكل من الشيخ طربيه بن موسى وأبي شديد سيف بن طالب بولاية غزير فكانت إقطاعاً لهم واشتروا فيها واقتنوا أملاكاً في الفتوح وبلاد جبيل وساووا مشايخ البلاد وسارت منهم فئة إلى بلاد الغرب فنالت من ملوكها وأشرافها خيراً جزيلاً ثم عادوا إلى كسروان كما روى صاحب مختصر تاريخ لبنان وممن اشتهر منهم مؤخراً البطريرك يوسف الماروني الذي توفي سنة 1845م في الديمان. وعطوفتلو شديد بك قنصل الدولة العلية في باريس وشقيقه عزتلو نعمان بك الذي خدم المناصب الكبيرة في متصرفية لبنان وعزتلو الشيخ يوسف يعقوب الذي خدم الحكومة المصرية وألف المعجم الفرنسي العربي المشهور وهو اليوم رئيس القلم الأجنبي في متصرفية لبنان. ورفعتلو الشيخ أسد الذي تولى بعض الأعمال في حكومة المتصرفية وألف كتاباً في أصول اللغة العثمانية بمساعدة عزتلو ابرهيم بك الأسود صاحب جريدة لبنان، وغيرهم.

البناء هنيهة ووقفوا في بعض النواحي المشرفة على المدينة ريثما سكن روعهم و لم يشاهدوا في مينائها سفينة لكثرة ما فيه من الأنقاض المنهدمة. وكانوا يمرون أمام أبراج أقيمت على الساحل لرد غزوات الإفرنج و لم يكن الناس ينسبونها إذ ذاك إلى الملكة هيلانة. ثم مروا فوق جسر المعاملتين (أي معاملة طرابلس ومعاملة صيداء) وبجونية التي كانت قرية حقيرة.

وكان الصباح قد تنفس وأخذت الشمس تذهب رؤوس تلك التلال المشرفة عليهم كأنها حصون ترد غارات البحر فسار بعضهم إلى غزير[1] لمقابلة الأمير منصور في قصره المشرف على البحر فسلموا حسب عادة العصر فترحب بهم وأخبروه بما جرى فطيب قلبهم وأذن لهم بالإقامة في مقاطعاته ووعدهم بالمساعدة وسرّ بهم مدبره الشيخ أبو منصور يوسف حبيش، وكان يزورهم كثيراً ويبادلونه الولاء. فودعوا الامير شاكرين وعادوا إلى قومهم واستأنفوا المسير فوصلوا دربند[2] (مضيق) نهر الكلب فلم يستوقفهم الدرك (المحافظ) الذي كان يتولاه بعض الأمراء التنوخيون من طرابلس إلى صفد وكذلك حكام المقاطعات لأن تلك العادة قد أبطلت بعد الفتح العثماني إذ لم يبق خوف من عودة الإفرنج إلى البلاد. وكان جسر هذا النهر من بناء السلطان سليم العثماني الفاتح .

---

[1] سريانية بمعنى مقطوع وذلك لأن موقعها البديع منفصل عما يجاورها وهي من أجمل قرى لبنان وأخصبها وأغزرها ماء وأطيبها هواء ترتفع عن سطح البحر نحو 350 قدماً وسكانها نحو ستة آلاف وفيها آثار أبنية للعسافيين والشهابيين تحول بعضها إلى مدارس شهيرة منها مدرسة الآباء اليسوعيين المؤسسة سنة 1844م والمنتقلة إلى بيروت. ومدرسة المزار لمؤسسها الطيب الذكر المنسنيور لويس زوبن وهي مشهورة إلى عهدنا. والبلدة تتبع قضاء كسروان رأساً ومن أشهر ينابيعها (نبع المغارة) وحاصلاتها من الفيالج نحو خمسة وعشرون ألف، اقة وهي مصيف حكومة القضاء وأهلها مشهورون بالذكاء والنشاط.

[2] المرجع أن مرقس اوريليوس انطونيوس الملك الرومايي هو الذي أصلح هذا المضيق ووسعه بين سنتي 177و180 وسماه باسمه وهناك كتابتان تدلان على ذالك. وقيل أن النهر سمي بهذا الاسم لأن الكفار نصبوا تمثال كلب قيدوه بسلسلة حديدية وربطوه إلى الصخرة اعتقاد أنه ينبههم حين قدوم الاعداء ثم ألقاه البحريون في البحر. وسنة 1675م قطع بعض بحار ألافرنج رأسه وحملوه إلى البندقية وبقيت جثته إلى عهدنا. وبنى عليه القيصر انطونيوس الأول الملقب بسوتير جسراً سنة 250ق م ثم هدم وبنى جسراً آخر عليه سيف الدين ارقطامي بزمن الملك الناصر بن قلاوون سنة 1292م ثم السلطان سليم الفاتح ولما هدم سنة 1809م جدد الأمير بشير بناءه. وسنة1813م أصلح أيضاً درج هذا النهر ورمم رصيف المعاملتين. ولما هدم جسره أقام عوضه المغفور له واصه باشا رابع منصر في لبنان سنة 1889م. ولإخفاء أن هذا المضيق اتخذته ممالك كثيرة مفتاحاً للحصار وقد احتازه انطيوخوس الكبير وألجأ جيوش البطالسة أن يندحروا من أمامه هاربين. وكابد الصليبيون مشقة بمروره ولاسيما بلدوين الأول عند أجتيازه قادماً من أنطاكية إلى أورشليم ليخلف أخاه غدفريد في الملك . وحصنه بعد ذلك ملوك الشام خوفاً من هجوم الإفرنج وبنوا قلاعاً بقربه للمحافظين ثم أهمل أمره بعد الفتح العثماني. وهو اليوم مجمع آثار كثيرة من الأمم التي مرت به وكتبت على صخوره وقائعها حتى الفرنسيين سنة 1860م.

ولما وصلوا إلى أنطلياس أجمعوا بعد المداولات الكثيرة أن يذهب الفروع الأربعة بنو عيسى ومدلج وفرج وحنا إلى أعالي كسروان وفرع ناصر ونعمة إلى جهات فلسطين، وسمعان يبقى في ساحل كسروان. وهكذا تفرق شملهم وغلبت على بعض أسمائهم كما هي العادة فبقيت فروع عيسى ومدلج وفرح باسمها وفرع حنا لقب بكلنك[2] وهو من سلاح عصرهم كان يحمله ولده ميخائيل. وفرع ناصر نشأ منه بنو اللحام ومويس ودويري وحنين ودعيبس. وفرع نعمة عرف ببني النجار. أما فرع سمعان فلقب ببني الكريدي لأنه كان يلبس كالأكراد وقيل لأنه قتل كردياً. وسيأتي تفصيل ذلك قريباً إن شاء الله.



القطف الخامس

في نظم ما جرى لهم بتلخيص

نظمت ما جرى لهم إلى تفريقهم بهذه الموشحة تسهيلاً للحفظ وتذكرة للمطالع الذي أرجو منه المعذرة عن الخطأ فإن العصمة لله:

أسرة المعلوف كانت في اللجا	مثل جيران بأمن ورجا
وإليهم كل مخذول لجا	فأروه بعد ضيق فرجا
دامة العليا لهم كانت سكن	شيخهم في نجمة الصبح[19] قطن
مرت الأجيال من دون حزن	وهم للخير أضحوا منهجا
فبحوران وعجلون وما	جاور القطرين كانوا علما
إن مدح النفس يدني التهما	فأردت الآن منه مخرجا
عدت للقصة وهي المطلب	وبها مرُّ الأماني يعذب
لست في سرد المعاني أكذبُ	نابذاً كل مقال سمجا
قصة قد حدثت منذ سنين	عدها يقرب من خمس مئين
فروى الآباء هذا للبنين	سنة كل عليها درجا
قد تعادوا مع عربان الفحيل	بعد ما مالوا إليهم كل ميل

[2] الكلنك يسميه العرب المفقاص من فقص أي كسر وفضخ (فدغ) وهو شبه رمانة تكون في طرف عمود من حديد تفقص كل شيء أدركته وهو من أسلحة ذلك العهد.

(1) أي بمشاهم وفرساهم.
(2) قلب له ظهر المجن (الترس) مثل يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد وربمـــا أرادوا به الحرب بعد السلم والعداوة بعد الصداقة.
(3) إشارة إلى لطيفة.
(4) تباعد الأسنان.
(5) ما دُقق وطوّل.
(6) آلة تتخذ لتضييق الحصر بالضغط تحسيناً للقامة ويسميها الإفرنج (Corset) وهي كثيرة الأضرار.
(7) أصيبت بصاعقة.
(8) قرعت صدرها حزناً.
(9) كناية عن الشدة والضيق.
(10) هناك.
(11) كناية عن الارتحال.
(12) استمعوا وأصغوا.
(13) مقدار ما.
(14) ساروا معاً.
(15) كناية عن السرعة.
(16) بإصلاح.
(17) جمع هضبة بمعنى الجبل الصخري المرتفع.
(18) أي وضعت صخورها بعضها فوق بعض.
(19) اسم هيكل منرفة في دامة كما يسميها العامة.
(20) اشتعل.
(21) سوادها.
(22) وضوحاً وإشراقاً.
(23) الاهتزاز ليناً.
(24) هناك.
(25) أخرجتهم من دارهم وأزعجتهم.
(26) مغلقاً.
(27) بطل مدجج بالسلاح.
(28) عقل.
(29) خدر ووجع يأخذ الابل في أطرافها.
(30) أهاجوا وطيروا.
(31) الغبار.
(32) سنين.
(33) ارتاد الأرض إذا تفقد ما فيها من المراعي والمياه ليرى إذا كانت تصلح للنزول فيها.

نكلـــوا فيـــهم برجـــل وبخيـــل[1]	وقليـــل منـــهم مـــن قـــد نجـــا
لهـــم قـــد قلبـــوا ظـــهر المجـــن[2]	فتوالـــت بينـــهم تلـــك الفـــتن
ليـــس بـــد مـــن تبـــاريح الزمـــن	كـــل قلـــب في البلايـــا ولجـــا
إنمـــا العـــدوان يلقيـــه الحســـد	كم حسود جـــاز عمـــرا في نكـــد
فالعدى قـــد حســـدوا ذاك البلـــد	بضـــرام في حشـــاهم أججـــا[20]
نشأت في ربعـــهم مـــن لطفـــت[3]	كاسمها خلقـــا وخلقـــا وصفـــت
بكمـــال وجمـــال وصفـــت	كـــل مـــرة بثناهـــا لهجـــا
وصفـــت لمـــا حوتـــه الفلجـــا[4]	واستجادوا في العيـــون الدعجـــا[21]
مذ علاها حـــاجب مـــا زججـــا[5]	بمحيـــا قـــد تنـــاهى بلجـــا[22]
ذات خصـــر لم يضيقـــه مشـــد[6]	وقـــوام قـــد تنـــاهى في الملـــد[23]
وجمـــال ليـــس للتحســـين يـــد	فيـــه تسـبي مـــن رآهـــا مـــهجا
ذات يـــوم خرجـــت في دلهـــا	وغـــدت نائيـــة عـــن أهلـــها
والحيـــا قائدهـــا في ســـبلها	لا تلاقـــى ثم[24] أمـــرا مزعجـــا
بينمـــا تخطـــر في تلـــك الحقـــول	إذ دهاها ما دهاهـــا مـــن خمـــول
فكمين كـــان في تلـــك الســـهول	مـــن عداهـــا وإليـــها خرجـــا
عندمـــا جمـــع الأعـــادي حققـــت	حســـبت أن المنـــون اندفقـــت
وبمـــا قـــد فاوضوهـــا صعقـــت[7]	وغـــدا النـــور لديـــها كـــالدجى
يا لها مـــن ســـاعة فيـــها ارتمـــت	وبـــأعراض أعاديـــها احتمـــت

---

[34] انتجع سافر في طلب الرزق.

[35] انهمك في الأمر جد فيه ولج.

[36] شرب المساء.

[37] شرب الصباح وهما كناية عن الراحة والهناء.

[38] صعب وعسر.

[39] طريقا واضحا.

[40] الهمج الحمقى والرعاع .

[41] المكان الضيق الكثير الشجر.

[42] جمع زابية وهي ما ارتفع من الأرض والجملة كناية عن لعب أيدي الزمان بتفريق الجماعات.

ولديهم ضرعت والتدمت[8] ... فتمادوا باعتداء عِوَجا
أُنقذت بعد اللتيا والتي[9] ... بسلام ولآل ولت
واستغاثت ثم[10] بالولولة ... واستفزهم[25] لتحقيق الرجا
وهم صاحت وقالت في عويل ... يا لقومي قد دنا وقت الرحيل
ليس فيكم من جبان أو ذليل ... ليس باب الله عنا مرتجا[26]
فأقيموا للنوى صدر المطي[11] ... واحشدوا من قومنا كل كمي[27]
وارشقوا الأعدا نبالاً عن قسي ... ظهرها من هول خطبي عوّجا
إنما نحن كرام الأثر ... قد نشأنا من عريق الأسر
وشهرنا من قديم الأعصر ... إننا أرباب سيف وحجى[28]
جدنا جفنة من قد حكما ... أرض حوران وما فيها قد سما
من بني غسان نسل العظما ... فخرنا بالنسبتين ازدوجا

*** ***

فأصاخوا[12] لنداها بامتثال ... وأذاقوا خصمهم مر النكال
وأقاموا ريثما[13] في حزون وسهول ... ومساء ودعوا أرض اللجا
وتجاروا[14] في حزون وسهول ... بخيام قصدوا فيها النزول
ومواشيهم عجول وخيول ... وجمال ما شكت مر الوجى[29]
سالت البطحا بأعناق المطي[15] ... مسرعات لم يكن فيها بطي
كم كبير وعجوز وصبي ... قد أثاروا[30] بالمسير الرهجا[31]
وصلوا أرض دمشق بسلام ... وعلى غوطتها ألقوا سلام
صرفوا الأيام فيها باحترام ... وتمنوا أن يقيموا حججا[32]
دخلوا الأسواق يوماً باكراً ... فرأوا فيها نجاحاً باهراً
شاهدوا الهندي فيها تاجراً ... والعراقي ينال المرتجى
لبثوا بضعة أيام هناك ... بارتياد[33] وانتجاع[34] وانهماك[35]
أجمعوا من بعد ما طال ارتباك ... أن يسيروا ليلاقوا الفرجا
لحمى لبنان ساروا بارتياح ... إذ به طاب اغتباق[36] واصطباح[37]
نال عزاً وارتقاء وفلاح ... قوّم السلطان فيه العوجا

إن سلطان الورى المـــولى السـليم   من بني عثمـــان ذي المجــد القــديم
جـــاء ســوريا بإلهـام الرحيـــم   فاتحـــاً فـــالقطر فيــــه ابتـــهجا
بســط الإســعاد فيــه والأمـــان   ووقى الأهلين مـــن غـــدر الزمـــان
فأتاه النـــاس مـــن أقصـــى مكـــان   وإلى (لبنـــان) كـــل قـــد لجـــا
*** ***
فبســفح الجبــل الشــرقي قـــد   نزلوا (ســـرعين) في يـــوم الأحـــد
صرفـــوا وقتـــاً بـــترميم[16] البلـــد   وأنـــاروا في حمـــــاه الســـــرجا
مثلـــوا الســـهل البديـــع الأثــــر   ســـهل حـــوران الجميـــل المنظـــر
وهضاباً[17] نضدت[18] مـــن حجـــر   لجـــأ شـــق[38] عليـــهم منـــهجا[39]
ضاق في أبصارهم ســـهل البقـــا ع   بعد مـــا قـــد حبســـوه ذا اتســـا ع
إنمـــا الضيـــق نـــراه في الطبـــا ع   عندما تصحـــب قومـــاً همجـــا[40]
*** ***
قصدوا من قطـــر لبنـــان الشـــمال   بعد مـــا بـــاعوا عجـــولاً وجمـــال
نهبـــت خيلـــــهم ذاك المجـــال   حيث (دوما) شاهدوها حرجـــا[41]
نزلـــوا فيـــها بعـــز واحـــترام   ولهـــم في ربعـــها طـــاب المقـــام
إن تـــر الأيـــام تقضـــى بابتســـام   تجـــد التكديـــر عنــــها نتجـــا
فـــرّق الدهـــر لفيفـــاً ذا اقـــتران   فغـــدا كـــل فريـــق في مكـــــان
إنمـــا الإنســـان في أيـــدي الزمـــان   حجرٌ فـــوق الـــروابي[42] دحرجـــا
وأعـــاد الله جمـــــع الشـــمل في   وضـــع تـــاريخ بـــه الفـــرض وفي
فـــاعذروني إذا عرفتـــم موقفـــــى   إن لي في حلمكـــم كـــل الرجـــا

الشجرة الثانية

في شؤون بني المعلوف في غير حوران ولها فرع واحد

الفرع الأول

في من نزل لبنان وفلسطين منهم وفيه قطفان

القطف الأول

في الذين نزلوا المحيدثة وكفر عقاب وعشقوت

قلنا إن فروع أبي عيسى وأبي مدلج وأبي فرح وأبي حنا (أو أبي كلنك) قصدوا قاطع بيت شباب وبنوا فيه قرية سموها المحيدثة[1] ونزلوها بأولادهم ونسائهم وخاصتهم في سنة 1500م فلبثوا هنالك بضع سنوات في هناء وصفاء وكانوا يشاهدون قبالتهم إلى الشمال الشرقي منهم على سفح جبل صنين قرية خربة حسنة الموقع كثيرة الغابات معروفة بخرائب كفر عقاب وكثيراً ما رأوا فيها ليلاً أضواء فقصدها بعضهم مراراً للصيد فوجدوها قاعاً صفصفاً وفي أعلاها أكمة

---

[1] ظن بعضهم أن اسمها سرياني بمعنى الكهف والأرجح أنه عربي سهله العامة على عادتهم فقالوا محيتة وهي إلى شرقي بكفية مساحة أملاكها مائة وخمسة دراهم وعدد مكلفيها نحو ثلاث مائة منهم مائتان وستون من الأرثوذكسيين والباقون من الكاثوليكيين اتصل بها طريق العربات بزمن صاحب الدولة نعوم باشا متصرف لبنان السابق وفيها معمل حريري للخواجات زلزل عدد دواليبه نحو ستين. وهي مسقط رأس بني أبي كلنك المعلوف إلى اليوم ومن أسرها بنو العنيش الذين قدموها من قارة والنبك نحو سنة 1710م ومنهم الخوري ميخائيل خلل ناصيف منعم المعلوف ورئيس دير سمعان العمودي في وادي الكرم إذ ذاك وقد رحل بعضهم إلى بيروت ومنهم الدكتور أسعد أفندي والي زحلة ويعرفون ببني هاشم ومنهم أديب أفندي. ومن أسرها أيضاً بنو العقل الذين قدموها من عين دارة في الشوف سنة 1770م ومنهم الخوري يوسف الذي كان أول كاهن من غير بني المعلوف في القرية وأصلهم من أسرة بيت الحاج نعمة من حوران فهجرها عقل هذا وأخواه عطا وزين فعطا سكن رأس بعلبك ثم جاء أولاده زحلة في مطلع القرن الثامن عشر ومنهم الطيب الذكر المؤرخ المطران غريغوريوس رئيس أساقفة حمص وحماة ويبرود سابقاً وعنه نقلنا هذه الرواية. وزين سكن الفرزل ثم انتقل إلى زحلة وغيرها ومن فروعه الدكتور اسكندر أفندي في حوش الزراعنة (زحلة).

من أبدع المواقع الطبيعية على مدينة بيروت وبلاد كسروان. وفيها ينبوع قديم يسمى عين الملوك، لأن أمراء المردة الذين كانوا في بسكنتة وكفريقدة (الحقل المشتعل) كانوا يقصدون القرية للصيد ويجلسون على تلك العين فنسبت إليهم. أما تسمية أمراء المردة ملوكاً فقد أشار إليها الدويهي في تاريخه المشهور صفحة 70 بقوله: «فالملخص مما تقدم أن الأمير الذي كان يحكم جبيل قديماً كانوا يسمونه ملكاً بالنظر إلى سطوته. ونقل ابن القلاعي أن مقام الملك كان بجبيل وأنه لما رأى بلاد الداخلة (كسروان) في خطر عظيم من فرضة بيروت ومن الدرزي أمير الغرب جمع أربعين أسقفاً ليدهنوا سمعان ملكاً عليها فهزم الأعداء وجعل سكناه في بسكنتة بين الحدين فامتنعت بشجاعته ومات شيخاً مجتهداً فخلفه كسرى على كسروان وكان بطلاً شجاعاً دخل قسطنطينية فأكرم ملك الروم وفادته واسى له الصلات والعطايا وأقامه ملكاً على بلاد الداخلة وحكم أحكاماً عادلة وبه سميت كسروان 1هـ». ويرجح أن ملوك المردة ابتنوا في محلة الخرائب في أعلى تلك القرية قصراً لهم إذ لن تزال آثاره هناك. وحول ذلك الينبوع أشجار ضخمة معظمها من السنديان وهناك الوحوش الضارية ولاسيما النمر والطيور الكاسرة ولاسيما العقاب. ويقال إن القرية منسوبة إليه ولكن المتناقل على ألسنة الشيوخ أنها منسوبة إلى قصر فيها كان إلى جنوبي تلك العين يسمى قصر العقاب (وهو محلة عودة الرميلة الآن) وقد بقيت آثاره وأطلاله لعهدنا وحوله آثار أبنية وحجلوة منحوتة ونواويس وربما سميت بذلك نسبة إلى عقباتها وهي من أشق المسالك في سورية وأصعبها مرتقىً ولاسيما من جهة وادي الجماجم. فلما راق في عيونهم حسن موقعها وجودة هوائها ووفرة غاباتها ولاسيما ما يحدق بها من أشجار الصنوبر في المحلة المعروفة بالمنارة (التي في أعلى القرية على أكمة ثدوية تشرف على كسروان والمتن وبيروت وكثيراً ما يشاهد منها عند غروب الشمس جبال قبرص) أحبوا الإقامة فيها فقطعوا الأشجار وابتنوا بعض البيوت الصغيرة على عادة تلك الأيام حول القصر المسمى بالعقاب (وربما كان منسوباً إلى القرية) ذلك بعد أن استأذنوا حليفهم الأمير منصور العسافي فأقطعهم تلك الجهات التي تشغلها اليوم قرى كفر عقاب وكفر يقدة والمشرع وحافة المنازيل ووادي الكرم وزبوغة والبتير فصرفوا بضع سنوات في إعداد محال لسكناهم وانتقل سنة 1560م من المحيدثة إلى

كفر عقاب[1] فروع أبي عيسى وأبي مدلج وأبي فرح أما فرع أبي حنا فبقي في المحيدثة لأنه لم يرض تركها. وقد طاب له فيها المقام ورآها متسعة بعد انتقال فروع أبناء عمه منها فضلاً عن أنه كان يأنس بقربهم لأنهم كثيراً ما كانوا يتفاوضون ليلاً إما بإيقاد النار على إحدى التلال بإشارات اصطلحوا عليها وإما بمناداة أحدهم للآخر فيقطع الصوت ذلك الوادي العميق ويدوي صدى الجواب في آذانهم وهذا كان تلغراف وتليفون عصرهم.

وكان إلى شرقي كفر عقاب خربة كفريقدة[1] حيث كانت محلاً لصب الحديد المستخرج من قرية مرجبة شرقي الشوير قبالتها فسميت بالمشتعلة وهي لفظة سريانية وكان ذلك الحديد تشتغل به بسكنتة المشهورة بحداديها إلى يومنا هذا. وفي كفريقدة كان برج الأمير يوحنا الذي نشأ في أواخر القرن السابع

---

[1] روى صاحب الدوائر السريانية أن اسمها سرياني بمعنى القرية المتطرفة لقيامها على طرف ناحيتها وهي مسقط رأس المؤلف تعد الثانية في مديريتها المنسوبة إلى قصبة بسكنتة مكلفوها أكثر من مائتين فالأرثوذكسيين منهم 177 والكاثوليكيين 33 وفيها مفوض بلدي ومعمل لحل الحرير باسم الشيخ عيسى طنوس المعلوف وأولاده مؤلف من خمسة وعشرين دولاباً أسس سنة 1889م ومعمل لاستحضار بيوض دود الحرير (التبزير) باسم الخواجات فارس وعبد الله بولس المعلوف وأولادهم أسس سنة 1888م على طريقة بستور واشتهر بجودة بيوضه (بزره). ومعمل للجلد المختلف الأصناف باسم الخواجات أمين وسالم ميلان أسس نحو سنة 1889م. وهو مشهور بالإتقان ومعامل أخر غيره من نوعه. وكان فيها معامل لاصطناع البارود اشتهرت منذ القديم إلى أن أحرقها عمر باشا النمسوي سنة 1842م وأول من أدخل هذه الصناعة إلى لبنان المرحوم دياب المعلوف جد الفرع المنسوب إليه ذهب إلى حوران في أوائل القرن الثامن عشر وسكن مدة في بصير وغيرها وعرف عمل البارود ولما عاد إلى مسقط رأسه أنشأ له معامل وبقيت هذه الصناعة المتقنة محصورة في فرعه إلى زمن قريب وسنة 1905م أسست فيها الجمعية الخيرية بعناية وإذن العلامة السيد بولس أبي عضل مطران لبنان مؤلفة من نخبة شبابها المعلوفيين فشيدت مدرسة متقنة في شرقيها. وأهم حاصلاتها الفيالج التي تنتج سنوياً خمسة آلاف اقة ويصنع فيها النبيذ الجيد وهي مشهورة بجودة موقعها وطيب هوائها وحسن مناظرها وقد بقيت ثلاثة قرون ونصفاً مقراً للأسرة المعلوفية هجرها بأثنائها كثير منهم لضيقها بهم فشغلوا أكثر من خمسين قرية أهمها مدينة زحلة. وإلى جنوبيها في وادي الجماجم كتابة رومانية على صخرة كأنها منحوتة تاريخها سنة [التاريخ غير واضح (ق)]. وأفادني صديقي الأب العلامة فان كسترن اليسوعي أنها باسم أحد جواسيس الصليبيين.

[1] سكانها اليوم من المعلوفيين وفيها معملان لاستخراج بيوض الحرير (البزر) على طريقة بستور أحدهما باسم خليل أفندي المعلوف وأولاده والثاني باسم الخواجات أبي سمرا وملحم المعلوف اشتهرا بجودة بزرهما والثاني أبطل إلى عهد قريب. ويظهر في حفرياتها آثار حريق وحجارة كبيرة وأساسات وقبور قديمة أما البرج الذي فيها فقد بقي إلى عهد قريب فهدم وصغرت حجارته ففقد رونقه وكسرت أغطية النواويس المذكورة فخسرت محاسنها.

للميلاد من ملوك وأمراء المردة النازلين في بسكنتة أيام كانت حاضرة لكسروان وهو ضخم الحجارة الحسنة النحت حتى أن بعضها يشبه حجارة قلعة بعلبك وحوله أعمدة ضخمة ولبعضها تيجان منقوشة نقشاً بديعاً وكان إذ ذاك لن يزال ذا رونق وإتقان ورواء وحوله نواويس بعضها منقور في الصخر الثابت وبعضها مقطوع مسنم (جملون) وعليه نقوش لولبية يسميها الإفرنج (Feston) وفي شرقيه عين القبو[1] وهي ينبوع قديم غزير على قنطرته كتابة يونانية لن تزال إلى أيامنا. وإلى شماليه على أكمة تظللها أشجار الصنوبر محلة المزار وهي قبور لأولياء الشيعيين الذين كانوا في تلك الجهات. وإلى شرقيه بسكنتة المبنية في سفح جبل صنين وهي لفظة سريانية معناها بيت العدل وقيل المسكن وهي بالمعنيين تدل على أنها عاصمة الداخلة في ذلك العهد[2] وحولها آثار رومانية قديمة منها غار غريب الموقع

---

[1] هي اليوم قرية باسم هذه العين من مديرية بسكنتة وسكانها 32 مكلفاً وفيها دير القديس سمعان العمودي الذي شيده الطيب الذكر المطران بواصاف الدبسي البسكنتي في أوائل القرن الثامن عشر وسلمه إلى الرهبنة الأنطونية في منتصفه فبقي بيدها إلى عهدنا. وفيها معمل للجلد المتقن باسم الخواجات يوسف مختارة المعلوف وأخوته أما العين فعلى قنطرتها كتابة يونانية قيل أن فيها اسم اسبرتة (وقبالتها إلى شرقي بتغرين قرية صبرتة الباقية أطلالها الفخيمة إلى عهدنا) ولكن أحد حجارة الحنية (القنطرة) نزع ووضع في الصهريج (المحقان) فلذلك التبس حلها. وهي تنتج سنوياً مائتي اقة من الفيالج. ومن أسرها القديمة بنو أبي طراد وبنو الغصين وبنو قيامة وهؤلاء أصلهم من كفر حننة (حقل الختن) في البترون اشتهر منهم المرحوم عبد الله كرم ببسالته وصدق إخائه وكانت بينه وبين المعلوفيين مودة وثيقة وفيها اليوم ولده الخواجة داود. ومن الأسر الحديثة بنو الهالي الذين قدموا في أواخر القرن السادس عشر من اهدن إلى كسروان وبيروت وسكن أحد البيروتيين في هذه القرية ومن سلالته المرحوم الخوري بطرس الذي كان بارعاً بالصناعة وابن أخيه عبد الله شيخ القرية.

[2] ذكر الدويهي قصبة بسكنتة سنة 871م وعلوها عن سطح البحر 1430 متراً ومكلفوها ألف ومائة وسبعة وسبعون معظمهم من الموارنة فالأرثوذكسيين فنفر من الكاثوليك نزح كثير منهم إلى بعلبك والبقاع وغيرهما ومساحة أملاكها 734 درهماً. واتصلت بها طريق العربات في زمن المغفور له مظفر باشا مارة بوادي الجماجم وفيها خمسة معامل حريرية ومنها ينتج سنوياً 25 ألف اقة من الفيالج وامتازت بعسلها الأبيض وفيها أكثر من خمسين حانوتاً للبيع وثلاث صيدليات. واشتهرت بالنسيج والحدادة والصياغة وكان فيها قديماً نحو أربع مائة منوال (نول) ونحو مائة وعشرين مصبغة. وفوقها قرب قنا باكيش ثغرة البندق حيث جرت موقعة بين ابرهيم باشا المصري والكسروانيين فاندحر وامتلأت الثغرة من بنادق عسكره وذلك في 1 ت1 سنة 1841م وقبالتها إلى الجنوب ينبوعا بقليع والمنبوخ المشهوران وقرب الثاني كنايتان إحداهما رومانية لآلهة الغابات وسكان هذه القصبة يميلون إلى الفقه والخط والعلوم ونبغ منهم أسر كثيرة تفرقت في لبنان وبيروت وبعلبك والبقاع وغيرها نذكر الآن أهمها: فمن الأرثوذكسيين (بنو الحداد) قدم جدهم جبرائيل أو داود من اذرع (حوران) بأولاده الستة إلى الفرزل في منتصف القرن السادس عشر ثم انتقل بعضهم إلى بسكنتة لأسباب فنشأ فيها المرحوم الحاج

نكد الذي حظي عند الأمراء بشير المالطي وحيدر واسمعيل وبشير أحمد اللمعيين وولده ملحم أفندي وأبناء عمه الأفندية خليل عقل وهذان خدما الجند اللبناني وداود سليمان مختار القصبة وخليل بطرس ومنهم بنو الحداد في مزرعة كفر ذبيان والشوف والمتين وبحمدون ومعلقة زحلة وزحلة وفي هذه منهم الخواجات منصور وولده اسبر والشقيقان الياس وموسى أبو زيان ومنهم تفرع بنو الرياشي ومسلم والصائغ كما سنرى. ومن بني الصائغ تفرع (بنو الكعدي) فيها ومنهم المرحومين جنيد والخوري ابرهيم الأول الذي ذكر في صفحة 120 والخوري ابرهيم الثاني الذي خدم الأنفس في حدث بيروت وولده المحامي المرحوم أسعد الخوري وانتقل بعض بني الكعدي إلى فوسايا (بعلبك) ونشأ منهم المرحوم ابرهيم صعب الذي خدم الحكومة وولده صعب أفندي ومنهم الخواجة سليم وسار أحدهم يوسف رزق إلى مشغرة (البقاع) وعرفت سلالته (بني رزق) ومنهم المرحومين الأشقاء أسعد وسليم وحبيب ويوسف أفندي أولاد فارس بن يوسف رزق اشتهروا بالوجاهة والكرم ومن أولاد أسعد الشاعر اسكندر أفندي ومن أولاد سليم خليل أفندي طبيب الأسنان نزيل زحلة الآن ومن أولاد حبيب الذي خدم الحكومة نعيم أفندي ومن بني الكعدي (بنو نخلة) في الطيبة ومنهم الأب أغناطيوس من الأكليروس الأسقفي الكاثوليكي في زحلة و(بنو التبشرالي) أصلهم من تبشار في بلاد الشرق نشأت منهم بطون كثيرة مثل أبي بني سيخ ولاونديوس ويافث كما سترى. واشتهر منهم في بسكنتة المرحومان الخوري نقولا المتوفى سنة 1874م وولده حنا الفقيه الذي خدم الحكومة وحفيده المحامي ابرهيم أفندي حنا ومنهم الآن الأفنديان الحاج جرجس ولطف الله مخول ومنهم فريق في شليفة ودومة البترون وتغرين والشوير. وفي هذه نشأ منهم المرحوم رزق بطرس وشقيقه الأستاذ جرجس أفندي وولدا الأول الخواجات ادي وسعيد من كبار التجار في سانباولو (البرازيل) ومن أولاد الثاني الدكتور نسيب أفندي ومنهم في زحلة (بنو نكد) أشهرهم الخواجة خليل وولداه الأفنديان أسعد والصيدلي نجيب و(بنو أبي حيدر وفريجه وأبي طراد وأيوب) وهم من سلالة سعادة وشقيقه عبد المسيح وأيوب الذين قدموا من صلخد (حوران) وسكنوا ميزلا (البترون) في صدر القرن الثامن عشر ثم جاؤوا بسكنتة فمن سلالة سعادة نشأ (بنو أبي حيدر وبنو فريجة) ومن سلالة عبد المسيح بنو أبي طراد ومن سلالة أيوب بنو أيوب ـــ فاشتهر من بني (ابي حيدر) الفقيه الحاج طانيوس وولده سعيد وحفيده رفعتلو ابرهيم أفندي الذي خدم حكومة بعلبك نحو ثلاثين سنة بإخلاص وقد سكن طلية (بعلبك) ونجلاه الأفنديان ملحم وسعيد ومنهم في بسكنتة القانوني عزتلو راجي أفندي رئيس محكمة الكورة والخوري موسى والدكتور ابرهيم أفندي شديد وغيرهم ومن بني (فريجة) في بسكنتة الآن ابرهيم أفندي هيكل ومعظم أنسبائه في معلقة زحلة ومنهم المرحومون الحاج سمعان ونجله حنا وشديد الذي خدم الحكومة وجرجس طنوس، ومن الأحياء فيها الخوري الياس خادم قب الياس والأفندية القانوني ابرهيم شديد وخليل عبد الله وخليل وحبيب حنا ويوسف وولده أمين من موظفي الحكومة في السودان وغيرهم ومن بني (أبي طراد) الذين سكنوا عين القبو المرحومين الحاج سمعان وناصيف خطار ومن المحدثين الآن الخوري جرجس خادم القرية والخواجات عقل خليل وحنا عون مختار القرية وبعضهم في دير الغزال وحوش زحلة ومن هؤلاء نصر أفندي المصور وأولاده ومن بني (أيوب) المرحوم طانيوس وولداه الأفنديان يوسف وجرجس والمرحوم نصر الله وولداه المحاميان الأفنديان سليم وخليل والمرحوم الخوري طانيوس والحاج سلوم والخواجة يوسف طانيوس ومنهم بنو سبع في نيحا البقاع أشهرهم الخواجات فارس وداود وغيرهم. و(بنو قرطاس) من البالوع قرب بتغرين (بيت النجار) اشتهر منهم المرحومون خليل وولداه جرجس وابرهيم الذين خدموا الحكومة والأستاذ طانيوس أفندي

والهندسة يعرف بمغارة سيف الدولة علوه نحو سبعين ذراعاً وفي سمكـه (سقفه) حلقة حديدية وداخله أبنية مختلفة فيها آثار مذبح للعبادة وهناك نفق (سرداب) للاستقاء من النهر الذي يجري من صنين وفي شرقيها قلعة طبيعية صعبة المرتقى وعلى قمة جبل صنين فوقها قلعة المزار وحجارتها منحوتة ضخمة وهي تنسب إلى آلهة العشق وفي الشرق الجنوبي أطلال قصر الأمير سمعان ابن أخت الأمير يوحنا الذي خلفه في الملك ويسمى الحصين. وإلى شرقيها ينبوع صنين المشهور ببرد مائه وعذوبته. والمرجح أن قلعة سنان التي ذكرها الجغرافي اسطرابون وخربها بومبي الفاتح الروماني كانت في منعطف جبل صنين حيث هناك مضيق يفضي إلى بطاح سورية المجوفة (مشرق 507:2) وفيه بيوت صخرية مطمورة وفوق القصبة ينبوع آخر يسمى باكيش وهو إما مخرف باخوس إله الخمر الذي أقيمت له الهياكل في تلك المشارف وإما محرف بركوش أو بركيش وهو الملك نمرود اللبناني (تاريخ الأب مارتين اليسوعي 186) وإلى جنوبيها وادي الجماجم والأرجح أنه سمي بذلك لموقعة سنة 1290م (ستذكر في الصفحة التالية) التي ملأته من جماجم القتلى وقيل لموقعة بين القيسيين واليمنيين. وإلى غربيها ساقية باب الجعيلة حيث نقشت على صخورها صور حيات تذكاراً لظهورها في أول تموز سنة 1657م كما ذكر المؤرخ الشهير الطيب الذكر البطريرك اسطفان الدويهي بكتابه (صفحة 230) وهو الذي طبعه العالم رشيد أفندي الخوري الشرتوني. ولم يكن حول بني المعلوف من الجيران سوى المتاولة في محلة المزار غربي بسكنتة وبقعاتة (بيت الصبحة) وكفر تيه (الحقل المنقسم) وبقاع توته ومزرعة كفر ذبيان (راجع المشرق 354:8) وذكر الدويهي في تاريخه صفحة 153: «أن البلاد لما عمرت بالفتوح العثماني قدم إليها الناس من كل جانب وجاء المتاولة من جهة بعلبك وسكنوا في فاريا (المثمر) وحراجل وبقعاتة وقدم السنية من البقاع واستوطنوا فتقا وساحل علما (ساحل العالم) وفيترون وافقع (أي المشقوق وهي القليعات) والجديدة. وجاء الدروز من المتن والجرد وسكنوا برمانة (بيت الإله رمان السامي) ومزارع كسروان. وكذلك رجع النصارى النازحون من بلاد طرابلس فإن أهالي المجدل (القلعة) توجهوا إلى عرامون

ومنهم في معلقة زحلة المرحوم الخوري ابرهيم وولداه الأفنديان جرجس وسابا و(بنو أبي فرح) ومنهم الآباء الأرشمندريت نيقولاوس رئيس دير مار جرجس الحرف ومكسيموس رئيس دير مار مخايل بقعاتة وغريغوريوس والحاج مراد وأولاده في نيحة البقاع وأما بقية الأسر البسكنتية فسنذكر في الاستدراكات لعدم انفساح محل لهـا هنا.

(التليلة) وأهالي يانوح قرب المغيرة ذهبوا إلى كفور الفتوح وذهب جد الحبيشيين منها إلى غزير (بمعنى المقطوع) اهـ.

ولا يخفى أن كسروان قد خربت نحو سنة 1290م بأمر حسام الدين لاجين نائب دمشق إذ دهمها عسكره بقيادة سنقر المنصوري لأن سكانها كانوا نصراء الإفرنج فقتل معظمهم ومن أفلت منهم تشتت فخربت، ثم سكن الإسلام سواحلها في الأزواق وغدير وساحل علما وغزير وغيرها. وامتد المتاولة إلى جرد البلاد مثل حراجل وميروبة وفارية وبقيت أواسط البلاد خراباً مدة مستطيلة كما ذكر الدويهي وصاحب تاريخ مختصر لبنان المخطوط وغيرهما وألمعنا إلى ذلك في صفحة 159[ق].

فبنى فروع بني المعلوف الثلاثة الذين في كفر عقاب كنيسة صغيرة باسم سيدة الخرائب في أعلى القرية وساموا كاهناً عليها منهم القس جرجس ابن أبي شديد عيسى من فرع أبي عيسى وذلك نحو سنة 1570م. فعرف فرعه ببني القسيس كما سيجيء. وقبل سنة 1650م وسعوها ونقلوها إلى محلة المقبرة (الموجودة اليوم) ولقد وقفنا في رحلة الشماس بولس ابن البطريرك مكاريوس الحلبي الشهير من بني عزائم (الذي تولى رئاسة الكرسي الإنطاكي من سنة 1647 ــ 1673م وله مصنفات وتواريخ دينية) على مجيئه إلى كفر عقاب لتدشين (لتكريس) تلك الكنيسة بما ملخصه: أنه في 16 تموز سنة 1650 خرج هو ووالده البطريرك من دمشق لتفقد شؤون النورية (أي أبرشيات الكرسي البطريركي) فذهبا إلى المدن القريبة من دمشق وهي صور وبيروت وإلى مقاطعة الشوف حتى دخلا بيروت في 21 آب. وفي 21 أيلول خرجا منها فصعدا إلى جبل كسروان وأتيا قرية بكفية ثم المحيدثة وأقاما القداس في كنيستها ثم أتيا إلى دير مار الياس (المحيدثة) حيث أقاما قداساً ثم ذهبا إلى قرية الشوير ومنها إلى بسكنتة الواقعة بلحف (سفح) جبل صنين وأقاما قداساً في كنيستها ثم أتيا إلى كفر عقاب فأقاما قداساً في كنيستها الجديدة بعد أن قدسا هيكلها ورتباه. وكان ذلك اليوم الأحد في أول تشرين الأول ثم رجعا إلى المحيدثة وأقاما فيها قداساً وأتيا إلى بكفية وبيروت فدخلاها يوم الجمعة في 16 تشرين الأول ومنها سافرا في البحر بمعية يواصاف مطران بيروت إلى طرابلس فأقاما في الميناء بضعة أيام ثم سافرا إلى حلب فدمشق اهـ راجع مجلة المحبة (1:147

[ق] من النسخة الأصلية ــ المحقق.

ـــ 297 والمشرق 1009:5). وكثيراً ما كان يقيم لهم راهب من مار الياس المحيدثة القداس إلى أن يسموا كاهناً منهم.

أما فرع أبي حنا الذي بقي في المحيدثة فكان محاطاً بالدروز وكان في بكفيـة من الأسر النصرانية بنو الجميل[1] وبنو الحاج نصار[2] وفي قاطع بيت شباب بنـو غبريل[3] وجميعهم قدموا من قرية جاج سنة 1545م لأن الأمير منصور العساف التركماني قد بسط رواق الأمن في كسروان الذي كان يمتـد جنوبـاً إلى نهـر الجعماني[4] قرب صاليما (نسبة إلى صاليم أحد آلهة الساميين) وهو الفاصل بـين هذه المقاطعة والمتن وشمالاً إلى نهر ابرهيم الذي بنى الأمير ابرهيم من المردة جسـراً قرب مصبه سنة 695م فنسب إليه وكان يسمى أدونيس (تموز) وهو الفاصل بينـه وبين بلاد جبيل. وسمي كسروان في القديم الداخلة لدخول البحر فيـه والعاصيـة لصعوبة مسالكه ووعورة جباله.

وكانت بين بني المعلوف وبني الجميل مودة وصداقة قديمة فتزوج حنا مـن فرع أبي حنا المعلوف بإحدى بناتها ورزق منها ذكران أحدهما ميخائيل الذي لقب

---

[1] يقال إن بني الجميل ومقصود والغصين من فرع واحد. فبنو الجميل نقل أحدهم فرح إلى شويا ونسله فيـها إلى اليوم ونشأ منهم المطران فيلبس الأول اسقف جبيل وفيلبس الثاني والخوري دانيال الفقيه الشهير المتوفى سنة 1847م ومن سلالته حضرة الخوري دانيال رئيس دير شويا اليوم. ومنهم الدكتور الشيخ أمين. أما بنو مقصود فينسبون إلى جدهم الخوري متري الذي قدم من بلاد الشرق إلى رومية المتن ثم إلى زحلـة ومنـهم الخطـاط المشهور الخوري مخايل الذي توفي في مرسيلية سنة 1839 وسيادة الإيكونوموس أندراوس النائب الأسقفي العام في الفرزل وزحلة والبقاع وبنو الغصين سكنوا عين القبو واشتهر منهم المرحوم واكد كرم الذي قـدم الخيـل للحكومة المصرية وحضر بعض المواقع في مصر والسودان فنال بعض الوسامات وتوفي نحو سنة 1894 ومنـهم في زحلة رفعتلو نجيب أفندي كاتب مأمورية النفوس في البقاع.

[2] اشتهر منهم الخوري الحاج أغناطيوس المتوفى سنة 1886م وأسعد بك من تلامذة مدرسـة عـين طـورة الشهيرة وهو الذي أصلح ذات البين بين الأميرين بشير أحمد وبشير عساف اللمعيين وتولى بعض المنـاصب في متصرفية لبنان الجليلة وتوفي في هذه السنة أيضاً.

[3] أصلهم من بني الخوري فغبريل سكن القاطع ومن سلالته حضرة الخوري ميخائيل وبنو نفاع المشـهورين بسكب الأجراس راجع مقالتنا في المشرق (303:8) وخير أخ غبريل سكن عشقوت ومن نسله مـن سـكن بقعاتة وكان زجالاً (قوالاً) فسمي الشاعر ومن سلالته المرحوم الخوري بطرس وحضرة الخوري يوسف مؤلف تاريخ الأحقاب. وابرهيم أخ غبريل وخير سكن رشميا وعرف فرعه ببني ابرهيم حنا.

[4] سنة 1712م ألحق القاطع ومديرية بسكنتة اليوم بالمتن حتى إن كفرتيه إلى الآن نصفـها يتبـع كسـروان والنصف يتبع المتن ولكسروان تاريخ مطبوع يعرف بالمقاطعة الكسروانية أما المتن فوضعت له تاريخـاً سميتـه (شرح المتن في قضاء المتن) وهو لن يزال مخطوطاً.

بأبي كلنك لأنه كان يحمل هذه الآلة بيده وهي من أسلحة عصره وتسمي عنـــد العرب بالمقفاص كما مر في صفحة 170. والثاني بطرس الذي سيم كاهناً باسمه ولما أنشأ خاله المطران انطون الجميل صومعة في محلة دير مار الياس بكفية[1] (شـــويا) وهبه محلاً ملاصقاً لذلك الدير فبنى فيه كنيسة صغيرة وصومعة لإقامته ودعاه مـــار الياس المحيدثة[2] وذلك سنة 1590م ووقف له من تركة والده معظـــم مزرعـــة أبي ميزان وما حولها من الغابات إلى أن تتصل بنهر الجماجم ومن تركة والدته مـــا في الزغرين وجوار الدير وقد أطلق على هذا الفرع لقب أبي كلنك واشـــتهروا بـــه. واشتركوا مع أخوالهم بني الجميل بتفقات بناء كنيسة مار عبدا في بكفية[3] الـــتي بناها الخوري أنطون قبل تسقيفه كما ذكر الدويهي في صفحة 181 وذلك ســـنة 1587م وأنفق عليها ألف قبرسي ما عدا أكلاف أهل بكفية وغيرهم من المحســـنين

---

[1] يعرف اليوم باسم شويا وقد وهبه المطران فيلبس الجميل الأول للرهبنة اللبنانية سنة 1728م ورهبانه الآن 15 وشيد قربه سنة 1744م دير سيدة شويا للراهبات وكلاهما عامران.

[2] قد وقف القس بطرس هذا الدير للكرسي البطريركي قبل وفاته واشتهر مؤخراً باسم مار الياس شويا وبقـــي لبني المعلوف حق الملاحظة عليه وقد جاء في سجل الرهبنة الحناوية ما نصه: (سنة 1728م أنفذ الخوري بطـرس رئيس دير مار الياس شويا رجلاً من كفر عقاب يسمى منذراً (وهو الخوري حنا المعلوف) إلى الأمـــير نجـــم ليختبره وكان منذر مختلفاً مع أخوته على المشيخة (وذلك بحكم الأمير حيدر الشـــهابي) وهـــدم بـــالزلزال في منتصف القرن الثامن عشر فجدد كما يظهر من كتابة على باب كنيسته الغربي مفادها أنه جدد بمدة رئاســـة الخوري صفرونيوس وأيام المطران يوانيكس وكتابة أخرى تدل على أنه تم بمعاونة الشيخ يونس نقولا الجبيلـــي. وفيه ايقونسطاس خشبي بديع الصنعة متقنها ورهبانه اليوم خمسة.

[3] هي كلمة سريانية بمعنى البيت الصخري لقيامها على صخرة تعلو عن سطح البحر نحو 900 متر وســـكانها المارونيون 455 والكاثوليكيون 72 والأرثوذكسيون 41 وهي حسنة الموقع جيدة الهواء متقنة الأبنية فيها طريق عربات إلى بيروت منذ زمن رستم باشا. وفيها دير سيدة النجاة للآباء اليسوعيين وقصر الأمير حيدر اسمعيـــل اللمعي وهما من هندسة الأخ بوناجينا اليسوعي الإيطالي وللأمير حيدر يد في عمـــران هـــذه القصبـــة وديـــر اليسوعيين (المشرق 818:4) ومن الأسر التي اشتهرت فيها بنو زلزل الذين ترك جدهم رأس بعلبك في القـــرن الثامن عشر وتفرقوا في جهات المتن والفرزل وبقي بعضهم في الرأس فاشتهر الذين ببكفية بخدمـــة الحكومـــة والعلم ومن أشهرهم المرحومان اسكندر بك الذي خدم متصرفية لبنان وحكومة مصر بهمة ونزاهة والدكتـــور بشارة زميل المرحوم العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي في إنشاء بعض المجلات كالطبيب والبيان وهو مؤلف كثـــير من الرسائل والمقالات والخطب أشهرها كتاب تنوير الأذهان في العلوم الطبيعية وهي نسيج وحـــده في لغتنـــا العربية نشر منه القسم الأول وعاجلت مؤلفه المنية فطوي أمره. واشتهرت بحرصاف وبكفية والمحيدثة وبعـــض قرى القاطع ولا سيما بيت شباب بنسج الديما (مقتطعة من ديمسكواي أي النسيج الدمشـــقي) وبكثـــير مـــن الصناعات المتقنة (راجع مقالتنا في صنائع لبنان وسبك الأجراس في مجلة المشرق 303:8).

وبعد تسقيف هذا الكاهن توفي سنة 1795م وكان في الكنيسة مذبحان أحدهما في الجهة الشرقية الشمالية باسم السيدة لبني أبي كلنك الأرثوذكسيين والآخر في الجهة الجنوبية باسم مار عبد النبي الجميل الموارنة فكان كل يقيم الصلوات حسب مذهبه وكان ذلك شائعاً كما ذكر الدويهي في صفحة 173 من تاريخه: «وفي سنة 1570م استولى أهل بيروت على كنيسة الموارنة وجعلوها قيصرية و لم يبق للطائفة إلا كنيسة مار جرجس خارج المدينة فاجتمع الشيخ أبو منصور يوسف بن حبيش مع مشايخ بيت الدهان واتفقوا على أن تشترك طائفة الروم وطائفة الموارنة في كنيسة مار جرجس التي للموارنة خارج بيروت وفي كنيسة السيدة التي للملكية داخل المدينة اهـ». وكما يروي الشيوخ أن كنيسة السيدة في بسكنتة المشيدة في مطاوي القرن السابع عشر كانت مشتركة بين الروم الأرثوذكسيين والموارنة إلى أن شيد الأرثوذكسيين[ق] كنيسة مار ماما نحو سنة 1716م وفي هذه ايقونسطاس من خشب الجوز كثير الإتقان.

فبقي بنو المعلوف وبنو الجميل هكذا إلى أن قسموا الكنيسة المذكورة فشرع المعلوفيون ببناء كنيسة السيدة قرب بيوقم في نحو سنة 1632م ووقفوا لها بعض عقاراتهم و لم يسكت الدويهي عن الإشارة إلى تجديد بناء مار عبدا على أثر قسمته بين الأسرتين بل روى في الصفحة 203 أنه في سنة 1632م المذكورة عني الشيخ أبو عماد ابن الجميل مع مساعدة أهل بكفية فهدم كنيسة مار عبدا في القرية المذكورة وعقدها قبواً بثلاثة أقسام على يد حنا الشامي اهـ.

أما فرع أبي سمعان المعلوف فسكن في قرية عشقوت (الصعبة) واتصل كبيره بخدمة مقدمي الأزواق ولبس الزي الكردي فلقب بالكريدي وقيل لأنه قتل كردياً فعرف بنوه بلقب الكريدي ولما هاجم الحماديون عشقوت سنة 1684م وقتلوا من سكانها أحد عشر رجلاً كان بعض الكريديين من القتلى فشتت شملهم ولما تولى الأمير أحمد المعني مقاطعات الحماديين في تلك السنة قصاصاً لهم توجه إلى غزير بشأن حادثة عشقوت ومعه خمسة آلاف مقاتل وأرسل رجالاً من الخازنيين والحبيشيين فيهم عدد من بني الكريدي وبني المعلوف أبناء عمهم وغيرهم فدهموهم في جبة المنيطرة ففروا إلى بلاد بعلبك فأحرق ايليج ولاسة وافقة والمغيرة وميفوق

[ق] جاءت هكذا، والصحيح الأرثوذكسيون ـــ المحقق.

وقطع أشجارهم ولولا شفاعة بعض خواصه لما عفا عنهم. وبقيت الوقائع بين الكسروانيين والحماديين تتوالى حتى كانت سنة 1691م فقتلوا منهم أبا موسى ابن زعرور في وطا الجوز وذلك في 28 أيلول، وكان هذا يعتدي برجاله على المارة فلرد غاراته بنى المشايخ أولاد أبي نوفل الخازن برجاً في مزرعة كفر دبيان بطبقتين السفلى لصيانة المواشي والعليا لهم ولأعوانهم واتخذوا فيها مرامي الرصاص (وقد حول هذا البرج بعد ذلك كنيسة باسم القديس مارون البرج) فلما كثر عيث ابن زعرور المذكور أرسل إليه الشيخ أبو قانصوه فياض الخازن أحد أولاده يصحبه شرذمة من الشجعان وكان فيهم بعض بني الكريدي بقيادة شهوان من بني شهوان الذي قدم من المنية (المترل) في الكورة إلى كسروان في أوائل القرن السادس عشر وخدم عند مقدمي الأزواق التركمانيين ثم سكن غسطا وتفرع منه بنو محاسب وبنو المقير ومخلوف والشلفون. فقتل شهوان المذكور ابن زعرور الآنف الذكر عند عين العبيد قرب وطا الجوز وشتت شمل أعوانه فبث المتاولة الأرصاد عليه فسار إلى وادي التيم ثم سار إلى قاطع بيت شباب فبنى قرنة شهوان المنسوبة إليه ثم عاد إلى غسطا وعلى أثر قتل ابن زعرور توفي الشيخ أبو قانصوه فياض الخازن، فقويت شوكة الحماديين وقتلوا حنا الأسود[1] وهبوا العاقورة وغلال أهل كسروان من ميناء جبيل. وهكذا كثرت الفتن فإن علياً باشا اللقيس والي طرابلس الذي خلف محمد باشا سنة 1692م كتب إليه سلفه هذا لحنقه من الحمادية الذين عبثوا بالراحة مدة ملكه أن يوقع بهم فعزلهم هذا بعد أن كان قد أقرهم على إقطاعهم وولى هزيم آغا دندش على عكار والهرمل وحسين آغا الحسامي[2] على جبيل والمقدم قائدبيه

---

[1] ينتسبون إلى جدهم ابرهيم جرجس الملقب بالأسود الذي قدم رأس بعلبك إلى المنصف في بلاد جبيل في أوائل القرن السابع عشر وتقرب من حكام طرابلس واتجر بالحرير ولما فتك ببني ريشه المتاولة جيرانه سكن المنية قرب طرابلس وبقي أخوته الأربعة في المنصف ثم انتقل إلى برمانة وبقي نسله فيها إلى اليوم واشتهر منهم صاحبا العزة ابرهيم بك صاحب جريدة لبنان ونجم أفندي من أعضاء مجلس الإدارة وغيرهما. وذهب يوسف الأسود إلى حلب واشتهرت أسرته فيها. ومن بني الأسود آل البارودي في سوق الغرب ومنهم صاحبا العزة الدكتور اسكندر بك والصيدلي مراد لك. وبنو ربيزا أيضاً في بيروت ومنهم الدكتور قسطنطين بك.

[2] روى الدويهي في صفحة 217 وغيره: أنه في سنة 1645م انتخب السيد ابرهيم أولاد الحسامي مشايخ جبيل انكشارية (نوع من الجند) فدقت لهم موسيقى السلطان وبادروا إلى ترميم سور المدينة وقلعتها وسنة 1686م أحرق الحماديون قلعة جبيل وهبوها فجاء أحدهم بعياله إلى بيروت وسكنها ومن سلالته بنو الحسامي فيها ومنهم عزتلو خليل أفندي من موظفي حكومتها.

ابن الشاعر[1] على البترون والشيخ مخايل بن نحلوس الاهدني ابن أخت أبي كرم[2] على الزاوية وجبة بشراي والشيخ أبو فاضل رعد[3] على الضنية واتفق مع الأمير أحمد المعني على قتال الحمادية. وكان الخوازنة ورجال كسروان نحو ألف بعضهم من بني الكريدي فانهزم الحمادية على طريق العاقورة إلى بلاد بعلبك فأهلك منهم الثلج نحو مائة وخمسين رجلاً ولما وصلوا كفردان (وقيل الفرزل) حيث تنتهي إيالة طرابلس الشام لم يشاؤوا أن يتخطوها إلى ولاية بعلبك فأحرق علي باشا نيحة (المستريحة) ونهب معزى الحمادية وسلم بلاد بعلبك إلى أحمد آغا الكردي وجبيل إلى حسين آغا النوري ورجع عن بعلبك إلى إيالته ففتك أحمد آغا الكردي بياغي حميه المتوالي وأقربائه لأنهم مالؤوا الحماديين وقتل منهم سبعة عشر رجلاً وأرسل ياغي وولده حيدر إلى علي باشا فقتلهما عند مخاضة نهر رشعين (رأس العين) راجع صفحة 159 وفتك ببني حمادة وقتل منهم تسعة بين قهمز ولاسة وقد اتبع بنو الكريدي مذهب الموارنة لوجودهم في بلادهم وبقوا إلى يومنا.

وكان فروع بني المعلوف الأربعة في أعلى كسروان وساحله مقربين من الأمير منصور العسافي حاكم كسروان يعتمد عليهم في كثير من المواقع ويتخذهم في مقدمة جيشه كما فعل قبل مجيئهم من دومة. وامتد ملكه سنة 1572م بأوامر سلطانية من نهر الكلب إلى حماة وتبسط في سؤدده وابتنى له قصوراً في بيروت وجبيل وغزير وولى مقدمين على جبة بشراي وغيرها، فكثر حساده ووشوا به إلى الدولة وشكوا إليها فتكه ببني شعيب ومقدمي جبيل والبترون كما مر في صفحة 164 فأمرت بتنصيب يوسف باشا سيفا الكردي وزيراً على طرابلس الشام لكسر

---

[1] روى صاحب مختصر لبنان: إن بني الشاعر كانوا مقدمين في قرية تولة (المثلثة) في بلاد البترون ولهم فيها قصر جميل وتولوا حكم البترون مدة فاحتال بنو حمادة للإيقاع بهم وأخذ الحكم من أيديهم فلم يستطيعوا فعمدوا إلى إضعافهم المالي لمعرفتهم كرمهم وغناهم فصاروا يضيفونهم كثيراً حتى استنزفوا أموالهم وساءت حالهم فقاموا من تولة إلى بلاد المرقب وحكموها مدة وتولى الحماديون محلهم في جبيل والبترون.

[2] ينتسب بنو كرم إلى كولونال فرنسي عرف بعض بنيه بلقب الصهيوني ولقب بعض بني الصهيوني بكرم في اهدن ومنهم أبو كرم هذا ومخايل نحلوس ابن شقيقته ومن مشاهير متأخريهم بطرس بن يوسف والد مخايل بك ويوسف بك ومن سلالة مخايل المرحومان بطرس بك واسعد بك اللذين خدما حكومة لبنان ومنهم الآن عزتلو خليل بك.

[3] قيل إنهم من حوران قدم جدهم رعد إلى طرابلس وانتمى إلى بني سيفا فتولى مقاطعة الضنية هو وأولاده إلى أوائل القرن الثامن عشر.

شوكة الأمير العسافي وذلك سنة 1579م وبنو سيفا أمراء أكراد ينتسبون إلى المقدم جمال الدين الملقب بسيفا الذي كان ابناً لأحد مماليك الشراكسة وعمالهم اشتهروا في طرابلس وعكار وحصن الأكراد وأشهرهم يوسف باشا هذا.

ولقد توفي الأمير منصور العسافي سنة 1580م وخلفه ولده الأمير محمد وقرب إليه بني المعلوف كما فعل والده ولكنه اعتقل سنة 1584م مع من اعتقل من الأمراء والمشايخ بسبب نهب الخزينة السلطانية في جون عكار كما مر في صفحة 121 وأرسل إلى القسطنطينية ثم برئت ساحته فأعيد إلى ولايته وأضيفت إليه إيالة طرابلس ما عدا المدينة ولاقاه الناس عند رجوعه وبينهم بنو المعلوف بإطلاق البنادق وكانت هذه العادة قد عرفت في الشرق في أوائل القرن الرابع عشر. واستقدم معه بنائين مشهورين من الأستانة فأتموا قصر غزير والجامع الذي بقربه مما كان والده الأمير منصور قد بدأ به فزينهما بالفسيفساء (الموزاييك) الملونة والرخام ووصفهما الدويهي فقال إن القصر من أبدع أبنية الشام وأن نفقته بلغت أربعة آلاف غرش. ولما سار بعسكره وفيهم بعض بني المعلوف لمقاتلة يوسف باشا سيفا والي طرابلس في عكار وتحصيل المال الأميري الباقي عنده قتله الكامنون من قبل يوسف باشا بين البترون وقلعة المسيلحة فانقرضت به ولاية العسافين الذين ملكوا كسروان مائتين وثلاثاً وثمانين سنة وعدلوا في أحكامهم فهاجر الناس إلى بلادهم تمتعاً بالراحة والعدل وقد استولى على عقاراتهم وأموالهم في غزير وبيروت وانطلياس يوسف باشا الذي خلفهم في الولاية وكان أعظم أنسبائه جاهاً وأنفذهم أمراً وأشدهم فتكاً وهو أول وزير تولى طرابلس فقرب إليه الشعراء وأجزل لهم الصلات فاتصل به منه عبد النافع بن عمر الحموي المتوفى بإدلب سنة 1608م وهو الذي أرخ مسجد طرابلس الذي بناه ممدوحه سنة 1603 بقوله:

بنى ابن سيفا يوسف مسجداً دام أميراً للعلى راقيا
ومن بنى لله بيتاً يكن عليه في تاريخه راضيا

1012هـ

واتصل به وبأخلافه كثير منهم مثل ابرهيم البتروني الحلبي المتوفى سنة 1643م ومحمد بن ملحة العكاري المتوفى بقونية سنة 1622م وهذا كان شاعر الأمير محمد منهم الذي كان شاعراً مجيداً أيضاً فأحب الشعراء وأجازهم واجتمعوا في بابه ومما يروى أن أحدهم حسين بن الجزري (أو الجوزي) الحلبي المتوفى سنة 1624م كانت بينه وبين زميله سرور بن سنين من شعراء الأمير مناظرات منها قوله معرضاً به:

وحقك مـــا تركـــت مـــن مـــلال   وســـهو أيـــها المـــولى الأمـــــير
ولكن مـــذ ألفـــتُ الحـــزن قدمـــاً   أنفـــت موطنـــاً فيـــها الســـــرور

وبقي أمر كسروان مسنداً إلى بني سيفا حتى سنة 1615م فكفت يدهم عنـــه، وصار أمره إلى المعنيين. ولقد اشتد الخصام بين أحدهم يوسف باشا والأمير فخـــر الدين المعني الثاني لأن السيفيين كانوا يمنيين والمعنيين قيسيين فضايقهم فخر الديـــن المعني الثاني سنة 1618م بموقعة عكار وأحرق جميع دورهم فيها كما أحرق حســـين باشا سيفا دور آل معن في دير القمر بزمن الحافظ سنة 1612م فأقسم فخر الدين إذ ذاك قائلاً: «وحق زمزم والنبي المختار لأعمرك يا دير بحجار عكار». وهكذا فعـــل فإنه نقل حجارة قصور السيفيين من عكار إلى بيروت فدير القمر فكانت جميـــع الحجارة الصفراء التي في أبنية المعنيين في دير القمر من عكار ولشدة حنقه عليـــهم رد هديتهم عند عودته من بلاد الإفرنج وقال للأمير حسن بن يوسف باشا: (قـــل لوالدك نحن ما نريد هدايا منه وإنما مرادنا أخشاب لنبني بها دارنا التي أحرقها بديـــر القمر ومواشينا ومواشي تابعينا من زمان الحافظ أحمد أرسلناها إليه وديعة فضبطها لنفسه و لم يبال بحلول رمسه وكل من توجه من جماعتنا إليه أخذ منه غرامـــة والآن مراده أن ينسينا أعماله بهذين الرأسين من الخيل). فعاد الأمير حسن موغر الصـــدر حنقاً. ووصف كثير من الشعراء عداوة الأسرتين فقال ابرهيم بن محمد الأكرمـــي الدمشقي:

خلِّ عنا ذكر ابـــن ســـينا ومعـــن   إنمـــا يطلـــب الغـــريمَ الغـــريمُ
ما لنـــا والحـــروب نحـــن أنـــاسٌ   مـــا لنـــا طاقـــة بشـــيء يضيـــم

ولقد خمدت الفتن بينهما بموت يوسف باشا سنة 1624م، وكان قد تـــولى طرابلس خمساً وأربعين سنة تخللها فترات قليلة. وبعد وفاته ألحقت كسروان بولاية الشوف.

ويؤخذ على السيفيين إنكارهم لفضل العسافيين الذي ضافروهم حتى نـــالوا الحكم في طرابلس وأمدوهم برجالهم فانتهزوا فرصة انقراضهم وأوقع بعضهم بمـــن كان مقرباً منهم وشددوا الوطأة على الحبيشيين وبني المعلوف وغيرهم من أنصـــار أولئك وأشياعهم وقووا شوكة الحماديين وأضعفوا شأن المســـيحيين ولمـــا نـــزح الخازنيون من بلادهم أعطى يوسف باشا سيفا أرزاقهم إلى أولاد سكيكر من افقـــع

(القليعات) فقتل أبو نادر الخازن أحدهم تحت عجلتون (العجلة وهي اسم صنم) سنة 1613م فصادرهم الباشا بحرق دورهم فيها وإتلاف أملاكهم في مزرعة كفر دبيان وغيرها. وسنة 1676م أحرق الحماديون بلاد جبيل والبترون فخربت جميعها ونزح سكانها إلى بلاد ابن معن وسكنوها و لم يرجع منهم أحد إلى بلاد جبيل.

أما المعنيون فكانوا في أول أمرهم يمنيين كما يظهر من أخبار الأعيان في الصفحة 6676 إذ قال: ثم ذهب الأمير فخر الدين المعني (الأول) إلى السلطان (سليم) في دمشق فولاه الشوف ومن ثم وقعت النفرة بين الأمير جمال الدين (الأرسلاني[1]) والأمير فخر الدين. ودعا بنو معن أنفسهم قيسية لأن الأمير جمال الدين وأصحابه يمنيون واشتد الأمر بين الفريقين. وكان ذلك سنة 1517م. فلذلك كانوا يوالون اليمنيين أحياناً ويتخذونهم أعوانهم كما فعل الأمير أحمد منهم إذ قرّب الحبيشيين مديري العسافيين وأقطعهم غزير كما مر في صفحة 168 وقربوا المعلوفيين فحضروا معهم واقعة 1595م بين الأمير فخر الدين ويوسف باشا وعلى أثر ذلك ولى هذا الأمير الشيخ مظفراً العينداري اليمني مقاطعة الجرد التي كان يحكمها أجداده وقرّب إليه اليمنيين. وكان في عهد العسافيين والسيفيين مقدمو التركمان في أزواقهم فكان كل منهم يتولى زوقاً ويرجعون جميعهم بأحكامهم إلى الأمراء المذكورين فلما تولى المعنيون بلادهم هجروها. وفي أواخر القرن الثامن عشر لم يبق منهم أحد وصارت أملاكهم إلى يد الكسروانيين.

ولقد ذكرنا في الصفحة 109 لمعة من تاريخ المعنيين وأشهرهم فخر الدين الثاني الذي أحب هو وأولاده المسيحيين ورفع شأنهم فبنوا في عهده الكنائس وركبوا الخيول المسرجة واعتموا بعمائم الشاش والكرور (جمع كر وهو المنديل الذي يصلى عليه) البيضاء ولبسوا المناطق وحملوا الأسلحة المجوهرة وكان كل ذلك محظوراً عليهم. وقدم لبنان مرسلو الإفرنج وكان أكثر عسكر فخر الدين هذا

[1] ينتسب الأرسلانيون إلى الأمير أرسلان بن مالك المنتهي نسبه إلى ماء السماء اللخمي. اشتهروا بالفتح الإسلامي وأنفذهم المنصور العباسي إلى لبنان وأقطعهم الغرب وما إليه وناهضوا المردة واشتهروا بوقائع لبنان ونبغ منهم رجال عظام من أشهرهم في الأيام الأخيرة الأمير أحمد الذي تولى قائمية مقام الدروز كما مر في صفحة 110 وأخوه الأمير أمين الذي خلفه في ذلك المنصب وغيره ممن اشتهروا بالفضل وأصالة الرأي ومنهم الآن حضرة الهمام صاحب العطوفة الأمير مصطفى وأولاده المشهورين وجناب العالمين صاحبي السعادة الأمير شكيب والأمير أمين باشكاتب سفارة الدولة العلية في ألمانية وغيرهم.

ومديريه وخدامه من النصارى وله فيهم ثقة كبني الخازن والحاج كيوان نعمة[1].

ومما يؤيد قول المؤرخين فيه أنه لما حدثت الفتنة سنة 1609م بين سكان قرية مجدل معوش الذين كانوا من طائفته الإسلامية وأفضى ذلك إلى بيعهم قريتهم وتركها اشتراها منهم ولده الأمير علي باثنين وعشرين ألف غرش وأسكن فيها النصارى فأقام فيها البطريرك يوحنا مخلوف الاهدني الماروني المتوفى سنة 1633م، وبنى فيها داراً وكنيسة السيدة. وهذا أول عهد إقليم جزين (الكؤوس) بالنصارى لأن سكانه كانوا قبل ذلك من المتاولة وغيرهم. وكان الأمير المعني يحكم سبع مقاطعات لبنانية هي الشوف والجرد والعرقوب والمتن والغرب وإقليم جزين وكسروان. وتولى الأمير فخر الدين الثاني سورية من حدود حلب إلى تخوم القدس وسمي سلطان البر (مثل جده الأمير فخر الدين الأول). وضرب عليه مائتا ألف ذهب يدفعها عن بلاده هذا. وكانت الطرق رغماً عن سطوهم غير أمينة لا تسير بها إلا القوافل الكبيرة وكثيراً ما كانت ترافقها جنود الحاكم. وكان فخر الدين غنياً وأرزاقه وافرة الريع ولا سيما الحرير. فقد روي أنه وفي مرة من غلة حريره وأرزاقه ستة عشر ألف غرش وكان يجمع العساكر أكثر من عشرين ألفاً من أنواعها السكمان[2] واللاوند والعرب وأهل البلاد. وكان أكثر سكمانه من بلاد صفد لأنه

---

[1] قدم والده نعمة ضو بولديه سعد وثابت من قرية لحفد في بلاد جبيل سنة 1550م إلى بحرصاف قرب بكفية وانتقلوا سنة 1562م إلى دير القمر وولد له فيها الحاج كيوان المقرب من المعنيين وقد تفرع منهم أسر كثيرة مشهورة مثل بني نجم وأبي عكر وأبي صادر والشدياق ودياب وأبي مرهج والخوري في دير القمر وضواحيها واشتهر منهم شاوول المقرب من الأمير بشير المالطي وعزتلو جرجس أفندي صفا القانوني الفاضل الذي تولى خدمة الحكومة اللبنانية وعزتلو أوغست بك أديب الذي خدم الحكومة المصرية. ثم بنو اللبكة في بعبدات وأشهرهم المرحوم غطاس سمعان الذي تولى خدمة متصرفية لبنان وبنو لحود فيها أيضاً ومنهم رفعتلو جرجس بك ومن فروع نعمة بنو نعوم في رأس بعلبك.

[2] مر في صفحة 149 أن الملك أرخان العثماني سن نظاماً جديداً للعسكرية سماه بالتركية بكيجاري أي الجيش الجديد فحرفه العرب وقالوا انكشاري وكان يقسم إلى أربعة أقسام الأول منها يدعى جماعات وهو مائة فرقة (أورطة) والثاني يسمى البولوق أي الجند وهو إحدى وستون فرقة. والثالث سكمان أو سكبان بمعنى الصيادين من أربع وثلاثين فرقة. والرابع السولاك أي النشابون من أربع فرق. وقد تمرد الإنكشارية واستبدوا فضربت الدولة على يدهم مراراً إلى أن نكبهم السلطان محمود خان الثاني سنة 1825م في الآستانة العلية وغيرها وألحقوا بهم جميع مناوئيهم ومشايعيهم وأبطلت الوجاقات القديمة ونظمت عساكر جديدة.

تولى سنجقية تلك البلاد مع عجلون ونابلس وهذا الصنف من الجنود كان من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف جندي بين مشاة وفرسان وكانت علوفة كل واحد منهم خمسة غروش في الشهر. وكان عند المصالحة يغرم المتصالحين بخدمة (جزية) أو يحول عليهم علوفة السكمان وعند الحرب كان العسكر يصطف مخمساً (خمسياً) من كتائب تسمى المقدمة والساقة وجناحاها الميمنة والميسرة ووسطها القلب. وعند اصطلاء نارها ترفع الأعلام وتعزف المزامير والأبواق وتقرع الطبول وتصطدم الصفوف فتطلق البنادق وترشق السهام وتدوي المدافع بنوع غير تام من الترتيب.

واشتهر الأمير فخر الدين بكرمه وولعه بالحكم حتى روى ابن سباط العاليهي الفقيه في تاريخه المخطوط: «أنه كان من عادته أنه كلما تولى وزير أن يخدمه بشيء من المال». وذكر تاريخ الأعيان في صفحة 175: (أن خليل باشا الصدر الأعظم أرسل سنة 1617م محصلاً إلى الأمير (فخر الدين) يطلب مال الإرسالية عن السنتين ومال الخدمة ومعه مائة رجل فأقام عنده شهرين فدفع له الأمير عشرين ألف غرش للوزير وألفي غرش لمديره وثلثة آلاف غرش للدفتردار وأربعة آلاف للمحصل وألف لجماعته، وأعتذر بما أصاب البلاد من ظلم الحافظ فأجدبت). وكان الباشا يخلع عليه للولاية فرواً ثميناً وشقة (صاية) نفيسة. ولقد أعطى مرة ثلاثة آلاف ذهب لمن حمل إليه تقليد (فرمان) الدولة بولايته من حلب إلى القدس سنة 1625م وأرسل مرة إلى نصوح باشا الوزير (الصدر) الأعظم كتخداه أو كاخيته (بمعنى خادمه الخاص) بخمسة وعشرين ألف غرش وخيل مطهمة وأنسجة فاخرة. ولقد طاف فرنسة وإيطالية وإسبانية ومالطة وغيرها وشاهد عجائبها وقابل ملوكها ومشاهيرها ونال لديهم منزلة سامية وأدخل التبغ إلى بلاده، ولكنه لم ينتشر لأن السلطان منعه كما مر صفحة 165. وراجت بزمنه التجارة البحرية حتى بلغ عدد المراكب التي كانت ترسو في ميناء عكاء وحدها مائة وخمسين. وكان يسعى باستقدام التجار إلى الشرق ويأخذ بيدهم ويحافظ على سفنهم في حين أن يوسف باشا سيفا معاصره كان يقبض على المراكب التجارية ويغرمها مدعياً أنها للقرصان (لصوص البحر) وكانت المراكب التجارية الفرنسية تنقل من عكاء وضواحيها القطن الذي كان يزرع هناك وكانت أهم المرافئ بيروت وصيداء وعكاء. والسفن التجارية فرنسية وفلمنكية أما مراكب القرصان فكانت للمغاربة والمالطيين. ولقد

بني القلاع في قب الياس وبانياس وانطاكية وحلب وبرج الكشاف في بيروت ورمم وحصن قلاع بعلبك ورأس بعلبك واللبوة وحدث بعلبك وكرك نوح وسلخد وعجلون والسلط وشقيف أرنون وشقيف تيرون وحيفا وتولة (المثلثة) وسمار جبيل وجبيل وطرابلس وبرج البحصاص فيها وصافيتة (المنارة) والمرقب وحصن الأكراد وجهزها بآلات الحصار والدفاع وأقام فيها السكمان وأجرى لهم الرزق. وكان الأمير فخر الدين الثاني محنكاً ذا دهاء وتدبير قصير القامة. ومما يروى من الفكاهات التاريخية أن النسابة كانت متينة بينه وبين السيفيين فكانت زوجته ابنة الأمير علي ابن أخ يوسف باشا وهي التي ولدت له الأمير حسين سنة 1620م. وكان ولده الأمير علي صهر يوسف باشا أي زوج ابنته والأمير بلك ابن يوسف باشا صهره (فخر الدين) أب زوج ابنته. فلما اشتد الخصام بين الأسرتين كان السيفيون يعيرون ابنته بقصر قامة والدها، فأجابتهم:

عيروني بقصرك قلت عود التبر والخصر خصر الغزال والعنق شامخ شبر
قولوا لأهل الذكاء قولوا لأهل الخبر القلم يجمع الدنيا ولو كان طوله فتر

ويؤخذ عليهم في ذلك الحين مصادرة المجرمين بقطع أشجارهم أو إحراقها ولا زال المثل السائر يقول "الله يقطع رزقه" وكذلك تخريب المدن والقرى ولا يزال من الأمثال الشائعة عندنا أحدها القائل (الله يخرب زوقه) إشارة إلى أزواق (منازل) التركمان التي طمست آثارها. ومنها الضرائب الفاحشة ولا سيما عند الجدب والغلاء فإن الأمير أحمد المعني فرّق على بلاده ضريبة المسعدة سنة 1696م مع أن البلاد كانت في محل عام والأسعار في غلاء والناس في ضيق شديد. وكثيرا ما كانوا يعدون الأشجار ويضربون على كل منها مالاً فيضطر السكان إما إلى قطعها وإما إلى عدم تجديدها.

أما الأسعار في ذلك العهد فبيع في زمن الرخص ثمن مد الحنطة بثلاث بارات والشنبل بثلاثين بارة والغرارة بثلاثة غروش وغرارة الفول بغرش وثمانية أكيال الكرسنة بغرش وقلة الزيت بثلاث بارات. وفي زمن الغلاء يبلغ ثمن شنبل الحنطة أربعة غروش وأحياناً المد ثلاثة والغرارة ثمانين ومد الدقيق (الطحين) خمسة غروش ومد الشعير غرشاً وأردب الأرز 25 غرشاً وقنطار السمن مائة وخمسين غرشا وكذلك الزيت وحمل ورق التوت عشرة قروش وقلة الزيت ستة غروش ورطل الحرير عشرين غرشاً. ولا تعجب من ذلك فإن أجرة العامل نحو بارة والبناء بضع

بارات وقيمة الغرش بمثابة خمسين من غروشنا الآن. واشتهرت الدراهم الأسدية التي ضربها بيبرس البندقداري وكان شعارها الأسد وكانت بقية من الدراهم السلجوقية والهندية والعراقية والغربية والإفرنجية ثم شاعت النقود العثمانية وأبطلت تلك وكانت تضرب في القسطنطينية وتبريز وحلب ودمشق والقاهرة إلخ.

وكانت تربية الحرير شائعة في البلاد وكذلك زراعة القطن والنسج ونحو ذلك. أما الملابس فلم تكن لتختلف كثيراً عما وصفناه في صفحة 162، ولكن نساء الأمراء كن يتغالين بالحلي والجواهر كالخواتم والشنوف والأسورة. ولقد امتد رواق الأمان بزمان فخر الدين ولكن مهاجمة الحافظ لبلاده عكرت كأس صفائها وعني بعض الأدباء في وضع تاريخ له منهم الصفدي واللبناني.

وكان المعنيون يدفعون لحاكم دمشق خدمة أو إرسالية على ولاية صيداء وبيروت نحو مائة وخمسة وعشرين ألف غرش وكل سنة 50 ألفاً خراجاً زيادة على مقطوع بلادهم كما فعل الأمير يونس مع جركس باشا سنة 1614م. وكانوا يدفعون عشرة آلاف غرش لإحالة ولاية طرابلس إلى عهدتهم وعلى سنجقية صفد أربعين ألفاً. وكثيراً ما كان يزاحمهم حكام عصرهم ويدفعون أكثر منهم ليرفعوا يدهم عن الولاية كما فعل بنو الحرفوش بدفعهم مائة ألف ذهب ليحكموا بلاد بعلبك التي كانت إقطاعهم. ودفع الأمير يونس الحرفوش سنة 1622م ألف ذهب لمصطفى باشا والي الشام لأخذ صفد وعجلون من يد الأمير فخر الدين وقد يترك الحاكم شيئاً من المال المتعهد به تخفيفاً عن الرعية كما فعل جركس باشا سنة 1615م مع الأمير يونس فإنه رضي أن يأخذ خمسة وعشرين ألفاً بدل خمسين ألف غرش كل سنة. وعلى الجملة فإن طالب الولاية كان يعد المواعيد الكثيرة ويبذل الأموال الطائلة لنيل بغيته وعند تحصيله الأموال يحول دون وعده عوائق كثيرة فيضطر الحاكم أن يتساهل أو أن يرفع يده أو يحاربه وهو لا يهتم إلا بتحصيل الولاية:

لقد صبرت على لذة المال أنفس وما صبرت عن لذة الأمر والنهى

وكان الحاكم ينتصر لمن يخالف خصمه فإن العسافيين وبني سيفا عضدوا مظفر اليمني شيخ عين دارة والأمراء آل علم الدين[1] ومقدمي بني الصواف

---

[1] أصلهم من آل تنوخ من سلالة ماء السماء اللخمي كانوا قيسيين ولكن علم الدين بن سليمان منهم تبرأ من أنسبائه سنة 1301م وصار يمنياً واشتهر بخدمة السلطان مراد العثماني في حصار بغداد وكان أول من قطع رأساً

والأمراء الحرافشة وأمراء رأس نحاش[2] (رأس النحاس) وغيرهم من مشايعي اليمنيين تشفياً من المعنيين وحلفائهم القيسيين فكان الوالي يميل إلى أحد الغرضين فتكثر المخاصمات كما حدث سنة 1660م أن أحمد باشا الكوبرلي ابن الصدر الأعظم والي دمشق سلم ولاية صيداء إلى علي باشا الدفتردار وسماه وزيراً فصار ولاتها منذ ذلك العهد وزراء وكان نصير اليمنيين فأوقع بالقيسيين ونهب بلادهم حتى هجروها وهربوا من وجهه و لم يطل العهد عليهم أكثر من سنتين حتى ولي وزارة صيدا محمد باشا ونصر القيسيين. وسنة 1664م كثرت وقائعهما فانكسرت شوكة اليمنيين. وسنة 1667م حدثت واقعة برج الغلغول في بيروت. ولقد أشار المتنبي إلى هذين الحزبين بقوله:

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العلات يصطحبان
كأن رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسي وأنت يماني

وهكذا كانت البلاد متحيزة إلى حزبين ينتصر أحدهما ويفشل الآخر فكثر الاضطراب والقلق وسالت الدماء واشتدت المطامع. ولقد لخصنا الآن من شؤون حكومة المعنيين ما يحتاج المطالع إلى قراءة مجلدات للوقوف عليه.

ونحو سنة 1684م كان الشيخ خازن الخازن[3] قد اتخذ له صديقاً من بني المعلوف الكفرعقابيين اسمه ضو فرج يرافقه ويحميه من أخوته. وكان ضو قوي

من البغداديين ففتحت بهمته وأنعم السلطان بولاية الشوف عليه وعلى أعقابه وهم الذين قطعوا سلالة آل تنوخ سنة 1633 وقطع الأمير حيدر الشهابي سلالتهم على أثر موقعة عين دارة سنة 1711م.

(2) هم من الأكراد الأيوبيين الذين سلمهم السلطان سليم محافظة الكورة من الإفرنج عند فتوحه لسورية واشتهر منهم الأمير اسمعيل في القرن السابع عشر وتولوا بعض الإقطاعات في تلك الجهات ولن تزال بقية في تلك القرية ليسوا بذات سعة في عيشهم فينتسبون إلى قريتهم.

(3) ذكر الشيخ شيبان نمر الخازن في تاريخ أسرته المخطوط الذي وضعه سنة 1821م أن جدهم جاء من اذرع (حوران) إلى نحلة ودير الأحمر واليمونة في بلاد بعلبك فتنقل فيها بضعاً وثلاثين سنة ثم انتقل إلى جاج في أواخر القرن الخامس عشر الياس الخازن أما ابن عمه وهيبة فذهب إلى عكار. ويروي المشايخ بنو العازار أنهم من أنسباء الخازنيين هم وشيوخ بني الحنا في الحصن. فالياس الخازن ولد سركيس الذي ولد ابرهيم ورباحاً فجاء سركيس سنة 1545م بولديه إلى البوار ثم بلونه (أبلون) وعجلتون كما ذكر الشدياق في تاريخه ولكن الشيخ شيبان يخالفه بقوله أنه نقل من البوار إلى أنطلياس وعندما خبأ ولدي الأمير قرقماس المعني نقل إلى برج درج بحرصاف ثم إلى بلونة وارتفعت مترلة الخازنيين لدى المعنيين لحفظهم ولدي أحدهما وهما الأميران فخر الدين ويونس. فاتخذ الأمير فخر الدين بعد استلامه الولاية أبا نادر خازناً مدبراً واشتهر بدرايته ثم اتصل بخدمة أخيه

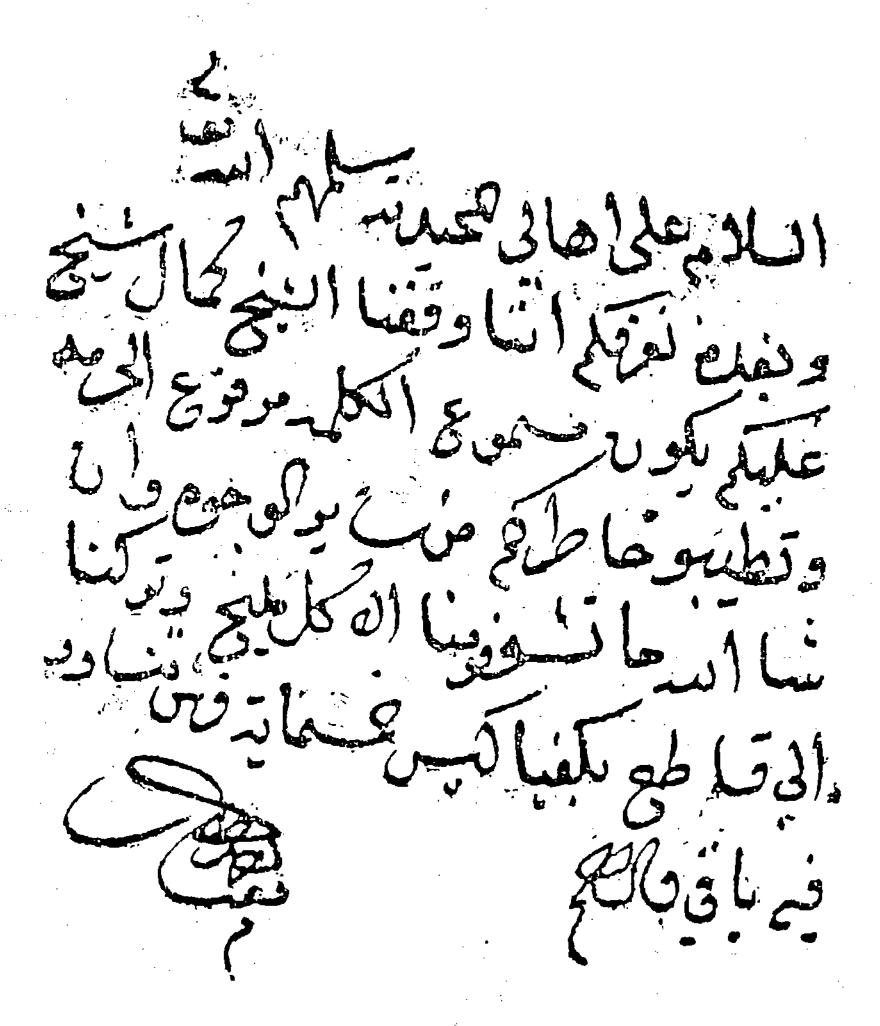
الجسم ثابت الجأش سريع الفتك فأغراه خازن بقتل أحد خدام الأمير أحمد المعني الذي كان لائذاً بحمى أخيه الشيخ أبي قانصوه فياض في قرية بيت شباب ليتخلص من ذنب اقترفه ضد مولاه حاكم لبنان، ففتك به ضو بيده ونالا كلاهما مترلة عند الأمير المعني الحاكم، فأوغر ذلك صدر أخوة خازن وسعوا بقتله فلم يستطيعوا لأن رفيقه كان فتاكاً مجرباً، فأجمعوا أن يسقوه سماً تخلصاً من شره فيقووا إذ ذاك على قتل ابن عمهم خازن. فجرعوه السم فقضى نحبه واشتد الخلاف بين المعلوفيين والخازنيين الذين تمكنوا من الفتك بابن عمهم خازن فسقوه كأس المنون على أثر ذلك، فتوسط الأمير أحمد المعني الأمر واصلح ذات البين بأخذ قرية كفرتيه وما يجاورها دية قتيل المعلوفيين ولن تزال بأيدي أنسباء القتيل إلى يومنا. وقد أشار إلى هذه الحادثة صاحب المقاطعة الكسروانية صفحة 100.

وكانت بين المعلوفيين والمشايخ الخازنيين مودة قديمة من حوران ثم من جلج ودومة المتجاورتين ثم من كسروان وكانوا يتساعدون مراراً في فض مشاكلهم لأن الخازنيين انحازوا إلى المعنيين وانتصروا للحزب القيسي الذي كان أولئك الأمراء زعماءه والمعلوفيين كانوا يميلون ولو باطناً إلى اليمنيين لأن صبغتهم يمنية منذ القديم. ولقد توسطوا أمر الخازنيين أكثر من مرة لدى الأمراء آل علم الدين اليمنيين[1] ولا سيما الأمير علي منهم فشفعوا لدى الباشا سنة 1633م بكل من الشيخين أبي نادر مدبر الأمير فخر الدين المعني المتوفى سنة 1647م وعمه أبي صافي رباح المتوفى سنة 1645م لما تغير السلطان على المعنيين والخازنيين واعتقلوا في دمشق فأطلق سراح الشيخين وأرجعا إلى كسروان. وهكذا كان الخازنيون يقابلوهم بتوسط شؤوهم لدى المعنيين فتبادلا كؤوس الصفاء وتواثقا على حفظ الولاء. وكما كان الخازنيون نافذي الكلمة لدى الحكام القيسيين ولا سيما المعنيين منهم

الأمير يونس الذي أقطعه كسروان سنة 1613م وولاه شؤوها. وسنة 1618م ولي شؤون بلاد جبيل والبترون. وسنة 1620م تولى جبة بشراي أيضاً واشتهر من أولاده الشيخ أبو نوفل نادر وله آثار مشكورة فصلها المؤرخون من إفرنج وعرب. وهكذا جرى الخلف على منهج السلف إلى أن اشتهر من متأخريهم الطيب الذكر البطريرك يوسف المتوفى سنة 1854م. ومن سراهم لعهدنا عزتلو الشيخ رشيد الذي تولى خدمة قائميات المقام في متصرفية لبنان مدة مديدة ومنهم الشيخ فيليب صاحب جريدة الأرز وعزتلو بربر بك أميرالاي الجند اللبناني وغيرهم ممن تغني شهرهم عن وصفهم.

[1] يروي الشيوخ أن بعض الحكام اليمنيين كانوا يمنعون القيسيين (الهوبر) وهي لفظة تقال في تهاليل الأفراح المعروفة بالتراويد ويجبروهم على قول (يا) فقط ويصادروهم بالأموال ونحو ذلك مما زاد في طين الخصام بلة.

كان المعلوفيون رفيعي المقام لدى الحكام اليمنيين ولا سيما آل علم الدين. وكثيراً ما استقبلوا أسرهم في بيوتهم كما حدث سنة 1636م، فإن الأمير علياً منهم قدم بعياله وأحزابه إلى المحيدثة وأخذ جنداً منها ومن كفر عقاب ومقاطعاته الأخرى وحارب عند نهر البارد في عكار. واشتهروا لديهم بسطوتهم حتى استلفتوا إليهم أنظار المعنيين وحرصوا على ولائهم واستمالتهم كما يظهر من هذه القطعة التي سلمت من عوادي الأيام وهي من آخرهم الأمير أحمد بعث بها إلى كمال بن منذر بن ميخائيل أبي كلنك من فرع أبي حنا المعلوف من سلالة ابرهيم الغساني وهي بخط كاتبه الحاج أبي منصور الاهدني نقشناها بصورتها الأصلية:


السلام على اهالي محيدثه

وعلى قفاها مقابل التوقيع (الإمضاء) ختمه هكذا (أحمد معن) وهو بخط فارسي جميل. وكان من عادة الحكام في ذلك العصر أن يكون ختم الرضى على قفا الورقة وختم الغضب على وجهها، وبقيت إلى أوائل القرن الماضي. ولا يخفى أن الأمير أحمد هذا هو آخر المعنيين توفي في 15 أيلول سنة 1697م فانتقلت الولاية إلى الأمراء الشهابيين لما كان بين الأسرتين من النسابة.

ولقد ألمعنا في صفحة 87 إلى نشأة الأمراء الشهابيين وتوليهم أحكام حوران التي انتقلوا منها إلى وادي التيم سنة 1172م وناهضوا الإفرنج وتولوا أحكام تلك الجهة إلى أن ولي الأمير حيدر منهم أمرها وهو جد الشهابيين في لبنان[1] ورافع شأن القيسيين في موقعة عين دارة سنة 1711م وفي عهده ركدت زعازع الفتن التي كانت تثيرها التعصبات اليمنية والقيسية وكان المعلوفيون قبل ذلك قد اعتدلوا في تحيزهم إلى أحد الحزبين فنالوا لديه منزلة ولا سيما لدى الأمراء اللمعيين الذين أعاد إليهم الأمير حيدر لقب الإمارة الذي كان اللبنانيون يستعيضون عنه بلقب المقدم كما مر في صفحة 157، وتمكنت المودة بين المعلوفيين وبين كل من الأميرين حسين صاحب مقاطعة بيت شباب وبكفية، ومراد صاحب مقاطعة نصف المتن وبسكنتة، ثم توثقت عراها بين أخلافهم من بعدهم إلى اليوم وصاروا من عهدتهم أو سميتهم حسب اصطلاح تلك الأيام[2].

---

[1] نبغ من الشهابيين كثير أشهرهم الأمير بشير المالطي ثم الأمير حيدر أحمد المؤرخ المشهور ولن يزالوا إلى اليوم يتولون شؤون كثير من أعمال متصرفية لبنان. ومن مشاهيرهم المتأخرين المرحوم الأمير أفندي الذي تولى رئاسة مجلس إدارة لبنان الكبير زمناً طويلاً وأولاده والمرحوم الأمير سعد الذي تولى قائمية مقام جزين مدة مديدة وأولاده أيضاً منهم سعادتلو خليل بك من أعضاء مجلس المعارف في الآستانة العلية ومثلهم المرحوم الأمير نجيب الذي تولى رئاسة دائرة الحقوق ردحاً وولده عزتلو الأمير مالك الذي خدم قلم الترجمة وغيره وكثير غيرهم.

[2] تحالف الأمراء بنو فوارس في البرية وسموا تنوخيين (من تنوخ بمعنى الإقامة) نحو سنة 831م وسكنوا معرة (مغارة) النعمان بجوار حلب وقدموا لبنان وكانوا عشر قبائل منهم التنوخيون والأرسلانيون وآل عبد الله وآل هلال وبنو أبي اللمع فهؤلاء سكنوا عيناب (عين أبي) وبيصور واتصلوا بكفر سلوان وغيرها وصاروا مقدمي المتن والبقاع، وهم في عمران زحلة يد تذكر فتشكر واشتهر منهم المقدم فارس الذي تولى جبة بشراي سنة 1656م والمقدم فارس مراد الذي تولى عكار سنة 1659م والأمير حسين بن عبد الله بن قائدبيه بن محمد الذي حضر موقعة عين دارة سنة 1711م وأبلى بلاء حسناً فقتل المقدم حسين الصواف وثلاثة أمراء يمنيين. ولقد نشأ من سلالة والده حسين هذا جد الأمراء آل قائدبيه في صليمة وبكفية ونجم جد أمراء رأس المتن وأحمد جد أمراء برمانة ومحمد جد أمراء الشبانية وانحصروا أخيراً بآل قائدبيه في بكفية وآل مراد في المتين وآل فارس في بسكنتة. ومن أشهر المتأخرين منهم الأمير اسمعيل المكنى المشوح وهو أول من اعتنق الديانة المسيحية منهم وتبعه ذوو

وفي أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر كان المعلوفيون قد تفرق شملهم فمعظم بني أبي فرح انتقلوا إلى كفرتيه التي أخذوها دية نسيبهم ضو المذكور آنفا. وذهب حنا من فرع أبي مدلج إلى محلة السميط شرقي الشوير فوق دير القديس يوحنا الصايغ وسكن في مزرعة عين عيال ولقب بالغندور واقتنى أملاكاً واسعة ولن يزال هناك معصرة وغاب (حمى) باسمه وولد هناك ولدين منصوراً ويوسف فعادا بعد وفاة أبيهما إلى كفر عقاب ومنصور اشترى مزرعة المشرع في شرقيها من الخوري يونان المعلوف من فرع أبي فرج وأخوه يوسف اشترى محلاً آخر في كفرتيه ومنهما نشأ فرعا الغندور فيهما وقد وجدنا حاشية على كتاب صلوات قديم بخط المرحوم أبي طنوس حنا الغندور تشير إلى ما رويناه ولن تزال في بيت حفيده الخواجا هيكل الغندور لعهدنا.

وكان المتاولة لن تزال بقاياهم في جوار كفر عقاب وكفرتيه فكثرت بينهم وبين المعلوفيين الوقائع فقتل أبو نجم ناصيف من فرع أبي فرح أحد المتاولة الذي كان يعيث في تلك النواحي ووقف له أنسباء القتيل بالمرصاد فرحل إلى الشوف واتصل بالمرحوم الشيخ كليب أبي نكد[1] فأقطعه بعض قرية كفر قطرة (قرية

قرباه. وكان لبني المعلوف منزلة لديه انتقلت إلى أخلافه ومن أولاده الأمير حيدر المشهور ومن أنسبائه الأميران بشير عساف وبشير أحمد وسعادتلو الأمير يوسف اسمعيل قائم مقام كسروان. ومن أمراء المتين الأمير موسى مراد المشهور بوقائعه ودرايته وولده الأمير أسعد وحفيده سعادتلو الأمير قبلان وكيل رئاسة مجلس إدارة لبنان الكبير وغيرهم وهم مشهورون بآثارهم الحسناء وإخلاصهم للدولة العلية.

[1] أصلهم من عرب الحجاز حضروا بزمن عمر بن الخطاب فتوح مصر والمغرب وسموا بني نكد وبقيت منهم عشيرة في الساقية الحمراء في المغرب إلى يومنا. وقدم الآخرون إلى لبنان فسكنوا في غزة وكان كبيرهم الشيخ محمد أحمد الخالدي الأنكادي متولي شؤون صيداء، فنقلوا إليها وانتقل ولد الشيخ علي إلى إقليم الخروب ثم إلى دير القمر فالمناصف فالشحار ولهم وقائع مشهورة كانوا فيها أعوان الأمير معن الأيوبي وغيره من قبله إلى أن أبلوا بلاء حسناً في موقعة عين دارة ومن أشهرهم الشيخ كليب ابن الشيخ كليب ابن الشيخ نجم الذي ولد سنة 1734م وتوفي سنة 1788م وله آثار مذكورة في زمن ولاية الشهابيين ومن أشهر أولاده نفوذاً الشيخ بشير وعلماً الشيخ قاسم خديج عبود البحري والشيخ أحمد البربير واشتهر الشيخ ناصيف بحرب سانور وغيرها ومن أولاد الشيخ حمود قاسم بك الإقطاعي بزمن عمر باشا النمسوي اتصل بالجامع الأزهر ودرس العلوم وخدم حكومة لبنان هو وأخواه سليم بك وسعيد بك. ومن أشهرهم اليوم عزتلو ملحم بك الذي تولى المناصب بدراية، وكذلك أمين بك وهو شاعر بليغ وغيرهما ممن تغني شهرته عن ذكره. و لقد وقفنا على كثير من الكتابات القديمة والحديثة من كبار الولاة والقناصل وغيرهم وجميعها تدل على منزلتهم ورفيع مقامهم وإخلاصهم للدولة العلية وما يستحق الذكر أنهم لم يتحيزوا إلى أحد الغرضين اليزبكي والجنبلاطي اللذين قام وقعد لهما في لبنان.

العقد) من مقاطعة المناصف التي كانت لأسرته، وكان ذلك نحو سنة 1730م فبقي فيها نسله إلى اليوم كما سنرى.

وحدث خصام بين كل من مخايل وشقيقه عماد ولدي شحادة ابن أبي نصار يعقوب من فرع أبي كلنك في المحيدثة وبين رجل اسمه الفش من أسرة بني أبي مسلم في بكفية فقتلاه وأعطيا ورثته حقلة كبيرة في محلة البساتين دية وتركا تلك الجهة ما عدا أخاهما ضاهراً فذهبا إلى بلاد جبيل وبقيا فيها زمناً جاء بعده مخايل إلى بيروت مع شقيق زوجته فياض أخ جد اليازجيين[1] من بلاد الحصن ومن مخايل تفرع بنو شحادة في بيروت إلى اليوم. أما أخوه عماد فذهب إلى البترون ونسله فيها إلى عهدنا كما سيرد تفصيل ذلك.

وفي منتصف ذلك القرن برح كفر عقاب بعض أحفاد أبي جرجس نقولا من فرع مدلج وأبناء عمهم فمن أولاد عيد بن أبي جرجس نشأ باز وأبو يونس جرجس فقصدا دومة البترون ومنها ذهب باز إلى عكار بأولاده وخدم فيها

---

[1] إن الأسرة اليازجية حمصية الأصل كان أحد أسلافها كاتباً عند بعض الولاة فلقب بكلمة يازجي العثمانية ومعناها كاتب ولقد وقفت في بعض المخطوطات على أسماء كثيرة. من أفرادها المقربين من حكام عصرهم مثل الياس اليازجي الذي كان نافذ الكلمة عند سعد الدين باشا العظم والي حلب وطرابلس بالشام نحو سنة 1745م والمقدسي عبد الله وولديه يوسف وابرهيم الذين مدحهم ابرهيم الحكيم الحلبي الشاعر سنة 1752م وديوانه مخطوط نادر يوجد منه نسخة في مكتبة (المؤلف) ومنه طنوس بن ميخائيل اليازجي الذي كان نافذ الكلمة عند مسعود آغا سويدان متسلم حمص ولن تزال هناك بقية منها وقدم بعضها إلى بلاد الحصن وهم فيها إلى اليوم. ونشأ بينهم وجهاء وأغنياء منهم صديقي عبد الله أفندي سليم اليازجي الشاعر المجيد وغيره. وبنو فياض في بيروت ومنهم صديقي الدكتور نقولا أفندي الخطيب المصقع وأخوه الياس أفندي الشاعر الناثر وغيرهما. أما سعد اليازجي منهم فقدم لبنان نحو سنة 1690م ونزل في غربه وتقرب من الأمراء اللمعيين وسكن الشويفات وولد جنبلاط الذي تفرعت منه الأسرة المشهورة بمؤلفاتها ونجماً جد اليازجيين في بطشيه (المتن) وبازن جد بني باز في بيروت ومنهم صديق الكاتب الأديب جرجي أفندي نقولا باز. ومن سلالة جنبلاط نشأ الشيخ عبد الله الشاعر والد علامتنا الأكبر الشيخ ناصيف الشهير (1800 ــ 1871م) والشيخ راجي الشاعر البليغ (1803 ــ 1857م) الذي أحرز بعض ديوانه المخطوط في مكتبتي أوقفني عليه والده صديق الشيخ ملحم الشاعر نزيل زحلة. أما عماد هذا البيت الشيخ ناصيف فولد بنين وبنات نبغوا في المعارف والأدب منهم الشيخ حبيب الكاتب الشاعر الرياضي (1832 ــ 1870م) والعلامة الشيخ ابرهيم الشهير (1847 ــ 1906م) والشيخ خليل الناثر الشاعر المشهور (1856 ــ 1889م) والسيدة وردة الشاعرة الناثرة. ولم يبق من ذكور هذا البيت إلا الشيخ ملحم ابن الشيخ راجي والشيخ حبيب ابن الشيخ خليل حفظهما الله. ونبغ من أسباط (أبناء البنات) هذا البيت المرحوم الشيخ نجيب الحداد (1868 ــ 1899م) المشهور بآدابه في العالم العربي وشقيقه الشيخ أمين الشاعر الناثر والدكتور سليم أفندي شمعون نجل السيدة وردة المشهور ببراعته وغيرهم.

الحكومة بنصح واشتهر بدرايته وسافر إلى القسطنطينية فنال فيها التفاتاً عالياً ثم استقال بعد عودته وجاء دومة بأولاده وتوفي نحو سنة 1790م، ثم عاد أولاده إلى كفر عقاب. أما أولاد عمهم ضاهر بن ابي جرجس فهم نجم وقيامة وسمعان فهؤلاء سكنوا زحلة واشتهر منهم نجم ببسالته وشجاعته وكان بارعاً بالصيد فسمع به الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان فاستدعاه إلى دير القمر وأجرى أمامه من ذلك ما دل على براعته منها أنه رمى بالرصاص ريشة نعام في قبعة ولد صغير من أحفاد الأمير كانت إحدى الخادمات حاملته على يدها فأطارها ولم يصب الطفل بضرر فأجاز الأمير وأثنى على براعته وصار له عليه دالة ونفذت كلمته في زحلة وما يجاورها.

وذهب بتلك الأثناء ديب من فرع أبي شلهوب طانيوس أبي كلنك إلى رأس كيفة (رأس الصخرة) ودارية (الدور أو التذرية) من أعمال البترون وعرف فرعه ببني ديبو وهم في طرابلس وما يجاورها إلى اليوم. وولد عمه يوسف والياس نقلا إلى زبوغة وبيروت وعرف نسلهما فيهما ببني شلهوب إلى عهدنا. وكذلك طنوس بن أبي يعقوب متري أبي كلنك وأخوه الحاج متري ذهبا إلى بعلبك واشتهر فيها لأن بني شبلي من فرع أبي عيسى اتصلوا بالحرافشة ومهدوا لأنسبائهم ولغيرهم من المسيحيين سكنى تلك الجهات التي لم يكن فيها غير الدروز والمتاولة والمسلمين وكثرت المهاجرة في ما بعد ذلك فانتشر بنو المعلوف في معظم لبنان ولا سيما دومة البترون وبلاد بعلبك والبقاع.

وفي أواخر القرن السابع عشر كان أحد أساقفة بيروت قد بنى بمساعدة المعلوفيين ديراً صغيراً باسم القديس سمعان العمودي في محل وقفة له مع عقارات[1] في وادي الكرم بين كفرتيه وكفر عقاب وموقعه على أكمة تشرف على بيروت وكسروان وبقي في يدهم مدة وكانت الأديار مثل السكان تتبع الإقطاعيين. ومن راجع سجلات الأديار المخطوطة رأى هذه العادة جارية ولا سيما في ذلك القرن.

---

[1] وآخر أوقافهم كان من ضاهر طليع أخ الخوري يونان المعلوف من فرع أبي فرح الذي وقف لهذا الدير جميع نصيبه من تركة والده في محلة الغبيط شرقي الجوار (كفر عقاب) وعاش فيه بتولاً إلى وفاته نحو سنة 1770م ولن تزال أوقافه إلى يومنا وكذلك أبو شديد عقل المعلوف جد السيد أغابيوس المعلوف مطران بعلبك (لابيه) وقف له كثيراً من أملاكه في وادي الكرم وكفر عقاب وشيد من ماله حائط الكنيسة الشرقي في الدير وتحته مدفنه الذي دفن به عندما توفي سنة 1806م.

وقد طالعنا في سجل الرهبنة الشويرية ما ننقله بالحرف وهو: «سنة 1732م دفع أهل كفر عقاب للأمير سليمان ابن الأمير حسين اللمعي (هو ابن الأمير عبد الله في صليمة) مالاً وأخرجوا من دير مار سمعان القس جرجس عنقا الراسي وجعلوا فيه الخوري موسى رئيس دير مار يعقوب». اهـ وبقي بيدهم إلى أن استرجعه السيد ثاودوسيوس الدهان مطران بيروت من الأمير سليمان سنة 1742م. كما ذكر أيضاً في السجل المذكور وبقي بيده إلى أن أخذوه منه الرهبان الشويريون سنة 1764م بسبب الدراهم التي استخرجها من الرهبنة كما ذكر ذلك القس رفائيل كرامة الحمصي[1] في تاريخه المخطوط فاتحد رهبانه مع رهبان دير القديس يوحنا الصابغ سوى اثنين يوسف ومتري وسكنه المقدسي ابرهيم خير الدمشقي نحو ستة سنوات فتركه في أيار سنة 1770م منتقلاً إلى دير سيدة النياح الذي أنشأه من ماله في عهد الخوري يعقوب قديد رئيس الرهبنة الشويرية العام. ثم استعاد دير القديس سمعان بعد ذلك المطران أغناطيوس صروف مطران بيروت ولبنان الكاثوليكي بعدما سيم سنة 1778م وذلك بواسطة الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان. ومنذ ذلك الحين وقعت النفرة بين المطران والرهبنة الشويرية وتفاقم أمرها نحو سنة 1782م فأنشأ في ذلك الدير الرهبنة السمعانية التي انتظم فيها عدد من بني المعلوف وترأسها بعضهم أيضاً وقد رأيت (المؤلف) قانونها بخط يد مؤسسها وسنة 1797م التأم المجمع السادس عشر في دير القديس ميخائيل تجاه زوق ميكائيل في كسروان وألغاها ولقد وقفت على كتاب من بورجيا مقدام مجمع نشر الإيمان في رومية ومن

[1] أوقفني على هذا التاريخ النادر حضرة الأب الفاضل أرشيبوس الزرزور رئيس دير القديس الياس الطوق وهو بخط مؤلفه وفيه فوائد كثيرة عن القرن الثامن عشر ونظن أن الخوري حنانية المنير من أبناء رهبنته أخذ عنه لأن هذا وجد قبله. أما بنو كرامة فنشأوا في مدينة حمص اشتهر منهم الطيب الذكر إرميا مطران دمشق الذي سيم عليه سنة 1763م وتوفي بعد سنة 1790م وكان جيد الخط نسخ بيده كثيراً من الكتب وفي مكتبتي خطب تأليف القس أرسانيوس الحمصي أرجح أنها لهذا الحبر وهي بمجلد ضخم. ومنهم الشاعر المشهور بطرس كرامة الذي اتصل في أول أمره بآل الأسعد في عكار ومدحهم ثم جاء لبنان سنة 1711م واتصل بالأمير بشير الشهابي الكبير ومدحه بالقصائد الشائقة وأدار أعماله مدة، وكان لسناً جيد الإنشاء شاعراً رقيقاً ولما برح الأمير بشير لبنان شاخصاً إلى الآستانة (العتبة) العلية رافقه ونصب ترجماناً في المابين الهمايوني فيها ونال التفات الوزراء العظام وله فيهم مدائح رائعة لدي بعضها مما لم يطبع في ديوانه الذي نشر في بيروت سنة 1898م. ولقد ولد هذا الشاعر سنة 1774م وتوفي سنة 1851م ونشأ من أولاده المرحوم ابرهيم بك الشاعر وغيره مثل هذا المؤرخ المذكور الآن.

دومينيكو أسقف ميرة وكاتم الأسرار إلى البطريرك أغابيوس مطر بشأنها بتاريخ 24 آذار سنة 1804م[1].

أما في قرية كفرتيه فبنى خير الله المعلوف من فرع أبي فرح كنيسة نسبت إليه وأهمل أمرها بعدما أخذت الرهبنة الشويرية سنة 1764م محلاً من الأمير أحمد ابن الأمير حسن اللمعي حاكم مقاطعة بسكنتة وبنت فيه ديراً باسم القديس ديمتريوس وأوقف له بنو المعلوف بعض عقاراتهم وانتظم بعضهم في سلك رهبانه وسنة 1778م كان بنو الصباغ[2] في حارة الدير فارين من وجه محمد بك أبي الذهب فطلبوا

---

[1] ولقد سعى المطران أغناطيوس صروف بترميم وتوسيع ذلك الدير ولا سيما بعد عودته من رومية سنة 1789م (وكان قد ذهب إليها لتثبيت السيد أثناسيوس جوهر الدمشقي بطريركاً) فبنى الكنيسة على طرز كنيسة هامتي الرسل في رومية سنة 1807م وبنى قناطر لجر المياه إليه من أعالي قرية وادي الكرم من محلة الخلقين. ولما ارتقى إلى الكرسي البطريركي في أوائل اسنة 1812م اتخذه مقراً له إلى أن قتل في أواخرها فصار مصيفاً لأساقفة بيروت إلى عهدنا وترأسه كثير من المعلوفيين وزادوه عمراناً ولا سيما رئيسه اليوم سيادة الإيكونوموس يوسف حنا المعلوف من فرع أبي سوس النائب الأسقفي في لبنان وقد ابتنى فيه السيد أغابيوس المعلوف مطران بعلبك بعض قاعات أيام توليه النيابة الأسقفية ورمم الجهة الشرقية سيادة الحبر المفضال أثناسيوس صوايا مطران بيروت ولبنان على أحسن طرز سنة 1906م. وبنو صوابا من صوي في حوران قدم جدهم وأخوه خنيصر إلى كفرتيه لبنان وتفرقوا في جهات كثيرة ومنهم سيادته ونعيم أفندي منشئ مدرسة بعبدات الوطنية وبنو أبي بطرس في بنغربن المشهورون بالجراحة ومنهم الدكتور حبيب أفندي ويقال أنهم من أنسباء بني صغير الذين منهم الخوري جرجس فرج وسعادتلو عبد الله بك في مصر وبني الشمالي ومنهم المطران جرمانوس وبني غصن وسلامة وحريق.

[2] نلخص عن مجلة المشرق (24:8) وتاريخ القس روفائيل كرامة الحمصي وغيرهما ما يتعلق بهذه الأسرة: تنتسب أسرة الصباغ إلى جدها يوسف مرعي الذي نشأ في الشوير ونسب ولده حنا إلى كنيسة القديس يوحنا الصابغ فسميت فروعها بالصابغ ثم برحوا الشوير إلى بيروت وسموا بيت الصباغ وذهب بعضهم إلى صور وعكاء وابرهيم بن حبيب الذي كان في عكاء أرسله عمه عبود إلى دير القديس يوحنا المذكور فتلقى العلوم على الخوري بواكيم المطران وغيره والطب على القس بروكوبيوس المشهور ثم صار ابرهيم طبيب الشيخ ضاهر العمر وكاخيته ولما جاء محمد بك أبو الذهب وحارب ضاهراً بمائتي ألف وحاصر يافا وقتل نحو سبعة آلاف من سكانها وجاء عكاء هرب ظاهر وكاخيته ابرهيم هذا الذي أشار عليه بالعصيان فقتل ظاهر ووقع ابرهيم في يده فعذب ونقل إلى الآستانة فتوفي في سنة 1776م كما في تاريخ القس كرامة المخطوط وفي التواريخ الأخرى أنه شنق على صاري المركب فتفرق شملهم وجاؤوا كفرتيه ولما عادوا إلى خدمة الجزار لم تمض عليهم سنة حتى سجنهم في قلعة عكاء من سنة 1779م إلى 1782م واشتهر منهم مخايل حفيد ابرهيم (1775 — 1816م) الذي كان مصححاً لمطبوعات المطبعة الفرنسية العمومية وناسخاً لكثير من الكتب وصديقاً لكبار علماء المشرقيات في عهده ومؤلفاً لكثير من الكتب في حمام الزاجل واللغة العامية وتاريخ البدو وبلاد الشام ومصر. ومنهم عبود الذي ألف كتاب الروض الزاهر في تاريخ الظاهر، وخليل الذي كتب رحلته إلى طور سيناء

السكنى في الدير فاشتراه لهم المطران أغناطيوس صروف بستة عشر كيساً (الكيس خمس مائة غرش) وألحقه بدير سيدة النياح وأسكنهم فيه حسب طلبهم في بدء تشرين الأول من تلك السنة بعد أن أخرج رهبانه ونقل رئيسه القس توما إلى رئاسة دير القديس سمعان الآنف الذكر وصار سلفه الرئيس اسطفانوس مرشداً للراهبات في دير النياح. وبقي بنو الصباغ في دير القديس ديمتريوس[1] إلى ما بعد عيد الميلاد من تلك السنة فجاءهم صديقهم ابرهيم الطويل التركماني الأصل وألح عليهم أن يرجعوا إلى عكاء وأنه يتوسط أمرهم عند الجزار، فسار معه أحدهم حبيب فخلع عليه الجزار وأمنه وأرسل رجلاً من خاصته فاستقدم جميع الأسرة الصباغية من دير القديس ديمتريوس في كفرتيه ووكل إليهم بعض الأعمال منتدباً أحدهم يوسف لضبط دخل ودين مدينة بيروت، وكان بين المعلوفيين وبني الصباغ مودة.

أما بنو المعلوف في كفر عقاب فبعد تبدد شملهم في كفرتيه والمشرع وزبوغة ووادي الكرم ونحوها اقتسموا كنيسة سيدة الخرائب التي سبق وصفها صفحة 181 سنة 1766م بحضور الأمير سليمان ابن الأمير حسين ابن الأمير عبد الله اللمعي في صليما فأخذ فرع أبي فرح وفرع أبي عسوس (تصغير عيسى) مائة وخمسين غرشاً ما عدا ابن ضو من فرع أبي فرح وابن القسيس من فرع أبي عسوس واستودعوا باز بن يزبك المعلوف من فرع أبي عسوس الدراهم واختلف الخوري يونان المعلوف وولده الخوري سابا من فرع أبي فرح فالأب كان يريد بناء الكنيسة فوق بيته في الجوار شرقي كفر عقاب والابن أراد تشييدها قرب أخواله بني أبي عسوس الذين وعدوه بالمساعدة فدشن (كرّس) بيت جبر أبي هاشم المعلوف من فرع أبي عسوس بعد أن استأذن السيد مكاريوس صدقة الطرابلسي مطران بيروت وجبيل (كان أسقفاً من سنة 1774 ــ 1804م) وكان يقيم فيه القداس لأخواله المذكورين مدة أربع سنوات وكان في سنة 1771م قد سعى الخوري سابا بمساعدة أخواله في

(المشرق 7:958). ومنهم مكاريوس وأثناسيوس أسقفا عكاء والقس سمعان من الرهبنة الشويرية والقس أنطون من الرهبنة المخلصية. ومنهم اليوم بنو الصباغ في الشام ومصر ومن أشهرهم المرحوم حبيب الصباغ وأولاده من كبار التجار في دمشق وبيروت.

[1] وفي أوائل سنة 1782م أرجع المطران هذا الدير للرهبنة الشويرية ثم أهمل أمره إلى أن صار كنيسة هي اليوم بيد الرهبنة الحلبية صنو الرهبنة البلدية الشويرية.

بناء كنيسة سيدة البشارة في قطعة أرض ابتيعت بثلاثة غروش موقعها شرقي ذلـك البيت الذي بقي من أوقافها إلى يومنا يعرف ببيت الكنيسة.

وفي 6 أيار 1767م كان أول راهب من بني المعلوف في الرهبنة الشـويرية أو الحناوية[1] جرجس بن نجم من فرع أبي فرح في كفرتيه دخلها بسن 30 سنة ونـذر في 30 آب سنة 1769م في دير القديس يوحنا الصابغ وسمي جرمانوس ولـه علـى الرهبنة أياد جديرة بالذكر ولا سيما في ديرها القديس الياس الطوق في زحلة الذي وسع نطاق عقاراته وزاد في أبنيته وتوفي فيه في 28 نيسان سـنة 1809م. وفي 3 آب من تلك السنة 1767م دخله بسن 19 سنة شديد بن جرجس بن حنا مـن كفـر عقاب من فرع أبي عسوس وسمي شاروبيم وابتدأ في دير القديـس جـاورجيوس الشير في سوق الغرب في 3 آب سنة 1767م ونذر فيـه في 7 آب سـنة 1770م[2]. وهكذا انفتح باب الترهب لأبناء هذه الأسرة، فكثروا في دير القديس جـاورجيوس الحميراء والبلمند ومار الياس المحيدثة (شويا) ودير المخلص والرهبنـات المارونيـة وترأسوا كثيراً من الأديار كما سيجيء.

وسنة 1734م انتفض المتاولة أصحاب جبل عامل وقصدوا الخروج عن طاعـة سعد الدين باشا العظم والي صيدا، وامتنعوا عن دفع الأموال الأميرية وعـاثوا في البلاد مفسدين في جوارهم حتى سطوا على إقليم التفاح التـابع للأمـير ملحـم الشهابي فاستصرخ الوزير الأمير ملحماً فجمع عسكراً جراراً كان فيه كثير مـن المعلوفيين فبلغوا جسر الأولي عند صيداء فاستمال الثائرون الوزير واسترضوه بهدايا فاخرة ولا سيما عندما رأوا كثرة الجيش اللبناني وخشوا سطوته. فحنـق الأمـير ملحم لتجديد علاقاتهم مع الوزير بعد انقطاعها وهجم على بلادهم إلى قرية نصار وفيها بنو بكر وبنو صعب، فخرجوا إليهم برجالهم فدحرهم اللبنانيون وقتلوا منهم نحو ألف وست مائة قتيل وقبضوا على أربعة من مشايخهم ونهبوا القرية وأحرقوهـا وعادوا بالأسرى إلى دير القمر فزجوا في السجن. وكتب الأمير إلى الوزير يخـبره

---

[1] أخبرني سيادة الإيكونوموس يوسف الكفوري الرئيس العام أنه لم يدخل في سلك الرهبان من اللبنانيين قبـل بني معلوف إلا راهب من بني سماحة من الخنشارة ولن يزال في الرهبنة أفاضل من بني سماحـة مثـل حضـرة الخوري الياس رئيس انطوش الرهبنة في بيروت والملفان الخوري أنطون مدير دروس المدرسة الشرقية وغيرهـا. ومنهم في الخنشارة شقيقة الدكتور الياس أفندي وغيره.

[2] وقد حصل خلاف بينه وبين بعض الرهبان فنقل إلى دير القديس يوحنا في دومة بعد سنوات وذكر هناك في سجل قديم سنة 1875م باسم ساروفيم.

بظفره فشكر له همته واعتذر عما فرط منه وأرسل إليه نفقات العسكر وتوسط الشيخ علي جنبلاط[1] أمر الأسرى فأطلقوا وشرط عليهم أن يدفعوا كل سنة ستة آلاف غرش وفرسين من جياد الخيل ثم أعاد عليهم الأمير ملحم الكرة سنة 1744م في أنصار وقتل كثيرين منهم وأعادها ثالثة ولا سيما على بني منكر منهم سنة 1750م فواقعهم في جباع الحلاوة وأهلك منهم ثلاث مائة رجل وفر الباقون إلى مزار هناك وتحصنوا به فأرسل إليهم العسكر اللبناني بقيادة الأمير مراد اللمعي وكان معظمه من المعلوفيين فأفنوهم جميعاً ورجعوا ظافرين واشتهر بهذه الموقعة الشيخ كليب أبو نكد وكان في السابعة عشرة من عمره فاشتدت العداوة بين المتاولة واللبنانيين في جهات لبنان الشمالية والجنوبية ففاز المتاولة ولا سيما في الثانية. وكانت بلاد نابلس ثماني مقاطعات جنين والحارثة والشعراوية الشرقية والشعراوية الغربية والبيتاوي ومقاطعة بني صعب وجورة عمرة وجورة مرداء وكان في الشعراوية الشرقية سانور وحكام هذه المقاطعات شيوخ بني الجزار الذين قدموا من البلقاء إلى قرية عرابة وتفرقوا في القرى وانتقلوا إلى سانور ونشأ منهم الشيخ محمد الذي حصنها فصارت قلعة منيعة فحوصرت بزمن منشئها سنة 1764م وذلك أن عثمان باشا الصادق الكرجي والي الشام استنجد الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان فحاصراها زمناً طويلاً وعادا عنها مخذولين لأنهم لم يشاؤوا الإيقاع بحزبهم القيسي فيها. وسنة 1762م تنافر الأميران منصور وأخوه أحمد الشهابيان وتنازعا الولاية وكان أعيان لبنان في زمن الأمير ملحم قد انقسما حزبين اليزبكي وزعيمه الشيخ عبد السلام العماد[2] والشيخ شاهين تلحوق[1] ونسب إلى يزبك

---

[1] ينتسب المشايخ الجنبلاطيون إلى جان بولاد الكردي الأيوبي المعروف بابن العربي الذي تولى معرة النعمان وغيرها فحرفه العامة إلى جنبلاط تسهيلاً للفظ وصار من نسله ولاة حلب وكلس وتقلبت بهم الأحوال إلى أن حضر جنبلاط بن سعيد بولده رباح من حلب إلى بيروت سنة 1630م في زمن حكم الأمراء المعنيين أصدقائهم فنال منزلة كبيرة لدى أعيان اللبنانيين وأقام بينهم واشتهر منهم الشيخ علي هذا والشيخ بشير الذي اشتدت العداوة بينه وبين الأمير بشير الشهابي الكبير ثم ولده سعيد بك وحفيده سعادتلو نسيب بك الذي تولى قائمية مقام الشوف سنوات ومنهم علي باشا وغيره ممن اشتهر بغيرته وإخلاصه في خدمة الحكومة.

[2] ينتسب هؤلاء المشايخ إلى جدهم عماد الذي قدم من مدينة العمادية قرب الموصل إلى الجبل الأعلى ثم انتقل أعقابه إلى مقاطعة العرقوب وقطنوا في الزنبقية واشتهر منهم الشيخ عبد السلام الذي ناظر الشيخ علي جنبلاط فانقسم البلاد إلى الحزبين المذكورين ومن مشاهير المتأخرين منهم خطار بك الذي حضر كثيراً من المواقع التي حدثت في القرن الماضي ومنهم الآن عزتلو مصطفى بك رئيس دائرة الجزاء الاستئنافية في متصرفية لبنان وغيره.

جد العماد. والجنبلاطي وزعيمه الشيخ علي جنبلاط وكان هذان الحزبان يعبثان براحة السكان كما كان تأثير الحزبين القيسي واليمني فأفضى إلى تشتيت الكلمة واستضعاف الحكام وكان منصور اده[2] مدبر الأمير منصور فاشتد الخلاف بين الأميرين الحاكمين وبين عمهم الأمير يوسف وتشاق الأعيان وانحاز إلى كل من طالبي الحكم فريق ولكن الأمير يوسف فاز نظراً لمحبة الناس له وكان يود الشيخ علي جنبلاط والشيخ كليب أبا نكد فنال المعلوفيون لديه منزلة سامية ولا سيما لأنه رآهم يناوئون الشيعيين (المتاولة) الذين كان يقصد خضد شوكتهم وتفرق كلمتهم وتمزيق شملهم بعد أن عاثوا في بلاده وأقلقوا راحة السكان. وسنة 1767م أخذ الأمير يوسف الشهابي بلاد جبيل من الحماديين المتاولة وطردهم منها وصار يدفع المرتب عليها إلى حاكم طرابلس فالتجأ الحماديون إلى الأمير حيدر الحرفوش فأرسل معهم أناساً إلى جبة المنيطرة وبلاد جبيل فأخذوا يعيثون فيها. فقام إليهم الأمير يوسف بعسكره والتقوا في اميون (المصونة) فكسرهم إلى الهرمل ورفع يد الأمير حيدر الحرفوش عن بعلبك لأنه كان قد استولى على دير السيدة في رأس بعلبك فهرب رهبانه وعاون الحمادية وولى أخاه الأمير محمداً، فأرجع هذا الدير وأمن رهبانه فعادوا إليه بواسطة مخايل ابن الحاج فرح البعلبكي وحدث بأثناء ذلك الشغب أن متاولة المنيطرة قتلوا في قرية أفقة جبور شديد المعلوف من كفر عقاب وأخذوا أمتعته وماله[1]. فلما نمي خبر قتل المذكور إلى أنسبائه في كفر عقاب

---

[1] ينتسب المشايخ التلحوقيون إلى قبيلة بني عزام العربية التي كانت مخيمة في الجزيرة الفراتية برحوها مع الأمير معن الأيوبي إلى الشام فاستقدمهم إليه في حوران الأمير عامر الشهابي فأقاموا هناك إلى أن انتقلوا إلى وادي التيم ثم إلى بيروت سنة 1144م ثم انتقلوا إلى ما بين الشويفات وكفرشيما ثم إلى عينات وهناك صاروا قيسيين وتولوا بعض الشؤون واشتهر منهم الشيخ حسين الذي لقب بلسان الدروز لفصاحته ومنهم عزتلو ملحم بك الذي تولى رئاسة دائرة الجزاء في متصرفية لبنان والبكباشي عزتلو حميد بك وغيرهم.

[2] ينتسب بنو اده إلى قرية اده في بلاد جبيل واشتهر منهم يوسف في خدمة الأمير فخر الدين المعني والشهابيين ومنصور هذا ومنهم الياس الشاعر الذي اتصل بخدمة الأمير يوسف الشهابي فكان كاخيته ثم انتقل إلى خدمة أحمد باشا الجزار في عكاء وفر (خوفاً من تغيره عليه كما فعل بغيره) إلى حلب فصادره الجزار واستصفى أملاكه في بيروت ولما ضايق نابليون الجزار عاد الياس إلى بيت الدين واتصل بخدمة الأمير بشير الشهابي إلى أن توفى الجزار فسكن بيروت واستعاد أملاكه وتقلبت به الحال إلى أن توفى سنة 1828م وله مجموع رسائل وديوان شعر كما ذكر المشرق 2:693 و736. واشتهر من هذه الأسرة الأبوان جبرائيل وخليل اليسوعيان ومنهم المرحوم ميشال اده الذي كان ترجماناً في ولاية بيروت مدة وخلفه ولده عزتلو كميل بك وغيرهم.

[1] راجع تاريخ القس روفائيل كرامة المخطوط وتاريخ الأمير حيدر الشهابي صفحة 802.

أنفذوا اثنين منهم وهما مخايل بدر من فرع أبي عسوس ونجم عبده من فرع أبي مدلج للتحري. فلما وصلا إلى شوايا قرية لاسة التقيا ببعض المتاولة في الحقل فسألاهم عن نسيبهم المقتول فأنكروا أمره فقرراهم فأقر ولد صغير منهم أنهم قتلوه طمعاً بدراهمه فكرّا على أولئك الأشخاص وأثختاهم جراحاً ثم قتل مخايل بدر رجلاً منهم والتفت إلى رفيقه نجم فرآه قد وقع بيد أحدهم وهو يحاول قتله فعاجله بضربة جندلته فوقع المتوالي قتيلاً بلا حراك، ولكن نجماً كان قد أصيب بضربة على رأسه فأغمي عليه فاضطر رفيقه مخايل أن يحمله ويبعده عنهم ثم يعود إلى مناصبتهم و لم يطل الوقت حتى كثر المتاولة وأحدقوا بهما ففرق مخايل شملهم وخلص رفيقه بحمله على ظهره إلى أن بعدا عنهم وكان قد لحقهم بعض انسبائهما من كفر عقاب فعاد المتاولة عنهم بصفقة المغبون وقد خسروا قتيلين وجرح كثير منهم.

وهكذا كان المتاولة يعيثون في البلاد لان الأمير يوسف جد في استئصال شأفتهم ففي سنة 1770م شقوا عصا الطاعة وناهضوا درويش باشا والي صيداء وانحازوا إلى الشيخ ظاهر العمر الزيداني الذي مر ذكره صفحة 130 فصاروا يخرقون في البلاد ويلقون الدسائس ويزرعون الفتن حنقاً من الباشا الذي ولى عدوهم الأمير يوسف عوض حليفهم عمه الأمير منصور في شهر آب من تلك السنة مع أن عمه تنازل له عن حقوق الولاية وهكذا تمادوا بعملهم هذا واتصلوا بحاصبية وكان أكثرهم هياجاً وأشدهم عيثاً الصغيرية والصعبية فاشتد غيظ الأمير منهم وأراد التنكيل بهم فنهض من دير القمر في أول تشرين الأول بزهاء عشرين ألفاً بين فرسان ومشاة (وقد روى القس روفائيل كرامة أن عدد جيشه كان ثلاثين ألفاً) وأرسل إلى خاله الأمير اسمعيل والي حاصبية ليوافيه برجاله إلى جبل عامل وكان في عسكر الأمير يوسف عدد كبير من المعلوفيين وبعد أن كاد العسكر ينال النصر ويظفر بأعدائه ارتد بعض الجنبلاطيين والأمراء على أعقابهم في إبان المعترك فأثر ذلك في العسكر وانهزم فطمع بهم المتاولة وكان ظاهر العمر قد أمدهم بنجدة كبيرة فتأثروا اللبنانيين وأصلوهم ناراً حامية فهجموا عليهم وقتلوا منهم نحواً من ألف وخمس مائة قتيل من الدروز ونصارى وروى القس كرامة المذكور آنفاً أن عدد القتلى كن أكثر من ألف رجل منهم بشير بن صعب كساب[1] من

[1] تنتسب هذه الأسرة إلى كساب بن موسى بن مالك الغيث العافوري المشهور في تواريخ لبنان ويروى أن أصلها من حوران أو من غوطة دمشق قطنت العاقورة فاشتهر منها مالك وأولاده الثلاثة موسى وجبور

صليمة كاخية الأمير عساف اللمعي. والمتناقل على ألسنة الشيوخ أنه قتل مائتـا زوج أخوة في تلك المعركة من لبنان وكان بين القتلى من كفر عقاب وما يجاورها من عسكر اللمعيين ستة عشر زوج أخوة معظمهم من المعلوفيين وما زالوا يعملون بالسلاح في أقفيتهم إلى أن وصل الأمير اسمعيل الشهابي خال الأمير يوسف بعسكر جرار من حاصبية فالتقاهم ودحرهم عن اللحاق ثم تفرق العسكر ودخل الأمـير يوسف جبل لبنان مدحوراً وقد هلك من رجاله من هلك. واستأثر المتاولة منه لقاء ما فعل بهم سلفه الأمير ملحم سنة 1734م كما مر آنفاً. ومما يذكر في هذه الموقعـة أن مخايل عيد المعلوف من فرع أبي مدلج التقط عند مسيرهم إلى بلاد نابلس نعلـة حصان عن الطريق ووضعها في مزاده (جراب يوضع فيه الزاد) فعند انهزامهم مـن وجه المتاولة أصابته رصاصة دفعته إلى مسافة بضع أقدام فخر مغشياً عليه فظن أنـه قتل وبعد قليل أفاق فوجد الرصاصة قد أصابت تلك النعلة التي التقطها فوقته مـن الموت. وأعجب من هذا أن طنوس أبي عقل المعلوف من فرع أبي مدلج أنقذ العلـم (البيرق) و لم يقوَ الأعداء على أخذه عند انكسار العسكر اللبناني بل لم يسلم علـم سواه من أعلامهم في تلك الواقعة فشكره الأمير على عمله ولقبه بالكحيل (وهـي بمعنى القوي الشجاع مستعارة من لقب الخيل الكريمة) وبقي لقبه في أعقابه وقـد عرفت هذه الموقعة بحادثة الجرمق[1] أو الزهراني وعلى أثر هذا الفشل هرب الباشـا من صيداء فولى ظاهر العمر عليها الدنكزلي الخائن عوضه.

وسنة 1771م اجتمع المشايخ الحماديون على الأمير بشير ابن الأمـير حيـدر الشهابي الملقب بالسمين عم الأمير يوسف الوالي الذي أقامه حاكماً علـى بـلاد

وفاضل. فموسى جد الكسابيين ومنهم الطيب الذكر المطران بولس رئيس أساقفة طرابلس ومنهم بنو كسـاب هؤلاء الذين كان أحدهم شبلي كاخية الأمير أسعد بن عساف وأخوه جبور سكن جبيل ومن سلالته أسـرة ملحمة التي رحلت إلى بيروت ومنها الوزير الخطير صاحب الدولة سليم باشا ناظر الزراعة والمعادن في الآستانة العلية ومن نسل جبور أيضاً بنو رزق الله في صيداء أما أخوهما الثالث فاضل فسكن بيروت وإليه تنتسب أسرته التي نشأ منها البطريرك مخايل فاضل والمطران مخايل فاضل وغيرهم.

[1] الجرمق من بلاد الشقيف الواقعة بين نهر الزهراني والقاسمية جنوباً وصفه ياقوت بقوله: وادي الجرمق مـن أعمال صيداء وهو كثير الأترج والليمون. قال الحافظ أبو القاسم قتل في وادي الجرمق علي بن الحسـين بـن محمد بن أحمد بن جميع الغساني أخو أبي الحسن بعد سنة 450هـ (1085م) واسمه يدل علـى أن الجرامقـة سكنوه وهم فرقة من الأراميين أو قدماء الآشوريين. وموقع الجرمق على مقربة من صيداء وهـو وادي جبـل الريحان راجع تسريح الأبصار 48:2 و238 ونسبت هذه الموقعة إليه لأن أشدها وقع في تلك الجهة قرب نهـر الزهراني.

جبيل وكان إذ ذاك في العاقورة واستعرت بينهم نار القتال من مطلع الشمس إلى مغيبها وكان مع الأمير رجال جبة بشراي فدحروا المتاولة الذين قتل منهم ثمانية ومن رجال الأمير ثلاثة. وفي اليوم الثاني جاءهم نجدة من الجبة فكثر المقاتلون وخشي المتاولة بأسهم فقاموا ليلاً بعيالهم من جبة المنيطرة ووادي علمات (وادي الصبية) حتى دار بعشتار (الجبل الوعر) في الكورة فلاقاهم رجال الجبة إلى دير ملو جرجس حماطورة. وكان الخبر قد نمي إلى الأمير يوسف الشهابي الوالي وهو في بيروت فنهض برجاله إلى جبيل فبلغه أن الحماديين نزحوا من بلادهم فأرسل مدبره الشيخ سعد الخوري ومعه عسكر المغاربة الذين كانوا مع مدبر وزير دمشق فواقعهم في دار بعشتار من الظهر إلى غروب الشمس فقتل من عسكر المغاربة خمسة عشر قتيلاً ومن المتاولة قتيلان ورجع تلك الليلة إلى بزيزة (بيت عزيز) فبات فيها وأرسل يستقدم أهل الجبة فلباه من كان منهم مخيماً في حماطورة والعاقورة فوصلوا إلى بزيزة نصف الليل. ولما رأى المتاولة كثرة جيش الأمير هربوا من وجوههم إلى الساحل وكانوا نحو ألف نفس فلحقهم الشيخ سعد بعسكره في اليوم الثاني. وبدأ القتال من هناك إلى قرب أنفه واشتد العراك إلى قرب القلمون فقتل من المتاولة نحو مائة ومن عسكر الشيخ سعد نفران ثم خرج أهل القلمون وشفعوا بهم عنده فرجع عنهم وانكف عن قتالهم. وذهب المتاولة إلى طرابلس وعاد الشيخ سعد إلى صرود (جرود) جبيل واستولى عسكره على غنائم كثيرة وكان الأمير يوسف قد جمع الشوفيين وتقدم إلى قرية افقة فالتقى بمديره هناك فعاد إلى دير القمر والمغاربة إلى بيروت وسميت هذه الموقعة باسم (هوشة العاقورة) والهوشة في اللغة العامية بمعنى المناوشة وقد ذكرها صاحب مختصر تاريخ لبنان المخطوط.

وعلى أثر هذا اعتدى العاقوريون على بعض أتباع الأمير أحمد ابن الأمير حسين اللمعي حاكم بسكنتة فسار الأمير مع موسى دياب المعلوف من فرع أبي مدلج وكان من خاصته الذين يعتمد عليهم بشؤونه ومعه بعض الرجال فهاجموا العاقوريين وكادوا يفتكون بهم فتكاثر خصومهم ووقفوا في وجوههم حتى كادوا يدحروهم فوصلتهم نجدة من بني المعلوف من كفر عقاب نحو خمسين رجلاً فبددوا شمل العاقوريين وأوقعوا بهم ونهبوا قريتهم وعادوا غانمين فارتفعت منزلتهم في عين الأمير.

وسنة 1776م أرسل أحمد باشا الجزار[1] كاخيته إلى دير القمر في شهر كانون الأول وطلب مالاً من الأمير يوسف الشهابي فبعث الأمير إلى الأمراء اللمعين يطلب منهم الشاشية فلم يدفعوها بل طردوا الجباة (الحوالية) فأذن الأمير يوسف للكاخية أن يصادرهم ويخرب أملاكهم في بيروت وأنطلياس وأمسكوا بعض رجالهم وفيهم من المعلوفيين فتوسط المعلوفيون الأمر مع الشيخ كليب أبي نكد الذي كان عنده من أبناء عمهم أبو نجم ناصيف كما مر في صفحة 198 وكان هذا الشيخ نافذ الكلمة عند الأمير يوسف فأطلق هذا سراح الأسرى.

وسنة 1777م كان الجزار قد اجتمع لديه نحو ست مائة فارس من القبسيس وهو نوع من الجند يقال له لاوند راجع صفحة 190 يلبسون طرابيش طوالاً (وكان عددهم حين تنظيمهم ستة عشر ألفاً اشتهروا ببأسهم في النزال إلى أن صدر خط شريف بنفيهم فلم يسلم منهم غير هؤلاء) وقصدوا الجزار فاتخذهم جنداً له وسموا أكراداً فأرسل قسماً منهم بقيادة نائبه مصطفى آغا ابن قراملا[1]

---

[1] هو بشناقي الأصل اتصل بمصر وخدم أمراءها وقتل كثيراً من العرب فلقب بالجزار ثم فر إلى الشام واتصل بالأمير يوسف الشهابي في دير القمر سنة 1770م فضمه إليه تلبية لطلب مدبره الشيخ غندور الخوري ثم وضعه في بيروت، فاستأذن الأمير بترميم سورها وتسخير أهلها ومن يجاورهم. وهناك تعرف ببعض التترين ناقلي البريد إلى الآستانة وكاشف أحدهم بسلخ بيروت عن لبنان ورفع معه عريضة إلى الباب العالي فأرسل إليه التقليد (الفرمان) فانتقل إلى صيداء وتولى شؤون الإيالة وفصل بيروت عن لبنان وثبت حكم الأمير يوسف عليه وتولى الشام مراراً. ولما كفت يد الشيخ ظاهر العمر الزيداني عن عكاء انتقل الجزار إليها وحصنها وحشد الجند من البشناق والأرناؤوط والأكراد وكانت أصنافه لعهده الهوارة والأرناؤوط والمماليك والدالات وهؤلاء لابسو الطراطير (الطناطير) وكان حرسه الخاص من أربعمائة مملوك من أجمل شبان المشرق. ولقد سعى بزرع بذور الفتن بين مشايخ البلاد وأمرائها لإرهاقهم ومرق من طاعة الدولة وفتك بالمقربين إليه لأنه كان سريع الغضب. وألقى الفتن بين الأميرين يوسف وابن أخيه بشير. وعلى الجملة فكان سكيراً نهماً ظلوماً عاتياً عاقب على الهفوات (صغار الذنوب) بالقتل والحبس وصلم الآذان وجدع الأنوف وسمل العيون وجذم الأيدي. ولقد ولع بجمع الكتب وقرب الأدباء فاجتمع نفر منهم غير قليل في ديوانه وأنشأ المباني بالتسخير ولكنه نقض قديمها لتشييد حديثها. وعلى الجملة فإن أيامه كانت قلقاً واضطراباً فلا عجب بعد هذا إذا أرخ الشيخ مصطفى الرومي وفاته سنة 1219هـ (1804م) بقوله:

هلك الجزار ولا عجب ومضى بالخزي وبالإثم
وبميتته الباري عنا أرخ قد كف يد الظلم

[1] أصله من جبل الأكراد في نواحي حلب اتصل بالجزار فسلمه النيابة وانتدبه لبعض المواقع ثم تغير عليه وخلعه على إثر هذه الموقعة لأنه علم بتآمره عليه مع بعض أغوات القبسيس ولما سحب العساكر إلى عكاء عاد مصطفى إلى بلاده وحدثت نزعة بينه وبين أبناء عمه أفضت إلى قتله وكان طويل القامة رقيق الجسم أصفر

كما مر في صفحة 123. وكان المقدم على هذا العسكر عبد الله آغا وخليل آغـــا وذلك لمصادرة اللمعيين وغيرهم. ففي آخر نيسان مروا بقلعة قب الياس فأطلق من فيها عليهم المدافع فتركوها وقصدوا مدينة بعلبك وعاثوا فيها وصـــادروا كبـــار المتاولة بالأموال وسجنوا الأمير محمداً الحرفوش وأخذوا منه مالاً كثيراً واتفـــق أن القس أكليمنضوس من رهبان الشوير وكان طبيباً بارعاً شفى زعيمهم من مـــرض ألم به فنال لديه منزلة وشفع بالنصارى فأمنهم واجتمعوا في الـــدار الأســـقفية و لم يمس أحد منهم بسوء. وبعد قليل خرج عليهم الأمير يوسف الشهابي وثبت الأمـــير جهجاه بن مصطفى الحرفوش في حكم بعلبك فارتدوا إلى البقاع وهاجموا قريـــة سعد نايل (سيدنايل) وقتلوا بعض سكانها ونهبوا مواشيها وفي 19 تموز دهموا زحلـة ودير مار الياس الطوق فهرب رهبانه إلى قلعة فوق الدير فنهبوه والتقاهم الزحليون وبينهم بعض المعلوفيين مثل نجم المعلوف وأخوته من فرع أبي مدلج، فقتلـــوا مـــن الأكراد خمسين وقتل منهم ستة وأعادوا ما سلب من الديـــــر. وفي 7 آب أعـــاد الأكراد الكرة على زحلة فدحروا سكانها فغادروها وأحرقت مع الدير المذكـــور. وفي 12 آب هاجموا ثعلباية وقب الياس فنازلهم الدروز والنصارى فقتل من هـــؤلاء نحو مائة منهم المقدم زين الدين مزهر من حمانة ورحال بن شبلي كســـاب مـــن صليمة والشيخ سيد أحمد العماد من الباروك والشيخ ظاهر عبد الملك[1] من الجـــرد في الشوف وغيرهم. وقتل من الأكراد أربعون. ففر الدروز إلى الجبـــل وأحـــرق الأكراد قرى البقاع وما يجاورها حتى اتصلوا بسغبين فـــاندحروا عنـــها لضيـــق مسالكها بعد أن فقدوا نحو مائتي نفر قتلى. وفي أحد الأيام بعث الجزار فاستقدمهم إليه فجأة لأنه نمي إليه أنهم سيمكرون به فنجت هذه البقعة من شرهم وخلع نائبهم

اللون أسود اللحية لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره كثر ولعه بالصيد وركوب الخيل وإطلاق الجريـــد حتى أنه أطلق جريدته أكثر من مرة من نصف ميدان دير القمر إلى الغرب فمرت فوق المأذنة التي هنـــاك وإلى الشرق فمرت فوق الدار التي على التلة وكلاهما على أمد بعيد لا يمكن لغيره أن ينال ما ناله منه أو يتجـــاوزه وكان بطلاً مجرباً مدرباً سفاكاً للدماء غداراً ماكراً فقيل عنه لما اتصل بالجزار: شبيه الشكل منجذب إليه.

[1] أصل هذه الأسرة من بني شوبزان قدمت مع الأمراء التنوخيين من نواحي حلب وسكن أفرادها الكنيســة في المناصف (وقيل في بلاد بعلبك) ثم اتصلوا ببتاتر وعاليه وتولوا إقطاع جرد الشوف. ولما نشأ منـــهم الشـــيخ جنبلاط الذي حضر موقعة عين دارة سنة 1711م واشتهر منهم يوسف بك بزمن حليم باشا وامتاز نصر الدين بك ببسالته ومنهم اليوم عزتلو عثمان بك بوزباشي الجند اللبناني الذي استخدم في الباب الهمايوني في ســلاح شوران مه نسيبه عزتلو مجيد بك والشيخ عباس نعمان ملازم السواري الثاني وغيرهم.

مصطفى فعاد إلى بلاده كما مر آنفاً في الحاشية. أما الأمير يوسف فأوغر صدره ما فعله هؤلاء في بلاده فجمع عسكراً كان فيه الأمراء اللمعيون برجالهم وبينهم المعلوفيون وانضم إليه الأمراء الحرافشة برجالهم فواقعوا الجزار وهزموا عسكره.

وسنة 1779م وقعت نزعة بين محمد باشا والي طرابلس الشام والأمير يوسف الشهابي بسبب قتيل قتله ابن عم الأمير في دارية (الدور) التي كانت من إقطاع الشيخ اسمعيل حمادة (من بلاد البترون) فقصد الباشا أن يغرم أهل القرية بديته فلم يقبل الأمير بذلك فاستقدم الباشا الحماديين ليسلمهم ولاية بلاد جبيل وجمع الأمير عسكراً من جميع مقاطعاته فيهم عدد من المعلوفيين وذهب الشيخ سلمان أحمد إلى جبيل ليثير أهلها ضد الأمير يوسف فالتقاه رجاله في كفر عقة (قرية الحلي) من الكورة، وقبضوا عليه وعلى من معه وأرسلوه إلى عين الحمام في اللقلوق بصرود كسروان، حيث كان الأمير مخيماً بعسكره البالغ عشرة آلاف. فلما مثلوا أمامه شنقهم وهجم برجاله إلى مقاطعة طرابلس فالتقى بالتفكجية في اميون (المصونة) وكانوا من رجال الباشا يبلغ عددهم نحو ثلاث مائة أرسلهم بقيادة الحاج عبيد إلى هناك للمحافظة، فانتشب بينهم القتال من قبل انبثاق الفجر في الساعة الثانية ليلاً وحاصرهم عسكر الأمير في البرج الذي في وسط القرية فقتل منهم كثيراً وضويقوا فطلبوا الأمان فأمنهم ورجع عنهم فسار إلى طرابلس من بقي منهم حياً وهم قليلون. وفي اليوم الثاني سار الأمير بعسكره إلى أرض الزاوية فوق نهر جوعيت (الصيحة) فغصت تلك البلاد بعسكره حتى قرب نهر البارد في عطار. فبعث الباشا يسترضيه فعاد إلى دير القمر منصوراً ونسبت هذه الحادثة إلى التفكجية (حملة البنادق) الذين حاربوا فيها.

وسنة 1780م عاد الأمير يوسف إلى ولايته فصادر اللمعيين لخروجهم عن طاعته وأرسل ابن أخيه الأمير حسن بن عمر الشهابي أخ الأمير بشير الكبير لإتلاف عقاراتهم في الساحل فتوسط المعلوفيون الأمر مع نسيبهم أبي نجم ناصيف الذي كان من خاصة الشيخ كليب النكدي فأقنع الأمير بالعفو عن أملاكهم وصادرهم بخمسة وعشرين ألف غرش فقط. وكانت المودة تتوثق عراها بين اللمعيين والمعلوفيين.

وسنة 1781م سكن بنو شبلي المعلوف من فرع أبي عسوس في بلاد بعلبك وتركوا موطنهم كفر عقاب وكانوا يترددون منذ سنوات إلى تلك الجهات فرأى منهم الأمراء الحرافشة بسالة وحمية ونشاطاً حملهم على ترغيبهم في سكنى بلادهم.

وكانت الضرائب الكثيرة قد أرهقت سكان لبنان فأخذ منهم الأمير يوسف في هذه السنة مالاً ثانياً بلغ فيه ما ضربه على أوقية البزر خمسة غروش. وكان القلق سائداً في زمن الجزار الذي لم يثبت على حاله بل كان:

كريشة في مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

فرأى بنو شبلي أن في تلك البقاع الخصيبة موارد غزيرة للارتزاق وأن وطأة الأمراء الحرافشة مع استبدادهم أخف حملاً من وطأة الجزار وعيشه في البلاد وتقسيمه السكان، ففتحوا بسكناهم ذلك السهل الأفيح مجالاً لأنسبائهم وغيرهم من المسيحيين فسكنوه وكانوا يدفعون عنهم بسطوتهم ونفوذهم كما لا ينكر ذلك إلا المكابر.

وكان بنو شبلي ثمانية طنوس وعيسى وموسى وجرجس وكنعان وصليبي ويوسف وفارساً فسكنوا أولاً لاسة (وهي الآن قرية خربة قرب رياق حيث محطة السكة الحديدية الكبرى) ثم أقطعهم الأمير مصطفى الحرفوش محل قرية شليفة[1]

[1] من معاني شليفة بالسريانية المرج وهي إلى اليوم يسكنها بنو شبلي المعلوف وبعض أنسبائهم وفيها نحو 72 فداناً من نوع الخطاط (وهو الذي يبزر فيه من 100 ـــ 150 مداً) وهي بمنزلة 36 فداناً من نوع الروملي (الذي يبذر منه 150 ـــ 300 مد) وعدد سكانها خمس مائة وخمسون نفساً منهم 330 أرثوذكسياً والباقون موارنة. موقعها على سفح تلة قليلة الارتفاع تمتد شرقاً وغرباً إلى شماليها وتتصل بلبنان الغربي وعلى قمتها قصر البنات الذي مر وصفه صفحة 105 وهو على بعد نصف ساعة عنها. وهذه القرية تبعد عن بعلبك إلى غربيها تسعة أميال وبينهما نحو ثلاث ساعات وفيها آثار أبنية تظهر عند الحفر وآبار ومعاصر منقورة بالصخور تدل على وفرة كرومها وزيتونها في القديم. وإلى غربيها آثار طريق مرصوفة تؤدي إلى محلة الكنيسة وهناك مزار ولي. وهواؤها نقي جاف وعلوها عن سطح البحر خمسة آلاف قدم وليس فيها مياه بل يستقي سكانها من نبع العليق على بعد ساعة إلى جنوبيها وهو أشبه ببحيرة فيها جزر. أما وردين فهي على تلة إلى الجنوب الشرقي منها على بعد ثلثي الساعة وكانت ملكاً لطنوس شبلي المعلوف وأخيه عيسى فنصيب عيسى تركة ولده الخوري ابرهيم فاستولى عليه السيد ابرهيم الرفاعي من بعلبك ثم تملكها محمد بك اليوسف من دمشق وصلرت اليوم ملكاً للبكوات أولاد المرحوم جرجس نجيم. وأصل هذه الأسرة من جاج قدمت في القرن السادس عشر إلى غسطا واشتهر منها أساقفة وكهنة أفاضل وأعيان ومن أشهر متأخريهم الدكتور فارس أفندي في ساحل علما وأولاده جرجس المذكور في دورس وأصلهم من قرنة كفرتيه في لبنان ويجري من وردين نهر المسيل إلى الشمال ماراً بقرب تل بحامة على مسافة ميل من شليفة وهو لا يصلح للشرب فاقتنى سكان وردين وبحامة بوبالته. وبحامة على تل باسمها على بعد ربع ساعة إلى شرقي شليفة سكنها الصليميون (من صليمة في لبنان) ثم تركوها لوبالتها وبنوا القعقعية فتركوها لرداءة هوائها. أما الفلاوة فهي إلى غربي شليفة على بعد ساعة، فيها آثار بلدة قديمة مساحتها نحو أربعين ألف ذراع مربع وفيها حجارة وآبار ومنها يتشعب ثلاث طرق رومانية

وما يجاورها ولا سيما وردين وبحامة، فبنوا تلك القرية وصاروا أعوان الحرافشة الذين كانوا قد بنوا أحكام بعلبك منذ زمن الأمير يونس سنة 1534م. وتوالى ذلك في أعقابهم كما مر في صفحة 155 وكان من أنفذهم بهذا الوقت الأمراء حيدر ومصطفى ومحمد. فتولى الأمير حيدر حكم بعلبك من سنة 1763م إلى قرب وفاته سنة 1774، واشتهر بحبه للعدل ودماثة أخلاقه، فخلفه أخوه الأمير مصطفى قبل موته بقليل لأنه كان قد عجز عن القيام بأعباء الولاية لهرمه فناهضه الأمير درويش بن حيدر هذا وتولى قسماً من بعلبك سنة 1774م ثم اشتد الخصام بين الأميرين مصطفى ومحمد لتنازعهما الولاية فتولاها محمد سنة 1776م وارتفعت يد مصطفى الذي كان يميل إلى المسيحيين ولا سيما أهل زحلة وبني المعلوف بخلاف أخيه محمد الذي لم يكن يميل إليهم إلا تظاهراً لمآرب خاصة، فكانت هذه السنة (1781م) التي سكن فيها بنو شبلي المعلوف شليفة أشد السنين هولاً لما كان بين ذانك الأميرين المذكورين من النفرة وكان الأمير محمد قد شكى أخاه الأمير مصطفى أنه يحزب أهل زحلة والمعلوفيين ضده ويعيث في البلاد، فأرسل وزير دمشق عثمان باشا المصري (الذي تولى الحكم نحو سنة 1771م) ليقبض على مصطفى فلم يجده لأنه فر هو وأهل زحلة فحجزت غلالهم. وكان الأمير سيد أحمد الشهابي في صليمة فاراً من وجه أخيه الأمير يوسف لأنه سعى بقتله[1] فجاء زحلة ونزل في دير القديس الياس الطوق الذي كان رهبانه قد تركوه مع أهل البلدة ونهبه العسكر فتعهد الأمير سيد أحمد للوزير أن يغرم الزحليين بعشرة أكياس فدفعوها وعادوا إلى بلدهم ثم حضر رجل من الآستانة العلية يسمى (الزبطجي) وذهب إلى رأس بعلبك والبقاع

مرصوفة، إحداها تسير شمالاً إلى قرية بندعي والثانية إلى بوديه والثالثة إلى شليفة ولها حاجزان قائمان على جانبيها وإلى شمالي فلاوة بركة صغيرة في نصفها دائرة منخفضة على شكل بيضي يقال إنها كانت ينبوع ماء فجف والله أعلم.

[1] روى القس روفائيل كرامة: أن أحد عقال الدروز اقترف ذنباً فصادره الأمير يوسف فأوعز ذلك صدر الجنبلاطيين فاتفقوا مع أخوه الأمير على قتله. ففي إحدى الليالي ذهب الأميران سيد أحمد وأفندي إلى قصر أخيهما الأمير يوسف في دير القمر وكان الشيخان سعد الخوري وكليب أبو نكد راقدين عنده، فلما وصلا القصر أحس بهما المغربيان الحاجبان فمنعاهما عن الدخول، فحدثت غوغاء أيقظت الأمير فرأى أخويه هاجمين عليه فأمر المغربيين أن يقتلاهما فقتل أحدهما الأمير أفندي بضربة حسام وجرح السيد أحمد ففر إلى الجنبلاطيين فأمدوه بعسكر طرد به أخاه الأمير يوسف إلى صيداء فعكاء، فوعده الجزار بإعانته فحضر بعسكر إلى دير القمر وطرد أخاه سيد أحمد وأوقع بالجنبلاطيين ففر أخوه إلى صليمة ثم جاء زحلة.

ورفع يد الحرافشة عنهما لأنهما من أملاك والدة السلطان فعاد سكانهما إليهما بعد أن تركاهما لما سامهم الحرافشة من التحامل.

وفي هذه السنة عصت قبيل عرب الشقيف[2] على الأمير محمد الحرفوش حاكم بعلبك وأبت أن تدفع المكوس المرتبة عليها فاستقدم الأمير محمد موسى شبلي المعلوف المشهور بسطوته وقوته فأعد له عسكراً وسلمه قيادتهم ليواقعوا أولئك العربان ويؤدبوا عصاتهم، فأبى أن يأخذ معه سوى نفرين فقصد بهما العرب وناصبهم القتال وفي أثناء المناوشة كانوا يرشقونه بالمقاليع، فكثيراً ما كان يتلقف الحجر وهو مندفع ويرميهم بقوة ذراعه فيدميهم، وهكذا دوخ عصاتهم وأرغمهم وتقاضاهم المرتبات فدفعوها وعاد ظافراً فارتفعت مترلته لدى الأمير.

وسنة 1782م جدد المعلوفيون قسمة (قصار) كنيسة الخرائب التي مر ذكرها في صفحة 181 وذلك بحضور الأمير سليمان ابن الأمير حسين ابن الأمير عبد الله اللمعي من صليمة الذي أشرنا إلى أنه حضر القسمة الأولى كما ذكر في صفحة 203 فكتبت بينهم هذه الوثيقة (الحجة) التي لن تزال بأيدينا وهاك ملخصها: (وجه تحريره وموجب تسطيره أنه قد صار الاتفاق وبالله التوفيق بين أهالي كفر عقاب

---

[2] كان سهل بعلبك والبقاع منذ القدم محطاً لرحال البدو لأنه متسع على مواشيهم فيصطافون فيه ويشتون في الجولان وحمص وحماة وسواحل بيروت ونحوها. أما عرب الشقيف هؤلاء فيترلون في جوار تربل (المدن الثلاث) ويصرفون الشتاء في حمص وحماة. ومن العرب الذين يخيمون فيه إلى عهدنا الحروك وهم من عرب الفضل وأبو عبد من الموالي. والزريقات واللهيب وفيه يخيم أيضاً التركمان والشركس والنور. وفي بعض السنين عرب عترة ومن أقوالهم أن هذا السهل لا يكفيهم للعب أولادهم. وسلاحهم السيف والشلفة (الرمح) والتترية (سيف عريض مستقيم محدد الجانبين) وبعض الأسلحة النارية. وهم يسقون ضيوفهم القرفة المغلاة والقهوة ومن أطيب مآكلهم اللزاقيات وهي عجين يقلى بالسمن، والصاجية وهي لحم يطبخ بالصاج الذي يخبزون عليه. وفرشهم اللبابيد والطنافس والبسط وأنواع تسمى الوسادات للاتكاء ولهم عوائد كثيرة أهمها الزفة في الأعراس ونقد المرأة في التعديل المتوسط ثلاثة آلاف غرش إلى سبعة، فلذلك يسرون بالبنات، وغناؤهم العتابا والمواوينل وعندهم النقوط (الألطاف أي إعطاء العروسين الدراهم) وحفلة الطهور (الختانة) بمضرب جديد ينظر فيه الولد عند الختانة فإن ضرب خاتنه وجب على والديه إعطاء الخاتن ما يطلب وعندهم شيخ للصلاة. أما مآتمهم فيذبحون ذبيحة ساعة الوفاة وفي ثالث يوم وسابعه وفي الأربعين والعام. ويكفنون ميتهم بكفن أو أكثر حسب حالته من الحرير أو المقصور (الخام الأبيض الرقيق) وتوضع جثته على جمل مزين ووراءه جمال مزينة وترتفع أصوات التحورب وإطلاق البارود ويصنع المأتم بعد سبعة أيام فتندب النساء (وتسود) نسيباته وجوههن ويخدشنها ويقلمون الخيل فيضعون عليها السرج وثياب الميت وسيفه ويطاردونها ويطلقون البنادق وراءها ولباسهم القنباز والعباءات والفراء والعقال والكوفية وفي أرجلهم الجزامي والنساء يلبسن القفطان الأزرق وحلاهن الأسورة والأخزمة وبعضهم متملكون في لبنان كالحروك يدفعون مالاً أميرياً.

جميعنا وأهالي كفرتيه جميعنا وأهالي زبوغة جميعنا من جهة كنيسة سيدة الخرائب وذلك بخاطر الجميع ورضاهم من غير إلزام بحضور أفندينا الأمير سليمان المحترم فاقتسمنا الكنيسة المذكورة بيت أبي مدلج وتابعهم النصف وبيت أبي عسوس وبيت أبي فرح وتابعهم النصف. وأخذ بيت أبي عسوس وبيت أبي فرح وتابعهما حق (ثمن) حصتهم دراهم نقداً مائة وخمسين غرشاً من بيت أبي مدلج فلم يبق لهم معهم تعلق ولا مدخل ولا دعوى في سائر ما يكون والوقف والرزق الذي حول الكنيسة من ماء وهواء. توت وعطل (بور) وعريش وجل عين وخربة زبوغة وعريشة السنديانة في حائط الخربة. والخربة وتوتها كل ذلك لسيدة الخرائب حصة بيت أبي مدلج كما اتفق الجميع من غير إلزام، أما التوت فوق بيت يزبك وقدام بيت القسيس وتحت حارة شبلي وكرم الشميس الذي من أولاد ناصيف فكلها لبيت أبي عسوس وبيت أبي فرح، ما من أحد له فيها علاقة والميري في النصف حتى يصير خراج كل حصة تتديمس (من الديموس بمعنى المساحة) على صاحبها والحوائج التي كانت عند الخوري يونان (المعلوف) تصرف جميعها عليهم وصارت الكنيسة وما يتبعها ملكاً لبيت أبي مدلج يتصرفون فيها كيف ما شاؤوا وأرادوا وذلك بحضور أفندينا المشار إليه فأجرينا بينهم هذه الوثيقة الشرعية لأجل البيان والحفظ من النسيان وقصر منازعة كل إنسان وكل من ادعى يدفع خمس مائة غرش إلى حاكم الوقت نذر عشرية (بمعنى تغريم) لأن ذلك بالخاطر والرضى ومن غير يكون تحت غضب الله والسيدة والحكم (بمعنى الحكومة) صح» حررها الخوري نقولا راهب دير مار الياس المحيدثة خادم عين القبو. وشهد على صحتها الخوري صفرونيوس رئيس الدير المذكور سنة 1197هـ[1] (1782م).

وفي شهر شباط من هذه السنة سار الأمير مصطفى الحرفوش إلى وزير دمشق عثمان باشا المصري الذي ذكر آنفاً فبعد أن استقبله زجه في السجن وصادره بمائتي كيس فتشفع به بعض أصدقائه أن يدفع مائة كيس ويسلم مرعي البقداني المتوالي الثائر من أهالي بريتال (بريتان) وخلع عليه فعاد إلى بعلبك وقبض على مرعي المذكور وخمس من ذوي قرباه بواسطة طنوس شبلي المعلوف وأخوته إذ لم يجسر أحد سواهم على الدنو منه لأنه كان فتاكاً ذا بأس ثم أرسلهم إلى دمشق فطيف بمرعي في المدينة راكباً على جمل من الصبح إلى المساء وذلك يعرف (بالتشهير أو

[1] بقي التاريخ الهجري معولاً عليه بين المسيحيين إلى أوائل القرن التاسع عشر.

التجريس) ثم قطعوا رأسه مع رؤوس أنسبائه فنجت البلاد من شره لأنه ملأها عيثاً فطار صيت بني شبلي وخشي الناس بأسهم ورفع الولاة مقامهم لإخلاصهم للدولة العلية.

وفيها انتقلت وزارة دمشق إلى أحمد باشا العظم وكان بعض متاولة بلاد بشارة قد هربوا من وجه الجزار الذي قتل كبيرهم الشيخ ناصيف وقبض على ابنه وضبط بلادهم وفتك بكثيرين منهم وسبى رجاله نساءهم حتى باعوا المرأة منهن بعشر مصاري (جمع مصرية نسبة إلى مصر لأن تلك الدراهم كانت تضرب فيها وقيمتها بارة) فجاؤوا بلاد بعلبك ولاذوا بحمى الحرافشة فاتصل خبرهم بالوزير وتوسط أمرهم عند الأمير مصطفى الحاكم فأعطاهم قريتي القاع ورأس بعلبك اللتين لوالدة السلطان كما مر ونزع الهرمل من يد الأمير يوسف الشهابي وولى عليها جميعها الشيخ قبلان المتوالي أحد الفارين من وجه الجزار أيضاً. وفيها تغير الأمير مصطفى على أهل زحلة وأراد مصادرتهم وتهددهم بالإغارة عليهم فكتب الأمير يوسف الشهابي للأمير شديد مراد اللمعي أن يذهب بالزحليين وغيرهم ويهاجم بر الياس فهاجمها ونهبها ثم نهب عسكره قرية النبي إيلا (ايليا) وقتلوا رجلاً من بني حمية فترك البقاعيون بلادهم وقد خربوا قلعة قب الياس لأن الأمير سيد أخ الأمير يوسف الوالي كان يفر إليها ويتخذها معقلاً للدفاع. وكان الأمير محمد الحرفوش قد جاء دير القمر فاراً من وجه أخيه فجهز الأمير يوسف عسكراً نحو خمسة آلاف لمساعدته وقد تولى قيادته نفر من بني عمه وأعيان البلاد فهاجموا بعلبك وانحاز إليهم المعلوفيون لأن الأمير مصطفى تغير في تلك السنة على مسيحيي زحلة الذين كان بينهم بعض المعلوفيين أنسبائهم فدحروا مصطفى وهرب إلى جهات حمص واستقدم من نواحيها جنداً كبيراً[1] فلاقاه الأمير محمد برجاله وفي مقدمتهم طنوس شبلي المعلوف وأخوته وطنوس أبو يعقوب والحاج متى من فرع أبي كلنك المعلوف وغيرهم من أنسبائهم فقتلوا من عسكر الأمير مصطفى عشرة

---

[1] هذا ما رواه القس روفائيل كرامة أما الأمير حيدر فروى في تاريخه صفحة 842: أن الأمير مصطفى التقى عند هربه بعبد الله باشا والي طرابلس سائراً إلى الحج فوعده بخمس وعشرين ألف غرش إذا جعل طريقه على بعلبك فأبى وسار معه الأمير مصطفى إلى دمشق ومكث هناك ورجع عسكر الأمير يوسف إلى البلاد وتمهدت ولاية بعلبك للأمير محمد فبقي مصطفى في دمشق إلى أن عاد عبد الله باشا من الحج فرجع إلى بعلبك بعسكر من قبله فطرد الأمير محمداً وأسرته وبعض أنسبائه إلى بجدل ترشيش في جرد المتن حيث توفي سنة 1786م فيها وأصلح الأمير مصطفى أمره مع الأمير يوسف ونقده المرتب على بلاده وتولى الحكم.

رجال ولكنه تغلب أخيراً لكثرة رجاله فدخل بعلبك وفر أخوه محمد إلى زحلة مع رجاله ولبث فيها مدة ثم انحاز إلى أحمد باشا الجزار فقبض عليه ولذلك أرسل مصطفى يتهدد الزحليين ويصادرهم بأموال كثيرة وجمع رجاله تأهباً لقتالهم فرحل بعضهم تاركين البلدة وضايق بني شبلي في شليفة فثبتوا أمامه وأخذوا يسعون بعزله عند وزير دمشق أحمد باشا العظم الذي توفي على إثر ذلك وتولى مكانه أحد مماليكه محمد باشا ابن عثمان باشا الصادق الكرجي فلم يطل عمره أكثر من ثلاثة أشهر فخلفه أخوه محمد درويش باشا الذي عزز المسيحيين وأحب طنوس شبلي وأخوته فتداخل طنوس معه ونال منه التفاتاً فاتفق الوزير مع الجزار على إخراج الأمير مصطفى من بعلبك وأرسل عسكراً لمهاجمته فاتحد معه بنو المعلوف وقبضوا عليه وعلى أخوته الخمسة فقتل الوزير منهم ثلاثة بينهم مصطفى هذا وسجن الباقين وسبوا حريم الحرافشة ونهبوا المدينة ونجا ولده جهجاه من أيدي العساكر بواسطة المعلوفيين لأنهم كانوا يحبونه فسار إلى عرب خزاعة أبناء عم الحرفوشيين واستعان بهم على إرجاع بعلبك فلم يلبوا طلبه بل اعتذروا ولكنهم أمدوه بمال كثير وأعطوه فرساً صفراء كريمة فعاد إلى بلاده سنة 1786م كما سيجيء. وتولى حكم بعلبك رمضان آغا من قبل وزير دمشق فركدت رياح الفتن وساد الأمان ورفعت المظالم وقد أوصى الوزير ذلك الحاكم بالزحليين والمعلوفيين وأرسل إليهم تأميناً (بيورلدي) يؤذن بانعطافه إليهم وميله لمضافرتهم والمحافظة عليهم وبقي ذلك نحو نصف سنة فنالوا الراحة والهناء وكان هذا في أواخر سنة 1783م ومنذ ذاك الحين نفذت كلمة بني شبلي لدى وزراء دمشق لمحافظتهم على طاعة الدولة العلية ولوقوفهم في وجه الحرافشة المارقين من طاعتها.

وفي سنة 1784م ورد خط شريف من الآستانة العلية بإلحاق بلاد بعلبك بحكم الجزار فأرسل من قبله حاكماً اسمه سليم آغا، فصارت تحت تصرف الجزار وكان الخلاف في لبنان شديداً بين الأمير يوسف الشهابي وأخيه الأمير سيد أحمد من جهة والاضطراب سائداً في زمن الجزار الذي استولى في السنة الثانية 1785م على ولاية الشام عوض محمود درويش باشا لأن الحجاج الذين وصلوا إلى الآستانة العلية رفعوا الشكوى إلى الدولة بأن هذا الوالي لم يستطع حفظهم من العرب ففتكوا بهم وسلبوهم وضايقوهم. فورد أمر سام بتقليد الجزار زمام أمور عكاء والشام معاً، فعم القلق أنحاء سورية وكان الطاعون يفتك فتكاً ذريعاً والغلاء يذيب الأحشاء

جوعاً فضويق السكان في أكثر الجهات أعاذ الله من أشد الضربات التي هي الحرب والغلاء والوباء.

ولقد ذكرنا في ما مر أن بني المعلوف كانوا منذ بدء هذا القرن يهاجرون لضيق كفر عقاب بهم فذهب بعضهم إلى دومة البترون التي كانت مترلهم الثاني في لبنان على إثر مجيئهم من حوران كما مر في صفحة 158 وهناك سعوا مع بعض الأساقفة ببناء دير القديس يوحنا المعمدان ووقفوا له كثيراً من أملاكهم ونظموا فيه رهبنة نشأ فيها بعضهم وترأسوه وهاك ما وقفنا عليه في سجل قديم في ذلك الدير نورده للدلالة على ما سنفصله من سعيهم في عمرانه وهو بحرفه: لما كان بتاريخ 1785م للتجسد الإلهي قد دخلت أنا الحقير أفتيميوس من بلدة أميون إلى دير مار يوحنا دوما وكان الدير ما فيه إلا كنيسة وقبو الكرار (بيت المؤونة) وكان وقتئذ المطران بوانيكيوس مجمل كرسي محروسة بيروت إقامتي على الدير المذكور رئيساً وكان مسعفاً معي القس أندراوس من قرية أميون من عائلة بوفيطر (كذ ولعل الصحيح أبي فيصل) وكان جملة الأخوة الرهبان الأخ ساروفيم[1] المعلوف من زبوغة والشمال بطرس المعلوف من كفر عقاب والقس سابا من اسكلة المينا وبقوة الأخوة الرهبان ربنا يكافيهم نظير أتعابهم أقمنا أرزاقاً للدير بمعونة الله تعالى[2] ..إلخ. وهنا عدّد الأملاك التي جددوها وفصلها» ـــ ومما يستحق الذكر أن أهل دومة ولا سيما المعلوفيون قد كابدوا المشقات لرد غارات المتاولة الذين كانوا يصعدون من كفر حلدة إلى الدير فمنعوهم وواقعوهم مراراً حتى حرروه من غاراتهم ولذلك أتلفت عقاراته قبل هذا فأخذوا يجددونها ويرممونه.

---

[1] هو القس ساروبيم الذي ذكرنا أنه دخل الرهبنة الشويرية ثم انتقل إلى هذا الدير راجع صفحة 204.

[2] وقد رأينا في تعاليق بعض كتب الدير أن رؤساء المعلوفيين هم الخوري بطرس يونان من كفر عقاب تولى الرئاسة من سنة 1800 ـــ 1834م وهو الشماس بطرس المذكور وخلفه الخوري جواسيموس الكحيل من كفر عقاب أيضاً وهو ابن الرجل الذي أنقذ العلم في واقعة الجرمق كما مر في صفحة 209 ترأس من سنة 1834 ـــ 1839م وهي سنة وفاته وجراسيموس يونان منها أيضاً ترأس من سنة 1839 ـــ 1849م وله مخطوطات بديعة. ثم تولى الخوري منوديوس ابن كلنك المعلوف من المحيدثة الرئاسة العامة على أديار لبنان نحو تسع سنوات فكلن هذا تحت رئاسته ثم الخوري ابصائيا المعلوف من دومة ترأس نحو ثماني سنوات وقد سعوا جميعهم سعياً متواصلاً بعمران هذا الدير وتوسيع نطاق أملاكه وفيه الآن ثلاثة رهبان وله أملاك وافرة الريع سنفصلها في تراجم هؤلاء الرؤساء.

وفي سنة 1786م أرسل بطال باشا وزير الشام رجلاً زنجياً اسمه محمد آغا العبد حاكم البقاع متسلماً على بعلبك فجاء الأمير جهجاه ابن الأمير مصطفى الحرفوش من عند عرب خزاعة أنسبائه إلى زحلة وجمع مائة مقاتل في مقدمتهم بنو شبلي الذين كانوا يميلون إليه وكان يسترضيهم لمعرفته بسالتهم وسداد آرائهم ولقد اجتهد باستمالة أحدهم موسى الذي كان ساكناً مدينة بيروت إلى أن يحل بلاده مع أخوته. ولما تكامل عدد جيشه نعل الخيل باللباد ودخل بعسكره ليلاً وقتلوا من التقوا به فهجم بنو المعلوف على العبد ورجاله المغاربة فقتلوا عدداً منهم وكاد العبد يسقط بين يدي موسى ولكنه تمكن من الفرار إلى دمشق. وكان الوزير قد همّ بالخروج من الحج فلم يستطع إرسال عسكر إلى بعلبك للاقتصاص من الأمير جهجاه وكان عمه الأمير محمد قد التجأ إلى الأمير يوسف الشهابي في دير القمر فتوفي ودفن فيها وقيل إنه توفي في مجدل ترشيش فصفا الجو لجهجاه.

وفي سنة 1787م عاد بطال باشا من الحج فأرسل المنلا اسمعيل بألف ومائتي فارس للاقتصاص من جهجاه فالتقاه هذا هو وأخوه الأمير سلطان بأهل زحلة والمعلوفين وغيرهم فكمن بعضهم في مضيق زحلة إلى أن وصل إليهم العسكر فأطلقوا عليهم الرصاص والتحم الفريقان وتعاركا، فتقهقرت عساكر المنلا وتبعهم رجال الأمير إلى قرية السلطان يعقوب وأعملوا السلاح في أقفيتهم فلم يهلك من رجال الأمير سوى نفر قليلين فعاد جهجاه إلى بعلبك وتولى الحكم.

وفي سنة 1787م في شهر أيار ثار عرب الموالي في ضواحي حمص وحماة فنهبوا القرى وفتكوا بأغوات الدنادشة الذين كان حكام المدينتين منهم وقتلوا كلاً من شيخ بلاد الكلبيين وشيخ بلاد النصيرية وعاثوا في تلك الجهات وفتكوا بأعيانها فقتلوا منهم بطرس بن ميخائيل كرامة الحمصي قرب القصير بينما كان ذاهباً إلى ضواحي رأس بعلبك ليشاهد ابنه ابرهيم. وبقي الثائرون إلى بدء السنة الثانية (1788م) فقام أهل مدينة حماة على متسلمهم وقتلوه مع جماعته الذين كانوا من قبل بطال باشا فنمي إليه الخبر وبينما كان يجهز رجاله للاقتصاص منهم صدر الأمر بعزله وتنصيب اظن ابرهيم باشا نسيب وزير طرابلس الشام الذي كان عنده فسلو من هناك إلى مدينة حماه وقبض على كبارها وصادرهم ألف وأربع مائة كيس وقتل كل من ثبت له أن له يداً باغتيال المتسلم وما زال يتردد بين مدينتي حماه وحمص إلى أن جمع الدراهم. وبعث إلى الأمير جهجاه الحرفوش بعسكر يناصبه ويتهدده على صنيعه الذي مر وطرده العبد ففر الأمير جهجاه بأهل المدينة من

مسلمين ومسيحيين وخرب الطواحين وحمل الأهلين على مغادرة المدينة والقـــرى التي تتبعها ثم صعد إلى قرية صنبرة وحاصر فيها بجماعته وبينم المعلوفيون وكـــان وزير دمشق اظن ابرهيم المذكور قد دخل دمشق وأسند حكم بـــلاد بعلبـــك إلى الأمير كنج ابن الأمير محمد الحرفوش فأرسل كنج مغاربة ودالاتية لقتل ابن عمـــه جهجاه فاستصرخ هذا الأمير يوسف الشهابي والأمير شديد مراد اللمعي فأرســـلا إليه عسكراً كان فيه بعض المعلوفيين من كفر عقاب وكفرتيه وزبوغة والمحيدثة لأن أنسباءهم سكان شليفة كانوا من خاصة الأمير جهجاه الذي كان قد رفع مترلتـهم واعتمد عليهم ولولا وصول تلك النجدة لقضي عليه وعلى جماعته. فما وصلـــت الرجال حتى استعاد جهجاه ورجاله قوتهم وناهضوا عسكر ابن عمه الأمير كنـــج بقلوب قدت من الحديد فقتلوا أربعين رجلاً من المغاربة ودحروا الباقين إلى بعلبك وكان هذا في التاسع من آذار يوم عيد الأربعين شهيداً فأوغر ذلك صدر الوزيـــر غيظاً ففاوض الأمير يوسف وبواسطة عباس التل حاكم الزبداني انفض المشـــكل وأعيدت الولاية إلى جهجاه وحمل إليه خلع الولاية عباس المذكور على شـــرط أن يدفع مائتي كيس مصادرة وكان ذلك ليلة البشارة فأطلقت البنادق وسر الناس ولا سيما الزحليين لأن سكانها كانوا على أهبة الرحيل وبعد ذلك بقليل جاء الأمـــير جهجاه زحلة حيث كانت عياله وفاوض السيد بنادكتوس التركمـــاني الطبيـــب الحلبي مطران بعلبك من الرهبنة الشويرية (سيم سنة 1785 وتـــوفي ســـنة 1808م) ليرجع إلى المدينة فعاد وعاد السكان وصفت كأس الهناء ومن ذلك الوقت ارتفـــع شأن بني شبلي المعلوف لدى الأمير جهجاه فكانوا يده يعتمد على آرائهم فـــانفتح الباب لأنسبائهم فأخذوا يستعمرون بلاد البقاع وبعلبك وارتفع شأن النصرانيـــة بمساعيهم ومساعي يوسف المطران[1] صديقهم الذي كان مقرباً من الحرفوشـــيين

---

[1] أصل أسرة المطران من حوران وكان جدهم كاهناً متزوجاً فلما ماتت امرأته سيم مطراناً ونسب إليه فرعـــه كما ذكر ذلك الطيب الذكر المطران غريغوريوس عطا في تاريخ زحلة المخطوط. وقد اشتهرت هذه الأسرة في بعلبك وزحلة ونبغ من قدمائها يواكيم الراهب الحناوي الذي ولد سنة 1696 وتوفي سنة 1772م وله مؤلفات في المنطق والعلوم الدينية وخطب أحرز نسخة منها قديمة الخط في مكتبتي. والمطران أكليمنضوس أسقف بعلبك وبلاد الشرق الذي سيم سنة 1810 وتوفي سنة 1827م. وكان يوسف هذا وأخوه ناصيف من خاصة الأمـــير جهجاه واشتهر ابن يوسف المرحوم حبيب باشا الذي ولد في زحلة سنة 1829م وتوفي في بعلبك سنة 1900م وأحرز رتبة ميرميران الرفيعة وترعرع أنجاله الكرام على مبادئه فنشأ منهم المرحوم يوسف الـــذي ولـــد ســـنة 1857م وسافر إلى الآستانة العلية سنة 1880م ونال امتياز مرفأ بيروت وسكة دمشق وحوران وحلب الحديدية

ونسيبهم طنوس أبي يعقوب المعلوف من فرع أبي كلنك الذي كان من كتبة جهجاه فكثر المسيحيون في تلك البقعة التي لم يكن فيها قبل ذلك إلا المتاولة والمسلمون والدروز والعرب ونزر من المسيحيين.

وفي هذه السنة سعى المعلوفيون بالأمير كنج الحرفوش عملاً بإشارة ابن عمه جهجاه فاستقدمه وزير الشام وطالبه بنفقات العساكر التي أعانته وقدرها خمسة عشر كيساً فلما تعذر عليه دفعها زجه في السجن ثم سار لتأدية فريضة الحج فأرسل الأمير جهجاه أحد أنسبائه فسعى بالأمير كنج لدى المتسلم فقتله خنقاً في سجنه في بدء شهر تموز فخلا له الجو وصفت الأيام ردحاً من الزمان.

وفي سنة 1788م لما عاد اظن ابرهيم باشا من الحج ثار ضده في دمشق أغوات القباقول وأهل المدينة وحاربوه فقتلوا من عسكره نحو ثلاث مائة وطردوه منها فسار إلى حمص ورفع إلى الآستانة عرائض الشكوى مما جرى فجاءه تقرير ثان بحكم الشام وأمرت الدولة الجزار والأمير يوسف أن يعاوناه على دخول دمشق التي أغلقت أبوابها. فجرد الأمير يوسف عسكراً كان فيه كثير من المعلوفيين وحاصروها نحو عشرين يوماً حتى ضويق السكان من قلة الزاد وبيع رطل الخبز بقرش و لم يوجد فمات كثير من الجوع وكان بعضهم قد هربوا منها فسلموا المدينة في شهر شباط ورجعت عساكر الجبل سالمة غانمة. أما الوزير فدخل المدينة وحاصر القلعة حيث كان فيها زعفرنجي آغا وأعد في الليل ثلاثة مدافع كبيرة قرب القلعة وفي الصباح أطلق عليها القنابل فأمطرها ويلاً واصطكت المسامع من زمجرها فماتت أم الآغا المذكور رعباً وأغمي على امرأتيه فاستولى عليه القنوط واستصرخ آغا الدالاتية أن يحميه فأخرجه من القلعة سالماً ولكن الجنود التي كانت فيها وعددهم مائة وخمسون قطعت رؤوسهم عبرة لغيرهم وطلب الوزير من الآغا أن يسلمه الزعفرنجي فقال له أنه في جواري ولكنني أطلقه فاقبض عليه. ثم لم يلبث أن

وقصف غصن حياته النضير سنة 1895م ومنهم الآن أشقاؤه الكرام أخصهم سعادتلو نخلة باشا الذي أحرز رتبة ميرميران ومن أدبائهم الشاعر الناثر خليل أفندي عبده المشهور في القطرين المصري والسوري صاحب الجوائب المصرية والمجلة المصرية. وفي زحلة ثلاث أسر تنتسب إلى المطران فالذين في حارة سيدة النجاة (المعروفة بحارة المعالفة) وفي القاطع هم من هذه الأسرة، والذين في حارة الراسية قرب دير الآباء اليسوعيين هم من معلولة (المدخل) من سلالة أخ المطران أفتيموس فاضل المعلولي أسقف الفرزل وزحلة المتوفى سنة 1768م سكن زحلة في أوائل القرن الثامن عشر لما ابتنى أخوه بيتاً فيها سنة 1727م. والذين في حارة التحتا (السفلى) هم من يبرود من سلالة أخ المطران باسيليوس جبلة اليبرودي المتوفى سنة 1811م سكن زحلة وبقيت سلالته فيها.

أرسله مع بعض الجند الناشري علمهم إلى أحمد الخرفان أمير عرب الموالي فنجـــا. ولكن الوزير أوعز إلى قدور بك حاكم حماة أن يقتص من العـــرب المذكوريـــن لعيثهم في بلاد حماة وضواحيها فهاجمهم بجيشه مع عسكر من حلب وقتل منـــهم نحو ألف رجل وهزم الباقين. وفي هذه السنة سار الأمير جهجاه برجاله لمعـــاضدة الأمير يوسف الشهابي على محاربة الجزار ووجد في جيشيهما نفر من بني المعلـوف فعاد بفوز مبين.

وفي 21 حزيران سنة 1789م استغاث الأمير قاسم ابن الأمير حيدر الحرفـوش بالأمير بشير الشهابي الكبير أن يمده بعسكر لمحاربة ابن عمه الأمير جهجاه فـأوعز الأمير الشهابي إلى الزحليين أن يساعدوه وإلى اللمعيين أن يشدوا أزرهم فزحـــف الأمير قاسم بنحو خمس مائة مقاتل بقيادة اللمعيين إلى تمنين حيث كان معســـكر جهجاه فلاقاهم هذا برجاله إلى سهل أبلج وهناك اصطلت نيران الحرب فدُحـــر الأمير قاسم ورجاله وتقهقروا إلى زحلة بعد أن سلبت خيولهم وأسلحتهم وقتـــل بعض مشاهم وأُسر الأمير شديد مراد اللمعي فطلب المعلوفيون من جهجاه إطلاقه فأطلقه ورد له اسلحته وجواده وأكرمه. ولما بلغ الأمير بشير انهزام عسكره جـــرد غيره بقيادة أخيه الأمير حسن وكاخيته (مدبره) ناصيف آغا، فلما وصلوا مدينـــة بعلبك كان جهجاه قد عرف بقدومهم فهرّب سكانها وأتلف ما فيها حتى يـــروى أنه وجد في الدار الأسقفية قنطاري زبيب فأطعمها لخيله وأخلى لهم المدينة وســـار إلى اللبوة فلم يستطيعوا البقاء فيها أكثر من أسبوعين لقلة الزاد. ولما رأى الأمـــير قاسم الفشل في هاتين الموقعتين استصرخ الجزار فأمر الأمير بشير أن يمده بجيـــش فأرسل معه عسكر المغاربة والدولة ومشايخ الدروز برجالهم فانتشب القتال بينـــهم وبين جهجاه الذي خرج إلى ظاهر المدينة برجاله وبينهم المعلوفيون فاندحروا وفـــر جهجاه[1] إلى رأس بعلبك فلحقوه فعاد إلى جهات تمنين ورياق فأحرق بيادرهـــا واتصل بزحلة وأخذ بغال دير مار الياس الطوق وحرق بيادره ثم نهب ديـــر مـــار

---

[1] وفي تاريخ بعلبك صفحة 79 وتاريخ الأمير حيدر صفحة 760 أن قاسماً قتل في هذه الموقعة والصحيح أنـــه قتل بعد ذلك كما سيجيء وهذا ذكره القس روفائيل كرامة وهو مؤرخ شاهد الوقائع بعينه أو نقل أخبارهـــا عن ثقة لأن النسخة التي وقفنا عليها من تاريخه هذا هي بخطه وقد صححت بالشطب ونحوه مما يـــدل علـــى تحقيقه. ويظهر أن طنوس الشدياق أخذ عنه في تاريخه أخبار الأعيان راجع صفحة 424 منه.

يعقوب في قارة[1] (الصخرة العظيمة) وحكم عوضه الأمير قاسم وحدث قلق واضطراب ورحل كثير من السكان.

ولم يطل العهد على الأمير قاسم حتى تغلب عليه جهجاه وتولى الحكم فعاج ببلاد بعلبك الأمير يوسف الشهابي فاراً من وجه ابن أخيه الأمير بشير الكبير الذي تولى شؤون لبنان فأرسل الأمير جهجاه يسأله أن يتحول عن بلاده خوفاً من الأمير بشير فارتبك الأمير يوسف بالجواب فقال له فارس الشدياق[2] وكان بخدمته الجواب عندي ثم شتم الرسول وضربه بدبوس من حديد وقال له: اذهب فقل لأميرك من أنت حتى تمنع الأمير يوسف عن المرور فهو يأمرك أن تقوم حالاً من بلاد بعلبك أو يفاجئك برجاله ففر الأمير جهجاه عند سماع كلام رسوله إلى بلاد الشرق وظل الأمير يوسف سائراً إلى الزبداني فحوران وعاد جهجاه إلى بعلبك. وبعد ذلك طلب المال الأميري من جهجاه فتأخر عن دفعه فدهمه الحاج اسمعيل الكردي من حمص ومعه عسكر من قبل الوزير. فلما علم بقدومهم وهو في إحدى القرى خارج المدينة فر من وجههم فسبى الحاج اسمعيل حريمه الأربع وماله وأمتعته وعاد إلى دمشق فرجع جهجاه إلى بعلبك وقد أخذ الغيظ منه كل مأخذ وهدد سكان المدينة وحملهم على مزايلتها. وهكذا فعل بالقرى ففر السكان إلى زحلة ونواحي دمشق. وفي شهر تشرين الثاني جاء الحاج اسمعيل المذكور وتسلم زمام أحكام بعلبك وتأثر الأمير جهجاه حتى الكرك فهرب الأمير إلى فالوغة (سريانية

---

[1] قارة بلدة قديمة عرفها الروم بأسماء كثيرة وسكانها اليوم نحو ألفين معظمهم من المسلمين فالكاثوليكيين فالأرثوذكسيين وفيها آثار خان من القرون المتوسطة وقربها النبك (التلة الصغيرة) وهي مركز قائمية مقام تتبع دمشق سكانها نحو أربعة آلاف معظمهم من المسلمين وبينهم الكاثوليك والسريان وبعض اليعاقبة وفيها ينبوع عذب المياه وهاتان البلدتان من أعدل الأمكنة هواء في جبل القلمون (بلاد الشرق) قال الشاعر:

إذا هاجت الرمضاء ذكراك بردت حشاي كأني بين قارة والنبك

[2] ينتسب بنو الشدياق إلى بطرس الملقب بالشدياق من سلالة الشدياق شاهين الملقب بالمشروقي من نسل رعد الحصروني نبغ منهم يوسف الذي ولاه الأمير منصور العسافي جبة بشراي من سنة 1574 ــ 1612م ومن ولده مسعد الذي تنتسب إليه أسرة مسعد كما مر في الصفحة 142 ومن سلالة مطر بن شاهين نشأ الطيب الذكر المطران جرمانوس فرحات الحلبي المتوفى سنة 1732م ومن سلالة فاضل بن شاهين نشأ السماعنة ومنهم الطيب الذكر المنسنيور يوسف شمعون صاحب المكتبة الشرقية وغيرها المتوفى سنة 1768م والآن منهم المنسنيور الأب لويس كاتم أسرار أسقفية دمشق المارونية. ومن سلالة فهد بن شاهين بنو الشدياق في حدث بيروت قدموها في أوائل القرن التاسع عشر ومنهم نشأ أحمد فارس المشهور بجوائبه ومؤلفاته توفي سنة 1887م وأخوه طنوس صاحب تاريخ الأعيان في جبل لبنان وغيرهما من الأدباء وخدمة الحكومة إلى يومنا.

بمعنى القاسم) ولاذ بحمى الأمراء آل مراد اللمعيين مدة ثم عاد إلى زحلة بكثير من الرجاء فنمي الخبر إلى الحاج اسمعيل فقصده بست مائة فارس ومائة راجل، ولما دنا من زحلة أرسل جاويشاً ينادي فيها بالأمان وأنه لا يتعرض لأحد من أهل المدينة ولكنه يطلب القبض على الأمير جهجاه. فأجابوه أن هذا خصمك جهجاه خارج إليك فاعمل به ما تشاء. وكان جهجاه قد هجم بجماعته وبينهم الزحليون فانهزم حاكم بعلبك برجاله فتأثروهم وأعملوا السلاح في أقفيتهم وقتل نحو مائتي رجل منهم و لم يقتل من رجال جهجاه أحد. وجد في أثرهم إلى قرب الزبداني ثم عاد إلى زحلة وكان ذلك في العاشر من شهر كانون الثاني سنة 1790م. وقد فعل جهجاه أشياء منكرة في من عاد إلى بعلبك ممن حرضهم على تركها فزاد في الطين بلة وأوغر صدر الوزير حقداً حتى نوى أن يهاجم زحلة ويحرقها لولا سقوط الثلج. فبلغ الزحليين ذلك فهجروا بلدهم إلى أن توسط الأمر عباس التل حاكم الزبداني فأطلق سراح حريم الأمير جهجاه وأصلح ذات البين بينه وبين الوزير على أن يغرم بأربعين كيساً ويرهن أخاه لقاء المال الأميري المتأخر عنده وحمل إليه خلع الولاية. وسنة 1791م حدث قلق في لبنان وتشاق الأميران الشهابيان بشير قاسم حيدر وملحم وتنازعا الملك. وكان الأمير يوسف قد دفع للجزار خمسة آلاف كيس فولاه حكم لبنان وعزل الأمير بشير الذي صار إلى عكاء وتعهد بدفع ما تعهد به الأمير يوسف فأعيد إلى الحكم وأكثر الضرائب وصادر كل من مالأ عمه الأمير يوسف حتى تحيزوا جميعهم إلى الأمير حيدر تخلصاً مما تقاضاه إياهم من الضرائب الفادحة. وفي شهر أيار شنق الجزار الشيخ غندور بن سعد الخوري في عكاء ومعه ابرهيم عزام وابنه. فطلب الأمير بشير عسكراً من متسلم دمشق ومن الأمير أسعد الشهابي حاكم حاصبية وأرسلهم إلى البقاع فخيموا في بر الياس وهاجموا زحلة مراراً، فانتصر الزحليون عليهم. ثم نزل الدروز إليها وثقلوا على سكانها ففر بعضهم وأحرقت المدينة في 26 تموز، ومنع نجم المعلوف الحريق عن بيته كما مر في صفحة 124. وأرسل الجزار متسلماً على بيروت فأغلق أبوابها وصادر النصارى فيها وضربهم والتأم الدروز في دير القمر ونازلوا المغاربة وهم عسكر الأمير بشير فقتلوا منهم نحو ثلاثين وكادوا يفتكون بهم لولا مداخلة الأمير. وقبل أن يذهب وزير دمشق إلى الحج أمر متسلم عكاء أن يشنق الأمير يوسف وذلك برسالة بعث بها مع أحد التتر فشنق ودفع الشيخ قاسم جنبلاط مائتي كيس على قتله. وهكذا سارت الفتن في جميع لبنان والبقاع وحاصبية وما يجاورها.

وفي شهر حزيران من هذه السنة بعد ذهاب وزير دمشق إلى الحج جاء جهجاه الحرفوش إلى رأس العين في بعلبك وانضم إليه رجاله وبينهم المعلوفيون فلاقاهم ابن عمه الأمير قاسم حيدر الحرفوش برجاله فانتصر جهجاه لأن رجاله هاجموا الأعداء بقلوب قدت من حديد، ثم أطلق طنوس شبلي المعلوف رصاصة أصابت من الأمير قاسم مقتلاً بينما كان منقضاً على جهجاه يريد قتله فسقط قتيلاً وكان ابن سبع عشرة سنة عادلاً كريماً مثل أبيه حيدر وقتل من رجاله اثنا عشر رجلاً فظفر جهجاه ودخل المدينة باحتفال وأذن من متسلم الشام ورفع منزلة طنوس شبلي. فلما عاد الباشا من الحج أرسل عسكراً لمهاجمة بعلبك والقبض على جهجاه فلم يحلُ منه بطائل لأنه فر إلى الزبداني ثم عاد إلى بعلبك بعد قليل. وبإيعاز من الأمير حيدر الشهابي جمع عسكراً في آخر كانون الأول نحو مائة من رجاله ومثلها من الدروز ودخل بعلبك فقتل نحو ثلثي العسكر الذي فيها ودخل القصر (السراي) وبعث إلى الأمير حيدر ببعض رؤوس القتلى فأرسل يهنئه لانتصاره ثم أعاد العسكر الكرة عليه فترك بعلبك وجاء حوض الأمير سليمان تحت زحلة فلحقوه في العشرين من شهر كانون الثاني سنة 1792م فواقعهم وقتل منهم خمسة عشر رجلاً وطردهم إلى القرعون في آخر البقاع وعاد إلى قب الياس فصعدوا ودهموا قرية سبغين فدافع أهلها ببأس وقتلوا منهم نحو مائة و لم يقتل من السغبينيين أكثر من ثمانية.

وفي آخر أيلول سنة 1791م صار في دمشق مطر غزير فطغى نهر بردى طغياناً عظيماً وخرب في جريه نحو ثلث المدينة مع خان الدالاتية وغرق من فيه مع كثير من السكان وبينهم بعض المعلوفيين الذين كانوا في المدينة.

وفي شهر شباط سنة 1792م كان الأمير جهجاه في قب الياس ومعه بعض الرجال بينهم المعلوفيون فبعث الجزار إلى عسكر الشام في البقاع أن يناصبه القتال ويقبض عليه ففر إلى الشمال فتأثره العسكر ونهبوا الفرزل وأبلح وقتلوا بعض الرعاة وبعثوا برؤوسهم إلى الجزار فلما رآها قال لهم ما هذه الرؤوس فقالوا إنها رؤوس رعاة المواشي فكاد يتميز غيظاً وأرسل إليهم يقول: أنا أرسلتكم لتقطعوا رأس جهجاه الحرفوش وأنتم لم تستطيعوا إلا قتل الأولاد فاتركوا البقاع، فلبسوا أمره وعادوا إلى عكاء فأراحوا البلاد من شرهم.

وفي هذه السنة وهب الشهابيون للأمير جهجاه الهرمل فامتنع سكانها عن تسليمها له، فاستنجد الأمراء فبعثوا إليه جيشاً فيه كثير من المعلوفيين وبنو شبلي

طليعتهم، فوصلوا في شهر تموز وحاربوا سكانها وقتلوا منهم نحو أربعين وأحرقوا البلدة فأخليت لهم. وفيها سار طنوس شبلي المعلوف وبعض الأعيان وتوسطوا الأمر عند الجزار وأخبروه بما هو عليه جهجاه من البأس وأنه لا يمكن لغيره أن يحسن إدارة بلاد بعلبك وأخبروه أن سكانها تركوها لما ترك الحكم، فأعاد إليه الولاية على أن يدفع عشرة أكياس واستقدم الفارين من رهبان وغيرهم فعمرت البلاد بعد أن كانت خربة. وسنة 1794م تشاق الأمير جهجاه وأولاد عمه الأمير ابرهيم فانتصر عليهم وقتل الأمير داود وسمل أعين أخوة الأمير عمر فاستاء الناس من عمله وكذلك المعلوفيون وتحذروا من غدره.

وسنة 1795م غزا عسكر الشام بعلبك فهرب الأمير جهجاه إلى رأس بعلبك فأحرق بعض بيوتها فهرب الرهبان وأهلها وكان ذلك في شهر أيار و لم يلحق بني المعلوف أذى لأن طنوس شبلي توسط الأمر عند الوزير. ونحو سنة 1798م حدث خصام بين صليبي شبلي المعلوف وبني يقظان مكارم الدروز سكان تربل وماسة واشتد بينهم العدوان، فقتل صليبي قاسم بن يقظان وكان شاباً قوي البنية فحلولوا الاستثآر به من بني المعلوف في بلاد بعلبك ولبنان فلم يستطيعوا فكثرت بينهم المناوشات وكان الظفر فيها لبني شبلي المذكورين، فأوغر ذلك صدر المكارميين وقصدوا أحدهم موسى الذي كان بمحلة الأشرفية في بيروت فحاولوا قتله مراراً فلم يستطيعوا لأنه كان أشد أخوته بأساً وأقواهم جسماً فزوروا كتاباً له من حليفه الأمير فارس قائدبيه اللمعي (الذي كان يحب المعلوفيين ولا سيما موسى هذا محبة عظيمة وهو الذي أخذ بيدهم في هذه العداوة وقواهم على خصومهم) وحملوا إليه ذلك الكتاب المزور ليلاً فرأى أن لا سلاح معه فبدأ يقرأ فأعطى الرسول إشارة خفية إلى الذين كانوا مدججين بالأسلحة وكامنين قرب البيت فبادروه بإطلاق الرصاص فجندل قتيلاً ويقال إنه زحف وهو مخضب بدمه وتناول بندقيته وقتل واحداً منهم وقبض أيضاً على أحدهم وكان يقصد أن يجهز عليه فلم يتركه حتى قطعوا يديه. ولما بلغ أخوته في شليفة خبر مقتله شق ذلك عليهم لأنه كان عوناً لهم فقصدوا قتل يقظان مكارم كبير قومه وزعيمهم فعلموا أنه في دمشق فقصده منهم طنوس وعيسى وكنعان وبمعيتهم الحاج نقولا المعلوف نسيبهم وهو خال سليمان المعلوف جد بني الكفيري من فرع أبي عيسى فتأثروه إلى أن ظفروا به في صحراء دمشق فقتلوه وكان ذلك في أواخر القرن الثامن عشر.

وهكذا اشتد الخلاف بينهم وبين خصومهم وحدثت مواقع كثيرة قتل فيها عدد من الفريقين فمن المعلوفيين قتل شاهين بن ظاهر وولده ظاهر جد الكفيريين بعد أن أظهرا شجاعة تذكر وبقي المعلوفيون يتأثروهم إلى أن أخرجوهم من البقاع فسكنوا رأس المتن[1] وما يجاورها وفتك بهم المعلوفيون فتكاً ذريعاً حتى ضرب المثل بعداوتهم فقيل (احسب ذلك عداوة بيت المعلوف لبيت مكارم) وكان الأمير فارس قائدبيه اللمعي نصير المعلوفيين وهو الذي حملهم على انقلاب غرضهم من الجنبلاطي (اليمني) إلى اليزبكي (القيسي) لأن بني مكارم كانوا جنبلاطيين وتشيع كثير من الأسر النصرانية والدرزية إلى كل فريق منهما وعرفت هذه العصبية بالمعلوفي والمكارمي وبقيت بضع سنوات.

وسنة 1806م مر جرجس باز[2] وعسكر لبنان عائدين من مقاتلتهم لسكان الضنية وظفرهم بهم فاحتفل بلقائهم الأمير جهجاه والمعلوفيون وغيرهم من رجاله حسب عادة العصر وكان الأمير صديقاً لجرجس المذكور وكذلك طنوس شبلي فلبث عنده أياماً ثم عاد إلى دير القمر فشيع بموكب حافل واستقبل في موطنه بمثل ذلك وكانت بينه وبين حاييم اليهودي صداقة وافرة وقد توثقت عرى المودة بينه

---

[1] سكانها سبع مائة من الدروز وثلاث مائة من الأرثوذكس مع نفر من الموارنة والبروتستنت تنتج سنوياً ستة آلاف اقة من الفيالج وعشرة قناطير من الزيت وهي جيدة الموقع تتصل بها طريق العربات وفيها عين المرج التي بناها المقدمون بنو الصواف اليمنيون سنة 1474م وكانت مقراً للأمراء آل قائدبيه فاشتهر فيها منهم الأمراء عباس ومراد وفارس وجهجاه وقصرهم الآن بيد مرسلي الإنكليز ومن أسرها الأرثوذكسية بنو سعد وبنو فريحة أصلهما من البربارة فمن بني سعد اشتهر نفر منهم خليل بك مؤلف الطوالع السعدية في آداب اللغة الإنكليزية وغيره والرياضي قسطنطين أفندي باش كاتب مديرية الجزيرة في السودان وحبيب أفندي المشهور بحساب مسك الدفاتر في بيروت. ومن سعد نشأ أبو نبهان يوسف بن شاهين الذي نسب إليه فرعه ومن أحفاده متري الذي خدم الأمراء الحرافشة في بعلبك وأخوه يوسف في كفر زبد (بعلبك) ومن نسلهما إلى اليوم نفر فيها. وملحم بن جهجاه الذي خدم الحكومة اللبنانية إلى أواخر مدة رستم باشا وحبيب أفندي الذي تولى عضوية بعض المحاكم الابتدائية. أما بنو فريحة فمنهم الآن نعوم أفندي صاحب المكتبة اللبنانية في بيروت. ومن أسرها الدرزية بنو مكارم وبنو صالحة.

[2] هو أبو عساف جرجس باز أبو شاكر مدبر الأمير يوسف الشهابي وأولاده وصفه مطولاً الأمير حيدر الشهابي الشملاني في تاريخه المطبوع صفحة 906 وكذلك أخوه عبد الأحد اتصل بخدمتهم إلى أن قتلهما الأمير بشير الكبير سنة 1807م مع بعض رجالهما واشتهر أخوهما فرنسيس باز وألاده وكان لأولاده إلمام ببعض العلوم فدرس عليهم الدكتور مخايل مشاقة العلامة والطيب الذكر البطريرك يوسف حبيش قبيل سيامته ومن بقية الأسرة إلى عهدنا عزتلو سليم أفندي رستم باز وكيل مدعي متصرفية لبنان العمومي ومؤلف وشارح كثير من الكتب الفقهية وشقيقه الدكتور جرجي أفندي وغيرهما.

وبين مصطفى بربر[1] حاكم طرابلس ولا سيما بعد هذه الموقعة. وفي هذه الأثناء نوى الأمير بشير الشهابي أن يأخذ الكرك من الجرافشة فتوسط الأمر جرجس باز إكراماً لمودة جهجاه فعدل عن نيته. وسنة 1807م عزل ابرهيم باشا عن ولاية الشام وخلفه كنج يوسف باشا، فبينما كان يتأهب لإرسال الخلع إلى الأمير جهجاه المذكور بولاية بعلبك تغير وعدل عن قصده فجمع جهجاه رجاله وألقى الفتن ليظهر لذلك الوزير أنه لا يمكن لغيره أن يحفظ زمام الأحكام ويدير شؤون تلك الجهة، فأرسل إليه الخلع وكان ذلك بتوسط الأمير بشير الشهابي الكبير وجرجس باز، ولما كان قد عرف رغبة الحاكم الشهابي بأخذ الكرك كتب له بها وثيقة (حجة) تصرح ببيعها لأولاده الأمراء قاسم وخليل وأمين وأرسلها إليه فوكل فيها

---

[1] هو مصطفى بن يوسف القرق من سكان طرابلس الشام ولد سنة 1767م فأخذته أمه بعد موت أبيه وهو صغير إلى برسة في الكورة فخدم موسى مالك عامل الكورة السفلية والمشايخ بني زخريا عمال القويطع ولما جمع ثمن حصان وسلاح خدم الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان. ولما عاد مرة إلى وطنه سنة 1788م انتظم في سلك الإنكشارية برئاسة زعيمهم مصطفى آغا الدلبة ثم اتصل إلى الاستيلاء على القلعة إلى أن تولى الجزار الشام فنصبه متسلماً على طرابلس وزاحم عمالها السابقين ولا سيما علي بك الأسعد المرعبي الذي كان عدوه الألد، واشتد الخلاف بينه وبين الشيخ أسعد الصعبي عامل القلع من قبل الأمير حسن سنة 1804م وبين الشيخ صقر المحفوظ حاكم صافيتة سنة 1807م ثم ابتنى داراً في قرية ايعال في الزاوية (وهي اليوم تتبع طرابلس مثل القلمون) ثم أعيد إلى تولي طرابلس وآل به الأمر إلى اتصاله بالأمير بشير الكبير فسكن الشويفات ثم سار إلى مصر وعاد مع ابرهيم باشا لما جاءها فأرجعه إلى طرابلس متسلماً ثم وشي به فاعتزل في داره في ايعال وتوفي فجأة سنة 1833م. أما المشايخ بنو زخريا فأصلهم من حصن الأكراد حكموا بعض نواحي الكورة مدة واشتهر منهم ظاهر رفيق الميا منعم المعلوف بنسخ الكتب الكنسية وهو جيد الخط وهم في قرية حامات (الكورة) إلى يومنا ومنهم تفرع بنو الخوري في الشويفات الذين منهم سعادتلو خليل أفندي الخوري الشاعر المشهور الذي خدم الحكومة وأخوه وديع أفندي منشئ حديقة الأخبار وغيرهما. وبنو مرعب أصلهم من بعض طوائف الأكراد الرشوانية كانت منازلهم بين مدينتي مرعش ولبنة فقدم جدهم مرعب مع بعض أخوته إلى نواحي طرابلس واتصل بخدمة عمالها وترك مرعب ولدين ناصراً وداود فتوطنا سهول عكار أما نسل ناصر فبقي معروفاً باسم جده مرعب وفرع داود عرف بالداودية ومن فرع ناصر شديد بك المرعب الذي ناوأ الحمادية وقتل كبيرهم عيسى في دير حماطورة سنة 1714م واشتهر نسلهم إلى اليوم ببكوات عكار ومنهم أفاضل. أما بنو صعب فينسبون إلى أبي صعب جرجس ابن الخوري بطرس بن يونان أبي سليمان من المتين في لبنان فاتصل أبو صعب جرجس بخدمة أولاد الأمير مراد اللمعي ثم بخدمة الأمير يوسف ونقل إلى جهات جبيل والبترون واشتهر نسله في مزرعة الحاج حسن المعروفة اليوم بمزرعة بني أبي صعب وكتب لهم الأمير بشير أحمد اللمعي الأخ العزيز فصاروا مثل مشايخ البلاد وأشهرهم حنا بك الشاعر الخطاط المشهور توفي سنة 1896م وله ديوان شعر مطبوع وبعض رسالات وشروح. وأما بنو مالك فهم في بطرام (الكورة) ومنهم نقولا بك ابن موسى المذكور وأولاده إلى عهدنا.

نعمان بلوك باشي فصارت من ذلك الحين ملك الشهابيين ومن أسماء بعضها إلى يومنا محلة (الشهابية) وقد هنأه بذلك شاعره نقولا الترك[1] من قصيدة:

كما كرك البلاد بك استجارت فعزت وازدهت بعد الإهانة

وقد جاءت براءها تنادي جهاراً أنها لك مالكانة

وسنة 1809م عاد كنج يوسف باشا وزير الشام عن حصار قلعة طرابلس الشام التي امتلكها وطرد منها مصطفى بربر فشرع يسعى إلى الاستيلاء على الأراضي التي تملكها الأمير بشير الشهابي المذكور والمشايخ الجنبلاطيون في بقاع العزيز فاشتد الخلاف بينه وبين سليمان باشا والي عكاء الذي عزله وتولى الشام في السنة التالية 1810م فساد الأمير بشير والجنبلاطيون بأيامه وكان ذلك في أثناء ثورة الوهابيين[1] فجمع عسكراً من عنده ومن عند الأمير بشير المذكور وبينه كثير من الزحليين والمعلوفيين مثل نجم المعلوف وولده بطرس والياس هاشم وطنوس شبلي وبعض أخوته وغيرهم فاجتمع لدى الأمير خمسة وعشرون ألفاً وسار بهم إلى طبرية

[1] أصل والد بني الترك من الآستانة العلية قدم دير القمر واشتهر من أولاده يوسف بن ناصيف آغا الترك الذي قتله الأمير بشير مع جرجس باز لأنه كان من رجاله كما مر آنفاً سنة 1807م وكذلك جدعون آغا الذي قتله قبل ذلك سنة 1791م وأشهرهم نقولا بن يوسف الترك شاعر الأمير بشير الكبير قبل بطرس كرامة ولد في دير القمر 1763م وتوفي فيها سنة 1828م وله ديوان مخطوط أحرز منه نسخة في مكتبتي ومعظمه في مدح الأمير مع بعض قصائد في وزراء عصره وأعيانه وفيه كثير من الهزليات والفكاهات وإحدى عشرة مقامة وفي أكثرها ركاكة تدل على عدم رسوخ قدمه في آداب العربية وله تاريخ نابوليون طبع في أوربة وتاريخ الجزار وهو مخطوط. ومن شعره قوله مؤرخاً بناء قصر بيت الدين سنة 1806م وقد نقش على أحد أبوابه:

ربي كما أصلحت لي في الأرض داراً عامرة

أرجوك بالتاريخ لي أصلح ديار الآخرة

وقد عمي في أواخر حياته فكانت ابنته وردة الشاعرة تكتب له نظمه وهي أديبة مدحت سليلة بيت العلم السيدة وردة اليازجية بأبيات أجابتها بقولها: (يا وردة الترك إني وردة العرب) وكانت متزوجة جرجس إندراوس الصوصة من دير القمر ولم تقف على شيء من منظومها.

[1] هي فئة إسلامية أغفلت جميع الكتب الدينية ما عدا القرآن الشريف فكانت أشبه بالطائفة الإنجيلية عند النصارى نسبت إلى زعيمها الأول محمد عبد الوهاب اليمني الذي أظهر دعوته سنة 1746م وتوفي سنة 1789م فتبعه كثير من العرب وامتدت دعوته بينهم فثاروا مراراً بقيادة أميرهم سعود وكان من ألد أعدائه الشيخ غالب شريف مكة المكرمة ولما توفي سعود سنة 1814 خلفه ابنه عبد الله فأظهر العصيان وكثر الاضطراب فقلق الحجاج فناوشه ابرهيم باشا المصري وخضد شوكته مع أخيه فيصل فانتشر الأمان وعادت مياه الراحة إلى مجاريها.

فأطلعه سليمان باشا على تقليد (فرمان) ولاية الشام فترحوا إلى دمشق وخيموا في الجديدة ودارية فحاربهم يوسف باشا وانكسر بعد ثلاث ساعات ورجع إلى المدينة ونهب خزينة العسكر وسار إلى طرابلس ومنها إلى مصر مستصرخاً محمد علي[1] باشا أرومة الأسرة الخديوية الكريمة ليشفع له بالولاية فدخل سليمان باشا دمشق وأمامه الأمير بشير ورجالهما بإكرام فنال اللبنانيون حفاوة عظيمة في تلك المدينة وارتفع شأن بعضهم لدى الوزير ولا سيما طنوس شبلي المعلوف فإنه كان معروفاً في دمشق بدرايته وحزمه وهو الذي توسط أمر إعادة الحكم إلى صديقه الأمير جهجاه الحرفوش مراراً وكان سليمان باشا قد فوض إلى الأمير بشير اختيار العمال قبل زحفهم لحرب الوهابيين فاختار الأمير الحرفوشي لبعلبك ومصطفى بربر لطرابلس والملا اسمعيل لحمص وحماة وحسين آغا السركجي متسلم بيروت للاذقية فأنعم الوزير إذ ذاك على الأمير قاسم ابن الأمير بشير بولاية بلاد جبيل وعلى أخيه الأمير خليل بولاية البقاع.

وقبل سنة 1812م حدثت نزعة بين بعض فروع أبي فرح المعلوف في كفرتيه وبعض الأمراء اللمعيين في بسكنتة فحاول أحدهم يوسف بن الياس عماد المعلوف المكنى بأبي كشك قتل الأمير حيدر منصور اللمعي بإغراء بعض أنسبائه وكان ذلك الأمير يختلف إلى قرية عين القبو غربي بسكنتة التي مر وصفها في صفحة 178 فكان يوسف يتردد عليه مرة بعد أخرى إلى أن ذهب نسيبه بطرس فرح الذي كان ساكناً عين القبو إلى الأمير وحذره منه فحنق الأمير من يوسف المذكور واتخذ الحيطة لئلا يقع في أحبولة كيده فعرف أبو كشك ذلك فأضمر لنسيبه سوءاً

---

[1] هو المغفور له محمد علي باشا ابن ابرهيم آغا رئيس خفراء الشوارع في مدينة قواله من بلاد الروملي إلى غربي الآستانة العلية ولد سنة 1769م ولما بلغ الرابعة من عمره توفي والده فترعرع إلى أن بلغ أشده وتعاطى التجارة بمصر إلى سنة 1801م ثم ترأس الجند الألباني (الأرنؤوطي) وترقى إلى رتبة بكباشي ثم تولى الحكم سنة 1805م وفتك بالمماليك وقسم القطر المصري إلى أقاليم ومديريات وبنى القناطر الخيرية وأسس مطبعة بولاق وشيد مدرسة قصر العيني الطبية وغرس حديقة الأزبكية. وعلى الجملة فإنه واضع عمران تلك البلاد الزاهرة وتوفي سنة 1849م فخلفه ولده عباس باشا الذي توفي سنة 1854م ثم سعيد باشا المتوفى سنة 1863م فاسمعيل باشا الذي كان أول من نال لقب الخديوي والحكم الوراثي، ومن أعظم أعماله فتح ترعة السويس بأيامه فحشد أعظم ملوك الأرض لتدشينها في أواخر سنة 1869م وأنشأ المكتبة الخديوية ومتحف بولاق ونشر التمدن الأوربي فأصاب مالية القطر عجز بعهده أدى إلى استقالته سنة 1879م فخلفه محمد توفيق باشا وأنشأ المدارس وعزز القطر إلى أن توفي سنة 1891م فتولى ولده صاحب السمو عباس باشا الخديوي الحالي وهو مثل أسلافه اشتهر بإخلاصه للدولة العلية أيدها الله وأطال بقاءه.

وقصده في إحدى الليالي فرماه بالرصاص من نافذة وهو يصطلي على كانونه فوقع جديلاً مخضباً بدمه وكان لبطرس المذكور أخ يسمى القس جرجس المعلوف من الرهبنة السمعانية التي أنشأها البطريرك أغناطيوس صروف كما مر في صفحة 202 وكان هذا القس نافذ الكلمة عند البطريرك كاتماً لأسراره وكاتباً لديه فشق عليه قتل أخيه فرفع أمره بواسطة البطريرك إلى الأمير بشير الكبير فقبض على القاتل وزجه في السجن. أما الياس عماد أب القاتل فتضرع إلى البطريرك أن يتوسط أمره عند الأمير فيدفع دية القتيل فسلمه البطريرك كتاب وصاة إليه فحمله وشخص إلى بيت الدين مقر ولاية لبنان إذ ذاك، وكان الأمير الحاكم قد أصدر أمره بإعدام يوسف القاتل، فلم يستطع أن يغير كلامه لأنه كان حازماً، فلما اطلع على رسالة البطريرك عجل بتنفيذ الحكم فعلقه في تلك الليلة، ولما أصبح الصباح تراكض الناس حسب عادتهم لمشاهدة المشنوق الذي كان يعلق بضعة أيام عبرة للناس ليحاذروا اقتراف الجرائم ولا سيما القتل فشاع الخبر في البلدة وعرفه أبو يوسف المذكور ولا تسأل عن حالته عند رؤيته ولده معلقاً ميتاً فتفتت قلبه لوعة وتقرح جفنه بكاء. وعاد من فوره إلى كفرتيه وفي نفسه ما فيها من الأسى الشديد والاعتقاد بأن نسيبه القس جرجس الذي سعى بولده لدى الأمير وكتب كتاب الوصاة وختمه بختم البطريرك فشنقه ولم يرَ من البطريرك ما يغير هذا الظن إذ لم يستدعه ولا أخبره الحقيقة ولا عرف من بيت الدين أن الأمر كان صادراً قبل ذلك بإعدام ولده فاستولى عليه القنوط وأوغر ذلك صدره حنقاً وغيظاً.

فقام من فوره بأولاده الأربعة وسار إلى قرية بوديه في بعلبك فلبث فيها زمناً، ولكنه استيقظ إحدى الليالي وثار ثائر حزنه فلم يقوَ على إخماده فاتفق مع بنيه أن يذهبوا إلى دير القديس سمعان العمودي ويفتكوا بنسيبهم القس جرجس تشفياً واستثآراً. فلما وصلوا كفرتيه متنكرين بلغ نسيبهم القس المذكور قدومهم فبعث إلى الأمير يشكوهم فعرفوا نيته فاغتنموا فرصة في السادس من شهر تشرين الثاني من تلك السنة 1812م ولاقوه على الطريق بين دير القديس سمعان العمودي ودير سيدة النياح للراهبات ظانين أنه سائر مع البطريرك فوجدوا معه القس يوسف أبا حاطوم المعلوف من فرع أبي مدلج من قرية حافة المنازيل الواقعة شرقي ذلك الدير الذي كان رئيساً له والياس منعم المعلوف من زبوغة من فرع أبي عيسى، فلم يتمالك الياس عماد وأولاده أن أطلقوا النار على البطريرك إرواء لغليل حقدهم المضطرم فوقع قتيلاً ففروا من فورهم إلى اسكلة طرابلس الشام ومنها إلى جزيرة

قبرص فتحامل الأمير ومدبره بطرس كرامة على بني المعلوف في كل جهة وصادرهم بالمال وشدد عليهم العسف وأرسل الأمير درزياً من الشوف إلى قبرص فاحتال على القاتلين وأرجعهم إلى رأس الشقعة فوق البترون ثم تركهم هناك وأقنعهم أنه آت لأخذ عياله والسكن في بلاد بعيدة عن ظلم الأمير ولما فارقهم تنبهوا إلى خديعته ففروا إلى تنورين فقبض عليهم بعض سكانها لعداوة كانت بينهم وبين المعلوفيين في دومة فأرسلوا إلى بيت الدين فشنقوا جميعهم مع والدهم وأسماؤهم فياض وعماد وموسى وطنوس. أما جرجس أخ الياس فكان قد دخل الرهبنة الشويرية وسمي تيموتاوس ثم باسيليوس فتحامل الأمير عليه وطلب قتله ففر إلى القصير (قرب حمص) وتوفي هناك خارجاً عن الرهبنة كما ذكر في سجلها.

وسنة 1814م كان أبوملحم ابرهيم أبو عقل المعلوف من فرع أبي مدلج نائماً على بيادر قريته بيت شامة وقيل نيحة قرب الطريق وبجانبه فرسه مقيدة، وكانت من الجياد الكريمة فمر بعض عرب اللهيب الموصوفين بالسرقة وحاول أن يسرقها فلم يستطع ولكنه اكتفى بأخذ سرجها المتقن فأحس أبو ملحم بالسارق وهو يركض فتأثره ورأى معه بعض رفاقه حتى وصل إلى وادي الدم (سميت بذلك لموقعة دموية) على مسافة من القرية فاستوقفهم فلم يقفوا فطلب منهم رد السرج فأبوا، ولما عيل صبره من أخذهم بالحسنى هجم عليهم فقابلوه بالمثل فانجلت الموقعة عن قتل أحدهم أبي مشعل قضيب، أما أخوه سلمان فبعد أن كاد يقع بأيدي أبي ملحم تمكن من الفرار بعد أن جرحه بيده. فنقل القتيل إلى شمسطار ودفن فيها. وأبو ملحم عاد إلى محله وبرئت يده، فلما نمي الخبر إلى عشيرة القتيل اللهيبيين الذين كان بعضهم في مرج حين من قضاء بعلبك والآخرون في محلة اللقلوق بصرود (جرود) كسروان ذهب بعض اللقلوقيين منهم إلى جبعة (التلة) وسبوا منها الولد الياس بشارة المعلوف من فرع أبي عسوس إذ كان خارج قريته ليسلموه إلى أنسبائهم في قضاء بعلبك، فلما علم المعلوفيون سار طنوس شبلي ببعض أبناء عمه فنهبوا منازل عرب اللقلوق وأسروا نحو أربعين وجاؤوا بهم إلى قرية شليفة (المرج) فاضطر العربان أن يأخذوا إليهم الياس الذي سبوه ويطلبوا الأمان ويعتذروا فردوا لهم الأسرى.

وسنة 1825م اشتد النفار بين الأمير بشير الكبير والشيخ بشير جنبلاط فأضعف الأمير شوكة الدروز وكان بنو القنطار[ق] منهم في زحلة والبقاع يعيشون

[ق] وهم يسكنون اليوم في قرية داما (التابعة لمحافظة السويداء)، مسقط رأس المعلوفيين في حوران. ويقال بأن كل سكان هذه القرية من بني القنطار، ويوجد من هذه العائلة في قرية عرى في السويداء (المحقق).

فساداً فأمسكوا يوسف فرحات المعلوف قرب اللج سنة 1826م وأوقعوا بضاهر حجيج الزحلي وقتلوه سنة 1828م بينما كان عائداً من دمشق فثار الزحليون وساروا إلى بعلبك والبقاع وقتلوا بعض بني القنطار فلم يتغير خاطر الأمير عليهم كدراً بل حرضهم على الاقتصاص منهم فأوقعوا بهم واشتهر بهذه الموقعة يوسف الحاج شاهين[1] وابرهيم مسلم وكانا شيخي البلدة واختلفا مع الأمير بشير فصالحهما مدبره بطرس كرامة وقد كان للمعلوفيين اليد الطولى مع الزحليين بإخراج بني القنطار وقد اشتهر منهم إذ ذاك نجم وولده بطرس من فرع أبي مدلج وفرح وابن عمه جرجس طرزة (أو تريزة) من فرع أبي فرح فاستأصلوا شأفتهم من البلدة وخربوا حيهم (حوشهم) الذي كان قرب مأوى (أنطوش) دير القديس أنطونيوس للطائفة المارونية وكذلك تأثروهم فأخرجوهم من البقاع وبعلبك بمساعدة بني شبلي المعلوف في شليفة ففر بعضهم إلى لبنان وقد ذهب البعض الآخر إلى حوران وسكنوا دامة العليا التي كانت للمعلوفيين تشفياً منهم لأنهم كانوا من أشد المتحاملين عليهم في زحلة والبقاع، ولن يزالوا في دامة إلى يومنا.

وفي أواخر سنة 1829م عصى النابلسيون ولا سيما آل طوقان[2] وجرار وبرقاوي وعبد العال ودحيش وأبو غوش وغيرهم في قلعة سانور[3] وكان زعيمهم

---

[1] جد هذه الأسرة هو ابرهيم الحنا النصراني قدم من قرية كفرهم قرب مدينة حماة إلى قرية ترحين في أرض حوش الأمراء قرب زحلة ومنها اشتهر فرعان أحدهما باسم الحاج شاهين والآخر باسم السكاف، وهذا نشأ منه نصر وعيسى وجميعهم سكنوا زحلة وبعض قرى البقاع ومن عيسى هذا نبغ الخوري جرجس عيسى الراهب الشويري الشاعر الذي له في المدرسة البطريركية البيزوتية يد تذكر فتشكر وقد كتبت ترجمته في مجلة المشرق 9:494 وانتخبت بعض منظوماته من ديوانه المخطوط بيده الذي أحرزه في مكتبتي ولد سنة 1827م وتوفي سنة 1875م.

[2] أصل بني طوقان مماليك قدم جدهم الأول إلى نابلس وقطنها وصار منهم متسلمون عليها من بعد وزراء الشام ومنهم صالح باشا حاكم بعلبك الذي مدحه عبد الغني النابلسي في أوائل القرن الثامن عشر ثم أسعد بك هذا الذي خدم الجزار وصار متسلماً على مدينة نابلس بزمن عبد الله باشا وهو الذي قبض عليه ابرهيم باشا وأرسله إلى مصر وكان بزمن العصيان منهم مصطفى بك وعبد الله بك ثم رضوان بك الذي أقامه ابرهيم باشا على صيداء حين قدومه لفتح عكاء ومنهم الآن بشير بك.

[3] وصفها روبنصن وسمث لما زاراها على إثر هذه الحرب (2:313) بما تعريبه: «سانور قرية فيها حصن على تل صخري مستدير وطريقه من الشمال الغربي صخرية واطئة تربطه بالتلال المتصلة به وكان هذا الحصن منيعاً اعتصم فيه مشايخ نابلس فحاصرهم الجزار مراراً ثم عبد الله باشا سنة 1830 وبمعاونة عسكر الأمير بشير اللبناني فتحها بعد حصار نحو أربعة أشهر فقطع كل أشجار الزيتون وترك القرية قاعاً صفصفاً وسكانها قليلون يسكنون الكهوف وهي حديثة والسهل إلى شرقيها جميل بيضي الشكل أو مستدير محاط بتلال متضارسة بديعة تربتها سوداء خصيبة ومياهه تترقرق في الربع الجنوبي منه فترويه وتجتمع في الشتاء بحيرة. وفي القسم الشمالي

أسعد بك طوقان والشيخ قاسم الأحمد الجزار، فلم يدفعوا الأموال الأميرية لعبد الله باشا وزير عكاء فحاصرهم و لم يظفر منهم بطائل بل كادت جيوشه ترجع خاسرة فاستصرخ بالأمير بشير أن يرسل إليه ألفي مقاتل فجمع من مقاطعاته ذلك المطلوب في اليوم الثالث من افتتاح سنة 1830م وسار بهم وبينهم من المعلوفين نحو مائة فارس وسبعين راجلاً في مقدمتهم الياس هاشم وطنوس شبلي الشهيران من فرع أبي عيسى فسار الأمير بالعسكر إلى عكاء فالناصرة ثم جاء إلى قرية جنين فأقبل على سانور واستقبله عسكر الوزير فلما رآهم النابلسيون الذين خارج القلعة تجمهروا مع ثلاث مائة فارس من العرب ومنعوا العسكر عن الاستقاء من بعض الينابيع المجاورة، فوثب عليهم المتنيون (سكان المتن في لبنان) وفي طليعتهم الياس هاشم وطنوس شبلي المذكوران وكثير من المعلوفيين مثل طنوس مخايل المعلوف من كفر عقاب من فرع أبي عيسى أيضاً ومتري بن يوسف أبي نجم المعلوف من كفر قطرة من فرع أبي فرح، فهزموهم إلى قريتي عرابة وعجة طولوزة فاعتصموا بهما فحاصرهم فيهما رجال الأمير وظفروا بهم وقد أبدى أبو سمرة غانم[1] من بكاسين

الذي يعلو عن السهل تزرع الأرض وهناك محل يسمى في الشتاء مرج الغرق لكثرة وحوله وحول تخومه الجنوبية والشرقية قرى عديدة وعلى مقربة منها جباع وهي قرية كبيرة في وادي فندكومية على منحدر سلسلة من التلال. وهناك برج وعلى سفح التلة الينبوع الذي سيذكر في أثناء الحادثة وحوله أشجار الزيتون. وفي الوادي طريق حجري ضيق يصعد به إلى سانور وبين ينبوع جباع وسانور نحو ساعة ونصف على الفارس. اهـ». ولقد مر في الصفحة 205 أن الشيخ محمد الجزار هو الذي حصن سانور فارتد عنها عثمان باشا والي دمشق والأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان ودهمها الجزار سنة 1794م وحاصر بذاته الشيخ يوسف الجزار فعجز عن فتحها فوضع لها لغماً من البارود انفجر على عسكره وقتل كثيرين منهم واضطره السير إلى الحج أن يتركها. وسانور وعين جباع هما اليوم قائمية مقام جنين التابعة لمتصرفية نابلس (بمعنى المدينة الجديدة) وهو اسم روماني لمدينة شكيم (منكب) التي سميت سوخار (السكر) وعدد سكان نابلس نحو عشرة آلاف منهم مائتان من السامريين والباقون نصارى وهي بين جبلي جرزيم (الطور) أو جبل البركة الذي يعلو 2849 قدماً عن سطح البحر وبين جبل عيبال (ستي سلامية) وهو جبل اللعنة وعلوه عنه 3076 قدماً نبغ منها علماء أشهرهم الشيخ عبد الغني النابلسي الشاعر المشهور المتوفى سنة 1730م.

[1] ينتسب بنو غانم إلى موسى غانم ابن المقدم سمعان اللحفدي جاء بعض أحفاده إلى جورة بدران (كسروان) في مطلع القرن السابع عشر ثم تفرقوا في غبالة وعجلتون والقليعات وبسكنتة وبيروت وبكاسين وغيرها أما الذين في بسكنتة فهم من أنسباء بني كرم الذي مر ذكرهم صفحة 179 ومنهم نشأ الدكتور حبيب الخوري المتوفى سنة 1896 وأولاده في زحلة والذين في بيروت اشتهر منهم خليل غانم وأخوه شكري أفندي الشاعر المشهور باللغة الفرنسية والذين في بكاسين أشهرهم أبو سمرة هذا الذي توفى سنة 1895م وأولاده الذين منهم العالم الأب سليمان اليسوعي.

(بيت الكؤوس) شجاعة تذكر في تلك الموقعة أما الياس هاشم وطنوس شبلي المعلوف المذكوران فحميا مع أبناء عمهم وكثير من أبطال اللبنانيين عين جباع فلم يستطع النابلسيون أن يستقوا ماء فضويقوا ولكنهم ثبتوا في الحصار فأرسل الأمير بشير إلى الأمير حيدر اسمعيل اللمعي أن يجمع عسكراً آخر من البلاد فجمعه وكان فيه بعض المعلوفيين منهم هيكل شعيا بدر من فرع أبي عيسى وغيره فوصلوا على أثر فتوحها. وفي تلك الأثناء احتدمت نيران القتال ففر النابلسيون إلى قلعة سانور وشدد اللبنانيون حصارها وكان شجعاهم يحموهم من هجوم النابلسيين وجرت أمام القلعة مناوشات عديدة عادت على النابلسيين بالخسارة والفشل ولما اشتد الظلام كانت النابلسيات يغمسن الدثر (اللحف) بالزيت ويشعلنها ويطرحنها خارج القلعة لينظر رجالهن عسكر الأمير ويطلقوا عليه الرصاص. واشتهر بهذه الموقعة الشيخ ناصيف نكد من دير القمر وقد أبدى مخايل جدعون[1] من كفر قطرة بسالة تشكر فأصاب الرصاص رجله ولم تلبث القلعة أن فتحت عنوة بعد حصار شديد نفذت فيه ذخائر النابلسيين وخارت قواهم فطلبوا من الأمير الصلح، فأنفذ إليهم أحمد بك (باشا) اليوسف[2] الذي كان يرافقه في هذه الحملة وأنفذ النابلسيون حسين عبد الهادي من زعماء ثورتهم فتم الصلح على شرط أن يهدم الثائرون القلعة ويسلموا أسلحتهم لعبد الله باشا فذبل عنفوان مجدها بعد أن احتملت حصار ثلاثة أشهر فدكت أبنيتها حتى أسسها وعطلت آبارها ومغاورها وغشي عبد الله باشا مدافعه بجوخ أحمر إشارة إلى فتحها. وعاد الأمير بعسكره ظافراً ولم يدخل عكاء لأن الطاعون قد فشى فيها فلاقاه اللبنانيون بموكب عظيم

---

[1] كان مخايل هذا وأخوه لحد من بكباشية الأمير بشير الشهابي واشتهرا ببسالتهما ونالا منزلة كبيرة في أيامه أما مخايل فقطعت رجله في هذه الموقعة ولقب بأبي عراج وأجازه الأمير براتب إلى أن برح لبنان فأخذه معه إلى الآستانة وتوفي سنة 1845م فيها عزيباً وكان خليل بن متري أبي نجم المعلوف قد تزوج بمريم ابنة أحدهما، ولم تكن منزلته عند الأمير بأقل منهما كما سيجيء. ومن سلالة لحد رفعتلو ملحم بك لحد من وجهاء كفر قطرة لعهدنا.

[2] هو ابن محمد بك اليوسف مفتي ديار بكر الذي ينتمي إلى قبيلة كردية تعرف بالشياخنة قدم محمد دمشق واشتهر فيها بتجارة الأغنام فأثرى ثم اتصل ولده أحمد بك بخدمة الأمير بشير الشهابي فكان معتمده في الشام فأقطعه بجدل عنجر وعيتنيت في البقاع وسافر معه إلى مصر واشتهر بدرايته ثم عاد فنصب متسلماً في الشام ثم متصرفاً لحماة وعرف بإخلاصه للدولة العلية فأسندت إليه منصب محافظة ركب الحج الشريف ثم تقلد مناصب أخرى إلى أن توفي سنة 1862م. واشتهر ولده محمد باشا متصرف حوران وحماة وطرابلس المتوفى سنة 1897م ومن أولاده حضرة صاحب السعادة عبد الرحمن باشا محافظ ركب الحج المشهور.

إلى صيداء وهنأوه بالظفر. وقد منح الأمير بعض بني حمادة في بعقلين لقب المشايخ لأن أسعد بن حسين قتل في الحصار قدامه. وكان أبوه صاحب شرطته ومعه من بني عمه حسين قويدر، وأخوه واكد، فنالوا جميعهم هذا اللقب دون غيرهم وجعل لهم يداً على قريتهم وهم فيها إلى اليوم.

ومما يستحق الذكر أنه كان في داخل القلعة أكثر من ألف ومائتي نسمة منهم من مشايخ بني الجرار اثنان وأربعون فعند تسليمها لم يبق منهم سوى 367. أما الباقون فقتل بعضهم وهرب الآخرون وقد قتل من عسكر الأمير بشير سبعة وثلاثون رجلاً من فورهم وأحد عشر بعد جرحهم وبرئ من المجاريح مائة وخمسة وممن قتلوا حنا الشنتيري من بكفية. ولقد قال عبد الله باشا لمشايخ بني الجراد العاصمين: أما تعلمون أن عسكر الأمير بشير أهالي جبل لبنان مدربون بالحرب والكفاح وأميرهم ما سار في مهمة إلا وكان النصر حليفه. أما سمعتم ما جرى بموقعة المزة وكيف اقتحم السور بفرسانه وأحرق البلد. أما علمتم بفتكه بعسكر درويش باشا ثم عدد لهم المواقع التي أبلى فيها رجال الأمير بلاءً حسناً فوقع الرعب في قلوب المشايخ وطلبوا العفو. ومما يدل على عزة المعلوفيين وإبائهم أنه في سنة 1831م كانت مريم ابنة شبلي المعلوف شقيقة طنوس وعيسى إلخ مقترنة برزق مخلوف من مزرعة كفر دبيان فرزقت ثلاثة أولاد هم فارس وأسعد وموسى وابنة اسمها نجمة، فاشتهروا مع والدهم بقوتهم الجسدية وسطوتهم وبعد وفاة والدهم ذهبوا إلى أخوالهم في شليفة فأعطوهم القعقعية بين هذه القرية وبوديه فسكنوها وكانوا يعيثون فساداً واتصلوا إلى إهانة بعض الأمراء الحرافشة وهم في إبان مجدهم، فكثر شرهم فلم يرض أخوالهم بأعمالهم هذه. ومما يروى من حوادثهم أن أحدهم فارساً قتل أخاه موسى لأنه رأى عليه دلائل الجبن والخوف، فكثرت التشكيات منهم واتصلت بالأمير بشير المالطي الكبير، فأرسل خمسين نفراً من البكباشية بقيادة الشيخ يونس حبيش وبعث الأمير يحرض أخوالهم على إعدامهم وأظهر استياءه من أعمالهم فجاء رجاله إلى كفر عقاب وشليفة وصادروا المعلوفيين حتى أبرموهم وقبضوا على ثمانية منهم وسجنوهم وهددوهم، فاستاؤوا لذلك واتخذوا جميع الطرق لدفع شرهم بالحسنى فلم ينجحوا. فقام الياس هاشم وكنعان وطنوس ولدا شبلي وشبلي بن طنوس من فرع أبي عيسى أما أبو شبلي فكان مريضاً على إثر سقطة عن جواده. ورافقهم متري ابن الحاج متى المعلوف من فرع أبي كلنك وكان في السعيدة. واقتفوا آثار فارس وأخيه أسعد إلى أرض تدمر فلم

يجدوهما فعادوا إلى شليفة وأخذ الياس هاشم عهداً من أبناء عمه أبي شبلي وأخوته أن لا يطالبوه بدمهما وعاد مع شبلي والحاج متري إلى وادي فعرة[1] حيث كانا هناك في محلة عين الحمام فلما رأياهم خرجا لمقاتلتهم وأطلقا النار على ابن خالهم شبلي وكان في مقتبل عمره فقتل جواده وسقط على الأرض وكاد يقع بين أيديهم فبادره الياس هاشم وأنقذه وأخذ يقنعهما بأن يسلما وهو يشفع بهما عند الأمير فلم يحل منهما بطائل بل أعادا الكرة عليهم فأطلق الياس المذكور الرصاص على فارس فسقط قتيلاً فقطع رأسه ووضعه في مخلاة ورمى جثته في بئر هناك وعادوا. أما أسعد ففر إلى جوار حمص ونسله فيها إلى اليوم ولكن والدهما مريم وشقيقتهما نجمة زاد شرهما وتطاولهما على أنسبائهما بعد قتل فارس فاضطر أخوتهما إلى إحراقهما بالنار تخلصاً من شرهما وحمل كنعان رأس ابن شقيقته فارس إلى الأمير بشير مصحوباً بكتابة من أبي شبلي فأطلق الأمير سراح الثمانية المسجونين منهم وشكرهم على إبائهم بكتابة خاصة.

وسنة 1833م بعث ابراهيم باشا المصري بأمر إلى الأمير بشير الكبير أن يرسل ولده الأمير خليلاً بألفي مقاتل إلى طرابلس ليجتمع هناك بسليم بك (أحد قواد المصريين) ثم يسير لتأديب العكاريين والحصنيين والصافيتيين فذهب وقبض على كثير من العصاة في طرابلس وعكار وكثير من الأعيان وجرت بينهم جملة مواقع. وبعد أيام أرسل الامير بشير إلى ولده المذكور نجدة أكثر من خمس مائة مقاتل من زحلة وبسكنتة وكفر عقاب وفيهم المعلوفيون، ولما وصلوا إلى جسر نهر السن مقابل تلك البلاد على بعد من طرابلس الشام وجلسوا للطعام على حافة ذلك النهر، رآهم النصيريون من أهل الطروطة وبيت ياشور والقراضة وكانوا كامنين مقابلهم ورابطين الجسر، فلم يدر اللبنانيون بهم حتى أطلقوا عليهم النار وفاجأوهم فقتلوا كثيراً منهم وانذعروا من فورهم فتأثرهم بعض فرسان النصيرية وعملوا السلاح في أقفيتهم إلى أن وصل أحدهم إلى نقولا القن المعلوف من فرع أبي مدلج من كفر عقاب وأدركه في مضيق لم يجد منه مهرب[ق] فانثنى نقولا على ذلك

---

[1] وادي فعرة يبعد عن حربتة نحو ساعتين إلى الشمال (وحربتة على بعد ثلاث ساعات من مدينة بعلبك) وفيه غابات كثيفة وهو إلى الغرب الشمالي من بعلبك يوجد في طرفه بئر عميقة وإلى شرقيه على بعد ثلاث ساعات الطريق بين بعلبك وحمص وكثيراً ما كان هذا الوادي مكمناً للصوص ومخبأ للفارين وهو موحش مقفر يوقع الرعب في قلب المقبل عليه.

[ق] هكذا جاءت في النسخة الأصلية، والأصح مهرباً (المحقق).

الفارس وبادره بضربة حسام قطعت قوائم جواده فسقط الفارس على الأرض فقتله وأشار على مواطنيه اللبنانيين أن يهجموا على الأعداء وسار في مقدمتهم فانثنوا على من أدركوهم وردوهم على الأعقاب وأثخنوهم جراحاً ثم استأنفوا المسير راجعين إلى أوطانهم وقتل منهم نحو مائة ولولا إعادتهم الكرة عليهم وإبعادهم إياهم عنهم لقتلوا منهم أضعاف هذا العدد و قتل من أهل زحلة نحو ستة و عشرين نفراً (وقيل نحو عشرين) ومن أهل بسكنتة عشرة ومن النصيرية ستة. ثم استأنف اللبنانيون الكرة عليهم بعد اندحارهم ونهبوا نحو خمسين من قراهم وأحرقوهم وعاثوا في بلادهم وغنموا كثيراً منهم.

وسنة 1840م سار الشيخ أبو علي بشير حمادة من بوديه (بعلبك) هو وخمسة من أتباعه يصطادون على حجل في دار الواسعة بين اليمونة وشليفة في محلة الشعراء قرب مراحات (مرح) الجعافرة وكان سعد بن جرجس شبلي المعلوف من فرع أبي عسوس في شليفة يصطاد هناك فرأى الحجل من بعيد يزقزق فرماه وقتله ظاناً أنه من الحجال الأبدية (البرية) فتكدر الشيخ بشير. وبعد عدة أيام عاد ليصطاد فرأى أحد رعاة الخيل من شليفة في تلك الجهة فأوسعه ضرباً وشتماً هو ورجاله بحجة أن خيله داست الأشراك التي نصبها للحجال. فنمي الخبر إلى المعلوفيين في شليفة فسار بعضهم وفي مقدمتهم قبلان بن صليبي شبلي وابن عمه طنوس بن جرجس شبلي المعلوف، فلما رآهم الشيخ مقبلين عليه أطلق عليهم النار فأصاب ركبة طنوس وانهزم في وادي فلاوي المعروف للآن بوادي بيت ناصيف فقابله قبلان بالمثل فأصاب كتف الشيخ بشير وهو فار فوقع صريعاً وفر رفاقه فقبض المعلوفيون على الشيخ المذكور وجاؤوا به إلى شليفة مهاناً على قصد أنه إذا مات طنوس على أثر جرحه يقتلونه وألا يطلقون سراحه، فتكدر ابن عمهم شبلي بن طنوس المعلوف من عملهم هذا ولاقاهم وأخذ الشيخ أبو علي من أيديهم وأنزله في بيته واستدعى له ابن عطية الطبيب فعالجه ولكن المشايخ الحماديين جمعوا من قومهم نحو ألفي رجل ونزلوا في بوديه. وفعل بنو المعلوف مثلهم فاجتمع عندهم من أنسبائهم في شليفة أكثر من ذلك وكان عيسى شبلي في كفر عقاب فحضر مع أبناء عمه وحمل ثلاثة بغال بارودا ورصاصاً وصواناً (لأن الكبسول لم يكن قد عرف فكان الزناد (الديك) من فولاذ وصوان).

وجاء الأمير حمد الحرفوش حاكم بعلبك وبعض أنسبائه والأميران حسن وفارس أخوا الأمير حيدر اسمعيل اللمعي الذي كان بنو شبلي من عهدته وذلك

لمصالحتهم فشفي الجريحان وانتهت المسألة بالحسنى ولكن الحرافشة كانوا يقصدون خداع المعلوفيين فاكتشف مكرهم عيسى شبلي المعلوف وقد ألمع إلى هذه الحادثة صاحب تاريخ أخبار الأعيان في صفحة 121 بقوله:

«ثم بلغ الشيخ رشيد غالب الدحداح[1] الذي أنفذه الأمير بشير الشهابي إلى زحلة ليحذر أهلها من مشاركة جهلة اللبنانيين أن بعضاً من المشايخ الحمادية قد اجتمعوا عند جريح لهم عند إحدى قرى بعلبك فظن أن اجتماعهم للتحزب فسلو إليهم بحجة عيادة الجريح اهـ». وفي ربيع سنة 1840م ثار سكان لبنان ضد الدولة المصرية التي نوت أخذ جنود من لبنان وتقاضت السكان أموالاً أميرية كثيرة وأبرمتهم بالتسخير لحفر الفحم في قرنايل من قضاء المتن وحمله إلى بيروت واستعادت أربعة آلاف بندقية كانت قد أعطتها للنصارى وحجزت الصابون. واستبد حكمدار سورية شريف باشا بأحكامه فلم يعف عند طلب العفو فقد قتل الأمير جواداً الحرفوش الذي توسط أمره لديه الأمير بشير الكبير وطلب منه العفو عنه فلم يرعو بل قطع رأسه وكان ابرهيم باشا أرأف منه ولكنه كان مع هذا صارماً سريع الانتقام بقر بطن جندي في نبع بقليع فوق المتين في لبنان لأنه تعدى على امرأة وأكل لبناً كانت تحمله و لم يعطها ثمنه وقتل بعض المقربين منه لوشاية كما فعل بنعمة الله نوفل[2] الطرابلسي وهدد أعيان سورية[1] وله مع ذلك حسنات

---

[1] ينتسب هؤلاء المشايخ إلى جرجس الدحداح صهر غزال القيسي الماروني مقدم العاقورة ومنه نشأ الشيخ يوسف ابن الخوري جرجس الذي حل في مشيخة تلك البلدة محل مالك ابن الغيث القيسي فنازعه إياها الشيخ عماد الهاشم العاقوري اليمني الذي كان الحماديون يعضدونه فترك يوسف بلدته واتصل بطرابلس ثم انتقل سنة 1702م إلى خدمة الأمير حسين الحرفوش حاكم بعلبك وعاد على إثر ذلك إلى فتوح كسروان مدبراً للشيخ اسمعيل حمادة فأقطعه عقارات وتوطن عرامون في أوائل القرن الثامن عشر ومنه نشأ الكونت رشيد غالب هذا الذي اشتهر في فرنسا بآدابه وتجارته وله بعض المؤلفات ورسالات وطبع بعض الكتب المفيدة وتوفي سنة 1889م ومنهم المطران نعمة الله أسقف دمشق المتوفى سنة 1890م والشيخ خطار وولده صديقي الشيخ سليم وغيرهم ممن اشتهروا بالآداب وخدمة الحكومة.

[2] اشتهر بنو نوفل في مدينة طرابلس الشام منذ القديم وكان نعمة الله هذا منشئاً في ديوان المغفور له محمد علي باشا الخاص وقد استقدم إليه ولده نوفلاً المشهور فدرس اللغة العربية والتركية في مدارس مصر التي أنشأها محمد علي وعاون أباه في قلم التحريرات في الديوان الخاص وبعد سنة 1850م كان كاتم أسرار لأمين أفندي الذي قدم لمسح جبل لبنان وله مؤلفات بديعة من أشهرها صناجة الطرب في تقدمات العرب وسياحة المعارف وغيرهما. توفي سنة 1887م ومنهم المرحوم عبد الله نوفل الذي تولى بعض الشؤون في متصرفية لبنان وقد نظم بعض قصص الكتاب المقدس أغاني بكتاب مطبوع ليحفظها الأولاد. ومنهم المرحوم سليم دي نوفل المشهور في روسيا بمؤلفاته. ومن وجهائهم الآن عزتلو قيصر بك في طرابلس وغيره.

كثيرة فإنه عمم في سورية زراعة التوت ونشط الصناعة وروج التجارة وقرر حق التملك وأدخل زرع الأرز والنيل ودودة القرمز وحفر بعض المعادن واستخرج الفحم الحجري من مناجم قرنايل وغيرها وأدخل الإفرنج إلى البلاد، ولكن كل هذا لم يؤثر بالسكان تأثير الضرائب والتسخير وغيره لأنهم لم يروا ثمرة إصلاحياته دانية القطوف كما رأوا تحميلهم المغارم معجل التنفيذ فما جاء شهر أيار من تلك السنة حتى اتحد اللبنانيون على مناصبة المصريين عملاً بالطاعة لدولتنا العثمانية الأبدية القرار فاجتمع شملم وقرروا انقسامهم إلى أربع فرق (كاشات جمع كاشة ومعناها الجند والعسكر المجتمع) الفرقة (الأولى) من سكان دير القمر وما يليها في الشوف وذلك من الغرب الأعلى والجرد والشمال ومن إقليم جزين تجاه مدينة صيداء لصد من يناهضهم من العساكر المصرية في تلك المدينة وكان يناصرهم الأميران فارس ابن حسن علي الشهابي وابن عمه الأمير قاسم من وادي شحرور في الساحل والشيخ غسان الخازن من كسروان (والثانية) من الساحل بقيادة أبي سمرا غانم البكاسيني وأحمد داغر المتوالي من برج البراجنة فانضم إليها سكان الشويفات والغرب الأسفل والساحل وبعض المتنين من مسيحيين ودروز وبعض سكان قاطع بيت شباب وكسروان فتجمهروا في سهل صنوبر بيروت ليقفوا في وجه من يخرج منها من المصريين لمناصبتهم. وكان سر عسكر اللبنانيين الشيخ فرنسيس أبو نادر الخازن الكسرواني و لم يكن أهلاً للقيادة ولكنه عضد بكل من الأمير يوسف ابن الأمير سلمان الشهابي وبعض ذوي قرباه من ساحل بيروت والأمير علي ابن الأمير أحمد قائدبيه وبعض أنسبائه وانقسمت هذه الفرقة قسمين أحدهما في سهل الصنوبر كما مر والثاني عند جسر نهر بيروت تجاه المحجر الصحي (الكورنتينة) وتولى شؤونها يوسف الشنتيري من بكفية فكان هو وأبو سمرا المذكور مدبري هذه الفرقة ومقدميها (والثالثة) في ضواحي زغرتة (سريانية بمعنى الصغيرة) مؤلفة من سكان غزير وضواحيها وبعض أهل الفتوح وبلاد جبيل والبترون والجبة

---

(1) لما تغير ابرهيم باشا على بكوات عكار اجتمع أحدهم عوض بك الأسعد المرعبي بأحد أمراء الآلايات المصريين في سوق العقادين في طرابلس الشام فكتب أميرالالاي يهدده معرضاً بقول عنترة مدعياً أنه يريه حسن خطه:

لي النفوس وللطير اللحوم وللوحش العظام وللخيالة السلب.

فكتب عوض بك بيتاً من القصيدة وقال انظر حسن خطي وهو:

إن كنت تعلم يا نعمان أن يدي   قصيرة عنك فالأيام تنقلب

والكورة والزاوية ليمنعوا من يخرج إليهم من المصريين في طرابلس وكان معهم الشيخ يوسف حمزة حبيش من غزير والشيخ شمسين الخازن من عجلتون والشيخ زعيتر الدحداح من الفتوح وبعض أنسبائهم ومشايخ الجبة والحمادية وآل رعد من الضنية (والرابعة) أهل المتن وبكفية والقاطع وبسكنتة وكفر عقاب وضواحيها وجرود وكسروان تجمهروا في آخر الجبل ناحية البقاع وزحلة وانضم إليهم الأمير خنجر الحرفوش فاجتمع شملهم في آخر لبنان لجهة البقاع وزحلة لصد من يأتي من المصريين من ناحية دمشق وحمص وضواحيهما وكانت بقيادة الأمير علي قائدبيه والأمير خنجر الحرفوش وأخوه الأمير سليمان وبعض أنسبائهم وكان فيها كثير من المعلوفيين مثل شبلي والياس هاشم وابراهيم عيسى (الخوري) وأبناء عمهم من فرع أبي عسوس وبطرس نجم وبعض أبناء عمه من زحلة وأبو شديد عقل وأخوه أبو ملحم ابرهيم من بيت شامة في بعلبك وبولس باز وغيرهم من كفر عقاب وجميعهم من بني أبي مدلج. وضاهر أبو يعقوب والحاج متري وأخوه يوسف ولدا ميّ وبعض أنسبائهم من بلاد بعلبك ويوسف كمال من المحيدثة وبعض أنسبائه وجميعهم من فرع أبي كلنك فكانت هذه الفرق تناوش المصريين القتال. وقدم عثمان باشا المصري من حلب إلى بعلبك بثمانية آلاف نفر من الجند المصري النظامي لمواقعة ثائري المتن فانحدروا إليه من المريجات إلى السهل بقيادة الأمير منصور أبي اللمع فحدثت بينهم موقعة هائلة قرب شتورة (البقاع) فأبدى المتنيون بسالة عظيمة واشتهر كثير منهم بالثبات في المعترك الذي حمي وطيسه وزهقت فيه الأرواح وسالت الدماء ولا سيما المعلوفيون المذكورة أسماءهم وغيرهم من أنسبائهم وقتل منهم نحو مائة وعشرين فيهم عدد من بني المعلوف مثل يوسف كمال من المحيدثة فاندحروا أخيراً ولحقهم المصريون فاقتفى عثمان باشا أثرهم إلى أن دخل المتن وجمع السلاح ومما يروى أن بولس باز المعلوف من كفر عقاب (وهو جد المؤلف لأمه) حانت منه التفاتة وهو فار من وجه العسكر المصري فرأى أحدهم يراود امرأة سورية كانت في حالة النزاع بين القتلى فتأثر من فظاظته ورماه بالرصاص فأطار رأسه.

وكان محمد علي باشا قد طلب من الأمير بشير أن يستوقف اللبنانيين فاشترطوا عليه شروطاً كثيرة أهمها ألا يدفعوا إلا مالاً واحداً. وأن يرفع بطرس كرامة من الديون. وأن يضع في ديوانه اثنين من كل طائفة. وأن يمنع التسخير وحفر المعدن وأن يبقي لهم السلاح إلخ. فلم يقبلوا بذلك وكان المستر ريتشارد

وود أحد تراجمة سفارة إنكلترة في الآستانة العلية قد جاء لبنان لمساعدة سكانه على المصريين وتعلم اللغة العربية وشافه السكان وأخذ منهم عرائض الطاعة للدولة العلية وأرسلها إلى الآستانة وكانت الدولة المصرية قد قبضت على سبعة وخمسين نفراً ونفتهم إلى سنار في السودان منهم ثمانية أمراء اربعة من الشهابيين وأربعة من اللمعيين وبعض المشايخ والباقون من العامة وكان في مقدمتهم الأمير حيدر اسمعيل اللمعي. وفي أواخر شهر آب من سنة 1840م حضرت أربع بوارج إنكليزية بقيادة الكومندور نبيير الإنكليزي من أصل العمارة الهمايونية فأظهر معتمد الدولة العلية اتحاد الدول الأربع إنكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا مع دولتنا لإخراج المصريين فضربت البوارج المذكورة عكاء واستولت على سورية ونفت الأمير بشير إلى مالطا في نيسان سنة 1841م. ولذلك اشتهر لقبه بالمالطي.

وكان في 24 ك1 سنة 1841م قد وصل مصطفى نوري باشا رئيس العسكر (سر عسكر) ومعه عمر باشا الذي كان من النمسا ونحو ألف وخمسمائة من الجنود النظاميين. وفي 15 ك2 سنة 1842م قرأ على الأعيان الذين استقدمهم لتسوية الخلاف التقليدي (الفرمان) العالي بتولية عمر باشا شؤون لبنان وخلع باسم جلالة السلطان على كل من وكيل البطريرك الماروني والأساقفة والمشايخ والأعيان ولا سيما أهل زحلة عباءات شرف من الجوخ القرمزي مطرزة بالقصب وأهدى كل من الباقين شالاً من الكشيمر(ق) الفاخر ومسعطاً (علبة سعوط) مرصعاً بالماس وكان بين المنعم عليهم بعض المعلوفيين ثم تقلبت الحال بلبنان إلى أن نظم متصرفية كما مر في صفحة 109.

وكان انتهاء حكم الشهابيين في لبنان سنة 1842م وآخرهم الأمير بشير قاسم المكنى بأبي طحين ولذلك رأينا أن نلم بشيء من عاداتهم وشؤونهم وإدارتهم وما إلى ذلك مما تنكشف به حالة البلاد لعهدهم فنقول:

كان الأمراء الشهابيون يصطافون في دير القمر ويشتون [يقضون الشتاء (ق)] في مدينة بيروت إلى أن نقل الأمير بشير الكبير كرسي الحكم إلى بيت الدين وابتنى القصر الشهير فيها. وكانت صيداء وعكاء مقر الإيالة إلى أن نقل إلى بيروت عام 1841م.

(ق) جاءت هكذا، والأصح الكشمير، وهي مقاطعة كشمير المتنازع عليها بين الهند والباكستان. ووصلت حدة النزاع هذا العام (2002) إلى حد استخدام السلام النووي (المحقق).

وكانت المقاطعات التي استولى عليها الشهابيون باسم حكم جبل لبنان هي إقليم الخروب وجزين والتفاح في الجانب الجنوبي وجبل الريحان والمتن والبقاع في الشرقي وكسروان والفتوح وبلاد جبيل والبترون وجبة المنيطرة وجبة بشراي والكورة والزاوية في الشمالي. وكان سنجق جبل الشوف سبع مقاطعات هي الشوف والمناصف والعرقوب والجرد والمتن والشحار والغرب. والشوف نوعان السويجاني والحيطي. والعرقوب والغرب هما أعلى وأدنى. والجرد جنوبي وشمالي. وكان في هذا السنجق المشايخ بنو جنبلاط في الشوف وبنو نكد في المناصف وتولوا الشحار أيضاً وبنو العيد[1] في العرقوب الأعلى وبنو عبد الملك في الجرد والأمراء بنو أبي اللمع في المتن والأمراء الأرسلانيين في الغرب الأدنى والمشايخ التلحوقيون في الغرب الأعلى.

وكان المشايخ بنو حيمور[2] في البقاع وبنو الخازن وبنو حبيش وبنو الدحداح في كسروان وبنو حمادة في بلاد جبيل وبنو الظاهر[3] في الزاوية وبنو العازار في الكورة وبنو نفاع[4] في بطشية المتن.

---

[1] من أشهر آل العيد الشيخ حمود الذي قتل سنة 1780م ومن أولاده الشيخ محمود الذي كان سعيد بك جنبلاط يعتمد عليه لأصالة رأيه وحنكته السياسية واشتهر في موقعة ظهر البيدر فوق المريجات سنة 1860م وهم ينتمون إلى فروع أهمها بنو حاطوم وبنو سرحان وهم إلى الآن في العرقوب ومنهم فريق في بعقلين.

[2] لن يزال بعضهم إلى اليوم في قرية القرعون من بقاع العزيز ولعلهم بقية عرب الحمراء أو الحميراء الذين حكموا البقاع مدة ونزلوا في أوائل القرن الخامس عشر في رأس بيروت واشتروا كنيسة المخلص للرهبنة الفرنسيسية المؤسسة سنة 1226م فنقلوا حجارتها إلى مدرستهم وقد منعهم من سكنى بيروت الأمير عز الدين صدقة التنوخي المتوفى سنة 1444م (راجع تاريخ بيروت لصالح بن يحيى صفحة 70 و149 و260).

[3] إن بني الظاهر ينتسبون إلى جدهم ظاهر بن شديد الرزي ومنهم نشأ الشيخان كنعان ونمر والآن عزتلو كنعان بك قائم مقام المتن وغيرهم. أما أسرة بني الرزي فيقال أنها من بني Rossi الصليبيين وجدهم الشدياق بطرس الرزي ترك بقوفة (التي بين بشري واهدن) نحو سنة 1760م بأولاده وسكن بعضهم كفر حورة (قرية النظر) في الزاوية (البترون) والبعض في البهلولية بنواحي حلب والبعض في القدس الشريف. ونشأ منهم بطاركة وأساقفة وكهنة مشهورين من متأخريهم المطران يوسف المربض النائب البطريركي بزمن الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد وغيره. ومن فروع بني الرزي بيت الفتى المعروفة الآن ببيت علام ومنها الخطاط الشهير علام أفندي. وبيت القسطة والخياط والبدوي في عشقوت.

[4] تعرف أسرتهم بآل يونس وهو الجد الذي سكن الشويفات وتقربوا من الأمراء اللمعيين فالشهابيين وسكنوا قرية قرب بعبدة سميت بطشية (محرفة عن بيت الشيخ) وهم الآن معروفون ببني نفاع ومنهم الشيخ رشيد المشهور بمحفوظه وذكائه وعزتلو الشيخ حبيب الذي خدم الحكومة وغيرهما.

وامتدت حكومة جبل لبنان في أول حكم الأمراء الشهابيين من بلاد صفد المجاورة نابلس إلى بلاد الجبة المجاورة طرابلس وكان وزير الدولة يقيم أولاً في عكاء ويولي من يشاء ويعزل من يشاء من حكامه الشهابيين وهم يولون ويعزلون حكام المقاطعات من مشايخ وأمراء وامتدت إيالة صيداء سنة 1834م فتألفت من بلاد ساحل عتليت وعكا وشفا عمر والجبل والشاغور وبلاد بشارة وطبرية وصفد والناصرة وتوابعها من القرى والعرب المخيمين في ضواحيها. وقد استولى الشهابيون على لبنان نحو قرن ونصف وكانوا يدفعون مالاً أميرياً إلى ولاة صيداء كل سنة نحو مائة وثلاثين كيساً وينحازون أحياناً إلى ولاة الشام حسب مقتضى الحال. وسنة 1833م أحصى اللبنانيون فبلغوا ثمانية وثلاثين ألف رجل دون العاجزين والقاصرين وذوي العاهات وقد وقفنا على إحصاء بقلم بطرس كرامة الحمصي مدبر الأمير بشير الكبير كتبه في الآستانة العلية في 11 نيسان سنة 1841م ملخصه «أن سكان لبنان ثلاثة مذاهب مسلمون وهم فرقتان سنيون وشيعيون ونصارى وهم ثلث فرق موارنة وروم كاثوليكيون وروم أرثوذكسيون ودروز وهم فرقة واحدة ومجموع ذكوره من سن أربع عشرة سنة إلى سبعين ستون ألف ذكر لأن سكانه من سنة 1833م إلى سنة 1839م أحصوا مرتين لأخذ الجعالة منهم فأول مرة بلغ عددهم ثلاثين ألفاً ولكن العدد لم يضبط فأعيد بعد سنتين ببعض الضبط فبلغ أربعين ألفاً وذلك بدفتر مشتمل على عدد القرى قرية فقرية وعلى عدد ذكور كل قرية نفراً فنفراً بالأسماء ويضاف إلى الأربعين ألفاً المذكورة عشرين ألفاً أيضاً بالمقابلة إلى ما فيه من الأكليروس والأمراء والمشايخ وأتباعهم وأحزاهم الذين ما دخلوا في العدد وبمقابلة ما حصل من الإغضاء عن العدد ترفق بالناس فالستون ألفاً المحررة منهم موارنة ثلاثون ألفاً منهم عشرون ألفاً حملة السلاح والروم الكاثوليكيون تسعة آلاف بينهم سبعة آلاف حملة السلاح والأرثوذكسيون سبعة آلاف منهم خمسة آلاف حملة السلاح والدروز عشرة آلاف بينهم ثمانية آلاف حملة السلاح والمسلمون السنيون ألف منهم سبع مائة حملة السلاح والشيعيون ثلاثة آلاف بينهم ألفان حملة السلاح. فهذا عدد جميع الذكور. وإذا فرضنا لكل ذكر اثنين من الإناث والأطفال يكون جميع النفوس التي فيه مائة وثمانين ألفاً إلى مائتي ألف لا غير[1] اهـ» وروى مؤرخو لبنان أن المغفور له محمد علي باشا قال

---

[1] راجع إحصاء لبنان الأخير في الصفحة 97.

لما كان الأمير بشير الكبير عنده في مصر بمجلس حافل: «إن الأمير بشير يحكم على جبل لبنان وتحت يده عشائر تجمع مائة ألف مقاتل مدربين في الحرب».

وكان للأمراء والمقدمين والمشايخ امتيازات تحت مراعاتها فلا يقتل أحدهم ولا يحبس ولا يضرب، ولكن قصاصه إذا أذنب يكون غالباً بمصادرته بالمال أو إتلاف عقاره أو نفيه من البلاد. وإذا دخل المذنب منهم على الحاكم يقابله على عادته في التحية والسلام ولا يهينه. وإذا كتب إليه كتاب الغضب لم يغير شيئاً من ألقابه وكراماته، ولكنه يترك عبارات الولاء ويثبت ختمه في أعلى وجه الصحيفة. أما كتاب الرضى فيكون ختمه على ظاهر الصحيفة كما مر في صفحة 197 [من النسخة الأصلية (ق)]، وذلك يتناول الرعية أيضاً. والإقطاعيون يتصرفون في مقاطعاتهم بتنفيذ أوامرهم ونواهيهم ويجبون الأموال المفروضة على الأعناق والأرزاق والضرائب والمكوس فيرسلون منها إلى الحاكم ما فرضه عليهم أو ما تعاهدوا عليه والباقي يكون لهم لنفقاتهم. وإذا رفع أحد الرعايا دعوى فإلى الإقطاعي (المقاطعجي) وإذا لم ينصف المتخاصمين ترفع الدعوى إلى الحاكم الأعلى فيفاوض الإقطاعي لفصلها بما يريد، فإذا لم تفض يسوغ أن ترفع إليه الشكوى أكثر من مرة فيرسل سفيراً (مباشراً) من قبله يفصلها بالتي هي أحسن ولا يكون للإقطاعي عتب عليه. وإذا حدث خصام بين الإقطاعيين والأهلين أو بين سكان مقاطعتين يفاوضهم الحاكم كتابة ساعياً بإصلاح ذات بينهم وإذا لم تصلح الشؤون أرسل سفيراً من خاصته تكون نفقاته ونفقات جواده في المدة التي يرصدها لفض المشكل جميعها من المدعى عليه ولا يتصرف إلا بأمر مولاه. فإذا أرسل إليه الأمر بالانصراف فرض له مالاً يأخذه من المدعى عليه ما لم تكن الدعوى بدين فيفرض له شيئاً على المدعي أيضاً، وهذا الفرض في غير الدين استحساناً وأما في الدين فخمسة من المائة المقبوضة. والإقطاعيون يؤذن لهم أن يحكموا بالسجن والضرب ولكن العقاب على الكبائر لا يؤذن به إلا للحاكم العام. وأما إجراء المواد المهمة كالقتل وقطع اليد مثلاً فلا بد أن يكون بمعرفة العمال المنصوبين من قبل الحاكم وللعامل أن يولي في كل مقاطعة مديراً من سكانها. وجميع أنسبائه يكونون تحت حكمه وإدارته نظير جميع الأهلين. أما دير القمر والقرى الملحقة بها (وهي عين دارة وبتلون ونيحة وعين ماطور وتسمى القرى الخاصة لأنها تتبع الحاكم رأساً) فيجري فيها حكم الحاكم يولي فيها من يشاء ويعزل من يشاء.

أما اصطلاحاتهم في كتاباتهم فهي أن الحاكم يكتب إلى كل من أصحاب الرتب المار ذكرها الأخ العزيز وكل من كتب إليه هذه العبارة صار شيخاً والأمراء يكتب إليهم حسب طبقاتهم، وهي هكذا الأمراء الشهابيون واللمعيون والأرسلانيون والمقدمون، وأما المشايخ فمنهم من يكتب إليهم كالأمراء وهم الحماديون فإنهم بمنزلة اللمعيين ثم تأتي طبقاتهم على هذا الترتيب وهو الجنبلاطيون والعماديون والنكديون والتلحوقيون والملكيون وبنو العبد إلخ.

أما الورق فيكتب على نصف طبق (طلحية) منه إلى الأمراء الشهابيين واللمعيين والمشايخ الحماديين والباقون يكتب إليهم في ربع طبق فقط. ويوقع (يمضي) في كتب الأمراء الشهابيين فوق اسمه (أخ) وفي كتب غيرهم عبارة (محب مخلص) ولا يكتب الشهابيون لقبهم في تواقيعهم (إمضاءاتهم) بل يضعون تحت الاسم ثلاث نقط متصلة وتحتها نقطتين متصلتين إشارة إلى شين شهاب وبائه. ثم يكتبون إلى باقي العشائر بألقاب متفاوتة فيكتب إلى بني بليبل[1] في قاطع المتن وإلى بني العازار[2] مشايخ الكورة وإلى بني اليازجي النصارى في الغرب وإلى بني الشيخ علي الدروز في الشوف (حضرة عزيزنا) ويوقع لهم جميعهم الفقير مشوشة فلا يهتدى إلى قراءتها وتسمى (الطرة) ويكتب (عزيزنا) فقط إلى سكان دير القمر وملحقاتها التي مر ذكرها وهي القرى الخمس الخاصة، وقد يكتب ذلك إلى بعض أعيان البلاد المشهورين ومنهم من يكتب إليهم (أعز المحبين) وهم عامة الجمهور ولكن (حضرة عزيزنا) لا تكون إلا في ربع طبق من الورق و(أعز المحبين) تكون في

---

(1) قدم جدهم بليبل من ترتج إلى جاج ثم إلى بكفية فسكن في ساقية المسك ثم في بحرصاف على مقربة منها وتقرب من الأمراء اللمعيين فولوه إدارة أشغالهم ثم رحل حفيده بليبل بن ظاهر إلى الشوف واتصل بخدمة الأمراء الأرسلانيين وأنشأ مزرعة بليبل فيه ثم عاد أولاده إلى بكفية سنة 1600م ومنهم نشأ المطران عبد الله أسقف قبرص المتوفى سنة 1844م ومنهم الأب أغناطيوس أحد رؤساء الرهبنة اللبنانية وغيرهما.

(2) ذكر الشماس أنطونيوس العينطوريني في تاريخ مختصر لبنان المخطوط أن جد المشايخ بني العازار قدم من اذرع في حوران إلى قرية أميون في كورة طرابلس وتولوا أحكام الكورة بضع سنوات واشتهر منهم مرعب الذي حكم بلاد عكار سبع سنوات وحده وكانوا أصحاب شورى ومعارف وألمعنا في صفحة 195 أن هؤلاء الشيوخ يروون أنهم من أنسباء الخازنيين وقد نشأ من متأخريهم المرحوم راجي الذي خدم الحكومة في قضاء الكورة وله منظومات رقيقة وبعض رسالات لن تزال مخطوطة. توفي سنة 1897م والشيخان سليم وشديد اللذان خدما الجند اللبناني وعزتلو الشيخ جرجس عضو مجلس الإدارة الكبير وغيرهم.

ثُمن طبق. و(عزيزنا) تكون فيهما جميعاً بحسب مترلة الشخص المكتوب إليه. وإذا كان المخاطب من اللمعيين كتب إليه في صدر الرسالة هكذا (جناب حضرة الأخ العزيز الأمير فلان المكرم حفظه الله تعالى أبدي أولاً مزيد الأشواق لمشاهدتكم في كل خير وثانياً كذا وكذا) وجعل الكتاب في نصف طبق ولا يذكر قوله (وثانياً). والتوقيع (أخ ومحب مخلص). ويخاطب المشايخ مثل مخاطبة الأرسلانيين بعد حذف لفظ جناب هكذا (حضرة الأخ العزيز الشيخ.. إلخ) ويكتب إلى جميع أعيان الجبل (حضرة عزيزنا) ويبدل عبارة (حفظه الله) بعبارة (سلمه الله) وكلمة (مشاهدتكم) بكلمة رؤياكم[1]. أما غير الحاكم من الأمراء والمشايخ فإنهم يدعون الأخ من يدعوه الحاكم مطلقاً وغيره. وقد تدعوه المشايخ بذلك وهو غير مضبوط لأنه غير محصور في بيوت معلومة ولكن بحسب الشهرة ومقتضى الحال. وأما اللمعيون فلا يدعون أحداً بالأخ إلا من دعاه الحاكم بذلك، والأرسلانيون فلا يدعون بالأخ إلا بني اليازجي في الغرب. والذي لا يدعى بالأخ عند غير الحاكم يكتب إليه (عزيزنا) فقط مع إضافة الحضرة إليها أو تجريدها منها ولا يكتب (أعز المحبين) إلى أحد لأنها من خصائص الحاكم. أما أمراء رأس نحاش في الكورة فيكتب إليهم مثل الأرسلانيين. والمقدمون بنو مزهر في حمانا وبنو علي الصغير في جزين فمثل سائر المشايخ إلى غير ذلك. أما الكتابة إلى الحاكم فالجميع يدعونه (سيداً) ولكن الأمير الشهابي يدعو نفسه ولداً له أو ابن عمه حسب عمره واللمعي يدعو نفسه (محباً داعياً) والباقون يدعون أنفسهم (عبيداً) ولا يذكر له اسم ولا لقب ولا كنية بل يدعى بالأمير لا غير.

أما هيأة الصحيفة المكتوبة فإن منها ما يطوى مستطيلاً ويكتب الشطر الواحد منه ويترك الآخر أبيض لا يكتب فيه إلا إذا طال الكلام حتى لا يستغرقه الشطر الأول ويقال له القائمة وهذا يكتب إلى المقربين الذين يفاوضهم أحياناً بما لا يريد أن يقف عليه غيره، ولذلك تدرج الصحيفة ملصقة بالكتابة ونحوه معنونة باسم المكتوب إليه وبناء على ذلك تحتمل من التنازل ما لا يطابق العادة المألوفة بوجه ما.

---

[1] وهي بهذا المعنى غلط لغوي صوابه رؤيتكم.

ومن ذلك ما يكتب مبسوطاً ويقال له المفتوح وهذا يكتب للأجانب الذين لا ينتهي إليهم ما يصان عن الناس، ولذلك تدرج الصحيفة إدراجاً بسيطاً غير ملصقة ولا معنونة لذكر الاسم في باطنها. وبناء على ذلك لا يرخص فيها بشيء من التسامح في العوائد وهي دون الأولى في الكرامة. وبما أن القائمة تحتمل ما لا يحتمله غيرها كان الأمير بشير الشهابي يكتب بها نصف طبق للشيخ بشير جنبلاط ويكنيه بأبي علي خلافاً للعادة لأن الحاكم لا يكني أحداً في كتابته على الإطلاق. ولكن لما توفي أخوه الشيخ حسن وأراد أن يكتب إليه تعزية وهي مما يقتضي الشهرة فلا تناسبها القائمة كتب إليه كتاباً مفتوحاً على ربع طبق مقتصراً على ذكر اسمه دون كنيته حسب العادة المفروضة ومثل ذلك ما كتب به إلى الشيخ ناصيف نكد تهنئة له عند زواجه. وكان يكتب إليه وإلى ابن عمه الشيخ حمود قائمة من نصف طبق معرضاً عن ذكر الكنية. ولم يكتب الحاكم إلى غير هؤلاء الثلاثة من المشايخ في نصف طبق إلا إلى بني حمادة الجبيليين لأنهم كانوا قديماً يتولون أمر تلك البلاد من يد وزراء السلطنة العلية. ولم يذكر كنية إلا الشيخ بشير جنبلاط لأنه كان على جانب عظيم في البلاد.

أما مقابلاتهم فإذا دخل على الحاكم أحد المناصب الشهابيين نهض إليه عند دخوله ونزل عند بساطه واقفاً حتى يصل إليه فيسلم عليه مقبلاً كتفه وإن كان من غير الشهابيين لم ينهض حتى يبدأ بالتحية، فإن كان من اللمعيين قبل عضده أو من الأرسلانيين فزنده. وإن كان مقدماً أو شيخاً فحرف راحته مما يلي الإبهام. وأما من دونهم من الرعايا فمنهم من ينهض له ولكن عندما يهوي على يده ليقبلها فمنهم من يقبل رسغها ومنهم من يقبل الأصابع ومنهم من لا ينهض له ولا يمكنه من تقبيل يده ومنهم من لا يأذن له بالدخول عليه. وإذا قام في داره أحد المناصب أياماً فإن كان من الشهابيين نهض له عند دخوله في كل يوم ابتداء فإن خرج ثم عاد لا ينهض له. وإن كان مقدماً أو شيخاً فلا ينهض له إلا عند الوداع ما لم يكن قد تولى القضاء فإن القاضي عنده في رتبة الأمير بخلاف رئيس الشرطة فإنه في رتبة العامة حتى إذا كان من المشايخ لم يعامله في المقابلة والكتابة على عادته قبل ذلك. وكان في لبنان حفظ شديد لمراتب الناس باعتبار الأصول فلا تزول الكرامة عن أهلها بسبب الفقر ولا تنزل في غير موضعها بسبب الغنى فلا يستعمل الرجل ما لا يليق بمثله من الطرفين وأهلها يغلب عليهم كرم النفس والنخوة والحمية

وصيانة اللسان عن الفحش في حال الرضى والغضب واحتمال الأثقال والمكاره وحفظ المواثيق والمودة مع الأصدقاء والأنفة من الغدر بالأعداء حتى أن الرجل يعرض نفسه للخطر في مساعدة صديقه ولا يبالي ويظفر بعدوه غفلة فلا يتعرض له حتى ينبئه لنفسه إلى غير ذلك مما لا يمكن استقراؤه بهذه العجالة[1].

وكانت الضرائب مختلفة فيعطون الناس شاشات للف العمائم ويأخذون ثمن القطعة من ثلاثة إلى أربعين غرشاً أو أكثر ويسموها الشاشية ويسمحون لهم بلبس البوابيج[2] ويأخذون ثمن كل منها عشرين غرشاً. ويضربون في بيض (بزر) الحرير البزرية وقيمتها خمسة غروش على كل ما يربى من شجر التوت أوقية بزر قز وقد تكون هذه الضريبة نصف هذه القيمة ومنها الهميد وهو المال المرتب من الديوان. وضرائب المطاحن فإن الأمير بشيراً الكبير عدّ بزمن الدولة المصرية طواحين البلاد ورتب على دخل كل ألف غرش خمسة وأربعين غرشاً وكذلك أحدث بزمنها مال الإعانة من خمسة عشر غرشاً إلى خمس مائة وكانت عشر طبقات على كل مكلف حسب طاقته وكتب بذلك سجلات ختمها المشايخ والأعيان فبلغ عدد اللبنانيين ثمانية وثلاثين ألفاً ما عدا العاجزين والقاصرين وذوي العاهات والأكليروس والشيوخ وقد سعى بطرس كرامة الحمصي فأنزلها إلى خمسين غرشاً فكانت جملة الإعانة المفروضة على لبنان أربعة آلاف كيس. وفرضت الإعانات على سائر المقاطعات على هذه النسبة وأصاب كل مكلف في البقاع خمسة وثلاثين غرشاً وهو أقلها. وقد تكون الضرائب لتعجيز الحاكم وخراب البلاد كما فعل الجزار بزمن الأمير حسين فإنه طلب منه ثلاث مائة غرارة قمح وألف رأس غنم وثلث مائة رأس بقر وثلث مائة قنطار باروداً وألح بطلبها. وللتغريم كما فعل الأمير بشير

---

[1] لخصنا هذه العوائد من رسالة في لبنان لجرجس أندراوس الصوصة من دير القمر نشرت في مجلة الهلال مؤخراً وطبعت قبل ذلك في كتاب (المنتخبات العربية) تأليف فرنسوا أوغست أرنولد المترجم إلى اليونانية والمطبوع في مطبعة القبر المقدس في أورشليم ونرجح أن جرجس هذا هو زوج وردة ابنة نقولا الترك الشاعرة التي مر ذكرها في صفحة 231 ومن أولاده ابرهيم أفندي طبيب الأسنان المشهور في مصر ولعل هذه الرسالة مقتطفة مما كتبه حموه نقولا الترك عن الجزار والشهابيين. وقد أضفنا إلى ما اقتطفناه منها الآن بعض شذرات من المخطوطات وأخرى من تاريخ جودت باشا وبعض تعاليق ومقالات لنوفل نعمة الله نوفل المشهور وغيرهم فضلاً عما تناولناه عن ألسنة الشيوخ الثقات.

[2] البابوج لفظ فارسي معناه غطاء الرجل واسمه الإفرنجي بنطوفلة وهو نوع من الحذاء معروف كان موظفو الحكومة قديماً يتخذون الأصفر اللون منه فقط والتجار يتخذون اللون الأحمر وبقي استعماله كذلك إلى أواخر القرن التاسع عشر وهو إلى عهدنا من أحذية نساء القرى.

بسكان لبنان عند قيامهم عليه سنة 1821م فصادر أهل الجبة بدفع مائتين وخمسين ألف غرش نفقة العسكر وأهل كسروان بمائتي ألف غرش وأهل القاطع بمائة ألف غرش.

وحاكم البلاد ينتخبه أمراؤها ومقدموها ومشايخها ويقدمونه إلى الوزير ليثبته منعماً عليه بخلعة الولاية. وكان لبنان يدفع إلى خزينة الولاية قبل الدولة المصرية ألفين وثلاث مائة كيس كل سنة فصار يدفع بعهدها أربعة آلاف كيس. وكان طالب الحكم في لبنان يقدم للجزار ستة من جياد الخيل بعددها الفضية وخمسين ألف غرش خدمة. ودفع له سنة 1781م الأمير سيد أحمد الشهابي خمس مائة ألف غرش زيادة عن ثلاث مائة ألف دفعها أخوه الأمير يوسف فتولى الحكم ثم زاد الأمير يوسف المال فتعهد بدفع ألف ألف غرش فأنعم عليه بخلعه الولاية وصحبه بعسكر لطرد أخيه فضايق السكان وزاد الضرائب عليهم لتحصيل تلك الزيادة فعجز عن تحصيل ما ضربه عليهم وبقي مما تعهد به مائة وخمسون ألف غرش. وسنة 1783م كانت مرج عيون تابعة لإيالة صيداء ووادي التيم تابعة لإيالة دمشق فكان والي حاصبية يؤدي كل سنة إلى والي صيداء عن مرج عيون ستة آلاف غرش وكان الوالي يحصل نفقاته ونفقات أبناء عمه وأعيان بلاده كلها من محاصيلها التي تبلغ خمسين ألف غرش فكان الحاكم يدفع عليها خمسة وعشرين ألف غرش للجزار. وكان الأمير الشهابي يدفع للجزار ثلث مائة ألف غرش ليوليه جبل الشوف. وسنة 1791م تعهد اللبنانيون بأداء الأموال الأميرية على عادتها إذا تولى شؤونهم الأميران حيدر وقعدان الشهابيان وفوق ذلك يدفعون أربعة آلاف كيس منجمة (مقسطة) على ست سنوات ودفعوا غرامة خمسين ألف غرش نفقة الحرب وأربعة من جياد الخيل، فأرسل إليهما الخلع. وهكذا كثيراً ما كانت الأموال تفضي إلى القلق والاضطراب. وكان شريف باشا حكمدار إقليم سورية قد قطعت الدولة المصرية له ثلاثة آلاف كيس راتباً كل سنة مع أن الدولة العلية العثمانية كانت تعطي من كان في رتبته نحو خمسة آلاف غرش شهرياً فقط، ولذلك أكثرت الدولة المصرية الضرائب لكثرة الرواتب التي رتبها للحكام المصريين. أما أمراء ومشايخ لبنان فاستخدمتهم برواتب لا تساوي عشر ما كانوا يجمعونه من بلادهم ونزعت استقلالهم فثاروا عليها إلى أن خرجت.

وكان معظم ثروة اللبنانيين من الحرير وكانت سورية محطاً لرحال التجارة بهذا الصنف لكونها طريقاً تجارية بين المشرق والمغرب. وسنة 1821م كان نتاج

أملاك الشيخ بشير جنبلاط من هذا الصنف أكثر من ألف وأربع مائة اقة تبلغ قيمتها نحو عشرة آلاف ليرة إنكليزية وكانت المائة ألف غرش تساوي من معاملة أيامنا الحاضرة أربعة آلاف ليرة إنكليزية. وسنة 1824م طلب المغفور له محمد علي باشا والي مصر من الأمير بشير الكبير حاكم لبنان رجالاً يحسنون غرس التوت وتربية دود الحرير طمعاً بنتاج هذا الصنف في مصر فأرسل إليه أكثر من ثلاثين أسرة أكثرهم من زوق مصبح، فلم تأت أعمالهم بفائدة لأن بيض (بزر) الدود كان ينقف (يفقس) قبل أن يظهر الورق وذلك من شدة الحر. وقد اشتد الخلاف بين عبد الله باشا والي عكاء ومحمد علي باشا المشار إليه لأن وزير عكاء منع إرسال الحرير إلى مصر لئلا تخسر سورية تجارته واستقبل التجار والفلاحين الذين هاجروا من القطر المصري إلى بلاده في ضواحي غزة ويافة غير مبال بإلحاح محمد علي عليه لإرجاعهم. ولذلك بعد أن أوقع بعبد الله باشا طلب بواسطة خلفه محمد منيب أفندي قائم مقام عكاء سنة 1833م احتكار حرير جبل لبنان فأمر الأمير بشير اللبنانيين بحفظه و لم يكن إقبال في غلال تلك السنة بل كانت نحو الثلث في السواحل والجبال و لم تنتج أوقية البزر أكثر من أوقية حرير، فأخذ اللبنانيون حريرهم إلى بيروت ورتبوه صنفين أعلى ثمن رطله مائة وخمسون غرشاً ومتوسط وأدنى ثمن رطله مائة وثلاثون غرشاً، فابتاع منيب أفندي عشرين ألف اقة حرير أي مائة قنطار بالرطل الشامي[1] إذ ذاك. وكان لبنان ينتج حريراً بزمن الدولة المصرية من ألف إلى ألف وخمس مائة قنطار[2] معظمها من أملاك الأمراء والمشايخ

---

[1] الرطل الشامي عبارة عن إحدى عشرة أوقية إلا ثلثاً والرطل المترك ثماني عشرة أوقية وبقي الوزنان متداولين إلى تنظيم المتصرفية اللبنانية فأصدر المغفور له داود باشا أول متصرفيها أمراً بتاريخ 9 جمادى الآخرى سنة 1279هـ (1862م) بشأن ضبط الموازين هاك ملخصه: (رأينا بمفاوضة مجلس الإدارة أن جميع عيارات الكيل والوزن والذراع يجب أن تكون متساوية على نسق واحد في جميع أنحاء الجبل وتتوحد مثل عبارات مدينة بيروت من كيل ووزن وذراع أي يكون الكيل على المد المجيدي والوزن على الاقة الإسلامبولية التي هي أربع مائة درهم إسلامبولي والذراع على الذراع الإسلامبولية ويكون كل جنس منها مختوماً من قبلنا بختم خاص ولذلك أرسلنا إلى كل قضاء مداً واقة وذراعاً ليعمل بموجبها ويلغي القديم منها ومن خالف يغرم بقيمة من عشرين غرشاً إلى خمس مائة إلخ) فضبطت العيارات والأقيسة والمكاييل وزادت ضبطاً إلى عهدنا. ولن يزال الرطل المترك لوزن الدبس شائعاً في قلب لبنان. أما الرطل المصري فهو إلى يومنا اوقيتان إلا ثلث أوقية.

[2] وفي تقويم ليون أن أكبر مقدار من حرير سورية كان سنة 1903م إذ بلغ 510 آلاف كيلو واللبنانيون يجتنون نحو أربعة ملايين اقة من الفيالج (الشرانق) وذلك نتاج 150 ألف إلى 160 ألف صندوق (علبة) من البزر.

والرهبان. وكان السكان حينئذ ثلث مائة ألف نسمة ليس لهم أرض زراعية فاقتصروا على زرع التوت[2] و لم تكن حاصلاته تسد حاجاتهم.

وكان أهم صناعاتهم استجلاب القطن من جبل نابلس ونسجه خاماً بلدياً. واشتهرت بذلك زحلة ودير القمر وتطريزه بالحرير الملون بعد صبغه. وحل الحرير العربي[3] وتربية دوده[4] وعمل البارود وقد مر في صفحة 177 أن أول من أدخل

---

[2] أصل التوت من الصين انتقل إلى الهند فالعجم فالقسطنطينية فاليونان فإيطالية ففرنسة سنة 1494م ثم عم انتشاره وهو كثير في سورية منذ القديم وروى تاريخ بيروت المطبوع في الصفحة 225 أن أهل الشوف استأصلوا شجر التوت في نحو منتصف القرن الرابع عشر فدثر لأن بيدمر نائب الشام طلب قضبانه لعمل النشاب فخشي الناس التسخير لقطعه ونقله والإنفاق عليه وهو في سورية ولبنان نوعان الأسود أو الفرصاد يتخذ لأكل ثمره اللذيذ والأبيض يتخذ لتربية دود القز وأفضله المأبور (المطعم) المعروف في اصطلاح العامة بالجوي وغيره يسمونه البري.

[3] كانت أوقية البزر البلدي تنتج عشرة أرطال حريراً عربياً وبالتعديل المتوسط ستة. وكان حل الحرير شائعاً في لبنان ويسمون موضع حله (الحلالة) وذلك على دواليب خاصة كانوا يضعونها قرب الينابيع وكانت خيوطه غليظة ورطله الشامي يباع بثمن يتراوح بين ستين ومائة وستين غرشاً وبزمن الدولة المصرية بلغ ثلاث مائة غرش. أما الحل على الطريقة الإفرنجية فأول معمل بني له في لبنان وسورية معمل بروسبر برطاليس في بناتر من الشوف سنة 1841م ولكن أكبر معل أنشئ سنة 1847م في عين حمادة في قضاء المتن وهو اليوم بيد ورثة أحد مؤسسيه مورك دلك وكان رفيقاه سليجان وكروزي فتوفيا وصار المعمل مختصاً به طبق الشروط التي وضعوها عند تأسيس العمل وكان عدد دواليبه 21 وسنة 1870م بلغ 142 ثم زيد إلى 172 وأدير بالبخار سنة 1885م وسنة 1896م أعد له منشار بخاري لقطع الخشب. وكثرت المعامل في جميع أنحاء لبنان وبعض جهات سورية وعددها الآن أكثر من 175 معملاً فيها نحو اثني عشر ألف دولاب.

[4] اكتشفت تربية الحرير إحدى سلاطين مملكة الصين سنة 2698 ق.م. وسنة 140 ق.م عرفت في آسية وانتشرت في سورية في القرن السادس المسيحي وكان في بيروت معامل لنسج الحرير قبل الإسلام كما في تاريخ بيروت المطبوع صفحة 15 واشتهر الفينيقيون بنسجه وصباغه. وكانت بيوض (بزور) القز أولاً وطنية بقيت نحو قرنين وكان لون فيالجها برتقالياً وهي مخصرة محددة الطرفين تنتج أوقية بزره عشرة أرطال حريراً عربياً. ثم عرف البزر الشوفي الذي استحضر في الشوف وأشهره العين كسوري وكان أصفر الفيالج وأربدها (أغرشها) مخضراً كثيراً مستدير الطرفين ويكثر فيه نوع البغيلي وهو كبير الحجم كان درهمه ينتج ثماني اقات بقي بضعة سنوات. ثم عرف البزر القبرسي استقدمه المرحوم يوسف نكد المعلوف والد السيد أغابيوس المعلوف مطران بعلبك من قبرس بقي سنة وكان معدل نتاجه كالبلدي. ثم الكريتي استقدمه من جزيرة كريت سنة 1865م ابرهيم عيسى المعلوف (وهو الخوري ابرهيم جد المؤلف لأبيه من كفر عقاب) وحنا راشد نجم من كفرتيه ودعيبس البرباري من ساحل علما وكان قد سبقهم قبل سنة حبيب نكد المعلوف شقيق السيد أغابيوس ثم اشترك حبيب هذا مع فارس بولس المعلوف (خال المؤلف) وبقي نحو عشرين سنة رائجاً وكثر المتجرون به حتى بلغوا أربع مائة كانوا يسافرون إلى جزيرة كريت ويستحضرونه على يدهم وفيالجه كانت شبيهة

هذه الصناعة متقنة إلى لبنان المرحوم دياب المعلوف من كفر عقاب وانتشرت في نواحيه. أما الملح فكانوا يستخرجونه من مزراب المعزى ولا سيما في الهرمل إلى أن استجلب من أوربة. وكانوا ينسجون العباءات ونحوها. وأتقنوا الحدادة وكان الحديد البلدي يستخرج من قرية مرجبة (المرج الجنوبي) شرقي الشوير في قضاء المتن (لبنان) ومن جهات دومة البترون وغيرها إلى أن زاحمه الحديد الإفرنجي وصارت المناجم عميقة تقتضي نفقات طائلة لاستخراج حديدها فأقبل الناس على هذا وأهمل ذاك وكذلك سبك الأجراس واصطناع الأواني الخزفية (الفخارية) في قرية بيت شباب في المتن ونسج الديما في بحرصاف وساقية المسك وبكفية وضواحيها وعرف التطريز بالقصب في الزوق. وهكذا كانت الأعمال بسيطة يشتغل فيها الكبار والصغار نساء ورجالاً بلا استثناء فضلاً عن صناعة البناء والنجارة ونحو ذلك.

وأهم تجارتهم بيع الحرير والخام الذي ينسجونه بأيديهم في نواحي سورية ولا سيما دمشق وجبل نابلس وعكار وحوران وبلاد بعلبك. وكذلك بيع المعزى المعروفة (بالجلب) في جنوبي لبنان وأول من اشتهر بهذه التجارة حنا عبده المعلوف من فرع أبي مدلج الذي توفي في القدس الشريف سنة 1847م. وكانوا يشترون المعزى من شمالي سورية ويرتبونها قطعاناً كل منها خمس مائة رأس له راعيان لسياسته ويبتاعون الرأس بمعدل 30 ـــ 35 غرشاً ويبيعونه من 60 ـــ 70 ويسافرون بها براً فيصادفون أخطاراً عظيمة على الطريق ويترلون في العوجاء وهو سهل فسيح غزير المياه بين يافة (الجمال) وغزة هاشم فيأتي المشترون إلى ذلك المحل ويبتاعون احتياجاتهم. وكان التجار يذهبون أحياناً إلى القدس الشريف وغيره. وقد اشتهر بهذه التجارة من المعلوفيين طربيه بن الياس أبي غصن الذي توفي في القدس

بالكورسكا وثمن درهمه ستة غروش. ثم اشتهر الصيني والقبرسي وثمن درهمهما ذهب قرانيصه (ثمانية وخمسون غرشاً) وينتج درهمهما خمس اقات وقد أميتت هذه الأصناف لتفشي الأمراض فيها. وعرف الكورسكا في الجزيرة المنسوبة إليه ومن أول المتجرين به الخواجات حنا راشد وسمعان القاعي من كفرتيه ثم عبود ديب المعلوف منها وصهره الخواجا بشارة شلهوب المعلوف من زبوغة وهو المعول عليه إلى الآن ولكنه صار استحضاره على طريقة بستور المكتشفة سنة 1871م واشتهرت المعامل البلدية الفاحصة البزر على طريقة بستور وقد ذكرنا بعضها التي أنشأها المعلوفيون في صفحة 17 ومنها معمل الخواجات هيكل الغندور المعلوف وولده في المشرع قرب كفر عقاب. وأغلى ثمن لأقة الفيالج بلغ 62 غرشاً ونصفاً وبعد الحرب السبعينية بلغ ثمانية غروش في السواحل ثم بلغ في الجبال ريالين مجيديين ونتاج درهم البزر خمس إلى ست اقات عند الخصب.

الشريف أيضاً سنة 1847م وأخوه نقولا وبولس باز وأخوه نقولا وابن أخيه اليـــاس وجميعهم من فرع أبي مدلج من كفر عقاب.

وكان السفر شاقاً والطرق غير أمينة ولذلك كانت الخفارة منذ القـــديم في بعض المواقف، فكانت في خان الحصين والمديرج في الطرق الجبلية وخان الناعمـــة وفرضة جونية وجبيل في الطرق البحرية فانتشر الأمان بعهد الأمير بشير الكبـــير في ظل الحكومة السنية وسطوها فأبطلها سنة 1812م وأذن أن تسير القوافل والتجـــار على جميع الطرق بالأمان والسلامة دون أن يقوموا بشيء من رسم الخفارة فكـــان ذلك رحمة عظيمة للناس وكثرت الأسفار. وكثيراً ما كان الذهاب إلى دمشق مـــن الأمور الشديدة الخطر حتى شاعت بين اللبنانيين الأغنية المعروفة التي مطلعها:

زوجـــك يـــــا مليحـــــة راح عالشـــــام وحـــــــده

أما السفر في البحر فكان غير شائع بينهم فكانوا يخشون هوله ويقولون عمن سافر إلى القاهرة: أنه سيكابد أثقال المسير في برين وأهوال السفر في بحريـــن. وفي أوائل القرن التاسع عشر الماضي هاجر فريق من الأدباء إلى القطر المصـــري طلبـــاً للأعمال في دواوين حكومتها فكان منهم بطرس العنجوري[1] الدمشقي المعـــرب لكثير من الكتب الإفرنجية وعبـــود البحـــري[2] الحمصـــي والشـــاعر نصـــر الله

---

[1] تنتسب هذه الأسرة إلى قرية عين حور في سورية سكنت دمشق وكان بطرس هذا خال العلامة الدكتـــور مخايل مشاقة وعليه درس بعض العلوم وقد اشتهر في مصر برئاسة قلم الترجمة في الدائرة التي أنشأها محمد علـــي باشا يوحنا العنجوري معرب كثير من المؤلفات أشهرها (الأزهار البديعة في علم الطبيعة) المطبوع في مطبعـــة بولاق المصرية سنة 1254هـ (1838م) ومنهم حنا العنجوري الذي توفي في ريعان الشباب في باريس ســـنة 1890م معرب بعض الروايات ومنهم الآن سعادتلو بك الشاعر الناثر المشهور.

[2] أصل أسرة البحري في حمص أرثوذكسية ولن يزال وجهاؤها فيها إلى اليوم واشتهر منها مخايل عبود البحري الذي ولد في أواسط القرن الثامن عشر وسار إلى دمشق وهناك صار كاثوليكياً وكان ابرهيم الصباغ الذي مـــر ذكر أسرته في صفحة 202 متصلاً بخدمة أبي ظاهر العمر الزيداني فدخل ميخائيل تحت يده وتخـــرج عليـــه ثم اتصل بالأمير يوسف الشهابي ثم بالجزار فتولى ديوانه مع بعض النصارى وتغير عليه وصلم أذنيه وجدع أنفـــه فاعتزل في بيروت إلى أن توفي سنة 1803م وله مساجلات مع شعراء عصره وقصائد ذكرت بعضـــها مجلـــة المشرق 9:3 وهو خال بطرس كرامة الشاعر المشهور واشتهر من أولاده عبود الذي ضرب فيه المثل فقيل خـــط عبودي واتصل بخدمة عبد الله باشا والي عكاء وبعض الولاة ثم فر إلى زحلة سنة 1808م واستقدم إليها أســـرته بواسطة الأمير بشير الكبير ثم اتصل بمصر وصحب ابرهيم باشا حين مجيئه سورية هو وأخوه حنا البحري إلى أن توفي في مصر سنة 1845م واشتهر حنا بزمن الدولة المصرية في سورية وصار أمير لواء نائلاً لقب بـــك وقـــد

الطرابلسي[3] الحلبي ونقولا الترك الديراني وغيرهم. أما بضاعة الأدب فكانت سوقها في كساد لعدم انتشار المدارس فنبغ بعض الرهبان والشيوخ بآداب العربية ونظموا بعض الدواوين وصنفوا المؤلفات وكذلك نشأ بعض الخاصة من الطائفتين وغيرهم وكانوا يدرسون العربية والتركية ثم مالوا إلى الإيطالية لكثرة التجار البنادقة وغيرهم في بلادهم ثم شاعت بينهم الفرنسية والإنكليزية لمخالطة المرسلين لهم. وكانت مطالعاتهم في قصص ألف ليلة وليلة وعنترة وبني هلال. وكان الكاتب عندهم من استطاع إنشاء رسالة حوت ألقاب التفخيم وعبارات التعظيم مثل قولهم (الجناب المهاب فسيح الرحاب) (وجناب كريم الشيم لطيف السجايا) ونحو ذلك مما شاع منذ زمن دولة الشراكسة المصريين وعلامته أن يضع تحت منطقته دواة مستطيلة من عمل بني نفاع في بيت شباب فإذا كان حاملها طبيباً وضع مع الدواة ملعقة فضية صغيرة وقبض بيده على عصاه إشارة إلى حرفته.

أما القضاة فكانوا غالباً من الأكليروس وشيوخ العلم مثل المطران جبرائيل الناصري المتوفى سنة 1838م والمطران جرمانوس آدم المتوفى سنة 1809م والمطران يوسف اسطفان المتوفى سنة 1822م والخوري أرسانيوس الفاخوري[4] المتوفى سنة 1883م وبقوا يتولون ذلك إلى سنة 1883 بزمن المغفور له واصه باشا فرفع يدهم وكان آخرهم الخوري يوسف الشاعر قاضي كسروان. ومن الشيوخ أحمد

درس هو وشريف باشا والي دمشق على عبود البحري. وعاد إلى مصر ولن تزال فيها بقية هذه الأسرة من أرباب النبل والوجاهة إلى يومنا منهم عزتلو نجيب بك الذي خدم الحكومة المصرية واشتغل بالتجارة فنال منها حظاً وافراً. وغيره.

[3] لن يزال في حلب من بني الطرابلسي وجهاء إلى يومنا ونظن أنهم من بني الطرابلسي الموجودين إلى عهدنا في دير القمر ومشغرة (البقاع) وأصلهم من أسرة البزنس الإفرنجية في طرابلس الشام برحوها ونسبوا إليها وقد اشتهر منهم ابرهيم في خدمة الأمير بشير الشهابي الكبير وهو الذي أرخ وفاته نقولا الترك سنة 1820م (راجع المشرق 408:3) وتوطن نسله دير القمر ومن أولاده خليل والد المرحوم سيليم بك الذي اتصل بخدمة الجند اللبناني بزمن داود باشا ثم رقي إلى رتبة بكباشي فأميرالاي إلى أن توفي سنة 1897م ومن أولاده عزتلو خليل بك. ومن بني الطرابلسي فريق كبير من مشغرة اشتهر منهم الياس بكرمه وغناه ووجاهته ومن أولاده المرحومان الدكتور اسكندر وداود وغيرهما وبعضهم في كفرحونة وقد تفرع من هذه الأسرة بنو خليفة في وادي شحرور وبنو قيفانو في بيروت ومنهم المرحوم نعوم والآن يوسف أفندي محرر لسان الحال وغيره وبعضهم في قب الياس. وفي زحلة بنو خرينق قدم جدهم طنوس إليها ونسب إلى أسرة امرأته.

[4] راجع سيرته في مجلة المشرق 606:3.

البربير[1] تولى القضاء بزمن الأمير يوسف الشهابي. والشيخ محمد القاضي في دير القمر بزمن الأمير بشير الكبير نحو سنة 1830.

أما الجند فكان فيه الوجاقات (جمع وجاق وهي تركية بمعنى الفرقة أو النسق) وأشهرها الإنكشارية والقباقول وهذان أكثرها نفوذاً ورجالاً وقوة وكثرت أصنافهما في الشام وكان لكل فرقة منهم علامات بالوشم تميزها والمترئس عليها يسمى الآغا. وكانت العساكر بزمن الأمير بشير الدلاتية والهوارة والأرناووط والسكمان والمغاربة والعرب والعقيل. وكان الآغا له بيارق وطبلات تقرع أمامه عند دخوله البلد ولذلك تقال في أساليب العامة دقت لفلان الطبلة أي اشتهر. وفي زمن الأميران حيدر وبشير أحمد اللمعيين كان الجند مؤلفاً من نحو مائتي نفر سواري ومثلها بيادة ولكل فصيلة بكباشي.

أما الأسلحة فنوعان جارحة وقاذفة. فمن الأولى السيوف وأشهرها سيف الصاعقة للأمير بشير المالطي الكبير كان مرصعاً بالجواهر الكريمة الثمينة وغمده من الذهب الأبريز مرصع بالجواهر أيضاً متقن الصناعة وقد أهدته قرينته بعد وفاته إلى المغفور له اسمعيل باشا خديوي مصر. ومنها البالات وهي سيوف قصيرة عريضة قليلة الانحناء والخناجر والقامات والسكاكين والشاكريات وهي خناجر صغيرة والفؤوس والبلطات والمفاقيص (الكلنكات) وتبارى الأمراء باقتناء الفاخر منها المعروف بالمجوهر.

أما الأسلحة القاذفة أو النارية فأصلها من الشرق سمي أشهرها بالبندقية نسبة إلى البندق وهو الكرات المستديرة التي تحشى بها ومن أقدم أنواعها أبو فتيل لأنها كانت تطلق بإشعال فتيل غشي بالشمع العسلي وأدني من الحوض ثم اتصلوا إلى أن تكون زنادها من صوان فولاذ وكلا هذين النوعين لم يكن سريع الانطلاق فاخترعوا بعد ذلك في أواسط القرن الماضي الكبسول ثم اللفائف (الخرطوش) وهكذا ترقت أنواعها. وكثرت في لبنان حتى أنه أحصي فيه سنة 1845م خمسون ألف بندقية. ومن أنواعها المفرد والجفت وهو ذو طلقتين والغدارة وهي صغيرة تعلق على الجنب ومثلها الطبنجة والفرد أما القربينة فهي بندقية متينة واسعة الفوهة تحشى بالرصاص الغزلاني وتتخذ هي والغدارات والطبنجات فتحشى غالباً بالبارود فقط إذ ذاك ومن أنواع البنادق الزربطانات والشرخات وبنادق الخزنة وهذه الثلاثة

---

[1] راجع مختصر ترجمته وما نشرناه من مقطعاته في مجلة المشرق 396:4.

أشبه بالمدافع الصغيرة توضع على مرفع (سيبة) عند إطلاقها. ولقد اشتهرت البنادق المجوهرة (المجهرية) ولا سيما الدمشقية والعجمية والجزائرية والأرناؤوطية والمصرية وأشهر أنواعها الجوهران العجمي والدمشقي وقد اشتهر من أنواع المجهر ما سمي باسم زين الدين أبي حزين والفلنتة وأبي ريشة وأم عيون وكلها مشهورة بإصابة الغرض[1].

وتبارى الأمراء والأعيان باقتناء جياد الخيل وهي خمسة أصناف النجادي الصقلاوية[2] وأم العرقوب[3] والشويمة[4] والكحيلة[5] والعبية[6] ومن هذه تفرعت المطهمات ومنها صنف آخر يسمى هدابة وهو خمسة أقسام جلفي ومعنقية ودعجانية وجعيثينية وفريجة ولها فروع كثيرة. وقد أجمع العرب على أن أصل هذه الفروع كحيلة العجوز وأكرم الكحيلات كحيلات بني مدلج والنجاديات ومن أشهر الخيل لعهدنا خيل مشايخ بني ظافر وهم رؤساء قبيلة تقيم بين بغداد والبصرة ولا يبيعونها بأغلى الأثمان ومثلها خيل بجبل أوراس بين تونس وقسطنطينة في جزائر الغرب[7] وقد جمع المرحوم يوسف فرنسيس الحاج اللبناني في كتابه (سراج الليل في سروج الخيل) شيات الخيل بقوله:

محاسن الخيل إن عدت الأمجاد فخذ ثلاثاً من الآتي بتعداد
خشف[8] وعيس[9] وعير[10] والنساء[11] وزد ثوراً[12] واجمعها في وصف أجياد

---

[1] راجع مجلة المشرق 576:3 و700 و870 و1038 وسراج الليل في سروج الخيل ليوسف فرنسيس الحاج صفحة 48.

[2] وتسمى أيضاً صقلاوية جدران أو صقلاوية وبيرية لصقالة شعرها وكان اسم صاحبها الأول جدران فنسبت إليه.

[3] سميت بذلك لالتواء عرقوبها وكان اسم راعيها شوية فقيل لها أم عرقوب شوية.

[4] نسبت إلى شامات كانت في جلدها وكان اسم راعيها سباح فقيل لها شويمة السباح.

[5] سميت بهذا لكحل عينيها وكان اسم راعيها عجوز فأضيفت إليه.

[6] قيل أنها نسبت إلى العباءة التي كانت توضع على ظهرها وقيل لأنها في السباق وقعت عباءة ممتطيها فلم تزل رافعة ذيلها والعباءة عليه إلى آخر السباق وكان اسم راعيها الشراك فقيل لها عبية الشراك.

[7] راجع دائرة المعارف العربية والصافنات الجياد للأمير محمد الجزائري وسراج الليل في سروج الخيل ليوسف فرنسيس الحاج وغيرها.

[8] أي خذ من الغزال ثلاثة الأذن والعسيب والشفرين.

[9] ومن الحمير الفم والحافر والجبين.

واشتهرت خيل عرب عترة في القرن الماضي بأصالتها وكان عند الأمير بشير الكبير بعض جياد منها ومن شاء معرفة أصول ركوب الخيل فليراجع كتابي الأمير محمد الجزائري ويوسف فرنسيس الحاج وغيرهما وقد ضبط الثاني أصول الفراسة بهذا البيت:

وزن اللجام وضبط فخذ والركاب غدا بها الميزان في المضمار

واشتهر بركوب الخيل والألعاب على ظهورها الباباق أو البابالخ وهو الذي علم عبد الله باشا والي عكاء وخضر آغا بريطع الدندشلي وقد مر بنا في صفحة 211 أن مصطفى آغا قراملا اشتهر بالجريد وغيره. وقد اشتهر عماد الهاشم[13] العاقوري بضرب السيف وإطلاق الرصاص. وظاهر أبو يعقوب المعلوف من فرع أبي كلنك في سرعين (بعلبك) وله أعمال تدل على براعته ولا سيما في الميدان ورمي الجريد ولعب الرمح. ونجم أبو ضاهر المعلوف من زحلة في رمي الرصاص. وشبلي المعلوف وولده ابرهيم في ركوب الخيل وضرب الجريد وألعاب الرمح

---

[10] ومن الجمال الخد والغلظ وطول الساق.

[11] ومن النساء طول الشعر ونعومة الجسم والاستحياء.

[12] ومن البقر العين والكفل والرسغ (أي بيت الشكال).

[13] يزعم بنو الهاشم أن جدهم هاشم العجمي والأصح كما روى سيادة العلامة المطران يوسف الدبس (26:7) أنهم من سلالة الشيخ أيوب ابن الشماس توما أخ فضول وهذان كانا شيخي العاقورة فأيوب ولد له هاشم وظاهر ورعد فاشتهر من هؤلاء هاشم ونسبت الأسرة إليه ومن أشهرهم الشيخ عماد المعروف بعماد العاقوري وكان بارعاً بضرب السيف والصيد وكثيراً ما كان يجمع قضبان فولاذية ويلفها في لبدة (لباد) ويقطعها بضربة واحدة بسيف مجوهر وقد اشتهر برمي الرصاص فأجرى أمام الولاة أعمالاً غريبة حملتهم على إعفاء أملاكه من الأموال الأميرية وهو الذي علم يوسف فرنسيس الحاج ضرب السيف وكذلك ظاهراً أبا يعقوب المعلوف وغيره واشتهر في عصرنا بضرب السيف وألعابه آل حرفوش وعماد وحبيش وظاهر أبو يعقوب المعلوف وشبلي المعلوف وأبو سمرا غانم والشنتيري والحاج قدور دوغان وشيبان آغا ثابت حاجب (ياور) رستم باشا متصرف لبنان الأسبق. ومن أعمالهم وضع عصا ثخينة من السنديان على قدحين أعنقين من البلور ممتلئين ماء ثم ضرب العصا بسيف يقطعها ولا ينكسر القدحان بل لا يراق شيء من مائهما. وأجيز عماد الهاشم مرة ببارودة مجهرية كتب اسمه عليها جزاء براعته برمي الرصاص وقد اقتناها جد والد المؤلف لأبيه ولن تزال في أيدينا وهي سديدة المرمى بديعة الجوهر.

وكثير غيرهم[1] ولقد اشتهر العرب وباشوات الأكراد وبكواتهم وأغواتهم باعتقال الرمح والمحاربة به وإدارته والأمراء الحرافشة وأغوات الهوارة بنيشان البارود وأمراء لبنان ومشايخه والمشايخ آل علي الصغير والمناكدة والصعبية سكان الشقيف باختلاط الرمح والبارود ولعب الجريد. وأغوات وبكوات المغاربة بلعب السيف والبارود والمزاريق (الرماح) وهذه لا يحملها في بلادهم إلا الفداوية الماهرون ومن عوائد الأمراء الحرافشة وغيرهم عند الشروع في الميدان أن يقول لهم ملاعبوهم كيف الميدان؟ فإن قالوا ميدان علي نضرب ونضرَب، كان لكل من يلاعبهم أن يرميهم بالجريد وإلا فإنه يرميهم بالطربوش وهم يرمونه بالجريد ولقد كانوا يلاعبون المعلوفيين ولا سيما أبي ابرهيم شبلي وظاهر أبي يعقوب وغيرهما.

وكانت ذرائع النقل عسرة فإذا أراد أحد إنفاذ رسالة لغرض يستأجر لها ساعياً (بوسطجي) بأجرة كثيرة ليوصلها إلى المرسلة إليه. وكان رجال الدولة يرسلون مكاتباتهم مع رسل يسموهم التتار والتتاري النشيط منهم يصل من دمشق إلى القسطنطينية في أسبوع واحد ويرجع في مثله. وكانوا يمرون في بيروت ذهاباً وإياباً، وكثيراً ما يكون التتاريون من أصحاب الرتب السامية وذلك إذا كان الأمر المرسلون به ذا شأن عظيم. وقد اشتهر بزمن الدولة المصرية في زحلة ساعيها درويش فرنسيس المعلوف من فرع أبي فرح فإنه كان يسير إلى عكاء ودمشق وحمص وطرابلس بسرعة غريبة وكثيراً ما ذهب من زحلة إلى عكاء بيوم واحد ولقد أجزل ابرهيم باشا له العطايا لأنه كان ينقل كتاباته الرسمية والمهمة ولذلك لقبوه الفرخ لخفته وتروى عن سرعته قصص غريبة.

ولقد كانت الملابس تتغير بتغير الزمان فإن الجزار أمر متسلم مدينة بيروت سنة 1782م أن يمنع النصارى عن لف شال الكشمير ويحتم عليهم بلف الشاش الأزرق المشبع (الغامق) أو الشملات (العصابات) السوداء بدون زركشة وأن تكون اللفة مدورة أو على قاووق (قلنسوة أسطوانية مستديرة). وأن يأمر المسلمين بأن يلف السيد منهم شاشاً أخضر والسني شاشاً أبيض ولا يدخل أحد المدينة بسلاحه وأن لا يحمل المسيحيون أسلحتهم في المدينة كما كانوا يفعلون قبلاً وأشار ابرهيم باشا المصري إلى النصارى أن يستبدلوا العمائم السوداء بالبيضاء إلى سنة

---

[1] اشتهر بين متأخري المعلوفيين عزتلو نجيب بك المعلوف بلقب أبي علي في زحلة وقد أجرى يوم ملاقاة جلالة إمبراطور ألمانية ما يدل على مهارته وحذقه حتى أخذت جلالة الإمبراطورة رسمه بيدها قرب بيت شلمة. ومنهم جرجس سمعان المعلوف من الحدث (بعلبك) وغيرهما.

1838م فأمر أولاد الأمير بشير الكبير أن يطرحوا العمائم ويلبسوا الطرابيش[1] فشاع لبس الطرابيش بدون لف العمائم عليها. وصار الأمير بشـير يلبـس الطربـوش العسكري والعامة تلبس الطربوش المغربي وكان أحمر طويلاً مسترسـل الذؤابـة (الشرابة) الزرقاء وبلغ ثمنه 55 غرشاً ويلبسون على أبدانهم القفطـان والجبـة ثم السروال وكان [illegible] يلبسون السروال من البفتة البيضاء (عنبر كيـس) والمنطقة الحريرية الطرابلسية والكبران [illegible] الأ[illegible]ق المطرز بالقيطان السود والطربوش المغربي ذو الزر الطويل. وكانت الأميرات يتبرجن [illegible] ولبس الجواهر الكريمة والأقمشة الفاخرة وشاع بين بنـات جنسـهن الطرطـور (الطنطور) وهو أشبه بقرن مخروطي الشكل قاعدته عند الرأس يصعد منعطفـاً إلى الأمام حتى يتجاوز طوله نصف ذراع يصاغ من الذهب والفضة ويوضـع فـوق الطربوش على الرأس ويرسل فوقه الشنبر (الإزار والنقاب) فيغطيه ويسدل علـى الرأس كاسياً جميع البدن أو معظمه ولقد عاب الإفرنج الشرقيات لهـذا الشـكل الذي لم يكن فيه مسحة من الكمال فحرم الأساقفة والكهنة لبسه فأبطل نحو سـنة 1848م وقد وصف الشاعر بطرس كرامة الحمصي أحد لابسيه بقوله:

ومطنطـر فتكـت لواحظـه بنـا وأذاع فينـا الفتـك ثم أشـاعا
فكـأن خلقتـه لـدى طنطـوره بدر أقـام علـى الجبـين ذراعـا

ولقد غنم الشيخ ناصيف أبو نكد سنة 1845م خمس مائة طرطور من لبنـان. ومن لباس النساء العقائص وهي كرات فضية في أسفلها ذؤابات حريرية يبلغ وزن الذؤابة مائة درهم وأكثر والكرات معظمهن ثلاث بذوائب يلبسنها على أكتافهن وقد تضع الفتيات منهن عوض الذوائب الحريرية سلاسل ذهبية أو فضية في أسفلها أرباع (رباعي) ذهبية. ومنها القفوية (نسبة إلى قفا العنق) تؤلف من نحو خمسـين جديلة حريرية مشتبكة يعلق بأطرافها نقود ذهبية وتطرح على الأكتاف مسترسلة. ومنها الشكة وهي نقود ذهبية ترصف على قطعة قماش ويعصب بها الجبين. ومنها المالويات وهي رقاقات فضية شبه دائرة توضع على جانب الرأس مقابل الطنطـور إلى غير ذلك من مثل الصنوبريات والصفا والعقد والسوار والخلخـال والخـاتم والحلق.

---

[1] جمع طربوش وهو فارسي بمعنى غطاء الرأس اشتهر من أنواعه المغربي والدلح والعزيزي وهو الشائع إلى اليوم.

أما النقود فكانت المعاملة إلى أوائل القرن التاسع عشر بالمحبوب والسكوين والبارة والغرش والكيس منها. وشاع الذهب البندقي[ق] الذي كان وزنه درهماً وخمس قمحات وعياره 23 قيراطاً وقيمته خمسة غروش. والمحبوب القديم الذي بلغت قيمته نحو أربعة غروش. ثم ضرب الذهب الجهادي والرباعي البندقي ثم عقبهما العادلي والغازي ثم البشلك والزهراوي والقمري وذلك في خلافة ساكن الجنان السلطان محمود. وفي خلافة ساكن الجنان السلطان عبد المجيد ضربت الليرة المجيدية والريال المجيدي وقطعهما وقد كثرت أنواع النقود في القرن التاسع عشر[1] وفي زمن الجزار كانت خمس مائة غرش تساوي بمعاملتنا الحاضرة خمسين ألف ليرة. وألف غرش نحو أربع مائة ريال.

أما الأثمان، فكان في زمن الغلاء ثمن رطل الخبز نصف غرش وكيل الحنطة خمسة وعشرين غرشاً وكيل الشعير عشرة غروش ورطل الحرير على الوزن الشامي (إحدى عشرة أوقية إلا ثلثاً كما مر في صفحة 154) المحلول بالطريقة العربية من 70 ــ 100 غرش والأصفر يبلغ 160 والأبيض 140. وكان ثمن العقارات بخساً فإن ثمن

[ق] نسبة إلى مدينة البندقية (فينيسيا) الإيطالية (المحقق).

[1] لما عرف عبد الله باشا والي عكاء بقرب مجيء ابرهيم باشا إلى سورية رفع المعاملة فزادها نحو عشرة بالمائة ولما اشتد الخلاف بينه وبين الأمير بشير الكبير نزح كبار التجار من عكاء إلى بيروت ولبنان حذراً من تقلبه وغدره وكان جدعون الباحوط قبل بطرس كرامة عند الأمير يرسله إلى عبد الله باديه لأنه كان ذا إلمام بالمعارف وتمكن اليهود أخيراً من إسخاط الدولة على عبد الله باشا فسعوا به لديها وعزلوه وتولى عوضه درويش باشا. وكانت النقود في أوائل القرن الماضي تنقلب قيمتها تقلباً فأكثرت الدولة العلية أوامرها لتنزيلها ولما رأت ما فيها من التقلب جعلتها نوعين الشرك والصاغ وهذا ينقص عن ذاك نحو الثلث فصار الناس يبيعون ويشترون على النوعين فالجهادي كانت قيمته بحساب الشرك 35 غرشاً وبالصاغ 25 والأموال الأميرية كانت بحساب الصاغ. واشتهر من النقود الذهبية إذ ذاك السربرائي الكامل قيمته 110 غروش والغازي الكامل 107 والجهادي اللين 117 والمشخص 120 وصك الملكة هيلانة الكامل 103 والقرانيصة الكامل المقرن 500 والقراقيصة غير المقرن 270 والربعية 10 والإسلامبولي 100 وأبو فرشخ 74 وغيرها. والنقود الفضية ريال العمود قيمته 25 غرشاً والمانوط 18 ونصف وأبو شوشة 24 والفرين (الفلورين) 3 والمصرية الفضية بارة واحدة والفنس المسكوبي 20 وجميعها ألغيت وشاعت النقود الحاضرة وقد فصلت ذلك في كتاب سميته (لطائف السمر في لبنان والقرن التاسع عشر) لن يزال مخطوطاً ومنه اقتطفت معظم ما مر وما سيجيء. أما بنو الباحوط فكانوا في دير القمر ومنهم نشأ جدعون هذا ثم الدكتور منصور الذي أدار مطبعة حكومة لبنان في بيت الدين مدة وله بعض المؤلفات التي طبعها فيها ومنهم فريق في بيروت نشأ منهم شبلي أحد صاحبي معمل الورق في أنطلياس الذي أنشئ سنة 1888م وعرف باسم باحوط وثابت ومنهم فريق في بعبدا نشأ منهم صقر الذي خدم الحكومة.

كرم الزيتون الذي ينتج قنطار زيت كان ثلاثين غرشاً. أما الأسعار المعتدلة فثمن كيل الحنطة غرشان وثلث ورطل الحرير ستة وثلاثون غرشاً ورطل الزيت سبع شواهي وكل عشرة أرطال دبساً 8 غروش إلى غير ذلك[1].

وكانت ملاهيهم كثيرة، فالأمراء يمازحون ندماءهم والمقربين منهم. وولع الشهابيون بالصيد بالبازي والكلاب فكانوا يصطادون الحجل والغزلان ودجاج الأرض (الشكب) وغيرها ومن راجع ديوان نقولا الترك وبطرس كرامة وغيرهما رأى أوصافهم للصيد وجوارحه والأمراء وخاصتهم وأيام صيدهم وأصول هذا الفن وفوائده وأكثر تسليتهم كانت بتدخين التنباك المطيب بالعود والند في النارجيلة[2] (الأركيلة) والدخان (التبغ) في الغليون[3] وتناول القهوة مطيبة بحب الهال وكان الأمير بشير الكبير مولعاً بالشبق (الغليون) حتى كان يسع ربع رطل مصري من التبغ (الرطل المصري أوقيتان إلا ثلثاً) وكان يتغالى بالنارجيلة أيضاً وعنده لإعدادها ناجي الرومي وطنوس الهنود وكان نخول يحمل غليونه وعطية يهيء نارجيلته. ومن أشهر الأمراء الشهابيين الأمير بشير الكبير[4] الذي تولى

---

[1] وقفت على قائمة تبين الأثمان والأجر في مطلع القرن التاسع عشر منها أن رطل الزيتون كان يباع بغرش وأربع عشرة بارة، ورطل التبغ بثلاثة غروش ونصف إلى أربعة ونصف ورطل الملح بعشر بارات ورطل اللحم بأربع وعشرين بارة ورطل (النحاص) بست بارات وقنطار النبيذ بسبعة عشر غرشاً ودرهم الفضة بغرشين ونصف وخمس بلمرات ومثقال الذهب بأربعين غرشاً وأجرة الفاعل اليومية 22 بارة وأجرة البناء الأسبوعية خمسة غروش ونصف إلى غير ذلك.

[2] اتخذت أولاً من النارجيل (الجوز الهندي) بعد إفراغه ووضع أنبوب قصبي فيه ثم اتخذت بعد ذلك من الزجاج فسميت الشيشة بالتركية بمعنى الزجاجة واستبدلت القصبة باللي (الناربيج لفظة فارسية بمعنى الحية الفارغة) يقال أن واضعها طهماز العجمي وهي شائعة إلى يومنا.

[3] الغليون فارسي أصله غليان بمعنى أنبوب وهو من خزف أشهره الطرابلسي له ماسورة (سريانية بمعنى القضيب) من أغصان الياسمين والورد والكرز والمكنس ونحوها وكثيراً ما يكون في طرفها زر كهربائي ونحوه ويسمى الغليون أيضاً شبقاً. وبقي التدخين شائعاً به إلى أواسط القرن التاسع عشر فاخترع الفرنسيون ورق اللفائف (السيكارات) وشاع في أوربة واتصل بالشرق وأكثر الناس اصطناعاً له الألمان وأكثرهم استعمالاً له المشارقة وكانت اللفيفة تدمج أولاً بواسطة اليد ثم وجدت الآن ملفوفة في صناديق (علب) وهي أنواع أشهرها الإسلامبولي ومن أنواعها السيكار وغيره.

[4] كانت دار الأمير بشير كثيرة النفقات فكان ينفق كل يوم على ألف وخمس مائة رأس خيل شعيراً وعلى بيته غرارة ونصفاً حنطة وثلاث قفات أرزاً وقنطاراً لحماً وكان خدمه وخاصته نحو ألفي رجل وكثرت في بيته التحف الفاخرة والرياش والأسلحة وجميعها ثمينة نادرة. وعند خروج الدولة المصرية من سورية كان في خزينته ثمانية آلاف وثلاث مائة وسبعون كيساً وهي نحو أربعة وستين ألف ليرة فرنسية. وكان يحب عمران بلاده

أحكام لبنان نحو ثلاثين سنة وكان مشهوراً بآدابه وعفته وورعه وقلة همه في طعامه وكان ربع القامة كثير الشعر حاد البصر عظيم الهيبة وقوراً شديد البأس حتى لم يستطع الناظر إليه أن يتفرس فيه طويلاً وكان جهوري الصوت حتى لا يحتمل سماعه عند غضبه وقد لقب بأبي سعدى وروى الشيوخ إلى الآن أحاديث غريبة عنه حتى أن امرأة كانت سائرة مرة في وادي العليق والليل حالك فالتقى بها أحدهم وسألها عن مسيرها في ذلك الظلام الدامس وهي امرأة فقالت: (أن أبا سعدى سائر معي يجرئني). وله أحاديث تدل على قوة عارضة وذكاء ذهن ومن أقواله المأثورة وهو في ريعان الشباب أن عمه الأمير يوسف أمره مرة بالذهاب إلى عكاء ليكون رهناً عند الجزار فأجابه الأمير بشير: «أخاف أن أذهب ولدك وأرجع ولد الجزار» وقلما كانت تفوته مسألة لا يعلم بها بعد وقوعها بقليل لشدة تيقظه وسهره. ومن أعظم أعماله بناؤه قصر بيت الدين[ق] المشهور وجر مياه نهر الصفا إليها بقناة أنفق عليها أكثر من مائتي ألف درهم وسخر جميع السكان يومين في السنة مدة اثنين وعشرين شهراً وكان القائم على جرها خليل عطية[1] الدمشقي. وقد ساد الأمان بزمن هذا الأمير وأنصف الضعيف من القوي ولما تولى الإمارة بعده الأمير بشير قاسم المعروف بأبي طحين وبالثالث أخذ عليه احتقار الأعيان والإساءة في مخاطبتهم فتغيروا عليه وحاصروه في دير القمر فتوسط أمره مشير بيروت فأرسل السيد عبد الفتاح آغا حمادة فأخرجه من الدير وحضر به إلى بيروت فكان آخر الشهابيين الحكام وبزمنه حدث انقسام البلاد إلى دروز ومسيحيين. وانتقل الحكم إلى الأمراء اللمعيين كما مر في صفحة 110 وبقي إلى تنظيم المتصرفية الجليلة.

فأرسل إلى مصر أربعة لدرس الطب منهم ابرهيم بك النجار ويوسف الجلخ وقبل سنة 1810 التطعيم بالجدري بواسطة لورلا قنصل النمسة وشاع استعماله فوقى المصابين من الخطر الشديد واشتهر بالتطعيم الطبيب يوسف برتران. وجمع الشعراء والأدباء في ديوانه وعقد لهم المجالس وكثيراً ما نظم أبياتاً واقترح عليهم تخميسها أو تشطيرها أو إجازتها ونحو ذلك. وقد ذكر في ديوان بطرس كرامة المطبوع صفحة 216 صدر مطلع له وهو (في سفح بيت الدين قد دفق الصفا) وله أبيات شطرت وسبعت في هذا الديوان صفحة 253.

[ق] ويقام فيه اليوم مهرجان سنوي فني يسمى مهرجان بيت الدين (المحقق).

[1] قدم بنو عطية من اذرع في حوران إلى لبنان في منتصف القرن الخامس عشر للميلاد وتفرقوا في بلاد عكار ولبنان ونشأ منهم وجهاء وأدباء فيهما وأشهرهم في لبنان من سكن سوق الغرب منذ القدم ونشأ بينهم المرحوم الدكتور سليم المتوفى حديثاً وأولاده والعالم شاهين أفندي شارح كثير من الكتب ومصححها ونجله الشاعر الناثر جرجي أفندي وغيرهم ومن عكار الدكتور سليم أفندي.

وسنة 1845م كان الأمير حمد الحرفوش متولياً حكم بعلبك فذهب ابن عمه الأمير محمد إلى دمشق وأحضر أمراً بعزله وأخذ الولاية فأرفقه الوزير بمحمد آغا بوظو وألف وخمس مائة من الجند الأكراد فأتوا إلى قرية بر الياس من قضاء البقاع فعلم الأمير حمد بهم وجمع جيشاً من بلاده بينهم كثير من المعلوفيين مثل شبلي وابرهيم عيسى وظاهر أبي يعقوب وأبي شديد عقل سابا وأخيه وأبي ملحم ابرهيم وغيرهم فخيموا في تمنين السفلى (التحتا) ثلاثة أيام ومعهم الأمير حمد فخرج ابن عمه الأمير محمد برجاله من بر الياس إلى بعلبك فلاقاهم حمد برجاله إلى الدهمية وهناك احتدمت نيران القتال فكانت ساعة لم يثبت فيها إلا البطل المدرب فكادت فرسان الأمير حمد تتقهقر لولا إنجاد المشاة إياهم فتم له الفوز وقتل من عسكر الأكراد نحو ستين ومن رجاله ثلاثة فقط فعاد إلى بعلبك ظافراً[2] وإذ ذاك وقعت الفتن بين الحرافشة على الملك فرأت الحكومة السنية من الحكمة أن تجزئ بلاد بعلبك وشرقي البقاع إلى مقاطعات صغيرة يتولى كل منهم شؤون جهة منها إلى أن ارتفعت يدهم كما مر في صفحة 155.

وسنة 1853 حدث خصام بين الأمراء الحرافشة والشلق (بمعنى الطويل وهو رجل كردي كثر عيشه) فقتلوه في تمنين السفلى (التحتا) وتحامل الأكراد عليهم فقصد المتهمون بقتله كفر عقاب فأكرم المعلوفيون مثواهم نحو سنة ونصف وهم

---

[2] ويروي الشيوخ قصيداً زجلياً قاله الأمير حمد إليك منه ما أشار به إلى بوظو:

ولك بوظو لا تسوق جنان   أنتم عشائر خصمكم فرسان

اسأل (العبد) يوم اللي أتاه سلطان بأرض الكرك دعاه مبطحا

يا كراد يا سواقة حمارا مين اللي شار بحرب الامارا

اسأل (عجاج) يوم قبلي قارا   من يد أبي السعود دعاه ملقحا

بوظو كيف بعقلك تقول   نحن خزاعا كم فختنا طبول

انشد (الهنادي يوم عين الوعول)   من يد (أبي عدلا) كم قتيل مطوحا

وحادثة العهد مر ذكرها في صفحة 220 ولكنه هنا أشار إلى العبد الثاني الذي حكم بعلبك فجاء جهجاه وسلطان الحرفوشيان إلى زحلة وخرجوا بسكانها لمواقعته وبينهم المعلوفيون فقتلوه أمام الكرك عند محلة الكروم قرب الطريق على بعد خمس دقائق منها إلى شماليها. وأما حادثة عجاج فكان هذا نسيب أحمد باشا اليوسف فحضر بخمس مائة فارس لمقاومة الأمير جواد الحرفوش الملقب بأبي السعود فوقع قتيلاً وذلك بزمن الدولة المصرية. ويوم عين الوعول ينسب إلى تلك العين الواقعة شمالي بعلبك وكانت العساكر المصرية سنة 1832م وعددها أربع مائة فارس تطارد الأمير أميناً الحرفوشي وولده الأمير قبلان الملقب بأبي هدلا ومعهما اثنا عشر فارساً فحدثت بين الفريقين موقعة أبلى فيها الأمير قبلان بلاء حسناً وكر بفرسانه على الهنادي وشغلهم حتى تمكن والده من الفرار ولحقه واتصلا بالآستانة العلية إلى خروج الدولة المصرية من سورية.

الأمراء فدعا وأفندي ابرهيم وابنه فارس وولدا الأمير سليمان تامر وداود مع بعض أتباعهم وأنسبائهم.

وسنة 1854م توفي الأمير حيدر اسمعيل اللمعي قائم مقام النصارى في قرية صربة من كسروان مفلوجاً بلا عقب فنقل إلى بكفية وأقيم له فيها مأتم حافل نادر وكان يحب المعلوفيين كثيراً مثل والده فاشتد حزنهم عليه وقاموا بمأتمه حسب عادة العصر أحسن قيام وكان من المشهور على ألسنة اللبنانيين أن قلم الخيل ومطاردتها كان في مآتم الأمراء اللمعيين لبني المعلوف ورفع البيرق (العلم) للمشايخ بني الحاطوم في كفر سلوان وحمل النعش للصليميين (سكان صليمة) وكان من أعظم المقربين منه البكباشي المرحوم أبو فارس مسعد أبو عقل المعلوف من فرع أبي مدلج من كفر عقاب اتصل به مدة طويلة ونال لديه منزلة ولما نفي الأمير مع من نفي إلى سنار كان محافظاً على أسرته بغيابه وكان من الذين اتصلوا بذلك الأمير أيضاً من المعلوفيين أبو عساف جرجس دياب وعماد عبود وطنوس اسطفان وأخوه جرجس ونقولا الغندور وروفائيل الشحروق وأخوه بطرس وغيرهم. وكان الأمير حيدر هذا مشهوراً بالرأي والفطنة وأخوه الأمير عساف بضرب السيف والشجاعة وأخوه الأمير حسن بلعب الجريد وركوب الخيل وكان معظم المعلوفيين من عهدة هؤلاء الأمراء الثلثة ولهم عندهم منزلة عظيمة ونفوذ ولا سيما في أيام حكم هذا الأمير ولا بأس أن نروي أهم ما عرف عنه فإنه كان يلبس الطربوش المغربي بطرة زرقاء (شرابة) ويلف عليها عمامة ثمينة ومنطقته من شال الطرما الأسود وسرواله من الجوخ الأزرق وفوقه فرو وجواربه (كلساته) من القطن نسج لبنان وغليونه من الفخار له ماسورة كرز غشيت بالقصب الفضي إلى قرب الغليون وأرسل منها ذؤابة (شرابة) وكانت ذات فم كهربائي بلغ ثمنها أكثر من ليرة وكان يضع تحت الغليون منفضة إسلامبولية من الصفر (النحاس الأصفر).

ولقد اشتهر هذا الأمير بصدق العبودية للدولة العلية فأنعمت عليه بالرتبة الثانية وبالعثماني المرصع والمجيدي الثاني ونال بعض الوسامات الأخرى من قداسة البابا ومن دولة بلجكة وغيرها. وسنة 1850م زارته في بكفية ماريان ملكة هولندة فأكرم مثواها وعند نزولها إلى بيروت بعث معها كاخيته المرحوم الشيخ عيد حاتم[1] والبلوكباشي مسعد المعلوف فودعاها إلى البحر وأرسلت إليه معهما كتاب

---

[1] ينتسب الحاتميون إلى أبي حاتم فرح الذي قدم من لحفد (جبيل) إلى فالوغة المتن فحمانة بولديه حاتم ونادر في أواسط القرن السادس عشر ومن هناك انتقل ولده حاتم بأولاده إلى سلخد (حوران) ثم امتد نسله إلى جبل

شكر بخط يدها وأهدته مسعطاً (علبة سعوط) وصورة السيدة عمل يدها من نوع الزيت. وعلى الجملة فإنه كان رحمه الله عادلاً ورعاً كريماً فصيحاً وديعاً لين العريكة طيب القلب تولى إحدى عشرة سنة ونصف وكان ربعة القوام سميناً حنطي اللون.

وسنة 1858م أثار محمد الخرفان من أمراء قبيلة الموالي[1] الأمير سلمان الحرفوش ليمده بجيش المناهضة عرب الحديدية الذين واقعوه ودحروه إلى قرية القاع على حدود قضاء بعلبك فجمع الأمير سلمان جنداً من جميع قضاء بعلبك وكان فيه من المعلوفيين ابرهيم عيسى (جد المؤلف لأبيه وقد صار كاهناً باسمه) وأبناء عمه هيكل صليبي وسليمان وداود كنعان واسطفان أبو ضو من شليفة وأبو شديد عقل سابا المعلوف من بيت شامة وغيرهم وسار في طليعة الجيش ابرهيم عيسى وسليمان كنعان المذكوران وجرجس نجيم من دورس وجرجس خشان من شليفة وحاملا العلم حمود الحاج سليمان وياغي الطفيلي من بعلبك. فلما بلغوا محل زين العابدين على بعد ثلاث ساعات من حماة في الثامن من تشرين الثاني التظى سعير الحرب، فأبلى عسكر الحرفوشيين بلاءً حسناً. واشتهر ابرهيم عيسى المعلوف المذكور بهجومه على الأعداء وإصابتهم بالرصاص، حتى قتل بعض أنفار، وكذلك فعل أنسباؤه ولا سيما أبو شديد عقل المعلوف وغيرهما، فزهقت الأرواح

عجلون فالكرك والسلط وتوطنوا أخيراً في قرية خبب وبقي بعضهم في عجلون وهم فيها إلى اليوم راجع صفحة 33 وذهب نفر منهم إلى حلب ومنهم نشأ المطران بولس حاتم وغيره. وأما أبو حاتم فرح وولده نادر فبقيا في حمانة واشتهر من سلالتها الشيخ صليبي الذي تولى مشيخة قريته بزمن الأمير بشير الكبير وتوفي سنة 1868م والشيخ طنوس الذي ترأس لجنة المساحة اللبنانية بزمن أمين أفندي واتصل بالحرافشة في بلاد بعلبك وتبادل الولاء مع المعلوفيين فيها ولا سيما بني شبلي. وولده الشيخ حاتم الذي ترأس لجنة المساحة بزمن المغفور له داود باشا متصرف لبنان الأول وأشهرهم المرحوم الشيخ عيد هذا الذي ولد سنة 1809م وتوفي سنة 1886م واتصل بخدمة الأمير بشير الكبير والأمير حيدر اسمعيل اللمعي وكان هذا يعتمد عليه بشؤونه وتوثقت عرى المودة بينه وبين البكباشي مسعد المعلوف المذكور وبين جميع المعلوفيين والحاتميين إلى اليوم واشتهر بوكالة رئاسة مجلس إدارة لبنان الكبير بزمن المغفور لهم داود باشا وفرنكو باشا وبعض مدة رستم باشا وكان معروفاً بسعة مداركه وكثيراً ما كان يملي على كاتبين أو أكثر بوقت واحد وبمواضيع مختلفة ومن أنجاله الآن صاحب الرفعة الشيخ يوسف عضو محكمة زحلة ونصري بك من كبار التجار في الولايات المتحدة.

[1] اشتهرت قبيلة الموالي بعيثها في تلك الجهة ففي سنة 1786م ناهضت عرب عنزة فوق حماة ولكنها اندحرت بعد أن قتل من الفريقين نحو ألف رجل وعاثوا في ضواحي حمص وحماة كما مر في الصفحة 221 فأعادت الكرة سنة 1789م ودفع غارتها قدور بك بعساكره الكثيرة التي كان معظمها من الحلبيين فقتل من الموالي نحو ألف رجل وهزم الباقين. وهكذا بقيت المواقع تتوالى إلى هذه السنة.

وانكسر الحديديون بعد أن قتل منهم أكثر من ثلاث مائة نفر، فطمع البعلبكيون بهم واقتفوا أثرهم ثم شغلهم النهب عن تأثرهم. فتقدم محمد الخرفان وأعطى الأمير سلمان أفخر المسلوبات ووعده أن يزوجه ابنته على مرأى ومسمع الأمير محمد الحرفوش فأوغر ذلك صدر هذا حقداً وكان قد أبلى بلاء حسناً. فلم يرَ مكافأة فانثنى على محمد الخرفان ورماه بالرصاص فجندله وعندئذ طمع الأعداء بهم فأعادوا الكرة عليهم بثبات جأش فأثخنوهم جراحاً ودحروهم إلى قرب مدينة حماة وهناك انكفوا عنهم فقتل من عسكر البعلبكيين أكثر من تسعين نفراً منهم عبد الله سعيد المعلوف. ومما يروى في هذه الموقعة أن جرجس خشان من أتباع المعلوفيين في شليفة اعترضه حين عودته منها ستة فرسان وأهانوه وسلبوه بندقيته فلما وصل شليفة وأخبر بذلك كنعان شبلي المعلوف ثارت النخوة برأسه وكان إذ ذاك شيخاً طاعناً في السن فحسب أن ذلك العمل إهانة للمعلوفيين فذهب بجرجس المذكور إلى حمص وبحث عمن سلب بندقيته فوجده واستعادها منه بعد أن أوسعه ضرباً وأثخنه جراحاً.

وفي أواخر هذه السنة (1858م) ثار الكسروانيون على المشايخ الخوازنة وحدثت بينهم مواقع قضت على هؤلاء بهجر بلادهم فجاء كفر عقاب منهم المشايخ أمين كسروان وباخس وأسرهما وتوفي منهم ثلاث نساء ما تزال أضرحتهن (حجرهن) أمام باب كنيسة سيدة الخرائب الكاثوليكية الشمالي إلى يومنا. وأنسباؤهم الآخرون لبثوا في وادي الكرم قرب كفر عقاب وهم المشايخ عباس شيبان والياس شيبان وأنطون نوفل وسرحال نوفل وبطرس نوفل وشيبان نور وأخوه سمعان ونساؤهم وأولادهم، فبقوا إلى سنة 1862م فأكرم المعلوفيون مثواهم لما بينهم من المودة القديمة الوثيقة العرى. والمتناقل على ألسنة الشيوخ أنهم جاؤوا من حوران إلى لبنان في وقت واحد وبينهم نسابة.

هذه خلاصة ما جرى للمعلوفيين في لبنان وضواحيه. ومما يستحق الذكر أنهم جاروا العصور فنشأ بينهم في كل عصر رجال وافقوا مبادئه فعرفوا بالبسالة والإقدام وشهدوا المواقع التي حدثت في أيامهم وأبلوا في بعضها بلاء حسناً، وكذلك في مواقع لبنان الأخيرة الثلاث التي حدثت سنة 1841م و1844م و1860م وسيمر بك في تراجم مشاهيره ما يدل على هذا. وأداروا الأعمال بدراية ونبغوا في إتقان اللغات وتحصيل العلوم والآداب وخدمة والصحافة. فكان منهم الفارس والبطل والإداري والأسقف والرئيس والكاهن والراهب والكاتب والشاعر

والصحافي والطبيب والصيدلي والغني والصديق إلخ. كل ذلك في ظل حكومتنـــــا السنية:

رعـــى الله ســيرَ العــادلين فإنـــه　يحقق آمـــال المواطـــن والشــعب
بسلطاننا المنصور للنجـــح نهتــدي　كما يهتدي الملاح في نجمة القطـــب

وأطيب ما يفوح شذاه من مسك ختام هذا البحث أن المعلوفيين كـــانوا في كل عصر مخلصي الطاعة لدولتنا العلية ولرجالها العظام و لم ينشأ بينهم من مرق من طاعتها فخدموا كثيراً من الأعمال التي أسندت إليهم بإخلاص وأكبر دليل علـــى صدق قولنا كثرة عددهم لعدم احتياح الدولة إياهم والحمد لله وكفـــى بطاعـــة الدولة العلية وعمالها وبخدمة الوطن العزيز والإنسانية فخـــراً لبنيـــها في العصـــر الحميدي الذي قالت فيه:

أفاض لنا العصر الحميـــدي أنـــوارا　فأينع روض العلم والفضـــل أثمـــارا
ولا عجب إن اشرق النور ســـاطعاً　فأسى هلال الملك في الأفق ســـيارا
تبادلـــه شمـــس المليـــك ضياءهـــا　تبادل أجـــرام الســـماوات أنـــوارا
لقد نال هذا العصر في عهده علـــيً　فخلد من تلـــك العجـــائب آثـــارا
(مطابع) فيها طـــاب نشـــر فوائـــد　(معاهد علم) كللت رأســـنا غـــارا
(جرائد) قد بثـــت قـــويم مبـــادئ　(مجـــامع آداب) تعـــزز مقـــدارا
فقـــابل رعـــاك الله بـــين ارتقائنـــا　وبين انحطاط قـــد تمثـــل إعصـــارا
فأين خرافات من الجـــهل أقلقـــت　أناساً بأوهام ومنـــها الحـــج حـــارا
على أن جيش العلـــم كـــر بعزمـــه　فقوض دور الجهل واجتـــاح ديـــارا
فقل إنما (العصر الحميدي) مظـــهر　لغيث علـــوم دام بـــالفضل مطـــارا
بسعى رجال العصر من طاب ذكرهـــم　فأهلاً به عصراً وأهلاً بهـــم جـــارا
فلا زال في ظـــل المليـــك رجالـــه　بأمن وتوفيـــق يطولـــون أعمـــارا
ولا زال ســـلطان البـــلاد معـــززاً　بإســـعاده حـــتى يعـــزز أنصـــارا

القطف الثاني

في الذين نزلوا الناصرة وضواحيها

مر بنا في الصفحة 129 و170 أن فرعي ناصر ونعمة المعلوف نزلا في جبل طور ثابور الذي مر وصفه في صفحة 129 فنشأ من فرع ناصر بنو اللحام ومويس (تصغير موسى) ودويري (نسبة إلى دوير حوران حيث ولدته أمه[1]) وحنين (تصغير حنا) ودعيبس ومن فرع نعمة بنو النجار ثم انتقلوا جميعهم إلى مدينة الناصرة، ولما شاهدوا المغارة التي بشر فيها الملاك جبرائيل مريم العذراء وهي تستقي من العين استولوا عليها وشيدوا لها درجاً لن يزال إلى يومنا. وكانوا يسرجونها كل ليلة ثم ساموا منهم أول كاهن الخوري توما بن نعمة المعلوف الملقب بالنجار، وكانوا هناك مظهراً للإكرام ونالوا نفوذاً عظيماً وبعد وفاة حاكم طرابلس الشام الذي قتلوا القشلق بعهده ذهب بعض أنسبائهم من كفر عقاب والمحيدثة وعشقوت وأقنعوهم بالعودة إلى لبنان فعاد بعضهم وسكنوا حمارة (المخمرة أي محل الخمر) في البقاع ولم يطل بهم المقام حتى عادوا إلى الناصرة وانتقل فرع النجار إلى شعب ومنها إلى جهات كثيرة في تلك الضواحي حتى كرك الشوبك كما سيجيء في باب النسبة.

ولما نشأ الزيادنة هناك كما مر في الصفحة 130 واتصلوا بالناصرة وابتنى أحدهم الشيخ ظاهر المشهور قصراً فيها أحب المعلوفين وقربهم إليه واعتمد عليهم في وقائعه الكثيرة وأقطعهم عقارات في مرج ابن عامر الأفيح وفي شعب[2] وغيرهما.

---

[1] لقد تفرق شمل هذه الأسرة في حوران وغيرها مدة ثم عاد أفرادها إلى الناصرة وضواحيها كما سنرى وذلك نظراً للاضطرابات والقلاقل التي كانت في ذلك العهد.

[2] شعب قرية من أعمال عكاء على بعد أربع ساعات منها عدد سكانها المسيحيين نحو مائة وجميعهم من بني المعلوف المعروفين بلقب بني النجار والمسلمين نحو سبع مائة وحاصلاتها الحبوب وإليها ينسب بني الشعبي وهي أسرة هجر جدها حوران إلى شعب ثم تفرق بنوه في طبرية وصور ويافة وعرفوا بفرعين بني الحكيمي نسبة إلى جدهم الذي كان طبيباً (حكيماً) وبعضهم الآن في صور ثم بيت الشعبي الذي نزح جدهم إلى لبنان وهو الخوري اسطفان بن سليمان الشعبي سكن أولاً قرية عميق وسيم عليها كاهناً وتقرب من الأمير بشير الكبير والشيخ بشير جنبلاط وكان طبيباً توفي سنة 1818م وأرخه نقولا الترك بقوله من أبيات:

ومضى إلى دار البقا حيث التقى   أجر التقى المعدود للمبرور

وبكيت قالوا ما أبكاك يا   هذا المؤرخ قلت مات الخوري

وكان قد نشأ بينهم الخوري جرجس بن نصر بن نعمة المعلوف الملقب بالنجار وهو كاهنهم الثاني، فنبغ من أولاده الخوري يوسف فأحبه الشيخ ضاهر واعتمد عليه في شؤونه واستشاره في ما أعضل منها وفوض إليه حله بدرايته.

وسنة 1771م اتصل ابرهيم الصباغ من نصارى عكاء بخدمة أبي ضاهر[ق] العمر فصار قيم بيته وصاحب ديوان كتابته. وكان في ذلك الديوان ميخائيل بن عبود البحري الحمصي فأحبه الصباغ وقدمه. وتمكنت المودة بين المعلوفيين وآل الصباغ والبحري، ونفذت كلمتهم جميعهم عند أبي ضاهر ولا سيما الخوري يوسف النجار المعلوف. وفي هذه السنة كان بعض فرعي نعمة وناصر المعلوف في الموقعة التي حدثت بين عثمان باشا الصادق والي دمشق وبين الشيخ ضاهر وجيش المتاولة المتحدين معه، فانتشب بينهم القتال في بحيرة الحولة فأوقع جيشهم بجيش الباشا وقتلوا منهم كثيرين وغرق عدد في الماء. وكان والي صيداء إذ ذاك درويش باشا ابن عثمان باشا المذكور فانهزم هو ووالده بقليل من العسكر إلى دمشق، ثم عاد درويش إلى صيداء فعصى عليه مشايخ المتاولة الذين أثارهم ضاهر فأرسلوا يتهددونه ليخرج من صيداء، فكتب والده عثمان إلى الأمير يوسف الشهابي أن يقوم بعسكره اللبناني ويردع المتاولة فنهض من دير القمر بنحو عشرين ألفاً كان فيهم بعض المعلوفيين وذلك سنة 1772م، فاعتصب[ق] عليه المتاولة والشيخ ضاهر وخانه بعض رجاله فلم ينجح في هذه الحملة، بل عاد إلى لبنان مدحوراً.

وسنة 1773م أنعمت الدولة العلية على ظاهر بولاية صيداء وعكاء وحيفا (الفرضة) ويافا (الجمال) والرملة ونابلس وإربد وصفد وما إليها وذلك بتقليد (فرمان) فاستفحل أمره وزاد المعلوفيون لديه منزلة.

وسنة 1774م تأخر الشيخ ظاهر عن دفع المرتبات الأميرية. وفي شهر نيسان من السنة التالية (1775م) حضر من مصر محمد بك أبو الذهب[1] بمائتي ألف محارب

وكان له ولد اسمه جرجس فسكن جزين وصار كاهناً ونشأت هناك أسرته باسم الخوري واشتهر ولداه اسطفان وسليمان بالطب ومن أولاد سليمان رفعتلو قيصر أفندي الخوري مسجل الصكوك في محكمة جزين وهو وحيد أسرته.

[ق] وذكرت في أمكنة أخرى ظاهر (المحقق).

[ق] اعتصب: أي اتحد مع (المحقق).

[1] كان أبو الذهب مملوكاً من أعظم رجال دولة علي بك المصري يعتمد عليه في شؤونه فألبسه نحو سنة 1764م كاشفاً على المنوفية ثم ألبسه سنجقاً وكانت عادة الغز حين لبس أحدهم ذلك أن يخرج من دار أستاذه

(كما ذكر القس روفائيل كرامة أو بستين ألفاً كما ذكرت تواريخ لبنان الأخرى) وذلك للاقتصاص من ظاهر المذكور فحاصر مدينة يافة ستين يوما وفتحها وقتل معظم من فيها من النصارى والمسيحيين والكهنة ورهبان الإفرنج نحو سبعة آلاف نفس وخسر كثيراً من جنوده وكان عليها الشيخ كريم الأيوب ابن أخ الشيخ ظاهر. ثم حاصر عكاء فهرب منها الشيخ ظاهر بمن معه إلى صيداء. وخرج من عكاء الشيخ علي بن ظاهر ونهب المال الموجود في خان الإفرنج. فغضب عليه أبو الذهب فجمع ظاهر أولاده وهرب إلى عرب عنزة. ووقع بأيديهم يوسف بن ابرهيم الصباغ في مدينة يافة وتخلص وفر بأسرته إلى دير مارجرجس الشير في سوق الغرب من لبنان. وقد خرب أبو الذهب دير مارالياس الكرمل الذي كان بيد رهبان الإفرنج (البادرية) وعلى أثر هذا توفي فجأة سنة 1118هـ (1774م) فأرخ الشيخ أحمد البربير وفاته بقوله وهو من نوادر التواريخ الشعرية:

لما دنا نيل المنى والهمّ عنا قد ذهب
والسعد أقبل نحونا أرخت مات أبو الذهب

ــ 1118هـ

فعاد ظاهر إلى عكاء بعشيرته وقومه حاسباً أنه تخلص من شره.

ولكن أحمد باشا الجزار كان قد ذهب إلى الآستانة العلية وسعى بظاهر العمر فأعطي ولاية صيداء وعكاء وبعثت الدولة معه إحدى عشرة مركباً بقيادة حسن باشا غازي رباها (قبطاها) وفوضت إليهم قتل ظاهر. فلما وصلت العمارة سنة 1775م إلى يافة بعث الربان إلى ظاهر بطلب الأموال الأميرية فجمع أولاده وأرباب دولته وبينهم الخوري يوسف النجار المعلوف وابرهيم الصباغ وتفاوضوا في المسألة متناقشين فيما يجب أن يفعلوا. فكان رأي الأب يوسف المذكور دفع الأموال الأميرية لأنها فرض على الرعية وذلك أدعى للحزم وأدل على الصدق وكان من رأيه أحمد آغا الدنكزلي رئيس المغاربة في عكاء، فقال له: «أن سيف الدولة طويل

وينثر الفضة على الخدم، فنثر محمد هذا الذهب فلقب بأبي الذهب. وأنفذه علي بك إلى الحجاز سنة 1769م فاستظهر على شريف مكة مساعد بن زيد. ثم إلى سورية لمظافرة الشيخ ظاهر ثم عاد سريعاً إلى مصر. وتغير على ظاهر وسعى به لدى سيده علي بك ثم ظهرت منه خيانة غيرت سيده عليه، فحدثت بينهما مواقع انتهت بظفر أبي الذهب فأخذ منه القاهرة سنة 1770م وفر علي بك ورجاله إلى عكاء. وسنة 1772م استقدمه أبو الذهب وأثار بينهم فتنة جرح بها علي بك فدس له سماً وأماته ثم جاء سورية وطمع ببلاد الشام ففاجأته المنية وتوفي ونقلت جثته إلى مصر.

ومثلنا لا يخاصم مثلها وليس علينا عار في طاعتها والذي يفرط من مالنا في رضاها يتكفل ببقاء الولاية في يدنا بخير منه». فاستصوب الشيخ ظاهر هذا الرأي وكاد يعمل به قائلاً: «إنني قد طعنت في السن ولم يبق لي جلد على الحرب والفرار وقد شخت في خدمة الدولة وبقي من أيامي نزر فليكن كالماضي». ثم التفت إلى ابرهيم الصباغ وقال له: «أعدد لنا مالاً لنرضي به الدولة ونكتسب رضاها». فقال ابرهيم: «ليس عندنا ما يكفي» فقال له أحمد آغا المذكور: «أعطني مائة ألف غرش فأدفعها للقبطان وأستجلب العفو» فقال ابرهيم: «ليس عند الشيخ إلا سيف يلمع ونار تسطع». وقام من المجلس وانصرف وهو يكاد يتميز غيظاً. وارفض المجلس والكاهن المعلوفي والدنكزلي متكدران لأنهما كانا يعلمان ما عند الصباغ من الأموال.

ولما استبطأ الربان الرسول أوجس من الشيخ ظاهر تغييراً ومروقاً من طاعة الدولة فأطلق القنابل على المدينة وخان المغاربة ظاهراً، فلم يطلقوا قنبلة. فلما رأى الأحبولة التي وقع فيها ندم على مجاراته الصباغ ففر، وبينما هو خارج من باب المدينة رماه مغربي برصاصة أصابت منه مقتلاً فصرع جديلاً مخضباً بدمائه، فقطعوا رأسه وأرسلوه إلى الربان. أما ابرهيم الصباغ ففر إلى حمى الشيخ علي الدرويش وهناك قبضوا عليه واستقروه ليظهر لهم أموال الشيخ ظاهر فوقفوا منها على ألفي كيس فضبطوها. وفي تاريخ الجزار للدكتور ميخائيل مشاقة اللبناني أنهم ضبطوا من خزائنه أكثر من أربعين ألف ألف غرش نقوداً ما عدا الخيول والسلاح والتحف والبساتين والأبنية والذخائر فصح به قول الشاعر العربي:

وقد تهلك الإنسان كثرة ماله　　كما يذبح الطاووس من أجل ريشه

ودخل الربان حسن باشا عكاء ثم أخذ ابرهيم الصباغ وخزائن ظاهر وعاد إلى الآستانة فتوفي فيها الصباغ وقيل أنه شنق على صاري المركب.

وهكذا انتهت دولة الزيادنة وقد وصف فولني الفرنسي الشيخ ظاهراً بقوله: «لم ترَ سورية مثيلاً لظاهر العمر في الأزمنة التي توالت عليها لأنه كان داهية في السياسة حكيماً محنكاً، ولكنه كان طماحاً طماعاً ومن صفاته الحسنة أنه لم يكن ليميل إلى التحيل والدهاء بل يجاهر بمكنونات صدره ولو تكلف ما لا يطاق وأحب النصارى ورفع منزلتهم وحكم بالعدل في رعيته». ونشأ من أولاده علي وعثمان وسعيد وأحمد وصالح. فعثمان كان شاعراً وشيخاً على عكاء. وروعي

أدبه فلم ينفَ ولا قتل وقد اتصل بالآستانة العلية ونال رتبة ميرميران ونصب خداوندكار مؤبداً. وخلف أخوه علي ولدين أحدهما فاضل بك الشاعر المشهور وأخوه أحمد نشأ من بنيه يوسف خالص بك الشاعر المجيد كما ذكر المرحوم جودت باشا.

وسنة 1776م جاء أحمد باشا الجزار ليستلم زمام أمور تلك الجهات كما ذكر آنفاً، فدخل صيداء في شهر آذار ثم عاد إلى عكاء وأوقع علياً بن ظاهر الذي كان محاصراً في حصن دير حنا فقتل من عسكر الجزار عدد كبير. وفي صيف هذه السنة جاءت بعض المراكب من الآستانة إلى بيروت وعكاء لطلب الأموال الأميرية من الأمير يوسف والبحث عن أموال بني الصباغ فهرب النصارى من المدينتين. وفي شهر أيار كانت المراكب في عكاء فخاف رهبان القدس الذين في دير الناصرة، فأرسل إليهم رئيسهم العام أن يقفلوا الدير ويهربوا ففعلوا كذلك وهرب المسيحيون وبينهم بني المعلوف وتفرقوا في جهات حوران وضواحيها. واستولى الجزار على عكاء وكان فتاكاً ظلوماً كما مر في صفحة 210. ومما رواه عنه أحد مؤرخي الإفرنج، أنه كان عندما يخرج لمشارفة العمل يسير الإنكشارية في مقدمة موكبه وهم مدججون بالسلاح ومن وراءهم التفكجية (حملة البنادق) على الأقدام وبيد كل منهم سوط (كرباج أو مقرعة) جدل من جلود ثيران ثم الجلاد رافعاً بيده البلطة (الفأس الصغيرة) التي كان يقصل الأعناق بها ووراءه الجزار على ظهر جواده ووراءه الخصيان والمماليك والشبقجية (حملة الغليون) والخدم والحشم وكلهم خاشعون كأن على رؤوسهم الطير. وقد مر في سياق كلامنا الماضي كثير من حوادثه نجتزئ الآن عن الإفاضة بإعادتها لضيق المقام.

ومن أهم ما يستحق النشر أن البنادقة كانوا في زمن الزيادنة والجزار قد كثروا في عكاء وبعض المدن التي تجاورها. ففي زمن ظاهر العمر قدم جاكومو (يعقوب) وابنه توماس ابيلا[1] المالطي فكانا يتعاطيان التجارة بين عكاء ومالطة

---

[1] أصل أسرة ابيلا من بلاد قطالونية في أسبانية جاء أحدها ريمند ابيلا من صقلية إلى مالطة نحو سنة 1350م ثم اتصل أحد فروعها بعكاء سنة 1583م ومنها الآن فرع في صيداء يعرف ببيت المالطي لأنه قدمها من مالطة جدهم يعقوب هذا ونبغ من بني ابيلا يوسف الذي تولى وكالة قنصلية الإنكليز في صيداء وخلفه أولاده يعقوب وحبيب ثم الدكتور شبلي ومن أدبائهم رفول وجرجس ولهما بعض منظومات ومساجلات مع أدباء عصرهما كالشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الأسير وغيرهما وفيهم إلى عهدنا أدباء أفاضل. راجع مجلة المشرق 254:6.

وأوربة فجمعا ثروة طائلة وأقرضا الجزار أموالاً واستوطنا عكاء وصار لنسلهم بسطة من العيش. وسنة 1792م كان سوف قرا علي[1] الحلبي ترجمان البنادقة المقبول عند الجزار وكذلك أخوه الياس. وكانت التجارة معظمها ببزر القز والحرير والقطن ونحو ذلك. وكان يوسف بتراكي من مدينة كوركو التي كانت من متوليات مشيخة البندقية من الروم الأرثوذكسيين وقد لقب بمشاقة لإتجاره بلحاء القنب والكتان (والمشاقة عند عامتنا الحرير الغليظ الخيوط) وذلك بسفينة له كان يقصد بها القطر المصري وسواحل سورية ولا سيما طرابلس الشام فاستوطنها وتزوج بفتاة من ضواحيها من قرية انفة (وهي اليوم من الكورة) فتوفي عن ولده جرجس الذي نقل إلى صيداء وأتجر فيها بالتبغ وصار كاثوليكياً وله يد بأوقاف دير المخلص ولن يزال اسمه على جوانب الهيكل في كنيسة ساعد ببنائها ثم رحل إلى صور و لم يكن فيها مسيحي، فتقاطر المسيحيون إليها وبنى لهم كنيسة القديس توما ومسجداً للمسلمين فاشتهر ورزق ابرهيم أرومة المشاقيين في سورية وبشارة جدهم في مصر ومن سلالة ابرهيم المذكور رشا جرجس أبو الدكتور مخايل مشاقة فصادره الجزار وسلب عقاراته وأمواله فرحل إلى دمياط ثم إلى بيروت فدير القمر واتصل بخدمة الأمير بشير المالطي فأقامه أميناً على صندوق المال ومنه نشأ المشاقيون[2]. ولما سكنت الاضطرابات بفضل حكومتنا السنية عاد المعلوفيون إلى بلادهم ونشأ منهم في الناصرة وضواحيها تجار وأغنياء اشتهروا بعظم ثروقم نخص منهم داود بن طنوس اللحام الذي اقتنى أملاكاً واسعة ورزق حظاً من التجارة. وكنا نود أن نفصل ما جرى لهذين الفرعين تفصيلاً مطولاً ولكننا لم نقف على ما

[1] معنى قرا علي أو قرألي بالتركية اليد السوداء وقد نبغ من هذه الأسرة الحلبية المطران عبد الله الذي ترجمته بمجلة المشرق 625:10 وتوفي سنة 1742م وقالت في وصفه: أن والده كان يرغب أن يعلمه التليانية رغبة في صناعة التجارة ومعاطاة البندر.

[2] ومن أولاده ميخائيل العلامة المشهور ولد في رشمية سنة 1800م وتوفي في دمشق سنة 1888م وقد تلقى بعض العلوم على أولاد فرنسيس باز في دير القمر سنة 181م ثم درس العلوم الفلكية على خاله بطرس العنحوري وسكن دمشق وله مؤلفات تدل على تضلعه بالعلوم منها (المعين) في الجداول الفلكية والحسابية و(الجواب على اقتراح الأحباب) وهو في تراجم المشاقيين وأصل أسرهم وحوادث سورية منذ عهد الجزار إلى سنة 1873م وقد أخذنا عنه بعض الفوائد. وله (الرسالة الشهابية في الصناعة الموسيقية) طبعت في مجلة المشرق ثم بكتاب على حدة. ومن أولاده رفعتلو ناصيف بك والدكتور ابرهيم أفندي وغيرهما ونشأ ممن بقي في دير القمر من هذه الأسرة الدكتوران سليمان أفندي وداود أفندي وغيرهما.

يروي الغليل من أخبارهم وهم مثل أبناء عمهم الفروع السابقة الذكر مخلصو الطاعة للدولة العلية وحافظون لمودة أصدقائهم ومجاوريهم.

وهذا موعد الكلام عن نسبة الفروع المعلوفية جميعها مع تعيين مواطن كل قسم منهم وسير مشاهيرهم وهو صفوة ما وصلت إليه يد البحث من أخبارهم. والله الهادي إلى سواء السبيل.

الحديقة الثالثة

في نسبة بني المعلوف وسيرهم وفيها أشجار

الشجرة الأولى

في الأخوة الخمسة في لبنان ولها فروع

الفرع الأول

في علم الأنساب والسير وفيه قطفان

القطف الأول

في النسب

وما الفخر بـــالعظم الرميـــم وإنمـــا فخار الذي يبغى الفخـــار بنفســـه

النسب لغة القرابة أو مصدر نسبه إذا وصفه وذكر نسبه وجمعـــه أنســـاب. وانتسب واستنسب إذا ظهر نسبه وذكره. والنساب والنسابة العالم بالأنســـاب. والنسيب والمناسب ذو القرابة. والنسب في اصطلاح العرب علم يعرف به أنساب الناس وقواعده الكلية أو الجزئية والغرض منه الاحتراز عن الخطأ في نسب شخص. والنسب نوعان نسب بالطول وهو ما كان بين الآ باء والأبناء ونسب بـــالعرض وهو ما كان بين الأخوة وبني الأخوة وبني الأعمام وجملة الأنساب ثلاثة أقســـام كما في بلوغ الأرب للألوسي (176:3) والدون ومولودون ومناسبون. فـــالوالدون هم الآباء والأمهات والأجداد والجدات. والمولودون هـــم الأولاد وأولاد الأولاد المسمون بالصفوات. والمناسبون هم من عدا الآباء والأبناء ممن يرجع بتعصيـــب أو رحم اهـــ.

ووصفه ابن عبد ربه في العقد الفريد (37:2) بقوله: النســـب هـــو ســـبب التعارف وسلم إلى التواصل به تتعاطف الأرحام الواشجة وعليه تحافظ الأواصــــر

القرية قال الله تبارك وتعالى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، فمن لم يعرف النسب لم يعرف الناس ومن لم يعرف الناس لم يعد من الناس. وفي الحديث: تعلموا من النسب ما تعرفون به أحسابكم وتصلون به أرحامكم. اهـ. ولقد اعتنى العرب بحفظ أنساهم إلى صدر الإسلام فاختلطوا بالأعاجم وتعذر ضبط أنساهم بالآباء، فانتسب كل مجهول إلى بلده أو حرفته ونحو ذلك حتى غلب هذا النوع. وقد اعتمدوا على هذا الفن بمعرفة أصولهم وفروعهم ومواريثهم وحضوا على اتقانه فقال الإمام عمر بن الخطاب (رضه): تعلموا النسب ولا تكونوا كنبيط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا وكذا. وقال أيضاً: تعلموا أنسابكم تعرفوا ها أصولكم فتصلوا ها أرحامكم. وقال الإمام علي: أكرم عشيرتك فإهم جناحك الذي به تطير فإنك هم تصول وهم تطول وهم العدة عند الشدة أكرم كريمهم وعد سقيمهم وأشركهم في أمورك ويسر عن معسرهم. وقال ابن خلدون: فإذا اختلفت الأنساب واختلفت فيها المذاهب وتباينت الدعاوي استظهر كل ناسب على صحة ما ادعاه بشواهد الأحوال والمتعارف من المقارنات في الزمان والمكان وما يرجع إلى ذلك من خصائص القبائل وسمات الشعوب والفرق التي تكون فيهم متنقلة متعاقبة في بنيهم.

وكان الجاهليون منهم يحافظون على أنساهم للتناصر على الأعداء وللتفاخر بالآباء مثلما كان يفعل اليهود واليونانيون والرومانيون من الأمم التي اتصلوا ها، ولكن العرب أشد حرصاً على النسب، فإهم لم يحبوا إلا من كان مولوداً من أبوين عربيين واحتقروا المذرّع[1] الذي أبوه أعجمي والهجين الذي أمه أعجمية، ولكنهم بعد أن جاء الإسلام اختلطوا بالأمم الأخرى وتزاوجوا[ق] منهم رفعوا الهجناء عملاً بما قال شاعرهم:

لا تشتمنّ امرءاً من أن تكون له أم من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات القوم أوعية مستودعات وللأحساب آباء

واصطلحوا في أنساهم أن من كان منهم بني أب واحد فهم القبيلة. فإذا كانوا بني أب واحد وأم واحدة فهم بنو الأعيان. فإذا كان أبوهم واحداً وأمهاهم

---

[1] كأنه سمي بالرقمتين في ذراع البغل لأهما جاءتاه من جهة الحمار.

[ق] ولا سيما في العصر العباسي (المحقق).

شتى فهم بنو العلات. فإذا كانت أمهم واحدة وآباؤهم شتى فهم بنو الأخيـــاف. وقال ابن حزم: جميع قبائل العرب راجعة إلى أب واحد سوى ثلاث قبائل وهـــي تنوخ وعتق وغسان فإن كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون. وقال الأصمعـــي لم يقل أحد في تفضيل أخ على أخ وهما لأب وأم مثل قول ابن المعتز لأخيه صخر:

أبــوك أبي وأنــت أخــى ولكـــن تفــاضلت المنــاكب والـــرؤوس

وقد ينتسبون إلى الأم مثل الياس بن مضر فإنه ولد مدركة وطابخة وقمعـــة وأمهم امرأة من قضاعة اسمها خندف، فانتسب ولد الياس كلهم إليها وقيل بطـون خندف بن الياس بن مضر بن نزار إلخ..

وجاء في كليات أبي البقاء: إن الحسب ما تعده من مفاخر آبـــائك ويقـــال الحسب من جهة الأم والنسب من جهة الأب. وعندهم الجرثومة والأرومة والمحتد وهي بمعنى أصل النسب.

أما اعتبارهم للشعوب وأقسامها فنرى أن ترتيب الإمام الوردي في كتابـــه الأحكام السلطانية هو أولى بالاعتبار وهاك ما قرره: الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة. وقال الماوردي: رتبت أنساب العرب ســـت مراتـــب فجعلت طبقات أنساهم وهي مرتبة على بنية الإنسان فســـميت الطبقـــة الأولى الشعب لأنها بمثابة أعلى الرأس وقيل لأنه انشعب منه أكثر مما انشعب من القبيلـــة. والقبيلة لتقابلها وتناظرها وأن بعضها يكافئ بعضاً وهي من قبائل الرأس. والعمارة من الاعتمار والاجتماع فهي بمثابة العنق والصدر من الإنسان. والبطون لأنهـا دون القبائل. والأفخاذ لأنها دون البطون. والفصيلة أهل بيت الرجل خاصة وهي بمترلـة الساق والقدم. والمشهور في اصطلاح قومنا أن يسموا الأسرة عيلة وأصل المعـــنى فيها الفقر. والفرع الجب من معنى القطع ولكننا دعونا الأولى أسرة والثانية فرعـــا لأنهما أولى بهذا. والمشهور في الأعلام الاسم والكنية واللقب فلذلك نلمع باختصار إلى اصطلاح العرب فيها تتمة للفائدة:

قال النبي (صلعم): أحب أسمائكم إلى الله تعالى عبـــد الله وعبـــد الرحمن وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة. وقيل لأبي الدقيس الكـــلابي: لِـــمَ تسمون أبناءكم بشرّ الأسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم بأحسنها نحـــو مـــرزوق ورباح فقال: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا. وللتسمية عندهم أساليب فمنهم من يسمون باسم النبات كثمامة وطلحة وعلقمة وقتادة أو بأسمـــاء الطـــير

كالقطامي (الصقر) وعكرمة (الحمامة) والهيثم (فرخ العقاب). أو بأسماء السباع كالأوس (الذئب) وحيدرة (الأسد) وكلثوم (الفيل). أو بأسماء الهوام كالجندب (الجرادة) والذر (أصغر النمل) والمازن (بيض النمل). أو بالصفات كالصمة بمعنى الشجاع وناشرة وهي واحدة النوشر أي العصب في باطن الذراع والنضر بمعنى الذهب والحارث بمعنى الكاسب للمال والجامع له والأخطل بمعنى المسترخي الأذن وقريش من التقرّش أي التكسب من التجارة والنوفل أي العطية. وقد تكون التسمية للتفاؤل بالظفر ونحوه كغالب ومالك وطارق أو بالحظ كسعد وغانم أو بالقوة كصخر وحجر ونحو ذلك. وقال الجاحظ: لا تليق ثلاثة اسماء بأعيانها إلا في الملوك والسادة ألا ترى أن بهرام بن بهرام بن بهرام من ملوك العجم والحارث بن الحارث بن الحارث في ملوك غسان والحسن بن الحسن بن الحسن في سادة الإسلام.

ومما يذكر من حرصهم على حفظ أنسابهم أنهم كانوا يسمون أولادهم وأحفادهم بأسماء من درج منهم أحياء لذكره وحفظاً لأسمائهم وهي عادة مفيدة في الأنساب تساعد كثيراً على حفظها وربما اشتد بهم الحرص فسموا بأسماء الأحياء تحبباً. ومع ذلك فأنت ترى أن كل طائفة لها أسماء متميزة فاليهود يسمون بإسحق وأشعيا وصموئيل وحاييم ونحو ذلك. والمسيحيون بنقولا وأنطونيوس ومريم وبربارة. والمسلمون بمحمد وأحمد وقاسم وعلي وفاطمة ومثلهم الدروز وغيرهم لأن كلاً منهم يتخذ أسماء أنبيائه ومشاهير دينه وشهدائه ونحوها فيسمي بها ويحييها بعد موت مسمياتها.

واليوم قد ضعف أمر النسب في الأسر الشرقية لتفننها بالتسمية والإعراض عن حفظ أسماء الدارجين من قومها وذلك نحسبه من التمدن الحديث الكاذب إلا في بعض الأحيان ونحن مع شدة مسيس الحاجة إلى تكرير أسماء الدارجين في أعقابهم نعذرها إذا طرحت ما كان منها خشناً غير مألوف ولا نعذرها إذا كانت لا ترضى إلا الأسماء الإفرنجية أو المتفرنجة فتضيع حلقات كثيرة من سلاسل النسب ويضطرب نظامها.

والإفرنج يسمون الرجل باسم أسرته وفي ذلك التباس. ونظن أن حضرة رؤساء الأساقفة والكهنة خالفوهم بهذه العادة فاكتفوا باسمهم وتركوا اسم أسرتهم وفي كل ذلك اضطراب وتشويش يغنينا التصريح به عن كتمه لغير داع فإن قصد بذلك الاختصار فليس الأمر بذي شأن يحمل على هذه التعمية. وهنا محل لتنبيه

أنسبائنا الكرام ولا سيما فروع أبي سمعان الملقب بالكريدي وأبي نعمة وأبي ناصر الملقبين باللحام والنجار ونحو ذلك أن يضيفوا إلى أسمائهم لقب المعلوف لحفظ النسبة على تراخي الأيام.

واتفق العلماء على جواز الألقاب على وجه التعريف لمن لا يعرف إلا بذلك كالأعمش والأخفش والأعشى إلخ، وقل من ليس له لقب في الجاهلية والإسلام و لم يزل التلقيب جارياً في مخاطبات ومكاتبات جميع الأمم على اختلاف مراتبها ومناشئها غير أنها كانت تطلق على حسب الموسومين وأما ما استحسن من تلقيب السفلة بالألقاب العالية حتى زال الفضل وذهب التفاوت وانقلب النقص والشرف شرعاً واحداً فمنكر. وقيل إن بني قريع رفع عنهم العار بلقبهم أنف الناقة عندما مدحهم الحطيئة بقوله:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

ومن الألقاب المشهورة عندهم ذو النورين لعثمان بن عفان وذلك لأنه كان مع زوجته أحسن زوجين في الإسلام على أحد الأقوال. والعتيق والصديق لأبي بكر وذلك لجماله وتصديقه النبي. والفاروق للإمام عمر لأنه فرق بين الحق والباطل. والكامل لسعد بن عبادة لأنه يكتب ويحسن الرمي والعوم. والفياض لعكرمة بن ربعي لأنه كان سخياً. والمصطلق لخزيمة بن سعد الخزاعي لحسن صوته. وذو الرئاستين للفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم فولي رئاستي الجيوش والدواوين. وقد يغلب اللقب الاسم فيشتهر به وذلك كثيراً إلى أيامنا لا حاجة إلى التمثيل له.

أما الكنى فكثيرة عندهم حتى قالوا لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا للعرب وهي مفاخرهم كما قال شاعرهم:

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوأة اللقب

فقد يكنى الرجل باسم ولده والمرأة كذلك، وإذا كنوا من لم يكن له ولد فعلى جهة التفاؤل وبناء الأمر على رجاء أن يعيش فيولد له.

وقد يكنون بما يلائم المكني من غير الأولاد كقول النبي (صلعم) في الإمام علي (رضه) أبو تراب وذلك لأنه تمرغ فيه عندما نام في غزوة ذي العشيرة. وقولهم أبو لهب لحمرة خديه ولونه. وأبو راس لكبر رأسه وعمامته. وأبو الطويلة لطول

لحيته وقد يكنى بأقرب الناس إليه ويشتهر بذلك ولكم كنية غلبت الاسم. وعرب البحيرة يكنون بأسماء بناهم كأبي زهو وأبي سلطانة وأبي ليلى ولقد تكنى جماعة من أفاضل الصحابة بأبي فلانة فهذا الإمام عثمان بن عفان (رضه) كان له ثلاث كنى أبو عمرو وأبو عبد الله وأبو ليلى. وتميم الداري أبو أمامة وأبو رقية والمقداد بن معدي كرب أبو كريمة. وآخر من نعرفه من أعيان بلادنا يكنى باسم ابنته الأمير بشير المالطي فإنه كني بأبي سعدى. ومثل ذلك الكنية بابن أو ابنة معروف ومشهور. واشتهر من علماء النسب في الجاهلية دغفل السدوسي حتى ضرب فيه المثل فقيل أنسب من دغفل. وفي الإسلام الإمام أبو بكر الصديق (رضه) وكثير غيرهم. ولقد كثرت التصانيف في هذا الفن ومنهم من وضع لها مشجراً وأول من فتح باب ضبط الأنساب النسابة هشام الكلبي فإنه صنف فيه خمسة كتب ثم اقتفى الناس أثره وأشهر من ألف فيه بعد الإمام أبو سعد السمعاني وله فيه كتاب في ثمانية مجلدات وأكبر تلك المصنفات وأشهرها (الأنساب) لأبي محمد الحسن بن علي المعروف بالقاضي المهذب المتوفى سنة 1128م يقع في عشرين مجلداً ذكره صاحب كتاب كشف الظنون. ومنها (الجمهرة في الأنساب) لأبي المنذر هشام الكوفي المتوفى سنة 1417م وأحدثها عندنا (أخبار الأعيان في جبل لبنان) لطنوس الشدياق اللبناني من أدباء القرن التاسع عشر الماضي.



القطف الثاني

في السير والتراجم

قال الجرجاني في التعريفات: السير جمع سيرة وهي الطريقة سواء كانت خيراً أو شراً يقال فلان محمود السيرة وفلان مذمومها. اهـ وقد غلبت في الاصطلاح على أحوال النبي (صلعم) والناس وطرائقهم. وقد اشتهر كثير من العرب بهذا الفن منهم أبو عبد الله وهب بن منبه الكناني الذي أتقن الأخبار والقصص وسير الملوك المتوفى سنة 728م وقتادة بن دعامة الكفيف العالم بأخبار العرب وأنسابهم المتوفى سنة 735م. وقال صاحب كشف الظنون: إن أول من دون التاريخ محمد بن اسحق بن يسار المدني في كتابه (المغازي والسير) وتوفي سنة 769م. وكان التاريخ قبل ذلك على طريق الرواية ثم ألف الواقدي (فتوح الشام) وألمّ بسير الخلفاء وتوفي سنة 822م. وهكذا توالت المؤلفات في هذا الفن فألف

الأصمعي وحماد الرواية من علماء القرن الثامن المسيحي (تاريخ العرب) وكـــان المؤرخون يلقبون بالنسابين واشتهر منهم ابن الأثير في كتابه (الكامل) المشهور وفي اختصار كتاب الأنساب للسمعاني وتوفي سنة 1232م ثم جاء بعده ابن خلكـــان، فاستوفى في كتابه (وفيات الأعيان) كثيراً من التراجم والسير وتوفي ســنة 1282م ثم محمد بن شاكر الكتبي فألف (فوات الوفيات) وغيره.

ومن أهم ما عرف من هذه المؤلفات كتاب (المفاخر والمآثر في علماء القـــرن العاشر) لعبد الوهاب الشعراني المتوفى سنة 1565م و(الكواكب السائرة في أعيـــان المائة العاشرة) للنجم الغزي المتوفى سنة 1650م و(خلاصة الأثر في أعيـــان القـــرن الحادي عشر) لمحمد المحبي الدمشقي و(لطف السمر وقطف الثمر في تراجم أعيـــان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر) للنجم الغزي المار ذكره. و(سلك الـــدرر في أعيان القرن الثاني عشر) لمحمد خليل المرادي المتوفى سنة 1791م و(در الحبـــب في تاريخ أعيان حلب) لشمس الدين محمد الحلبي المعروف بابن الحنبلي المتوفى ســـنة 1563م و(الطبقات السنية في تراجم الحنفية) لشمس الدين الغزي المتوفى سنة 1596م و(تراجم الأعيان في أبناء الزمان) للبوريني المتوفى سنة 1615م وذيله فضل الله بـــن محب الله والد المحبي. (ريحانة الألباء في طبقات الأدباء) للشهاب الخفاجي المتـــوفى سنة 1658م و(معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب) لأبي الوفاء العرضـــي الحلبي المتوفى سنة 1660م وأكبرها حجماً وبحثاً (الأعلام) وهو مطوّل في تراجـــم الأعيان في كل قرن لمحمد المحبي صاحب (خلاصة الأثر) المار ذكره رتبه على ثمانيـــة وعشرين باباً على حروف المعجم ومعظمها لن يزال مخطوطاً. ومن كتب الـــتراجم المتأخرة (أعيان دمشق) لابن شاشو المتوفى في أواخر القرن الثامن عشر وآخرهـــا (تراجم مشاهير الرجال) للمؤرخ المحقق جرجي أفندي زيدان(ق) في مجلدين إلى غير ذلك.



(ق) وهو باحث ومحقق ومؤلف مصري اشتهر بسلسلة "روايات الإسلام" (المحقق).

الفرع الثاني

في نسب وسير بني أبي عيسى المعلوف وفيه قطوف

القطف الأول

في أصول هذا الفرع

اشتهر من بني أبي راجح ابرهيم المعلوف الغساني الحوراني أبو عيسى شديد وولده أبو شديد عيسى ونسب فرعه إليه فقيل لهم بنو أبي عيسى أو بنو أبي عسوس (وهي تصغير عيسى للتحبب كما يقولون فضول في فضل وجبور في جبر) فعيسى ولد له ستة أولاد وهم شديد فتوفي عزيباً ثم يزبك ومنصور وميخائيل وشديد وجرجس الذي صار قسيساً باسمه وهو أول كاهن منهم في كفر عقاب كما مر في صفحة 181 ونسبت الفروع إلى أولاد عيسى أو إلى من اشتهر من أولادهم وأحفادهم كما سيجيء وأطلق عليهم جميعاً بنو أبي عسوس كما وجدنا ذلك في المخطوطات القديمة.

أما يزبك بن عيسى فولد ثلاثة أولاد هم أبو هاشم كنعان وأبو يوسف حنا وأبو ميخائيل منذر الذي سيم كاهناً باسم الخوري حنا كما مر في صفحة 183 فأبو هاشم كنعان كان له ثلاثة أولاد هاشم الذي توفي عزيباً وشبلي الذي نسب إليه فرعه وسمعان الملقب بأبي عكر. وأبو يوسف حنا كان له يوسف الذي توفي صغيراً وأبو فارس منعم الذي نسب إليه فرعه. والخوري حنا (منذر) كان له ميخائيل وجبور ويوسف وعرفوا ببيت الخوري.

أما منصور بن عيسى فولد له بدر وضو وعيد، فبدر ولد له موسى وميخائيل ونسب إليه فرعه. وضو ولد له مخايل وأيوب وطنوس ونسب إليه فرعه، وعيد ولد له فرنسيس ويزبك وسمعان.

أما ميخائيل بن عيسى فولد له أبو ناصر بطرس وأبو يوسف حبيب فنسب إلى كل منهما فرعه.

وشديد بن عيسى كان له جبور والخوري حنا وجرجس وشديد (الراهب شاروبيم أو ساروفيم الذي مر ذكره في الصفحة 204).

وجرجس بن عيسى صار قساً باسمه وعرف فرعه ببني القسيس وولده هم أبو فارس طنوس وأبو هاشم نعمة وأبو شاهين ظاهر.

ومن هذه الأصول نشأت فروع عرفت بأسماء خاصة اشتهروا بها كما سنفصله قطفاً قطفاً.



القطف الثاني

في بني شبلي وعكر ومنعم والخوري حنا يزبك

قلنا في القطف الأول من ولد أبي شديد عيسى يزبك الذي رزق ثلاثة أولاد هم أبو هاشم كنعان وأبو يوسف حنا وأبو مخايل منذر. فأبو هاشم كنعان ولد له هاشم وتوفي عزيباً وأبو كنعان شبلي وأبو هاشم سمعان. فاشتهر أبو كنعان شبلي في مسقط رأسه (كفر عقاب[1]) بشجاعته وأصالة رأيه ورزق أولاداً تسعة هم كنعان الذي توفي صغيراً وطنوس وعيسى وموسى وجرجس وكنعان وصليبي ويوسف وفارس ونسب فرعه إليه لاشتهاره وقد توفي سنة 1796م شيخاً معمراً أربى على الثمانين فرحل أولاده المذكورون سنة 1781م إلى بلاد بعلبك كما مر في صفحة 213 وتوطنوا (شليفة[2]) وكانوا مشهورين هناك ببسالتهم وإبائهم وذكائهم حتى أشبهوا الحلقة المفرغة لا يدري أن طرفاها. فطنوس ولد له شبلي وعبد الله الذي توفي عقيماً شاباً وزيدان الذي توفي صغيراً وشبلي ولد له ابرهيم وخليل وانتقل بولديه إلى (السعيدة[3]) في أواسط القرن التاسع عشر الماضي. فابرهيم ولد له نايف ويوسف وشبلي وعيسى ونجيب ورشيد وتوفيق ووديع واقتنى بيتاً في

---

[1] راجع وصف كفر عقاب في الصفحة 176.

[2] راجع وصف شليفة في الصفحة 214.

[3] السعيدة قرية من أعمال قضاء بعلبك وعلى بعد نصف ساعة عنها ينبوع العليق الذي ينفجر من سفح تل باسمه حيث يكثر نبات العليق (الجداد) فتجري مياهه شمالاً إلى بعد ميلين وهناك لا يظهر لها أثر فتبقى منحصرة في بقعة عميقة ومياهه صالحة للشرب يسقي منها سكان شليفة وهو إلى جنوبيها على بعد ساعة ومنه يستقي أكثر القرى المجاورة. وقرب السعيدة أيضاً أصل نهر الليطاني من ينبوع بردى وعلى مقربة منه قرية حوش بردى وفي السعيدة نحو مائة نسمة و16 فداناً ونصف من الروملي (أي 33 من نوع الخطاط).

(زحلة) وولد لنايف فؤاد توفي صغيراًوابرهيم وميشال. وولد ليوسف وديع وجرجس وعزيز. أما نجيب فتوفي شاباً عقيماً في (سان باولو من البرازيل[4]). وولد لتوفيق قيصر وفدعا وصبحي الذي توفي صغيراً. أما خليل بن شبلي فرزق موسى.

وعيسى بن أبي كنعان شبلي ولد له شديد الذي توفي صغيرا وابرهيم الذي سيم كاهناً باسمه وولد له اسكندر واسكندر بقي في (كفر عقاب) فولد له عيسى في 11 نيسان سنة 1869م وجرجس في 27 تموز سنة 1874م وشبلي الذي توفي صغيرا وشبلي باسم أخيه في 8 ت2 سنة 1888م. فعيسى (مؤلف هذا الكتاب) سكن زحلة سنة 1898م وولد له فيها فوزي في 21 أيار سنة 1899م واسكندر في 21 شباط سنة 1902م وشفيق في 31 آذار سنة 1905. وجرجس سكن (زحلة) سنة 1900 وولد له جوزف في 15 ت2 سنة 1900م وصبحي في 24 أيلول سنة 1903م.

وجرجس بن شبلي ولد له الياس فتوفي صغيراً وسعد فتوفي عقيماً وطنوس ودرويش والياس. فطنوس ولد له شبلي فتوفي صغيراً وجرجس فجرجس ولد له وديع وولد آخر توفي طفلاً. وولد لدرويش نعمان وسليم الذي توفي عزيباً وسعيد ونعمان ولد له ابرهيم فتوفي صغيراً وشحاده وكامل فمات صغيراً وابرهيم وولد لشحادة جميل وسليم فتوفي طفلاً. وسعيد ولد له نبهان فتوفي صغيراً وطانيوس وجرجس وفؤاد وميشال. والياس ولد له جرجس ويوسف فتوفيا بلا عقب بعد وفاة أبيهما وانقطعت سلالته.

وموسى بن شبلي سكن (بيروت[1]) وولد له فيها عبد الله الذي توفي يافعاً بعد قتل أبيه في أواخر القرن الثامن عشر كما مر في الصفحة 228 [من النسخة الأصلية (ق)] فانقطعت سلالته.

---

[4] البرازيل معناها الخشب الأحمر وهي جمهورية في أواسط قارة أمركة الجنوبية شاغلة السواحل الغربية بين عرض الدرجة الخامسة شمالاً و29 جنوباً ومساحتها أكثر من ثلاثة ملايين من الأميال المربعة وعدد سكانها نحو خمسة عشر مليوناً نحو نصفهم من الزنوج وعاصمتها مدينة ريودي جنيرو (أي شارع كانون الثاني) وسكانها أكثر من مليون ومائتي ألف نسمة وفيها مرفأ مساحته 58 ميلاً وهو أجمل مرفأ في العالم ومن أجمل مدنها سان باولو (القديس بولس) وعدد سكانها ربع مليون والبرازيل جمهورية مؤلفة من إحدى وعشرين مقاطعة لها رئيس ينتخب كل أربع سنوات مرة ودخلها السنوي عشرون مليون ليرة وصادراتها تسعة وثلاثون مليوناً وديونها العمومية مائة وستة وسبعون مليون ليرة وفيها أعظم غلة للبن فأصدرت منه سنة 1905م ثلاث مائة وثلاثين ألف كنت (والكنت مائة ليرة).

[1] معنى بيروت بالعبرانية آبار وهو أرجح الأقوال في تسميتها وهي من أقدم المدن وأجملها موقعاً وقد ذكرت في كتابات تل العمارنة وكانت عامرة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد وسفنها مالئة فرضتها وقد تقلبت بها الأحوال إلى أن استعمرها الرومانيون وشيدوا فيها الملاعب والتماثيل والمدارس ولا سيما مدرستها الفقهية

وكنعان بن شبلي ولد له رستم الذي توفي عقيماً وسليمان وداوود، فسليمان ولد له كنعان وقبلان وجبرائيل الذي مات طفلاً. فكنعان ولد له سعدون وسليمان فتوفي طفلاً ونعمة. وقبلان ولد له أسعد ونسيم فتوفي طفلاً وملحم وسليم ونجيب ومسعود وحنا فتوفيا طفلين. وداود ولد له سالم فتوفي عزيباً ورستم ويوسف وسلامة وموسى فتوفيا عزيبين أيضاً وآخر سماه موسى وعزو الذي مات صغيراً. فرستم ولد له وليم. ويوسف ولد له داود.

أما صليبي بن شبلي فولد له أربعة عشر ذكراً مات أكثرهم صغاراً فبقي منهم تامر الذي توفي عقيماً وأسعد وطنوس وموسى الذين ماتوا عزيبين وقبلان وهيكل المكنى بأبي سمرا وبأبي راجي. فقبلان ولد له أسعد وتوفي عزيباً فانقطع نسله. و هيكل ولد له راجي فتوفي يافعاً وصليبي وتامر وجرجس وأربعة أولاد آخرون توفوا أطفالاً. فصليبي ولد له رشيد وراجي وفدعا وأربعة آخرون توفوا أطفالاً. وتامر مات عزيباً. وجرجس ولد له قبلان.

ويوسف بن شبلي ولد له نعمة وخليل وحسان فنعمة ولد له يوسف. وخليل ولد له جرجس فتوفي عزيباً وموسى. فموسى ولد له نعمة وخليل وحسان ولد له تامر ويوسف توفي صغيراً وابرهيم. فتامر ولد له أسعد وسليم. وابرهيم ولد له يوسف فتوفي صغيراً.

وفارس بن شبلي ولد له دعيبس وجبرائيل وميخائيل وزعيتر والياس. فدعيبس ولد له فارس وشبلي. أما جبرائيل ومخائيل وزعيتر فتوفوا عزيبين. هذه نسبة أولاد شبلي بن أبي هاشم كنعان.

أما سمعان بن أبي هاشم كنعان فبقي في (كفر عقاب) وولد له هاشم الذي توفي عزيباً وسمعان المكنى بأبي عكر وفي كفر عقاب صخر يعرف باسمه إلى اليوم وجبر الذي توفي بلا عقب نحو سنة 1765م. أما سمعان فولد له هاشم وحنا. فهاشم ولد له سمعان وتوفي كهلاً عزيباً فانقطع نسله. وأبو بشارة حنا ولد له بشارة وظاهر الذي توفي سنة 1843م بلا عقب. وبشارة ولد له الياس فذهب إلى

الطائرة الشهرة المؤسسة في أواسط القرن الثالث للمسيح. وهكذا كثرت مصانعها ومرافقها إلى أن دمرتها الزلزلة الهائلة في القرن السادس المسيحي وبقيت إلى أن استولى عليها المسلمون في أوائل القرن التاسع عشر الماضي فصارت معرضاً للآداب والعلوم فشيدت فيها المدارس وأنشئت الجرائد والمكاتب والمطابع واتسع نطلق المعارف في ظل دولتنا العلية فصار عدد سكانها اليوم زهاء مائة ألف نسمة.

(جبعة[1]) وولد له ناصيف وبشارة وعزيز. فولد لناصيف شبلي شكر الله ونـــدرة فذهبوا إلى (دومة البترون[2]) مع أولاد أعمامهم فبشارة ولد له كنعـــان ومجيـــد. وعزيز ولد له شحادة وولد آخر. وهذه نسبة أولاد سمعان بن أبي هاشم كنعان.

* أما يوسف حنا بن يزبك فولد له يوسف وتوفي يافعاً وأبو فـــارس منعـــم الذي سكن (زبوغة[3]) نحو سنة 1730م، فولد له فارس الذي توفي شاباً وحنا وإيليـا ومنعم (أو نعوم) وطنوس. فالياس ولد له ناصيف العالم المشهور الذي توفي عزيبـــاً سنة 1865م ويوسف الذي سيم كاهناً باسمه ولد له سليم وسليم ولد له نـــاصيف والياس ويوسف وفارس ورشيد. أما منعم أو نعوم فولد له فارس وداود وجرجـس الذي توفي عزيباً. ففارس ولد له حبيب وحبيب ولد له ابرهيم ويوســـف فتوفيـــا صغيرين وشحادة وجرجي وميشال والياس الذي توفي صغيراً. وداود ولد له خليل. وطنوس ولد له ابرهيم وحنا ومخايل فابرهيم توفي عزيباً عن عشرين سنة (وقد رافق الطيب الذكر المطران أغابيوس الرياشي إلى القدس الشريف لحضور المجمع المنعقـــد في صيف سنة 1849 وكان كاتباً لأعماله فتوفي على أثر عودته في 1 أيلول من تلك السنة). وحنا ولد له يوسف وابرهيم ومخايل ولد له منعم وتوفيق فتوفيا صغـــيرين والياس وطنوس. أما إيليا فولد له جرجس الذي توفي عقيماً وفارس الذي ولد لـــه حنا وحنا ولد له يوسف (الإيكونوموس) وجرجس وهما توأمان وفارس واليـــاس. وجرجس ولد له عزيز فتوفي شاباً عزيباً وحنا. واليـــــاس ســـكن في (ضواحـــي باريس[4]) وولد له فيها جورج ورينه.

---

[1] جبعة قرية صغيرة قرب (الحدث) من قضاء بعلبك ومعنى اسمها التلة عدد سكانها ستون نســـمة ومســـاحة أرضها أربعة فدادين من الروملي وهي نحو سبعة من الخطاط وأول من بنى فيها داراً المرحوم اليـــــاس هاشـــم المعلوف المشهور ببسالته ثم كثر فيها أبناء عمه.

[2] راجع وصف دومة هذه في الصفحة 161.

[3] زبوغة إلى غربي كفر عقاب من مديرية بسكنتة التابعة لقضاء المتن في لبنان عدد ســـكانها المـــارونيين 228 والكاثوليكيين 26 وهؤلاء من بني منعم المعلوفيين ينتج منها كل سنة 2500 اقة من الفيالج وفيها معملان لحـــل الحرير أحدهما للخواجة لطف الله يوسف الحاج في محلة العقبة عدد دواليبه 40 والثاني لعمه الخواجة روفـــائيل الحاج في محلة المزاطسين على رابية فوق القرية إلى غربي كفر عقاب عدد دواليبه 38.

[4] إن عقارات الياس المعلوف في مقاطعة التور (La Thor) التي تبعد نحـــو ثلاثـــين دقيقـــة عـــن أفينيـــون (Avignon) قاعدة مقاطعة فوكلس (Vaucluse) وتلك المدينة تبعد 742 كيلومتراً عن باريس إلى الجنـــوب الشرقي سكانها نحو 54 ألفاً وكانت مركزاً للبابوات من سنة 1308 ـــ 1377م ومعظم تلك العقارات مـــن الكروم ذات ريع وافر أما سكناه ففي ضواحي باريس في دار ابتاعها من أحد أفراد الأسر الفرنسية الشريفة.

* أما أبو مخايل منذر (الذي سيم كاهناً باسم الخوري حنا) فولد له مخايل وجبور وموسى، فمخايل ولد له طنوس وحنا الذي توفي يافعاً وجرجس وابرهيم الذي مات عزيباً. وطنوس ولد له الياس والياس ولد له أسعد ومخول وطنوس وأسعد ولد له الياس فتوفي يافعاً بعد موت أبيه وانقطعت سلالته. ومخول ولد له شديد ونعوم الذي مات صغيراً. وطنوس ولد له مخايل وعطا وطفل آخر توفي ومخايل هذا ولد له الياس. وجرجس ولد له بولس الذي لقب باسم والدته البرصاء ابنة باز يزبك المعلوف شقيقة مرتا حرمة وهبة الخوري أبي كلنك المعلوف من المحيدثة وبولس ذهب إلى جهات مرج عيون ثم إلى (المكر[1]) عند عكاء وولد له فيها جواد وسمعان وسمعان ولد له دانيال.

وجبور ابن الخوري حنا ولد له يوسف ويوسف ولد له الياس وجبور ومنذر، فالياس ولد له ناصيف وأيوب وجرجس. فناصيف ولد له يوسف وجبرائيل. فيوسف ولد له فريد وطفل آخر توفي وأنيس. وجبرائيل ولد له طفل توفي وعزيز. وأيوب ولد له تامر وتوفي طفلاً بعد وفاة أبيه فانقطع نسله. وجرجس ولد له الياس وأسعد فتوفيا صغيرين وسعيد والياس وأسد الذي توفي طفلاً. وجبور بن يوسف ولد له يوسف فسكن (حوش الزراعنة قرب زحلة) وولد له سليمان وجبرائيل وسمعان ومخائيل وسليمان ولد له داود. ومنذر بن يوسف ولد له داود وجرجي الذي توفي يافعاً، وداود ولد له منذر وضو الذي توفي صغيراً ونصر.

وموسى ابن الخوري حنا ولد له جرجس فسكن (شليفة) وولد له طنوس وطنوس ولد له جرجس وعيد فتوفيا صغيرين وموسى ونمر ونصر الذي توفي عزيباً.



القطف الثالث

في بني بدر وضو ورحال وقطيني

قلنا إن منصور بن أبي شديد عيسى ولد له بدر وضو وعيد أما بدر فولد له موسى ومخايل. فموسى ولد له الياس ورزق ونجم وأشعيا وحنا وبشارة وكلهم في (كفر عقاب). فالياس بن موسى سكن (شليفة) وولد له فيها طنوس الذي سكن

[1] المكر بلدة على طرف سهل عكاء تبعد عنها ساعة وفيها من المسلمين نحو أربع مائة ومن المسيحيين نحو ثلاثين ومن حاصلاتها الزيتون والدخان والتين والحبوب والسمسم والقثاء والبطيخ.

(الفرزل[1]) و لم يترك ذكراً فانقطع نسله. وورزق بن موسى سكن (شليفة) وتــوفي فيها بدون عقاب. ونجم بن موسى سكن (شليفة وولد له فيــها داود وابرهيــم. فداود ولد له مخايل وسليمان وسلوم فتوفوا جميعهم صغاراً وانقطعــت ســلالته وابرهيم ولد له خليل وخليل ولد له مخايل (الدكتــور) وداود وابرهيــم فتوفيــا صغيرين. واشعيا بن موسى ولد له مراد الذي توفي عزيباً وهيكل الذي توفي عقيماً وطنوس. فطنوس ولد له ابرهيم (الخوري) واشعيا وعيسى. والخوري ابرهيم ولد له جرجس وحنا الذي توفي صغيراً وموسى فجرجس ولد له وليم. وأشعيا ولد لــه طنوس والياس وعيد فطنوس ولد له ابرهيم والياس ولد له نسيب. وعيسى ولد لــه شديد وبشارة وفريج وهيج. وحنا بن موسى ولد له منصور وطنوس فتوفيا عزيبين وجرجس ومخول الذي توفي عقيماً. فجرجس ولد له قبلان الذي توفي شاباً عزيبــاً وحنا وبدر واسحق. فحنا ولد له منصور وشحادة ومخايل وجبرايل وبطرس الــذي توفي صغيراً وبرجيس. وبدر ولد له جرجس وبشارة وإيليا. واسحق ولد له ســبع ونمر وعيد.

وبشارة بن موسى سكن (شليفة) وولد له موسى وجرجس وفارس. فموسى ولد له يوسف وسليمان وحنا وهذان توفيا صغيرين. ويوسف ولــد لــه أسـعد وموسى وخليل وسليمان وحنا اللذان توفيا صغيرين. وجرجس ولد له عبــد الله وحنا وبشارة. فعبد الله ولد له جرجس وداود وناضر وحنا ولد له نقولا وبشــارة ولد له شكري وديب. وفارس ولد له دعيبس ودعيبس ولد له فارس فتوفي صغـيراً وبدر فتوفي عقيماً وابرهيم ومخايل فمات عزيباً ويهوذا فمــات صغــيراً وفــارس وعيسى. فابرهيم ولد له خليل فتوفي وخليل فسمي باسم أخيه الميت.

أما ميخائيل شقيق موسى بن بدر فذهب أولاده إلى (دومة البترون) وهـــم يوسف وابرهيم وحنا. فيوسف ولد له الياس وأندراوس ويعقوب ومخايل. فاليــاس ولد له يوسف ونقولا الذي توفي بلا عقب. فيوسف ولد له الياس الذي توفي عزيباً وبدر الذي ولد له يوسف. وأندراوس ولد له جرجس فتــوفي عزيبــاً وابرهيــم. ويعقوب ولد له موسى وأنطونيوس وداود الذي توفي عزيباً ونعمة. فموسى رحــل

[1] هي اليوم من قضاء البقاع وفيها كان مقر أسقف الروم الكاثوليك فنقل إلى زحلة كما مر في الصفحة 123 ولن يزال إلى اليوم يعرف باسمها وهي عامرة نزح منها كثير من الأسر اللبنانية إلى جهات مختلفة وفيها بعــض الآثار القديمة مر وصفها في الصفحة 106 سكانها نحو أربع مائة وفيها نحو 130 فداناً.

إلى (جديدة مرج عيون[1]) وولد له فيها عبد الله وسليم وميشال. وأنطونيوس ولد له حبيب وحنا ويعقوب ويوسف وموسى. فحبيب ولد له رشيد. ونعمة ولد له وداود وتوفيق. ومخايل ولد له الياس وشديد الذي توفي عقيماً ويعقوب وحنا الذي توفي عزيباً. فالياس ولد له مخايل ويعقوب ولد له حنا والياس وشديد الذي توفي طفلاً. وابرهيم بن مخايل ولد له جرجس وجرجس ولد له الياس وتوفوا جميعهم وانقطع نسلهم. وحنا بن مخايل ولد له مخايل وجرجس والياس الملقب بدحروج. فمخايل ولد له حنا وحنا ولد له الياس ومخايل. والياس ولد له مخايل الذي توفي عزيباً وجبرائيل ونسيم وسليم. ومخايل ولد له حنا والياس الذي توفي طفلاً فحنا سكن (حوش الزراعنة قرب زحلة) وولد له مخايل. وجرجس ولد له ابرهيم والياس وداود وجبور. فابرهيم سكن (شليفة) وولد له ملحم. أما جبور فرحل إلى بعلبك وخفي أمره. والياس الملقب بدحروج ولد له نقولا ويوسف فيوسف ولد له بدر وبدر ولد له يوسف.

---

[1] إن قصبة جديدة مرج عيون هي الآن مركز أسقفية بانياس الكاثوليكية ومن رأي روبنصن وسمث (438:2) أن كلمة عيون عبرانية كانت قرية بجوار دان ونقتالي (ملوك 15:1 و20 وخروج 2:16 و4) ذكرها الصليبيون باسم مرج عيون وأبو الفداء المؤرخ العربي باسم مرج العيون. وهي حديثة العهد واقعة في القسم الشمالي من فلسطين في سبط نفتالي وأمامها على بعد خمس دقائق تل دبين مركز مدينة عيون المذكورة وهي التي استولى عليها بنهدد الأول ملك آرام وهذه القصبة مبنية على رأس سفح تل مسطح يسمى تل نامو تعلو عن سطح البحر 2800 قدم وتشرف على ما حولها من الجهات الأربع وأمامها إلى الشرق جبل الشيخ والقرى المبنية في حضيضهِ وإلى الجنوب جبال بلاد بشارة وبحيرة الحولة وإلى الغرب قرى بلاد الشقيف والبحر وإلى الشمال جبال الريحان وتومات نيحة. ومحصولاتها الحبوب على أنواعها والتين والزيت والعنب والحرير وأرضها خصبة وعلى مقربة منها قلعة شقيف أرنون التي مر وصفها في الصفحة 26 وستتصل بها قريباً طريق العربات من صيدا وسكانها نحو خمسة آلاف وهم حوارنة وبلديون فالحوارنة ثلاثة أرباع ذلك العدد أصلهم من أذرع قدموها منذ قرنين والبلديون نحو الربع أصلهم من حوران وحماة وضواحيها وهي جيدة الموقع معتدلة الهواء يكثر فيها الندى لكثرة الغيوم التي لا تنقشع عن سمائها صيفاً وسكانها مجتهدون مشهورون بكرم الأخلاق وحب الضيافة وفيهم طباع العرب وأبنيتها حديثة الطراز فيها ثلاث كنائس إحداها باسم القديس جورجيوس للأرثوذكس والثانية باسم القديس بطرس للكاثوليكيين وهي بديعة شيدها الطيب الذكر البطريرك بطرس الرابع الجريجوري الزحلي المشهور وبجانبها الدار الأسقفية التي رممها سيادة المطران أكليمنضوس المعلوف والثالثة للبروتستنت وفيها جامع ومدارس وعلى بعد نصف ساعة مدرسة القصير الزراعية للأيتام الفقراء وموقعها في سفح تل نامو ورئيسها الآن حضرة الأكسرخوس دانيال المعلوف وسيحولها سيادة المطران المشار إليه مدرسة داخلية وهو يسعى الآن بإعداد معداتها وفقه الله.

* أما ضو بن منصور فذهب إلى (دومة البترون) وولد له فيها أيوب ومخايل وطنوس. فأيوب ولد له جرجس وكان من أفاضل دومة وأغنيائها وجرجس ولد له شبلي الذي سيم كاهناً باسم الخوري جرجس على كنيسة جبعة وهو الآن في بوسطن[1] (الولايات المتحدة) وله أولاد لا نعرف أسماءهم. وسمعان الذي توفي عقيماً وطنوس الذي ولد له الياس ويوسف والأحياء منهم غادروا دومة إلى (السعيدة) فأميركة. أما مخايل بن ضو فانتقل إلى الخريبة (من قضاء الحصن) وولد له فيها شهدا وجرجس وشهدا ولد له مخايل. وطنوس بن ضو توفي عقيماً وهذه سلالة ضو بن منصور.

* أما عيد بن منصور فولد له يزبك وفرنسيس وسمعان الذي توفي عقيماً. فيزبك ولد له فرنسيس وشاهين وباز اللذان توفيا عقيمين فانقطعت سلالتهما أما أخوهما فرنسيس فولد له اليان ورحال. فاليان ولد له فارس الذي توفي بلا عقب فانقطعت سلالته. ورحال ولد جرجس الذي سكن (بيروت) ولد له فيها ابرهيم فتوفي عزيباً وفرنسيس واسكندر. ففرنسيس ولد له جرجي والياس ونقولا. وفرنسيس بن عيد لقب بالقطيني وسكن (السعيدة) فولد له فيها الياس ويوسف وسمعان فالياس ولد له فرنسيس الذي سكن "كفردان في قضاء بعلبك" وجرجس الملقب بالمنجود الذي سكن "طلية من بعلبك" وأولاد آخرون توفوا يافعين. ففرنسيس ولد له أسعد. والمنجود ولد له سليم ورشيد وهما الآن في أميركة وابرهيم توفي شاباً أما يوسف بن فرنسيس فولد له حنا وجرجس فحنا توفي عقيماً وجرجس سكن (زحلة) ولد له الياس الذي توفي عقيماً ويوسف الذي توفي عزيباً أيضاً ويوسف المسمى باسم أخيه الميت ويوسف ولد له وديع.

أما سمعان فرنسيس فسكن (زحلة) وولد له فيها فارس وخليل وحنا وشاهين ويوسف (الدكتور) ففارس سيم كاهناً باسم الخوري بطرس وخليل ولد له فارس

---

[1] كانت مساحة الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1809 نحو مليون ميل مربع وعدد سكانها نحو خمسة ملايين فصارت مساحتها الآن أكثر من ثلاثة ملايين ميل وسكانها خمسة وثمانون مليوناً وأعظم مدنها نيويورك عدد سكانها 4,113,043 وشيكاغو 3,049,185 وفيلادلفية 1,441,735 وسنت لويس 649,320 وبوسطن 602,278 وهي غنية بالمال خصيبة الأرض وأهم غلالها القطن منتج منه في السنة الماضية أحد عشر مليوناً وثلاث مائة وخمسون ألف بالة. ولا يخفى أن أميركة الشمالية ثمانية أقسام أهمها الولايات المتحدة هذه وهي مؤلفة من خمس وأربعين ولاية والمكسيك وأميركة الوسطى وجزائر الهند الغربية وغرينلندة وألاسكة ونيوفنلندة وجميعها بإدارة الولايات المتحدة المذكورة والثامنة كندة وتحكمها الدولة الإنكليزية.

وسليمان، ففارس ولد له خليل ووديع ونجيب وسليمان ولد له رشيد وشكر الله ومخايل. وحنا ولد له اسكندر ويوسف فتوفيا صغيرين وقتل هو وأخواه الخوري بطرس وشاهين سنة 1860م وشاهين هذا ولد له سليم والدكتور يوسف ولد له نجيب وحليم واسبر وكريم وابرهيم ونديم وحنا الذي توفي طفلاً فنجيب ولد له فريد فتوفي صغيراً ويوسف والياس ونديم سيم كاهناً باسم الخوري بولس.



القطف الرابع

في بني أبي ناضر بطرس وأبي يوسف حبيب

أبو ناضر بطرس وأبو يوسف حبيب هما ولدا مخايل بن أبي شديد عيسى فأبو ناضر بطرس ولد له ناضر ومخايل والياس وحنا. فناضر والياس توفيا بلا عقب ومخايل ذهب إلى (دومة البترون) في أوائل القرن التاسع عشر وولد له فيها ناصيف وأندراوس وعبد الله وسليمان وحنا والياس وداود وجرجس وجبور فناصيف وسليمان وجرجس وجبور توفوا بلا عقب. أما أندراوس فولد له ابرهيم وغصن وسليمان وابرهيم ولد له اسكندر وجرجس واسكندر ولد له ابرهيم وغصن ولد له أنداروس وقسطنطين ونجيب اللذان توفيا طفلين فأندراوس ولد له جميل وغصن وسليمان ولد له داود وأسعد وناصيف وبطرس وأيوب اللذان توفيا يافعين فداود ولد له توفيق وأسعد ولد له راجي. أما عبد الله فولد له مخايل وجبرايل وجبرايل ولد له سليم وسليم ولد له جميل. ومخايل ولد له ناضر ونسيم وداود وبطرس وعبد الله وهؤلاء الثلاثة توفوا صغاراً. وحنا ولد له يوسف وسعادة فسعادة كان شماساً إنجيلياً في (كفتين[1]) مدة 12 سنة وتوفي في (حماطورة[2]) باسم سلفسترس سنة

---

[1] دير كفتين بني سنة 1699م كما يظهر من كتابة منقوشة على أحد جدرانه وهو في قضاء الكورة إلى جنوبي قرية باسمه ذكرها الدويهي في الصفحة 182 سنة 1593 قائم على رابية تبعد عن طرابلس الشام نحو أربعة أميال إلى الشرق الجنوبي تحدق به غياض الزيتون ارتفاعه عن سطح البحر نحو خمس مائة متر وعدد رهبانه ثلاثة وله رئيس ومساحة أملاكه ثلاثة وسبعون درهماً ونصف. وقد شيدت فيه لجنة من كرام طرابلس والكورة الأرثوذكسيين مدرسة في قطعة أرض مساحتها ألف وست مائة ذراع مربع بلغت نفقاتها نحو خمسة آلاف ليرة ففتحت أبوابها للطلبة في ت1 سنة 1881م وبقيت نحو تسع سنوات فعطلت ثم جددها غبطة العلامة البطريرك غريغوريوس الحداد الحالي حينما كان أسقفاً على طرابلس سنة 1893م وكان المؤلف مدرساً فيها العربية والإنكليزية والرياضيات فبقيت أربع سنوات وعطلت وقد نبغ كثير من طلبتها في عهديها أخصهم الكاتب التهذيبي فرح أفندي أنطون من إسكلة طرابلس الشام منشئ الجامعة.

1881م عن 35 سنة. والياس كان طبيباً للعيون سكن (اسكلة طرابلس[3]) وتوفي فيها عزيباً. وداود تقرب من الأمراء فولوه بعض الشؤون وولد له قبلان وناصر واليلس وسعيد، فقبلان ولد له داود وناصر في سدني[4] (أوسترالية) والياس ولد له عفيف وتوفي وهو الآن في سانباولو (البرازيل). وسعيد ولد له داود وجميل. أما حنا بن أبي ناصر بطرس فسكن في (قبعيتة مزرعة بين حدث بعلبك وجبعة هي اليوم خربة) وولد له فيها أيوب وجبور. فأيوب ولد له جرجس وذهب إلى (دومة البترون) فولد له فيها عساف وسليمان فعساف ولد له أيوب وجبور وجبور ولد له عبد الله. أما سليمان فولد له أنطونيوس وجرجس واسبر فأنطونيوس ولد له وديع وجميل واسبر ولد له سليم وجبور بن حنا ولد له طنوس فسكن (شليفة) وتوفي هو وأبوه فانقطعت سلالته.

* أما شقيقه أبو يوسف حبيب فولد له يوسف حبيب فولد له يوسف وعبده وموسى والياس ونقولا. فيوسف ولد له سمعان وعبده ولد له حبيب الذي سكن (بيروت) وتوفي فيها عقيماً وموسى ولد له طنوس وحنا الذي توفي عزيباً فطنوس ولد له أسعد وحنا فأسعد سكن (رأس بيروت) وولد له جرجي وطانيوس. وحنا في (ساحل بيروت) والياس ولد له جرجس الذي سكن (جبعة) وولد له فيها حنا وحنا ولد له جرجس الذي مات عزيباً وعساف الذي مات عقيماً وسعيد الموجود

---

[2] دير حماطورة مشيد في سفح جبل على ضفة نهر قديشا (المقدس) من أعمال قضاء البترون يبعد عن طرابلس نحو أربع ساعات وارتفاعه عن سطح البحر نحو ست مائة متر وعدد رهبانه ثلاثة يديرهم رئيس وقد رأسه بعض الرهبان المعلوفيين كما سيجيء وذكره الدويهي في صفحة 262 بتاريخ سنة 1703.

[3] بلدة موقعها على شاطئ البحر المتوسط بينها وبين مدينة طرابلس ترمواي يسير على الخيل وسكانها اشتهروا باستخراج الإسفنج وفيها مرفأ طبيعي وهي إحدى المديريات الثلاث التابعة لتلك المتصرفية وعدد سكانها نحو ستة آلاف نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين وقبل المهاجرة إلى أميركة كان عدد المسيحيين ضعفي عدد المسلمين ونبغ من هذه البلدة الخواجات كرم المشهورون بالقطر المصري في ثروتهم ووجاهتهم أشهرهم المرحوم سمعان وإخوته الكرام وأنسباؤه ومنهم الآن الخواجة نقولا بن نعمة الله ولهم في بلدتهم هذه أياد بيضاء وأبنية شائقة.

[4] معنى استرالية الإقليم الجنوبي اكتشفها القبطان كوك سنة 1770م وسميت بعد ذلك ويلس الجنوبية الجديدة وهي من أملاك الدولة البريطانية طولها 2500 ميل وعرضها نحو ألفين ومساحتها نحو خمسة ملايين من الأميال المربعة وعدد سكانها نحو خمسة ملايين وهي أكبر جزر العالم ومن أشهر مدنها سدني حاضرتها سماها باسم أحد وزراء بريطانية الربان فيليب الذي وصلها في أوائل سنة 1788م ومرفأها حسن وهي راقية في معارج الفلاح وفيها كثير من التجار المعلوفيين أشهرهم الخواجات يوسف جرجس المعلوف ويوسف طنوس المعلوف.

الآن في جهات أميركة. أما نقولا ابن أبي يوسف حبيب فإنه سار صغيراً إلى بـــلاد بشارة وسكن (قرية تبنين[1]) وولد له فيها ابرهيم وبطرس وطنـــوس وجرجـــس فابرهيم ولد له خليل توفي عزيباً وعبد النور وجرجس فعبد النور ولد له حبيـــب وابرهيم وسعيد فسعيد ولد له نعمان ونعيم وخليل. وجرجس ولد له فضل والياس وراجي ويوسف مخايل وحنا أما بطرس وطنوس فتوفيا عزيبين. وجرجس بن نقـولا سكن مدينة (صُوْر[2]) وولد له فيها عوض الذي ولد له جرجس ويوسف وبشـارة ومسعود والياس.

❖❖❖

القطف الخامس

في بني جبور شديد والخوري حنا وغصن

ولد لشديد بن أبي شديد عيسى في (كفر عقاب) جبور وحنا (الخـــوري) وشديد (القس شارو بيم) وجرجس. فجبور قتله المتاولة في أفقة سنة 1767م كما مر في صفحة 207 فاشتد الخصام بينهم وبين ولده جرجس فقتل منهم رجلاً وفـــرّ إلى

[1] تبنين من أعمال صور تبعد عنها نحو خمس ساعات إلى الشرق الجنوبي سكانها نحو أربع مائة مـــن المتاولـــة ومائتين من الكاثوليكيين وهي قاعدة بلاد بشارة الممتدة إلى سهل صور ذات قرى كثيرة يسكنها المتاولة ونـــزر من المسيحيين ومن غلالها الزيتون والزيت والتبغ وفيها قلعة بناها هيوسنت ادمر صاحب طبرية ســـنة 1107م وسماها طورون (Toron) واتخذها معقلاً لغزو صور وما يليها فحوصرت وجرت فيها مواقع إلى أن فتحـــها صلاح الدين الأيوبي وبقيت هذه بيده وبيد ابنه العادل ردحاً فحاصرها الإفرنج بزمن العادل ثم صالحوه فقـــال بعضهم في تسليمها:

سلم الحصن ما عليك ملامه　　لا يلام الذي يروم السلامه

فعطاء الحصون من غير حرب　　سنة سنها ببيروت أسامه

وهدمت فبقيت أطلالها ثم رممت وهي اليوم محل مدبر تلك الناحية وموقعها على هضبة صعبة المرتقى تحدق بهـــا بقعة خصيبة شجراء وحول حضيضها القرية ومن هناك تنبجس المياه جارية إلى الليطاني وهي مركز المشـــايخ بني علي الصغير وصفها روبنصن وسمث (459:2).

[2] موقع صور على رأس لسان ناتئ في البحر على مسافة يوم من صيداء إلى جنوبيها وكانت بزمن الفينيقيـــين ثغراً من ثغورهم ودعيَت ملكة البحار وتقلبت بها الأيام إلى أن دخلت في حوزة المسلمين الصليبيين فالعثمـــانيين وقد هدمتها الزلازل مراراً وهي الآن قائمة مقام بيروت الجليلة وسكانها نحو ستة آلاف نسمة عدد المســـيحيين منهم نحو 2300.

وادي التيم واتصل بالأمراء الشهابيين ثم سكن (راشية الوادي[1]) ولد له فيها سعد وسعد ولد له نقولا وحبيب وشحادة فنقولا وحبيب قتلا مع والدهما سعد سنة 1860م وشحادة ولد له نقولا وحبيب الذي توفي شاباً وفارس وسعد.

أما الخوري حنا فولد له يوسف وضاهر فيوسف ولد له أيوب وسمعان فأيوب سكن (حدث بعلبك[2]) وولد له فيها ابرهيم وحبيب ويوسف وطنوس

---

[1] إن راشية (سريانية بمعنى الرؤوس) أشرنا إليها في صفحة 117 وهي قاعدة وادي التيم الأعلى إلى الشمال الغربي من جبل الشيخ ارتفاعها عن سطح البحر أكثر من خمسة آلاف قدم سكانها أكثر من خمسة آلاف أكثرهم أرثوذكسيين وفيها قلعة تسمى ببرج الريش من بناء الأمراء الشهابيين ولم يرد ذكرها قبل الصليبيين الذين بنوا فيها معقلاً وعلى مسيرة أكثر من ربع ساعة منها مستنقع عيحا القريب من قرية بهذا الاسم سكانها نحو مائتي نسمة وهو مجمع المياه الجارية إليه والمنبجسة من جوانبه يشغل مبذر نحو خمسة آلاف مد وتكثر فيه الوبالة (الملارية) حتى أنه يميت في كل سنة نحو ثلاث مائة نفس من سكان القرى التي تجاوره فحبذا لو قيض له الحظ من يجففه كما قيض لمستنقع عميق في البقاع الذي مر وصفه في الصفحة 104 وإليها ينسب القضاء المؤلف من 16 قرية وعدد سكانها سبعة آلاف نسمة. وسميت راشية الوادي تمييزاً لها عن راشية الفخار التي هي من قضاء حاصبية اشتهرت بعمل الخزف فنسبت إليه وقيل أن اسمها مأخوذ من الريش الذي كثر لكثرة الصيد فيها فنسبت إليها البرج وكان فيها قديماً منازل بني الأطرش الدروز واشتهرت فيها أسرة العريان التي كان منها شبلي العريان المشهور بوقائع لبنان وقد أقامه ابرهيم باشا المصري قائداً على ألف فارس من الهوارة سنة 1835م ثم تولى الحكم في جهات العراق ولا سيما في العمارة وقد أكرم هنالك مثوى كل من المرحومين بطرس بن نجم المعلوف وابن عمه مراد قيامة المعلوف وأبقاه عنده أياماً لأنه كان يعرفهما جيداً يوم زحف على زحلة سنة 1840م وقد تذكر بسالتهما مع أنسبائهما ومواطنيهما في تلك الموقعة.

[2] أحرق هذه القرية يوسف باشا سيفا سنة 1602م لما زحف بخمسة آلاف مقاتل اقتصاصاً من الأمير موسى الحرفوشي لإيقاعه بجبة بشراي ونهبه بيوتها وهي من قضاء بعلبك أضيفت إليها تمييزاً لها عن حدث الجبة في البترون وحدث بيروت في المتن من متصرفية لبنان الجليلة عدد سكانها نحو ثماني مائة نسمة معظمهم من الأرثوذكسيين فالكاثوليكيين وهما من المعلوفيين فالموارنة وهم نحو الثلثين والثلث الباقي من الشيعيين وفيها نحو سبعين فداناً من نوع الخطاط ونحو 60 من نوع الروملي وفي جنوبيها ناووسان عليهما أجنحة طائرين والمرجح أن جثتهما في المطمور منهما في الأرض وهناك معصرة للعنب وغربيها مقاطع للحجارة القديمة وشماليها تلتان متقابلتان تشرفان عليها. على الشرقية منهما كنيسة القديس يوحنا وحجارتها مزخرفة نقلت أكثرها إلى الأبنية الحديثة وعلى الغربية منهما مزار النبي ضائع للشيعيين وفي محلة الغويرة بينها وبين قريبة جبعة إلى الشرق الشمالي على بعد خمس دقائق مغارة حجرية منقورة فيها تراويس وآثار قديمة وهناك وجدت بعض التماثيل الصغيرة للآلهة الرومانية أحرز مؤلف هذا الكتاب واحداً منها بديع الصنع. وهناك جب الفستق لقصة يرويها الأهلون وفيه مياه. وإلى جنوبيها الشرقي مزار النبي رشادة وقرية باسمه للشيعيين فيها بعض أمراء الحرافشة وهناك بئر قديمة كبيرة للاستقاء وحجارة تدل على محل القلعة القديمة التي اتخذها الحرافشة معقلاً لهم وفي أرضها نبع المورج (المدوس) إلى الغرب الشمالي وهو من الينابيع الدورية يفيض في شهري الدياسة فلذلك سمي بالمورج.

وحنا. فابرهيم ولد له ملحم وجرجس فتوفيا ثم مخايل. وحبيب ولد لـــه اليـــاس وحبيب (الذي سمي باسم أبيه لأنه ولد بعد وفاته). والياس ولد له ميشال ويوسف ولد له رشيد وأيوب. وطنوس ولد له خليل ونمر. وحنا ولد له فدعا وفهد وتوفيـق ونجيب وندرة ويوسف. وسمعان بن يوسف الخوري ولد له رستم ورستم ولد لـــه سمعان ومخايل وجرجس وسمعان ولد له عزيز. أما ضاهر بن الخوري حنا فســـكن (بيت شامة[1]) وولد له مراد فتوفي صغيراً وابرهيم ومراد ونادر وشاروبيم. فابرهيم ولد له ملحم ويوسف ونسيم. وملحم ولد له ابرهيم. ومراد ولد له رستم ورسـتم ولد له مراد وخليل واسحق، فمراد وله له رستم وولد آخر في البرازيل. ونادر ولد له فارس وفارس ولد له موسى، فموسي ولد له فريد. وشاروبيم ولد له ضـــاهر وجرجس وأسعد. فضاهر سكن (كرك نوح) وولد له دعيبس وجرجس وطانيوس ومخايل وجميل ووديع وأسعد. وجرجس ولد له وديع وأسعد ولد له يوسف. أمـــا شديد بن شديد الذي سمي باسم والده فسيم راهباً باسم ساروفيم أو شاروبيم كما مر في صفحة 204 وأخوه جرجس ولد له شديد وشديد ولد له غصن وغصن ولـد له شديد وجرجس الذي توفي صغيراً.



القطف السادس

في بني حنا وهاشم والكفيري

مر بنا أن جرجس بن أبي شديد عيسى هو أول من سيم كاهناً منهم في كفر عقاب فعرف فرعه ببني القسيس وولد له ثلاثة أولاد أبو فارس طنوس وأبو هاشـم نعمة وأبو شاهين ظاهر. فأبو فارس طنوس ولد له فارس ومخايل ففـــارس ســـكن (المصيطبة في بيروت) في أواخر القرن الثامن عشر وولد له حنا وحنا ولد له طنوس وطنوس ولد له فضول وجبران ولطف الله ومخايل ففضول ولد له ابرهيم وبنيـــامين وحنا الذي توفي عقيماً وطنوس الذي سكن (القطر المصري[2]) وجبران سيم كاهناً

---

[1] ألمعنا إلى اسمها في الصفحة 106 وهي من قضاء بعلبك سكانها نحو ست مائة نسمة وفيها نحو 24 فداناً مـن الروملي وضعفها من الخطاط وفيها موقف طريق العربات بين زحلة وبعلبك وتكثر فيها الكروم اللذيذة العنـب وفيها بعض كتابات قديمة ومعظم سكانها من المسيحيين الأرثوذكسيين من بني المعلوف.

[2] نسبت مصر إلى مصرايم بن حام بن نوح وهي لفظة عبرانية مثناة إشارة إلى انقسام البلاد إلى قسمين العليـا والسفلى ومعناها الشدة والضيق إشارة إلى ما كابده العبرانيون فيها وسماها اليونـــان باســم القبــط ســكانها

باسم الخوري جبرائيل وولد له جرجي ومتري ومخايل وقيصر فجرجي ولـــد لـــه جبران ومخايل قتل شاباً. ولطف الله ولد له يوسف وداود ويعقوب ونخلة ومخايل بن طنوس سكن (حيفا[1]) وتوفي فيها وعاد أولاده إلى (بيروت) وهم خليل وســـليم ورشيد وأمين. فسليم ولد له جبران والياس وجرجي ومخايل وبشارة. ورشيد ولـد له ولدان توفيا طفلين وجرجي وأمين الذي توفي شاباً في بونس آيرس[2] (أميركـــة الجنوبية). وأما مخايل ابن أبي فارس طنوس فسيم شماساً باسم متري وتوفي نحو سـنة 1848 في بيروت.

الأقدمين وهو الذي عرفه الإفرنج لعهدنا باسم (Egypte) وهي من أقدم الممالك وأقواها ســطوة ومؤســس أقدم دولها الملك منا باني مدينة منف الذي ملك سنة 4157 ق.م. موقعها في قارة أفريقية على الطرف الشمالي الشرقي واشتهر شعبها بتمدنه وفيها أهم الآثار القديمة ولا سيما الأهرام ورأس أبي الهول وهيكـــل الكرنـك المنسوب إلى إلههم عمون والأقصر والمدافن والبردي وكتابات تل العمارنة ونحو ذلك مما هو مشـــبور ويبلـغ عددها 36 ألف أثر موضوعة الآن في دار التحف بالقاهرة واشتهرت مصر بخصبها والفضل في ذلك للنيل وقـد بني الخزان في جنوبي أصوان سنة 1902م وهو يروي خمس مائة واثنين وثلاثين ألف فدان (الفـــدان المصـــري أربعة آلاف ومائتي متر مربع أو أربع دنمات وثلثان) وسكان هذا القطر نحو اثني عشر مليوناً ومساحة أرضـــه نحو أربع مائة ألف ميل مربع والأرض التي تزرع فيه الآن ثمانية ملايين فدان وحكومته الحالية أغنى حكومـــات العالم بعد الولايات المتحدة الأميركية من حيث ما عندها من النقود وأعظم مدنه القاهرة وسكانها نحو مليـــون والإسكندرية وسكانها نحو نصف مليون وفيه الجامع الأزهر وعدد مدرسيه الآن 317 وطلبته نحو عشـرة آلاف وفيه كثير من الجرائد والمطابع والمعامل. وثروة سكانه ثلاث مائة وخمسون مليون ليرة إنكليزية (جنيه) وهـــذه معدل ربع أطيانه وأعظم غلاله القطن ومجموع صادر ووارد تجارته أكثر من خمسة ملايين ليرة إنكليزية. وفيـــه الواحات Oisis العظيمة وملحقاته هي السودان وعاصمتها الخرطوم.

[1] حيفا عبرانية بمعنى الفرضة والمرفأ وهي اليوم تبعد عن محل المدينة القديمة أكثر من كيلومترين كانت حصينـــة حاصرها الصليبيون نصف شهر حتى فتحوها وفيها آثار قديمة أما المدينة الحديثة فبناها ظاهر العمر الزيداني سـنة 1761م في وسط الجون على بعد نصف ساعة من القديمة وشيدها من أنقاض تلك وسورها وشـــيد حولهـــا الأبراج المنيعة ولم يكن سكانها منذ أربعين سنة أكثر من ثلاثة آلاف فصاروا الآن أكثر من اثني عشر ألفاً وفيـها مستعمرة ألمانية وموقعها فرضة لطبرية وحوران وفيها موقف سكة الحجاز وذلك من ذرائع تقدمها الآن تـــدل عليه حركتها التجارية وستزيد ارتقاء في ظل الحكومة السنية.

[2] بونس آيرس عاصمة جمهورية الأرجنتين (الفضية) عدد سكانها أكثر من مليـــون نفـــس ومســـاحة هـــذه الجمهورية مليون ومائة وثلاثون ألفاً وستون ميلاً مربعاً وسكانها خمسة ملايين وخمس مائة وسبعون ألفاً مؤلفـــة من ثلاث عشرة أيالة وعشر مقاطعات وفيها من الزنوج واحد وثلاثون ألفاً ودخلها السنوي عشرون مليـــون ليرة وديونها العمومية أربعة وتسعون مليون ليرة وصادراتها ثمانون مليون ليرة وفيها أطول تراموای حديـــدي في العالم وهو بين بونس آيرس وسان مرتين طوله 54 ميلاً تجر عرباته الخيول لأنها عندهم أرخص مـــن البخـــار والكهربائية وهذه الجمهورية من أميركة الجنوبية.

* وأبو هاشم نعمة ولد له هاشم وهاشم ولد له الياس ونعمة وطنوس فرحلوا جميعهم إلى (جبعة) في أواخر القرن الثامن عشر واشتهر منهم أبو أسعد الياس فولد له أسعد الذي توفي عزيباً وخليل وسليمان وعبد الله وأسعد. فخليل ولد له ابرهيم والياس الذي توفي صغيراً والياس وهاشم فتوفيا طفلين وابرهيم سكن (إيعات[1]) وولد له فيه خليل والياس وأسعد وسليمان. أما سليمان بن الياس فجاء بأولاده (حوش الزراعنة) وهم حبيب وسليم وابرهيم. فحبيب ولد له ابرهيم ويوسف فتوفيا صغيرين. وعبد الله بن الياس ولد له قبلان واسكندر وسبع ودياب، فاسكندر ودياب توفيا شابين وسكن هؤلاء (حوش الزراعنة) وقبلان ولد له هاشم وعبد الله وولدان آخران توفيا صغيرين. وأسعد بن الياس توفي بلا عقب.

أما طعمة بن هاشم فولد له فارس ومخول وموسى وجرجس الملقب بأبي عساف. ففارس ولد له ابرهيم وابرهيم ولد له فارس وهيكل الذي توفي عزيبا ففارس ولد له ابرهيم. ومخول ولد له ضاهر فتوفي بلا عقب. وموسى ولد له نجم ونجم ولد له موسى وجرجس وعقل. وأبو عساف جرجس ولد له عساف وأسعد وسليمان وابرهيم. فعساف ولد له نايف وداود واسبر ومخايل. وأسعد ولد له جرجس والياس. وسليمان ولد له أمين وأمين ولد له هاشم. وابرهيم ولد له شحادة وجميعهم في (جبعة).

ونعمة بن هاشم ولد له شديد ويوسف فتوفيا بلا عقب. وطنوس بن هاشم توفي عقيماً فانقطعت سلالتهما.

* أما أبو شاهين ظاهر (جد بني الكفيري) فولد له شاهين وسليمان الذي توفي عزيباً وشاهين سكن (ماسة[2]) وولد له ظاهر ويوسف وفارس وأسطفان. ولما قتل شاهين وولده ظاهر في عداوة بني المعلوف وبني مكارم كما مر في الصفحة

---

[1] إيعات وإيعال من قضاء بعلبك مرت الإشارة إليها في الصفحة 105 و156 وهي بعد رأس بعلبك بكبرها وحولها سور قديم لن يزال جنوبيه قائماً وفيها 112 بيتاً وسكانها نحو ألف منهم 160 مكلفاً من الشيعيين و65 مكلفاً من النصارى معظمهم من المعلوفيين وعلى بعد ثلاثة أرباع الساعة منها مسلتها المعروفة بالقاموع التي وصفت أيضاً في ما مر. وهناك بركة الأوز واصل مائها من قرية عدوس على بعد نصف ساعة إلى الجهة الجنوبية ويكثر فيها طير الأوز فنسبت إليه ثم دير البنط على حضيض رجل الحرف. وللمرحوم الحاج متى بن يعقوب أبي كلنك المعلوف يد في إصلاح هذه القرية فإنه رمم جامعها واحتفر فيها بئراً للاستقاء ورمم مزار النبي زعور القريب منها وهو للشيعيين. وهي إلى شمالي مدينة بعلبك بانحراف إلى الغرب على بعد ساعة منها.

[2] مر وصفها في الصفحة 105 وهي من قضاء بعلبك إلى جنوبي سرعين على مشارف وادي يحفوفة وإلى شرقي رياق على بعد نصف ساعة عنها فيها نحو 20 بيتاً ونحو مائة نسمة و24 فداناً من نوع الخطاط وقليل من شجر التوت.

229 ذهبت أرملة ظاهر بولدها سليمان طفلاً هي وأسلافها المذكورون فسكنوا (الكفير[2]) وعرف فرعهم ببني الكفيري. وسليمان جاء (زحلة) وولد له حبيب واسكندر وحنا وجرجس ويوسف فحبيب ولد له سليم ووديع وحليم وميشال وهم تجار في بيروت وبعضهم في زحلة. ويوسف بن شاهين ولد له الحاج نقولا الذي رافق بني شبلي إلى دمشق عند قتلهم يقظان مكارم كما مر في الصفحة 229 فتوفي بلا عقب وانقطعت سلالته وكان فارساً باسلاً. وفارس بن شاهين ولد له سمعان الذي سكن (حاصبية[3]) وولد له فيها عساف وفارس فقتلا سنة 1860 عزيبين بعد موت أبيهما فانقطعت سلالتهما. واسطفان بن شاهين ولد له جرجس وابرهيم الملقب بالسيابة فتوفيا عقيمين وانقطعت سلالتهما أيضاً فلم يبق من هذا الفرع إلا نسل سليمان في زحلة وبيروت وهو الملقب بالكفيري.



القطف السابع

في سير من اشتهر من فرع عيسى[4]

{1}

أبو شبلي طنوس شبلي

هو طنوس ابن أبي كنعان شبلي ابن أبي هاشم كنعان بن يزبك ابن أبي شديد عيسى ابن أبي عيسى شديد بن أبي راجح ابرهيم المعلوف الغساني الذي هجر

---

[2] هي من قرى وادي التيم الأسفل ويرجح أنها كفيرة (أي قرية) إحدى مدن الجبعونيين الأربع في نصيب بنيامين (يش 17:9 و18 و26) وموقعها إلى الشمال الشرقي من حاصبية وهي قرية عامرة.

[3] إن حاصبية سريانية بمعنى الجرار المشار إليها في الصفحة 117 وهي قاعدة وادي التيم الأسفل ولم تشتهر قبل الأمراء الشهابيين الذين نزلوا في ضواحيها بزمن الصليبيين وكان الكونت امرا حاكماً عليها ففتحها العرب عنوة سنة 1171م بزمن السلطان نور الدين وبقيادة الأمير منقذ الشهابي فولاه نور الدين شؤونها وهي على قاعدة جبل الشيخ (الحرمون) الغربية تحدق بها البساتين والرياض حيث يمر نهر الحاصباني وهنالك أشجار الكرم والتين والتوت والزيتون وعلى مقربة منها معادن الحمر والحديد والخان الذي يظن أنه من أبنية الصليبيين وفيه تقام سوق الخان يوم الثلاثاء من كل أسبوع وفي حاصبية سوق نحو مائتي دكان وفيها دور الأمراء الشاهقة وكان عدد سكانها نحو ستة آلاف نسمة معظمهم من الأرثوذكسيين والباقون من المسلمين والدروز فقل سكانها بعد سنة 1860م وهجروها إلى جهات مختلفة وعلى مقربة منها خلوات البياضة للدروز. إليها ينسب القضاء المؤلف من 19 قرية عدد سكانها نحو أحد عشر ألفاً.

[4] رتبنا التراجم حسب الولادة مع مراعاة العلاقات النسبية بحيث يندرج تحت اسم المترجم جميع من تنشر سيرته من أولاده وأحفاده إلخ أما الرسوم فلم نتمكن من إثباتها لأسباب صوابية.

أولاده حوران في النصف الأول من القرن السادس عشر كما مر في الصفحة 153 وخيموا في لبنان.
ولد طنوس هذا في كفر عقاب سنة 1760م وكان والده شبلي نافذ الكلمة عند أمراء وحكام عهده حتى رفعوا منزلته وكتبوا إليه بألقاب التعظيم كما وقفنا على ذلك في ما بأيدينا من الأوراق القديمة وتوفي في مسقط رأسه كفر عقاب نحو سنة 1796م فنسبت فروعه إليه وكان يمد أبناءه بآرائه السديدة وقد امتاز منهم طنوس هذا المترجم الآن وعيسى وموسى اللذين ستأتي ترجمتهما وصليبي الذي كان ربعة إلى القصر سمين الجسم جداً أسمر اللون كبير العينين معتدل الشعر اشتهر بالخصام الذي حدث بين بني المعلوف وبني مكارم الدروز كما مر في صفحة 228 وكان هو أول من أضرم شرارته وقد أبلى في كثير من المواقع بلاء حسناً ولا سيما في حرب سانور ومواقع لبنان مما مرت الإشارة إليه وتوفي في شليفة نحو سنة 1857م عن أكثر من ثمانين سنة. وكنعان الذي اشتهر بإصابة رأيه توفي في شليفة سنة 1861م ويوسف الذي اشتهر بذكائه ومحفوظه.

وقد ذهب طنوس وأخوته إلى بلاد بعلبك وتقربوا من الأمراء الحرافشة كما مر في الصفحة 213 ومهدوا سبيل استعمار تلك الجهات باشتهارهم لدى وزراء دمشق بالإخلاص لحكومتنا العثمانية العلية الشأن. وكان طنوس هذا أولعهم بالجاه وحب الشهرة والسياسة فاعتمد الحرافشة على رأيه وبسالته حتى بلغ من نفوذ كلمته لدى حكومة دمشق أنه كان يعزل من يشاء منهم ويولي من يشاء. ولما رأى من الأمير جهجاه بن مصطفى تغيراً عليه بعد أن كان مقرباً منه سعى بعزله وأفلح ولقد مر في مطاوي القطف الأول من الفرع الأول والشجرة الثانية (راجع صفحة 213 فصاعداً) ما يدل على منزلته. وقد سقط عن جمل كان قد امتطاه مرة لموت جواده وهو راجع من طريق رأس بعلبك إلى شليفة فبقي سنوات ملازماً فراشه إلى أن قبض إلى رحمة ربه سنة 1835م عن خمس وسبعين سنة وكان ربعة إلى الطول قوي البنية جميل الطلعة ذا هيبة ووقار حلو الحديث وخطه الشيب في آخر أيامه وكان قد أطلق لحيته حسب عادة عصره واشتهر بزمن الأميرين الحرفوشيين جهجاه وأخيه أمين.

ولده أبو ابرهيم شبلي

ولد في شليفة سنة 1811م، وبعد بضع سنوات ولد أخوه عبد الله الذي اشتهر بجمال طلعته وبسالته، فبينما كان عبد الله يحشو بندقيته ومقابله امرأته ابنة طنوس ضو المعلوف من دومة البترون انطلقت فأصابت منها مقتلاً سنة 1836م فاشتد حزنه عليها وتوفي في العام الثاني عقيماً على اثر زواجه، ولدينا من الطيب الذكر المطران بنيامين الأرثوذكسي في بيروت تبرئته في تلك السنة.

أما شبلي فترعرع على البسالة والجاه وكان جميل الطلعة طلق المحيا واللسان حسن الإنشاء كريماً متلافاً حتى لقب بأبي الذهب، فتقرب من الأمراء الحرافشة فرفعوا منزلته مثل ما كان والده ولا سيما الأميران سلمان وفدعا منهم. وكان مقرباً أيضاً من الأمير بشير الشهابي الكبير نافذ الكلمة لديه صديقاً حميماً لبطرس كرامة الحمصي مدبره وله معه محاضرات حسنة وكثيراً ما حضر مجالسه وسمع إنشاده ومما رواه مرة أن الأمير بشير المشار إليه كان جالساً على عين المعاصر قرب بيت الدين ومعه بطرس كرامة وبعض خاصته وبينهم المترجم فمرت امرأة لابسة ثوباً أحمر وردياً فأنشد بطرس بيتيه المشهورين:

وردية الخد بالورديّ قد خطرت تميس تيهاً وتثني القد إعجابا
لم يكفِ قامتها الهيفاء ما فعلت حتى اكتست من دم العشاق أثوابا

فالتفت إليه الأمير وقال له نحن الآن:

في مجلس لو رآه الليث قال به يا نفس في مثل هذا إلزمي الأدبا

وإذا ركب كان يرافقه عشرة فوارس على الأقل ممتطين الجياد المطهمة بالعدد الثمينة وكان مثل الأمراء في ملابسه وركوبه. فكان يلبس البكدلية (أشبه بالصاكو) من الحرير الأحمر ولها فرو وأحياناً كبوتاً فوقه برنس أبيض وهذا لا يلبسه فوق البكدلية وعلى رأسه الطربوش المغربي بذؤابة (شرابة) حريرية زرقاء متقلداً السيف المجوهر والقربينة المسقطة (المرشوشة بالجوهر) ويضع قدام قربوس السرج فردين بقداحة وقندقهما من فضة وبيتهما (صوانهما) من الجوخ الأحمر أو

الأخضر المزركش بالقصب ونحو ذلك وبندقيته قصيرة مجهرية جوهرها من نوع الضبان[1] وهي مختصة بالفرسان (الخيالة) وعلى قندقها رشة ذهب.

وقد حضر مواقع كثيرة في بلاد بعلبك ولبنان حتى صار ممن يشار إليهم بالبنان في الشجاعة والإقدام والهيبة اندفق سنة 1841م (في الموقعة المعروفة بشر بعبدة التي جرت قرب تلك القصبة) على عساكر الخصوم كالسيل الطامي فمزق شملهم ووقف في وجوههم بقومه وبينهم ابن عمه ابرهيم عيسى (الخوري جد المؤلف لأبيه) وظاهر أبو يعقوب والياس هاشم وغيرهم. وشهد أول مواقع سنة 1860م فأبدى بسالة تذكر وأقدم وحده إقداماً غريباً إذ كرّ على عسكر المتاولة فوق قرية شليفة في 28 تموز قبل اجتماع شمل قومه للحاق به وتوقل تلك الشعاب هاجماً عليهم إلى أن أصيب برصاصة في كتفه الأيمن فنقل إلى قرية بقاع كفرة (من البترون) ودس له السم في جرحه المتسع فوصل إليه أنسباؤه وهو قد اشفى على الخطر واحتمل الألم بجلد فتوفي بعد قليل ودفن في تلك القرية وكان ربعة القوام جسيماً جميل الطلعة ووجهه أحمر اللون أبيضه وشعره أشقر يضرب إلى السواد عريض الجبهة واسعها معتدل الشاربين كبير العينين أسودهما ثابت الجأش حسن الإنشاء حتى لم يكن في أيامه أفصح لساناً ولا أبلغ قلماً مع أنه لم يدرس ذلك على أستاذ خاص وكان كريماً متلافاً قوي الذاكرة صحيح الرواية ولع بالتدخين وكان عنده نارجيلة فضية ثمينة وله مع حسني باشا معتمد الدولة في بعلبك وقائع ومناظرات فكان يحبه كثيراً ويعتمد عليه رغماً عما أرصده حساده للفتنة بينهما ولقد اشتهر بمد البارود وضرب الجريد والشوط في الميدان إلى غير ذلك مما تتناقله عنه الألسن.

حفيده أبو نايف ابرهيم شبلي

ولد في شليفة سنة 1832م وترعرع على مبادئ والده فاشتهر بذكائه وبسالته وأتقن الفروسية ولعب الجريد واشتهر على ظهر مهره الأشقر المطهم. وكان يلبس

---

[1] جوهر الضبان هو الجوهر الفولاذي وهو اسم يعم كل ضروبه المختلفة ويخصص بالجوهر الخراساني ولونه كمد باخضرار وفيه لمعات بيضاء كالفضة. والمجهر هو الجوهر الحديدي في الأسلحة النارية وهو أشبه بالضبان وقد يختلفان أن الضبان مختص بنصال الأسلحة البيضاء كالسيوف وما شاكلها والمجهر مختص بحديد الأسلحة النارية ولكليهما تموجات تظهر فيهما عند التخضير وللمجهر والضبان خواص عجيبة كالمتانة والصلابة وصبر أسلحته على الزمان حتى لا تصدأ كالسلاح الإفرنجي (المشرق 3:583 و874).

في أول أمره لبس وجهاء عصره وهو السراويل الجوخية السوداء والكحلية ودامـاً في لونها والطربوش المغربي عليه عمامة صغيرة وفي الشتاء الفرو الثمين ثم بعد ذلـك ارتدى الكسوة الإفرنجية ولبس الطربوش العزيزي، وقد انتقـل والـده إلى قريـة السعيدة قبل سنة 1860م فتوطنوها واشتهر برخامة صوته وإنشاده العتابا (أغـاني معلومة) ومما قاله في والده يوم وفاته البيتان المشهوران:

هـاتوا لي مـدود الصـبر تلـهم أبات وعاد ليل أحشائي تـلّ هـم
هلي من أجلي غراب البيت تلـهم وخـلاني وحيـد بـلا حـدا[1]

وسنة 1860م عين عضواً لتقويم المسلوبات في قضاء بعلبك فأظهر دراية وخدم الحكومة السنية خدمات جليلة في المحكمة البدائية وعضوية الإدارة في قضاء بعلبك من سنة 1875م إلى وفاته وتخلل ذلك انتدابه لحل كثير من المشاكل ففصلها بحكمته وبقي ست عشرة سنة خادماً أميناً للدولة العلية ساعياً في خير بلاد بظل الحكومـة السنية نائلاً رضى أولياء أمره فأصيب بداء عياء في قرية السعيدة واحتمل آلامـه بصبر إلى أن لبى دعاء مولاه يوم الإثنين في 1 و13 تشرين الأول سنة 1890م ودفـن فيها بعد أن أقيم له مأتم حافل اجتمع فيه سكان خمس وسبعين قرية حسب العوائد القديمة من قلم الخيل وإطلاق البنادق وبقي ذلك ثلاثة اسابيع ثم أقيم له بعد ذلـك مأتم آخر بداره في مدينة زحلة أسبوعاً كاملاً قدم فيه أنسباؤه من قرى لبنان وكان بينهم مؤلف الكتاب فرثاه بقصيدة وأرخ ضريحه بقوله وهو أول نظمه:

يا شخص ابرهيم شـبلي في الـثرى أمسيت من ريب المنـون موسـدا
عن آل معلـوف مضيـت مخلفـاً ذكراً حميـداً لـن يـزال مخلـدا
ودفنت في الأرض (السعيدة) هـهنا فظـهرن في دار السـعادة فرقـدا
فاختـارك الله العلـي خليلـه ولأرض كنعان اصطفـاك مؤبـدا
لمـا دعـا واليـك تاريخـاً ربنـا لبيـت دعوتـه فنلـت الموعـدا

1890

[1] والمعنى أحضروا لي مدود (جمع مد) الصبر حتى ألتهمها لأنني أبيت وعلى أحشائي تل من الهم فأهلي لأجـل تكديري قادهم غراب البين وأبقاني وحيداً بلا معين. ويكثر في هذا النوع الجناس البديعي كما ترى ولـه فيـه غرائب تدل على توقد ذهنه.

وكان ربعة إلى الطول لونه أبيض ضارب إلى السمرة كبير العينين معتدل الجسم أسود الشعر يضرب إلى الشقرة مهيب حلو الحديث خفيف الروح ذكي الفؤاد.

ابن حفيده رفعتلو نايف أفندي ابرهيم شبلي

ولد في زحلة على أثر مقتل جده لأمه المرحوم يوسف أبي ظاهر المعلوف نحو سنة 1858م وترعرع هو وأخوه على مبادئ من تقدمهم من أركان بيتهم ولما شب تعاطى ملاحظة عقارات بيتهم في قرية السعيدة وكان يتردد كثيراً إلى والده أيام توليه خدمة الحكومة السنية في بعلبك فخلفه فيها بعد وفاته بستة أشهر ونصب عضواً للإدارة فيها وذلك سنة 1890م ولن يزال إلى الآن في تلك الخدمة بين عضوية المحكمة ومجلس الإدارة بإخلاص وكثيراً ما انتدبته الحكومة السنية لفض بعض المشاكل في جهات قائمية المقام فقام بأعباء ذلك أحسن قيام نائلاً رضى الوزراء الكرام ولاة سورية وعناية قائمي مقام القضاء. وقد رأينا كثيراً من أوامر الولاة المشار إليهم ولا سيما صاحب الدولة ناظم باشا الوالي السابق وفي جميعها تنشيط له وشكر لإخلاصه.



{2}

أخوه عيسى

ولد في كفر عقاب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومال إلى الإثراء فاقتنى عقارات وأموالاً وأدارها بحكمة ودراية وكان مع ذلك يرافق أخوته بالمهمات التي ينتدبهم إليها الحرافشة وغيرهم وكان ينظر إلى المستقبل بعين عقله وتأمله مقداماً مجرباً طيب القلب صافي النية محباً للسلامة متباعداً عن القلاقل محباً للعمل ومحسناً إلى الفقراء يحب توفير ثروته بكده مع كرم ووجاهة وكانت بينه وبين رؤساء دير طورسينا[1] مكاتبات كثيرة رأيت منها في زمن الصبا ملء صندوق صغير عليها طابع الدير في أعلاها.

---

[1] أسس هذا الدير الإمبراطور بستنياس الأول سنة 529م وحوله كثير من البدو يخدمون رهبانه ويبادلونهم الولاء وهم إلى اليوم يتناولون طعامهم منه. وينفق هذا الدير كل سنة أربع مائة وخمسين أردباً من القمح على إطعام الرهبان والزوار وفقراء البدو وخمسين أردباً من الفول والشعير على دوابه ودواب زواره.

وكان يلبس مثل أخيه أبي شبلي طنوس عباءة حمراء نسج زوق مكـــايل في لبنان وعلى رأسه عمامة من نسج الشبقلي على طربوش مغربي له ذؤابة (شــرابة) زرقاء صغيرة ويتمنطق بزنار حريري ملون من نسج مدينة طرابلس الشام أو بشـلل من نوع الطرما العجمي. وسرواله من الجوخ الأسود أو الكحلي ويتقلد الســيف المجوهر (المسقط) والبندقية المجهرية.

وكان يتردد بين قريتي كفر عقاب وشليفة ولكن أكثر إقامته في الثانية واقتــنى فيهما عقارات وبنى في كفر عقاب داراً على طرز عصره. ولما جاء مصطفى نوري باشا الذي أشرنا إلى قدومه لبنان في الصفحة الــ 245 نزل هو وخاصته في بيتــه فأكرم مثواه وذلك نحو سنة 1849م وبقي بضعة أيام فأحرق معامل البارود في كفـر عقاب وجمع السلاح منها ومن جوارها وقد توسط الأمر معه بشأن بعض أنســبائه الذين رموا الحجارة على عسكر عمر باشا النمسوي حاكم لبنان لما كان صــاعداً في وادي الجماجم لجمع السلاح من كفر عقاب وشتتوا شملهم فعفا عنهم وكانت له منزلة مرعية في فض المشاكل وكان ولعاً باقتناء الخيول الجياد حتى أن اصطبله لم يكن يخلو من اثني عشر زوجاً منها. واشتهر باسم فارس الحمراء المذيال (الطويلــة الذيل) لأنها كانت ركوبته الخاصة. وقد أصيب بالحمى الوبالية (الملاريـــة) الــتي تفشت في بلاد البقاع وبعلبك وتوفي في قرية شليفة في 3 ت2 سنة 1850م وكـــان حنطي اللون معتدل الشعر مرسل اللحية طويلها طويل القامة ممتلئ الجسم أقـــنى الأنف كبير العينين عصبي المزاج طويل الأناة في كلامه وأعماله كثير التفكير قليـــل الكلام.

ولده الخوري ابرهيم

ولد في شليفة يوم الأربعاء في أول شباط سنة 1828م في بيت ثراء ووجاهـــة فترعرع على السعة ونشأ على حب الوجاهة وأدار عقارات والده في كفر عقــاب وشليفة وتلقى مبادئ العربية والخط على المرحوم الخوري جرجس يونان المعلــوف المعروف بالصغير من فرع أبي فرح ومال إلى إتقان الخط فتلقاه على يد صديقـــه ابرهيم قرطاس وفارس الصائغ من قصبة بسكنتة فعد من مجيديه. وولـــع بـــالصيد وركوب الخيل وحمل السلاح ولعب السيف فأتقن كل ذلك وأحرز والده بندقيـــة عماد الهاشم كما مر في حاشية الصفحة 261. ثم مال إلى الإتجار ببيـــوض (بـــزر)

الحزير فسافر إلى جزيرة كريت سنة 1865م وكان بعهده ثمن الدراهم من 5 — 6 غروش.

وسنة 1868م انتدبه الطيب الذكر متوديوس صليبا مطران سلفكية "معلولة وصيدناية (السيدة الجديدة) وزحلة" الأرثوذكسي لخدمة كنيسة شليفة فاعتذر مراراً، فلم يعذره، ولكنه سامه في كنيسة القديس نيقولاوس الكاتدرائية في زحلة في 20 كانون الأول. وذهب إلى شليفة بموكب حافل في مقدمته أبناء عمه منها ومن القرى التي تجاورها ومن كفر عقاب فبنى لهم كنيسة وبقي مثابراً على خدمتهم الروحية حتى آخر نسمة من حياته. وقد طلب مراراً ليكون في المدن خادماً للأنفس فلم يقبل بل صرف حياته في عمل البر والمثابرة على الصلوات والفروض والمطالعة وكان كهنة الطوائف الأخرى يجلون مقامه وكان بينه وبين الخوري جرجس حرب الماروني خادم شليفة مودة واتفاق طول حياتهما يراعي كل منهما جانب الآخر.

وقد انتقل إلى رحمة باريه ليل الأحد في 7 و19 آذار سنة 1899م عن إحدى وسبعين سنة وجرى له مأتم حافل لم يشهده من أبنائه إلا حفيده مؤلف هذا الكتاب الذي كان في زحلة وابنه كل من الأبوين الفاضلين الخوري باسيليوس مرشا الوكيل الأسقفي الأرثوذكسي في بعلبك والخوري زكا المر[1] من الرهبان الشويريين خادم حدث بعلبك والأدباء الأفندية رستم داود المعلوف ونقولا خطار المعلوف وأسعد عبد الله نصار وودعه المؤلف وشكر لمن شاطرهم الحزن وأرخ ضريحه بقوله:

ذا كاهن الله العلي مخلف	في آل معلوف الثناء نفيسا
نبكيه بالدمع الغزير تلهفاً	وهو السعيد فليس يخشى بؤسى
سموه ابرهيم عيسى قصد أن	يتفاءلوا فأتى الكلام مقيسا
كفوا البكاء عليه تاريخاً إذ	ابراهيم قابل في السعادة عيسى

ولا تخفى التورية فإن والده اسمه عيسى.

---

[1] أصل بني المر من قرية اده (في بلاد البترون) جاء جدهم قرية بتغرين في متن لبنان وانتقل بعض فروعه إلى قاع الريم وكفر شيمة وطرابلس الشام ونشأ ممن في بتغرين الخوري سمعان وأولاده جرجس أفندي نصار وإخوته من كبار التجار في كولومبية (أميركة) وممن في طرابلس الخوري الياس وأولاده.

وكان ديناً طيب القلب حاد المزاج متوقد الذهن فصيح اللسان والإنشاد قوي الحجة حسن الخط متقشفاً في معيشته راغباً عن دنياه مع تعوده الرخاء ونشأته في بسطة العيش محباً لجميع الطوائف رقيق العواطف يشارك المصابين بمصائبهم ويتأثر لتأثرهم محافظاً على أصدقائه وكثيراً ما كان يذرف الدمع على من يفقد منهم ومما يذكر من غيرته أنه في صيف سنة 1875م كثرت الحميات والوفيات في بلاد البقاع وبعلبك حتى تركت الحقول بلا حصاد إلى أواخر تشرين الثاني ففر الناس من العدوى وتركوا المرضى يقاسون آلاماً مبرحة، فكان المترجم يدخل البيوت ويعزي المصابين ويمرّض الأعلاء ويحمل الموتى إلى المدفن مغرراً بنفسه فانتقلت إليه العدوى حتى مرض وأشرف على الموت لولا لطف العناية العلوية به فشفي وعاش مدة طويلة. وكان يقيم الصلوات بأوقاتها ليلاً ونهاراً وكثيراً ما كان يقول: «إن الكهنوت حمل ثقيل فيا ويل من لم يقم به» وكان طويل القامة رقيق الجسم معتدله أسمر اللون أقنى الأنف كبير العينين أسودهما معتدل الشعر وخطه الشيب في آخر أيامه.

حفيده اسكندر (والد المؤلف)

هو اسكندر ابن الخوري ابرهيم الآنف الذكر، ولد في كفر عقاب في 20 كا1 سنة 1849م وذلك قبل وفاة جده عيسى شبلي بنحو سنة وترعرع في بيت عرف بسعة ذات اليد فنشأ كريم النفس سخي الكف وتلقى العلوم البسيطة على أحد المدرسين حسب عادة أيامه ثم دخل مدرسة دير النبي الياس الأرثوذكسية في شويا التي أنشأها إذ ذاك رئيسه الأب مكاريوس اليوناني المشهور بإقدامه وأصالة رأيه وكانت مجانية تجمع ثلاثين طالباً من جوار الدير. وكان لأسرة المترجم منزلة عند ذلك الرئيس فاعتنى به اعتناء مذكوراً ولا سيما أنه كان وحيد بيته فأوصى به مدير المدرسة المرحوم شديد يافث التبشراني الشويري فدرس فيها مبادئ العربية واليونانية والحساب والموسيقى الكنسية لأنه كان رخيم الصوت. ثم عاد إلى مسقط رأسه ومال إلى التجارة مع إدارة أملاكه في كفر عقاب ومساعدة والده بإدارة عقاراته في شليفة أيضاً ثم انصرف إلى خدمة الحكومة فانتظم في سلك الجند اللبناني في عهد المغفور له رستم باشا بضع سنوات قام فيها بما عهد إليه أحسن قيام ولكنه طمح إلى درس الفقه الإسلامي فاستقال من الجند وأكب على مطالعة كتبه وذلك نحو سنة 1880م. وعلى أثر ذلك سار إلى دمشق الشام محامياً بدعوى لأحد أنسبائه

فاتصل ببعض فقهائها الأعلام وتخرج عليه فأحرز نصيباً وافياً وتضلع بالنظام العالي فصرف هناك خمس سنوات بالمطالعة والمدافعة والتخرج حتى تمكن من التحصيل فعاد إلى مسقط رأسه كفر عقاب سنة 1886م بعد أن لحقه من ذلك خسارة مالية عظيمة لأن موكله ترك دعواه فاضطر هو إلى متابعتها وذلك الذي حمل ولده (مؤلف هذا الكتاب) أن يترك المدرسة للاعتناء بوالدته وأخوته. فانقطع المترجم إلى خدمة المحاماة في متصرفية لبنان وولاية بيروت الجليلتين وكان معروفاً بصدقه ومساعدته للفقراء فلم يجمع من ذلك ثروة وقد عرضت عليه بعض الوظائف فاستقال منها وانقطع إلى توسيع معارفه فاقتنى مكتبة فقهية يعز وجود مثلها وله في مطالعتها طرق تسهيلية غريبة وتعاليق مفيدة وكتب بخطه مجموعات أهمها من الآثار العدلية وقد نال من حكومة لبنان الإجازة القانونية بتعاطي مهنته وبقي إلى أن مني سنة 1900م بمرض قلبي عضال كان يناصبه مرة ويهادنه أخرى إلى أن اشتدت عليه وطأته نحو شهرين فاحتمله بصبر وقضى نحبه ليل الجمعة 21 أيلول و4 ت2 سنة 1901م في مسقط رأسه كفر عقاب ودفن مأسوفاً عليه بعد أن أبنّه كثير من الأدباء ونعته الجرائد السورية والأميركية ورثاه كثير من الشعراء نخص منهم الآن جناب الشاعر العصري الناثر عزتلو قيصر بك المعلوف الذي رثاه بقصيدة نشرت في ديوانه تذكار المهاجر في الصفحة 106 مطلعها:

من أعزي بمصل هذا البلاء ... غير قلب أبي قبول العزاء

منها:

يا فقيداً به فقدنا عظيماً ... وحكيماً ونخبة الفقهاء

بك جلت مصيبة الفضل حتى ... زهدتنا بزخرف الدنيا

ما يرجى من الحياة ألوف ... غال منه الشباب غول التنائي

هي دنيا على المصائب قامت ... ما عليها للحر من آلاء

فبلاها يرافق المرء طفلاً ... لينادي به منادي الفناء

فكأن البلاء خلٌّ وفيٌّ ... لم يخالف شريعة للوفاء

والشاعر المجيد اسكندر أفندي الخوري مجاعص[1] من قصيدة:

ما زال ريب الدهـــر يخـــبر ســـائلاً أن ليس يبقـــى ســـيداً أو فـــاضلاً

إلى أن قال:

أمـــس لمصرعـــه النظـــام بحســـرة إذ كان فيه الشهم عضـــواً عـــاملاً

أفـــنى بخدمتـــه الســـنين وطالمـــا بكت الحقوق عليه دمعـــاً هـــاطلاً

ثم ختمها بقوله:

لكنه مـــا مـــات مـــن أبقـــى لـــه ذكـــراً يعطـــر للأبيـــد محـــافلاً

وأرخه بأبيات ختمها بقوله:

ونال حظاً بذا التاريخ حين قضـــى فإنه فـــاز في ســـكنى الســـماوات

ورثاه ولده مؤلف هذا الكتاب بقصيدة وأرخ ضريحه بهذه الأبيات:

يا آل معلوف اذكروا من قد مضـــى نجبـــاً بريـــق عمـــره ونعيمـــه

قد أورث القلب الحزيـــن مصائبـــا وهو الفقيـــه فجـــار في تقســـيمه

فعليه قـــد جـــرت المدامـــع أنهـــراً وغـــدا الفـــؤاد معذبـــاً بهمومـــه

قـــال الملائـــك والمـــؤرخ ناشـــدٌ اســـكندر في حضـــن ابرهيمـــه

كان ربعة القوام إلى الطول أبيض اللون مستدير الوجه وفيه شامات كبـــير العينين أقنى الأنف متوسط الشعر سمن جسمه في آخر حياته ذكي الفؤاد حاد الطبع مع أناة وتؤدة كبير النفس كريماً غير حريص على جمع الدرهم نافذ الكلمة أصيـــل الرأي طيب القلب حلو الصداقة مر العداوة.

---

[1] إن معظم بني مجاعص في قصبة الشوير (لبنان) ونشأ منهم المرحوم طانيوس غصن وأولاده وأخـــوه غصـــن أفندي ومنهم مخايل أفندي رستم مؤلف (الغريب في الغرب) وولده أسعد أفندي وجرجـــس أفنـــدي رســـتم والمرحوم نجيب حبيقة فقيد الأدب وداود أفندي منشئ مجلة النور ونشأ منهم في أرصون (المتن) اسكندر أفندي هذا والمرحوم أخوه قسطنطين.

{3}

أخوه موسى

ولد في كفر عقاب في منتصف القرن الثامن عشر وما بلغ أشده حتى ظهرت عليه أمارات البسالة فترح من كفر عقاب إلى بلاد بعلبك مع أخوته سنة 1781 كما مر في الصفحة 213، فكره الإقامة فيها مع اجتهاد الحرافشة بترغيبه وإقناعه ولقد أظهر بسالة تذكر في موقعتي عرب الشقيف التي مر ذكرها في الصفحة 215 وفي مطاردة محمد آغا العبد متسلم بعلبك حتى كاد يسقط في يديه قرب قرية ايعلت ثم تمكن من الفرار كما ذكرنا في الصفحة 220، فاختار السكنى في بيروت واتخذ دارا في محلة الأشرفية فيها واشتهر بأعمال خطيرة ولا سيما بأيام حكم الجزار ومما يروى عن بسالته أن الدراوي حضر يوماً من قبل متسلم بيروت ليستقدمه إليه وأغلظ له الكلام ثم آل الأمر بينهما إلى الخصام فقتله وتوسط أمره فعفا المتسلم عنه.

ولما حدث الخصام بين أخوته في شليفة وبني مكارم الدروز كما مر في الصفحة 228 كان أخوته قد أنفذوا إليه رسالة يحذرونه بها من خصومهم فتأخر الرسول على الطريق فذهب بعضهم إليه وقتلوه كما مر بين آخر القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر وكان ربعة القوام لحيماً توفي عن ثلاثين سنة وكان له ولد اسمه عبد الله فتوفي بعد قتل أبيه يافعاً فانقطعت سلالته.



{4}

أبو ناصيف الياس منعم

هو الياس بن حنا بن أبي فارس منعم ابن أبي يوسف حنا ابن أبي شديد عيسى ابن أبي راجح ابرهيم. ولد في زبوغة سنة 1785م واتصل بالأمراء الشهابيين فصار دهقان أملاكهم في بلاد جبيل وسكن في غلبون ولا سيما بزمن الأمير أمين ابن الأمير بشير الشهابي الكبير إذ كان يعتمد عليه بإدارة شؤونه في تلك الجهات فصرف زهاء عشرين سنة قائماً في ما عهد إليه أحسن قيام، فازدادت مترلته ورفعته في عينيه وأحبه كثيراً. وكان حاسباً ماهراً حسن الخط. واتصل بخدمة

المطران أغناطيوس صرّوف الذي صار بطريركاً. وتولى وكالة أوقاف كور (في بلاد جبيل) التي كانت لكرسي بيروت الكاثوليكي وقد عهد إليه الطيب الذكر البطريرك يوسف الخازن بشؤون كثيرة فصلها بدرايته ولدينا بعض الكتابات التي تدل على ثقته به وثقة أساقفته حتى أنهم فوضوا إليه فض مشاكل دينية كثيرة.

وكان يلبس عباءة حمراء مزركشة بالقصب نسج زوق مكايل وتحتها سلطة (صاكو) جوخ ملون غير حمراء وأحياناً سروال جوخ بقيطان من جنسه ولونه غالباً كحلي وقد يكون من الخام البلدي صبغ قرية المحيدثة وهو أشبه بالجوخ وعليه قيطان حرير من لونه. وعلى رأسه طربوش الدلخ وعليه عمامة وعلى وسطه زنار حرير دهدار أو طرابلسي مشكل الألوان ويدخن بالغليون الطرابلسي التبغ البشتوداري والزكزوك من بلاد جبيل وزبوغة وذلك أشهر تبغ لعهده والماسورة من الكرز لها فم كهربائي. وقد توفي في بلاد جبيل سنة 1850م وكان طويل القامة ممتلئ الجسم مهيباً أحمر الوجه ولونه ضارب إلى البياض أسود الشعر لم يرسل لحيته معتدل الشاربين أشم الأنف جميل المنظر حلو الحديث كثير النفوذ والوجاهة ولا سيما في بلاد جبيل.

ولده العالم ناصيف

كتبتُ ترجمته في مجلة المشرق الغراء (8:773 و847 و905 و1045) مطولة واقتطفتُ منها الآن ما يحتمله المقام فمن شاء التفصيل فليراجع المطولة:

ولد ناصيف بن الياس منعم المعلوف في قرية زبوغة في 20 آذار سنة 1823م ومال منذ نعومة أظفاره إلى العلوم وشغف بها لأنه كان وهو صغير يرافق والده إلى دار الأمير بشير الشهابي حيث كان مجلسه حافلاً بالشعراء والعلماء كالشيخ ناصيف اليازجي وبطرس كرامة والشيخ رشيد الدحداح وغيرهم، فكان الأمير وأولاده يقولون لوالده (علم ناصيف فننظمه في سلك كتبة هذا الديوان) وهو يسمع مقالهم فيزداد رغبة. فتلقى مبادئ العلوم على أحد الكهنة في دير القديس سمعان العمودي واتصل بالطيب الذكر المطران أغابيوس الرياشي فكان يكتب له لحسن خطه وإنشائه فأتم بعض علومه على الخوري أغابيوس البناء في بيروت واتصل ببعض علماء عصره ودرس مبادئ اللغتين الفرنسية والإيطالية على بعض المرسلين ومال إلى توسيع معارفه وحدثته نفسه بالسفر ولا سيما بعد أن انقطع حبل آماله لمزايلة الأمير بشير الكبير سورية.

وفي تلك الأثناء قدم التاجر المشهور يوحنا العرقتنجي من مدينة ازمير لترويج تجارته في بيروت إذ كانت قد بدأت جيالها التجارية فكان يختلف إلى الدار الأسقفية لزيارة السيد أغابيوس صديق نسيبه الطيب الذكر المطران باسيليوس العرقتنجي مطران حلب[1] فصادقه ناصيف وعرف منه ترقي ازمير العلمي فرغبه بالسفر معه، ولما كان اليوم التاسع عشر من أيار سنة 1843م أبحرا من بيروت إلى إزمير التي كانت المدينة الثانية في عمرانها بين مدن الممالك المحروسة وعدد سكانها نحو مائة ألف نفس وأكثر أبنيتها خشبية. ولما وصلاها اتخذ يوحنا ناصيف مدرساً لأولاده العربية والفرنسية واعتمد عليه بإدارة شؤونه التجارية لمهارته في فن الحساب فاغتنم ناصيف فرصة لاستزادة علومه فدخل مدرسة أخوة التعليم المسيحي سنة 1844م ومارس الفرنسية والتركية. وسنة 1845م انتظم في سلك أساتذة اللغات الشرقية في مدرسة البروباغندة التي كانت بإدارة الأبوة العازاريين وكانت له رغبة غريبة بتحصيل اللغات فأتقن التركية والإنكليزية واليونانية الحديثة فوق ما كان يعرفه منها. وأكب على التأليف في بعضها فنال مترلة لدى العلماء ورؤساء تلك المدرسة فأثنوا عليه كثيراً ولا سيما الأب أوجان بوره E. Bore رئيسها الشهير الذي أثنى مراراً على براعته وحسن أسلوبه في التدريس. وبقي ناصيف زهاء عشر سنوات يلقن العلوم ويضع بعض التآليف وقد زار بأثنائها الآستانة العلية وباريس ولندن وغيرها من عواصم ومدن أوربة.

وفي صيف سنة 1848م اغتنم فرصة العطلة المدرسية ورافق بعض السياح الأوروبيين القادمين من سورية لتفقد آثارها وجاء مسقط رأسه زبوغة في شهر تموز فشاهد أسرته ثم ذهب إلى زحلة لملاقاتهم يوم الثلاثاء في 27 منه وفيها بلغهم أن الهواء الأصفر قد تفشى في حلب قادماً من مصر ويوم الخميس في 29 منه كانت الأسر الكثيرة من دمشق تتقاطر إلى زحلة هرباً من الوباء فذهب ناصيف مع رفقائه إلى بعلبك وعادوا بسرعة عائدين إلى بيروت وبرحوها قاصدين إزمير فما وصلوها حتى بلغهم أن الوباء تفشى في بيروت في منتصف آب. ومنذ ذاك الحين اختبر ناصيف بنفسه حاجة السياح إلى معرفة اللغات الشرقية فشرع في وضع بعض المؤلفات باللغات التي أتقنها وذاع شهرة بتضلعه بالشرقية منها.

---

[1] كان رئيساً عاماً للرهبنة الشويرية سنة 1814م وسيم في أثناء رئاسته على أسقفية حلب سنة 1816م وتوفي سنة 1823م.

ولما ذاعت معارفه في أنحاء الممالك المحروسة واتصلت بأوربة استقدمه إليه اللورد ركلن (L. Raglan) قائد الجيوش المتحدة في حرب الدولة العلية وروسية فلبى طلبه مستأذناً الدولة العلية ورافقه في أسفاره في أول آب سنة 1855م وبقي إلى 30 أيلول من السنة التالية بمهنة ترجمان فشهد الوقائع الكبيرة وكان يدرس الضباط اللغة التركية وأظهر إخلاصه لدولتنا العثمانية العلية.

وفي سنة 1856م ذهب إلى مدينة لندن فنال لدى كبار علمائها مقاماً رفيعاً ونظمته جمعية الأثينيوم العلمية في سلك أعضائها فشكر لهم حفاوتهم هذه برسالة مؤرخة في آب سنة 1857م لن تزال نسخة منها في مكتبتنا. وبقي في عاصمة الإنكليز إلى شهر تشرين الأول من تلك السنة فبرحها إلى مدينة بكرش (Bucharest) حاضرة بلاد رومانية وانضم إلى السير هنري بلور (Bulwer) معتمد إنكلترة وبقي في خدمته ثم رافقه إلى الآستانة العلية في حزيران سنة 1858م، وكان ترجماناً له يدرسه اللغة التركية فأهدى إليه معجمه التركي الفرنسي. وفي العام القابل بينما كان يتأهب للسفر إلى بر الأناضول قنصلاً للدولة الإنكليزية فيها إذ فرغ منصب الترجمان الأول لقنصلية إنكلترة في إزمير ففضله على الأول لأسباب صحية وناله برخصة الدولة العلية وباشر القيام به في شهر أيار فخدمه خدمة أكسبته رضى هاتين الدولتين وغيرهما من الدول الشرقية والغربية. وكان مع انهماكه بهذا المنصب منكباً على التأليف وتصحيح المطبوع من مؤلفاته بجلد غريب حتى أنه كان كثيراً ما كان ينسخها بخط يده مرتين أو ثلاثاً. وفي أول تشرين الأول سنة 1863م نشر بعض علماء عصره سيرته باللغة الفرنسية في جريدة رائد الشرق (Courrier D'orient) ثم طبعت على حدة في 19 صفحة.

وبقي مثابراً على العمل والتأليف إلى أن تفشى الهواء الأصفر في مصر وسورية واتصل بإزمير فأشار إليه الأطباء أن يبرحها إلى أوربة ترويحاً للنفس فشخص إلى بعض عواصمها حتى انقطع دابر الوباء فعاد إلى إزمير مريضاً واصطاف في قرية كوبجه من ضواحيها فتوفي في 14 أيار سنة 1865م غريباً عزيباً فنقل إلى إزمير ودفن في كنيسة الآباء اللعازاريين بضريح خاص وقد أرخت وفاته بقولي وهو الذي كتب تحت رسمه الفتغرافي:

فقيد بني المعلوف ناصيف منعمٌ ولكن لأهليه وللعلم تكدير
ونفس أديب العصر كالشمس أرخت فمطلعها لبنان والغرب إزمير

وكان ربعة القوام إلى الطول رقيق الجسم أبيض اللون يضـــرب لونــه إلى السمرة خفيف الشعر لطيف المنظر حلو الحديث. هذا وقد نال لـــدى معاصريـــه شهرة ذائعة. أما إخلاصه لدولتنا العلية أيدها الله فأشهر من أن يذكر إذ كافأتـــه بالوسام المجيدي الخامس ببراءة سلطانية في أواسط ذي القعـــدة ســنة 1272هـــ (1855م) وتنازل ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان فقبل هدية تآليفه. وانتظـم في سلك أعضاء جمعية العلوم والآداب التركية (انجمن دانش) الـــتي أنشـئت في الآستانة سنة 1851م وفي الجمعيتين الآسيويتين الفرنسية والبريطانية وأتقـــن مـــن اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية واليونانية وألف في جميعها. وأهداه المغفور له ناصر الدين شاه العجم وسام الأسد والشمس (شـير خورشيد) من الطبعة الرابعة ببراءة مؤرخة في ربيع الآخر سنة 1276هـــ (1859م) وفتحت جرائد الممالك المحروسة العربية والتركية والأرمنية أبوابها لمقالاته ولتقريـظ مؤلفاته والثناء عليه وتكرر اسمه في الجرائد الأوروبية ومجلاتها ولا سيما في بـــاريس ولندن وبكرش ومالطة ولقبته بالعالم المتضلع باللغات الشرقية وبالمستشرق الشـــهير الذائع الشهرة ليس في الممالك المحروسة فقط بل في عواصم أوربة أيضـــاً. وقـــال غرسان دي تاسي (G. de. Tassy) من مشاهير علماء فرنسة: «أن تآليف نـــاصيف المعلوف تنطق بسعة معارفه واجتهاده». ولما عاد الطباع ميزونوف (Maisonneuve) في باريس طبع معجمه الفرنسي التركي الذي طبع أولاً في إزمير سنة 1849م تـــولى مراجعة مسوداته العلامة أوبشيني (A. Ubicini) فصدره بمقدمة بـــين فيـــها فضـــل الكتاب وأفاض في وصف صاحبه وتوسع في إظهار مزايا مؤلفاته ولا سيما سـهولة طريقته ووضوح عبارته وتضلعه باللغات الشرقية. وأعظم هذه الشهادات ما قالـــه المسيو بيانكي (Bianchi) (وكان أول من عني من المستشرقين في وضـــع معجـــم فرنسي تركي طبعه سنة 1831م فنال رواجاً مذكوراً في أوربة وبقي نسيج وحـــده فيها إلى أن نشأ ناصيف فوضع معجمه واحتذى طريقة بيانكي واتســـع في ذكـــر الاصطلاحات اللغوية للفنون والآداب والعلوم فنال رضى العلماء ولا سيما بعد ما جدد طبعه وأعاد النظر فيه) في كتاب أرسله إليه من باريس في 26 كـــانون الأول سنة 1854م أثنى فيه على تآليفه وخصوصاً على كتابه الفوائد الشرقية ومما قال فيـه: «فأنت أول شرقي يشتغل بهذه الأعمال لأن مؤلفاتك الكثيرة النافعة قد ســاعدت على تقدم الدروس العربية والتركية والفارسية.. إلخ». وكتب إليه مثل ذلك العلامة الفرنسي رينو (J. Reinaud) وغيره من كبار العلماء. ومما هو جدير بالذكر ما كتبـه

بعضهم في مقدمه أغراماطيقه التركي الفرنسي المطبوع في باريس سنة 1862م نقتطف من قوله ما تعريبه: «إن الكتب الكثيرة التي مثلها المسيو معلوف بالطبع قوبلت جميعها بحفاوة وأنالته شهرة واسعة فبينما كان يشتغل بتدريس التركية في مدرسة البروباغندة الفرنسية في إزمير وبرئاسة كتابة (باش كاتب) قومندان الفرسان العثمانيين وبأعباء الترجمان الأول لقنصلية إنكلترة في إزمير ما انقطع قط عن سعيه في نشر تآليفه التي سهلت درس اللغات الشرقية على الأوربيين ولا سيما التركية منها. كيف لا وأنه في مطاوي اثنتي عشرة سنة فقط ألف ومثل بالطبع أكثر من خمسة وعشرين مصنفاً كانت مرشداً للسياح في الشرق ومرجعاً لعلماء الاشتقاق» إلى أن قال: «إن المؤلفين لم يعثروا حتى الآن على أسلوب أسهل وأكمل من الأسلوب الذي ابتكره المسيو معلوف فإنه بعد أن يشرح القواعد بإيضاح يمرن الطالب بمحاورات وأمثلة من مألوف الرسالات وذلك بلا نكير من أسد الطرق وأقوم المناهج للتوصل إلى إتقان التكلم بكل لغة إلخ اهـ». أما تآليفه التي طبعت فهي وفقاً لبرنامج مكتبة ميزونوف في باريس سنة 1900م وغيرها مع ما وجد منها في المتحف البريطاني ومكتبة الآباء اليسوعيين الشرقية ومكتبة المدرسة الكلية السورية في بيروت:

(1) مفتاح اللغة التركية طبع في إزمير سنة 1846م. (2) محاورات فرنسية وعربية وإنكليزية في إزمير سنة 1846م. (3) محاورات فرنسية وتركية[1]. إزمير سنة 1847م. (4) تمارين تركية. الآستانة سنة 1847م. (5) محاورات تركية وعربية باللغة العامية. الآستانة سنة 1847م. (6) فكاهات شرقية بالتركية لنصر الدين خوجة. إزمير 1847م والآستانة 1859م. (7) مجموع جديد لجمل ومحاورات بالفرنسية والتركية. إزمير 1849م. (8) مبادئ القراءة بالعربية والتركية والفارسية. إزمير 1849م. (9) معجم بالفرنسية والتركية طبع أولاً في إزمير سنة 1849م وثانية في باريس سنة 1856م وثالثة في باريس في مجلدين بعد تنقيحه وإضافة أكثر من ستة آلاف كلمة جديدة إليه من علمية وفنية وصناعية وتجارية وسياسية وحقوقية سنة 1863م وقد قدمه للسر بلور كما مرّ. (10) محاورات ومنتخبات تاريخية وقصصية

---

[1] ألف ناصيف هذا الكتاب بحسب المتن الذي اقترحه المسيو فيكيه (Viguier) وهو كتابة اللفظ التركي بحروف فرنسية وقد ذكرت هذا الكتاب وغيره جريدة الامبرسيال الإزميرية في 11 ك2 سنة 1855م وقرظت مؤلفاته الأخرى في مجلة الشرق في شهر أيلول سنة 1853م.

مختصرة بالتركية والفرنسية. إزمير 1850م. (11) الوادي الطيب بالتركية والعربية. إزمير 1851م. (12) مختصر الجغرافية القديمة والحديثة. إزمير 1851م. (13) كتاب المراسلات التركية (إنشاءي جديد). الآستانة 1852م. (14) مختصر التاريخ العثماني بالفرنسية. إزمير سنة 1852. (15) دليل المحادثات بالتركية والعربية والفارسية. إزمير 1853[1]. (16) محاورات بالتركية والفرنسية وبالفرنسية والتركية. إزمير 1854م. (17) فوائد شرقية في اللغات التركية والعربية والفارسية. إزمير 1854م. (18) الهجاء العثماني طبع أولاً في إزمير 1854م وثانية في باريس 1863م. (19) المخاطبات المعلوفية بالتركية والعربية. الآستانة 1856. (20) دليل المحادثات باللغات الخمس الإيطالية واليونانية والتركية والفرنسية والإنكليزية طبع مرتين في باريس سنة 1859م و1880م. (21) دليل المحادثات باللغات الأربع الفرنسية واليونانية الحديثة والإنكليزية والتركية. طبع ثلثاً في باريس سنة 1859 و1863 و1880م. (22) دليل المحادثات باللغات الأربع الإيطالية والتركية والفرنسية والإنكليزية. باريس سنة 1859م. (23) دليل المحادثات باللغتين الإنكليزية والتركية. طبع مرتين في باريس سنة 1859 و1880م. (24) دليل المحادثات باللغات الثلاث الإنكليزية والفرنسية والتركية. طبع في باريس مرتين سنة 1860 و1880م. (25) أغرامطيق اللغة التركية بالعربية طبع في باريس سنة 1861م ثم 1889 بعد أن نظر فيه المسيو كليمان هوارت (C. Huart) ترجمان السفارة الروسية الثاني في الآستانة العلية قبلاً ومدرس في مدرسة اللغات الشرقية حالاً وهو مصنف كتاب تاريخ آداب اللغة العربية بالفرنسية. (26) معجم تركي وفرنسي بمجلد واحد. باريس سنة 1863 و1867م. (27) دليل المحادثات باللغات الثلاث الفرنسية والإنكليزية والعربية. طبع في باريس سنة 1862 ثم سنة 1880 فيها ـــ هذا وقد بقي بعض مؤلفات له لم نعثر على أسمائها وزمن طبعها أخصها نقل حكايات باركن (Berquin) من الفرنسية إلى التركية وما رواه صاحب

---

[1] ربما كان هذا الكتاب هو الذي وصفه بعضهم في برنامج المكتبة الكلية السورية في بيروت بقوله: (التحفة الزهية في اللغات الشرقية على الرسالة البهية في العربية والفارسية نشرت أولاً بالفارسية والتركية مسماة بالتحفة الفارسية وثانية سنة 1265هـ (1848م) باسم كمال أفندي ناظر المدارس الملكية العثمانية وأستاذ البيان وعضو مجلس المعارف وأكاديمية العلوم الهمايونية في الآستانة العلية ترجم هذه التحفة بالعربية ناصيف المعلوف في إزمير وطبعت في اللغات الثلاث على نفقة أمين مخلص أفندي عضو الأكاديمية المشار إليها في إزمير سنة 1853م (1269هـ).

رشد سورية في الصفحة 80 ولعله الجغرافية التي وصفت بعدد 12 فضلاً عما بقي مخطوطاً[1].

وهاك بعض ألقابه المطبوعة تحت اسمه في الأغراماطيق التركي المطبوع في باريس سنة 1862م وفي بعض مؤلفاته الأخرى كالمعجم الفرنسي التركي المطبوع في باريس سنة 1856 وهي: «أستاذ اللغات الشرقية وعضو الجمعية الآسيوية في باريس وواضع التآليف الكثيرة بالتركية والعربية والفارسية والفرنسية وغيرها المؤذنة بنشرها جمعية العلوم والآداب الملكية في الآستانة العلية. وكاتم أسرار وترجمان قومندان الفرسان الإنكليزيين العثمانيين وممتحن الضباط الإنكليزيين باللغات الشرقية ومدرسهم اللغة التركية. والترجمان الأول لقنصلية بريطانية في إزمير وعضو الجمعية الآسيوية الملكية لبريطانية العظمى وإيرلندة. وناقل الوسام المجيدي العثماني ووسام الأسد والشمس الإيراني.. إلخ».



{5}

أبو أسعد الياس هاشم

هو الياس بن هاشم ابن أبي هاشم نعمة ابن القسيس جرجس ابن أبي شديد عيسى بن ابرهيم المعلوف. ولد في كفر عقاب سنة 1787م ثم ذهب إلى بلاد بعلبك في حين كان لأبناء عمه شبلي نفوذ في تلك الجهات. وسكن قرية جبعة (التلة) وهو أول من بنى فيها بيتاً واتصل بخدمة الأميرين حمد وخنجر الحرفوشيين ونفذت عندهما كلمته. وكان كريماً أصيل الرأي ثابت الجنان مقداماً لا يبالي بعظائم الأمور وله مع الحرافشة وقائع ومناظرات كانت الغلبة له فيها. ولقد اشتهر بكثير من مواقعهم ومواقع لبنان الشهيرة. ومما يذكر عنه أنه سنة 1830 اشتهر في حرب سانور مع ابن عمه طنوس شبلي كما مر في الصفحة 237، وقد حافظا مع رجالهما

[1] ورد في مجلة المشرق (8:1050) ما نصه: ومما وجدنا لناصيف المعلوف في مكتبتنا الشرقية كتاب مكالمات لطيفة وأمثال وتواريخ مترجماً من الفرنسية إلى التركية تاريخه 1266هـ (1850م) قدمه لأحمد فتحي باشا وطبعه في الآستانة. وقد ترجم أيضاً من الفارسية والتركية إلى العربية رسالة كمال أفندي المعنونة (التحفة الزهية في اللغات الشرقية) إزمير 1269هـ ـ 1853م. وله أيضاً دليل آخر في ثلاث لغات الفرنسية والإنكليزية والعربية الدارجة في الشام ومصر مع تمثيل لفظ اللغة العربية بحرف إفرنجي. باريس 1864م ولعله المذكور تحت العدد 27 ـ اهـ).

على عين جباع ومنعا العساكر التي في القلعة أن تستقي ماء. وفي موقعتي سنة 1841 و1844 أظهر الياس من البسالة ما يذكره إلى الآن الشيوخ الذين شهدوا أعماله. في الموقعة الثانية ركب جواداً بعد أن قتل جواده وضغط عليه بفخذيه فقصم ظهره وكان ذلك في زمن اكتهاله. ولما انتشرت الحمى الوبالية (الملارية) سنة 1845م في البقاع وبلاد بعلبك منبعثة جراثيمها من غاب عميق وبعض مستنقعات تلك الجهات مات كثير من الناس فيها ومن جملتهم المترجم توفي في قرية السعيدة عن 58 سنة و لم يصب من دنياه حظاً بالثروة فلو كان مثرياً لجاء بما لم يشق له به غبار. وكان ربعة إلى الطول جميل الصورة أبيض اللون كبير العينين جسيماً مطلق اللحية يلف عمامة بيضاء من الغباني على طربوش مغربي ويرتدي بجبة جوخ سوداء أو كحلية وتحتها سروال جوخ من لونها ويتقلد السيف والقربينة ويمتطي جواداً أزرق وقد وخطه الشيب في آخر أيامه، وكان يدخن بالغليون الطرابلسي التبغ المنسوب إلى قرية دير الأحمر قرب السعيدة.



{6}

الخوري بطرس القطيني

هو فارس بن سمعان بن فرنسيس الملقب بالقطيني (لأنه كان يملك القطين قبالة وادي العريش تجاه زحلة وهو اليوم بيد الرهبنة الشويرية) ابن عيد بن منصور ابن أبي شديد عيسى بن ابرهيم المعلوف. ولد في زحلة سنة 1795م وكان في أول عهده يحوك الخام البلدي الذي كان يشتغل به نحو نصف سكان زحلة. ولما توفي والده سنة 1835م ألقيت تربية أخوته على عاتقه لأنه كان البكر فاجتهد لتحصيل ما يقوم بأودهم. ولما كان الطيب الذكر المطران باسيليوس شاهيات الحلبي قد بدأ سنة 1836م بسيامة كهنة في كرسيه الأسقفي لخدمة الرعية كان فارس هذا أول مرشح لذلك مع الطيب الذكر جرجس بن ابرهيم ملوك (الذي سيم مطراناً على زحلة باسم أغناطيوس) فانقطع فارس إلى الدرس والمطالعة استعداداً للدرجة التي انتدب إليها، فكان يشتغل بياض يومه في النسج للقيام بأود أسرته ويحيي ليله بالمطالعة وكثيراً ما كان يدرس في أثناء عمله واضعاً كتابه على المنوال (النول) فاشتهر بنشاطه حتى قيل عنه أنه «كان يسبق الجمعة بشقة» أي أن معدل ما كان ينسجه الحائك الماهر في الأسبوع ست شقات (صايات) من الخام أما هو فكان يحوك سبعة.

ولما جان وقت سيامته كاهناً أسقفياً اعتزل مع زميله جرجس ملوك الآنف الذكر في كنيسة عين الدوق مدة فدرسا بعض العلوم الكنسية وغيرها وعكفا على الصلوات والتأملات الروحية فسيم مع زميله في 13 تموز سنة 1836 شماسين انجيليين ثم قسين في 22 آب سنة 1837م وسمي زميله حنا ملوك وهو دعي القس بطرس واهتم القس بطرس بالرعية اهتماماً يدل على غيرته الرسولية مواظباً على الوعظ والإرشاد ساهراً على راحة النفوس المسلمة إليه قيادها قائماً بواجباته الدينية وكان شديد الكلف بالمطالعة واستنساخ الكتب النادرة حتى جمع مكتبة كبيرة في الدار الأسقفية.

فلما رأى أسقفه المشار إليه غيرته انتدبه نائباً له يدير شؤون كرسيه الروحية والزمنية فقام بأعباء ذلك وفض المشاكل بحكمته وهو الذي اعتنى بتشييد كنيسة سيدة النجاة الكاتدرائية والدار الأسقفية فبدأ بهما أولاً في 27 نيسان سنة 1846م، ثم شرع بتوسيعهما سنة 1853م لما كان زميلاه الخوري موسى مقحط الدمشقي والخوري فيلبس النمير الزحلي[1] يجمعان إحساناً وكان هو مناظراً لجميع أعمالها وكثيراً ما شاهده أبناء وطنه يشتغل بغيرة ونشاط هو وأخوه (الدكتور يوسف) الذي كان قد وكل إليه شؤون المحاسبة ومناظرة العمل كما سنرى في ترجمته.

وبقي مشهوراً بغيرته وفضله وتقواه مكباً على خدمة الأنفس إلى أن كانت حادثة سنة 1860م فكان هو الكاهن الوحيد الذي لم يشأ أن يترك أبناء وطنه في

---

[1] سافر هذان الأبوان إلى أوربة لجمع الإحسان في 21 آب سنة 1850 وعادا إلى موطنهما في 16 أيار سنة 1863م أما الخوري موسى فكان من الرهبان المخلصيين ولكنه انتظم في سلك الأكليروس الأسقفي الزحلي سنة 1850م وبعد عودته إلى رتبة الأرشمندريت ونصب وكيلاً بطريركياً في دمشق وتوفي في زحلة في 12 آب سنة 1875م. والخوري فيلبس النمير أصل أسرته من الفيكه قرب رأس بعلبك جاء جدها شاهين النمير إلى معلقة زحلة ثم انتقل إلى زحلة ومن أنسبائه القس بطرس النمير الذي قتل سنة 1749م قرب دير سيدة الرأس أوقع به أتباع الأمير حيدر الحرفوش لما كان ينازع أخاه الأمير حسيناً حكم بلاد بعلبك وقد رثاه المرحوم الخوري نقولا الصائغ راجع ديوانه المطبوع سنة 1890م صفحة 259. أما الخوري فيلبس فولد في زحلة سنة 1819م وانتظم في سلك الأكليروس الأسقفي سنة 1837م وكان مخصصاً بخدمة السيد باسيليوس المذكور. وبعد عودته من أوربة رقاه إلى رتبة بروطوبروزفيتروس (أول الكهنة) وترأس المدرسة البطريركية في بيروت سنة 1869م سنوات ثم عاد إلى زحلة وتوفي فيها سنة 1898م وقد اقتنى مكتبة نفيسة معظمها باللغة النمسية وفيها كثير من المخطوطات وله (يومية تاريخية) من سنة 1841 ـ 1898 و(رحلة أوربة) في 4 مجلدات بخطه كبيرة الحجم في مكتبتي نخبة منها وصف فيها سفره مع زميله يوماً فيوماً ومن أنسبائه المرحوم الخوري سليمان الذي ترأس الرهبنة المخلصية وتوفي في أسترالية سنة 1904م عن نحو ستين سنة ومنهم عزتلو يوسف بك النمير في القطر المصري.

مثل ذلك الموقف الحرج وخدهم مع أن أسقفه وجميع الكهنة تركوا البلدة ما عدا ابن عمه الخوري يعقوب المعلوف من فرع أبي مدلج. فجمع هذا الكاهن أخوته وأهل بلدته ودافع دفاع الأبطال في كنيسة سيدة النجاة وهاك ما وصفه به الطيب الذكر وطنيه المطران غريغوريوس عطا أسقف حمص وحماة ويبرود في تاريخ زحلة المخطوط المطول: «إن الخوري بطرس القطيني المعلوف بقي وحده يحارب مع بعض الأهالي في زحلة وحاصر في الكنيسة الكاتدرائية وأصيب برصاصتين فقتل وسقط شهيد الغيرة، وفي النهار ذاته قتل أخواه أيضاً في المعركة وهما حنا وشاهين». أما أخوه خليل فأبدى بسالة تذكر وشق صفوف الأعداء وخرج من بينهم ظافراً وكانت والدتهم المرحومة مريم تقدم لهم الذخائر والمؤونة وتساعدهم في الدفاع فنظرت بعينيها الحزينتين أولادها الثلاثة صرعى المحاماة عن بلدهما وذلك في 6 و18 حزيران سنة 1860م وكان الخوري بطرس ابن 65 سنة ربعة القوام إلى الطول سمين الجسم متوسط الشعر حنطي اللون جهوري الصوت فصيح اللسان. ومما يذكر أن المرحوم عبد الله جبور المعلوف من فرع أبي مدلج أبدى بهذا الحصار بسالة غريبة وحمل الأب بطرس قتيلاً خوفاً من أن تهان جثته.

أخوه الدكتور يوسف

ولد في زحلة في 27 شباط سنة 1835م، وبعد ولادته بقليل توفي والده سمعان فاعتنى بتربيته وتربية أخوته اعتناء خاصاً أخوه البكر الخوري بطرس الذي مرت ترجمته. وتلقى مبادئ العلوم في مدرسة الآباء اليسوعيين في زحلة إلى أن بلغ أشده. ولما وكل إلى أخيه الخوري بطرس أمر تشييد كنيسة سيدة النجاة أقام المترجم دهقاناً (خولياً) على البناء ومدوناً لحساب الفعلة والنفقات. وكان يحضه على إتقان الخط والمطالعة ويتولى إفادته بنفسه بقلمه كثيراً من الكتب الكنسية والعلمية فاستلفتت براعته هذه أخاه، فأرسله إلى مدينة القاهرة في القطر المصري ليتلقى فن الطب في مدرسة القصر العيني[1] وذلك بعهد المغفور له الخديوي سعيد باشا سنة 1855م. فصرف ست سنوات منعكفاً على تلقي العلوم الطبية بأنواعها ومشاهدة الأعمال الجراحية الخطيرة والتخرج بالعلوم الطبيعية والرياضية وقد استنسخ معظم

---

[1] أنشأ المدرسة الطبية المغفور له محمد علي باشا جد الأسرة الخديوية الفخيمة بمساعدة الدكتور كلوط بك (Clot Bey) في أبي زعبل قرب المطرية سنة 1828م ثم انتقلت إلى القصر العيني في القاهرة سنة 1837م (وكان هذا القصر مسكناً لابرهيم بك الكبير من أمراء المماليك) فاشتهرت إلى يومنا وتخرج فيها كثير من كبار الأطباء المصريين والسوريين.

الكتب بخطه بإتقان وترتيب لقلة المطبوع منها. وفي السنة الأخيرة من دروسه نمـي إليه خبر حريق مدينة زحلة منشأ أنفاسه وقتل أخوته الثلاثة كما مر وذلك في سـنة 1860م فأثر هذا فيه كل التأثير وبقي أكثر من شهر يذرف الدمع السخين حتى كان الدم ينفجر من أذنيه أحياناً لشدة حزنه ولكن الطيب الذكر الخوري يوسف عطـا (المطران غريغوريوس) الوكيل البطريركي في القطر المصري والخـوري يوسـف الكفوري (سيادة الإيكونوموس رئيس الرهبنة الشويرية العام الآن) وكيل الرهبنـة فيها أيضاً احتضناه وخففا من حزنه وشجعاه على احتمال مصابه ومـع ضغـط الحزن على ذهنه أطاق امتحانه أمام اللجنة التي تألفت لذلك فنال شهادة بتـاريخ سنة 1278هـ (1861م) ورقم 3 وعزم على البقاء بمصر لتعاطي الطبابة فيها ولعـدم تجديد أحزانه بالعودة إلى وطنه فألح عليه الكاهنان المومأ إليهما أن يساعد وطنـه في مثل تلك الحالة، فترك مصر وجاء زحلة فرآها قاعاً صفصفاً فأخذ يداوي الجرحـى ويطيب الأعلاء وبث في أبناء وطنه حب العلوم والمعارف واشتهر بخبرتـه وطبـه وحسن أخلاقه.

وسنة 1870م استقدمه المغفور له فرنكو باشا متصرف لبنان وعينـه طبيبـاً عسكرياً في المتصرفية الجليلة فقام بأعباء خدمته التي لم تكن لتمنعه من إغاثة المرضى في موطنه فبقي فيها بضع سنوات وانتدب مراراً طبيباً لمفوض مدينة بعلبك البلـدي ولا سيما في السنين الوبائية. وسنة 1881م صدرت الإرادة السنية السلطانية قاضيـة بوجوب امتحان الأطباء والصيادلة المتخرجين في المدارس الأجنبية أمـام لجنـة في الآستانة العلية ليعطوا الإجازة بالتطبيب في الممالك المحروسة فاكتفى المغفـور لـه رستم باشا متصرف لبنان إذ ذاك بإرسال شهادته القانونية إلى الآستانة والمصادقـة عليها فقط وتحصيل رخصة له باللغتين التركية والفرنسية. وسنة 1886م زار القـدس الشريف والأراضي المقدسة عند دخول ولده كريم (حضرة الخوري بولس) المدرسة الكهنوتية. وسنة 1889م سافر إلى باريس وشهد معرضها العـام وكـان ولـداه الأفنديان حليم واسبر فيها ولهما محل تجاري، فتفقـد عاصمـة الفرنسـيين وزار مستشفياتها وشاهد غرائب عمرانها وعاد إلى موطنه بعد ثلاثة اشهر. وسـنة 1897م مني بمرض عصبي في الحبل الشوكي تحمل مضض آلامه سنة كان في أثنائها يعـلوده حيناً ويهادنه آخر إلى أن اشتدت وطأته عليه فبقي خمسين يوماً لا يستطيع حراكـاً ولم يكن من أولاده أمامه سوى الخوري بولس الذي كان يسليه فاحتمل آلامـه المبرحة بصبر جميل ولبى دعاء ربه في 25 أيلول 1898م فبكاه مواطنوه وابنه وبعـض

الآباء والأدباء ونعته جرائد سورية ومصر وأوربة وأميركة معددة صفاته ورثاه كثير من الأدباء منهم المرحوم عيسى مخايل الخوري[1] من بحمدون نزيل نيويورك القائل من قصيدة:

فقيد بكاه الطب والعلم والنهى   وقد فتتت حزناً عليه الأضالع
فكل كلام قاله فهو صائب   وكل دواء يصطفي فهو ناجع
ولكنه لم يدفع الموت طبه   وإن حان حين الموت لا طب دافع
وقد كان يشفي المدنفين بلطفه   فمن بعده بالناس في الخطب شافع
لقد مات لكن ذكره هو دائم   وصيتٌ له باق مدى الدهر ذائع

ورثاه بكره نجيب أفندي بقصيدة مؤثرة وأرخه بهذه الأبيات:

قضى يوسف المعلوف من كان للورى   طبيباً نطاسياً يداوى به السقم
مضى ومضت معه المعارف والنهى   و لم يبق إلا الصيت والذكر والرسم
فقلب الحزين اليوم أرخه ضنيً   ثوى يوسف فليبكه الطب والعلم

ومما يستحق الذكر من أعماله الجراحية والطبية أنه كان رحمه الله أول من استخرج الحصى من المثانة بعملية جراحية في هذه الجهات وكان أول جراح بتر اليدين والرجلين وشق دمل (خراج) الكبد ونحو ذلك. وكان يشفي الجراح المعضلة بعلاجات طبية وهو أول من اتخذ صبغة اليود لمعالجة القروح السلية في موطنه ونجح بشفائها. وكان يحب العلم وكثيراً ما قال: «إنني أريد أن أترك أولادي تركة علمية لا أموالاً». وهكذا كان فإنه علم جميع أولاده. وأكب على اللغة الفرنسية فحصل

---

[1] أصل هذه الأسرة من اذرع (حوران) جاء جدها عيسى عيسى بأخوته فيصل ومتى وخالد إلى مدينة بعلبك ثم ارتحلوا إلى عكار فالكورة فنزلوا في كفر عقة وكفر حزير وإميون ولما جرت موقعة التفكجية التي ذكرت في الصفحة 212 وذلك سنة 1779م رحل بنو عيسى ومتى وخالد إلى سواحل عكاء وفي زمن الجزار عادوا إلى بيروت ومنها توطنوا بحمدون واشتهر مخايل بن عيسى من فرع عيسى الخوري بتقربه من الأمير بشير الشهابي الكبير ثم ولده عيسى الذي وكل إليه بناء الشونة (السراي) في معلقة زحلة في أوائل القرن التاسع عشر وسكن زحلة وفيها نشأ ولده شديد الذي خدم الأمير والحكومة اللبنانية بعد تنظيم المتصرفية ثم ولده المرحوم أمين بك قائم مقام الكورة وولده صديقي عزتلو الياس بك قائم مقامها الحالي ويعرف هذا الفرع في زحلة ببني البحمدوني. ونشأ ممن في بحمدون المرحوم عيسى بن مخايل الخوري الذي أنشأ في نيويورك مجلة الدائرة وكتب في بعض الجرائد وتوفي في ريعان شبابه. أما بنو متى وخالد فهم إلى اليوم في بحمدون وبنو فيصل في إميون.

منها نصيباً وافراً مكنه من الترجمة منها وإليها وجمع من دروسه الفرنسية كتابين لمن يريد تعلمها من أبناء اللغة العربية واقتنى مكتبة نفيسة جمعت كثيراً من نوادر المصنفات باللغتين المومأ إليهما ولا سيما في الطب والعلوم. وجمع كراريس كثيرة بخطه في العلوم الطبية والطبيعية وعلق عليها شروحاً. وحصل آداب اللغة التركية وكان يدرّسها لمريديها منهم الطيب الذكر صديقه البطريرك بطرس الجريجيري أيام كان رئيساً للمدارس الأسقفية الزحلية. ومن صفاته الأدبية أنه كان غيوراً ديناً مخلصاً للصداقة كريم النفس طيب القلب واسع الصدر حلو الحديث لين العريكة قوي المحفوظ. ومن صفاته الجسدية أنه كان ربعة إلى القصر ممتلئ الجسم حسن الملامح والتقاطيع حنطي اللون.

ابن شقيقه نجيب أفندي

هو نجيب ابن الدكتور يوسف الذي مرت ترجمته الآن. ولد في زحلة في 11 شباط سنة 1864م فتلقى مبادئ اللغتين العربية والفرنسية بالمدرسة الأسقفية في مسقط رأسه وأتقنهما في المدرسة البطريركية في بيروت ومال إلى نظم الشعر فنال منه حظاً وافياً وله مقالات شائقة في كثير من الجرائد الأميركية. وبعد أن ترك المدرسة في ختام 1879م اتخذ نسيبه ابرهيم أفندي نعمان المعلوف (صاحب السعادة ابرهيم باشا) كاتباً في صندوق خزينة زحلة أيام كان مديراً لمال هذا القضاء ثم كتب مدة في قلم التسجيل (الطابو) في قضاء البقاع. وبعد ذلك لقنه والده فن الصيدلة فبرع فيه وفتح صيدلية في بلدته بمناظرة والده ثم انتدب مدرساً في دير القديس يوحنا الصايغ سنة 1884م وفي السنة التالية قصد القطر المصري فدرس في المدرسة الفرنسية التي أنشأها المرسلون الأفريقيون في الزقازيق وانفتح لديه مجال توسيع معارفه فأتقن بعض اللغات الأجنبية ونظم القصائد والمقاطيع مما اقترح عليه وأتقن فوق ذلك صناعة التصوير الشمسي.

ولكن نفسه كانت تطمح إلى التجارة وتحصيل الرزق من أوسع من شق القلم فقصد أوسترالية في الثالث من تشرين الثاني سنة 1889م وأقام في مدينة ملبون ثلاث سنوات يتعاطاها بأمانة ونشاط ولكنه رأى أن التجارة في تلك القارة لا توفر الثروة فبرحها سنة 1893م إلى باريس فالتقى فيها بشقيقه حليم فسافرا إلى منتريال كندة في أميركة الشمالية حيث كان أخوهما اسبر قد سبقهما إليها. فوسعوا أعمالهم التجارية.

وسنة 1902م انتدبته الحكومة الأميركية ترجماناً قانونياً في إدارة المهاجرين للغات الأربع العربية والفرنسية والإيطالية والإنكليزية وهو يشغل هذا المنصب إلى اليوم بمعارفه الواسعة وحسن مبادئه مما أكسبه ثقة الحكومة وشعبها والمهاجرين.

وله روايات ومقالات طبع بعضها ومعظمها لن يزال مخطوطاً، أما قصائده فكثيرة أهمها القصيدة الفلسفية الدينية التي سماها (وحدة الأمل في علة العلل) وهي مؤلفة من مائة وثمانية وستين بيتاً تبحث عن الحقائق العظيمة التي تميل إلى معرفتها كل نفس. وقد أثبت فيها بالبراهين الدامغة المسبوكة بقالب شعري وجود الخالق وخلود النفس والثواب والعقاب ونظم الوصايا العشر إلخ. اقترحها عليه حضرة شقيقه الخوري بولس. نقتطف من أبياتها ما يحتمله المقام:

كما أن فعل المرء معلول علة كذلك نفس المرء معلول علة
كما أن فعل المرء دل على وجو د نفس كذاك النفس بالكون دلت
فعلتها الرحمن جل جلاله فعنه ومنه ما به قد تحلتِ
وما النفس إلا نفخة معنوية فقال لها الرحمن كوني فكانت
فحلت بهذا الجسم أعني تجسدت وكانت له أبهى وأجمل حلةِ
فلما رأت في الأرض زينة خالق فمالت إلى المخلوق إذ ذاك ضلتِ
فمبدأنا أن الوجود مفضل على عدم من كل وجه وعلةِ

وقال من تخميس لقصيدة رفعها سعادة علي بك آصف مدير الشرقية إلى المغفور له توفيق باشا خديوي مصر إذ ذاك عند افتتاح ترعة الرياح التوفيقي وذلك بعهد وزارة دولتلو رياض باشا:

بعدلك كم بددت عنا مظالما وأكسبت ذا القطر السعيد غنائما
وأدخلت في كل البلاد محاكما كذا نعم التوفيق تحدي مكارما

تجود بها في كل وقت أياديه

سنى الملك يزهو في فخار نجاحه وأمست برغد البسط كل بطاحه
1307هـ 1890م
غدا كله يزهو بفوز فلاحه فم البحر في الرياح صدر افتتاحه
1307هـ 1890م

بفتح معين شارح لمعانيه 1307هـ

وقال من رثاء للعلامة المرحوم أحمد فارس الشدياق اللبناني المتـــوفى ســنة 1887م:

نرى فارس الشدياق عـــالم عصـــره   قضى فلذا الكتاب ضاق بهم صـــدر
(جوائبه) الدنيا بها قـــد تفـــاخرت   كما تزدهى تيهاً (بقـــاهرة) مصـــر

واقترح عليه فتح الله بك النحاس ترجمان قنصل دولة إيـــران الفخيمـــة في الزقازيق نظم تاريخ لضريح حميه بطرس كساب المتوفى سنة 1880م فقال من أبيات:

يا قبر زارك هـــذا اليـــوم كســـاب   فاحرص عليـــه فقـــد حلتـــه آداب
نـــاداه جـــبريل هيـــا للســـعادة إذ   يبغى النعيـــم ولا تفنيـــه أحقـــاب
وقال صبراً فقد أرخت عـــن ثقـــة   لأن بطـــرس للداريـــن كســـــاب

وقال يصف مدينة ملبرن في أسترالية بقصيدة طويلة بديعة مؤلفة من مائـــة وبضعة وخمسين بيتاً وقد وصف جميع غرائبها وتقدمها حتى كأن القارئ يشاهدها. نختار منها وصف قطرها الكهربائية وذلك سنة 1893م:

تلك (الترامات) بالأسواق جاريـــة   من غـــير نـــار ولا خيـــل تمشـــيها
تسري مسافة أميال علـــى عجـــل   من أول البلـــدة العظمـــى لتاليـــها
ليس الصعود عن المجـــرى يؤخرهـــا   أو الـــنزول إلى المجـــرى يقويـــــها
في أي آن وأيـــن رمـــت تدخلـــها   تخرّ طوعـــاً وهـــذا الأمـــر يعنيـــها
فالميل أو ضعفه أو ضعف ضعفـــهما   بالســـعر ليـــس زيـــادات تؤديـــها
هذي اختراعات أهل العلم نشـــهرها   شـــكراً لمبدعـــها ســـقياً لمنشـــيها

ووصف بعض عمرانها:

والبرق أسلاكه لم تحـــص في عـــدد   كذا التليفـــون في بـــاقى نواحيـــها
بخارها امتـــدّ في الأقطـــار أجمعـــها   شرقاً وغرباً شمـــالاً مـــع جنوبيـــها
من مطلع الفجر حتى الفجر معتكـــر   يطوي البطاح ويـــدوي في فيافيـــها
ونورها الغـــاز شمـــس في أشـــعته   يعاقب الشمس مذ تبـــدو تواليـــها
والكهرباء غـــدت منـــه تنـــاصره   على الإنـــارة في بـــاقى ضواحيـــها

فأصبح الليل فيـــها والنـــهار معـــاً   ســيين ليـــس ظـــلام في لياليـــــها

ومنها يصف مصارفها (بنوكتها) التجارية:

فيها مصارف مال جــــل مركزهـــا   أخــــذاً ورداً حســـابات نؤديــــــها

في الأمن والصدق قد تجري معاملـــة   والطفل يعطى تحـــــاويلاً ويمضيــــها

ما ذاك إلا لتدريج الصغــــار علـــى   مبدا التجارة كـــي يســـمو ترقيـــها

ومنها في وصف سباق الخيل:

أما الورى في سباق الخيل قد عزمـــت   في كـــل يـــوم ســـباقاً في براريـــها

والناس حينئذ تبدي الرهــــان علـــى   أيّ يكون مـــن الفرســـان ســـاميها

حتى إذا قرب الوقـــت المعـــين قـــد   تسري الخيول وتجـــري في بواديـــها

تلك الخيول إذا أرخى العنـــان لهـــا   تـــرى نعـــام الفيـــافي لا يجاريـــها

أمامها طرحت بعـــض الحواجـــز في   علـــوّ بـــا ع ونصـــف في مبانيـــها

والخيل في حومـــة الميـــدان جامحـــة   تلك الحواجز لا تلـــوي نواصيـــها

ومنها في وصف تجارها وزراعتها:

ثم التجـــارة ركـــن في تقدمـــــها   من كل صنف شعوب الأرض تهديـــها

تلقى الأنـــام وفـــوداً في بضائعـــهم   من كل صقع بقصد الربح حلوهــــا

مراكب شحنت من كـــل ناحيـــة   لم تحص في عـــدد دومـــاً توافيـــها

إن الزراعـــة أقـــوى مـــن تجارتهـــا   فليس يلقـــى خـــراب في أراضيـــها

معادن الذهب الإبريز قـــد فتحـــت   في كل أرض بها الأمـــوال تجديـــها

لا تقطع الشغل ليلاً والنـــهار معـــاً   من عمق ألفٍ من الأقـــدام تجنيـــها

ومنها في وصف معرضها:

أحسن به معرضـــاً قـــامت بنايتـــه   تعلو ورايات حكم الملـــك تعلوهـــا

يحتاطها الروض والأشجار مع بـــرك   الماء الزلال وطـــير العـــزّ يأويـــها

تلقى بردهته رســـم الملـــوك كـــذا   شخص الحكومة يعطى القوم تنبيـــها

من جنبه قام شخص الملك مبتســـماً   نحـــو الشـــعوب بألفـــاظ يناديـــها

أهلاً وسهلاً بأهل الأرض أجمعها تعلو شؤوناً وبالأرواح نفديها
من بعد ذا قام شخص للزراعة مع سنابل القمح بالأيدي ينقيها
وللمعادن شخص حامل ذهبا يهتز عطفاً ويبدي الكبر والتيها
شخص المعارف مشغول يفكر في عروسة الشعر مع باقي قوافيها
شخص الصنائع يبدي حسن صنعته والكل يهزأ بأتعاب يقاسيها
رايات كل ملوك الأرض قد خفقت كل تشير إلى الأخرى بما فيها
تلقى المعادن أصنافاً برمتها والاختراعات تبدي فضل منشيها
بل فيه ما يبهج الأبصار من تحف أشياء لا تقدر الأفكار تحصيها
نقش وشغل وتزيين وهندسة بل ذي بقايا ألوف كان حاويها
ومعرض العلم يسمو عزة وبها سما المعالي بما فيها يباهيها
فيه الطيور بأشكال محنطة كذا الوحوش بأجناس تحاذيها
صنف النبات وتصوير الزيوت ومجموع الرسوم وكتب العلم يحويها
في كل فن وعلم في جميع لغات الأرض من غربها القاصي لشرقيها
ما بين آلاف كتب قد وقفت على أشعار عنترة العبسي حاميها
أيضاً على كتب لليازجي وكفى في وسطها (مجمع البحرين) يرويها
في أرضه الكرة الأرضية ارتسمت في كبر حجم عقول الناس تسبيها
وقد ترى القوم يومياً بساحته قصد القراءة حباً في معانيها
فيه مدير فمهما شئت تسأله عنه شروحاً بطيب القلب يعطيها
ومعرض الشمع لا شيء يشابهه عدل الحكومة يبديه بعاصيها
كل الجرائم من شمع ممثلة من مبدأ الحكم حتى اليوم يبديها
من سارق كان أو من قاتل أحداً كل الجرائم حق الشرع يتلوها

ومنها في وصف الجرائد:

تلك الجرائد صدق القول تنشره في منهج الحق والأخبار ترويها
غدت لسان عموم القوم أجمعهم تحمي حقوقهم شرعاً وتنبيها
صدق الرواية من أنصار مآربها حرية الفكر من أقوى مباديها
فلا تحابي بوجه زانه شرف وليس تظهر تمليقاً وتمويها

والناس قد أولعـــت فيـــها لتقرأهـــا في كل وقت تراهـــا بـــين أيديـــها

وقال من قصيدة رفعها لسعادة علي بك آصف المومأ إليه لما زار المدرســـة الفرنسية:

ظبي الحما كم بالسهام فتكـــت في هلا ترى قلـــبي الجريـــح فتكتفـــى
فكفاك ما عذبت قلـــبي ولمـــت في طلبي وخنت العهد فيـــه و لم تـــفِ

وقال من قصيدة رفعها للمغفور له توفيق باشا خديوي مصر بلسان المرضـى في مستشفى الزقازيق لما زاره:

صاحت بروج العلى أهـــلاً بمولانـــا فالبؤس زال ويوم الســـعد وافانـــا
ثغر المواطن قـــد لاقـــاك مبتســـماً والقلب قد صار بعد الحزن جذلانـــا
وجودكم قد أرانـــا اليـــوم تعزيـــة لذا المصـــائب والأوجـــاع أنســـانا
أنطقت أخرســـنا قوّمـــت أحدبنـــا مشيت مقعدنـــا فتحـــت عميانـــا

وختمها مؤرخاً بقوله:

والآن أرخـــت كـــلٌ قـــائل علنـــاً فليحـــى توفيـــق والينـــا ومولانـــا
1308هـ

وقال يهنئ عبد الله بك النحاس قنصل دولة إيران الفخيمة في الزقازيق بوسام الأسد والشمس الإيراني من قصيدة:

علا مقامك فوق الشمس والأســـد لذاك حزت وسام الشمس والأســـد

وختمها بقوله مؤرخاً:

والآن حـــررت في تاريخـــه ســـنداً بالعدل حزت وسام الشمس والأسـد
1307هـ

وقدم قصيدة للطيب الذكر البطريرك غريغوريوس يوسف لما كان في مدينـــة زحلة وضمنها أغراضاً بنفسه منها:

من قبل أن تلقـــى ســـناك نواظـــرُ مـــالت إليـــك عقولنـــا وضمـــائرُ
والقلب أضحى هائمـــاً في حبكـــم مـــذ شـــنف الآذان منـــه بشـــائر
والكل أضحى يرتجـــى يـــوم اللقـــا والطرف في تلـــك الليـــالي ســـاهر

حتى بدا بتجلة فتهللت هذي العوالم والأمور ظواهر
إن كان غيري سرّ في تشريفكم فمسرتي أسمى وحظى وافر

وقال يهنئه بالوسام المجيدي الأول العالي الشأن بقصيدة وزع في أوائلها هذه الكلمات (غبطة البطريرك غريغوريوس يوسف الكلي الشرف) ونشرها جريدة الأهرام الغراء منها:

غدت بروج العلى تسعى على قدم بغبطة البطريرك الكامل الشيم
بات نطاق المعالي في دجى فلك وكان مركز خط بين جمعهم

ومنها:

غدا مثيلاً لإيليا بغيرته وأدخل الدين بيت العابدِ الصنم

ومنها:

غزا القلوب فباتت تحت سلطته لا بالصوارم بل باللطف والسلم

وختمها مؤرخاً:

فدم مدى الدهر ما فاه اليراع بكم تاريخ فكره في بدء ومختتم
1888م

وقال يهنئ الطيب الذكر البطريرك بطرس الرابع الجريجيري بارتقائه إلى السدة البطريركية بقصيدة ختمها بهذا التاريخ:

وإن رمت إيضاحاً فأرخ بعزة رقى بطرس بالعدل للبطركية
1898م

وقال يرثيه بقصيدة قال فيها:

بفقدك عم الحزن يا أيها الحبر ففاضت دموع العين واضطرب الفكر

ومنها:

فآمالنا كانت معلقة بكم وكان لنا في حسن طلعتكم بشر

ومنها:

مآثره الدنيا بها تفاخرت بتيه كما قرت بأفضاله مصر
وها قطر سوريا حزين لفقده فكم حل فيه من ندى جوده قطر

وكم فيه من آيات بطرســه الــتي إذا عددت يوماً فليس لهــا حصــر
وزحلة كم أبقى لهــا مــن صنيعــة جميلة ذكــر زانهــا الظــهر والــبر
وروحة كم قد قدرت عظم فضلــه وكان له فيــها التعظــم والفخــر
وكم عظمت دار الســعادة قــدره فمن فيه في يلديز قــد نــثر الــدر

وقال يقرظ جريدة لبنان الغراء من قصيدة:
تجلت لنا (لبنان) مثــل الكواكــب مزينــة مــن حسـنها بعجــائب

ومنها:
فلا زلت يا لبنــان بــالفوز والهنــا ترينا من الأخبــار كــل غرائــب
ولا زال منشــيك اللبيــب ممتعــاً بعز رفيع الشــان عــالي المراتــب
وأرخ بجــد بــل بمجــد وفى بهــا تجلت لنا لبنــان مثــل الكواكــب
1891م

وقال يرثي المرحوم سليم بك تقلا مؤسس جريدة الأهرام الغــراء بقصيــدة منها:
علينا بأسياف المنون ســطا الدهــر فاحرمنا من ليــس يخلفــه العصــر
فيا عين جودي بالبكا بعــد فقــده ويا قلب ذب فاليوم قد عظم الأمــر

ومنها:
وفــاضت ينــابيع البلاغــة لهفــة على جهبذ لم يحو أوصافــه الشــعر
أديــب أريــب لوذعــي مدقــق خبــير بصــير نــاقل عــالم حــبر
فأحيــا لياليــه ببــث فوائــد تعدد في (الأهــرام) أيــده النصــر
وأفنى جميع العمر في طلــب العلــى وفي خدمة العلم الشريف له فخــر

وكتب على رسم فتغرافي متبسم:
ها صورتي يــا آل ودي فــاعلموا شــوقي لرؤيتكــم وربي يعلــم
فتــأكدوا شــوق المحــب لأنهــا لمــا رأتكــم أصبحــت تتبســم

وكان في ليلة أنس فألحّ عليه بعضهم بتناول المدام فارتجل معتذراً:
إذا ســكر العــوالم بــالمدام فســكري بالصبابــة والهيــام

وفرق شاسع ما بين سكرٍ الحميا والمحيا والقوام
فمفعول يكون دوماً بتخدير الدماغ مع العظام
فمر يسكر بخمر ليس يدري كلام الجد من هزل الغلام
وأما من يراقب بالتروي بديع اللطف مع حسن الكلام
فتسكره اللطافة دون ريب ويغنيه الحديث عن المدام

وقال يهنئ حميّ صاحب السعادة ابرهيم باشا نعمان المعلوف برتبة أمير الأمراء التي نالها في أواخر سنة 1906م بقصيدة طويلة منها:

وأنعم بابراهيم باشا وفوزه فقد كان حقاً زينة الوطنية
فهذا ابن نعمان الذي ذاع صيته لأقصى الأقاصي بالولا والحمية
فنعماننا لم يعرف البؤس مطلقاً بل البأس في وقت اشتداد الملمة
وليس له يوم يخصص للعطا فدوماً تراه في أياد سخية
على أصل هذا الشهم قامت فروعه وكانت لهذا الأصل خير شبيهة
بعزم قوي للصوارم قاطعٍ وعزة نفس والوفا والمروة
فإن نال ابرهيم باشا تعطفاً ومن لدن السلطان فاز بنعمة
فذلك من إخلاص حب وخدمة كذا كوفئ العبد الأمين بأجرة
فذا الفخر لم يحصر بشخصك مطلقاً فقد عم كل الأهل في حسن نية
فحق لكل أن يهنئ نفسه ويبدي الدعا في حفظ مولى الرعية

ومنها يخاطب زحلة:

ققي قابلي ما بين حالتك التي مضت قدماً والحالة المدنية
تري الفرق حسياً عظيماً وكلنا به شاعر من غير شك وريبة

وختمها بتاريخ:

وما دمت في التاريخ دوماً فإنني أهنيك يا ابراهيم باشا برتبة

وقال يرثي العلامة الشهير الشيخ ابرهيم اليازجي المتوفى سنة 1906م بقصيدة منها:

فما الراح أقوى من سلافة شعره وقد زانه وشى المعاني البديعة

ولا العود والمزمار أطيب نغمة | على الأذن تلك القوافي الشجية
ولا السيف أمضى من عزيمته التي | بها امتاز في كل الأمور المهمة
وليس لهيب النار حين استعارها | كغيرته العظمى بكل حمية
ولا البرق في الآفاق يسرع ومضه | كخاطر ابراهيم في عظم سرعة
ولا درّ هذا البحر أثمن قيمة | من الدرّ في أقواله العسجدية

إلى أن قال:

وكم من أمور (بالبيان) توضحت | بأجلى بيان في وجوه جلية
وكم (بالضيا) شمس البديع تألقت | فأقصت عن الأفكار حالك ظلمة
له بصر لم تكفه الأرض مطمحاً | لذا كان في الأفلاك واسع خبرة
وشهرته في الشرق جاوزت المدى | فبات له في الغرب أعظم شهرة
ومرصد باريس يقر بفضله | بشخص (فلامريون) في كل عظمة

ومنها:

إليك يعود الفضل في كل جملة | رثاك بها أهل النفوس الأبية
كما الماء من بحر يرى متصاعداً | بخاراً بأنوار اللهيب اللظية
وبعدئذ تلقاه للبحر راجعاً | كما كان من مفعول برد الطبيعة
ومذ فتكت فيك المنون بسهمها | تجسدت الأفكار من ذي المصيبة

ولو لم يأت في هاتين القصيدتين بهذه القافية التي وقع فيها كثير من الجوازات لكانتا خلاصة شعره وعذره انقطاعه عن النظم وهجره مطالعة الشعر العربي لانهماكه بما يكسبه الإثراء وله فوق ذلك كثير من المقاطيع والقصائد البديعة.

أما أخوته فجميعهم من الأدباء، فحليم أفندي له منظومات دقيقة، واسبر أفندي من طلبة مدرسة عين طورة الشهيرة له منظومات أخصها الأبيات الأربعة التاريخية للسعيد الذكر البابا لاون الثالث عشر في يوبيله جمع فيها أحد عشر ألفاً وست مائة تاريخ بطريقة بديعة وهي مطبوعة في مجمع التهانئ. والخوري بولس من طلبة مدرسة القديسة حنة في القدس المعروفة بالصلاحية وهو متضلع بالعلوم الدينية واللغة الفرنسية وله بعض مؤلفات بالعربية والفرنسية لن تزال مخطوطة منها وصف الأراضي المقدسة وصفاً علمياً. وتاريخ أبرشية بانياس وكتاب في الرموز الدينية ومجموعة مواعظ دينية فلسفية بالعربية وبعض عظات بالفرنسية. وبحث في أهم

المسائل العصرية. وأخوه الدكتور ابرهيم أفندي درس الطب في أميركة ونال الشهادات الممتازة وهو خطيب بالافرنسية.



{7}

هيكل أشعيا بدر

هو هيكل بن أشعيا بن موسى بن بدر بن منصور ابن أبي شديد عيسى ابن أبي راجح ابرهيم المعلوف. ولد في كفر عقاب سنة 1811م وتقرب من الأمراء اللمعيين وسكن مدة دومة البترون ثم اتصل بالأمير علي منصور اللمعي من برمانة وأخويه الأميرين أمين وحسن. ولما ذهب الأمير علي المذكور في شهر أيلول سنة 1841 إلى دير القمر ليستقدم أخاه الأمير أميناً من دير القمر للاحتفال بتزويجه في برمانة وكان ذلك في أثناء الموقعة المشهورة بين المسيحيين والدروز كان المترجم مع الأمير أمين فقبض الدروز على الأمير علي قرب بشتفين وأخذوه مع رجاله إلى دار الشيخ ناصيف أبي نكد وسلبوهم أسلحتهم فبقوا في قبضتهم ثلاثة أيام إلى أن حضر السيد عبد الفتاح آغا حمادة متسلم مدينة بيروت فأطلق سراحهم. أما أسلحتهم فأخذها السرعسكر وسلمها إلى أخيه الأمير أمين فارسها وما عنده من الأمتعة مع كاخيته هيكل هذا فركب المذكور هو ونصر بك بن مخايل بك الحويص من الشياح وكان هذا صراف الأمير بشير قاسم الشهابي الملقب بأبي طحين وأحضر معه خزينة الحاكم المذكور فأتيا سوية على طريق البوم في وادي الحمام حتى وصلا الدامور فرمل برج خلدة وهناك شاهد ثمانية عشر قتيلاً من النصارى (كان حنا أبو خاطر[1] قد أخذهم معه من زحلة ونابية لمحاربة الدروز فانكسروا

---

[1] إن اسرة أبي خاطر قدم جدها لطيف من درعة (حوران) إلى الفرزل واشتهر من سلالته يوسف لطيف عندما خرب الحرافشة الفرزل في منتصف القرن السابع عشر وجاء بعضهم زحلة واشتهروا باسم جدهم أبي خاطر وآخرون بقوا باسم لطيف وفي زحلة نشأ منهم عبد الله بن جرجس أبي خاطر اشتهر بحادثة بني القنطار الدروز وبزمن الدولة المصرية وفي كفرسلوان سنة 1841م ثم حنا ابن عمه الذي ذكر الآن واشتهر بحادثة بني القنطار أيضاً وبموقعتي سنة 1844 و1860م ومن أحفاد عبد الله الآن الخطيب البليغ عزتلو ابرهيم بك ابن يوسف أبي خاطر وممن اشتهر منهم في زحلة بمعارفه الدكتور النطاسي رفعتلو أمين بك وله مقالات كثيرة في المجلات المشهورة وهو أحد مؤلفي كتاب (مغني اللبيب عن الطبيب).

وقتلوا عن آخرهم وهو نزل البحر بجواده فسبح به وخلص ناجياً) ولما تقدما إلى صحراء الشويفات رأيا بعبدا قد احترقت[2].

وقد حضر المترجم كثيراً من مواقع لبنان، واشتهر بحسن ذاكرته حتى آخر حياته. وكان يروي الأحاديث بتنسيق جيد واستقراء مع تعيين اليوم والشهر والسنة وبقي صحيح الجسم إلى أن فاجأته المنية صباح الإثنين في 17 تموز 1895م. وكان ربعة إلى الطول رقيق الجسم أبيض اللون عصبي المزاج. وقد رثاه الأستاذ الشاعر البليغ بطرس أفندي مختارة المعلوف بقصيدة قال فيها:

المرء في الدنيا أسير حياته ... وولادة الإنسان بدء مماته

هذا كبير القوم سار أمامنا ... وغداً ترانا نقتفي خطواته

وختمها بقوله:

ولئن قضى هذا الفقيد فذكره ... متكفل أبداً برد حياته

ابن أخيه عيسى أفندي طنوس أشعيا

هو عيسى بن طنوس بن أشعيا بن موسى بن بدر بن منصور ابن أبي شديد عيسى ابن ابرهيم المعلوف. ولد في كفر عقاب في 6 آذار سنة 1857م وكان والده طنوس مقتنياً أملاكاً واسعة في قرية كفردان من قضاء بعلبك فساعده بإدارتها ثم تعاطى بعض الأعمال التجارية في قضاء بعلبك ولبنان ولا سيما الحرير الذي ابتنى

---

[2] كان من بني المعلوف في هذه الموقعة نحو مائة وخمسين فارساً في مقدمتهم شبلي المعلوف كما أشرنا بترجمته في الصفحة 305 وكان النصارى المجتمعون من المتن وزحلة وبلاد بعلبك أكثر من عشرة آلاف نسمة فلما وصلوا بعبدة مكثوا فيها وذهب حنا أبو خاطر برجاله ليستكشف عسكر الدروز فالتقاهم قرب خلدة وراء صحراء الشويفات فجرى له ما جرى كما مر ثم عاد إليهم فأخبرهم بكثرة عساكر خصومهم فباتوا ليلتهم في مكامنهم. وفي اليوم التالي ذهب شبلي المذكور بأنسبائه ومعه يوسف الشنتيري من بكفية والأمير عبد الله شديد مراد من فالوغة فلما عبروا نهر الغدير بين بعبدة وكفر شيمة التقوا بالدروز ونشب القتال بينهم فأظهر هؤلاء الثلاثة من البسالة ما يذكر وتخلف عنهم باقي العسكر فضايقهم الدروز ثم أقبل لنجدتهم المرحوم بطرس كرم بخمس مائة مقاتل إلى بئر الوروار حيث كان الدروز بقيادة خطار بك العماد وانضم إليهم عسكر النصارى الذي كان في بعبدة فكانت موقعة هائلة انكسر فيها عسكر الدروز وذهب النصارى إلى أنطلياس غانمين وبعد بضعة أيام جرت موقعة أخرى في ذلك المكان انكسر فيها النصارى ومما يذكر أن طنوس بن ميخائيل الخوري المعلوف من فرع أبي عيسى من كفر عقاب ويونان عقل المعلوف منها من فرع أبي مدلج ثبتا في مكانهما وحرضا العسكر على القتال فلم يثبت غيرهما أما طنوس فأدركه بعضهم وقتله لأنه كان شيخاً طاعناً في السن ويونان تنكر ودخل بين عسكر الدروز ثم فر ولحق بعسكر النصارى.

له معملاً خاصاً في محلة الغبيط إلى شرقي كفر عقاب واشتهر حريره بجودته ولـــن يزال إلى اليوم يدار باسمه واسم أولاده ونصب شيخ صلح علي قريته بمدة المغفور له واصه باشا متصرف لبنان سنة 1891م ولن يزال إلى الآن مهتماً بنفع بلدته وله بـــين قومه مزايا حسنة وسداد رأي ودقة نظر ولا سيما في إدارة الأعمال.

❖❖❖

{8}

سيادة الإيكونوموس الأب يوسف حنا فارس

هو يوسف بن حنا بن فارس بن منعم بن أبي يوسف حنا بن أبي شديد بـــن عيسى بن ابرهيم المعلوف ولد في زبوغة في 3 ت2 سنة 1846م وتعلم مبادئ القراءة والعلوم في دير القديس سمعان العمودي حتى الثانية والعشرين من عمره، فانتدبـــه للانتظام في سلك الكهنوت الطيب الذكر المطران أغابيوس الرياشي مطران بـيروت وجبيل سنة 1868م وسامه شماساً سنة 1869م في الدير المومأ إليه. و لم يلبث أن رقـله قساً في السنة ذاتها يوم عيد القديس نيقولاوس في كنيسة سيدة الخلاص بمدرســـة عين القش قرب بكفية التي أنشأها لطائفته وصار وكيل المدرسة ومناظراً عموميـــاً على الطلبة فاكتسب حب مؤسسها ورئيسها وأساتذتها ولا سيما العلامة المرحـــوم الشيخ ابرهيم اليازجي الذي كان مدرساً فيها فهنأه يوم سيامته قساً بقصيدة بليغـــة منها:

نـــال القسوســـية شماســـــنا كـــالزهر قـــد كلـــل بـــــالزهر
هـــو النفيـــس الــــذات لكنـــه زاد بهـــا فخـــراً علـــى فخـــر

وكان قائماً بأعماله المدرسية بنشاط وغيرة. وفي العطلة السنوية ينتدبه أسـقفه المومأ إليه لفض المشاكل بين رعيته فيطوف القرى قائماً بما عهد إليه وهـــو يعـظ ويرشد ويقيم الرياضات الروحية، نخص من ذلك فضه للخلاف الذي حدث بـــين طائفتي الروم الأرثوذكسيين والكاثوليكيين في دومة البترون وكان قد وقع قتيـــل بداعي فتح طريق لكنيستها، فأزال النفرة بين الطائفتين وأثنى على غيرة المرحـــوم يوسف بك بشير الذي عاونه وأخذ بيده فمدت الطريق وهدمت بعض الحوانيـــت برضى واتفاق من الفريقين، فاكتسب المترجم منزلة في عيون أعيـــان الطـــائفتين واتفقوا على شكره.

وبعد وفاة أسقفه المطران أغابيوس الآنف الذكر استقدمه غبطة المطوب الذكر البطريرك غريغوريوس يوسف إليه وسلمه بعض أعمال في مدرسته البطريركية في بيروت ووكل إليه تدريس بعض حلقاتها العلمية فبقي فيها أربع سنوات مكتسبا ثقة غبطته وعمدتها. ولما استلم زمام كرسي بيروت الطيب الذكر المطران ملاتيوس الفكاك ألحّ باسترجاعه رئيساً إلى دير القديس سمعان العمودي وسلمه النيابة العامة في لبنان من مثل الملاحظة على تحسين أوقاف الكرسي وترميمها فبذل الجهد في التحسين والإصلاح وجدد كثيراً من العقارات ورمم تسعة عشر بيتاً كانت متداعية للسقوط وبنى أربعة بيوت جديدة وحسن العقارات في زبوغة ووادي الكرم وقد كافأه برتبة الإيكونوموس الرفيعة. ولما ترقى إلى الأسقفية المشار إليها سيادة الحبر الغيور أثناسيوس صوايا رفع منزلته وأعز إليه أن يبني القسم الشرقي من الدير على طرز جديد كما مر في الصفحة 202 فأرخته بقولي:

بنى أثناسيوس آثار دير على أس الفضيلة والسعود
فمهما رُدّد التاريخ لبت شفاعة مار سمعان العمودي

أخوه الياس أفندي

ولد في زبوغة (لبنان) في آذار سنة 1858م ولما ترعرع دخل مدرسة عين القش فدرس العلوم على المرحومين العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي ونقولا بك توما المحامي المشهور في مصر. ثم أتم دروسه في المدرسة البطريركية في بيروت وأتقن اللغة الفرنسية وتعاطى التجارة في القاهرة والإسكندرية بعهد المغفور له اسمعيل باشا. وفي أثناء الثورة العرابية لحقه(ق) خسارة من الحريق والنهب مثل سواه، فترك مصر وعاد إلى سورية، ثم لم يلبث أن هاجر إلى أوسترالية سنة 1886م. وسنة 1888م جاء باريس وشهد معرضها العام سنة 1889م وتعاطى فيه بعض الأشغال، وفي أثناء ذلك تعرف بالآنسة الودة كريمة المسيو موريه (Mourier) من أسرة شريفة في جنوبي فرنسة ووالدها ترأس بلدية التور (Le Thor) مدة 35 سنة، ونال وسام جوقة الشرف من رتبة أرفيسيه، وذلك لما زار نابليون الثالث جنوبي فرنسة سنة 1866م فاقترن بها، وسكن ضواحي باريس كما مر في الصفحة 290. وكانت البائنة (الدوطة) عقارات واسعة فأدارها باجتهاد ومال إلى الزراعة مع تعاطيه الكومسيون وانتظم في سلك أعضاء الجمعية الزراعية الفرنسية واخترع علاجاً للدودة المعروفة

(ق) جاءت هكذا، والأصح لحقته (المحقق).

بالفيلوكسيرة بواسطة الارتجاج الكهربائي وعرضه على الجمعية الزراعية المذكورة والأمل معقود بنجاحه. وله منزلة لدى رؤساء جمهورية فرنسة ووزرائها ومشاهيرها. وقد رزئ بفقد عقيلته في شهر حزيران سنة 1904م عن 28 ربيعاً تاركة له ذكرين اسمهما رينه (Rene) ولد سنة 1890 وجورج سنة 1892م، وكانت أديبة فاضلة.

❖❖❖

{9}

قبلان أفندي ناضر

هو قبلان بن داود بن مخايل بن أبي ناضر بطرس بن أبي شديد عيسى بن ابرهيم المعلوف. وكان جده مخايل في كفر عقاب واشتهر بأصالة رأيه وجودة خطه. ثم انتقل إلى دومة البترون في أوائل القرن التاسع عشر ونبغ هناك من أولاده داود الذي تقرب من الأمراء اللمعيين وأقيم وكيلاً لهم. وكان شديد البأس جسوراً فصيحاً جميل الطلعة فولد له قبلان هذا في دومة في 18 ت1 سنة 1856م. ولما توفي والده بالهواء الأصفر في القطر المصري سنة 1865م طلبه من والدته صديق والده الحميم الخواجة الياس وردة في مدينة طرابلس الشام، فاعتنى به محافظاً على الإخاء القديم. وفي بدء سنة 1872م سعى لدى الطيبي الذكر صفرونيوس النجار مطران طرابلس الشام وما يليها وغفرئيل شاتيلا مطران بيروت وجبيل الأرثوذكسيين أن يرسل المترجم بواسطة المغفور له فرنكو باشا متصرف لبنان إلى المكتب الشاهاني في الآستانة العلية. ولما كان وقت قبول الطلبة قد انقضى أمر المتصرف المومأ إليه أن يرسل إلى المدرسة الوطنية التي أنشأها العلامة المرحوم بطرس البستاني[1] في بيروت

---

[1] أصل أسرة البستاني من جبلة التي مر وصفها في الصفحة 73 قرب اللاذقية. جاء جدها إلى ظهر صفراء في عكار فبقرقاشة من أعمال جبة بشراي وفي هذه نشأ أبو محفوظ البستاني فتركها سنة 1560م هو وولده محفوظ وأخوته الثلثة وقصدوا دير القمر وبقي أحدهم في قرية غادير من أعمال كسروان وامتد نسله إلى صربة وساحل بيروت. ومحفوظ رجع إلى ظهر صفراء في عكار وبقي نسله فيها منسوباً إليه. أما أبو محفوظ وأخوته فتوطنوا في دير القمر وتكاثروا. وفي أوائل القرن الثامن عشر انتقل بعضهم إلى مزرعة الدلهمية من إقليم الخروب (في جزين لبنان) ثم إلى مزرعة تجاورها تسمى الدبية، فعمروها وانتشروا في ضواحيها وانتقل بعضهم إلى بيروت. ومن مشاهيرهم الطيبا الذكر المطران عبد الله أسقف صور وصيدا المتوفى سنة 1866م وخلفه المطران بطرس المتوفى سنة 1899م، وقد اشتهرا بدرايتهما وآدابهما وألف المطران بطرس (تاريخ الخزان) لم يزل مخطوطاً. ومنهم العلامتان بطرس وولده سليم منشئا دائرة المعارف ومجلة الجنان ومؤلفا الكتب المفيدة المشهورة توفي الأول سنة 1883م والثاني سنة 1884م. ومنهم العلامتان صديقاي سليمان أفندي معرّب الإلياذة ومتمم الدائرة وواضع كثير من المؤلفات المفيدة ولا سيما تاريخ العرب المطول وهو مشهور بطول باعة

سنة 1863م فدخل حلقاتها وترقى باجتهاده إلى العليا منها في أثناء السنة المدرسية. وهكذا صرف ثلاث سنوات مكباً على التحصيل فدرس التركية والعربية وبعض الفرنسية والعلوم الأخرى، وأتقن الخط العربي حتى كان مدرساً له وهو طالب. فسرّ به المتصرف المشار إليه وعزم على إرساله إلى المكتب الشاهاني فحالت المنية دون قصده. ولما خلفه المغفور له رستم باشا أعاد المترجم إلى المدرسة الوطنية سنة أخرى فحصل شهادتها وكتب في بعض الدوائر المتصرفية ثم وكل إليه المطران غفرائيل المومأ إليه الكتابة في ديوانه الأسقفي وبعض الأعمال في أدياره. وفي مدة المغفور له واصه باشا كان كاتباً في دائرة الحقوق الاستئنافية ثم تعاطى فن المحاماة والتجارة وأنشأ المدرسة الوطنية في مسقط رأسه سنة 1895م وخصص قسماً منها داخلياً وكانت دروسها التركية والعربية وبعض اللغات الأخرى والعلوم بإدارة وطنية الأستاذ داود أفندي بشير. وقد استلفتت هذه المدرسة أنظار حضرة صاحب الدولة نعوم باشا متصرف لبنان إذ ذاك ومستشار نظارة الخارجية الجليلة الآن فشملها بعين عنايته ونشط المترجم مراراً كثيرة واستأذن له براتب أستاذ اللغة العثمانية فيها يدفع كل سنة من الآستانة العلية فضلاً عن تنشيط السادة الأساقفة والأعيان في بيروت ولبنان فبقيت بضع سنوات تبث روح حب الدولة العلية في قلوب طلبتها وتثقف عقولهم إلى أن قضت الأحوال المالية بقفل أبوابها حتى الآن فحبذا لو مدت يد المساعدة لإعادتها.



{10}

رستم أفندي داود كنعان

هو رستم بن داود بن كنعان بن شبلي بن أبي هاشم كنعان بن يزبك ابن أبي شديد عيسى بن ابرهيم المعلوف. ولد في قرية شليفة من أعمال قضاء بعلبك في سورية في أول شهر حزيران سنة 1863م فتلقى مبادئ العلوم وأكبّ على المطالعة فحصل نصيباً من المعارف وكان والده المرحوم داود ذكي الفؤاد قوي المحفوظ

في العلوم وإتقانه الكثير من اللغات، والأستاذ عبد الله أفندي الشاعر اللغوي الذي تخرج عليه كثير من الناشئة السورية في أشهر مدارس بيروت، وله مؤلفات وتصحيحات وشروح. ومن أبناء بطرس المذكور الأحياء عزتلو نجيب بك الذي خدم الحكومة وكل هؤلاء نشأوا في الدبية. أما الذين في برج البراجنة فنشأ منهم المرحوم الخوري يوسف ظاهر رئيس الديوان الأسقفي في بيروت وكاتب جريدة البشير ومؤلف بعض الكتب منها معجم إيطالي عربي توفي سنة 1894 عن نحو ستين سنة وكثير غيرهم.

ساهراً على تربية بنيه فنشأ المترجم على حب الأدب والصدق. وسنة 1890م هاجر إلى قارة أوسترالية ونال من التجارة فيها حظاً، وتوفق إلى ابتياع أسهم في مناجم الفضة التي في بروكنهل واكتسب ثقة التجار فاعتمدوا على آرائه وأحبوه لصدقه وغيرته ولذلك انتخب شيخاً في الكنيسة البرسبيتيرية وعاد بعد أن صرف هنالك ست سنوات إلى مسقط رأسه وقد حصل أموالاً تقوم بأوده فكان قدوة حسنة بآدابه وحبه للدولة العلية وكثيراً ما يقول: «إن مال الدولة مقدس» و«إن من يقصر في إرضاء ملكه فمن المحال أن يرضي خالقه سبحانه وتعالى» وفي الجملة فإنه أصبح مثالاً للفضل والصدق والغيرة على مصالح مواطنيه حتى كانوا يعتمدون عليه ويفتخرون بحسن مبادئه وقد بث فيهم روح النهضة العلمية فتلقى بعضهم العلوم في أشهر مدارس سورية وكان أكثرهم من النوابغ وسنة 1902م سافر إلى جوهانسبورغ من أعمال الترنسفال[1] في جنوبي أفريقية وهو الآن من التجار المشهورين المحبوبين وقد استقدم إليه أخوته وبعض أنسبائه فنالوا بواسطته نجاحاً ومن أقواله التي تدل على تواضعه وقد قرن ذلك بالفعل قوله: لم أخذل إلا وأنا على طريق الكبرياء.



{11}

الدكتور مخايل أفندي خليل بدر

هو مخايل بن خليل بن ابرهيم بن نجم بن موسى بن بدر بن منصور بن أبي شديد عيسى بن ابرهيم المعلوف. ولد في شليفة الآنفة الذكر سنة 1882م وهو وحيد لأبويه فاعتنيا بتربيته فتلقى مبادئ العلوم في مسقط رأسه ولما توفي والده سنة 1898م قضت عليه الحالة أن يحصل ما يقوم بأود والدته وشقيقتيه الصغيرتين فاشتغل بالزراعة مثل والده فلم يستطع حمل مشقاتها أكثر من سنة لضعف بنيته وطموح

[1] معنى الترنسفال نهر الفال وموقعها في مشارف أفريقية الجنوبية بين الدرجتين 22 و29 من العرض الجنوبي علوها عن سطح البحر نحو 1400 متر ومساحتها 292 ألف كيلومتر مربع وذلك أكثر من نصف مساحة فرنسة وسكانها أكثر من أربع مائة ألف نفس وأشهرهم البويرس (Boers) ومعنى اسمهم بالهولندية الفلاحون قدموا من هولندة إلى رأس الرجاء الصالح سنة 1652م وامتزج بهم بعض الفرنسيين فاستعمروا تلك الجهات واتصلوا إلى حدود نهر أورنج سنة 1786م وتوغلوا في البلاد وأطلق عليهم اسم الأفريكندر وفي هذه البلاد مناجم الذهب التي اكتشفت سنة 1877م وسنة 1887م دخلها هاري ستوبن الإنكليزي ورفقاؤه لتعدين مناجم الذهب فابتنوا مدينة جوهنسبرغ هذه وهي من أشهر المدن الغنية بالذهب وسنة 1884م اكتشفت مناجم الألماس وأغنى المدن بهذه المناجم كمبرلي من مستعمرة أورنج المتصلة بالترنسفال ومساحة هذه المستعمرة نحو مائة وسبعة آلاف كيلومتر مربع وعدد سكانها مائة وخمسون ألفاً.

نفسه إلى تحصيل العلوم وذلك بترغيب ابن عمه رستم أفندي الذي مرت ترجمته فحضه على دخول المدرسة الكلية الأميركية. في بيروت ووعده بإمداده بالمال لأن ذلك كان المانع الوحيد الذي حال بينه وبين تحصيله المعارف فأمال ابن عمه إلى مساعدته مرسلي الأميركان في زحلة ولا سيما جناب العلامة الدكتور فرنكلن هسكس فتيسر له دخولها سنة 1899م وهو في السابعة عشرة من سنيه فأتم دروس الدائرة الاستعدادية بمدة سنتين واحتاج إلى المال فدرّس سنة واحدة حتى جمع يسيراً منه. فعاد في السنة التالية إلى الدائرة العلمية وأكب على التحصيل بنشاط غير مفضل فرعاً على آخر ولكنه كان أميل إلى العلوم الرياضية لأنها تتوقف على الحكم العقلي لا الذاكرة ثم نزع به شوقه إلى تلقي فن الطب وكان أهم عائق يمنعه عن تحصيله ضيق ذات يده لأن المرسلين المومأ إليهم لا يساعدون من أراد أن يدرس الطب. وكان وطنيه رستم المذكور قد برح وطنه إلى الترنسفال. فاستسهل تلك الصعوبة واتكل على المولى فدخل الفرع الطبي سنة 1903م وبذل الجهد في التحصيل برغبة عالماً أنه ينفق من عقاراته التي اضطر إلى بيع بعضها. وكان يدرس في القسم الاستعدادي ويحصل بعض النفقات وهكذا أطاق الامتحان النهائي بحضرة العمدة الشاهانية الطبية ونال الشهادة المؤذنة ببراعته وامتاز خصوصاً بالباثولوجية والجراحة والتشريح وأمراض العين والكيمياء وعاد إلى مسقط رأسه فاشتهر بمعالجة الأمراض الرئوية والحميات والأمراض الجلدية. وفي أوائل أيار من السنة الحالية 1907م انتدبته عمدة الكلية المشار إليها طبيباً للمستشفى الملكي في الخرطوم فبرح سورية إلى السودان وباشر عمله بنشاط.